منتدى مكتبة الاسكندرية

الكسندر دوماس الكبير

عِقْدُ المَلِكَة

تعريب

فيليب عطاالله

الجزء الأول

Bibliotheca Alexandrina
0149714

دارُ الجيل
بيروت

عِقْدُ المَلِكَة

(١)

كتب للمعرِّب

١ - زوجات الفراعنة
٢ - السلطان الأحمر (عبد الحميد)
٣ - حياة بوذا
٤ - كابيتان (رواية)
٥ - نبوخذنصر (ملك بابل)
٦ - عقد الملكة - الجزء الأول
٧ - عقد الملكة - الجزء الثاني
٨ - بطرس الأكبر (قيصر روسيا الشهير)
٩ - كليوباتره (رواية)

الكسندر دوماس الكبير

عِقدُ الملكة

تعريب

فيليب عطاالله

الجزء الأول

دار الجيل

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

نبيل مسنّ وسفرجي هرم

★

في الأيام الأولى من شهر نيسان ١٧٨٤ وفي الساعة الثالثة والربع تقريباً من الظهيرة، فرغ الماريشال المسنّ ريشاليو من تضميخ حاجبيه بالعطر ودفع بيده المرآة التي كان يحملها له حاجبه الجديد، وهزّ رأسه بغطرسة وقال:

- يكفي، بديع أنا الآن!

ثم نهض من أريكته ونفض بإصبعه ذرّات البودرة البيضاء التي تساقطت من كشّة شعره المستعار على سرواله المخمليّ الأزرق بلون السماء، وانفتل مرتين في حجرة هندامه، ومطّ رسغيه وعرقوب ساقيه، وأمر حاجبه قائلا:

- جئني بالسفرجي.

فحضر السفرجي بعد خمس دقائق مرتدياً بزّة الاحتفال.

عندئذ أسبغ الماريشال على سحنته الرصانة التي يفرضها الموقف وقال:

- أعتقد أنك أعددتَ للغداء وليمة طيبة؟

- طبعاً يا مولاي.

- لقد أنبأتُك بلائحة المدعويين، أليس كذلك؟

- وقد حفظت عددهم بأمانة: انهم تسعة أشخاص يا مولاي.

- شتّان ما بين شخص وآخر يا رجل!

- نعم يا مولاي، ولكن ...

فقاطع الماريشال السفرجي بحركة تنمُّ عن فروغ الصبر والأبّهة وقال:

- ولكن ... هذا ليس بجواب! ويؤسفني أن أقول لك إن هذه الكلمة، التي سمعتها مراراً منذ ثمانٍ وثمانين سنة، تكون دائماً مقدّمة لحماقة من الحماقات.

- مولاي!

- أخبرني أولاً أي ساعة عيّنتَ للغداء؟

- البورجوازيون يا مولاي يتغدون في الساعة الثانية، والمحامون في الساعة الثالثة، والنبلاء في الرابعة.

- وأنا أيها الرجل؟

– إن مولاي سيتغدى اليوم في الساعة الخامسة .

– أُف! أُف! الساعة الخامسة!

– نعم يا مولاي ، مثل الملك .

– ولماذا مثل الملك ؟

– لأن اللائحة التي شرّفني مولاي بدفعها إليّ انما تضمُّ إسم ملك.

– كلا يا رجل ، إنك مخطئ ، فضيوفي اليوم كلهم نبلاء عاديون .

– لا شك أن مولاي يطارح خادمه المتواضع المزاح ، وإني أشكره على هذا الشرف الذي يوليني إيّاه . ولكن الكونت دي هاغا أحد مدعوّي مولاي هو ...

– أجل ؟

– الكونت دي هاغا هو ملك .

– ولكنني لا أعرف ملكا بهذا الإسم .

فحنى السفرجي قامته وقال متلعثماً :

– ليعذرني مولاي ، فقد كنت أظن ... كنت أفترض ...

– ليس من وظيفتك أن تظن ! ولا من واجبك أن تفترض ! كل ما هو مطلوب منك هو ان تقرأ أوامري التي أطرحها عليك .

فلوى السفرجي قامته ثانية باحترام لا يضاهيه سوى ما للملوك السائدين، فيما تابع الماريشال المسن قوله :

- فما دام ضيوفي على الغداء مجرّد نبلاء، عليك إذن أن تغذّيني في الساعة العادية، أي في الساعة الرابعة .

عندما سمع السفرجي هذا الأمر اكمدَّ وجهه وشعر كأن حكم الاعدام يُتلى عليه . وإذا به يصفرّ وينحني على الفور ثم ينتصب ويقول بشجاعة من ألمَّ به اليأس :

- لتكن مشيئة الله ! لكن مولاي لن يتغدى إلا في الساعة الخامسة .

فانتصبت قامة الماريشال وهتف قائلاً :

- لماذا، وكيف ؟

- لأنه يستحيل على مولاي من الوجهة المادية أن يتغدى قبل هذا الوقت .

فهزّ الماريشال المسن باختيال رأسه الذي ما زال فتيّاً وقال :

- لك في خدمتي على ما أظن عشرون سنة ؟

- واحدة وعشرون يا مولاي، وشهر واسبوعان .

فزمّ الماريشال شفتيه الرقيقتين وقطّب حاجبه المصبوغ وأجاب :

- حسناً ! فعلى هذه الواحدة والعشرين والشهر والاسبوعين لن تضيف يوماً واحداً ولا ساعة واحدة . هل

سمعت؟ وابتداءً من هذا المساء عليك أن تبحث عن سيّد آخر، فأنا لا أقبل أن تُلفَظَ في بيتي كلمة «يستحيل»، ولا أريد في مثل سني أن أهدر الوقت في تعلّمها.

فانحنى السفرجي مرة ثالثة وقال:

– في هذا المساء أُخلي بيت مولاي، ولكن خدمتي إياه ستجري حتى اللحظة الأخيرة وفقا للمناسب.

قال السفرجي هذا وتراجع خطوتين نحو الباب، فهتف به الماريشال:

– ماذا تقصد بكلمة مناسب؟ إعلم يا رجل أن الأشياء هنا يجب أن تتمّ وفقاً لما يناسبني، هذا هو العُرْف! فأنا يناسبني أن اتغدى في الساعة الرابعة، ولا يناسبني أن اتغدى في الساعة الخامسة.

فقال السفرجي بلهجة جافة:

– لقد خدمت يا سيدي الماريشال سمو الأمير دي سوبيز خازناً، وسموَّ الأمير الكردينال لويس دي روهان قهرماناً. عند الأول كان جلالة ملك فرنسا المتوفى يتغدى مرة كل سنة، وعند الثاني كان جلالة امبراطور النمسا يتغدى مرة كل شهر. فأنا أتقن إذن معاملة الملوك. وكان جلالة الملك لويس الخامس عشر يطلق على نفسه عند الأمير دي سوبيز اسم البارون دي غونيسه، وجلالة الامبراطور جوزيف يُسمَّى عند

الأمير دي روهان الكونت دي باكنشتاين، دون أن يحطّ ذلك من قدر العاهلين. كذلك فان مولاي الماريشال يستقبل اليوم على مائدته شخصاً يدعى الكونت دي هاغا الذي هو ملك السويد. لذا سأغادر قصر مولاي الماريشال هذا المساء، إذا لم يعامل الكونت دي هاغا معاملة الملوك.

– هذا بالضبط ما أستميت لأردعك عنه أيها الرجل العنيد. فالكونت دي هاغا يرغب رغبة صارمة في أن يتنكر خلف قناع كثيف. يا الله! إنني اعرف غروركم الأحمق يا أهل الفوطة والشوكة والسكين، فأنتم لا تكرمون تيجان الملوك ولكنكم تمجدون أنفسكم على حساب دنانيرنا الذهبية.

فقال السفرجي بلهجة خشنة:

– لا أحسب مولاي يحدثني جَدّاً عن الدراهم.

فقال الماريشال بشبه اتضاع:

– آه، كلا! كلا! الدراهم، يا للشيطان! من ذا يحدّثك عن الدراهم؟ أرجوك ألا تغيّر الموضوع، وأكرر عليك أن تتغاضى عن حقيقة وجود ملك هنا.

– ولكن من تظنني يا سيدي الماريشال؟ أتعتقد أنني أتصرف تصرفاً أعمى؟ كلا، لن يندّ عني ما يشير الى وجود ملك.

– لا تتشبث إذن برأيك ، وغدّني في الساعة الرابعة .

– كلا يا سيّدي الماريشال لأن ما أنتظره لا يصل في الساعة الرابعة .

– وماذا عساك تنتظر ؟ لعلها سمكة شبيهة بسمكة السيد ڤاتيل[1] .

فشرع السفرجي يتمتم سارداً :

– السيد ڤاتيل ، السيد ڤاتيل ...

– ماذا ، هل صدمك التشبيه ؟

– كلا ، ولكن ضربة السيف المشؤومة التي اخترق بها السيد ڤاتيل جسمه جعلته ينال الخلود .

– هه ! هه ! أوتعتقد ان زميلك نال المجد بثمن بخس ؟

– كلا يا مولاي ، ولكن كثيرين من الممتهنين مهنتنا يبزّونه ألماً ، وينهشهم عذاب واتضاع هما أشدّ قسوة من طعنة السيف ، غير أنهم لا يخلدون .

– زه زه ! ألا تعلم أيها الرجل أن الخلود لا يناله إلا من انتسب الى الاكاديمية أو قضى نحبه ؟

---

١ – فاتيل، هو سفرجي مشهور كان يقوم بخدمة الأمير كونديه الكبير، ولقد انتحر بأن ثقب جسمه بالسيف عندما وجد ان الوليمة التي أعدّها على شرف بعض أصدقاء سيده كان ينقصها نوع من السمك البحري.

- ما دام الأمر كذلك يا مولاي ، فمن الأفضل ان اظلَّ حيّاً لكي أزاول عملي . أما الموت فلن أموت ، بل سأقوم بمهمتي كما كان يفعل ڤاتيل الذي لو قُدّر للأمير دي كونديه أن يصبر عليه ويستمهله نصف ساعة فقط لما مات هو الآخر.

- اوه ! أستشفّ وراءك أعجوبة ما ، أردتَ إخفاءها ببراعة .

- ما من اعجوبة في الأمر يا مولاي .

- فماذا تنتظر إذن ؟

- أيريد مولاي أن أبوح له ؟

- يا للعجب ! طبعاً ، فالفضول يملأ نفسي .

- حسناً يا مولاي ، إنني انتظر قنينة نبيذ .

- قنينة نبيذ ! أَوضح يا رجل فإنك تثير فيَّ اهتماماً شديداً .

- إسمع يا مولاي ما هي الحكاية : إن جلالة ملك السويد ، عفواً ، قصدت سيادة الكونت دي هاغا ، لا يشرب الا نبيذ «توكيه» .

- عجباً ! أأدركتني الفاقة حتى اصبح قَبْوي لا يحتوي نبيذ «توكيه» ؟ من الواجب اذن أن أطرد خازني شرَّ طردة !

- كلا يا مولاي ، عندك تقريباً ستون قنينة .

– أتعتقد إذن أن الكونت دي هاغا سيشرب إحدى وستين قنينة على غدائه ؟

– صبراً يا مولاي ، عندما زار سيدي الكونت دي هاغا فرنسا للمرة الأولى كان لا يزال أميرا ، وقد تناول طعامه عند الملك الراحل الذي كان جلالة امبراطور النمسا قد وهبه إثنتي عشرة قنينة من نبيذ «توكيه». ثمَّ ألا تعلم أن السحب الأول من نبيذ «توكيه» إنما يُخصُّ بأقبية الأباطرة ، وأن الملوك أنفسهم لا يذوقون من هذا النبيذ إلا ما يتكرّم به عليهم جلالة الأمبراطور ؟

– بلى أعلم ذلك .

– إذن من تلك القناني الاثنتي عشرة التي احتسى منها سمو الأمير ووجدها لذيذة لم يبق اليوم سوى قنينتين .

– أوه ! أوه !

– واحدة منها ما تزال في اقبية الملك لويس السادس عشر .

– والثانية ؟

– فابتسم السفرجي ابتسامة ظافرة لأنه شعر بدنوّ لحظة الانتصار بعد ذلك الصراع الطويل الشاق الذي جابه به الماريشال ، وأسرع الى القول :

– القنينة الثانية يا مولاي ... أجل ، القنينة الثانية سُرقت !

- ومن سرقها؟

- سطا عليها صديقي خازن الملك الراحل، وقد كان لي في عنقه خدمات كثيرة.

- وقد وهبك إيّاها.

فقال السفرجي مزهوّاً:

- نعم يا مولاي، حقاً ما تقول.

- وماذا فعلتَ بها؟

- ودعتها في قبو سيدي يا مولاي.

- ومن كان سيدك في ذلك الحين؟

- مولاي الكردينال الأمير لويس دي روهان.

- يا الله! في مدينة ستراسبورغ؟

- بل في مدينة سافرن.

فهتف الماريشال المسن:

- وقد أرسلتَ من يجلبها لأجلي؟

- نعم لأجلك يا مولاي ... (أجاب بها السفرجي بلهجة من يريد ان يقول: نعم لأجلك يا ناكر الجميل).

فأمسك الدوق دي ريشاليو بيد الخادم الشيخ وقال:

- أسألك المغفرة ايها الخادم الأمين، فأنت ملك السفرجيين على الاطلاق.

فهزّ هذا رأسه وكتفيه بحركة لا يُفقه معناها وأجاب :

- كنت تطردني منذ لحظات !

- بل سأنقدك ثمن القنينة ماية ريال .

- على أن يضيف اليها مولاي الماريشال مايةً ثانية تكاليف السفر ، فيكلفه ذلك مايتي ريال ، يعترف مولاي أنه مبلغ زهيد ...

- لقد اعترفت يا سيدي ، وسأضاعف مرتبك منذ اليوم .

- لا داعي لهذا يا مولاي ، لأنني ما فعلت سوى واجبي .

- ومتى تصل قنينة المابة ريال ؟

- ليحكم مولاي بنفسه إذا كنت قد هدرتُ الوقت : في أي يوم أمرني بتحضير الغداء ؟

- أظن ذلك منذ ثلاثة أيام .

- يحتاج الفارس المجدُّ على فرسه أربعاً وعشرين ساعة للذهاب ، ومثلها للإياب .

- بقي لديك أربع وعشرون ساعة يا أمير السفرجيين ، فماذا فعلت بها ؟

- آسف يا مولاي ، فقد أضعتها . لأن الفكرة لم تخطر لي إلا في اليوم التالي لليوم الذي سلمتني فيه لائحة ضيوفك . فاذا أحصى مولاي الوقت على هذا الأساس ، وجد ان الساعة المفروضة لحضور القنينة هي الخامسة تماماً .

– كيف ! حتى الآن ليست القنينة هنا ؟

– كلا يا مولاي .

– يا الله ! وهب أن زميلك في سافرن يكن لسيده الأمير دي روهان الاخلاص الذي تكنه لي انت ؟

– ماذا يا مولاي ؟

– أي هَبْه يرفض إعطاء القنينة كما كنت ترفض انت ؟

– أرفض أنا يا مولاي ؟

– أجل ، ما كنت لتعطي قنينة كهذه لو وجدت في قبوي .

– مغفرة يا مولاى : إذا جاء زميل لي يتعهد خدمة ملك وطلب أجود قنينة لديك لوهبته إياها في الحال .

فتأفف الماريشال وقد ارتسمت على فمه تكشيرة خفيفة ، وتابع السفرجي يقول :

– إن عوننا للآخرين ، يضمن لنا عونهم يا مولاي .

فتنهد الماريشال وقال :

– لقد دخل بعض الاطمئنان إلى قلبي ، ولكنني أخشى صدفة مشؤومة .

– أية صدفة يا مولاي ؟

– أن تنكسر القنينة .

- أوه يا مولاي ! لم يحدث أبداً أن رجلاً كسر قنينة نبيذ يبلغ ثمنها ألفين من الليرات .

- قد أكون مخطئاً ، دع هذا وقل لي الآن : في أية ساعة يصل ساعيك ؟

- في الرابعة تماماً .

فقال الماريشال متصلباً برأيه حروناً كبغل من قشتالة :

- إذن ما الذي يحول دون تناولنا الطعام في الساعة الرابعة ؟

- سيحتاج نبيذي يا مولاي إلى ساعة لكي يستريح ، وهذا بفضل عملية خاصة ابتكرتها بنفسي ولولاها لكان يلزمه ثلاثة أيام .

فشعر الماريشال انه غُلب على أمره مرة ثانية ولم يسعه إلا أن يرفع التحية لسفرجيّه الذي تابع يقول :

- ثم إنّ ضيوف مولاي لن يصلوا قبل الساعة الرابعة والنصف لعلمهم أنه سيكون لهم شرف الغداء مع سيدي الكونت دي هاغا .

- هذه إذن عقبة ثانية !

- طبعاً يا مولاي . أليس ضيوفك هم السيد الكونت دي لونيه ، والسيدة الكونتس دي بارّي ، والسيد دي لا بيروز ،

والسيد دي فاڤرا، والسيد دي كوندورسيه، والسيد دي كاغليوسترو، والسيد دي تاڤرني؟

- يعني ماذا؟

- لنستعرضهم بالترتيب يا مولاي: يأتي السيد دي لونيه من الباستيل، ويستوجب وصوله من باريس الى هنا ثلاث ساعات بسبب الجليد على الطرقات.

- أجل، ولكن انطلاقه من هناك يكون عند تقديم الغداء للمساجين، أي عند الظهر، وأنا أعرف هذا عن خبرة.

- عفوا يا مولاي، منذ مغادرتكم الباستيل تغير موعد الغداء فيها فأصبح في الساعة الواحدة.

- أشكرك يا سيدي، فالمرء يتعلم دائماً أشياء جديدة تفوته، أكمل.

- وتأتي السيدة دي بارّي من «لوسيانة» في منحدر دائب وجليد مقيم.

- أوه! ولكن هذا لا يمنعها من المحافظة على الموعد بدقة، فهي منذ أصبحت عشيقة دوق فقط لم تعد تتصرف كملكة إلا مع جماعة البارونات. ثم اودّ ان تفهم بدورك يا سيدي هذا الشيء: كنت أصرّ على الغداء باكراً بسبب السيد دي لابيروز الذي هو على سفر في هذا المساء ولا يرغب قط في التأخر.

- السيد دي لابيروز يا مولاي هو في حضرة الملك، يتحدث وجلالته عن الجغرافيا والكوزموغرافيا، ولن يفسح له جلالة الملك مجال مغادرة القصر باكرا.

- هذا محتمل ...

- بل هذا أكيد يا مولاي. وهذا أيضاً وضع السيد دي فاڤرا الذي هو الآن في قصر الكونت دي بروفانس يحدّثه عن مسرحية السيد كارون دي بومارشيه.

- مسرحية زواج فيغارو؟

- نعم يا مولاي.

- أتعلم أنك واسع الاطلاع يا سيدي؟

- ذلك أنني ولوع بالقراءة في أوقات الفراغ يا مولاي.

- إلا أن السيد دي كوندورسيه، بصفته ضالعاً بالرياضة والهندسة، قد يضبط ميعاده بدقة.

- نعم، ولكنه قد يتوغل في عمل حسابي، وعندما يفرغ منه يجد نفسه متأخراً نصف ساعة. أما الكونت دي كاغليوسترو فهو غريب عن باريس التي يسكنها منذ وقت قصير، وقد يتأخر لعلمه الناقص بمجرى الحياة في فرساي.

فقال الماريشال:

- رعاك الله! سردت أسماء ضيوفي ما عدا تاڤرني، وقد

فعلت هذا بترتيب يعجز عنه هوميروس وخادمي المرحوم المسكين رافيه .

فحنى السفرجي قامته وقال :

- ما تكلمت عن السيد دي تافرني لأنه صديق قديم وأحسبه ولا ريب يحافظ على التقاليد . هؤلاء هم يا مولاي ضيوفك الثمانية لهذا المساء ، أليس كذلك ؟

- بالضبط . وأين تجعلنا نتناول الغداء يا سيدي ؟

- في قاعة الطعام الكبيرة يا مولاي .

- ولكننا نجلّد فيها من البرد يا رجل .

- إنها تسخن منذ ثلاثة أيام يا مولاي ، وقد جعلت حرارتها ثماني عشرة درجة .

- أحسنت صنعاً ! ولكن ها هي الساعة تدق النصف .

وألقى الماريشال ببصره على الساعة وقال :

- انها الساعة الرابعة والنصف .

- نعم يا مولاي ، وهوذا جواد يدخل ساحة القصر ... إنها قنينتي ، قنينة نبيذ توكيه .

وعاد السفرجي إلى مطبخه بينما عاد الماريشال المسن للوقوف أمام مرآته وهو يقول :

- تُرى ، هل يُقدّر لي خدمة كهذه طيلة عشرين سنة أخرى ؟

فإذا بصوت ضاحك يقاطع الدوق عند نظرته الأولى الى المرآة ويقول :

– عشرون سنة أخرى يا عزيزي الماريشال ! إني اتمنّاها لك ، ولكن بعد عشرين سنة أصبح عجوزاً أجرّ خلفي الستين .

فاستدار الماريشال وهتف قائلاً :

– أنت أيتها الكونتس ! أنت جئتِ الأولى ! يا الله ! كم أنت دائمة الجمال والنضارة !

– بل قل إني مجلّدة أيها الدوق .

– أرجوك ، مرّي الى قاعة الشتاء .

– أوه ! لنجلس معاً نحن الاثنين أيها الماريشال ؟

– بل نحن الثلاثة . أجاب بهذا صوت مرتعش. فهتف الماريشال :

– تافري !

ثم همس في أذن الكونتس قائلاً :

– إنه كالطاعون يقطع ساعات الفرح .

– قطعه الله كم هو سمج !

تمتمت بهذا مدام دي بارّي وهي تضحك ملءَ شدقيها .

ثم عبر الثلاثة إلى غرفة مجاورة .

السيد دي لا بيروز

★

في اللحظة ذاتها أخذ جري العربات الأصم على البلاط المغلّف بثلج مندوف ينبئ الماريشال بتوافد ضيوفه. وبعد قليل، وبفضل مهارة السفرجي ودقته، كان تسعة مدعوّين يحتلون مقاعدهم حول مائدة بيضاوية الشكل في قاعة الطعام. وكان يعمل هناك تسعة خدم صامتين كالظلال، سريعين دون اندفاع، مجاملين دون لجاجة وإزعاج، يزقّون زقّاً على البسط، وينسلّون بين المدعوين دون مسّ أذرعهم أو صدم أرائكهم المدفونة في الفرو الذي يغرق فيه المدعوّون حتى عراقيبهم.

هذا ما أخذ يتذوّقه ضيوف الماريشال مع الدفء اللذيذ ورائحة اللحم الزكية وجُرَع النبيذ العاطرة وسقسقة الأحاديث الأولى التي تَلَت الحساء.

ولم يكن يدخل من الخارج أية جلبة لأن درف النوافذ كانت ضابطة وكذلك لم يكن يندّ من الداخل أي ضجيج سوى ما يصدر عن المدعوين لأن الصحون كانت تغادر أماكنها دون حس، والأواني الفضية تنتقل من الخزائن دون

رنين، والسفرجي يوزّع أوامره بحركة عينيه دون أن ينبس وإن تمتمة ببنت شفة.

لذلك شعر المدعوّون في غضون عشر دقائق أنهم في خلوة تامة داخل هذه القاعة، إذ كان لا بدّ لمثل اولئك الخدم والعبيد الدقيقي الحركة واللمس من أن يكونوا صمّاً لا يستقرّ في أذهانهم شيء من الأحاديث التي يسمعون.

وكان السيد دي ريشاليو هو أول من قطع ذلك الصمت الاحتفالي الذي استمر مدة تناول الحساء، إذ قال لجاره الجالس عن يمينه:

– ألا يشرب سيدي الكونت النبيذ؟

اما الرجل الذي وُجّهت اليه هذه الكلمات فقد كان في الثامنة والثلاثين من عمره، أشقر الشعر، قصير القامة، مرتفع الكتفين، تنعكس الكآبة غالباً من عينيه الزرقاوين زرقة صافية واللتين تنبلجان أحياناً عن شعاع من الحيوية. وقد كانت سمة النبلاء محفورة على جبينه العريض المقدام بخطوط بارزة. وقد أجاب عن سؤال الدوق قائلاً:

– لا أشرب شيئاً غير الماء أيها الماريشال.

– إلا في قصر الملك لويس الخامس عشر، فقد نلت شرف الغداء مع سيدي الكونت في قصر جلالته حيث تنازل سيدي الكونت فشرب النبيذ.

– إنك تعيد الى ذهني ذكريات رائعة يا سيدي الماريشال ؛ كان ذلك عام ١٧٧١، وقد حسوتُ يومئذ من نبيذ توكيه الامبراطوري.

فقال ريشاليو وهو يحني قامته :

– الشبيه بهذا النبيذ الذي يتشرف سفرجيَّ بسكبه الآن في كوبكم يا سيدي الكونت .

– فرفع الكونت « دي هاغا » كوبه الى مستوى عينه ونظر إلى الشراب على ضوء الشموع فإذا هو يتوهج في الكوب مثل زمرّد سائل، فقال عندئذ :

– هذا صحيح يا سيدي الماريشال، شكراً لك .

لفظ الكونت كلمة « شكراً » بصوت نبيل لطيف تكهرب له الحاضرون فنهضوا دفعة واحدة وهتفوا قائلين :

– ليعش جلالة الملك !

فقال الكونت دي هاغا :

– هذا صحيح، ليعش جلالة ملك فرنسا ! ألستَ من رأيي يا سيد دي لابيروز ؟

فأجاب القبطان دمثاً مبجّلا بلهجة من اعتاد مخاطبة الرؤوس المتوجة :

– غادرت الملك منذ ساعة، وقد غمرني عطفه إلى درجة تجعلني اهتف عالياً « ليعش الملك » . ولكن بعد ساعة سآخذ

طريقي الى البحر حيث ينتظرني مركبان وضعهما جلالته تحت تصرفي ، لذلك اسمحوا لي ، بعد مغادرة بلادي ، ان اهتف « ليعش ملك آخر » لشدّ ما احب ان أضع نفسي في خدمته لو لم يكن لي سيد كريم .

ثم رفع السيد دي لابيروز كأسه وشرب بتواضع نخب الكونت دي هاغا . فقالت مدام دي باري الجالسة عن شمال الماريشال :

– جميعنا مستعدّون لشرب هذا النخب ، ولكن على رئيس السنّ بيننا ، كما يقال في الندوة النيابية ، أن يبدأ ذلك .

فقال الماريشال وهو يضحك وينظر إلى صديقه المسن تافرني :

– هذا الخطاب موجه لك أم لي يا تافرني ؟

فأجاب شخص آخر يجلس وجهاً لوجه أمام الماريشال دي ريشاليو :

– لا أعتقد .

فألقى الكونت دي هاغا نظرة حادّة على المتحدث وقال :

– ماذا لا تعتقد يا سيد كاغليوسترو ؟

فأجاب كاغليوسترو وهو يحني قامته :

– لا أعتقد يا سيدي الكونت أن الماريشال دي ريشاليو هو رئيس السن بيننا .

فقال الماريشال :

- حسناً تقول ! أرأيت أنك أنت رئيس السن يا تافرني ؟

فأجاب الشيخ المسن :

- هذا غير صحيح ، إني اصغر منك بثماني سنوات ، فقد ولدت عام ١٧٠٤ .

فقال الماريشال :

- يا للشرير ! إنه يفضح سنيَّ الثمانية والثمانين.

فسأل السيد دي كوندورسيه :

- أحقاً يا سيدي الدوق أن عمرك ثمان وثمانون سنة ؟

- أوه ، يا الهي ! طبعاً . إنه حساب سهل لا يحتاج إلى عالم في الجبر من وزنك يا سيدي المركيز . فأنا انتمي الى العصر السالف الذي يُدعى العصر الكبير ، إذ إني قد ولدتُ عام ١٦٩٦، يا له من تاريخ !

فقال دي لونيه :

- هذا مستحيل !

- لو كان والدك هنا يا سيدي حاكم الباستيل، لما قال مستحيل ، لأنني كنت طالباً داخلياً في كليته عام ١٧١٤ .

ولكن الكونت دي فاڤرا قال :

– ان رئيس السن بيننا، وأعلن هذا بصراحة، هو هذا النبيذ، نبيذ توكيه، الذي يسكبه الآن الكونت دي هاغا في كوبه.

فأجاب الكونت:

– إنك على حق يا سيد دي فافْرا، هذا النبيذ عمره مئة وعشرون سنة، وهو يتشرف بأن نشربه على صحة الملك.

– مهلاً أيها السادة، اني اعترض! قال هذا كاغليوسترو رافعاً فوق المائدة رأسه العريض الذي يفيض نشاطاً وذكاء.

فهتف المدعوّون بصوت واحد:

– تعترض على أقدمية نبيذ توكيه!

فأجاب الكونت بهدوء:

– طبعاً، لأنني أنا ختمت عليه في قنينته.

– أنت؟

– نعم أنا. وذلك في يوم النصر الذي أحرزه مونتيكوكولي على الأتراك سنة ١٦٦٤.

فاستقبلت عاصفة من الضحك هذه الكلمات التي تلفظ بها كاغليوسترو بوقار لا غبار عليه. ثم قالت مدام دي باري:

– على هذا الحساب يجاوز عمرك مئة وثلاثين سنة، لأنني أمنحك علاوة على عمر هذا النبيذ عشر سنوات لكي يتسنى لك وضعه في مثل هذه القنينة الكبيرة.

- كان عمري أكثر من عشر سنوات يوم قمت بهذه العملية يا سيدتي ، لأن امبراطور النمسا ولأني في الأيام التالية شرف تهنئة القائد الظافر مونتيكوكولي الذي ثأر بانتصاره في « سان غوثار » لهزيمة « اسباك » في « اسكلافونيا » يوم هزم الجاحدون بشراسة اصدقائي ورفاقي في السلاح الأمبرياليين سنة ١٥٣٦ .

فقال الكونت دي هاغا وهو يقلد كاغليوسترو ببرودته :

- لا شك أن عمر حضرة السيد كان عشر سنوات على الأقل في ذلك العهد ، لأنه حضر بشخصه تلك المعركة الشهيرة .

فانحنى كاغليوسترو وقال :

- كانت هزيمة نكراء يا سيدي الكونت !

فقال كوندورسيه مبتسماً :

- ولكنها كانت أقل شراسة من هزيمة كريسي .

فابتسم كاغليوسترو بدوره وقال :

- حقا ذلك ، فقد كانت هزيمة كريسي أشد هولاً لأن المهزوم فيها لم يكن جيشا وإنما فرنسا . لكن يجب أن نعترف بأن هذه الهزيمة لم تكن نصراً شرعياً عادلاً نالته انكلترا ، ذلك أن الملك ادوار كان يملك المدافع ، وهذا ما كان يجهله فيليب دي ڤالوا جهلاً تاماً ، او بالأحرى كان لا يريد تصديقه بالرغم

من أنني أخبرته أنني رأيت بعينيّ الاثنتين تلك القطع الأربع من المدفعية التي اشتراها الملك ادوار من سكان البندقية .

فقالت مدام دي بارّي : ها ، ها ! وهل عرفت فيليب دي ڤالوا ؟

- كان لي الشرف يا سيدتي بأن أكون أحد نبلائه الخمسة الذين واكبوه عند مغادرته ساحة القتال . وكنت قد قدمتُ إلى فرنسا بصحبة ملك « بوهيميا » المسكين الذي كان شيخاً أعمى والذي انتحر ساعة أخبروه بضياع كل شيء .

هنا قال دي لابيروز : يا الله ! لا يمكنك أن تصدق يا سيدي كم أنا آسف لعدم حضورك معركة « اكسيوم » بدلا من معركة كريسي .

- ولماذا يا سيدي ؟

- لأنك كنت أوضحت لي أوصافاً عن البحر ما زالت مبهمة لدي بالرغم من وصف بلوتارك الرائع له .

- اية اوصاف تريد يا سيدي ؟ يسعدني أن اقدّم لك نفعاً ما .

- أحضرت اذن تلك المعركة ؟

- كلا يا سيدي ، فقد كنت يومئذ في مصر مكلفاً من قبل الملكة كليوباتره لتنظيم مكتبة الاسكندرية بوصفي خبيراً اكثر من سواي ، إذ إنني عرفت شخصياً خيرة المؤلفين القدامى .

هنا هتفت الكونتس دي باري : رأيت الملكة كليوباتره يا سيد كاغليوسترو ؟

– كما أراك تماماً يا سيدتي .

– وهل كانت جميلة كما يروون عنها ؟

– انك تعلمين يا سيدتي الكونتس أن الجمال نسبيّ ، فهذه الملكة الساحرة في مصر، لو كانت في باريس لما كانت اكثر من صبية دلِعة محبوبة .

– لا تقل سوءاً عن الصبايا الدلعات يا سيدي الكونت .

– معاذ الله !

– إذن كانت كليوباتره ...

– صغيرة ، نحيفة القامة ، مرحة ، حادة الذهن ، ذات عينين لوزيتين ، وأنف إغريقي ، وأسنان كاللؤلؤ ، ويد تشبه يدك يا سيدتي وتصلح للصولجان . ألا انظري هذه الماسة التي أهدتني إياها ، لقد وردتها من أخيها بطليموس ، وكانت تضعها في إبهامها ...

فزعقت مدام دي باري منذهلة : في ابهامها !

– نعم ، كان ذلك موضة مصرية ، وترين الآن أنها تكاد لا تدخل في خنصري .

ثم نزع الخاتم من خنصره وقدمه للسيدة دي باري . فكان

يحتوي ماسة رائعة، كبيرة الحجم، صافية المنظر، لا يقل ثمنها عن الثلاثين أو الأربعين الف فرنك.

دارت الماسة حول المائدة وعادت الى كاغليوسترو الذي وضعها في خنصره بهدوء وهو يقول:

- أراكم غير مصدّقين، وشككم هذا هو ما قضيت عمري في محاربته. فقد رفض فيليب دي ڤالوا أن يصدقني عندما نصحته بأن يكتب معاهدة صلح مع خصمه ادوار، ورفضت كليوباتره أن تصدقني عندما تنبأت لها باندحار انطونيو، ورفض أهل طروادة أن يصدقوني عندما حدثتهم عن الحصان الخشبي بقولي: «كاساندر امرأة ملهمة فاسمعوا صوت كاساندر».

فقالت مدام دي باري وهي لا تتمالك نفسها عن الضحك: بالحقيقة لم أر رجلاً مثلك يجمع بين الرصانة والتسلية.

فانحنى كاغليوسترو وقال: أؤكد لك يا سيدتي أن جوناتاس كان مسلياً اكثر مني. يا للرفيق الطريف! عندما قتله شاوول كدت أجن.

فقال الدوق دي ريشاليو:

- أتعلم أنك إذا أكملت حديثك على هذا المنوال سوف تجعل هذا المسكين تافرني يصاب بمسّ من الجنون؟ إنه يخشى

الموت إلى درجة أنه يحدق بك بعينين مرعوبتين ظنّاً منه أنك رجل خالد. قل لنا بصراحة، هل أنت خالد؟ نعم أم لا؟

- خالد؟ لا أعلم. جلّ ما أعلمه هو أنني استطيع تأكيد شيء واحد.

- وما هو هذا الشيء؟ سأل هذا تافرني الذي كان اكثر السامعين ظمأً لسماع الكونت دي كاغليوسترو.

- هذا الشيء هو أنني شاهدت جميع الأشياء، ورافقت جميع الأشخاص الذين ذكرتهم الآن.

- وهل عرفت مونتيكوكولي؟

- كما أعرفك يا سيد دي فافرا، بل معرفة حميمة اكثر من معرفتي لك، لأنني تشرفت برؤيتك للمرة الثانية أو الثالثة، بينما عشتُ أكثر من سنة تحت خيمة ذلك القائد الماهر الذي نتحدّث عنه.

- وعرفت أيضاً فيليب دي فالوا؟

- يشرفني أن أقول لك نعم يا سيد دي كوندورسيه. ولكنه عندما عاد الى باريس، غادرتُ فرنسا عائداً إلى بوهيميا.

- وكليوباتره؟

- نعم يا سيدتي الكونتس، عرفت كليوباتره. فقد قلت

لك إن عينيها كانتا سوداوين كعينيك، وعنقها جميلاً كعنقك تقريبا.

- ولكنك أيها الكونت لا تعرف كيف هو عنقي.

- إنه شبيه بعنق كاسّاندر يا سيدتي. ولكي تتمّ المقارنة، فقد كان لها مثلك، أو بالأحرى لك مثلها، علامة سوداء فوق ضلعك السادس من جهة اليسار.

- أوه! إن معرفتك الصائبة تجعلني أظن أنك ساحر أيها الكونت!

فضحك الماريشال دي ريشاليو وقال: كلا أيتها المركيزة، كلا! أنا حدّثته عن هذا الشيء.

- وكيف عرفت ذلك؟

فمطّ الماريشال شفتيه وقال: إنه سرّ عائلي.

فقالت مدام دي بارّي: زه! زه! حقاً أيها الماريشال، يجب أن أصبغ شفتيّ بطبقتين من الحمرة عندما أدخل إلى منزلك، لأنك لا تحفظ السر.

ثم استدارت نحو كاغليوسترو وقالت:

- قل الحقيقة يا سيدي: هل تملك سرّ تجديد الشباب؟ فإن عمرك ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، ولكنك تبدو دون الأربعين.

- نعم يا سيدتي، إنني أملك سرّ تجديد الشباب.

– بالله عليك ! جدّد لي شبابي إذن .

– لا جدوى لهذا معك يا سيدتي ، لأن سنّ المرء الحقيقية هي السنّ التي يبدو فيها ، وأنتِ لا تتعدّى سنّك الثلاثين .

– إنها مغازلة أقبلها منك .

– كلا يا سيدتي ! إنه الواقع .

– إشرح ماذا تعني .

– هذا أمر سهل . فقد طبَّقتِ طريقتي التي أملك سرّها .

– وكيف هذا ؟

– لقد شربت من الإكسير الذي أملك .

– أنا ؟

– نعم أنت يا سيدتي . وأظنّ أنك لم تنسي ذلك .

– أوه ! يا لهذا الخبر !

– أوتذكرين أيتها الكونتس منزلاً يقع في شارع سان كلود ؟ أوتذكرين أنك قصدت ذلك المنزل لأمر يتعلق بالسيد دي سارتين ؟ أوتذكرين أنك أدّيت هناك خدمة لصديق لي يدعى جوزف بلسامو ؟ وأن جوزف بلسامو أهداك قمقماً من الأكسير ووصف لك أن تتناولي منه ثلاث نقط كل صباح ؟ أوتذكرين أنك مارست الوصفة حتى السنة الماضية التي نضب فيها ذلك القمقم ؟ إذا كنت لا تذكرين كل ذلك أيتها الكونتس ، فهذا ليس بنسيان ، إنه نكران الجميل .

– أوه يا سيد كاغليوسترو ! إنك تحدثني عن أشياء ...

– لا يعرفها أحد سواي ، أعرف هذا جيدا . ولكن كيف يكون المرء ساحراً إذا لم يعرف أسرار الآخرين ؟

– وهل كان جوزف بلسامو مثلك يعرف سرَّ هذا الاكسير العجيب ؟

– كلا يا سيدتي . ولكنه كان من خيرة أصدقائي ، وقد أهديته منه ثلاثة أو أربعة قماقم .

– وما زال يحتفظ ببعضها حتى الآن ؟

– لست أدري . فقد انقطع خبر جوزف بلسامو المسكين منذ ثلاث سنين . وكانت آخر مرة التقيته فيها ، في أميركا على ضفاف نهر الاوهايو ، حيث كان يقود حملة إلى « الجبال الصخرية » . وسمعت منذ ذلك الحين أنه قضى نحبه هناك .

فقال عندئذ الماريشال :

– كفاك أيها الكونت ، كفاك مغازلة ! وهات حدّثنا عن سرّ إكسيرك العجيب .

ثم سأل الكونت دي هاغا قائلا : أهو جَدٌّ ما تقول أيها السيد ؟

– إنه عين الجدّ يا جلالة مولاي . عفواً ! قصدت يا سيدي الكونت .

قالها كاغليوسترو وانحنى بطريقة تدلّ على أن الخطأ الذي ارتكبه قد نجم عن إرادته.

فقال الماريشال: إذن مدام دي بارّي ليست مسنّة، وهي لا تحتاج إلى تجديد شبابها؟

- أبداً. وإني أقول الحق.

- إذن أقدّم لك شخصاً آخر. ما قولك بصديقي تافرني، ألا يبدو أنه معاصر لبلاطس البنطي؟ أم لعله توغّل في شيخوخته ولم يعد ينفعه شيء؟

- كلا! كلا!

فهتف ريشاليو قائلاً: إذا جدّدت شباب هذا الرجل، يا عزيزي الكونت، فإني أعلنك تلميذاً للحكيم ماديوس.

- أتريد حقاً ذلك؟

وجّه كاغليوسترو سؤاله هذا إلى صاحب المنزل وهو يجيل عينيه في الحاضرين الذين أشاروا جميعهم أن نعم. ثمّ سأل تافرني:

- وأنت أيضاً تريد ذلك يا سيّد تافرني؟

- تباً لك! أنا أريد أكثر من أي شخص آخر.

- حسناً! هذا أمر سهل.

ثم أدخل كاغليوسترو إصبعيه في جيبه وأخرج منها قنينة صغيرة الزوايا، سكب منها في قدح بلوريّ صافٍ بعض نقط

من السائل الذي تحتويه . ثم أضاف إلى هذه النقط الثلاث نصف قدح من الشمبانيا المبرّدة ، وناول الشراب المعدّ بهذه الطريقة إلى البارون دي تافرني .

وكانت أعين الحاضرين كلها تتّبع أدقّ حركاته ، وكانت أفواههم مشدوهة . أما البارون فقد تناول الكأس ورفعها إلى شفتيه ، ولكنه بدا مترددا ...

وعندما رأى الحاضرون تردده هذا ، شرعوا يضحكون بصخب ، حتى بادره كاغليوسترو قائلاً :

– أسرع أيها البارون وإلا فاتك هذا الشراب الذي تساوي كل نقطة منه ماية ذهبيّة .

فقال ريشاليو مازحاً : يا للشيطان ! هذا شراب يختلف عن نبيذ توكيه .

فسأل البارون وهو يكاد يرتجف : يجب إذن أن أشرب ؟

– إشرب يا سيدي ، أو ناول الكاس لآخر ، حتى يفيد هذا الاكسير أحداً .

– هاته لي أنا . قالها الدوق دي ريشاليو مادّاً يده .

إلا أن البارون أخذ يشمّ كأسه ، فإذا برائحته الحادّة الذكية ، ولونه الورديّ الجميل يحملانه على ابتلاع الشراب السحريّ الذي يحتويه .

وسرعان ما خيّل اليه أن قشعريرة اعترته وأخذت تهزّ جسمه وتدفع دمه الشائخ البطيء النائم في عروقه نحو جلده، من أخمص قدميه حتى قلبه. واذا بجلده المتغضّن يتمدّد، وبعينيه المغلفتين بأهدابه المرتخية تشتدّان دون إرادته، ويتسع بؤبؤهما وتنعكس فيه لمعة الحياة، واذا بيديه المرتجفتين تتصلّدان، وبصوته يتصلّب، وبركبتيه تستعيدان مرونة أجمل أيام الشباب، وبكِليتيه تنتشيان، وكأنّي بذلك الشراب، وهو ينحدر إلى الجوف، قد جدّد حيوية ذلك الجسم من الطرف الى الطرف الآخر.

ولقد صرخ المدعوّون من الدهشة والذهول، والاعجاب خصوصاً، عندما شاهدوا تافرني الذي كان يتضوّر جوعاً منذ لحظات ويأكل بطرف لثته، قد تناول صحناً وسكينا وأخذ ينهش اللحم ويقضم عظام الحجال، كأن أسنان شاب في العشرين قد نبتت في فكّيه.

وظل يأكل ويضحك ويشرب ويصرخ من الفرح طوال نصف ساعة كان الحاضرون أثناءها ينظرون اليه وقد عقد الذهول ألسنتهم. ثم إذا به يخمد رويداً رويداً كقنديل نضب منه الزيت، وقد عادت الأخاديد السابقة إلى جبينه، والتحفت مقلتاه غشاوة جديدة واربدّتا اربدادا. وشعر أنه فقد

تذوّق الطعام والشراب، فغادرته شهيته، وانحنى ظهره، وعادت ركبتاه ترتجفان. فتنهّد بأسف وصاح:

- أَوّاه!

فقال الحاضرون: ماذا؟

فصاح تافرني بحسرة:

- وداعاً أيها الشباب الذي ما طال!

وتنهّد من أعماق صدره تنهيدة رافقتها دمعتان اندفعتا إلى عينيه وبلّلتا جفونه.

فخرجت تنهدات مماثلة من صدور الحاضرين، بطريقة بديهية، وقد هزّهم منظر هذا الشيخ الحزين الذي ما كاد يستعيد شبابه حتى عاد فسقط في شيخوخة أشدّ وأضنى.

أما كاغليوسترو فقال:

- الأمر بغاية السهولة أيها السادة، فأنا لم أسكب للبارون سوى خمس وثلاثين نقطة من إكسير الحياة، لذلك فهو لم يستعد شبابه سوى خمس وثلاثين دقيقة.

فغمغم الشيخ قائلاً بنهم:

- أسكب لي بعد أيها الكونت، أسكب لي بعد!

فأجاب كاغليوسترو:

- كلا يا سيدي، لأن تجربة ثانية قد تقضي عليك.

وكانت مدام دي بارّي الوحيدة بين الحضور التي تعرف قيمة ذلك الاكسير، وقد تابعت تفاصيل هذا المشهد بفضول شديد، فكانت عيناها تتبعان مجرى انسياب الشباب والحياة في عروق الشيخ، فتضحك وتصفق وكأن النظر وحده يعيد إليها الشباب.

ولطالما حدثتها نفسها، عندما رأت الشراب يبلغ قمة النجاح، بان تلقي بنفسها على يد كاغليوسترو ولتنزع منه قمقم إكسير الحياة. ولكنها بعد أن رأت الشيخوخة تعاود تافرني بسرعة شديدة، قالت بلهجة حزينة:

- واحسرتاه! كل شيء باطل، وكل شيء سراب! فهذا السرّ العجيب لم يدم أكثر من خمس وثلاثين دقيقة.

فأردف الكونت دي هاغا قائلاً:

- إذن من أراد تجديد شبابه سنتين، عليه أن يجرع نهراً! فشرع كلٌّ يضحك. فقال كوندورسيه:

- كلا! الحساب أبسط من هذا: بمعدّل خمس وثلاثين دقيقة مقابل خمس وثلاثين نقطة، يحتاج المرء الى خمسماية وخمسة وعشرين ألفاً وستماية نقطة إذا أراد تجديد شبابه سنة واحدة.

فقال لابيروز: أي أنه يحتاج إلى فيضان.

فقالت مدام دي بارّي : ومع ذلك كان الأمر مختلفاً بالنسبة لي ، لأن القنينة الصغيرة التي أهداني إيّاها صديقك جوزف بلسامو ، وحجمها يبلغ أربعة أضعاف هذا القمقم ، كانت كافية لايقاف مجرى الزمن لديّ طوال عشر سنوات .

– أجل يا سيدتي ، أنت وحدك تلمسين بإصبعك الواقع المذهل . فالرجل الذي توغّل كثيراً في سنّ الشيخوخة يحتاج الى مثل هذه الكمية لكي يحصل على نتيجة فعّالة سريعة . امّا المرأة التي كانت في سنّ الثلاثين مثلك يا سيدتي ، والرجل الذي كان في سنّ الأربعين مثلي أنا ، يوم باشرنا احتساء هذا الإكسير ، إن مثل هذه المرأة وهذا الرجل اللذين ما زالت أيامهما تزخر بالشباب ، يحتاجان فقط إلى احتساء عشر نقط منه في كل مرحلة من مراحل التقهقر في السنّ . والذي يحتسي منه يستقرّ له إلى الأبد عهد الشباب والحياة والجاذبية والنشاط .

فسأل الكونت دي هاغا قائلاً : ماذا تعني بمراحل التقهقر في السنّ ؟

– إنها مراحل النمو الطبيعية يا سيّدي الكونت . ففي الطبيعة تنمو قوى الإنسان حتى الخامسة والثلاثين ، وتتوقف عن النموّ حتى الأربعين . عندئذ تبدأ بالتقهقر حتى الخمسين ، ولكن بطريقة غير ملحوظة . وبعد الخمسين تقصر مراحل

النمو، ثم تنحدر بسرعة حتى الموت. إلا أن الحضارة، وما تلحقه بالجسم من إفراط وهمّ ومرض، تجعل النموّ يتوقف عند الثلاثين، فيبدأ التقهقر في الخامسة والثلاثين. لذلك يتوجب على رجل الطبيعة أو المدينة ان يستغل الطبيعة في مرحلة جمودها، فيحول دون حركة تقهقرها. ومن كان يملك مثلي سرّ هذا الإكسير، يعلم كيف يحكّم هجومه، فيفاجئ الطبيعة ويوقفها ساعة تكون في حركة تراجعها. هذا الرجل يعيش مثلي في شباب دائم، أو على الأقل في شباب كافٍ يلائم طبيعة عمله في هذا العالم.

بيد أن الكونتس هتفت قائلة:

– بالله عليك، لماذا لم تختر لنفسك سنّ العشرين بدل الأربعين، ما دام اختيار السنّ التي تريد ملك يديك؟

فابتسم كاغليوسترو وقال:

– لأنه يوافقني يا سيدتي الكونتس أن أكون دائماً في الأربعين، أي رجلاً سليماً كاملاً، لا فتى ناقصاً في العشرين.

– أوه! أوه! ماذا تقول!

– بالطبع يا سيدتي، الرجل في العشرين يحوز إعجاب النساء اللواتي هنّ في الثلاثين، ولكن الرجل في الأربعين

يسيطر على النساء اللواتي هنّ في العشرين، وعلى الرجال الذين هم في الستّين.

فقالت الكونتس: إني أُسلّم معك. على كل حال، كيف يمكن أن نبني الجدل على مثل حي؟

فقال تافرني بلهجة مؤثرة: إذن أنا قضي عليّ، لأني احتسيت من الإكسير بعد فوات الأوان.

فأجابه دي لابيروز قائلاً بسذاجة وبصراحته كبحار:

- السيد دي ريشاليو كان أمهر منك، فقد سمعت دائماً أن الماريشال إنما يملك وصفة ما ...

فقاطعه الكونت دي هاغا وقال ضاحكاً: هذا خبر نشرته النساء.

فقالت مدام دي بارّي: وهل هذا السبب يدعو إلى عدم التصديق أيها الدوق؟

فاحمرّ وجه الماريشال المسن على غير عادته، وقال:

- أتريدون أن تعرفوا أيها السادة الوصفة التي طبّقتها دائما؟

- أجل، نريد أن نعرف.

- إنها القناعة ومداراة النفس.

فصرخ الجميع متعجبين من قول الماريشال الذي أردف فقال: بلى، هذا هو الواقع.

فقالت الكونتس : لو لم أر فعل وصفة السيد دي كاغليوسترو لكنت أنكرت وصفة الماريشال . ولكن رويدك يا حضرة الساحر ، فأنا ما انتهيت من أسئلتي .

– اسألي ما تشائين يا سيدتي .

– قلت إنك كنت في الأربعين ، يوم استعملت للمرة الأولى إكسير الحياة الذي تملك ؟

– نعم يا سيدتي .

– ومنذ ذلك الحين ، أي منذ عهد حصار طروادة ...

– بل قبل ذلك بقليل ، يا سيدتي .

– هب ذلك. منذ ذلك الحين احتفظت بسنّ الأربعين ؟

– إنك ترين هذا بنفسك .

فقال كوندورسيه : إنك إذن تثبت أكثر مما يحتمل مبدأك يا سيدي ...

– ماذا أثبت يا سيّدي المركيز ؟

– تثبت مبدأ حفظ الحياة ، وليس فقط مبدأ استمرار الشباب ، لأنك لم تحتفظ فقط بسنِّ الأربعين منذ حرب طروادة ، ولكنك أيضاً لم تمت .

– هذا صحيح يا سيدي المركيز ، إنني بتواضع اعترف بهذا ، فأنا لم أمت .

- وفضلاً عن هذا فأنت مثل بطل طروادة «أخيل» لا تصاب بجروح، هذا مع العلم أن أخيل نفسه قضى بسهم من قوس «باريس» أصابه في عقب قدمه.

فقال كاغليوسترو: كلا! إنني معرّض للجروح. وهذا ما يحزّ في نفسي.

- إذن أنت معرّض للقتل والموت موتاً عنيفا؟

- نعم، ويا للأسف!

- كيف استطعت إذن أن تنجو من الحوادث منذ ثلاثة آلاف وخمسماية سنة؟

- هذا مجرّد حظ يا سيدي الكونت. وأرجوك أن تتبع تفكيري.

- إني اتبعه، تكلم!

فقال آخرون: إننا نتبعه أيضاً.

ثم هتف جميع الحضور: أجل، إننا نتبعك، تكلم!

ووضع الجميع مرافقهم على المائدة، وأخذوا يصغون بانتباه ملحوظ.

فقطع صوت كاغليوسترو الصمت الذي ساد، إذ قال:

- ما هو الشرط الأول لحفظ الحياة؟ أليس الصحة؟

قالها كاغليوسترو وبسط أمام الجميع بحركة أنيقة سهلة

يدين بيضاوين مثقلتين بالخواتم التي كان خاتم كليوباتره يلمع بينها كنجمة القطب .

– فأجاب الجميع بمجموع أصواتهم : بلى ، بلى ، إنها الصحة .

– وما هو شرط الصحة ؟

فقال الكونت دي هاجا: إنه نظام الأكل

فقال الكونت دي كاغليوسترو :

– أصبت يا سيدي الكونت ، نظام الأكل والشرب يحفظ الصحة . وما دام الأمر كذلك ، لماذا لا يكون من شأن هذا الإكسير أن يحقق أفضل نظام ممكن ؟

– ومن يعلم ؟

– أنت أيها الكونت .

– نعم ، بلا شك ، ولكن ...

– ولكن ألا يوجد غير هذا الشرط ؟ (سألت مدام دي بارّي) .

– هذا سؤال سننظر فيه بعد قليل يا سيدتي . المهم هو أنني تابعت بانتظام تناول القطرات من الشراب الذي هو في حوزتي . ولما كانت هذه القطرات تحقق حلم الانسان في كل زمان ، لأنها تمثل ما كان يبحث عنه الأقدمون باسم « ماء الشباب » وما يبحث عنه أهل العصر باسم « إكسير الحياة » ،

فقد استطعت بفضلها أن أحتفظ بشبابي ، أي بصحتي ، أي بحياتي . هذا واضح جدّاً كما أعتقد .

فأجاب دي تافرني:

– ولكن كل شيء نهايته إلى زوال ، الجسم الجميل كما غيره من الأجسام .

فقالت الكونتس : أجل جسم البطل الجميل « باريس » ، كجسم الإله القبيح « فولكان » . لا شك أنك عرفت « باريس » يا سيد كاغليوسترو ؟

– بكل تأكيد يا سيدتي . فقد كان فتىً فاره الجمال . ولكنه على الإجمال لا يستحقّ كل ما وصفه به هوميروس ، وما تفكر به النساء . لأنه كان أصهب .

فقالت الكونتس : أصهب ! يا للفظاعة !

فقال كاغليوسترو : أما عشيقته هيلانة فإنها لم تكن من رأيك ، ويا للأسف ، يا سيدتي . ولكن فلنعد إلى موضوع الإكسير .

فهتفت جميع الأصوات : نعم ، نعم .

– ادعيت يا سيّد تافرني أن كل شيء ينتهي إلى زوال . لنفرض ذلك . ولكنك تعلم أيضاً أن كل شيء قابل للترميم أو التجديد أو التبديل : اختر ما تشاء من هذه الألفاظ . ومَثَلُ ذلك سكّين القديس هوبير الشهيرة ، التي أُبدل حدّها

وقبضتها عدّة مرات، وبالرغم من ذلك فقد ظلت سكين القديس هوبير. والنبيذ الذي يختزنه رهبان دير «هايدلبرغ» في أقبيتهم، يظل ذات النبيذ بالرغم من أنهم يفرغون كل سنة في الخوابي الضخمة الموسم الجديد. بل إن هذا السبب هو الذي يجعل نبيذ دير هايدلبرغ دائماً شديد النقاوة، وقويَّ المفعول، ولذيذ الطعم. بينما أصبح النبيذ الذي ختمنا عليه أنا وأوبيميوس منذ ماية عام في جرار فخارية، وكأنه نوع من الوحل السميك الذي قد يؤكل ولكنه لا يُشرب.

وعليه، بدلاً من أن أتَّبع مَثَلَ أوبيميوس، انتفعت بالمثل الذي يعطيه رهبان دير هايدلبرغ. فعالجت جسمي بأن سكبتُ فيه كل سنة عناصر جديدة كفيلة بأن تجدد شباب العناصر القديمة، فكانت ذرّة فتية تحلّ كل صباح، في دمي ولحمي وعظامي، محل خليّة مندثرة لا حياة فيها.

أجل لقد أعدت الحياة إلى الأنقاض التي يتركها الرجل الجاهل تستولي على مجموع كيانه، وأرغمت هذا العسكر الذي وضعه الله في خدمة الطبيعة البشرية، على الدفاع ضدّ التلف. هذا العسكر الذي يكتفي الرجل العاديّ بترميمه، أو بتركه مشلولاً بلا عمل، أخضعته لعمل مستمر يحكمه ويسهّل مجراه منبّه جديد. وقد حصل، نتيجةً لهذا الدرس المثابر لمبدأ الحياة، أن فكري وحركاتي وسكناتي وأعصابي

وقلبي وروحي لم تنس وظائفها أبداً. ولما كان كل شيء في الحياة مرتبطاً بعضه ببعض بسلسلة وثيقة، ولما كان نجاح الأشياء رهناً بتكرارها حتى تصبح عادة، فقد أصبحت بصورة طبيعية أكثر مهارة من سواي في تجنب الأخطار طوال ثلاثة آلاف من الأعوام، وهذا بفضل الخبرة التي اكتسبتها والتي تنير بصيرتي فتجعلني أَتنبأ بالعواقب السيئة والأخطار الناجمة عن كل موقف أتعرّض له. وهكذا فلن يرغمني أحد على الدخول إلى منزل معرّض للإنهيار، وبالطبع فقد رأيت منازل كثيرة في حياتي، وأعرف من النظرة الأولى أيها الصالح وأيها الرديء. ولن يرغمني أحد على الصيد مع صيّاد أخرق لا يحسن معالجة بندقيته، لأنني عرفت كثيراً من الصيادين الخُرْق، من «سيفال» الذي أردى ببندقيته امرأته «بروسكري»، إلى الوصيّ على العرش الذي فقأ عين وليّ العهد. وكذلك لن يرغمني أحد، أيام الحرب، على أن أشغل مركزاً ستراتيجياً ما لم أحسب جميع الخطوط المميتة، المستقيمة أو المنحنية، التي تقود إليه.

تقولون لي: لا يستطيع الانسان أن يتفادى رصاصة طائشة. فأجيبكم بأن الرجل الذي استطاع أن يتفادى مليون طلق ناريّ، ثم أردته رصاصة طائشة، لا عذر له عندي.

أوه! أرجوكم! لا تتركوا إشارات الشك تصدر عنكم،

لأنني ههنا مَثَلٌ حي أمامكم . إنني لا أدّعي الخلود ، ولكنني أعرف كيف أتجنّب الموت عندما يكون عارضاً ، وهذا ما لا يعرفه غيري . أي أنني مثلاً لا أمكث ، مهما كلفني الأمر ، ربع ساعة فقط منفرداً إلى جانب السيد « دي لونيه » الذي يتمنّى في هذه اللحظة أن يعتقلني في إحدى زنزاناته في الباستيل ليختبر موضوع خلودي بواسطة الجوع . ولا أمكث كذلك إلى جانب السيد دي كوندورسيه الذي يفكر الآن أن يفرغ في قدحي محتوى الخاتم الذي يضعه في سبّابة يده اليسرى ، لا عن سوء نية ، وإنما بمجرّد فضول علمي ، لكي يعلم إذا كان السمّ الذي فيه يميتني أم لا .

فاضطرب الشخصان اللذان ذكر كاغليوسترو إسميهما ، وتحرّكا في أريكتيهما ، بينما تابع كاغليوسترو قائلاً :

– اعترف بهذا بجرأة يا سيد دي لونيه ، فلسنا هنا أمام منصّة للقضاء . على كل حال ، إن المرء على أفعاله لا على نيته . ألم تفكر بما ذكرت ؟ وأنت يا سيد كوندورسيه ، ألا يحتوي خاتمك سمّاً زعافا تتمنّى لو تذيقني إياه باسم معشوقتك الحبيبة « العلم » ؟

فقال السيد دي لونيه وهو يضحك ويحمرّ : أعترف والله انك أصبت يا سيّدي الكونت . إنها فكرة جنونية وردتني في اللحظة ذاتها التي اتهمتني بها .

وقال كوندورسيه : وأنا أيضاً لن أقلّ صراحة عن السيد دي لونيه . فقد فكرت حقيقة أنك لو ذقت من هذا السم أصبح خلودك لا يساوي فلساً واحداً .

فندّت عن المائدة صرخة إعجاب ، وقد دلّ هذا الاعتراف ليس فقط على خلود الكونت دي كاغليوسترو ، وإنما أيضاً على ثقوب ذهنه . وتابع هذا حديثه بهدوء قائلاً :

– ترون إذن أنني فهمت ما يجول في خاطركما . ويمكنني ان أؤكد الشيء نفسه بالنسبة لكل ما يحدث ، لأن عادة الحياة تكشف لي من النظرة الأولى عن ماضي الناس ومستقبلهم . وتمتدّ فراستي من هذه الناحية إلى عالم الحيوان والجماد ، فإذا ركبت في مركبة ، تنبئني هيئة الجياد عما إذا كانت ستجمح، وتنبئني سيماء العربجيّ عما إذا كان سيوصلني إلى المكان الذي أقصد أو أنه سيفرغني في الطريق . وإذا أبحرت على ضفة مركب أعرف القبطان إذا كان جاهلاً أو عنيداً ، وفي كلا الحالتين أتجنب العربجيّ والقبطان ، وابتعد عن الجياد والمركب . إنني لا أنكر القَدَر، ولكنني أضيّق حقله ، فلا أدع له مابة إمكانية كما يفعل الآخرون ، وإنما أحذف منها تسعاً وتسعين ، وأتحدّى الامكانية الباقية . أجل ، هذا ما جعلني أعيش ثلاثة آلاف عام .

فقال لابيروز وهو يضحك وسط الحماس أو الشعور بالخيبة اللذين بعثهما حديث كاغليوسترو :

– ليتك إذن أيها النبيّ العزيز ترافقني في رحلتي البحرية حول العالم ، فتقدّم لي خدمة بارزة .

فلم يجب كاغليوسترو بشيء ، فيما تابع البحّار قوله وهو يضحك :

– تسمحون لي يا سيّدي الماريشال أن أغادركم الآن ، ما دام الكونت دي كاغليوسترو لا يريد أن يترك مجلسكم الأنيس . اعذرني يا سيدي الكونت دي هاغا ، واعذريني يا سيدتي ، فهذه هي الساعة تدق السابعة ، وقد وعدت الملك أن احتلّ مقعدي في السفينة في الساعة السابعة والربع . والآن ، ما دام الكونت دي كاغليوسترو لا يجد في نفسه رغبة لرؤية سفينتيَّ ، فليتنبّأ لي على الأقل بماذا سيحدث لي في الطريق من فرساي إلى بريست . أما من بريست إلى القطب فلست بحاجة إلى نبوءته ، لأن هذا متعلق بي وحدي ، ولكنني والله محتاج إلى مشورته فيما يتعلق بالطريق من فرساي إلى بريست .

إلا ان كاغليوسترو اكتفى بأن يوجّه إلى لابيروز نظرة قاتمة تجمع بين الرقة والحزن العميق ، صعق لها أغلب الحضور. إلا أن البحّار لم ينتبه لشيء ، وكان خدمه يضعون على كتفيه

معطفاً ثقيلاً من الفرو، وقد دسّت مدام دي بارّي في جيبه بعض هداياها اللطيفة، تلك الهدايا التي لا يفكر بها المسافر من ذات نفسه، وتقدم له أثناء سفره متعة كبيرة، وتذكره بأصحابه الغائبين، خلال الليالي الطويلة، وفي طريقه الشديدة الظلام والبرد القارس.

أما لابيروز الذي لم تفارق الضحكة شفتيه، فقد حيّا الكونت دي هاغا باحترام، ثم مدّ يده مصافحاً الماريشال المسن الذي قال:

- الوداع يا عزيزي دي لابيروز.

إلا أن دي لابيروز أسرع فقال: بل إلى اللقاء يا سيدي الدوق. إنك تودعني وكأني راحل إلى الأبدية. كل ما أفعله أنني سأدور حول العالم، وهذا لا يستغرق أكثر من أربع أو خمس سنوات من الغياب، ولا يستحق بالنتيجة أن نتلفظ بكلمة الوداع.

فهتف الماريشال قائلاً:

- أربع أو خمس سنوات! لماذا لا تقول يا سيدي أربعة أو خمسة قرون؟ فالأيام بالنظر إلى سنّي هي بمثابة سنين. لقد قلت لك الوداع، وها إني اكرر القول.

فقهقه دي لابيروز ضاحكا وقال:

- لنسأل حضرة العرّاف، إنه يقدّر أنك ستعيش عشرين

سنة أيضاً. ألست موافقاً على قولي يا سيد كاغليوسترو؟ آه! ليتك أيها الكونت حدّثتني قبل اليوم عن قطراتك الإلهية، لكنت أشحن منها طنّاً على ظهر سفينتي «استرولاب». وأنت يا سيدتي، اسمحي لي أن أطبع قبلة ثانية على يدك التي لن يقدّر لي أن أرى أجمل منها حتى عودتي ... وإلى اللقاء.

وخرج دي لابيروز عند نهاية هذه الكلمات.

أمّا كاغليوسترو فقد ظلّ محتفظاً بصمته الذي يدلّ على فأل مشؤوم. وقد سمعت أقدام القبطان ترن على الدرج، وصوته المرح دائماً في ساحة القصر، ولياقاته الأخيرة التي تبادلها مع الناس الذين اجتمعوا لرؤيته.

ثمّ هزّت الجياد الجلاجل المعلقة في رؤوسها، وقُرع باب المركبة بصوت أجش، وسُمع لدواليبها قرقعة على بلاط الطريق. فكان لابيروز يخطو أولى خطواته في تلك الرحلة الغامضة التي ستكون بلا رجوع إلى الأبد.

وكان جميع المدعوين يرهفون سمعهم ساكتين. وعندما كفّوا عن سماع أي شيء اتجهت أبصارهم إلى كاغليوسترو وكأن قوّة خفيّة دفعتهم إلى ذلك. وكانت قسمات هذا الرجل في تلك اللحظة تشع بحزن اقشعرّت له أبدان الجميع.

ودام الصمت الغريب عدّة لحظات. ثم قطعه الكونت دي هاغا إذ قال موجهاً كلامه إلى كاغليوسترو:

– لماذا لذت بالصمت ولم تجبه بشيء، يا سيدي؟

فكان هذا السؤال بمثابة تعبير عن القلق والفضول اللذين كانا يساوران جميع الحاضرين. فاقشعرّ كاغليوسترو كمن استفاق من ذهوله، وأجاب قائلاً:

– لأنه كان عليّ أن أكذب عليه، أو أن أجيبه جواباً صريحاً قاسياً وقد آثرت الصمت.

– وماذا تقصد؟

– ذلك أنه كان يتوجب عليّ أن أقول له: الدوق دي ريشاليو، يا سيد دي لابيروز، على حق في قوله لك «الوداع» بدلاً من قوله «إلى اللقاء».

فشحب لون الدوق دي ريشاليو وقال: يا للشيطان! أوتعتقد إذن أن دي لابيروز ...

فقاطعه كاغليوسترو قائلاً: اطمئن يا سيدي الماريشال، فالنبوءة الحزينة لا تقصدك أنت.

فهتفت مدام دي بارّي بلجاجة قائلة: ماذا إذن! أوتقصد دي لابيروز المسكين الذي قبّل يدي منذ لحظة؟

– لن يقبّلها مرّة ثانية يا سيّدتي، كما أنه لن يرى أبداً واحداً من الذين فارقهم هذا المساء.

قال ذلك كاغليوسترو وهو يحدّق بانتباه في قدحه المملوء ماء، والذي جعله موضعه من المائدة يبدو وكأن فيه طبقتين مضيئتين تخترقهما ظلال الأشياء المحيطة بهما.

فخرجت صرخة تعجب من أفواه الجميع.

وكان الحديث قد بلغ أوج الغرابة، فكانت كل دقيقة تزيد اهتمام الحاضرين به. وكان يخيّل لمن يرى هؤلاء الحاضرين وهم يتوجهون إلى كاغليوسترو بصوت ونظرات تدل على الرصانة والفضول، أنه يسمع تنبّؤات لا تخطئ يتفوّه بها عرّاف قديم.

وفي غمرة هذا الاهتمام الشديد، وقف دي فاڤرا، وكأنه يختصر شعور الجميع، فأشار إشارة تدلّ على التريث، وسار على رأس قدميه متجهاً نحو غرف الانتظار ليرى إذا كان أحد من الخدم يسترق السمع. ولكن منزل الماريشال دي ريشاليو كان، كما أسلفنا، منيعاً، فلم يجد دي فافرا في غرفة الانتظار المجاورة سوى قهرمان مسنّ، يشبه بقسماته الصلدة حارساً من حرّاس المراكز الحسّاسة، وقد كان هذا الرجل يقوم على حراسة قاعة الطعام في تلك الساعة الاحتفالية. فعاد دي فاڤرا إلى مقعده وجلس مشيراً للمدعوين أنهم في حرز حريز من أي عين تترصدهم وأي أذن تصغي إليهم.

فرفعت عندئذ مدام دي بارّي صوتها وقالت مطمئنة، متوجهة بحديثها إلى كاغليوسترو:

- أخبرنا في هذه الحال عن مصير دي لابيروز المسكين.

فهزّ كاغليوسترو برأسه. فهتف به أولئك الرجال الحاضرون قائلين:

- بلى، بلى، يا سيد كاغليوسترو، نرجوك أن تفعل.

- كما تريدون. ينوي دي لابيروز أن يقوم، كما أخبركم، بدورة حول العالم، ليتابع رحلات البحاثة كوك، كوك المسكين الذي قتل كما تعرفون في جزر سندويش.

- نعم! نعم! نعرف ذلك قالها الحاضرون بأصواتهم أو بهزّ رؤوسهم، فتابع كاغليوسترو قوله:

- كلّ شيء يبشر بنجاح هذه الرحلة، فالسيد دي لابيرور بحّار حاذق، بالإضافة إلى أن الملك لويس السادس عشر قد خطط له بمهارة خريطة السفر...

فقاطعه الكونت دي هاغا قائلاً:

- نعم، ملك فرنسا جغرافي حاذق. ألست من رأيي ياسيّد دي كوندورسيه؟

- بلى، إنه جغرافيّ يفوق حذقه ما يحتاجه من الجغرافيا. على الملوك ألا يكتفوا من العلوم بمعرفتها السطحية، لئلا يقودهم من هو أعمق منهم علماً.

فابتسم الكونت دي هاغا وقال:

- إنه درس منك يا سيدي المركيز.

فاحمرّ كوندورسيه وقال: كلا يا سيدي الكونت، إنها مجرّد فكرة، فكرة عامّة فلسفية.

فبدا الملل على مدام دي بارّي، واعتزمت ان تقطع كل حديث خاص يتفرع عن الحديث الأساسيّ. لذلك فقد توجهت إلى دي كاغليوسترو بحديثها قائلة:

- وهل سيمضي دي لابيروز في رحلته؟

- أجل سيمضي فيها. ولكن إياك ان تعتقدي أنه سيمضي في الحال. فبالرغم من الاستعجال الذي بدا عليه، أرى أنه سيبدد كثيراً من الوقت في بريست.

فقال كوندورسيه: يا لخسارته! إنه اليوم أفضل يوم للسفر. بل لعله تأخّر قليلاً، لأن شباط وآذار هما أفضل شهرين لذلك.

- لا تلمه على تأخره هذين الشهرين أو الثلاثة يا سيدي دي كوندورسيه . فإنه سيعيش طوال هذه الفترة والأمل في قلبه .

فقال ريشاليو : أظن أنهم عيّنوا لمساعدته خير الرفاق ؟

فأجاب كاغليوسترو : نعم ، والذي يقود السفينة الثانية هو ضابط ممتاز . إني أراه الآن فتىً مغامراً شجاعاً يا للأسف !

– ماذا تقول ! يا للأسف !

فقال كاغليوسترو وهو يستوحي أفكاره من قدحه :

– أجل . إني أبحث عن هذا الرجل بعد عام ، فلا أجده . أما فيكم قريب أو حليف للسيد دي لانكل ؟

– كلا ، ما فينا أحد .

– ألا يعرفه أحد منكم ؟

– كلا .

–إذن ، سيحذفه الموت أولاً من الوجود . وها إنني منذ الآن لا أراه .

فانطلقت تمتمة رعب من صدور الحاضرين . ثم قال بعضهم لاهثين :

– وما مصيره هو ... هو ... لابيروز ؟

– إني أراه يبحر في سفينته ، ثم ينزل على الشطآن ، ثم يبحر من جديد . وطوال سنة أو سنتين ، تصلنا أخباره السعيدة ، ثم ...

– ثم ماذا ؟

– ثم تمر سنون من عمر الزمن .

– وماذا بعد ؟

– وبعد ، فإنّ الأوقيانوس عريض والسماء قاتمة . وتبرز هنا وهناك أراضٍ غير مكتشفة ، وصور قبيحة مرعبة تشبه مسوخ

أرخبيل اليونان. إنها تترصد السفينة الماخرة في الضباب، وقد حملها التيّار إلى ما بين الأرصفة من الصخور النواتئ. ثم تأتي العاصفة التي هي أكثر ترحيباً من الشاطئ، والتي تحمل بين شدقيها هول الريح والنار ... إيه، دي لابيروز! دي لابيروز! لو كنت تسمعني الآن لقلت لك: إنك ماضٍ، مثل كريستوف كولومبوس، لاكتشاف عالم جديد. فالحذر الحذر يا لابيروز من الجزر المجهولة!

وهنا صَمَتَ كاغليوسترو، فجرت قشعريرة باردة في مفاصل الحاضرين، فيما كانت كلماته الأخيرة ما يزال صداها يتجاوب فوق المائدة.

إلا أن الكونت دي هاغا، وقد تأثر كغيره بهذا الرجل الغريب الذي أصبح يحرّك قلوب الحاضرين على هواه، هتف قائلاً:

- لماذا لم تحذّره من السفر قبل خروجه؟

وقالت مدام دي بارّي: نعم، نعم، لماذا لا يجري أحد في إثره لكي يثنيه عن عزمه؟ إن بعث رسول إليه، يا عزيزي الماريشال، ليس بكثير على رجل مثل لابيروز.

ففهم الماريشال قصد مدام دي بارّي، وهمَّ أن ينهض ليدق الجرس. إلا أن ذراع كاغليوسترو انبسطت نحوه، فعاد وغرق في أريكته، فيما مضى كاغليوسترو يقول:

– لن يجدي الرأي نفعاً، ويا للأسف! فالرجل الذي يتنبّأ بمصائر الناس لا يستطيع تغييرها. ولو سمع لابيروز كلماتي، لشرع يضحك كما كان يضحك أبناء «بريام» عند سماعهم نبوءات «كاسّاندر». أنت نفسك تضحك الآن يا سيدي الكونت دي هاغا، وسينتقل الضحك منك إلى رفاقك. لا! لا! يا سيّد دي فافرا، لا تأسر نفسك، فأنا لم أجد حتى الآن مستمعاً واحداً يصدّق أقوالي.

فهتفت مدام دي بارّي والدوق المسنّ دي ريشاليو قائلين:

– إننا نصدقك، نحن.

– وأنا أصدقك: تمتم تافرني.

– وأنا كذلك: قالها الكونت دي هاغا بأدب.

– أجل، أجل. إنكم تصدّقون لأن الأمر يتعلق الآن بلابيروز. فهل تصدّقون إذا تعلق الأمر بكم؟

– وكيف لا!

– بل إني متأكد مما أقول.

فقال الكونت دي هاغا: أعترف لك بصراحة أن الذي يحملني على التصديق هو الحظ الذي كانت كلماتك قد توفّره للسيد دي لابيروز. فلو سمعك تقول له: «حذار، حذار، من الجزر المجهولة!» لبُعث في نفسه الحذر الذي ينجيه.

- أؤكد لك أن هذا غير صحيح ، يا سيّدي الكونت . وهب أنه صدقني ، فسوف تكون نبوءتي رهيبة بالنسبة إليه ، إذ يفكر بها أمام الخطر ، عند مشاهدته الجزر المجهولة المشؤومة ، فيجد نفسه أمام الموت الرهيب المحتم الذي لا يستطيع الفرار منه . إنه يموت عندئذ ألف ميتة ، لأنه يشعر بأنه يسير في الظلمة ، واليأس إلى جانبه . أما الأمل الذي أكون قد نزعته من صدره فإنه التعزية الأخيرة التي يحتفظ بها الرجل التعس الحظ عندما يشعر أن سكين القدر أصبحت مسلطة فوق عنقه، وأنها بدأت تلمسه بحدّها الفولاذيّ ، وتنهل من دمه الذي بدأ يسيل على الأرض . أجل تنطفئ الحياة ، ولكن الأمل لا يخبو في صدر الإنسان .

فهمس بعض الحاضرين بأصوات منخفضة قائلين : هذا صحيح ! فقال كوندورسيه :

- إن النقاب الذي يحجب نهاية حياتنا هو الخير الوحيد الحقيقي الذي يمنحه الله للإنسان على الأرض .

بيد أن الكونت دي هاغا استأنف حديثه قائلاً :

- مهما كان هذا القول صحيحاً ، فلو قُدّر لي رجل مثلك يا سيّد كاغليوسترو يقول لي : « احذر هذا الرجل أو هذا الشيء » ، لقدّرت رأيه ، وشكرته على نصيحته .

فهزّ كاغليوسترو رأسه هزّاً خفيفاً، وهو يبتسم ابتسامة حزينة. فتابع الكونت دي هاغا حديثه قائلاً:

- في الحقيقة يا سيد كاغليوسترو، نبّهني عن ساعة الخطر وإني أكون لك شاكرا.

- أتريد أن أقول لك ما أخفيته على السيد دي لابيروز؟

- نعم، أريد.

فبدا على كاغليوسترو أنه سيمضي في حديثه عن الكونت، ولكنه توقف قائلاً:

- ولكن، كلا يا سيدي الكونت، كلا!

- إني أتوسّل إليك.

فأدار كاغليوسترو رأسه وتمتم قائلاً: كلا! أبدا!

فقال الكونت وهو يبتسم: خذ حذرك إن موقفك يجعلني عديم التصديق.

- عدم التصديق أفضل من القلق المساور.

فقال الكونت عندئذ بلهجة رصينة: إنك تنسى شيئاً ما يا سيد كاغليوسترو.

- وما هو هذا الشيء يا سيدي الكونت؟

- إذا كان بعض الناس يرى خيراً في أن يجهل مصيره، فإن منهم من هو بحاجة لمعرفة مستقبله، لا سيما إذا كان مصيره لا يهمّه وحده، بل يهمّ أيضاً ملايين الناس.

فقال كاغليوسترو : إذن مرني أمراً ، لأنني لن أقول شيئاً دون أمر منك .

– وماذا تعني ؟

فخفض كاغليوسترو صوته وقال :

– لتأمرني جلالتكم بما تشاء ، وإني لمطيع .

فقال الملك بجلال ولياقة كبيرين : آمرك بأن تكشف لي مصيري ، يا سيد كاغليوسترو .

في هذا الوقت الذي قبل فيه الكونت دي هاغا أن يعامل كملك ، وقد كشف الستار عن نفسه بالأمر الذي أصدره ، نهض ريشاليو من أريكته ، وجاء يحيي العاهل بتواضع قائلاً :

– شكراً للشرف الذي أسبغه على بيتي جلالة ملك السويد ، يا مولاي . لتحتل جلالتكم منذ الآن موضع الصدارة على المائدة ، فقد أصبح منذ هذه اللحظة وقفاً عليكم .

– ليبق كل واحد منا في مكانه يا سيدي الماريشال ، ولا نضيعنَّ كلمة واحدة مما سينطق لي به حضرة الكونت دي كاغليوسترو .

– يستحيل قول الحقيقة للملوك ، يا مولاي .

– إني لست في مملكتي الآن . عد إلى مكانك يا سيّدي الدوق ، وأرجوك ان تتكلم يا سيد كاغليوسترو .

فألقى كاغليوسترو بنظره على قدحه، فكان فيه كريات تشبه كريات الشمبانيا تتصاعد من قعره إلى سطحه. وكان يبدو أن الماء الذي يحدجه بصبره الحادّ، إنما يتحرك بفعل إرادته، فقال:

- قل لي يا مولاي ماذا تريد جلالتكم أن تعرف، فأنا مستعدّ للجواب.

- قل لي أي ميتة سأموت؟

- بطلق ناري، يا مولاي.

فتألق جبين غوستاف ملك السويد وقال:

- في ساحة الوغى، ميتة جندي. شكراً لك يا سيد كاغليوسترو وألف شكر؛ إني أرى المعارك تملأ ناظري، ولقد علمني العاهلان غوستاف أدولف وشارل الثاني عشر كيف يجب أن تكون ميتة ملك السويد.

فخفض كاغليوسترو رأسه دون أن يجيب. وعندما شاهده الكونت دي هاغا يفعل ذلك قطّب حاجبيه وسأل قائلاً:

- ماذا، ألن تُطلق النار عليّ في ساحة الوغى؟

- كلا، يا مولاي.

- إذن في إحدى حركات الشغب والعصيان، بلى، قد يكون هذا ممكنا.

- ولا هذا يا مولاي.

- أين إذن ؟

- في حفلة راقصة ، يا مولاي .

فأخذ الملك يفكر حالماً .

وكان كاغليوسترو واقفاً ، فجلس في مقعده ودفن رأسه بين يديه . وكانت وجوه الحاضرين تزداد شحوباً حول صاحب النبوءة والشخص المقصود بها . ولقد دنا كوندورسيه من قدح الماء الذي قرأ فيه العرّاف نبوءته المشؤومة ، فأمسكه من كعبه ، ورفعه إلى مستوى عينه ، وأخذ يتفحّص بعناية جوانبه اللامعة ومحتواه العجيب .

وقد رأى المدعوون عينه الذكية الثاقبة تستجوب البلور والسائل الذي يحتويه عن ذلك اللغز الذي كان يتحوّل في عقله إلى مجرّد نظريّة طبيعية .

وفي الواقع فقد كان هذا العالم يراقب قعر القدح ، وانعكاس الضوء على الماء المتقلب فيه . ولما كان يريد سبباً لكل شيء ، فقد راح يسأل نفسه عن سبب ومبرّر تلك البهلوانية التي فرضها على تلك النخبة من الرجال المحيطين بالمائدة رجل مثل كاغليوسترو لا يمكن إغفال شخصيته الغريبة .

وبالطبع ، فإنه لم يجد حلاً لذلك اللغز ، فكفّ عن

تفحص القدح وأعاده إلى المائدة ، وقال وسط الذهول الذي كان لم يزل يستولي على نفوس الجميع :

- أرجو ، أنا أيضاً ، حضرة نبيّنا الشهير أن يسأل عني مرآته السحرية . فأنا مع الأسف لست بحاكم ذي سلطان ، وحياتي الغامضة ليست مرتبطة بحياة الملايين من الناس .

فقال الكونت دي هاغا : إنك تحكم يا سيدي باسم العلم ، وحياتك لا تهم شعباً فقط ، وإنما الانسانية كلها .

- شكرا يا سيدي الكونت . ولكن رأيك من هذه الناحية قد يختلف عن رأي السيد كاغليوسترو .

عندئذ رفع كاغليوسترو رأسه كجواد نكزه المهماز وقال :

- ليكن ما تشاء أيها المركيز ، فأنت عظيم في مملكة الذكاء . هيّا أنظر إلى وجهي : أوتريد حقاً أن أتنبأ بمصيرك ؟

قال كاغليوسترو هذه الكلمات بتأثر عصبي ، لو رآه الأقدمون لنسبوه إلى الإله الذي يعذبه عندما يوحي إليه .

فأجابه كوندورسيه عن سؤاله قائلاً :

- حقاً أريد يا سيدي الكونت . وإني لمقسم بشرفي !

فسدل كاغليوسترو جفنيه فوق نظره الحاد ، وقال بصوت منخفض أصم :

- إنك ستموت يا سيدي ، بسمّ خاتمك هذا الذي تحمله في إصبعك . ستموت ...

فقاطعه كوندورسيه قائلاً :

– وإذا ما نزعته من إصبعي ورميته بعيداً عني .

– إنزعه وارمه .

– إنك تعترف إذن أن أمر النجاة سهل ؟

– قلت لك إنزعه وارمه .

فهتفت مدام دي بارّي قائلة : بالله أيها المركيز أن ترمي عنك هذا السم الشرير ، لا لشيء إلا لتكذيب هذا النبي المشؤوم الذي يعذبنا جميعاً بنبوءاته . لأنك إذا رميته ، فلن تموت به على الأقل . عندئذ يظهر كذب السيد كاغليوسترو الذي ادعى أنك ستموت مسموماً بهذا الخاتم عينه .

فعقّب الكونت دي هاغا قائلاً : إنّ سيدتي الكونتس لعلى حقّ فيما تقول .

وتبعه دي ريشاليو قائلاً : أحسنت قولاً أيتها الكونتس. هيّا ارم أيها المركيز هذا السم عنك ، فإني كلما شربت معك ستعتريني رعشة إذ أنني أعلم أنك تحمل في يدك موت إنسان يقضي عليه محتوى هذا الخاتم الذي قد يفتح في كل لحظة دون إرادة منك .

وقال صوت آخر : لا سيما وإن كأسين يقرع أحدهما الآخر يصبحان متجاورين . فارم أيها المركيز هذا الخاتم ، إرمه !

ولكن كاغليوسترو قال بهدوء :

- لا جدوى مما تقولون ، لأن السيد دي كوندورسيه لن يرمي خاتمه .

- كلا ، لن أنزع هذا الخاتم من إصبعي ، لا لأني أريد أن أساعد القدر المحتوم ، ولكن لأن « كابانيس » ركّب هذا السم الذي لا يوجد مثله بفضل الصدفة ، وقد لا يجد هذه الصدفة مرّة ثانية . لهذا السبب لن أرمي هذا الخاتم ، وليكن النصر حليفك يا سيد كاغليوسترو .

فأجاب كاغليوسترو : يجد القدر دائماً وسطاء مخلصين يساعدونه على تحقيق أحكامه .

فقال عندئذ المركيز دي كوندورسيه : سأموت إذن مسموماً . فليكن ! ليجتنب هذه الميتة من يشاء . أما أنا فإنني أعتبر انك تتنبأ لي بميتة رائعة : قليل من السم على طرف لساني ، ثم أندثر ... هذا ليس بموت . إنه فقط علامة الطَرْح تسبق الحياة ، كما نقول في علم الحساب .

فقال كاغليوسترو بلهجة باردة :

- لا أريدك أن تتألم ، يا سيدي .

وأشار بيده إشارة تدلّ على أنه سيقف عند هذا الحد ، بالنسبة للسيد كوندورسيه على الأقل .

هنا مطّ المركيز دي فافرا جسمه فوق المائدة لكي يدنو من كاغليوسترو وقال :

– ذكرت يا سيّدي ثلاث ميتات تحمل الماء إلى الفم : بالغرق والنار والسم . لعلك تتنبأ لي عن ميتة صغيرة من هذا النوع .

فهزّت هذه السخرية كاغليوسترو وقال : من الخطأ يا سيدي المركيز ان تحسد هؤلاء السادة على ميتتهم ، لأنك ، قسماً بشرفي ، ستنال ميتة أفضل .

فضحك دي فافرا وقال : أفضل ! خذ حذرك يا سيّدي ، إنك تتعهد ما يفوق طاقتك . لأنه من الصعب ان نجد ما هو أفضل من البحر والنار والسم .

فقال كاغليوسترو بلهجة لطيفة : يبقى غارب الحبل ، يا سيدي المركيز .

– الحبل ! هه ! هه ! ما عساك تقول أيها الرجل ؟ فأجاب كاغليوسترو بنزق نبوي كأنه خارج عن إرادته :

– أقول إنك ستموت مشنوقاً .

فأعاد الحاضرون برعب :

– مشنوقاً ! يا للشيطان !

فقال دي فافرا بلهجة خفّت حماستها : لعلّ سيّدي قد نسي أنني من النبلاء ، ولعله يشير إلى حادث انتحار ، لذلك

فإني أنبهه بأني سأتعلق بكرامتي حتى اللحظة الأخيرة، فلا ألجأ إلى الحبل ما دمت أحمل سيفاً.

- كلا يا سيدي إني لا أشير إلى حادث انتحار.

- أتقصد إذن حادث تعذيب.

- نعم.

- إنك غريب عن هذا البلد يا سيدي، وإني أغفر لك.

- وماذا تغفر لي؟

- أغفر لك جهلك. لأنهم في فرنسا يقطعون رؤوس النبلاء قطعاً بالسيف.

- تدبّر هذا الأمر مع الجلاد، يا سيدي.

وكان هذا الجواب الفظ صاعقاً بالنسبة للمركيز دي فاڤرا، فصمت على الفور.

وساور التردد جماعة الحاضرين طيلة لحظات، ثم قال دي لونيه: أتعلم أنني أرتجف الآن، فقد اختار الذين سبقوني اختياراً سيئاً إذ أصرّوا على كشف طالعهم، ولا شك أني سأحصل على طالع سيئ فيما إذا ألقيت دلوي في ذات البئر التي ألقوا دلاءهم فيها.

- إنك إذن أعقل منهم، فلا تريد معرفة المستقبل. إنك على صواب، لأنه يتوجب علينا ألا نكشف سرّ الله، أكان خيراً أم شراً.

إلا أن مدام دي بارّي هتفت قائلة : إيه دي لونيه ، أرجو أن تكون لديك جرأة هؤلاء السادة .

– إني أرجو ذلك ، يا سيدتي .

قالها حاكم الباستيل ، السيد دي لونيه ، وهو يحني قامته باحترام . ثم استدار نحو كاغليوسترو وقال :

– إمنحني يا سيدي هذا الجميل ، واكشف عن طالعي . إني أرجوك أن تفعل .

– هذا أمر سهل : ضربة فأس على الرأس ، وينتهي كل شيء .

فتردد في أرجاء الحجرة صراخ رعب شديد شرع إثره ريشاليو وتافرني يتوسلان إلى كاغليوسترو بأن يقف عند هذا الحدّ . إلا أن فضول مدام دي بارّي تغلب على محاولتهما إذ قالت :

– يخيّل إلى من يستمع إليك ، يا سيدي الكونت ، أن العالم بأسره سيكون مصيره الموت العنيف . كيف يحصل هذا ، فنحن هنا ثمانية أشخاص ، وقد حكمت بالإعدام حتى الآن على خمسة منا .

فقال السيد دي فافرا محاولاً أن يضحك : إنها ولا شك أحكام متحيّرة ، ولسوف نضحك منها يا سيدتي .

فعقّب الكونت دي هاغا قائلاً: طبعاً سنضحك منها، إن كانت صائبة أو مخطئة.

فاستأنفت مدام دي بارّي قائلة: أنا أيضاً سأضحك منها، ولا أريد أن أجعل الجبن يستولي عليّ ويحط من قدري أمام جماعة الحاضرين هنا. ولكنني، ويا للأسف، لست سوى امرأة. امرأة لن يكون لها الشرف بأن تصل الى مستوى الميتة المحزنة التي تنتهي بها حياتكم. فالمرأة تموت عادة في سريرها. وستكون ميتتي أسوأ ميتة، إذ أنتهي ويا للأسف عجوزاً حزينة منسية. أليس كذلك يا سيد كاغليوسترو؟

وكان التردد يستولي على مدام دي باري وهي تفوه بهذه الكلمات. وكان يدل صوتها وهيئتها على أنها تطلب من كاغليوسترو جواباً يحمل إلى نفسها الاطمئنان. ولكن غاليوسترو لم يفه بشيء:

عندئذ توهج الفضول في نفسها حتى سيطر على القلق، فإذا بها تقول:

- هيّا أجبني يا سيد دي كاغليوسترو.
- كيف أجيبك يا سيدتي، وأنت لا تسألينني شيئاً؟

فترددت الكونتس قليلا، وقالت:

- ولكن ...

فقال كاغليوسترو: تكلمي، أتسألينني، نعم أم لا؟

فأبدت الكونتس جهداً لكي تجيب ، وبعد أن استمدت الشجاعة من ابتسامة الجماعة الملتفة حولها ، هتفت قائلة :

– نعم ، إنني أغامر . قل لي بربك، كيف ستنهي جان دي فوبيرنياه ، أي الكونتس دي بارّي ، حياتها ؟

– على المقصلة يا سيدتي .

– إنك تمزح ! أليس كذلك يا سيدي ؟ تمتمت مدام دي باري هذه الكلمات وهي توجه إلى كاغليوسترو ، النبيّ المفجع ، نظرة متوسلة . ولكن كاغليوسترو كان في أوج حرارته فلم يلاحظ تلك النظرة المتوسلة ، لذلك فقد سأل قائلاً :

– ولماذا تعتقدين أنني أمزح ؟

– لأن المقصلة معدّة لمن يقتل ويفتك بالناس ويرتكب الجرائم ؛ ومن غير المحتمل أن أرتكب جريمة واحدة تستحق هذا العقاب . إنك تمزح إذن ، أليس كذلك ؟

فقال عندئذ كاغليوسترو : يا إلهي ! إنني أمزح كما فعلت في كل ما ذكرت .

فانفجرت الكونتس عن ضحكة يعرف المراقب الذكي أنها مفتعلة وليست طبيعيّة . ثم قالت ساخرة :

– هيّا بنا يا سيد دي فافرا ، لنذهب ونوصي على مركباتنا الجنائزية .

بيد أن كاغليوسترو تلقّاها بالجواب قائلاً :

– هذه لا تفيد بالنسبة لك ، يا سيدتي .

– ولماذا يا سيدي ؟

– لأنك ستنتقلين إلى المقصلة في عربة هزيلة . فصرخت مدام دي بارّي قائلة : وارعباه ! يا للوغد ! اختر أيها الماريشال مدعوّيك مرة ثانية من قوم ليست لهم هذه الطباع ، أو أنني لا أعود إلى منزلك أبداً .

فقال كاغليوسترو معتذراً : عفوك يا سيدتي ، فأنت أردت ذلك كالآخرين .

– أنا كالآخرين ! ولكنك ستترك لي وقتاً لاختيار معرّفي على الأقل ؟

– سيكون هذا بلا جدوى ، يا سيّدتي .

– كيف هذا ؟

– لأن آخر من يصعد إلى المقصلة بصحبة كاهن يعرّف ، سيكون ...

– ومن سيكون ؟ (هتف الجميع بهذا السؤال .)

– سيكون ملك فرنسا .

لفظ كاغليوسترو كلماته الأخيرة بصوت أجشّ محزن ، فكان وقعها على أسماع الحاضرين كلهاث الموت ؟

عندئذ ساد صمت استمرّ عدّة دقائق ، أمسك خلاله كاغليوسترو بقدح الماء الذي قرأ فيه تلك النبوءات الدموية ، وقرّبه من شفتيه . ولكنه لم يكد يمسّ فمه حتى دفعه عنه بقرف ، وكأنه يدفع كأساً من العلقم . وفيما كان يقوم بهذه الحركة وقعت عيناه على تافرني ، فظن هذا أنه سيتكلم عنه ، فصرخ قائلاً :

– لا تقل شيئاً عن المصير الذي يترقبني ، فأنا لم أطلب هذا منك .

فقال ريشاليو : أنا أطلب هذا بدلاً عنه . فقال كاغليوسترو :

– أما أنت ياسيّدي الماريشال فلا خوف عليك، اطمئن . لأنك الوحيد بيننا الذي سيموت على فراشه .

فقال الماريشال عندئذ وقد أثملته هده النبوءة :

– هيا ، إلى القهوة أيها السادة ! إلى القهوة !

فنهض الجميع من مقاعدهم .

إلا أن الكونت دي هاغا ، قبل أن يدخل إلى الردهة ، دنا من كاغليوسترو وقال له :

– إني لا أفكر في أن أهرب من القدر يا سيدي . ولكن قل لي : أيَّ شيء عليَّ أن أحذره ؟

– رجلاً أكتع يا مولاي .

فمضى الكونت دي هاغا مبتعداً. فسأل كوندورسيه بدوره قائلاً:

- وأنا؟

- إحذر قرصاً من العجّة.

- إذن، لن أتناول بعد الآن البيض. قالها كوندورسيه ثم لحق بالكونت دي هاغا.

فقال دي فافرا: وأنا، ما عليّ أن أخشى؟

- رسالة.

- شكرا.

ثم سأل دي لونيه بدوره:

- وأنا.

- أنت، يجب أن تخشى احتلال الباستيل.

- ما دام الأمر كذلك، فأنا بغاية الاطمئنان.

ثم ابتعد وهو يضحك. فقالت الكونتس وهي مضطربة:

- الآن دوري يا سيدي.

- أنت أيتها الكونتس الجميلة، عليك أن تحذري ساحة لويس الخامس عشر.

فقالت الكونتس:

- هذه الساحة، ضعت فيها ويا للأسف، في يوم من الأيام. وقد تألمت يومئذ كثيراً، وإنما كنت قد أضعت رأسي.

– وسيضيع رأسك فيها مرّة ثانية ، ولكنك ، هذه المرة ، لن تعثري عليه .

فصرخت مدام دي بارّي ، وهربت نحو الردهة لتنضمّ إلى سائر المدعوين .

وهمّ كاغليوسترو أن يتبع رفاقه ، غير أن الدوق دي ريشاليو استوقفه قائلاً :

– انتظر لحظة يا سيدي العرّاف العزيز ، فلم يبق سوى تافرني وأنا ، فلم تقل لنا شيئا .

– توسل إليّ دي تافرني كي لا أقول له شيئاً ، أما أنت ، فلم توجه إلي سؤالاً يا سيدي الماريشال .

فضمّ تافرني يديه وهتف قائلاً : وإني أتوسّل إليك من جديد يا سيدي .

إلا أن الماريشال دي ريشاليو استطرد سؤاله قائلاً :

– برهاناً على قدرتك الفذّة ، أن تقول لنا شيئاً نعرفه نحن الاثنين فقط ؟

فابتسم كاغليوسترو وقال : أي شيء تريد ؟

– أن تقول لنا ما الذي كان يفعله تافرني ، هذا الرجل الطيب ، في فرساي ، بدل أن يعيش بأمان واطمئنان في أرضه الجميلة ، أرض « القصر الأحمر » ، التي أعاد الملك شراءها له منذ ثلاث سنين ؟

- لا شيء أسهل من هذا يا سيدي الماريشال. فالسيد تافرني كان يرغب منذ عشر سنوات في أن يزوج ابنته أندريه للملك لويس الخامس عشر. ولكنه لم يفلح.

فصرخ تافرني صرخة ذهول ودهشة، ولكن كاغليوسترو تابع يقول:

- واليوم يريد سيّدي أن يقدّم ابنه فيليب دي تافرني للملكة ماري أنطوانيت. اسأله إذا كنت أكذب.

فقال تافرني وهو يرتجف:

- والله، ليخطفني الشيطان إذا لم يكن هذا الرجل ساحراً!

فقال الماريشال دي ريشاليو: لا تتحدث بمثل هذه الفروسية عندما تذكر الشيطان، أيها الصديق القديم.

إلا أن تافرني كان يتمتم قائلاً: إنه ساحر مرعب! مرعب! ثم استدار نحو كاغليوسترو لكي يرجوه مرّة أخيرة عدم البوح بأسراره. ولكن كاغليوسترو كان قد توارى عن بصره.

هنا قال الماريشال دي ريشاليو: هيّا يا تافرني إلى الردهة، لأن رفاقنا سيشربون القهوة دوننا، أو سنشربها باردة، وهذا أسوأ الحالين.

ثم أسرع راكضاً نحو الردهة.

ولكن الردهة كانت خالية، لأن أحداً من المدعوين لم تبق لديه الجرأة للنظر إلى وجه كاغليوسترو، صاحب النبوءات المخيفة.

وكانت الشموع تحترق في شمعداناتها، والقهوة تدخّن في إبريقها النحاسي، ونار الحطب تصفر في المدخنة دون ان يصطلي عليها أحد.

وعندما شاهد ريشاليو ذلك قال لصاحبه:

- يبدو أيها الصديق القدير، أننا سنحسو القهوة أنا وأنت وحيدين... ولكن، يا للشيطان، إلى أين ذهبت ؟!

وشرع ريشاليو يبحث عن صديقه في كل ناحية من الردهة، ولكن عبثاً، لأن الشيخ الصغير كان قد انسلّ فراراً كالآخرين. فأخذ الماريشال يضحك مثل فولتير، ويفرك يديه الجافتين البيضاوين المثقلتين بالخواتم ويقول:

- سيّان إن مكث الجميع أم رحلوا! فأنا وحدي، بين مدعويّ، سأموت على سريري. أجل على سريري. إني أصدقك يا سيد كاغليوسترو: إني سأموت على سريري، وبعد عمر طويل.

ثم رفع صوته منادياً: هيّاً أيها الحاجب، تعال واجلب معك القطرات...

فدخل الحاجب وهو يحمل قمقما في يده، ثم انتقل الاثنان إلى غرفة النوم.

امرأتان مجهولتان

★

كان شتاء ١٧٨٤ الغول الذي ازدرد سدس سكان فرنسا. هذا الغول لم نستطع رؤيته في منزل الكردينال دي ريشاليو، رغم أنه كان يزمجر على الأبواب، لأننا كنا قابعين في قاعة الطعام الدافئة المطيبة بالعطور. أما بعض الجليد على زجاج النوافذ، فهو بذخ في الطبيعة يضاف إلى بذخ الناس. فبالنسبة للغني المغلَّف بفرائه، أو الغارق في دفء مركبته، أو المحاط بالصوف والمخمل في قاعات منزله الساخن، ليس الشتاء أكثر من زينة تزدان بها الطبيعة: إنه جواهر منثورة هنا، ووشي مطرز بالفضة منشور هناك. وما الثلج سوى مظهر من مظاهر الأبهة، وما العاصفة وما ينتج عنها سوى تغيير في زينة الطبيعة يجري على يد ميكانيكي أزلي اسمه الله، ويشاهده الغني من خلال زجاج نوافذه.

إن الذي يشعر بالدفء، يأنس بمشاهدة الأشجار السوداء، ويجد متعة في مناظر السهول التي تنضح برائحة الشتاء.

والذي تتصاعد إلى مخّه روائح الغداء الذي يكون بانتظاره، يستطيع أحياناً أن يستنشق من خلال نافذته المشقوقة أنفاس ريح الشمال، وبخار الثلوج الباردة التي تجدّد بناتِ أفكاره.

والذي يذوق العذاب نهاراً، وقد ذاق أهواله ملايين المواطنين، ثم يعود في المساء فيمدّد جسمه تحت أغطية الصوف الوثير الناعم في سريره الدافئ، مثل هذا يشبه ذلك الأناني الذي ذكره «لوكريس» ومجّده «فولتير»، وهو الذي يجد كل شيء حسناً في أفضل عالم ممكن.

ولكن الذي ترتعد فرائصه من البرد لا ينعم بشيء من بدائع الطبيعة، وسيّان عنده إن ارتدت معطفها الأبيض، أو معطفها الأخضر.

والجوعان يبحث عن الأرض ويهرب من منظر السماء التي اختفت منها الشمس، لأن الشقي لم يعد يعثر فيها على البسمة التي هو بحاجة إليها.

في ذلك الحين الذي وصلنا إليه، أي في منتصف شهر نيسان، كان ثلاثمئة ألف بائس يموتون من البرد والجوع،

ويزفرون زفرات الألم، في مدينة باريس وحدها، حيث لم يحضّر شيء يقي الفقراء من الهلاك برداً وجوعاً، بحجة أن جميع المدن خلت من أهل السعة والنُعمى.

ومنذ أربعة أشهر ما برحت سماء الشتاء الصلدة المكفهرة تطرد البؤساء من القرى إلى المدن، تماماً كما اعتاد الشتاء أن يطرد الذئاب من الغابات إلى القرى.

وقد فُقد الخبز، وفقد الحطب. الخبز للذين يحتملون البرد، والحطب للذين يصنعون الخبز.

وخلال شهر واحد، التهمت باريس كل مؤونتها.

ولم يكن وزير التجارة الجاهل القاصر، والذي كانت مدينة باريس في عهدته، يستطيع تأمين مائتي ألف حمل من الحطب، يكدّسها لحين الطلب على بعد عشرة فراسخ حول العاصمة.

وكان يتذرّع بشتّى الأعذار: فعندما ينعقد الجليد، يمنع الجليد الخيل عن السير. وعندما يذوب الجليد، تقلّ العربات والجياد التي تجرها. وكان الملك لويس السادس عشر، على طيبته وإنسانيته، أول من يشعر بحاجات الشعب المادية، وإن كانت تفوته غالباً حاجاته الاجتماعية. لذلك فقد بدأ بتخصيص مبلغ مائتي ألف ليرة لاكتراء العربات والجياد، ثم

ما لبث أن فرض عليها قانون المصادرة لكي تعمل في نقل الحطب الى المدينة .

ولكن سرعان ما أخذ الباريسيون يستهلكون ما يرد من الحطب . فكان من الواجب فرض التقنين على المشترين الذين حُرّم عليهم أن يشتروا من المستودعات أكثر من حمل واحد ، ثم ما لبثت الكمية أن نزلت إلى نصف حمل . فراح الناس يصطفّون في حبالٍ طويلة أمام أبواب المستودعات ، كما سنشاهد بعد حين حبالهم الطويلة ممتدّة أمام أبواب المخابز .

وأنفق الملك أموال خزينته على الحسنات ، ثم سحب ثلاثة ملايين ليرة من مدخولات الجمارك وأنفقها على أصحاب الفاقة لكي يخفف عنهم وطأة البؤس ، معلناً أنه يتوجب على كل الضرورات أن تستسلم وتصمت أمام ضرورتي البرد والجوع .

أما الملكة فقد تبرّعت من جانبها بخمسماية ذهبية من وفرها الشخصي . وقد حوّلت الأديرة والمستشفيات والمنتديات العامة إلى ملاجئ يأوي إليها الفقراء والمشردون . وكذلك فتح النبلاء أبواب قصورهم الكبيرة ، على غرار ما جرى في القصور الملكية ، لتستقبل في مضافاتها الواسعة الفقراء الذين يدخلونها للقرفصة حول النار .

على هذه الطريقة كان الأمل معقوداً للتغلب على قساوة الجليد ريثما يذوب .

بيد أن السماء كانت لا تخضع ولا ترحم . فكان في كل مساء حجاب نحاسيّ ينبسط على الأفق ، وكانت النجوم التي تظهر فيما ندر، تلمع جافّة باردة كقناديل الموت . وكانت أنفاس الليل الباردة تكثّف ، في بحيرة من الماس الأبيض ، الثلج الشاحب اللون الذي كان بعضه قد سال تحت أشعة شمس الظهيرة .

وكان ألوف العمّال أثناء النهار يجرفون الثلج والجليد أمام البيوت ، مكدّسين منه حواجز عالية سميكة كانت تسدّ نصف الشوارع التي كان أكثرها ضيقاً من أساسه . ولشدّ ما كانت العربات الثقيلة بدواليبها الملساء الزالقة ، والجياد المتعتعة التي تتساقط في كل لحظة من شدّة الجوع ، تدفع نحو جدران الثلج المارة الذين كانوا معرّضين لأحد الأخطار الثلاثة منفصلة أو مجتمعة : السقوط ، أو الاصطدام ، أو انهيار حواجز الثلج والجليد عليهم .

وبعد حين ازدادت تلك الكتل الثلجية حتى حجبت أبواب الحوانيت ، وسدّت الممرات ، إذ اضطرّ العمال إلى التوقف عن الجرف ، لأن قواهم نضبت ، ولأن وسائل الجرف لم تعد كافية .

فاعترفت باريس بهزيمتها ، وسلّمت أمرها للشتاء يفعل بها ما يشاء. فانقضت أشهر أربعة ، هي كانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار ، على هذا المنوال . وكانت تنفرج السماء يومين أو ثلاثة ، فيتحول ذوبان الثلج في باريس إلى أوقيانوس رهيب ، لا سيما وأن المدينة كانت خالية من المجارير والسفوح التي تسيل عليها المياه . فكان يستحيل اجتياز بعض الشوارع إلا سباحة ، وكانت جياد كثيرة تضيع فيها وتغرق ؛ أما المركبات فقد تحوّلت فيها إلى زوارق .

ولكنَّ باريس ، وفقاً لسجيّتها ، راحت ترنّم ترانيمها للموت عند ذوبان الجليد ، كما كانت ترنّم للموت يوم استبدّ بها الجوع . فكان الناس ينتقلون في شبه مهرجان إلى الأسواق ، ليشاهدوا بائعات السمك يبعن بضاعتهن ، وهن يركضن خلف الزبائن بجزماتهنّ الجلدية الضخمة ، وسراويلهنّ المحشورة في شوق جزمهنّ ، وتنانيرهنّ المقلوبة حتى زنانيرهن ، وكلهنّ ضاحكات مرحات ، ينثرن بعضهنّ البعض بمياه المستنقعات التي يغصن فيها . ولما كانت أوقات الذوبان قصيرة ، فيعود الجليد بتصميم أشد وكثافة أسمك ، وتتحول بحيرات العشية إلى كتلة من البلور الزلق في صباح الغد ، فقد كانت المركبات تنقلب إلى زلاّجات يشدّها عدّاؤون أقوياء ، أو تجرها جياد أُنعلت قوائمها بالحديد المسنن،

هناك في عرض الشوارع التي انقلبت إلى مرايا متصلة ومتماسكة .

ولطالما تجمد نهر السين إلى عمقٍ عدّة أقدام ، فكان ملتقى العاطلين عن العمل ، يلتقون فوقه ويقومون بتمارين العدو والسقوط والتزحلق والانزلاق وغيرها من الألعاب . وكان هؤلاء عندما يشعرون بالتعب وبالحرارة تجري في عروقهم ، بفضل تلك الرياضة الصعبة ، كانوا يهرعون إلى أقرب مكان تشتعل فيه النار ، فيصطلون عليها ، خوفاً من أن يجمد العرق على أبدانهم .

ولكن الناس أصبحوا يلمحون الكارثة تتهدّد باريس ، إذ تنقطع عنها المواصلات بطريق الماء واليابسة ، وتنقطع المؤن من الوصول إليها ، فيهوى عندئذ ذلك الجسم الضخم على نفسه بسبب نفاد القوت . شأن باريس في ذلك شأن تلك الحيتان الضخمة التي تجلو عن مناطقها إلى مناطق أخرى ، فيحيط بها جليد القطب ويسجنها في جوفه ، فتهلك هناك لأنها لم تفلح في الهرب من الشقوق الضيقة ، كما تفعل الأسماك الصغيرة ، لكي تعود إلى مناطق أكثر اعتدالاً وأوفر صيداً .

وعندما رأى الملك أن الضائقة بلغت أوجها ، دعا مجلسه إلى الاجتماع . فتقرر أن يُجلى عن باريس ، بطريق الإقناع ، جميع الأحبار والكهنة والرهبان لكي يعودوا إلى مناطقهم .

وكذلك الحكام ومدراء المناطق الذين جعلوا من مدينة باريس مركزا لإداراتهم. وأخيراً القضاة الذين كانوا يفضلون دور الأوبرا والمجتمع الباريسيّ على أرائكهم الموشاة بالسوسن وغيره من الأزهار.

فقد كان جميع هؤلاء الناس في الواقع يستهلكون كثيراً من الحطب في قصورهم الغنية، وكثيراً من المؤن في مطابخهم الواسعة.

وكان يقطن في باريس أيضاً الأسياد الإقطاعيون، وقد تقرّر أن يُصرفوا إلى قصورهم في المناطق البعيدة أو القريبة من باريس. ولكن مدير البوليس، السيد لونوار، لفت نظر الملك إلى صعوبة إجلاء جميع هؤلاء الناس عن باريس بين ليلة وضحاها، لأنهم لم يرتكبوا جريمة تبرر هذا القرار. ومن ثمّ فإن جلاءهم سيستغرق وقتاً طويلاً، بسبب تلكؤهم وصعوبة المسالك في الطرقات، فيسبق ذوبان الثلج أية إفادة من هذا الإجراء الذي قد ينجم عنه مشاكل كثيرة.

بيد أن الشفقة التي أبداها الملك وقد كلفته فراغ خزائنه، والعطف الذي أبدته الملكة وهدرت بسببه كل وفرها، أثار عرفان الجميل عند الشعب. فكما كان الجنود قديماً يصنعون شعائر الظفر من أسلحة العدو، ويقدّمونها لقائدهم الظافر الذي يكون هو نفسه قد سلمهم إيّاها، هكذا فعل

الباريسيّون، إذ راحوا ينصبون للملك والملكة، في ساحة القتال ذاتها حيث كانوا يناضلون ضد الشتاء، مسلاتٍ تذكارية من الثلج والجليد. ولقد ساهم الجميع بصنع هذه المسلات، فقدّم الصانع ذراعيه، والعامل خبرته، والفنان موهبته. فارتفعت المسلات متشامخة صلدة في كل زاوية من الشوارع الرئيسية. ولم يمتنع رجال الأدب المساكين، من الذين لحقهم إحسان الملك إلى تخاشيبهم البائسة، عن تقديم كتاباتهم لتلك المسلات، وقد نصّتها قلوبهم أكثر مما نصها ذهنهم.

وبدأ الذوبان في أواخر شهر آذار، ولكنه كان ناقصاً وغير شامل. هذا فضلاً عن الجليد الذي كان يعود بين فترة وأخرى، فيطيل عهد البؤس والألم والجوع، في مدينة باريس التي ظلت تحتفظ بمسلاّت الثلج الصلبة.

ولم تكن الفاقة يوماً أشدّ قسوة مما كانت عليه في تلك الفترة، لأن الشمس الفاترة التي كانت تشرق في فترات متقطعة، كانت تجعل ليالي الريح والجليد أبهظ ثقلاً على كواهل الناس. أما الطبقات الكثيفة من الجليد فقد ذاب معظمها وجرى ماؤها في نهر السين الذي فاض على ضفتيه في كل مكان. ولكن الأيام الأولى من شهر نيسان عادت فشهدت موجة جديدة من البرد الذي ذكرناه، فإذا بالمسلاّت

التي سال رشحها على جوانبها مؤذناً باندثارها ، تتجمّد من جديد ، بعد أن ذاب نصفها ، بأحجام مصغَّرة مشوهة. وعادت طبقة جميلة من الثلج فغطت الشوارع والأرصفة ، فإذا بالزلاّجات تظهر ثانية مع جيادها المرتجفة من البرد ، جاذبة بمنظرها العجيب أنظار الباريسيين.

وفي الشوارع الضيقة كانت المركبات والعربات الصغيرة تثير الرعب في قلوب المشاة على أرجلهم ، لأنهم كانوا لا يسمعون صوتها ، ولا يستطيعون الفرار من طريقها بسبب حواجز الجليد ، فيسقطون في أكثر الأحيان تحت دواليبها التي لا ترحم.

وفي أيام قليلة امتلأت باريس بالجرحى والمنازعين ، فكانت ساق تنكسر هنا على الجليد ، وصدر ينسحق هناك بصندوق عربة مسرعة لم تستطع التوقف بسبب الجليد أيضاً. لذلك شرع رجال البوليس يبذلون جهدهم لكي ينقذوا من الدواليب أولئك الذين نجوا من البرد والجوع والفيضانات. وقد فرضوا جزية على الأغنياء الذين كانوا يسحقون بعرباتهم الفقراء. ذلك أن الارستقراطية كانت سائدة في ذلك العهد ، وكانت تلك الارستقراطية تظهر حتى في طريقة قيادة الخيل : فكان الأمير يترك للخيل أعنّتها دون أن يحمّل نفسه عناء تنبيه الناس ، وكان الدوق والسريّ والنبيل وراقصة دار الأوبرا

يجرون بالخيل جرياً سريعاً ، وكان المدراء وخبراء المال يجرون بجيادهم نصف جري . أما معلم المدرسة البسيط فقد كان يقود عربته بنفسه ويجري بها جري من يذهب إلى الصيد ، فيما كان جوكيّه من خلف يهتف بالناس أن يحذروا ، ولكن بعد أن يكون المعلم قد جرّ بعربته بائساً أو قلبه إلى الأرض .

ولم يكن الباريسيّ يحفل بهذه الأخطار ، شرط أن يشاهد الزلاّجات الجميلة ، بأعناقها التي تشبه أعناق طيور البجع البيضاء ، وهي تنزلق بسرعة فوق الشوارع . وأن يشاهد نساء البلاط الجميلات ، المغلّفات بمعاطف الفرو ، يعبرن كالنجوم المذنبة في مسالك الجليد اللامعة . وأن يصطفّ أولاده على ممرّ هذه الأشياء الجميلة ، لكي يتسلوا بمنظر الجلاجل المذهبة في أعناق الجياد ، والشباك الارجوانية وغدائر الريش التي تزيّنها . وهكذا فقد كانت هذه المشاهد تجعل البورجوازي ينسى تغافل رجال البوليس ، وفظاظة سائقي العربات. وكان الفقير من ناحيته ينسى، لبعض لحظاتٍ على الأقل ، بؤسه المدقع ، لا سيما وأنه كان في ذلك العهد لا يزال معتاداً على الخضوع للأغنياء ومن ماثلهم .

في تلك الظروف التي وصفناها ، وبعد ثمانية أيام من الوليمة التي أولمها الماريشال دي ريشاليو في قصره بفرساي ، وفي يوم بارد ولكنه جميل بشمسه المشرقة ، شاهد الباريسيون

أربع زلاّجات أنيقة المنظر تدخل إلى مدينة باريس، زالقة على الثلج المتجمد الذي كان يغطي ساحة «كورلارين»، وطرف الشوارع الممتدة من ساحة «الشانزيليزيه». وبالطبع فقد كان الثلج خارج باريس يحتفظ بنصاعته وقتاً طويلاً، أمّا في باريس ذاتها فقد كانت ألوف الأقدام، في مدى ساعة واحدة، تدنّس وتلطخ بالسواد معطف الشتاء الرائع.

أما الزلاّجات الأربع فقد جرت قليلاً فوق الطريق الصلدة، ثم توقفت في الشارع عندما أخذ الوحل يحلّ محلّ الثلج. وفي الواقع، فقد كانت شمس النهار قد عدّلت الجو، فبدأ الثلج يذوب ذوباناً مؤقتا. ونقول مؤقتاً، لأن نقاوة الهواء كانت تنذر الليل بتلك الريح الشمالية القارسة التي تحرق في نيسان باكورة أوراق الشجر وباكورة الأزهار.

وكانت الزلاّجة الأولى التي تسير في الطليعة، تقلّ رجلين يرتديان معطفين فضفاضين من الجوخ الأسمر، وصورتين ثمينتين كان الفارق بينهما ان إحداهما كانت مزررة بأزرار ذهبية.

وكان جواد أسود، ينفخ من منخريه دخاناً كثيفا، يجر زلاجة الرجلين، اللذين كانا يلتفتان أحياناً إلى الزلاجة التي تتبعهما، وكأنهما قائمان على حراستها.

أما الزلاجة الثانية فقد كانت تحمل امرأتين تتدثّران الفرو وقد سترتا وجهيهما عن أعين الناس . فلولا تسريحتهما العالية التي تنتهي بقبعة صغيرة ذات ريش ، لما عرف الناس أن هذين الشخصين هما امرأتان .

وكانت سحابة من البودرة البيضاء تنطلق من تلك التسريحتين اللتين تشبهان بناءً ضخماً ، واللتين جدلتا بالشرائط والحلى الصغيرة ، كما تنطلق سحابة ثلج من شجرة هزّت الريح أغصانها .

وكانت السيدتان الجالستان ملتصقتين إحداهما بالأخرى، تتحدّثان دون اكتراث بالمتفرجين الكثيرين الذين كانوا ينظرون إليهما وهما تنزلقان في الشارع . وقد فاتنا أن نشير إلى استئنافهما السير بعد لحظة قصيرة من التوقف والتردد .

وكانت إحداهن ، وهي الأكبر سنّاً والأكثر مهابة ، تحجب فمها بمحرمة من البتيستا النحيفة المطرزة ، وتسير ورأسها مستقيم ثابت في اتجاهه بالرغم من الريح التي كانت الزلاّجة تشقّها أثناء عدوها السريع . وها هي الآن ساعة كنيسة «الصليب المقدّس» تدقّ الخامسة مساء ، وتنذر بدنوّ الليل الذي أخذ ينتشر فوق باريس حاملاً معه البرد القارس .

وكان ركب الزلاّجات قد اقترب في هذه اللحظة من باب كنيسة «سان دنيس» ، فإذا بالسيدة التي تغطي فمها بمنديل

تشير إشارة إلى الرجلين اللذين كانا يجريان في المقدّمة ، فإذا بهما يحثان خطى الجواد الأسود فتنفصل زلاجتهما وتبتعد عن زلاّجة السيدتين .

ثم استدارت السيّدة نحو زلاّجتي المؤخرة وأشارت لهما إشارة سرعان ما فهمها السائقان ، فأطاعا الأمر ولجّا في السير حتى غابا في شارع « سان دنيس ».

أما زلاّجة الرجلين التي كانت تسير في الطليعة ، فقد سبقت زلاجة السيدتين كما رأينا ، وتوغلت في ضباب المساء الذي كان يزداد تكاثفاً حول بناء الباستيل الضخم .

ولم تلبث زلاَّجة السيدتين أن توقفت عند وصولها إلى جادّة « منيلمونتان » . فالمشاة الذين يطلبون النزهة هناك كانوا نفراً قليلاً ، وقد فرّقهم الليل شَذَر مَذَر . وعلى كل حال فقد كان عدد قليل من البورجوازيين يغامرون في الدخول إلى هذا الحي البعيد ، دون أن يصطحبوا معهم الخفراء والفوانيس ، لأن الشتاء كان قد شحذ أضراس ثلاثة أو أربعة آلاف من المتسوّلين المشبوهين، الذين انقلبوا بين ليلة وضحاها إلى لصوص .

عندما وصلت الزلاّجة إلى هذا الحي نقرت المرأة ، التي رأى قراؤنا أنها توزع الأوامر ، على كتف السائق فأوقف زلاّجته في الحال . فخاطبته السيّدة قائلة :

– كم يلزمك من الوقت يا « ويبار » لكي توصل العربة إلى المكان الذي تعرفه ؟

فأجابها السائق بلهجة ألمانية سليمة: تريد سيدتي ان تنزل من العربة ؟

– نعم ، لأنني سأعود مشياً على الأقدام في الشوارع الفرعية لأشاهد مواقد النار . ويستحيل على الزلاّجة أن تجري في هذه الشوارع الموحلة . ومن ثَمَّ فقد شعرت بالبرد . وأنت أيضاً أيتها الصغيرة ، أليس كذلك ؟

وكانت عبارتها الأخيرة هذه موجّهة إلى رفيقتها التي أجابت قائلة :

– نعم ، يا سيدتي .

– فهمت إذن يا « ويبار » ؟ إمضِ بالزلاجة إلى المكان المحدّد .

– كما تشائين يا سيدتي؟

– كم يلزمك إذن من الوقت؟

– نصف ساعة .

– حسناً ، انظري الساعة أيتها الصغيرة .

فبحثت أصغر السيدتين في فروتها ، ثم نظرت إلى الوقت في ساعتها ، ولكن بصعوبة لأن الظلام كان قد تكاثف ، وقالت :

– إنها السادسة إلا رُبعاً .

– نلتقي إذن في الساعة السابعة إلا ربعاً ، يا ويبار .

وقفزت السيدة بلطف إلى خارج الزلاّجة ، وأمسكت يد رفيقتها وشرعتا تبتعدان في الشوارع ، وقد أخذ السائق يتمتم بصوت عالٍ وباحترام يائس هذه الكلمات التي سمعتها سيدته :

– إنها مجازفة ، يا الهي ! إنها مجازفة !

فضحكت السيدتان ، والتفّتا جيداً في فروتيهما اللتين كانتا تغطيان أذنيهما ، ثم عبرتا الطريق المتفرّع من الجادّة باتجاه معكوس ، وهما تتسليان بصفع الثلج بأقدامهنّ الصغيرة المنتعلة أحذية مبطنة بالفرو .

وكانت السيدة التي تبدو أكبر سنّاً من رفيقتها لا يزيد عمرها عن الثلاثين أو الاثنتين والثلاثين ، وقد قالت لرفيقتها :

– أنت عيناك حادّتان ، فحاولي أن تقرإي في تلك الزاوية اسم هذا الشارع . فقالت رفيقتها وهي تضحك :

– إنه شارع « بونتوشو » .

– ما هذا الشارع ؟ يا إلهي ! لقد ضللنا السبيل . شارع بونتوشو ! قالوا لي الشارع الثاني إلى اليمين . ولكن أتشمّين يا أندريه ما ألذّ رائحة الخبز في هذا الشارع الذي نحن فيه ؟

– لا تعجبي للأمر ، فنحن على باب خبّاز .

– إذن فلنسأله أين يقع شارع « سان كلود » . واتجهت السيدة التي تكلمت نحو الباب، ولكن رفيقتها استوقفتها قائلة :

– مهلاً ! لا تدخلي يا سيدتي ! دعيني أنا أفعل .

وإذا بصوت فَكِه يقول في الحال : تسألان عن شارع « سان كلود » يا سيدتيّ اللطيفتين ؟ أتريدان أن تعرفا أين يقع هذا الشارع ؟

فاستدارت السيدتان معاً باتجاه الصوت ، فشاهدتا عاملاً خبّازا يسند ظهره إلى باب الفرن ، وقد ارتدى سترة طويلة ، وظلَّ صدره وساقاه مكشوفين بالرغم من البرد القارس .

فهتفت أصغر السيدتين قائلة : رجل عارٍ ! تُرى هل نحن في أوقيانيا ؟

ثم خطت خطوة إلى الوراء واختبأت في ظل رفيقتها . إلا أنَّ الخبّاز لم يفهم معنى حركتها لأنه كان معتاداً على زيّه هذا ، لذلك فقد تابع قائلاً :

– إنكما تبحثان عن شارع سان كلود ؟

– نعم يا صديقي ، إننا نبحث عن شارع سان كلود .

أجابت بهذا أكبر السيدتين ، وهي تتمالك نفسها من أن تضحك .

– هذا أمر سهل . على كل حال سأقودكما إليه .

تلفظ بهذا الفتى الخبّاز المرح، الملطخ بالدقيق المتناثر عليه، وشرع يقرن القول بالعمل، ففكَّ بيكار ساقيه الطويلتين الهزيلتين اللتين كانتا تنتعلان حذاء عريضاً هو أشبه ما يكون بزورق. ولكنّ كبرى المرأتين التي لم تكن تفكر بلقاء مثل هذا الدليل أسرعت إلى إيقافه قائلة:

- كلا! كلا! دلنا على الشارع ولا تزعج نفسك، فسنحاول أن نتبع إشارتك.

فانكفأ الغلام عندئذ بتحفظ وهو يقول:

- إنه الشارع الأول، إلى اليمين، يا سيدتي.

فأجابت المرأتان معاً: شكرا.

ثم راحتا تعدوان بالاتجاه المشار إليه، وهما تخنقان ضحكهما خلف كمّيهما.

منزل من الداخل

★

كان شارع سان كلود سنة ١٧٨٤، قليل الإنارة والوضوح، يطرقه ويسكنه ويعرفه عدد قليل من الناس. ولكنه يحمل اسم «سان» أي قدّيس، ويقع في حي «ماريه»

المعروف بفنادقه القديمة . وبصفته هذه كان يضمّ في المنازل الثلاثة أو الأربعة التي يتألف منها عدداً من ذوي الدخل المحدود المساكين ، والتجّار المساكين ، والفقراء المساكين الذين أُسدل عليهم ستار النسيان .

وبالإضافة إلى تلك المساكن الثلاثة أو الأربعة ، فقد كان يقوم في زاوية الجادّة فندق عليه مسحة من الأبّهة ، يستطيع شارع سان كلود أن يتباهى به كبناء أرستقراطي . ولكن هذا البناء كان يفوق كلّ ما حوله اسوداداً وصمتا ، كما أنه كان لا يفتح أبوابه ونوافذه أبداً . ولو أنه فُتح وأُنير في يوم عيد من الأعياد لكانت نوافذه العالية كافية لأن تُغرق الشارع بأسره بالضياء المنبعث من الشمعدانات والثريّات .

ولكن أبوابه كانت دائماً مقفلة ونوافذه مغلّفة بالجلد . وكان الغبار يغطّي ثنايا درفه بطبقة سميكة لو رآها عالم طبيعي أو جيولوجي لحكم أن عهدها يعود إلى عشر سنين .

وكان في بعض الأحيان يمرّ أمام بابه العريض المعدّ لدخول العربات ، عابر سبيل لا يشغله شاغل ، أو فضوليّ أو جار ، فيقتربون من الباب العريض ويتفحّصون من خلال قفله الواسع داخل الفندق . ولكنهم لا يبصرون سوى العشب ينمو في عَرَصَاته ، والعفن والخضرة المتأتيّة من الرطوبة يغطّيان بلاطاته العريضة . وكانوا يشاهدون أحياناً ، جُرَذاً كبيراً يجتاز

باطمئنان ساحة الفندق السائب وكأنه صاحبه المتصرّف به على هواه، ثم يتوغّل في الأقبية، وهذا بالطبع تواضع منه لا مبرّر له لأن الحجرات المريحة كانت ملك يديه، فيمرح فيها كما يشتهي دون أن يقلقه أو يتربّص به هرّ من الهررة.

وإذا كان المارّ من هناك فضولياً أو عابر سبيل، فإنه كان يتابع طريقه بعد أن يشفق في نفسه للوحشة التي يغرق فيها الفندق. وإذا كان جاراً فقد كان يتوقّف عنده باهتمام أشدّ، مطيلاً إليه النظر إلى أن يدنو منه جار آخر له ذات فضوله، فيقوم بينهما في أكثر الأحيان تقريباً حديث نستطيع أن نذكر محتواه إن فاتتنا تفاصيله.

فيقول أحدهما للذي ينظر في القفل: ماذا عساك تشاهد أيها الجار في منزل الكونت دي بلسامو؟

- إني أرى الجُرذ، أيها الجار.

-آه! إسمح لي أن أنظره.

ويتقدّم الفضوليّ الثاني ويحتلّ مكانه أمام القفل. فيسأله رفيقه:

- هل رأيته؟

- نعم إني أراه. ولكنه قد سَمُنَ يا سيّدي.

- أتظنّ هذا؟

- نعم، إني متأكد.

– أعتقد أن لا شيء يزعجه هنا .

– طبعاً ، ولا بدّ أنه يجد طعاماً وافراً في المنزل .

– طعاماً وافراً تقول ؟

– يا الله ! لقد بكّر السيد دي بلسامو في رحيله ، ولا بد أنه ترك أشياء كثيرة .

– ولكن أيها الجار ما عسى يظلّ في بيت احترق نصفه ؟

– قد يكون الحقّ في جانبك أيها الجار .

وبعد أن ينظر الجاران مرّة ثانية إلى الجُرذ يفترقان وقد استبدّ بهما الخوف من كثرة ما قالا في مثل هذا الموضوع الغامض الدقيق .

وفي الواقع غاب جوزف بلسامو بعد أن أتى الحريق على هذا المنزل ، أو على قسم منه ، وقد ظَلَّ سائباً فلم يجرِ فيه أيّ إصلاح أو ترميم .

ولنترك الآن هذا المنزل القديم الذي لم نشأ أن نمرّ به دون أن نقف أمامه كما نقف أمام شيء نعرفه من قديم . لنتركه يبرز على صفحة الليل قاتماً رطباً بشرفاته المغطاة بالثلج وسقفه الذي التهمت بعضه ألسنة اللهيب . ثم لنقطعنّ الشارع من اليسار إلى اليمين ولنتطلع إلى منزل ضيق عالي الجدران يلتصق بحديقة صغيرة مقفلة داخل جدار كبير ، ويتوغّل ارتفاعاً في كبد السماء المغبرّة الزرقاء وكأنه حصن أبيض شاهق .

وإنك لترى في قمّة هذا المنزل مدخنة تتطاول كقضيب الصاعقة، ونجمة في رأس المدخنة تماماً تلمع وتتوهج.

وكان الطابق العلويّ من المنزل يكاد يتوارى في الفضاء لولا أن شعاعاً من النور كان ينطلق من نافذتين، من أصل ثلاث نوافذ تتألف منها واجهة الطابق.

أما الطوابق الأخرى فقد كانت مظلمة قاتمة. ترى هل نام ساكنوها؟ هل اندسّوا باكراً في أغطيتهم لكي يوفّروا الشموع الغالية الثمن والحطب النادر الوجود؟ على كل حال فقد كانت الطوابق الأربعة السفلى لا تنبئ بالحياة في داخلها بينما كان الطابق الخامس ينعم بالحياة ويتلألأ بنور وافر يخرج منه.

ولنقرعنّ الباب السفليّ، ولنصعدن على الدرج الذي يؤدّي إلى الطابق الخامس الذي هو موضوع اهتمامنا الآن، فنلاحظ أن سلماً عاديّاً منصوباً على الجدار هو الذي يقود إلى الطابق العلويّ.

وإذا فتحنا الباب الأول من الطابق المذكور فإننا ندخل إلى غرفة مظلمة عارية من الأثاث. هذه الغرفة هي ذات النافذة المظلمة، وهي غرفة انتظار تقود إلى غرفة ثانية تثير اهتمامنا بأثاثها وتفاصيلها: فأرضها من بلاط لا من خشب، وأبوابها مدهونة بدهان غليظ، وفيها ثلاثة مقاعد من الخشب الأبيض

مغطاة بمخمل أصفر، و «صوفا» تتماوج مساندها مجعّدةً بسبب السنين التي مرّت عليها.

والمقاعد هي تماماً كالناس من حيث عمرها: تشيخ فتتراخى وتظهر عليها الغضون والأخاديد. وعندئذ فإنها تنوء تحت من يجلس عليها، وتعول من انكسار.

وأول ما يجذب الأنظار في هذه الغرفة لوحتان معلقتان في الجدار، ينيرهما شمعدان وقنديل، أحدهما وُضع على طاولة مستديرة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام، وثانيهما وُضع على المدفأة.

أما اللوحة الأولى فإنها تمثّل صورة رجل بدت عليه سمة الأبّهة والوجاهة، يعتمر قلنسوة على رأسه، ذي وجه مستطيل شاحب، وعين باهتة اللون، ولحية مروّسة. وقد زيّن عروته بخصل من الفريز، ولشدَّ ما يشبه هذا الوجه وجه هنري الثالث ملك فرنسا وبولونيا. وقد كتب تحت الصورة بأحرف سوداء وعلى الإطار الذي تقشّر طِلاؤه الذهبيّ، هذا الاسم: «هنري دي ڤالوا.»

وتمثل الصورة الثانية التي يدل طلاؤها الذهبي ودهان ألوانها على أنها أحدث عهداً من رفيقتها، امرأة شابّة، عيناها سوداوان، وأنفها دقيق مستقيم، ووجنتاها نافرتان، وفمها مزموم زمّاً. وإنها تنوء تحت تسريحة ضخمة تشبه بناء من

الشعر والحرير وتبدو إلى جانب قلنسوة هنري الثالث بنسبة الهرم إلى بيت الخلد .

ولقد كُتب أيضاً تحت هذه الصورة بحروف سوداء اسم : « جان دي ڤالوا .»

وإذا أردنا أن نعرف علاقة هاتين اللوحتين بسكّان هذا الطابق الخامس ، بعد أن نكون قد شاهدنا المدفأة المنطفئة والستائر الحريرية المنسولة على السرير المغطى بحرير دمشقي أخذ يصفرّ ، علينا أن نستدير نحو طاولة صغيرة من خشب السنديان ، فنشاهد امرأة تسند إليها ذراعها الأيسر ، امرأة ترتدي ثوباً بسيطاً وقد انهمكت في تقليب بعض الرسائل القديمة وفي قراءة عناوينها .

هذه المرأة هي التي يظهر رسمها في إحدى اللوحتين .

وإننا نشاهد على بعد ثلاث خطوات منها عجوزاً صغيرة في الستين من عمرها ، تشبه بملابسها إحدى عجائز الرسام «غرويز » ، وقد وقفت الى جانبها تنظر إليها ببعض الفضول والاحترام .

ولقد رأينا أن اللوحة تحمل اسم « جان دي ڤالوا » . فإذا كانت هذه المرأة من آل « ڤالوا » ، فكيف يستطيع هنري الثالث ، الملك الشهوانيّ الذي رأيناه يزيّن عروته بخُصَل الفريز ، أن يتحمّل منظر هذا البؤس الذي يحيق بامرأة من

سلالته وتحمل اسمه، حتى وإن كان لا ينظر إليها إلا من خلال لوحة الجدار؟

ومن ثمَّ فإنّ سيّدة الطابق الخامس كانت تملك الصفات التي تشير إلى النسب الذي اتخذته لنفسها، فيداها بيضاوان نحيفتان كانت تدفئهما من وقت لآخر تحت إبطيها، وقدمها صغيرة رقيقة مستطيلة تحتذي بابوجاً من المخمل يوحي بالدلع، كانت تحاول أن تدفئها فتقرع بها البلاط اللامع البارد كهذا الجليد الذي يغطّي باريس.

وكانت الريح تصفر تحت الأبواب ومن شقوق النوافذ، فكانت العجوز التابعة للسيدة تهزّ كتفيها بحزن وهي تنظر الى المدفأة الخالية من النار.

أما سيّدة المنزل فقد كانت لا تنفك تعدّ الرسائل وتقرأ عناوينها، وكلما قرأت عنواناً ينشغل ذهنها بعملية حسابية صغيرة، فتتمتم بكلمات تتعلق بهذه العملية بالذات، ثم ترفع رأسها لتقول:

- نظفي ذُبالة تلك الشمعة يا سيّدة كلوتيلد.

فأطاعت العجوز أمر سيدتها، ثم عادت إلى موضعها حيث وقفت رصينة صاغية. ولكن يبدو أن المرأة الفتيّة انزعجت من وقوفها هذا ومن عينيها اللتين تتتبعان ما تفعل، فقالت لها:

- إبحثي يا عزيزتي لعلك تجدين بعض أعقاب الشموع الصغيرة لكي نوفّر الشموع الكبيرة التي تحترق وتذوب.

فأجابت العجوز: لم يبق لدينا شيء منها.

- عاودي البحث فلعلك تجدين.

- وأين تريدين أن أبحث؟

- في غرفة الانتظار.

- البرد قارس هناك.

- تجدين دائماً الأعذار. ولكن اسمعي، فهناك من يدقّ جرس الباب.

- كلا! إن سيّدتي متوهمة.

- هكذا اعتقدت يا سيدة كلوتيلد.

وعندما رأت المرأة الفتية إصرار العجوز على مقاومتها، تخلّت عن طلبها وهي تؤنّبها بلطف، شأنها في ذلك شأن كبير يرضخ لعناد من هم دونه مركزاً وقدراً، مع العلم بأن له حقاً عليهم. ثم عادت تستأنف عمليتها الحسابية وهي تمتم قائلة:

- ثماني ليرات ذهبية، ثلاث منها أسدّ بها ديناً في الحي.

ثمّ تناولت ريشتها وشرعت تكتب:

- ثلاث ذهبيّات ... وخمسٌ أخرى وعدتُ بها السيد «دي لاموت»، لأجعله يتحمّل الإقامة في مدينة «بار سير

أوب » Bar sur aube. يا للشيطان المسكين! فزواجه بي لم يوفّر له الثروة المنشودة. ولكن صبراً على الدهر!

وهنا أخذت تبتسم وهي تنظر إلى نفسها في مرآة موضوعة بين اللوحتين في الجدار. ثم استأنفت مخاطبة نفسها قائلة:

- والآن ليرة ذهبية أجرة انتقال من فرساي إلى باريس، ومنها إلى فرساي.

وسجّلت هذا الرقم الجديد في عمود النفقات.

- ثم ليرة للمعيشة طيلة أسبوع. وأربع ليرات لوسائل الهندام، ومركبات الانتقال، وللهبات التي يجب أن أنقدها السويسرانيين حرّاس البيوت التي سأقرع أبوابها. تُرى هل هذا كل شيء؟ لأجمعنّ الحساب الآن.

ولكنها توقفت أثناء الجمع قائلة للمرأة العجوز:

- قلت لك إنهم يدقون جرس الباب.

فأجابت العجوز وهي مخدّرة في موضعها:

- كلا يا سيدتي، ليس عندنا. إنهم يدقون في الطابق السفليّ، في الطابق الرابع.

فتابعت المرأة جمع حسابها موسوسةً تقول:

- أربع ليرات، ست ليرات، إحدى عشرة، أربع عشرة ليرة: ينقصني ست ليرات، يضاف إليها أجرة تجديد خزانة

الثياب وأجرة هذه العجوز الفظّة التي سأصرفها من هذا المنزل .

ثم إذا بها تصرخ هذه المرّة :

– إنهم يدقّون على الباب أيتها التعسة !

ويجب الإعتراف بأن رنين جرس الباب هذه المرّة كان قويا تسمعه أكثر الآذان صمماً . فقد فُتِل لسان الجرس بشدّة وأخذ يضجّ في زاويته ويقرع أكثر من اثنتي عشرة قرعة .

هنا استفاقت العجوز من خمولها وأسرعت نحو مدخل المنزل ، بينما وثبت سيّدتها كالسنجاب فأخذت تجمع الرسائل والأوراق المبعثرة على الطاولة وتدسّها جميعها في جارور من الجوارير . وبعد أن ألقت نظرة سريعة على أثاث الغرفة لتتأكد من ترتيبه ، جاءت تجلس على الصوفا جلسة وديعة حزينة كمن ألمّ به انكسار مؤلم ولكنه يعالج نفسه بالصبر .

بيد أنه يجب أن نسرع فنقول : لقد كانت أعضاء جسمها ساكنة هادئة ، أما عيناها فقد كانتا متيقّظتين قلقتين تستفسران المرآة التي تعكس باب الدخول ، وأذناها مرهفتي السمع تنصتان لسماع أخفّ صوت وأقل حركة .

وفتحت العجوز الباب . وسُمعت تمتمة كلمات في مدخل المنزل . ثم تلاها صوت عذبٌ رقيق ، ولكنه حازم ، فلفظ هذه الكلمات :

- هنا تسكن الكونتس « دي لاموت » ؟

فأجابت كلوتيلد بصوت يخرج من أنفها :

- الكونتيس دي لاموت فالوا ؟

- بالضبط ، يا سيدتي الطيبة . وهي هنا السيدة دي لاموت ؟

- نعم ، ولكن سيدتي مريضة فلا تستطيع أن تخرج .

لم يفت السيّدة التي تدّعي المرض حرف واحد من هذا الحديث . وقد نظرت خلاله إلى المرآة فشاهدت امرأة تسأل كلوتيلد ، وعرفت أن ظواهر هذه المرأة تدلّ على أنها تنتمي إلى طبقة رفيعة في المجتمع .

فغادرت الصوفا التي كانت جالسة عليها ، وانتقلت إلى مقعد آخر لكي تترك للسيدة الغريبة مجلس الشرف .

ولكنّ قيامها بهذه الحركة منعها عن أن ترى الزائرة تعود نحو الدرج فتخاطب شخصاً متوارياً في الظلام بقولها :

- ادخلي يا سيدتي ، هوذا المكان المقصود .

ثم غُلق الباب وقد دخلت السيّدتان اللتان رأيناهما تسألان عن شارع سان كلود إلى منزل الكونتس دي لاموت ڤالوا . أما كلوتيلد فقد شرعت تنزّه بفضول واحترام الشمعدان أمام وجهي السيّدتين قائلة :

- عمن يتوجب عليّ أن أعلن لسيدتي الكونتس ؟

فأجابت كبرى السيدتين :

- أعلني عن زيارة سيّدة تعمل في أعمال البرّ والاحسان .

- سيدة قادمة من باريس ؟

- كلا ، من فرساي .

فدخلت كلوتيلد إلى غرفة سيّدتها تتبعها المرأتان الغريبتان اللتان، عندما دخلتا الغرفة المنارة، كانت جان دي ڤالوا تنهض بجهد لتحيّي زائرتيها بأدبٍ جَمّ .

فقدّمت كلوتيلد المقعدين الآخرين لتختار كل من الزائرتين المقعد الذي تريد الجلوس عليه ، ثم توارت في غرفة الانتظار ببطء ينمّ عن الرزانة وعن أنها ستتسمّع ولا شك من وراء الباب إلى الحديث الذي سيدور بين صاحبة المنزل والزائرتين .

جان دي لاموت دي ڤالوا

★

كان همّ جان دي ڤالوا الأوّل ، عندما تسنّى لها أن ترفع عينيها ببراءة ، أن تعرف مع أي الوجهين ستكون معاطاتها .

وقد رأينا أن كبرى السيدتين كانت في الثلاثين أو الاثنتين والثلاثين من عمرها . ولقد كانت ذات حسن جذّاب بالرغم

من أن مسحةً من التعالي كانت تنتشر على وجهها كله فتسلبه قسماً من عذوبته .

هذا ما استخلصته جان من النظرة الجزئية التي مكّنتها من أن تشاهد سيماء زائرتها . وفي الواقع فقد كانت الزائرة قد تجنبت الجلوس على الصوفا وجلست على مقعد انتحت به إلى الزاوية بعيدة عن لسان الضوء الذي يبعثه القنديل . كما أنها مغطت قبّة معطفها وقرّبتها إلى الأمام معكسة ظلاً على وجهها .

ولكنّ شموخ رأسها ، وحيويّة عينيها وانفراجهما بصفاء طبيعي ، كانت تعطي عنها صورة عامّة تشهد ، وإن امّحت بعض تفاصيلها ، بأنها من سلالة رفيعة نبيلة .

أما رفيقتها التي كانت ، بالظاهر على الأقل ، أقلّ ارتباكاً منها وإن كانت أفتى منها بأربع أو خمس سنوات ، فقد كانت تجهر بحسن حقيقي . إذ أنها كانت تملك وجهاً رائعاً باستدارته ولون بشرته ، وتسريحةً تكشف عن الصدغين المنبلجين كصبح مشرق ، ومقلتين واسعتين زرقاوين هادئتين على صفاء ونافذتين على عمق ، وفماً رائع التصوير مهرته الطبيعة بالصراحة وعوّدته قواعد الأدب على الرزانة ، وأنفاً يشبه باتّساقه أنف إلهة الجمال فينوس . هذا ما التقطته جان بنظرتها السريعة . ولقد شرد بصرها على تفاصيل أخرى

فتمكنت من أن تلاحظ بأن قامة هذه المرأة الفتية هي نحيفة وأكثر ليونة من قامة رفيقتها، وأن صدرها أعرض وأشدّ نفورا، وأن يدها مملوءة بقدر ما كانت يد رفيقتها عصبية رقيقة.

لقد استطاعت جان دي ڤالوا أن تلاحظ كل هذه الأشياء في لحظات قليلة، أي في وقت أقصر من الوقت الذي سردناه للقارئ.

وبعد أن فرغت من هذه الملاحظات سألت زائرتيها عن الفرصة السعيدة التي تكمن وراء زيارتهما. فتبادلت السيدتان النظرات، ثم أشارت الكبرى إلى رفيقتها أن تتكلم، فقالت الصغرى:

– إننا يا سيدتي ... إنك متزوجة على ما أعتقد؟

– لي الشرف أن أكون زوجة الكونت دي لاموت الذي هو نبيل ممتاز.

– حسنا يا سيدتي، فنحن رئيستا مؤسسة خيريّة. وقد بلغتنا عن حالتك أخبار أثارت اهتمامنا فجئنا نتحرّى بعض التفاصيل الدقيقة التي تتعلق بك وبمن يخصك.

تريثت جان قليلاً قبل أن تجيب. ثم قالت وقد لاحظت تحفظ الزائرة الثانية:

– إنكما تريان هنا يا سيدتيّ صورة هنري الثالث، أي شقيق جدّي، إذ أنني حقاً من سلالة آل ڤالوا ومن دمهم، كما قيل لكما على ما أظن.

ثم انتظرت من زائرتيها جوابا جديداً، ناظرةً إليهما بنوع من التواضع الذي تشوبه الكبرياء. فقطع الصمت عندئذ صوت رصين عذب هو صوت كبرى السيدتين إذ قالت:

– أصحيح يا سيدتي أن والدتك كانت كما يقولون حارسةً لبناية تُدعى «فونتيت» وتقع قرب مدينة «بار سير سين»؟

فاحمرّ وجه جان عند ذكر والدتها، ولكنها أجابت دون أن ترتجف:

– أجل يا سيدتي، كانت والدتي حارسةً لبناية فونتيت.

فندّ عن السائلة صرخة تعجب، ولكن جان تابعت تقول:

– ولما كانت والدتي ماري فوسّيل نادرة الجمال، فقد تعلّق بها قلب والدي وتزوجها. فأنا نبيلة من جانب والدي الذي يرجع بنسبه إلى عائلة سان ريمي دي ڤالوا ويتحدر مباشرة من آل ڤالوا الذين حكم ملوكهم فرنسا.

– ولكن كيف انحدرت إلى هذه الدرجة من البؤس يا سيدتي؟

– هذا مؤسف حقاً! ولكنك تفهمينه بسهولة.

- تكلمي، إني صاغية لك.

- لا أخالك تجهلين أن العائلة التي خسرت صولجان الملك بتسنّم هنري الرابع العرش وتسليمه تاج آل ڤالوا لآل بوربون، خلَّفت بعض أفراد من نسلها ظلوا يعيشون منسيّين ولكنهم ولا ريب فروع من الجذع العام، جذع الأخوة الأربعة الذين هلكوا هلاكاً مشؤوماً.

فتبادلت هنا السيدتان نظرات قد يُفهم منها أنها تعبير عن الموافقة. فتابعت جان تقول:

- ولما كان هؤلاء الباقون من آل ڤالوا يخشون أن يثيروا حولهم، بالرغم من انزوائهم، ظنون العائلة الجديدة المالكة، فقد بدّلوا اسم عائلتهم باسم عائلة «ريمي» الذي هو اسم أرض معروفة. وظلّوا يحملون هذا الاسم منذ عهد لويس الثالث عشر، إلى أن جاء جدّي الذي هو، باستثناء والدي، آخر من تبقى من أسرة آل ڤالوا، ففكر بألا يحرم نفسه من هذا الاسم الشهير زمناً أطول، لا سيما وأن العائلة المالكة قد وطّدت أركانها، وأن الفرع القديم أصبح طيّ النسيان. فاستعاد اسم ڤالوا وراح يجرّه في مقاطعته في ظلّ النسيان والفقر، دون أن يفكر أحد في بلاط فرنسا بأن سليلاً من أسرة ملوك فرنسا القدماء إنما يعيش عيشاً بائساً، بعيداً عن

أبّهة التاج، وأن هذا السليل إن لم يكن من أكثر أفراد أسرة ڤالوا مجداً، فهو على الأقل من أكثرهم بؤساً.

توقفت جان بعد أن تلفظت بهذه الكلمات المغلّفة بالبساطة والاعتدال الملحوظ. وكانت كبرى الزائرتين ترمق بنظرة عميقة هذه المرأة التي تقول إنها من سلالة آل فالوا، وقد سألتها بلهجة رقيقة قائلة:

– لديك ولا شك البراهين الدامغة على صحّة ما تقولين يا سيدتي؟

فابتسمت جان بمرارة وأجابت قائلة:

– لا تنقصني البراهين يا سيدتي. فقد نظّمها والدي ووهبني إيّاها عند دنوّ أجله إرثاً وحيداً. ولكن ماذا تفيد البراهين حقيقة لا جدوى منها، أو حقيقة لا يريد أحد الاعتراف بها؟

فسألتها هنا صغرى السيدتين: وهل توفّي والدك؟

– نعم، ويا للأسف!

– توفّي في الريف؟

– كلا، يا سيدتي.

– في باريس إذن؟

– نعم.

– وفي هذه الدار؟

– كلا ، يا سيدتي . فوالدي البارون دي ڤالوا ، أحد حفدة الملك هنري الثالث ، مات من الفقر والجوع .

فهتفت السيدتان معاً : هذا مستحيل !

فتابعت جان تقول : لم يمت والدي في هذه الدار الفقيرة ، ولم يمت على سريره وإن كان فراشاً حقيرا ! بل مات الى جانب البؤساء والمعذّبين في مستشفى « أوتيل ديو » في باريس .

فصرخت السيدتان صرخة ذهول هي أشبه شيء بصرخة رعب . أما جان ، فبعد أن تأكدت من التأثير الذي خلقته صياغة حديثها في نفس زائرتيها ، ظلت جامدة في مقعدها مكسورة النظرات إلى الأرض ، مُرخية يدها في شبه شلل . وقد راحت كبرى السيدتين تتفحّصها بعين نافذة ذكية ، فلم ترَ في حزنها هذا البسيط الطبيعي شيئاً من التلاعب أو الابتذال ، لذلك فقد استأنفت تقول :

– ينبئني حديثك يا سيدتي بأنك عانيت مصائب كثيرة ، وفي رأسها موت أبيك ...

– آه ! لو رويتُ لك قصة حياتي ، يا سيدتي ، لرأيت أن موت أبي لا يُحسب أبداً في عداد المصائب الكبيرة التي قاسيتها .

فقالت كبرى السيدتين وهي تقطّب حاجبيها تقطيباً صارماً :

– ماذا ! أتحسبين موت الوالد مصيبة صغيرة ؟

– نعم يا سيدتي ، مع العلم أنني أتكلم كفتاة ورعة . فالموت أنقذ والدي من جميع المصائب التي كانت تحيق به في هذه الأرض ، والتي ما زالت تحيق بابنته التعسة . فأنا أشعر إذن ببعض الفرح عندما أفكر أثناء حزني بأن أبي قد مات ، وبأن سليل الملوك لم يعد بحاجة إلى استجداء خبزه من الناس .

– استجداء خبزه من الناس !

– أجل . وإني أقول هذا دون خجل ، لأن مصائبنا لم تكن ناجمة عن غلط أبي أو غلطتي .

– إنه غلط أمك إذن ؟

– أصغيا إليّ ! قلت لكما بصراحة إنني أشكر الله على استدعائه نفس أبي إليه ، وكذلك أقول لكما بصراحة إنني أتشكّى من الله لأنه ترك والدتي تعيش .

فنظرت السيّدتان كلّ إلى رفيقتها وهما تكادان ترتجفان من سماع هذه الكلمات . ثم قالت الكبرى :

– أتعتبرين ثرثرةً يا سيدتي أن أسألك شرحاً أوسع لمصائبك ؟

- الثرثرة منّي يا سيدتي ، إذ أنني أُتعب أذنيكما بسردي أمامكما آلامي التي قد لا تعنيكما في شيء .

- بل إنني صاغية لك يا سيدتي ، فتكلمي .

أجابت بهذا كبرى السيدتين ، ولكن بلهجة تنمّ عن الجلال والمهابة ، ممّا جعل رفيقتها ترمقها بنظرة هي بمثابة تحذير لها تدعوها فيه إلى مراقبة نفسها . وفي الواقع فقد شعرت مدام دي لاموت بمهابة هذا الصوت وراحت تنظر بدهشة إلى صاحبته التي استأنفت تقول بصوت أخف صرامةً من ذي قبل :

- إنني صاغية إليك ، وأرجوك أن تتكلمي .

وعندما أنهت عبارتها هذه صدرت عنها حركة تدلّ على أنها شعرت بالبرد ، فاقشعر كتفاها وتحركت قدمها التي كاد صقيع البلاط الرطب أن يجعلها تتجمّد . فقدّمت لها عندئذ رفيقتها الصغرى سجّادة صغيرة كانت إلى جانب مقعدها . ولكنّها حدجت بدورها رفيقتها بنظرة تنمّ عن التأنيب لاهتمامها بها قائلة لها :

- احتفظي يا أختي بهذه السجّادة لك ، فأنت أشدّ نحافة مني .

فتدخلت الكونتيس دي لاموت قائلة : أرجو المعذرة يا سيّدتي ، فلشدّ ما أنا متألمة ومتأسّفة لهذا البرد الذي تتعرّضان له في منزلي ، ولكن الحطب ارتفع سِعره ست ليرات ، فأصبح

قنطاره يكلف سبعين ليرة . وقد نفد مخزوني منه منذ ثمانية أيام .

فقاطعتها كبرى الزائرتين لكي تعيدها إلى حديثها الأول قائلة : قلتِ يا سيدتي إنك كنت شقيّة بوجود والدتك .

– نعم ، ومثل هذا التجديف يحتاج طبعاً إلى شرح ، وسأقدم لك هذا الشرح ما دمت ترغبين فيه يا سيدتي .

فهزّت محدّثة الكونتس رأسها بالموافقة ، وتابعت جان دي لاموت تقول :

– سبق لي الشرف وأخبرتك يا سيدتي أن والدي ارتبط بقرانٍ غير موفّق .

– نعم ، بزواجه من حارسة باب منزله .

– أجل . إلا أن والدتي ، ماري فوسّيل ، بدل أن تعتزّ بهذا الزواج وأن تحفظ الجميل لوالدي الذي أولاها هذا الشرف ، فقد سارعت إلى إفقاره بتحقيق مطاليبها الجشعة على حساب ثروة زوجها الضئيلة . وبعد أن جعلته يبيع آخر شبرٍ من أرضه أقنعته بأن يولّي وجهه شطرَ باريس لكي يطالب بالحقوق التي تعود إليه من اسمه . وبُهر والدي بسهولة ، ولعله كان يؤمّل بعدالة الملك ، فقصد باريس بعد أن باع آخر ما كان يملك .

وكان لوالدي ابن وبنت غيري . أما الإبن فإنه شقيّ مثلي ، ويعيش عيشة تعسة في آخر صفٍّ من صفوف الجيش . وأما

البنت، التي هي أختي المسكينة، فقد ألقي بها قبل أن يسافر والدي بليلة واحدة أمام منزل أحد المزارعين، وقد كان « عرّابها » بالمعمودية.

واستنفد هذا الرحيل إلى باريس النزر اليسير من الدراهم التي كانت في حوزتنا. ومن ثمّ فقد أرهق أبي السؤالُ دون طائل، حتى ندَرَ قدومه إلى المنزل الذي كان يواكبه إليه البؤس، ولا يجد فيه سوى البؤس. وفي غيابه كانت والدتي الباحثة عن ضحيّة تتجهَّم دائماً في وجهي، وقد بدأت تخاصمني في ما أنال من طعام، حتى صرت أفضّل أن أقضم الخبز اليابس وحده، أو أن أعزف عن الأكل مكتفية بالجلوس إلى طاولتنا البائسة. ولكن والدتي كانت تجد دائماً الأعذار لمعاقبتي، فتصفعني لأقلّ غلطة من تلك الأغلاط التي تثير ابتسام الأمَّهات أحيانا. وقد ظنّ بعض الجيران أنهم ينفعونني فشكوا لأبي ما كانت تفرضه عليَّ من عقوبات، فحاول والدي أن يحميني منها، ولكنه لم يلحظ أن حمايته قد حوّلت عداوتها العابرة إلى كره أبدي. ولسوء طالعي لم يكن باستطاعتي أن أسدي إليه نصيحة بشأني، لأنني كنت صبية طفلة تتحمّل نتائج الأشياء دون أن تفقه كنهها ومسبّباتها. ولم يكن بوسعي سوى معاناة الألم باستسلام وصمت.

ومرض والدي، فأُرغم على التزام حجرته ثم سريره. وأُجبرت على إخلاء غرفته بحجة أن وجودي فيها يزعجه بحركاتي وصوتي، فعادت والدتي عندئذ تبسط سلطانها عليّ، وشرعت تلقنني عبارة تتخللها اللطمات المؤذية، وعندما حفظت عن ظهر قلبي تلك العبارة الوضيعة التي كانت تحول غريزتي دون تعلمها، وبعد أن قرّحت الدموع عينيّ، أنزلتني إلى باب الشارع وقذفتني منه نحو أول عابر سبيل ينمّ مظهره عن الثراء، وأمرتني أن ألقي على مسمعه تلك العبارة وإلاّ كان نصيبي جَلْدٌ حتى الموت.

- وما عساها تكون تلك العبارة؟

- إنها العبارة التالية: «اشفق يا سيّدي على يتيمة تتحدر مباشرة من نسل هنري دي ڤالوا».

فهتفت كبرى الزائرتين باشمئزاز: أوه! يا لهذا التصرّف الوضيع!

ثم سألت السيدة الصغرى: وما هو التأثير الذي كانت تتركه هذه العبارة على من كنت تطرحينها عليهم؟

- كان البعض يشفقون عليّ، والبعض يثورون ويتهدّدون. وكان آخرون يسبغون عليَّ عطفاً أكثر من الأولين فيحذّرونني من الخطر الذي قد ينجم عن هذه الكلمات فيما إذا وقعت في آذانٍ مغرضة. ولكنني لم أكن

أعرف سوى خطر واحد هو عصيان والدتي ، وخوفٍ واحد هو الخوف من لطماتها .

– وماذا حصل بعدئذ ؟

– حصل يا سيدتي ما كانت تتمنّاه والدتي ، إذ أصبحت أدرّ على البيت بعض الدراهم التي أبعدت عن ناظري أبي المشهد المخيف الذي كان ينتظره : المستشفى .

فتقلّصت سحنة كبرى السيدتين ، وترقرق الدمع في عيني الصغيرة منهما . وقد تابعت جان دي لاموت تقول :

– إلا أن هذه المهنة القبيحة جعلتني أثور بالرغم من المؤاساة التي وفّرتها لوالدي . فكففت في أحد الأيام عن إلقاء عبارتي على مسامع العابرين ، وجلست بعض النهار إلى جانب نُصبٍ متلاشية وقد خارت قواي . ثم عدت في المساء إلى المنزل فارغة اليدين ، فجلدتني والدتي جلداً شديداً أبقاني مريضة في اليوم التالي .

وعندما انقطع عن والدي كل عون اضطرّ إلى دخول مستشفى « اوتيل ديو » ، حيث فارق الحياة .

فتمتمت السيدتان معاً : يا لها من قصة مخيفة !

ثم سألت الزائرة الصغرى : وماذا فعلت بعد موت والدك ؟

– أخذني الله برحمته ، فرحلت والدتي عن المنزل بعد

شهر من موت والدي المسكين برفقة جنديّ كان عشيقها، وقد تركتني وأخي وحيدين.

- وبقيتما هكذا يتيمين؟!

- مهلاً يا سيدتي! فنحن، بعكس الآخرين، لم نكن يتيمين إلا بوجود والدتي. فقد تبنّانا إحسان الناس، ولما كنّا نكره التسوّل فلم نكن نحترفه إلا لسدّ حاجتنا، والله يأمر خلقه أن يسعوا في سبيل العيش.

- يا للقصة المؤسفة!

- ماذا تُرى أحكي لك يا سيدتي؟ ففي يوم من الأيام أسعدني الحظ بمصادفة مركبة كانت تتسلق ببطء ضاحية «سان مارسيل»، وكان أربعة خدم يسيرون خلفها، وكان في داخلها سيّدة حسناء في الربيع من عمرها. مددت لها يدي، فطرحت عليّ سؤالاً أجبتها عليه، فأذهلها الجواب كما أذهلها اسمي. فذكرت لها عنواناً ومرجعاً تعود إليه. وعندما عرفت في اليوم التالي أنني كنت صادقة تبنتني أنا وأخي، وأدخلت أخي في سلك الجندية، وأدخلتني إلى محترف للخياطة. وهكذا نجونا كلانا من الجوع.

- ألم تكن تلك السيدة مدام «بولانفلييه»؟

- هي بعينها.

- أظن أنها ماتت؟

– نعم، وقد عاد موتها فألقى بي في الهاوية.

– ولكن زوجها حيّ يرزق، وهو ثري.

– إن زوجها يا سيدتي هو سبب مصائبي كفتاة صبية، كما كانت والدتي سبب مصائبي كطفلة. فقد اكتسبت كما أعتقد مسحة من الجمال، الشي الذي أثار انتباه الزوج عليّ، فأراد أن يتقاضى ثمناً لإحسانه عليّ، ولكنني رفضت أن أستجيب لشهوته. في هذه الاثناء توفّيت مدام «بولانفيلييه» التي كانت قد زوجتني الى عسكريّ طيّب مستقيم هو السيد «دي لاموت»، فاذا بي أصبح بعد موتها بلا معيل كما كنت ذلك بعد موت والدي، لا سيما وأنني كنت مفصولة عن زوجي.

هذه هي قصتي يا سيدتي، ولقد اختصرتها لأنه يتوجّب توفير الآلام الطويلة على السعداء، وإن كانوا محسنين مثلكما يا سيّدتي.

وعقب هذا المقطع الأخير من قصة السيدة دي لاموت صمت طويل، قطعته كبرى السيدتين بقولها:

– وماذا يعمل زوجك؟

– زوجي خفير في مدينة «بار سير أوب»، يا سيدتي، فهو دركيّ ينتظر هو أيضاً وقتاً أفضل.

– ألم تراجعي البلاط بشأنه؟

– بلى ، ولا شك .

– ألم يوقظ اسم آل ڤالوا المشفوع بالألقاب عطف البلاط عليكما ؟

– لا أعلم يا سيدتي ما هي المشاعر التي أثارها اسمي هناك ، لأن عرائضي لم تفز بأيّ جواب .

– وهل قابلت الوزراء أو الملك أو الملكة ؟

– لم أقابل أحداً ، لأن جميع محاولاتي ذهبت أدراج الرياح .

– طبعاً إنك لا تستطيعين الآن احتراف التسوّل .

– كلا يا سيّدتي فقد نسيت تلك العادة . ولكن ...

– ولكن ماذا ؟

– ولكنني أستطيع أن أموت من الجوع كما مات والدي .

– أما رزقتِ أولاداً ؟

– كلا يا سيدتي . واذا ما قُتل زوجي في خدمة الملك ، فإن بؤسنا ينتهي بموته نهاية مجيدة .

– اعذريني يا سيّدتي إذا أصررت على هذا الموضوع : أوتستطيعين تقديم البراهين التي تبرر النسب الذي تنتمين إليه ؟

فنهضت جان وبحثت في خزانة ، ثم تناولت بعض أوراق وقدمتها للسيدة . ولكنها أرادت أن تستغلّ الفرصة السانحة

لتتعرّف إلى زائرتها حين تقترب من النور وتكشف عن قسماتها كلها، ولكن خطتها هذه انكشفت إذ أنها أخذت ترفع ذبالة القنديل لتضاعف النور المنبعث منه. لذلك فقد أدارت السيدة المحسنة ظهرها للسيدة دي لاموت وللقنديل كأنّ النور يبهر عينيها، وشرعت تقرأ، وهي في وضعها هذا، كلّ ورقة بمفردها مدققةً بالمضمون الذي تحتويه، ولكنها سرعان ما قالت:

- هذه نسخٌ لا أرى فيها ورقة واحدة أصيلة.

- الأصول يا سيدتي موضوعة في مكان أمين وباستطاعتي أن أعرضها متى أريد.

فابتسمت الزائرة وقالت:

- طبعاً إذا سنحت لك فرصة هامّة؟

- لا شك أن الفرصة التي سنحت وشرّفتني برؤيتك هي فرصة هامّة يا سيدتي. ولكنّ الوثائق التي ذكرتِها هي ثمينة لديّ إلى حدّ ...

- إنني أفهم. إلى حدّ أنك لا تستطيعين تسليمها لأول قادم.

ولكن الكونتيس دي لاموت استطاعت أخيراً أن تتبيّن وجه السيدة المليء بالوقار، فهتفت قائلة:

- ولكنني لا أعتبرك قادمة أولى يا سيدتي.

ثم دنت من خزانة ثانية، ففتحت في الحال جاروراً سرّياً أخرجت منه الوثائق الأصلية التي كانت موضوعة بعناية داخل حقيبة من جلد رسم عليها شعار آل ڤالوا.

فتناولتها السيدة المحسنة، وفحصتها بذكاء وانتباه وقالت:

– إنك على صواب، فهذه الوثائق شرعية، وإنّي أحثّك على ألاّ تتردّدي في إبرازها لمن له حقّ الاطلاع عليها.

– وعلى ماذا أحصل بواسطتها، برأيك، يا سيدتي؟

– على جَعَالةٍ مالية لك، وترقية للسيد دي لاموت، شرط أن يكون مسلكه في وظيفته قابلاً للترقية.

– إن زوجي، يا سيدتي، هو مثال الشرف، ولم يقصّر مرة في واجبات الخدمة العسكرية.

– هذا كافٍ يا سيدتي.

قالتها السيّدة المحسنة وهي تغلّف وجهها بقبّة ردائها. وكانت السيدة دي لاموت تراقب جميع حركاتها بفضول شديد، فرأتها تبحث في جيبها وتخرج أولاً منديلها المطرّز الذي كانت تخفي به وجهها عندما كانت تخترق الشوارع بزلاّجتها. ثم تلت المنديل لفافةٌ صغيرة طول قطرها إبهام وارتفاعها ثلاثة أو أربعة أصابع، فوضعتها السيدة المحسنة على الطاولة وهي تقول:

– يخوّلني مكتب الأعمال الخيرية أن أقدم لك يا سيدتي هذه المساعدة الصغيرة، بانتظار الفرج الأوفر.

فألقت السيدة دي لاموت نظرة سريعة على اللفافة وقالت في نفسها: «إنها قطع من ثلاث ليرات، خمسون قطعة أو مئة. يا الله! هذه ماية وخمسون ليرة أو ثلاثماية ليرة تنزل علينا من السماء. ولكنّ اللفافة قصيرة إذا كانت تحتوي مئة قطعة، وطويلة إذا كانت تحتوي خمسين».

وفيما كانت تحدّث نفسها بهذه الملاحظات، عبرت السيدتان إلى الغرفة الأولى حيث كانت السيدة كلوتيلد تنام على كرسيّ بالقرب من شمعة كان لسانها الأحمر المدخّن يستطيل في وسط صفحة الشمع الذائب.

وإذا برائحة حادّة تثير القيء تشدّ على بلعوم السيدة المحسنة التي وضعت اللفافة على الطاولة، فأسرعت بمدّ يدها إلى جيبها وأخرجت منها قمقماً صغيراً.

ولكنّ نداء جان أيقظ كلوتيلد التي مدّت يدها إلى بقايا الشمعة فحملتها عالياً، وكأنها ترفع منارة فوق تلالٍ مظلمة، بالرغم من احتجاج السيدتين الغريبتين اللتين أوشكتا أن تموتا خنقا من الرائحة الكريهة المالئة جوّ الغرفة.

– إلى اللقاء، إلى اللقاء، يا سيدتي الكونتيس.

فاهت السيدتان بهذا وانحدرتا على الدرج مسرعتين. فسألتهما جان دي ڤالوا قائلة: في أي مكان ينالني شرف شكركما يا سيدتيّ؟

– نقول لك في المستقبل.

لفظت كبرى السيدتين هذه الكلمات الأخيرة وهي تنزل على الدرج بأكثر سرعة ممكنة. وسرعان ما ضاع وقع أقدامهما في أعماق الطوابق السفلى.

وعادت مدام دي ڤالوا الى غرفتها وقد انتابها فضول شديد لتعرف ما إذا كانت ملاحظاتها صائبة بشأن اللفافة. ولكنها لم تكد تجتاز الغرفة الأولى حتى اصطدمت قدمها بغرضٍ تدحرج على البساط الذي يغطي الأرض بالقرب من الباب. وسرعان من انحنت إلى الأرض فالتقطته وعادت نحو القنديل.

كان ذلك علبة ذهبية مستديرة مسطحة ومغلّفة ببساطة. وكانت هذه العلبة تحتوي على حبوب من الشكولاطة المعطرة، وكان من الواضح أن في داخلها جوفاً آخر قضت الكونتس بعض الوقت لتكتشف اللولب السرّي الذي تفتحه به. وعندما اكتشفت هذا اللولب حركته ففُتح الجوف عن صورة امرأة صارمة الوجه، ذات حسن رجوليّ رائع وهيبة موقّرة، تسبغ عليها تسريحتها الألمانية وعقدها المنتظم الرائع في عنقها غرابة مذهلة.

وكان غطاء العلبة يحمل رقماً مكوّناً من حرفي « م » و« ت » وقد تشابكا داخل إكليل من الغار.

فظنّت مدام دي لاموت أن الصورة تمثّل والدة السيدة المحسنة أو جدّتها، بسبب الشبه الذي يوجد بين الصورة ووجه المرأة الشابّة. لذلك فقد كانت أول حركة قامت بها أنها ركضت نحو الدرج لتنادي السيدتين. ولكنها سمعت باب المدخل ينصفق ، فعَدَت نحو النافذة لتناديهما منها لأن اللحاق بهما أصبح مستحيلاً. ولكنها لم تشاهد سوى مركبة تنطلق مسرعة في طرف شارع سان كلود الذي يتّصل بشارع سان لويس.

وعندما يئست الكونتس من مناداة السيدتين عادت تتأمّل في العلبة، واعدة نفسها بأن تحملها إلى فرساي. ثم تناولت اللفافة المتروكة على الطاولة وقالت:

- لم يخطئ ظنّي، إنها لا تحتوي سوى خمسين قطعة من الدراهم.

ولكنها لم تكد تشقّ الورقة عنها حتى صرخت قائلة:

- دنانير ذهبية! دنانير ذهبية مزدوجة! خمسون ديناراً مزدوجاً! ألفان وأربعماية ليرة!

وارتسم فرح جشع في عينيها، بينما تسمّرت السيدة

كلوتيلد في موضعها مفغورة الفم، مشبوكة اليدين، وقد أذهلها منظر هذه الدنانير الذهبية التي لم تر مثلها في حياتها.

أما مدام دي لاموت فقد أخذت تكرّر قائلة:

– مائة دينار ذهبي! هاتان السيدتان هما هكذا غنيتان! إذن لن تفلتا من يدي وسأجدهما!...

الجواد بيلوس

★

لم يخب ظن مدام دي لاموت عندما اعتقدت أن المركبة التي رأتها تختفي في طرف الشارع كانت تُقلّ السيدتين المحسنتين. فقد وجدت هاتان السيدتان إلى جانب المنزل مركبة من مركبات ذلك العهد، ذات عجلات عالية، وصندوق خفيف، وباب مرتفع، ومقعد خلفي ملائم يجلس عليه السائس، وقد كدن إليها جواد إرلنديّ رائع الشكل، ذنبه قصير، وكَفَله سمين، أحمر اللون مطهّم، وقد أحضره إلى شارع «سان كلود» السائس الذي رأينا سيّدة المحبة تدعوه «ويبار».

وكان ويبار هذا عند وصول السيدتين يمسك الجواد بلجامه ، محاولاً أن يهدّئ عنفوان هذا الحيوان الجموح الذي كان يقرع بقوائمه المتوترة الثلج الذي جعله هبوط الليل يشتد تجمّداً وصلابة . وعندما شاهد السيدتين بادرهما قائلا بلهجة ألمانية مشوّهة :

– طلبت يا سيّدتي الجواد « شيبيون » الهادئَ السلس القيادة ، ولكنه كبا وتعطّل البارحة عند المساء ، ولم يبق سوى « بيلوس » وبيلوس جواد صعب المراس .

فأجابته كبرى السيدتين قائلة : إنك تعلم يا ديبار أن الأمر لا يهمني كثيراً ، فيدي متوتّرة الأعصاب ، وقد اعتدت قيادة الخيل .

– أعلم أن سيدتي تقود بمهارة ، ولكن الطرقات صعبة المسالك . إلى أين تتجه سيدتي ؟

– إلى فرساي .

– بطريق الجادات العريضة ؟

– كلا يا ويبار ، فالجليد متكاثف يملأ الجادات ببلوره المتصلب ، وقد تكون الشوارع العادية أقلّ خطورة لأن ألوف الناس يطرقونها جيئة وذهاباً فيحمى الثلج فوقها ويذوب . هيّا يا ويبار ، أسرع ، أسرع !

فشدّ ويبار يده على لجام الحصان ، بينما صعدت السيدتان بخفّة إلى المركبة ، ثمّ وثب إلى المقعد الخلفي منبّهاً عن ذلك .

فتوجهت عندئذ كبرى السيدتين بحديثها إلى رفيقتها قائلة :

– ما رأيك بهذه الكونتس يا أندريه ؟

وفيما هي تتلفظ بهذه الكلمات أطلقت العنان للجواد الذي انطلق كالبرق واخترق زاوية شارع سان لويس . في هذه اللحظة بالذات فتحت مدام دي لاموت نافذتها لتنادي سيّدتي المحبة . أما أندريه فقد أجابت قائلة :

– أعتقد يا سيدتي أن مدام دي لاموت فقيرة تعسة .

– إنها حسنة التهذيب ، أليس كذلك ؟

– نعم ، ولا ريب .

– أرى أنك تبدين فتوراً حيالها ، يا أندريه .

– أبوح لك بأن وجهها ينمّ عن شيء من الاحتيال لا يروق لي .

– أعلم أنك مبنيّة على الحذر يا أندريه ، ولا يرضيك شخص إلا إذا جمع كلّ الصفات الحسنة . أما أنا فإني أجد أن هذه الكونتس الصغيرة جديرة بالاهتمام ، وأنها بسيطة في كبريائها وتواضعها .

- هذه ثروة لها يا سيدتي بأن يسعدها حظ الفوز بإعجاب جلال...

ولكن السيدة الكبرى قاطعت رفيقتها إذ صرخت : حذار ! ثم انحرفت بحصانها بعنف لكي لا تصدم حمّالاً في زاوية شارع سان انطوان . وتلاها وييار فجأر بصوت راعد : حذار ! حذار ! وظلت المركبة تتابع جريها السريع ، فيما مكث الرجل الذي نجا من دواليب المركبة يفيض بالشتائم وقد انضمّ إلى صوته في الحال عدّة أصوات أخذت تزعق زعيقاً صاخبا ، عدائياً بالنسبة للمركبة . ولكنّ الجواد بيلوس فصل في لحظات معدودة بين سيّدته وجماعة الحانقين المجدّفين بالمسافة التي تمتدّ بين شارع سان كاترين وشارع بودواييه .

ولما كان الطريق هناك يواجه مفرقاً ، انطلقت السائقة الماهرة بتصميم في شارع « التيكساندري » ، وهو شارع شعبيّ ضيّق لا أرستقراطيّ . لذلك ، وبالرغم من التحذيرات المتكررة التي كانت تطلقها السيدة السائقة ، وبالرغم من زمجرة وييار ، فلم يكن يُسمع سوى هتافات المارّين المعادية الصاخبة :

- تبّاً لهذه المركبة ! لتسقط المركبة !

وكان بيلوس لا يكفّ عن جريه ، وكان حوذيّه بالرغم من نضارة يديه الطفلتين يجدّ به مسرعاً ، وبمهارة قلّ نظيرها لا

سيما في جُوَر الثلج الذائب أو في حفر الجليد الخطرة التي كوّنتها السواقي في عرض الشوارع التي اقتلع بلاطها في أكثر من موضع .

ولكن ، بالرغم من هذا ، لم تقع أية كارثة ، لأن مصباحاً منيراً كان يرسل أشعته في عرض الطريق ، وهذا كان وسيلة من وسائل الدراية والترف التي لم يكن البوليس في ذلك الوقت قد فرض استعمالها على المركبات .

لم تقع إذن أية كارثة : فلا عربة علقت بالمركبة ، ولا حاجزٌ لُمس ، ولا عابر سبيل أصيب بأذى . كان ذلك أعجوبة حقاً . إلا أن صراخ التهديد والوعيد كان لا يكفّ عن اللحاق بالمركبة وهي تخترق بسرعة شوارع « سان مادريك » و « سان مارتان » و « أوبري له بوشيه » .

وقد يبدو لقرّائنا أن الغضب الشديد الذي كان يثيره عبور هذا الركب الأرستقراطي كان يخفّ حدّة كلما دنت المركبة من الأحياء الممدّنة . ولكن العكس هو الصحيح ، فلم يكد الجواد بيلوس يدخل في شارع « لافيرّونري » حتى لاحظ ويبار الذي كانت شتائم الناس وصخبهم لا يكفّان عن ملاحقته ، أنَّ تجمّعاتٍ أخذت تعترض طريق المركبة ، بل إنه أبصر أشخاصاً كثيرين يتراكضون خلفه ليوقفوه .

بيد أن ويبار لم يشأ أن يزعج سيّدته ، فظلّ يلاحظ رباطة

جأشها ومهارتها، وحذقها في عبور العقبات الجامدة أو الحيّة التي تحمل للسائق في باريس إما اليأس وإما الظفر.

أما بيلوس الثابت على قوائمه الفولاذيّة فلم يزلق مرّة واحدة ما دامت اليد التي تشدّ رأسه تعرف كيف تنحرف به عن المزالق وعقبات الطريق. إلا أن اللغط حول المركبة قد تحوّل إلى هياج صاخب، وقد شعرت به السيدة التي تأخذ بيدها العنان، ولكنها عَزَت هذا العداء إلى أسباب تافهة كقسوة الطقس وبرم النفوس به، لذلك فقد عزمت على اختصار التجربة، فصفرت بلسانها صفرة كانت كافية لتجعل بيلوس يهتز ويحوّل عدوه الممسوك إلى عدو منطلق يترك الحوانيت خلفه، ويجعل عابري السبيل يفرون إلى جوانب الطريق بسبب سرعة المركبة والتحذيرات العالية المتكررة.

وكانت المركبة على وشك أن تصل إلى «القصر الملكي»، وقد مرّت بشارع «كوك سانت هونوريه» حيث كانت أجمل مسلّة من الثلج تشمخ برأسها الذي ذاب بعضه فأصبح شبيها بقضيب المعلّل الذي يمصّه الأولاد فيدقّ من رأسه. وكان رأس هذه المسلّة مكللاً بعصبة من الشرائط ذات أبهة وإن كانت قد فقدت بعض رونقها، وكانت هذه الشرائط تحمل لوحة تتأرجح بين قنديلين وقد خطّ عليها كاتب الحي بأحرف كبيرة الأبيات الأربعة التالية:

«أيتها الملكة التي يفوق حسنها كل روعة،
ألا احتلّي مكانك هنا بجانب الملك المحسن،
وإذا لم ترضي بهذا البناء المتهاوي من الثلج والجليد،
فهيّا احتلّي قلوبنا الصامدة.»

هنا واجه بيلوس أول صعوبة حقيقيّة، فالنصب الذي كانوا ينيرونه بالقناديل قد جذب عدداً من الفضوليين الذين اجتمعوا هناك في حشد كبير، وكان من الصعب على بيلوس أن يخترق هذا الحشد في مثل سرعته، فاضطرّت سائقته إلى إعادته إلى السير العاديّ. ولكن المحتشدين هناك كانوا قد شاهدوا بيلوس مقبلاً كالصاعقة، وسمعوا الصراخ الذي كان يتبعه. وبالرغم من وقوفه السريع أمام هذا الحاجز البشري فقد كان لمنظر المركبة وقع سيء على تلك الجمهرة.

ومع ذلك فقد فتحت الجمهرة طريقاً للمركبة.

إلا أن حشداً آخر كان قد تكوّن بعد مسلّة الثلج، ذلك أن شعريّات القصر الملكي كانت مفتوحة، وفي ساحته مواقد نار كبيرة يصطلي حولها جيش من المتسوّلين كان خدم دوق أورليان يوزّعون عليهم الحساء في طاسات فخّارية. وكان الآكلون والمصطلون، بالرغم من كثرتهم، أقلَّ عدداً من المتفرّجين عليهم. هذه عادة من عادات باريس: فلكل ممثّل، مهما فعل، يجد من يتفرَّج عليه.

فالمركبة إذن، بعد اجتيازها الحاجز البشريّ الأول، اضطرت أن تتوقف عند الثاني، تماماً كما تفعل سفينة أمام الصدمات.

عندئذ استطاعت المرأتان أن تسمعا بوضوح الصراخ الذي لم يصل إليهما حتى الآن إلا بشكل ضجيج مختلط مبهم:

- لتسقط المركبة! ليسقط ساحقو الناس!

فتوجهت السيدة التي كانت تقود الجواد إلى رفيقتها وسألتها قائلة:

- هذه الصرخات موجّهة إلينا؟

- حقاً إنها تخيفني يا سيدتي.

- وهل دهسنا أحداً؟

-كلا، لم ندهس أحدا.

أما الناس فقد كانوا يصيحون بغضب:

- لتسقط المركبة! وليسقط الساحقون!

إنها العاصفة! وقد قبض الناس على لجام الجواد بيلوس الذي لم يأنس لهذه الأيدي الخشنة فراح ينفخ ويزبد بعتوّ شديد. وإذا بصوت يصيح:

- إلى مفوّض البوليس! إلى مفوّض البوليس!

فنظرت السيدتان كلّ منهما إلى الثانية بذهول شديد. فإذا بألف صوت تردّد مجتمعة:

- إلى مفوض البوليس! إلى مفوض البوليس!

وشرعت رؤوس بعض الفضوليين ترفع غطاء المركبة وتطلّ إلى داخلها، وقد راحت الاشاعات المختلفة تنتشر في كل صوب، فإذا بصوت يصيح:

- زه، زه! إنهما امرأتان.

- أجل، لعبتان لعشاق آل «سوبيز»، ومن محظيّات الأمير «هينان».

- بل إنهما من بنات دار الأوبرا اللواتي يحسبن أنّ لهن حقّ دهس الناس الفقراء لأن راتبهن ألف ليرة في الشهر يستطعن به تسديد حساب المستشفى.

فإذا بعاصفة من الهتاف الشديد تستقبل هذه العبارة الأخيرة الساخرة. أما السيدتان فقد كان وقع هذا الزعيق عليهما مختلفاً، فتوغّلت إحداهما مصفرّة مرتجفة في قعر المركبة، فيما قدّمت الثانية رأسها بحزم وهي تقطّب حاجبيها وتزم شفتيها. ولكنّ رفيقتها شدّتها إلى الوراء هاتفة:

- آه! ماذا تفعلين يا سيدتي؟

أما الأصوات فقد اشتدت ضراوة، وكانت ما تزال تصيح:

- إلى مفوض البوليس! إلى مفوض البوليس لكي يكشف عن هويتهما!

فوسوست عندئذ صغرى السيدتين في إذن رفيقتها قائلة :

– آه يا سيدتي ! لقد أدركنا الهلاك . فأجابتها رفيقتها :

– تشجّعي يا أندريه ، تشجّعي .

– ولكنهم سيرونك ، ويعرفون من أنت .

– انظري من الزجاج الخلفي إذا كان ويبار لا يزال خلف المركبة .

– إنه يحاول النزول ، ولكن الناس يحيقون به . إنه يدافع عن نفسه . ها إنه ينزل ويأتي نحونا .

فصاحت كبرى السيدتين بالألمانية قائلة:

– ويبار ، ويبار ، هيّا أنزلنا من المركبة .

فأطاع الخادم وأخذ ينحّي مهاجميه بكتفيه ، ثم فتح باب المركبة ، فقفزت السيدتان بخفّة إلى الأرض ، فيما كان المحتشدون من الناس يتشبَّث بعضهم بالجواد ، وبعضهم الآخر بدأ يحطم صندوق المركبة . أما كبرى السيدتين فقد تابعت تساؤلها بالألمانية قائلة :

– ما الذي يجري ، يا للسماء ؟! أتفهم شيئاً مما يحدث يا ويبار ؟

– لا والله ، يا سيدتي .

أجاب الخادم بهذا بالألمانية ، وبيسرٍ يفوق نطقه بالفرنسية ، وقد كان أثناء ذلك لا يكف عن توجيه ركلاته إلى كل

صوب لكي يشقّ طريقاً لسيدته التي تابعت تقول بالألمانية أيضاً :

- هؤلاء ليسوا بشراً، إنهم حيوانات كاسرة. تُرى أيّ مأخذ لهم عليَّ ؟ ألا يتكلمون ؟

فإذا بصوت مهذّب، يتناقض تماماً مع التهديد والوعيد اللذين كانا يوجّهان للسيدتين، يجيب بلغة ساكسونية صافية :

- إنهم يأخذون عليكما، يا سيدتيّ، أنكما خالفتما مذكرة البوليس التي صدرت في باريس صباح هذا اليوم، والتي تمنع سير المركبات حتى قدوم الربيع. ولا أحسبكما تجهلان الخطر الذي ينجم عن سير المركبات على الجليد.

فاستدارت السيّدة لترى من أين يأتي هذا الصوت المؤدب عكس بقية الأصوات المهدّدة بالويل. فشاهدت ضابطاً شاباً لا شك أنه ناضل نضالاً شديداً ليدنو منها، كما فعل ويبار ليستقرّ في موضعه. فأُعجبت بوسامته وهيبته، وبقامته المرتفعة، وبالحماسة التي تبدو عليه، وأسرعت إلى إجابته بالألمانية :

- يا الله ! إنني أجهل هذه المذكرة يا سيدي، أجهلها تماماً.

- هل أنت غريبة يا سيدتي ؟

- نعم. ولكن أرشدني، ماذا يجب أن أفعل؟ إنهم يحطمون مركبتي.

- دعيهم يحطمونها يا سيدتي، واستفيدي من هذه الفرصة لكي تتواري عن أنظارهم، فشعب باريس ثائر على الأغنياء الذين يتباهون بالأبّهة أمام البؤس. ثم باستطاعة هؤلاء أن يقودوكما إلى مفوّض البوليس معتمدين على المذكرة التي صدرت في هذا الصباح.

- كلا! أبداً! أبداً!

هتفت بهذا أصغر السيدتين، فضحك عندئذ الضابط وقال:

- استغلاّ إذاً الممرّ الذي سأشقه بين الناس، وتواريا في الحال.

فاه الضابط بهذه الكلمات، ففهمت السيدتان الغريبتان أنه سمع ما عيّرهما به الناس عندما لقبوهما بعشيقتي « سوبيز » و « هينان ». ولكن الوقت لم يكن صالحاً للجدال، لذلك فقد قالت كبرى السيدتين بلهجة آمرة:

- قدّم لنا ذراعك حتى نصل إلى عربة في الساحة.

فأجاب الضابط:

- كنت سأهيج جوادكما فيخلق ضجيجه بلبلة تجعلكما

تتواريان، لا سيما وأن الشعب قد سئم هذه اللغة الغريبة التي نتكلمها والتي لا يفهمها.

وكان الضابط يريد أن يزيح عن كاهله مسؤولية تقديم ذراعه للسيدتين، ولكن السيدة صرخت بصوت قويّ:

– هيّج يا وييار الجواد بيلوس، لكي يفرّق الرعب هؤلاء الناس.

– وبعد ذلك يا سيدتي؟

– وبعد ذلك تبقى في مكانك ونمضي نحن.

– وإذا حطموا صندوق المركبة؟

– دعهم يحطمونه ولا تهتم. فقط أنقذ بيلوس إذا استطعت، وأنقذ نفسك، هذا هو الشيء الوحيد الذي أوصيك به.

– كما تشائين يا سيدتي.

أجاب بهذا وييار ولكز الجواد الارلندي النزق الذي وثب في وسط الساحة مجندلاً الذين كانوا أكثر اندفاعاً فتشبّثوا باللجام أو بمحملي المركبة.

فإذا البلبلة والرعب يسودان في الحال. فقالت السيدة:

– هاتِ ذراعك أيها الضابط.

ثم التفتت إلى أندريه وقالت: وتعالي أنت يا صغيرتي.

– هيّا تشجعي يا سيدتي.

تمتم الضابط بهذه الكلمات بصوت منخفض وهو يقدّم ذراعه بإعجاب للسيدة التي طلبت منه ذلك. ولم تمضِ بضع دقائق حتى قاد السيدتين إلى الساحة المجاورة حيث كانت العربات واقفة تنتظر ريثما تسلك الطريق، وكان سائسو هذه العربات نائمين على مقاعدهم بينما كانت جيادهم تنتظر علفة المساء الهزيلة برؤوس منخفضة وعيون نصف مغمضة.

طريق فرساي

★

وجدت السيدتان نفسيهما بعيدتين عن مطال الجماهير، ولكنهما كانتا تخشيان أن يلحق بهما بعض الفضوليين، فيعرفوهما، فيتجدد المشهد السابق وتكون وسيلة النجاة هذه المرة أمرّ وأصعب.

وقد فكر الضابط بمغبّة هذا الأمر، فأسرع إلى عربجيّ تجمّد على مقعده من البرد والنعاس، وأخذ يلجّ في إيقاظه.

وكان البرد قارساً إلى درجة أن السائق لم يتحرك من موضعه، وكذلك سائقو العربات الأخرى الذين تعوّدوا أن يزاحم بعضهم بعضاً على الدور مزاحمة شديدة. فقبض

الضابط على عروة سترة السائق الرثة وهزّه هزّة عنيفة أيقظته من خَدَره . وعندما شعر الضابط الشاب بأن سمة الحياة قد بدت عليه صرخ في أذنه :

- أفق يا رجل ، أفق !

- أمرك يا معلم ، أمرك .

نطق بها الرجل وهو ما يزال يحلم ويتهاوى على مقعده كأنه سكران . فسأل الضابط السيدتين باللغة الألمانية :

- إلى أين أنتما ذاهبتان يا سيدتيّ ؟

- إلى فرساي .

فهتف السائق عندما سمع هذا الاسم :

- إلى فرساي ! قلتما إلى فرساي ؟

- نعم .

- أوه ! أي مسافة أربعة فراسخ ونصف فرسخ في مثل هذا الجليد ! لا ، لا ، لا أقبل ...

فقالت كبرى السيدتين الألمانيتين : ولكننا ندفع . فكرّر له الضابط قولهما بالفرنسية .

ولكن العربجي لم يبدُ شديد الثقة بهذا القول ، لذلك فقد سأل قائلاً :

- وكم تدفعان ؟ وعليك يا سيدي الضابط أن تحسب أيضاً حساب العودة من فرساي .

فقالت السيدة الصغرى للضابط بالألمانية أيضاً :

- دينار ذهبي ، هل هذا يكفي ؟

فكرّر الضابط قائلاً للعربجي :

- إنهما تدفعان ديناراً ذهبياً .

فغمغم العربجي قائلاً : دينار ذهبي ، هذا هو السعر تماماً ، لأن جواديّ قد يكبوان فتتحطم قوائمهما .

- ما أعجب أمرك ! فسعرك ثلاث ليرات لكي تصل إلى قصر « لامويات » الذي يقع في وسط المسافة ، وهذا يعني أنك تستحق إثنتي عشرة ليرة ذهاباً وإياباً ، ولكنك ستقبض أربع وعشرين ليرة .

إلا أن كبرى السيدتين تدخلت قائلة للضابط : لا تفاصله ، ليتقاضَ دينارين بل ثلاثة بل عشرين ديناراً ، شرط أن يسير في الحال دون أن يتوقف .

فقال الضابط : يكفيه دينار واحد يا سيدتي .

ثم توجه بالكلام إلى العربجي وقال :

- هيا انزل عن مقعدك أيها الوغد وافتح بابك .

ولكن العربجي أجاب قائلاً :

- أريد أن أتقاضى الحساب سلفاً .

- الحساب !

- هذا حقي .

فتحرّك الضابط إلى الأمام، بيد أن كبرى السيدتين الألمانيتين قالت : لندفع سلفاً . ثم أخذت تبحث في جيبها . ولكنها سرعان ما همست لرفيقتها :

- يا الله ! محفظتي ليست معي !..

- حقاً ؟

- وأنت يا اندريه، هل محفظتك معك ؟

فأخذت المرأة الصبية تبحث بدورها وقد بدا عليها قلق مماثل، ثم قالت :

- كلا، أنا أيضاً لم أجدها .

- ابحثي عنها في جيوبك كلها .

- عبثاً أبحث فهي ليست معي .

هتفت المرأة الصبية بهذه الكلمات بحنق ظاهر، لأنها رأت الضابط يتبعهما بنظره أثناء هذا الحوار، والعربجيّ الهازئ يفتح فماً عريضاً ليبتسم مهنئاً نفسه على هذا الحذر السعيد .

وبحثت السيدتان طويلاً دون أن تجد إحداهما فلساً في جيوبها . ورآهما الضابط يفقدان الصبر ويحمر وجهاهما ويشحبا وقد تعقد الموقف على مثل هذه الحال . وكانت السيدتان تهمّان أن تقدّما للعربجيّ كرهينة سلسلة ذهبية أو جوهرة ثمينة، ولكن الضابط وفّر عليهما ما قد يجرح

حسّهما ، فأخرج من محفظته ديناراً ونقده العربجي ، فتلقفه هذا وشرع يتفحصه ويزينه بيده بينما كانت السيدتان تشكران للضابط فعلته ، ثم فتح باب عربته فصعدت إليها السيدة ورفيقتها . عندئذ توجه الضابط الشاب إلى العربجيّ وقال :

– والآن ايها السائق الطريف ، كن مستقيماً أمينا ووصّل السيدتين الى حيث تشاءان ، هل فهمت ؟

– طبعاً يا سيدي الضابط ، ولست بحاجة إلى توصية .

ولكن السيدتين كانتا أثناء هذا الحوار القصير تتشاوران فيما بينهما ، وقد اخذتا تنظران بعين الرعب إلى حوذيهما، ثم همست الصغرى الى رفيقتها بعد أن أصبح حارسهما مستعدّاً لمغادرتهما :

– سيدتي ، يجب ألا يبتعد عنّا .

– ولماذا ؟ لنسأله عن اسمه وعنوانه ، وغداً نبعث اليه بديناره الذهبي مرفقاً بكلمة شكر تكتبينها له أنت .

– كلا يا سيدتي ، أتوسل إليك أن يبقى معنا ، فإذا كان الحوذيّ شريراً وشاكسنا في الطريق في مثل هذا الوقت من الليل وفي مثل هذه المسالك الصعبة ، فإلى من نستجير ليمدّ إلينا يد المساعدة ؟

– هدّئي من روعك ، فنحن نعرف رقم عربته وعلامتها الفارقة .

- لا أخالفك يا سيدتي، ولا أنكر أنه لن يفرّ من يديك فيجلد في المستقبل جلدا. ولكنه يستطيع هذه الليلة أن يؤخّر وصولنا إلى فرساي، وعندئذ ماذا يقال عنا؟ يا الله!

ففكرت السيدة الكبرى قليلاً وقالت: إنك على صواب.

وكان الضابط ينحني أمام السيدتين ويهمّ أن ينصرف. فنادته أندريه بالألمانية قائلة:

- كلمة من فضلك يا سيدي، كلمة واحدة!

- أمرك يا سيدتي.

أجاب بها الضابط بلهجة من شعر بالمعاكسة، ولكنه ظل محتفظاً، في هيئته ولهجته ورنين صوته، بأدب كثير العذوبة. فتابعت أندريه قائلة:

- لا يمكنك يا سيدي أن تبخل علينا بمعروف بعد الخدمات الكثيرة التي قدّمتها لنا.

- تكلمي.

- نعترف لك بأننا خائفتان من هذا الحوذيّ الذي لم ترقنا طريقة مساومته على الأجرة.

- من الخطأ أن توجسا الخوف منه، فأنا أعرف رقمه وعلامة «النافعة» التي هي حرف «ز». فإذا عاكسكما في شيء عودا إليّ.

فقالت أندريه بالفرنسية وقد نسيت نفسها:

– نعود إليك! كيف تريد أن نعود إليك ونحن لا نعرف حتى اسمك.

فخطا الضابط الشاب خطوة إلى الوراء وهتف متعجباً:

– تتكلمان الفرنسية وترغمانني منذ نصف ساعة على اللغو بالألمانية! هذا حقاً يا سيدتي أمر سيّئ!

فأقبلت السيدة الثانية بشجاعة على مساعدة رفيقتها المخجولة وأجابت الضابط بالفرنسية أيضاً:

– إعذرنا يا سيدي، فقد رأيت بامّ عينك كيف أننا ضللنا السبيل في باريس وبتلك المركبة وإن لم نكن غريبتين. إنك رجل مجتمع وتفهم أننا لم نكن في موقف طبيعي. أكمل معروفك معنا ولا تجعله ناقصاً، لأن من قام بنصف المعروف كمن لم يفعل شيئاً، ومن باح بنصف السر كمن باح به كله. ظننا بك خيراً يا سيدي، فلا تظننّ بنا شراً. وإذا استطعت أن تعيننا فافعل دون تحفظ، أو فاسمح لنا أن نشكرك ونبحث عن سند آخر.

فتأثر الضابط بصوت هذه المرأة المجهولة ولهجتها النبيلة العذبة وقال:

– أضع نفسي تحت تصرفكما يا سيدتيَّ.

– كلّف إذن خاطرك يا سيدي، واصعد معنا.

– في العربة؟

- نعم، لكي ترافقنا.

- إلى فرساي؟

- نعم، يا سيدي.

لم يحر الضابط جوابا، وصعد إلى العربة فجلس على مقدمة المقعد صارخاً بالحوذي:

- هيّا انطلق!

وبعد أن أُغلقت أبواب العربة، وسوّى الجلوس أوضاعهم على مقاعدها، انطلقت في شارع «سان توما دي لوفر»، واجتازت ساحة «الكاروسيل»، ثم مضت تجري في الشوارع العريضة. وكان الضابط قد انزوى مقابل السيدة الكبرى ومعطفه منبسط بعناية على ركبتيه.

وكان صمت عميق ينتشر داخل العربة. أما الحوذيّ فقد جعل بغلتيه الهزيلتين تعدوان بحذر فوق مزالق الشوارع ولا سيما في طريق «الكونفرانس»، وقد يكون ذلك أمانة منه، أو أن وجود الضابط بعث في نفسه الخشية فأبقاه في دائرة الاحترام والصدق.

ولم يلبث نَفَس المسافرين الثلاثة أن حمل الدفء رويداً رويداً إلى العربة التي انتشر في جوّها عطر ناعم أخذ يتسرّب إلى دماغ الضابط وأخذت تتسرّب معه ظنون شتّى تتعلق برفيقتيه. فقد فكّر أنهما امرأتان تأخرتا عن موعد من

المواعيد، وأنهما تعودان الآن إلى فرساي خائفتين خجولتين. ولكنه سرعان ما تابع يسأل نفسه: إذا كانتا امرأتين لهما قدرهما فكيف تخرجان في مركبة تقودانها بنفسيهما؟

ولكن هذا السؤال له جواب. فالمركبة صغيرة ضيقة لا تتسع لثلاثة أشخاص، وقد لا ترضى امرأتان أن يرافقهما حاجب يضايقهما بوجوده.

ولكن كلتا السيدتين لا تحملان دراهم! إنه اعتراض مزعج يحتاج الى تفكير.

لا شك أن مخفظة المال كانت مع الحاجب. أما مركبتهما التي قد تكون أصبحت حطاماً الآن فهي على جانب كبير من الأناقة، والجواد ... إذا كنت ممن يعرفون بالخيل فإنه يُثمّن بماية وخمسين ديناراً ذهبيا. ومن ثم فالنساء الثريات فقط يتركن مثل هذه المركبة ومثل هذا الجواد دون أسفٍ عليهما. فالمال لا يعني إذن شيئاً بالنسبة لهما.

ولكن أية عادة هي هذه: أن يتكلما لغة غريبة وهما فرنسيتان؟

هذا دليل تربية عالية، فليس من الطبيعي أن تتكلم نساء مغامرات الألمانية بمثل هذا النقاء الجرماني، ولا الفرنسية كالباريسيّات تماماً.

وتابع الضابط تفكيره قائلاً في نفسه : يبدو على هاتين السيدتين رفعة الحسب والنسب . لقد كان توسّل المرأة الصبية مؤثراً ، ودفاع السيدة الكبرى نبيل الوقع على عظمة .

ورتّب الضابط سيفه في العربة لئلا يزعج جارتيه ، وظلّ مسترسلاً في محادثة نفسه : تُرى، أما من خطر على عسكريّ في أن يقضي ساعتين في عربة بصحبة امرأتين جميلتين؟ إنهما جميلتان كتومتان لأنهما لا تتكلمان وتنتظران مني أن أفتح الحديث معهما .

وكانت أفكار السيدتين الغضّتين مشغولة بالضابط الشاب كما كانت أفكاره مشغولة بهما ، لأنه في اللحظة التي وردت فيها هذه الفكرة إلى رأس الضابط توجهت إحدى السيدتين الى رفيقتها وخاطبتها بالانكليزية قائلة :

- يسوق بنا هذا الحوذي ، يا صديقتي العزيزة ، كأموات ، ولن نصل أبداً بمثل سرعته هذه إلى فرساي . ولا شكّ في أن رفيقنا المسكين يكاد يموت من الضجر .

فابتسمت المرأة الصغرى وقالت : لأن حديثنا معه لا يسلّي كثيرا ، بالاضافة إلى بطء العربة .

- ألا ترين أن دلائله تشير إلى أنه رجل بكلّ معنى الكلمة ؟

- بلى ، هذا هو رأيي يا سيدتي .

- ثم أما لاحظتِ أنه يرتدي زيَّ البحرية؟
- ليست لي خبرة واسعة في الأزياء.
- بلى، كما قلت لك إنه يرتدي زيّ ضابط في البحرية، وجميع ضباط البحرية هم من بيوت عريقة. ثم إن زيّه منسجم عليه، وإنه لفارس جميل، ألا ترين كذلك؟

وكانت السيدة الصغرى على وشك أن تجيب وتستفيض بالإجابة على سؤال محدثتها عندما قام الضابط بحركة أوقفتها وقال بلغة انكليزية رفيعة:

- عفواً يا سيدتيّ، اعتقد أنه من واجبي مصارحتكما بأنني أتكلم الانكليزيّة وأفهمها بيسر، ولكنني أجهل الاسبانية، فإذا كنتما تعرفانها ويروق لكما التحدث بها، تصبحان على الأقل متأكدتين من أنني لا أفهم ما تتحدثان به.

فأجابت السيدة الكبرى وهي تضحك: لم يخطر ببالنا أن نقول فيك سوءًا كما خُيّل إليك يا سيدي، ولن نحتار بعد الآن، بل سنتخاطب بالفرنسية إذا كان لدينا شيء نقوله.

- شكراً على هذا المعروف يا سيدتي، وعلى كلّ حال إذا كان وجودي يزعجكما فـ ...
- ليس بإمكانك ان تعتقد هذا يا سيدي، لأننا نحن طلبنا إليك أن تكون بيننا.

وأضافت السيدة الصغرى : بل لقد طلبنا ذلك منك بإلحاح شديد .

– لا تخجليني يا سيدتي ، واغفري لي ما أبديته من تردّد في بادئ الأمر . إنك تعرفين باريس ، وما تحفل به من أشراك وتهوّر وخيبة .

– إذن لقد ظننتنا ... قل الحقيقة ، تكلّم . فتابعت رفيقتها :

– لقد ظنّنا شركاً من الأشراك .

فشعر الضابط بخجل وقال :

– كلا يا سيدتيّ ، أقسم لكما أن شيئاً من هذا لم يخالج ذهني إطلاقاً .

– عفواً ، ما الذي جرى ؟ وقفت العربة !

– ماذا حصل ؟

– سأرى بنفسي يا سيدتيّ .

وكانت يد السيدة الصغرى قد امتدّت بحركة مفاجئة وتوقفت ضاغطةً على كتف الضابط ، فجعلته يقشعرّ . فحاول بحركة طبيعية أن يقبض عليها ، ولكن أندريه التي تغلّب عليها الخوف كانت قد ارتمت في قعر العربة . فوجد الضابط عندئذ نفسه طليقاً ، فخرج إلى الأرض ووجد الحوذيّ

منهمكاً في إنهاض أحد جواديه الذي عقلته الحبال وحال دون نهوضه جذع الخشب النافر من العربة .

جرى ذلك على مقربة من جسر سيڤر . وبفضل المساعدة التي قدّمها الضابط للحوذيّ استطاع الجواد المسكين أن ينهض من كبوته ويقف على قوائمه . ثم عاد الضابط فدخل إلى العربة ، أمّا الحوذيّ فقد هنأ نفسه على هذه المهارة التي اكتسبها من خبرته الطويلة ، ثم قرع بسوطه قرعاً فرحاً لغايتين : لكي ينشّط جواديه ولكي يُكسب نفسه بعض الدفء . أما في داخل العربة فكأنّي بالبرد الذي دخل من بابها قد جلّد تلك المحادثة بين ركابها ، وجمّد تلك العلاقة الحميمة المولودة ولادة جديدة والتي بدأ الضابط يشعر بوقعها على نفسه وقعاً جميلا دون أن يدري لها سببا .

لذلك فقد اكتفت السيدتان بالاستفسار عن الحادث ، واكتفى هو بوصفه . وعاد الصمت يرزح على كواهل المسافرين الثلاثة .

ولكن الضابط الذي شغلته تلك اليد الفاترة المرتعشة أراد أن يردّ لجارته فعلاً مماثلاً ، فمدّ ساقه نحوها ، ولكنه بالرغم من مهارته لم يلمس شيئاً ، أو أنه لاحظ متألماً أن ما لمسه قد انزاح بسرعة عنه . وقد صدف لحظةً أن مسّت مساً خفيفاً قدم السيّدة الكبرى ، فقالت له بلا اكتراث :

- إني أضايقك كثيراً يا سيدي، فعفواً.

فتضرّج وجه الضابط الشاب حتى أذنيه، وراح يهنئ نفسه على كثافة الليل الذي يخفي احمراره. وشعر أن بهذا قد انتهت جميع محاولاته، لذلك فقد لاذ بالصمت، وسكن في موضعه بوقار كأنه في معبد، خائفاً من أن يتنفس، ومنكمشاً على نفسه كغلام صغير.

ولكن إحساساً غريبا أخذ يجتاح فكره وكل كيانه، وبالرغم من إرادته. فكان يشعر بوجود المرأتين اللذيذتين دون أن يلمسهما، وكان يراهما مصورتين في نفسه دون أن ينظر إليهما. ثم سرعان ما اعتاد البقاء بقربهما فصار يخيَّل إليه أن جزءاً من حياتهما قد ذاب في حياته. ولكم اشتهى الآن أن يوصل المحادثة المنقطعة بينه وبين السيدتين، ولكن الجرأة أخذت تخونه لأنه أصبح يخشى أن يفوه بأشياء تافهة وأن يبدو بمظهر الغبي الوقح امام هاتين المرأتين، هو الذي كان يعتقد منذ ساعة انه قد منحهما كثيراً من الشرف إذ منحهما ديناراً ذهبياً وبعض اللياقة. ويمكن القول بكلمة واحدة أنه كما تتوالد الألفة في هذه الحياة من العلائق بين السُدُم الذي يلتقي بعضها ببعض، كذلك فإن جاذباً قوياً ناجماً عن عطور وحرارة تلك الأجسام الثلاثة الفتية المجتمعة معاً بعامل الصدفة فقط، قد استولى على الضابط الشاب فانشرحت أفكاره وانبسط فؤاده.

على هذا المنوال يولد العشق ويعيش ويفنى في لحظات معدودة ، ويكون من أصدق وأعذب وأحرّ ما يقع على قلوب العاشقين. وهذا العشق فتّان قوي لأنه يجمع بين الخفقة العابرة والحس المستمر العميق.

وظلّ ضابطنا صامتاً فلم تخرج من فمه كلمة واحدة ، أما السيدتان فقد وشوشتا فيما بينهما بعض الأحاديث بصوت منخفض. ولما كان الضابط يرهف سمعه دائماً فقد سمع بعض كلمات متقطعة استطاعت مخيلته أن تلبسها بعض معانيها. وهذا ما بلغ أذنيه :

- تأخرنا كثيراً ... الأبواب المغلقة ... حجّة خروجنا من القصر ...

هنا توقفت العربة من جديد. ولم يكن سبب توقفها هذه المرة حصاناً كبا أو عجلة من عجلاتها تحطمت ، إنه الوصول إلى فرساي. وقد استطاع الحوذي أن يبلغها بعد ثلاث ساعات من الجهد والشجاعة وبفضل ساعديه القويين اللذين جعلا العرق يتفصّد من جواديه. وكانت شوارع فرساي الطويلة العريضة قاتمة خالية ، تبدو تحت ضياء القناديل التي ابيضت من الجليد كأنها في استعراض مزدوج تسير فيه اشباح سوداء نافرة العظام.

وفهم الضابط أن العربة وصلت إلى المكان المنشود ، فتساءل : تُرى أية عصا سحرية جعلت الزمن يبدو هكذا قصيراً أمام عينيه ؟ إلا أن الحوذيّ لم يجعله يستغرق طويلاً بهذا التفكير إذ أنه انحنى نحو الزجاج الأماميّ وقال :

- يا معلمي ، إننا في فرساي .

فسأل الضابط قائلاً :

- أين تريدان الوقوف يا سيدتيّ ؟

- في ساحة السلاح .

فصرخ الضابط بالحوذي : في ساحة السلاح ! ولكن الحوذيّ سأل من جديد :

- عليَّ الانطلاق إلى ساحة السلاح ؟

- نعم ، هذا ما يُطلب إليك .

- وهل من إكرامية صغيرة ؟

- هيّا انطلق !

فأعمل السوط من جديد بمؤخرة الجوادين . أما الضابط فقد حدّث نفسه قائلاً : «طال عليّ الصمت ويجب أن أتكلم لئلا أظهر بمظهر الغبيّ بعد أن ظهرت بمظهر الوقح » . ثم اتجه الى السيدتين وقال متردداً :

- ها أنتما يا سيدتيّ في المكان الذي قصدتما إليه .

فقالت السيدة الكبرى : هذا بفضل مساعدتك الكريمة .

ثم أردفت السيدة الصغرى قائلة : لقد كلّفناك تعباً جمّاً .

- هذا ما نسيته يا سيدتي .

- أما نحن فلن ننساه أبداً . ما اسمك إذا شئت يا سيدي ؟

- إسمي ؟

- إننا نسألك عنه للمرة الثانية . فهل تتحفظ إلى هذا الحد !

وتابعت السيدة الصغرى تقول:

- وأعتقد أنكَ لن تترك دينارك الذهبي هدية لنا ؟ فأُحسّ الضابط بوخز هذا الكلام وقال :

- ما دام الأمر كذلك يا سيدتي فإني أستسلم لإرادتكما : إنني الكونت دي شارني ، ضابط في البحرية الملكية كما لاحظت ذلك سيدتي بنفسها .

- شارني ! أعادت هذا الاسم السيدة الكبرى بلهجة من يريد أن يعني : « حسناً ، لن أنساه » . أما الضابط فقد أردف قائلاً :

- جورج ، جورج دي شارني .

- جورج ...

- وأين تقطن ؟

- في نزل الأمراء ، شارع ريشاليو .

وتوقفت العربة، ففتحت كبرى السيدتين الباب إلى يسارها ووثبت إلى الأرض وثبة ماهرة ومدّت يدها إلى رفيقتها. فهتف الضابط الشاب وهو يهمّ أن يلحق بهما:

- إقبلا ذراعي يا سيدتيّ حتى تصلا إلى مقرّكما، فساحة السلاح ليست منزلاً.

إلا أن السيدتين قالتا معاً: لا تتحرك!

- وكيف لا أتحرك!

- كلا، إبق داخل العربة.

- ولكنه يستحيل عليكما أن تسيرا وحيدتين في مثل هذا الليل القارس.

فقالت السيدة الكبرى بلهجة مرحة:

- ها إنك بعد أن رفضت أن نعترف لك بجميل صنعك، تريد أن تطوّق عنقنا بجميل كبير.

- إذن!

- لا تقل إذن، وكن حتى النهاية فارساً لطيفاً مستقيماً. شكراً لك يا سيد دي شارني، شكراً لك من صميم الفؤاد. ولما كنت مقتنعة من أنك فارس لطيف مستقيم، فإني لا أطلب منك أي عهدٍ بشرفك.

- وعلى أي شيء يا سيدتي ؟

- على أن تغلق باب العربة وتأمر الحوذيّ بأن يعود إلى باريس. هذا ما ستفعله كما أعتقد دون أن توجه نظرك نحونا ؟

- أنتنّ على حق يا سيدتيّ ، لا حاجة لي معكن لعهد الشرف . يا حوذي ! هيَّا لنرجع يا صديقي .

ثمّ دسّ الضابط الشاب ديناراً ثانياً في يد الحوذيّ الكبيرة ، فارتعش هذا من الفرح ، وأرخى العنان لجواديه قائلاً :

- ليمت الجوادان إذا طاب لهما الموت !

فتمتم الضابط بدوره :

- أعتقد أنهما تقاضيا فوق أجرهما .

وجرت العربة جرياً سريعاً ، خانقة بقرقعة دواليبها تنهيدة اشتهاء صعّدها الضابط بعد أن استلقى على المسندين اللذين كانا ما يزالان دافئين بحرارة الحسناوين المجهولتين . أما المرأتان فقد مكثتا في مكانهما، ولم تبرحاه إلى القصر إلا بعد أن غابت العربة عن أبصارهما .

التدبير المرعب!

★

في الوقت الذي استأنفت فيه السيدتان المسافرتان سيرهما حمل صرير الريح القارسة إلى أذنيهما رنين ساعة كنيسة القديس لويس التي كانت تدقّ الثلاثة أرباع. فهتفت السيدتان بصوت واحد:

– يا الله! انها الساعة الحادية عشرة وثلاثة أرباع!

ثم أضافت السيدة الصغرى قائلة:

– انظري، جميع المداخل مغلقة.

– لا أحفل بهذا يا عزيزتي أندريه. حتى وإن كانت مفتوحة، فإن وصولنا في مثل هذه الساعة المتأخرة لا يسمح لنا أن ندخل من باب التشريفات. فهيّا أسرعي لندخل من الممرات الجانبية الخفية.

واتجهت السيدتان الى الجهة اليمنى من القصر، حيث يوجد ممرّ خاص يقود إلى الحدائق. وما كادتا تصلان إلى هذا الممر حتى قالت كبرى السيدتين بقلق:

– الباب الصغير مغلق يا أندريه!

– لنقرع يا سيدتي.

- كلا ، من الأفضل أن ننادي « لوران » الذي ينتظرني ، فقد أخبرته بأنني قد أعود متأخرة .

- إذن سأناديه .

ودنت أندريه من الباب منادية . إلا أن صوتاً صاح من الداخل قائلاً : من هذا ! فهتفت أندريه مذعورة :

- ما هذا بصوت لوران !

وقالت رفيقتها: لا، هذا ليس صوته .

ثم اقتربت السيدة الكبرى من الباب وتمتمت في شقّه منادية : لوران ! ولكنها لم تسمع جواباً . فقرعت الباب وهي تنادي مرة ثانية : لوران ! إلا أن الصوت أجاب من الداخل بشراسة : لا يوجد لوران بيننا . فقالت عندئذ أندريه بإلحاح : إن كنت لوران او غيره ، إفتح الباب !

- كلا ، لن أفتح .

- ولكنك تعلم يا صديقي أنّ من عادة لوران أن يفتح لنا .

- إني أسخر من لوران سخرية شديدة لأنني مأمور بحراسة المدخل .

- ومن أنت ؟

- من أنا ؟

- نعم .

- وأنتِ ، من تكونين ؟

كان السؤال فظاً، ولكن لا مفرّ من الإجابة عليه، لذلك تابعت الصغرى قائلة :

- إننا سيدتان من البلاط، نسكن القصر ونريد الدخول إلى منازلنا .

- أما أنا يا سيدتيّ فإني سويسراني انتمي إلى السرّية الأولى، وإني بعكس لوران تماماً لن افتح لكما بل سأترككما خارج الباب .

فغمغمت السيدتان استنكارا، وشدّت إحداهما على يدي رفيقتها بغضب . إلا أنها تمالكت نفسها وقالت :

- يا صديقي، لا ألومك على تنفيذ الأوامر الصادرة اليك، فهذا دليل على أنك جندي أمين، ولا أريد أن تتقاعس عن القيام بوظيفتك . ولكن أدِّ لي فقط هذه الخدمة ونادِ لي لوران .

- لا أستطيع أن أترك مركزي .

- أرسل واحداً في طلبه .

- ليس لديّ أحد كي أُرسله .

- أرجوك !

- رعاك الله يا سيدتي ! نامي في المدينة . فأنا لو أُغلقت أبواب الثكنة في وجهي لتدبرت أمري . بالله عليك أن تمضي في سبيلك .

عندئذ قالت السيدة الكبرى بلهجة جازمة :

- اسمع أيها الجنديّ ، لك إذا فتحت عشرون ذهبية .

- وعشر سنوات في السجن ، شكراً لك يا سيدتي ، تكفيني الثماني والأربعون ليرة التي أتقاضاها .

- وإني أرقيك إلى رتبة رقيب .

- أجل ، ثم يأتي آمري فيرمني بالرصاص .

- ومن الذي أمرك بحراسة المكان ؟

- الملك .

- الملك ! كرّرتها السيدتان خلف الحارس وقد استولى عليهما ذعر شديد لأن صورة الهلاك قد ارتسمت أمام ناظريهما . وكادت السيدة الصغرى أن تجنّ هلعاً ، فالتفتت اليها رفيقتها وقالت :

- ماذا تعتقدين ؟ أما من مدخل آخر ننفذ منه إلى القصر ؟

- آه يا سيدتي ! من أغلق هذا الباب يُغلق الأبواب الأخرى .

- كلاّ ! هذا تحامل منك !

- إذا لم نجد لوران على هذا الباب الذي اعتاد حراسته ، فأين عسانا نجده ؟

- إنك على حق يا أندريه ، فهذا مأزق مخيف وضعنا الملك فيه .

تلفظت السيدة الكبرى بهذه الكلمات باحتقار ينذر بالعاصفة. أما باب هذا المدخل المنحرف فقد كان في جدار سميك مجوّف يكوّن حجرة شبيهة بحجر الانتظار. وكان يتفرّع عن جانبيه مقعدان حجريّان ارتمت عليهما السيدتان في اضطراب يشبه اليأس. وكانتا تشاهدان في أسفل الباب شقاً مضيئاً وتسمعان خلفه وقع أقدام السويسراني الذي كان يرفع بندقيته حيناً، وحيناً يدقها في الأرض. وكان السلام يسود خلف هذا الحاجز الدقيق من خشب السنديان، فيما كانت عوامل الخجل والخوف من الفضيحة والموت تقريباً تختلج في الجانب الآخر في نفسي المرأتين. وما لبثت السيدة الكبرى أن غمغمت:

- آه! ماذا سيقولون غداً!

- ولكنك ستذكرين الحقيقة.

- وهل يصدّقون؟

- لديك البراهين المقنعة يا سيدتي. ثم أضافت السيدة الصغرى التي بدأت تستعيد رباطة جأشها حين أخذت رفيقتها تفقدها: لن يسهر الجندي طيلة الليل، سيجري استبداله في الساعة الواحدة، وقد يكون خلفه من هو أسلس منه، فلننتظر.

– هذا صحيح . لكن فصائل من الجنود ستمر في منتصف الليل فيجدوني منتظرة في الخارج مختبئة . يا للعار ! أنظري يا أندريه ، إن الدم يصعد إلى وجهي ويكاد يخنقني .

– أوه ! تشجعي يا سيدتي . ولا حاجة لي أنا التي كنت ضعيفة منذ لحظات إلى أن أشدد من عزيمة امرأة قوية مثلك .

– إننا ضحية مؤامرة حيكت ضدّنا يا أندريه . ولم يحدث أبداً أن أُغلق الباب في وجهنا . إني أموت غيظاً يا أندريه ! ثم انكفأت إلى خلف كأنها تختنق حقاً .

في هذه اللحظة سُمع وقع أقدام على البلاط الأبيض الجاف الذي لم تعد تدوسه اليوم سوى أقدام قليلة . وقد رافق ذلك صوت نحيف مرح ، صوت فتى راح يغني أغنية رقيقة ، وهذا بعض ما جاء في الأغنية :

« لماذا لا أصدّق ؟
أما هي الحقيقة !
ذلك أننا كنا معاً ،
في ظلمة هذا الليل الحالك ،
ولقد صيّرتني « مورفيه » الساحرة
فولاذاً ليّناً عندما أطبقت جفنيّ .
إنك يا حبيبتي حجر ممغنط
وقد جذبتني إليك ...»

فكّرت السيدتان معاً أنه سبق لهما أن سمعتا هذا الصوت . وما لبثت السيدة الكبرى أن قالت :

– إني أعرفه . فقالت رفيقتها :

– إنه صوت ...

ولكن الصوت قاطعها إذ تابع منشداً :

« وبخطوةٍ بارعة ،

جعل الله صدىً لهذا الحجر الممغنط » .

عندئذ همست السيدة التي استبدّ بها القلق في أذن أندريه قائلة : إنه هو ! وسينقذنا .

في هذه اللحظة دخل في المنعطف شابّ يلتفع معطفاً من الفرو ، ودنا من الباب دون أن يرى المرأتين فقرعه منادياً : لوران !

فمدّت السيدة الكبرى يدها إلى كتف الشاب وقالت : هذا أنت يا أخي ! فتراجع هذا خطوة إلى الوراء ونزع قبعته عن رأسه وهتف : الملكة !

– اسكت : مساء الخير يا شقيقي .

– أسعدت مساءً يا سيدتي . أسعدت مساء يا شقيقتي . أرى أنك لست وحيدة .

– كلا ، برفقتي الآنسة أندريه دي تافرني .

– حسناً . مساء الخير يا آنستي . فانحنت هذه وأجابت متمتمة :

– مولاي !

– أوتخرجان يا سيدتيّ ؟

– كلا .

– إنكما داخلتان إذن ؟

– إننا نودّ أن ندخل .

– أما ناديتما لوران .

– بلى .

– وماذا إذن ؟

– نادِ لوران بدورك ، وسترى .

وأردفت أندريه : نعم ، نعم ، ناد يا مولاي ، وسترى .

فاقترب الشاب الذي عرفنا ولا شك أنه الكونت « دارتوا » من الباب وقرعه من جديد منادياً : لوران ! فأجاب صوت السويسراني : ها هي المداعبة تبدأ من جديد ، أنذركم أنني سأدعو قائدي إذا أصررتم على إزعاجي طويلاً .

فارتبك الشاب واستدار نحو الملكة وقال : ما هذا ؟

– إنه سويسراني استبدلوا به لوران ، هذا كل شيء .

– ومن استبدل به لوران ؟

– الملك .

الملك !

- أيتها العذراء ! هو قال لنا ذلك منذ لحظات .

- ومعه أمر بمنع الدخول من هذا الباب ؟

- أمر مشدّد على ما يبدو .

- يا للشيطان ! علينا إذن أن نرضخ .

- وكيف ؟

- لنغره بالدراهم .

- عرضت عليه فرفض .

- لنقدم له ترقية .

- قدَّمتها له فرفض .

- يبقى إذن وسيلة واحدة .

- وما هي ؟

- أفتعل الضجيج أمام الباب .

- ولكنك ستعرّضنا للفضيحة يا عزيزي شارل ، أرجوك !

- لن أعرضكما لشيء .

- بالله عليك !

- انتحيا جانباً ، فأقرع كأصم ، وأصرخ كأعمى ، حتى اذا ما فتحوا الباب تدخلان خلفي .

- حاول إذن .

فشرع الأمير الشاب ينادي لوران من جديد ، ويقرع

الباب ، ويقرقع بقبضة سيفه حتى صرخ به السويسراني غاضباً :

– ما دام الأمر كذلك ، رويدك ، فسأنادي قائدي .

– وماذا تنتظر ، إنك والله تضحكني ! نادِ قائدك ، فإني انتظر هذا منذ ساعة .

وبعد لحظة سمع وقع أقدام في الجانب الآخر من الباب ، فاصطفّت الملكة وأندريه خلف الكونت وقد تأهبتا للافادة من الممر الذي اعتقدتا أنه سيسمح لهما بالدخول .

وسمع السويسراني يشرح لقائده أسباب هذه الجلبة قائلاً :

– إنهما يا سيدي الملازم امرأتان ورجل نعتني بأنني غريب الأطوار مضحك . وإنهم يريدون الدخول عنوة .

فردّ عليه الشابّ من الخارج قائلاً :

– وما هو وجه العجب في هذا ما دمنا من البلاط ونريد الدخول إلى القصر .

إلا أن الضابط أجابه قائلاً : قد يكون هذا يا سيدي رغبة طبيعية ، ولكن الدخول ممنوع .

– ممنوع ! ومن منعه بالله عليك ؟

– الملك .

– أطلب منك المعذرة ، ولكن الملك لا يرضى بأن يبيت ضابط من البلاط خارج القصر .

- ليست مهمتي البحث عن مقاصد الملك ، إن مهمتي تنفيذ أوامره الصادرة إليّ .

- اسمع أيها الملازم ، إفتح الباب قليلاً لكي نتحدث وجهاً لوجه لا من خلال الخشب .

- أكرر بأن الأمر صدر لي كي أدع الباب مقفلاً . فإذا كنت حقاً ضابطاً كما تقول فإنك تعرف معنى الأوامر .

- إنك تتكلم أيها الملازم مع كولونيل فيلق .

- أعذرني يا سيدي الكولونيل ، لأن الأمر الصادر إليّ هو أمرٌ مطلق .

- الأوامر لا تسري على الأمراء . إنني أمير ، والأمير لا يبيت خارج القصر .

- إنك تحملني على اليأس يا مولاي الأمير ، ولكنني لا أستطيع تجاوز أمر الملك .

- الملك أمرك بأن تطرد شقيقه كمتسوّل أو لص ؟ إنني الكونت « دارتوا » يا حضرة الملازم ، وأقسم لك بأنك تجازف مجازفة كبرى إذا تركتني أقاسي البرد والجليد على الباب .

- يشهد الله يا مولاي الكونت «دارتوا » بأنني مستعد أن أقدم كل دمي لسموّكم الملكي . ولكن ما حيلتي وقد أمرني الملك عندما أوكل إليّ أمر حراسة هذا الباب بألا أفتحه مطلقاً لأحد ، حتى له شخصياً إذا ما أراد الدخول بعد الساعة

الحادية عشرة . لذلك فإنني ألتمس عفوك بكل تواضع يا مولاي ، لأنني جنديّ ، وه ب أني رأيت صاحبة الجلالة الملكة واقفة مكانك خلف هذا الباب وهي ترتجف من البرد لما حدّثتني نفسي بأن أفتح لها ، ولكنت أجبتها بما يؤلمني أن أجيبك به .

نطق الضابط بهذه الكلمات ، ثم تمتم تحية تنطوي على معاني الإحترام والاجلال ، وعاد إلى مركزه بخطوات متّزنة بطيئة . أما الجندي الذي كان ملتصقاً بالباب وهو مدجج بسلاحه فلم يعد يجرؤ على أن يتنفس ، وقد أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً لو أنصت الكونت « دارتوا » اليه من الجهة الثانية لسمعه من خلال الخشب . وأما الملكة فقد أمسكت بيد شقيق زوجها وقالت : ها قد أدركنا الهلاك . فلم يجب الكونت على كلامها ، ولكنه سأل : أيعلمون أنك خرجت من القصر ؟

- إني أجهل هذا الأمر ويا للأسف !

- قد يكون الملك قصدني وحدي بهذا الأمر ، يا شقيقتي ، لأنه يعلم أنني أخرج أثناء الليل وأتأخر عن الرجوع أحيانا . وقد تكون زوجتي الكونتس « دارتوا » قد بلغها شيء من أمري فشكت ذلك لجلالته الذي أصدر هذا الأمر الصارم .

- أوه! كلا، كلا يا شقيقي. إني أشكرك من صميم فؤادي لأنك تتلطف ببعث الطمأنينة في نفسي. ولكنني متأكدة من أن هذا التدبير موجه ضدي.

- هذا مستحيل يا شقيقتي، فالملك يحمل لك اعتباراً كبيراً في نفسه.

- ومع ذلك فإنه يقفل الأبواب في وجهي، لكي يثير عملي البريء غداً فضيحة مخزية. لا شك أن لي عدواً بجانب الملك يثير ضغينته عليّ.

- لك عدوّ بجانب الملك، هذا أمر ممكن. لذلك فقد وردتني فكرة.

- فكرة؟ قلها بالله عليك.

- فكرة تجعل عدوك أشدّ حمقاً من حمار ضائع يسرح بلا رسن.

- المهم أن تنقذني من هذا المأزق، هذا كل ما أطلبه منك.

- أرجو أن أوفّق إلى إنقاذك. فما أنا بأشدّ بلاهة منه وإن كنت أقل علماً منه.

- ومن تعني؟

- يا الله! إنني أعني الكونت دي بروفانس.

- إنك تعترف إذن مثلي بأنه عدوّي.

– كيف لا وهو عدوّ الشباب ، وعدوّ الجمال ، وعدوّ ... كلّ ما لا يستطيع إتيانه .

– يبدو يا شقيقي أنك تعرف شيئاً من أمر هذا التدبير ؟

– لربما أعرف شيئا . ولكن لنبتعدن أولاً عن هذا الباب ، فالبرد قارس هنا . هيّا رافقيني يا شقيقتي العزيزة .

– إلى أين ؟

– سترين بأمّ عينك ، إلى مكان فيه دفء على الأقل . تعالي ، وفي الطريق أخبرك بما يدور في خلدي حول هذا الإقفال للباب . أوّاه منك أيها الكونت دي بروفانس ، يا شقيقي العزيز العقوق ! أعطني ذراعك يا شقيقتي ، وخذي ذراعي الآخر يا آنسة دي تافرني ، ولندر نحو اليمين .

واستأنف الثلاثة سيرهم ، فقالت الملكة : وماذا عن الكونت دي بروفانس ؟

– إليكِ ماذا عرفت : في هذا المساء، بعد أن تناول الملك طعام العشاء ، جاء الكونت دي بروفانس إلى القاعة الكبيرة . وكان الملك أثناء النهار قد تحدّث طويلاً إلى الكونت دي هاغا فمنعه ذلك عن مشاهدتك .

– ذهبت إلى باريس منذ الساعة الثانية .

– عرفت ذلك ، والملك ، اسمحي لي أن أقول هذا يا شقيقتي العزيزة، لم يفكر بك أكثر من تفكيره بهارون الرشيد

ووزيره جعفر، لأنه كان يتحدّث بالجغرافيا. وكنت استمع إليه فارغ الصبر لأنني أنا أيضاً كنت أودّ الخروج. ولكن عفواً! ما بالي أذكر هذه الأشياء إذ قد لا يكون الدافع الواحد هو سبب خروجنا...

- ما عليك، تابع حديثك.

- لندر إلى اليسار.

- ولكن إلى أين عساك تقودني.

- مسافة قصيرة لا تتعدّى العشرين خطوة. احذري، أمامك كومة من الثلج. وأنت يا آنسة تافرني إذا تركت ذراعي فستسقطين على وجهك لا محالة. وبالمختصر المفيد، وبالعودة إلى الملك، فقد كان لا يفكر إلاّ بخطوط العرض والطول عندما قال له الكونت دي بروفانس: «أريد أن اقدّم تحياتي وإجلالي للملكة».

فهتفت ماري أنطوانيت قائلة: ويحاً له!

- فأجابه الملك: الملكة تتناول طعامها في شُقّتها. فأجاب شقيقي الكونت دي بروفانس: كنت أظنها في باريس. فقال الملك مطمئناً: كلا، إنها في شقتها. فأجاب دي بروفانس: إني قادم من هناك ولم يستقبلني أحد. فقطّب الملك عندئذ حاجبيه وطلب إلينا الخروج من القاعة أنا وشقيقي. وقد يكون استفسر عنك بعد خروجنا، فلعبت في رأسه الظنون، فلجأ

إلى هذا التدبير الصارم ليتأكد من أنك غائبة عن القصر، وهذا ما جعلنا نظلّ واقفين على الباب.

- ألا تعترف بأن هذا التدبير هو تدبير مرعب؟

- بلى، أعترف. ولكن ها قد وصلنا.

- أهذا هو المنزل!..

- ألا يروقك يا شقيقتي؟

- لا أقول هذا، بالعكس إنه يفرحني، ولكن ماذا يكون من أمر حاشيتك؟

- وماذا يهمك من حاشيتي؟

- وإذا شاهدني أحدهم؟

- ادخلي يا شقيقتي، واني كفيل بأن أحداً لن يراك.

- حتى الذي سيفتح الباب؟

- حتى هذا.

- هذا مستحيل.

- سنحاول. قالها الكونت دارتوا وهو يضحك، ثم قرّب يده من الباب. ولكن الملكة أوقفت ذراعه هاتفة:

- أتوسل اليك يا شقيقي، خذ حذرك.

ولكن الأمير ضغط بيده الثانية على إطار منقوش أنيق الصنع، ففتح الباب في الحال أمام ناظري الملكة التي لم تستطع أن تخفي خوفها. إلا أن الأمير توجه اليها قائلاً:

ادخلي يا شقيقتي ، أرجوك أن تدخلي ، فقد شاهدت بنفسك حتى الآن أنه لا أثر لأحد البتة .

فنظرت الملكة إلى الآنسة دي تافرني وكأنها حيال مجازفة ، ثم اجتازت عتبة الباب بحركة من تلك الحركات اللطيفة التي تقوم بها النساء عادة وكأنهن يقلن : على بركة الله ! وإذا بالباب يغلق خلفها دون أية جلبة ، وإذا بها تجد نفسها في مدخل أسفلُ جدرانه من الرخام ، ضيّق ولكنه يدلّ على ذوق مرهف ، وكان ينطلق من المكان دفء لذيذ وعطر شهي يستولي على الحواس ، مما جعل السيدتين تنسيان قسماً من خوفهما بل قسماً من وساوسهما . وهمست الملكة تقول :

- هذا حسن الآن ، إننا في مأوى ، ويجب الاعتراف أنه مأوى مريح لا بأس به . ولكن أما يحسن بك يا شقيقي أن تهتمّ بشيء ؟

- بماذا ؟

- بأن تبعد خدمك عن هذا المكان .

- لا شيء أسهل من هذا الأمر .

ثم تناول الأمير من فرجة عمود جرساً صغيراً قرعه مرّة واحدة فتجاوب رنينه في قعر الدرج تجاوباً غريباً جعل المرأتين تصرخان من الذعر . وما لبثت الملكة أن قالت : أبهذه الطريقة تبعد خدمك يا أخي ؟ ظننت أنك تناديهم ليحضروا إليك .

- لو قرعت الجرس قرعة ثانية لكان أحد حضر إليّ ، ولكنني قرعته قرعة واحدة ، فاطمئني إذن يا شقيقتي . لن يحضر أحد .

فضحكت الملكة وقالت : إنك والله رجل محترز . فتابع الأمير قائلاً : والآن يا شقيقتي العزيزة لا يمكنك طبعاً أن تحلّي في هذا المدخل ، فكلفي نفسك واصعدي إلى الطابق الأعلى . فقالت الملكة : علينا أن نطيع لأن جوّ المنزل يحمل على الاطمئنان . وشرعت تصعد والأمير يصعد أمامها دون أن يثير وقع الأقدام جلبة ما على البُسط التي تغلّف الدرج .

وصل الأمير في الطليعة إلى الطابق الثاني ، فحرّك جرساً آخر بعث رنينه من جديد الاضطراب في نفس الملكة ورفيقتها الآنسة دي تافرني اللتين تضاعف ذهولهما عندما أبصرتا أبواب هذا الطابق تفتح من ذاتها . ولم تستطع الملكة أن تضبط نفسها فخاطبت رفيقتها قائلة :

- بالحقيقة بدأت أرتجف يا أندريه ، وأنت ؟

- أنا يا سيدتي ، ما دمت تسيرين قدّامي فإني اتبعك واثقة .

وهنا قال الأمير الشاب :

- لا شيء أيسر مما يجري يا شقيقتي ، وهذا الباب الذي بوجهك هو باب شقتك . وأشار بيده إلى مدخل لطيف لا

يسعنا أن نهمل وصفه. فهو يتكوّن من حجرة صغيرة من خشب الورد، وخزانتين وسقف، وأرض من خشب الورد أيضا، ويتصل بمخدع تدلّت على جدرانه الستائر الحريرية البيضاء التي طرّزتها أيدي أمهر المطرّزين. وكانت أرض هذا المخدع مفروشة بسجّاد دخل في حياكته الحرير حتى أصبحت كل سجادة وكأنها لوحة لفنّان شهير. وبعد المخدع كان هناك ردهة نوم زرقاء جميلة، تدلّت حولها ستائر التنتناء والحرير المرهف الثقيل، وكان في عمقها سرير فخم، وفي جدارها مدفأة من الرخام الأبيض تتألق فيها النار، وفي جانبها الآخر إثنا عشر شمعدانا تشتعل فيها شموع معطرة، وكذلك فقد كان فيها حاجز باللون اللازوردي مزيَّن بشرائط صينية مذهبة. كل هذه الأشياء تراءت لناظري السيدتين عندما دخلتا بخوف إلى هذا المدخل الأنيق.

ولم يكن هناك أثر لإنسان حي، سوى أن النور والدفء كانا ينتشران في أرجاء المكان. أما الملكة، التي دخلت بحذر إلى المخدع، فقد توقفت لحظة عند عتبة ردهة النوم. فدنا منها الأمير واعتذر لها بأدب جم عن الضرورة التي دفعته لانزال شقيقته في هذا المنزل «الخاص» الذي لا يليق بمنزلتها. فأجابته الملكة بنصف ابتسامة كانت أشدّ تعبيراً من الكلام. فأضاف الأمير عندئذ قائلاً:

- هذه الشقّة يا شقيقتي هي خاصة بنزوات الشباب، أدخلها دائماً وحدي ولا يدخلها أحد غيري.

- ليس دائما...

- بلى، دائما.

فتنهدت الملكة تنهيدة ذات معنى. إلا أن الأمير الشاب أضاف قائلاً: يوجد في هذا المخدع «صوفا» وكرسي هزاز أنام عليهما عندما يفاجئني الليل بعد الصيد فأجد فيهما لذّة وكأني في سريري.

- بتّ أفهم الآن لماذا تقلق الكونتس زوجتك أحياناً عليك...

- هذا صحيح، ولكن اعترفي يا شقيقتي بأن الكونتس إذا ما قلقت عليّ في هذه الليلة فإنها تكون مخطئة.

- لا أعني هذه الليلة وإنما الليالي الأخرى.

- إن الذي يخطئ مرة يا شقيقتي يكون دائماً على خطأ.

فجلست الملكة على كنبة وقالت: لنختصر الحديث، إني متعبة كثيراً. وأنت يا عزيزتي أندريه المسكينة؟

- أنا؟ إني منهوكة من التعب، فاذا كانت تسمح لي جلالتك بالجلوس فإني...

فقاطعها الكونت «دارتوا» قائلاً:

- إنك بالحقيقة مصفرّة يا آنسة.

فقالت الملكة :

- خذي راحتك يا عزيزتي ، اجلسي ، بل نامي إذا أردت ، فالكونت دارتوا يخلي لنا هذه الشقة ، أتوافق يا شارل ؟

- بكل أمانة يا سيدتي .

- ولكن لحظة أيها الكونت ، فلدي كلمة أخيرة إليك .

- ما هي ؟

- إذا مضيت كيف يتسنّى لنا أن نناديك ؟

- لن تحتاجي إليّ بشيء يا شقيقتي ، المنزل لك تتصرفين به كما تشائين .

- وهل من غرف في هذه الشقة غير هذه الردهة ؟

- بالطبع ، فهنا غرفة للطعام أدعوك إلى زيارتها .

- وفيها مائدة معدّة طبعاً ؟

- طبعاً ، وستجد فيها الآنسة دي تافرني التي أرى أنها جائعة مقبلاتٍ ودجاجاً ونبيذاً فاخراً ، وتجدين فيها أنت يا شقيقتي أنواعاً من الثمار التي تحبّينها .

- وكل هذه الأشياء دون خادم ؟

- أجل ، لا وجود لأحد .

- سوف نرى بأنفسنا . ولكن بعد ذلك ؟

- بعد ذلك ؟

- أجل، بشأن عودتنا إلى القصر.

- لا تفكري مطلقاً بدخوله ليلاً ما دام الحجز مفروضاً عليه، ولكنّ الحجز سوف يسقط عنه مع قدوم النهار، فتفتح الأبواب في الساعة السادسة صباحاً، ويمكنك أن تغادري هذا المكان الساعة السادسة إلا ربعاً، وإذا أردت التنكر ففي الخزائن أردية من كل الألوان والأشكال. وعندما تدخلين الى القصر توجهي حالاً إلى حجرتك ونامي في سريرك ولا تقلقي بعد ذلك لشيء.

- وأنت؟ ماذا تود ان تفعل؟

- سأغادر المنزل.

- كيف هذا؟ أمن اللياقة أن نطردك من منزلك يا شقيقي المسكين؟

- ليس من الملائم أن نقضي الليل تحت سقف واحد يا شقيقتي.

- ولكن يلزمك مأوى آخر ما دمنا قد استولينا على منزلك.

- ما عليكِ، لديّ ثلاثة منازل تشبه هذا المنزل.

فشرعت الملكة تضحك وهي تقول: ويزعم ان الكونتس دارتوا هي على خطأ في قلقها عليه. ثم أضافت، مع إشارة

لطيفة تنذر بالتهديد : لسوف أخبرها عنك . فأجابها الأمير باللهجة ذاتها : وأنا أيضاً سأخبر الملك عن كل شيء .

- إنك على حق، فنحن الآن تحت سلطانك .

- تماماً . هذا مذل ، ولكن ماذا عساكما تفعلان ؟

- لا شيء سوى أن نخضع . ولكن قل لنا ، سنخرج غداً دون أن نلتقي أحداً ...

- أجل ، ويكفي أن تضغطا على زرّ في العمود الموجود في الطابق السفلي .

- أي عمود ؟ ذاك الذي على اليمين أم على اليسار ؟

- لا فرق بينهما .

- ويفتح الباب من ذاته ؟

- وكذلك يغلق .

- شكراً ، وتصبح على خير يا شقيقي .

- وأنت من أهله يا شقيقتي .

حيّا الأمير الملكة ومضى ، فأغلقت أندريه الأبواب في أثره .

في مقصورة الملكة

★

في صبيحة اليوم الثاني ، او على الأصح في صبيحة اليوم ذاته ، ذلك أننا ختمنا فصلنا السابق نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، جاء الملك يقرع باب شقة الملكة وهو يرتدي سترة الصباح البنفسجية دون أن يستكمل هندامه أو يرشّ بودرته على وجهه. فشقّت إحدى الوصيفات الباب فشاهدت الملك وهتفت : مولاي ! فقال الملك باختصار :

– الملكة !...

– جلالتها نائمة يا مولاي .

فأومأ الملك إليها وكأنه يأمرها أن تنحرف عن الباب ، ولكنها لم تتحرك من موضعها . فقال لها :

– ما بالك لا تتحركين ؟ أما ترين أنني أريد المرور ؟

وكان من عادة الملك أن يتسرّع ببعض حركاته فينسب خصومه ذلك إلى فظاظة في طباعه . أما الوصيفة فقد أجابت بتخوّف :

– الملكة تستريح يا مولاي .

- قلت لك أن تفسحي لي مجال المرور!

لفظ الملك هذه الكلمات بحدّة وأزاح الخادمة ودخل متجهاً نحو غرفة النوم، ولكنه شاهد مدام «دي ميزاري» رئيسة وصيفات الملكة التي كانت تقرأ صلاتها في كرّاستها الخاصة، والتي سرعان ما هبّت واقفة عندما أبصرت الملك فحيّته بإجلال وقالت له بصوت منخفض:

- مولاي، جلالتها لم تنهض حتى الآن. فقال الملك بلهجة ساخرة: أحقاً ما تقولين؟

- لم تتعدّ الساعة السادسة والنصف، واعتقد أن جلالتها لا تنهض أبداً قبل السابعة.

- وأنت متأكدة من أن جلالتها في سريرها ومن أنها تنام؟

- لا أؤكد أنها تنام، ولكنني متأكدة من أنها في سريرها.

- إنها في سريرها؟

- نعم يا مولاي.

لم يستطع الملك أن يضبط نفسه وقتاً أطول، فاتجه مباشرة نحو الباب وأدار زرّه المذهب بلجاجة صاخبة. وكانت غرفة الملكة في هذه الساعة سوداء مظلمة كأنها في صلب الليل لأن نوافذها كانت مغلقة وجميع ستائرها مسدلة على النوافذ. وكان سراج صغير يشتعل على منضدة في زاوية بعيدة، إلا أن ذلك لم يحل دون بقاء مقصورة الملكة غارقة

بالظلمة وقد تدلت ستائرها العريضة الحريرية البيضاء التي زينتها الزنابق المذهبة حول السرير الذي بدا بحالة مشوّشة. وعندما رأى الملك السرير بمثل هذه الحال اتجه نحوه بخطى سريعة، ولكنه سرعان ما وقف منذهلاً عندما سمع الملكة تقول:

– آه منك يا سيدة «ميزاري»، كم أنت مزعجة، لقد أيقظتني! فتمتم الملك قائلاً:

– لستُ السيدة ميزاري. فنهضت ماري أنطوانيت عندئذ وقالت بتعجب:

– هوذا أنت يا مولاي؟! فأجابها الملك بلهجة تنمّ عن سخرية ولوم:

– صباح الخير ... يا سيّدتي.

– ما لقدومك باكراً يا مولاي، عساه خيراً؟

ثم رفعت صوتها منادية: مدام ميزاري، مدام ميزاري، افتحي النوافذ.

فدخلت الوصيفات إلى غرفة الملكة وطفقن يشرّعن الأبواب والنوافذ كما عوّدتهن الملكة على ذلك، لكي يدخل إلى الغرفة الهواء النقي الذي كانت ماري أنطوانيت تجد لذّة كبيرة في استنشاقه عند نهوضها من النوم. أما الملك فقد

أجال نظرة متفحّصة في جو الغرفة ، ثم جلس بجانب السرير وقال :

– إنك تنامين بشهيّة يا سيدتي .

– نعم يا مولاي ، فقد بقيت أقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولو لم توقظني جلالتك لنمت أيضاً .

– ما السبب في أنك لم تستقبلي البارحة يا سيدتي ؟

– أستقبل من ؟ شقيقك الكونت دي بروفانس ؟

وكانت الملكة بهذا الجواب تقطع الطريق على ظنون الملك الذي تابع قائلاً :

– نعم ، شقيقي . لقد أراد أن يقدّم إليك تحيته ، ولكنه أُبقي على الباب .

– يعني ماذا ؟

– قيل له إنك غائبة .

فقالت الملكة بلهجة لامبالية : ميزاري ! مدام ميزاري !

فبدت كبيرة الوصيفات في الباب وهي تحمل على طبق من الذهب كمية من الرسائل المرفوعة إلى الملكة ، وقالت :

– هل نادتني جلالة الملكة ؟

– نعم . هل قيل أمسِ للسيد دي بروفانس إنني كنت غائبة عن القصر ؟

أما السيدة ميزاري فقد استدارت حول الملك لكي تتحاشى المرور أمامه وقدّمت طبق الرسائل للملكة ، وكانت تضغط بإصبعها على رسالة سرعان ما عرفت الملكة خطها فتناولتها وأخذت تفضّها وهي تقول بغير اكتراث : أجيبي الملك يا سيدة ميزاري وأطلعي جلالته على ما قيل للسيد دي بروفانس عندما جاء البارحة يطرق بابي ، فأنا نسيت ذلك تماما .

– حضر غبطة الكونت دي بروفانس البارحة يا مولاي ليقدّم احترامه لجلالة الملكة ، وقد أجبته بأن جلالتها لا تستقبل اليوم .

– وبأمر من ؟

– بأمر الملكة .

– آه !

في هذه الأثناء كانت الملكة قد فضت الرسالة وقرأت فيها هذين السطرين : « عدتِ البارحة من باريس ، ودخلت القصر في الساعة الثامنة مساء ، وقد شاهدك لوران ...» إلا انها ظلت محافظة على لامبالاتها ، وفضّتْ نصف دزينة من البطاقات والرسائل التي كانت مبعثرة على الشرشف . ثم رفعت رأسها نحو الملك وقالت :

– وماذا رأيت ؟

فالتفت الملك إلى كبيرة الوصيفات وقال :

- شكراً يا سيدة !

فابتعدت عندئذ مدام ميزاري وخرجت من غرفة الملكة التي أسرعت تقول :

- عفوك يا مولاي ، أطلب إليك أن توضح لي شيئاً .

- وما هو يا سيدتي ؟

- هل أنا حرة في أن أرى السيد دي بروفانس أو لا أراه ، أم تُراني فقدت هذا الحق ؟

- لك ملء الحرية يا سيدتي ، ولكن ...

- ولكن ماذا تريد ؟ إنه لا يحبني ؛ وإنني أردّ له الكيل كيلين ، لذلك لزمت سريري منذ الساعة الثامنة عندما علمت بزيارته التي لا أرغب فيها . فعلى أي ذنب تلومني إذن يا مولاي ؟

- كلا ، كلا ، لا ألومك على شيء .

- ولكنني أرى أمارات الشك في نفسك .

- ذلك أنني ...

- ماذا ؟

- كنت أعتقد أنك كنت البارحة في باريس .

- في أي ساعة ؟

- في الساعة التي تدعين أنك لزمت سريرك فيها .

– طبعاً ، ذهبت إلى باريس . ولكن هل تُرى سكنتها وما عدتُ منها ؟

– بلى عدتِ ، إنما الأمر يتعلق بالساعة التي عدتِ فيها .

– آه ! آه ! تريد أذن أن تعرف تماماً الساعة التي عدت فيها من باريس ؟

– طبعا .

– هذا أسهل شيء يا مولاي . ثم نادت الملكة مدام ميزاري وسألتها قائلة :

– كم كانت الساعة عندما عدت البارحة من باريس يا سيدة ميزاري ؟

– الثامنة تقريباً يا مولاتي .

فقال الملك : لا أظن هذا صحيحاً ، قد تكونين مخطئة يا سيدة ميزاري ، استطلعي حقيقة الأمر .

فمكثت كبيرة الوصيفات في مكانها منتصبة القامة واثقة من نفسها ، واستدارت نحو الباب وهتفت منادية :

– مدام دوڤال !

– نعم يا سيدتي .

– في أي ساعة عادت جلالة الملكة من باريس مساء البارحة ؟

– نحو الساعة الثامنة يا سيدتي .

- أولستِ مخطئة ؟

فانحنت الوصيفة الثانية ، مدام دوفال ، نحو نافذة الغرفة الخارجية وصرخت بدورها : لوران !

فسأل الملك قائلاً : ومن يكون لوران هذا ؟

فأجابته مدام ميزاري :

- إنه حارس الباب الذي دخلت منه جلالتها البارحة .

وكررت مدام دوفال نداءها إلى لوران، ثم سألته بعد أن حضر :

- لوران ! في أي ساعة عادت جلالة الملكة البارحة من باريس ؟

- عادت من باريس نحو الساعة الثامنة .

فخفض الملك رأسه .

وعندئذ انصرفت الوصيفتان ولوران وظل الزوجان وحدهما . وقد شعر لويس السادس عشر بخجل شديد ، ولكنه عمل ما في وسعه ليخفي خجله . بيد أن الملكة ، بدل أن تستغلّ هذا الانتصار الذي حققته ، اتجهت إليه وسألته بلهجة باردة :

- ماذا تريد أن تعرف أيضاً أيها العاهل ؟

فهتف الملك وهو يضغط على يدي زوجه :

- أوه ! لا شيء ، لا شيء !

- ومع ذلك ...

- أغفري لي يا سيدتي ، فلست أدري ما الذي خطر في رأسي . وها إن فرحي يوازي ندامتي ، وأظن أنك لن تحقدي عليّ . اسمعي ، لا أريدك أن تحردي ، فهذا والله يلقي بي في أحضان اليأس .

ولكن الملكة سحبت يدها من يد الملك الذي سألها قائلاً : ماذا تُراك تفعلين يا سيدتي ؟

فأجابت ماري انطوانيت قائلة :

- يستحيل على ملكة فرنسا أن تكذب أيها العاهل .

- وماذا تقصدين ؟!

- أقصد أنني لم أعد البارحة في الساعة الثامنة مساء ...

فتراجع الملك إلى الوراء مندهشاً ، فيما تابعت الملكة تقول ببرودة :

- أي أنني عدت في الساعة السادسة من هذا الصباح .

- ماذا تقولين يا سيدتي !

- ولولا الكونت دارتوا الذي قدّم لي ملجأ ، وأنزلني في منزله شفقةً عليّ ، لبقيت على باب القصر كمتسولة .

فأربد وجه الملك عندئذ وقال : صحّ ظني ، كنتِ ما تزالين خارج القصر .

- عفوك أيها العاهل، إنك تستنتج من كلامي حلاً حسابياً دون أن تتصرف تصرّف رجلٍ دمث .

- وفيمَ أسأت التصرف يا سيدتي ؟

- ما كنتَ بحاجة لإيصاد بابك ولا لإقفال المنافذ بواسطة الجنود لكي تتأكد من عودتي مبكرة أو متأخرة، كنت تستطيع فقط أن تأتي فتسألني عن الساعة التي عدت فيها .

فتنهد الملك وظل صامتاً، فتابعت الملكة تقول :

- لم يبق من حقك أن تشك يا سيدي طالما رأيت أن جواسيسك وأرصادك قد خُدعوا أو ارتشوا، وأن أبوابك قد فُتحت مسايرة أو عنوة، وأن مخاوفك وهواجسك قد تلاشت مندحرة . إني أعيبك في استخدام العنف مع امرأة لها ملء الحق في التصرف، وكان باستطاعتي أن أنعم بانتصاري عليك، ولكنني وجدت أساليبك معيبة لا تليق بملك أو برجل نبيل، وإني لأجد متعة بأن أصارحك بذلك .

فشرع الملك ينفض الغبار عن سترته كمن يبحث عن جواب يدرأ به سهام خصمه . ولكن الملكة تابعت تقول وهي تهز رأسها :

- مهما فعلت يا سيدي فلن تجد مبرراً لتصرّفك .

- بلى يا سيدتي، إني أجد المبرر بيسر : هل ارتاب واحد فقط من أهل البلاط في أنك لم تعودي إلى القصر ؟ ولما كان

الجميع يعلمون أنك عدت إليه ، فما من أحد ظنّ أن أوامري بإيصاد الأبواب كانت موجّهة ضدك . أما أن يظنوا بأنها ضدّ الكونت دارتوا وطيشه ، أو ضدَّ سواه من أهل القصر ، فلا أظنك تجهلين أنني لا أحفل بذلك .

– وماذا بعد أيها العاهل ؟

– وبعد ، إني أختصر فأقول : كنتُ على حق في أن أنقذ المظاهر بتصرفي ، وكنتِ على خطأ في أنك حملت مقصدي على غير محمله . أما وأنني أردت فقط أن ألقّنك من طرفٍ خفي درساً صغيراً ، أظن أنك تفيدين منه بالرغم من الغيظ الذي يستولي عليك ، فإنني على حقّ في هذا أيضاً ، ولن أتراجع عن شيء مما فعلت .

أصغت الملكة إلى جواب زوجها المبجّل وهي تسكّن روعها شيئاً فشيئاً ، لا لأنها خفّفت من حدّة غيظها ، ولكنها أرادت أن تحتفظ بجميع قواها للمعركة التي ، عوضاً عن أن تنتهي ، آذنت بأن تنشب الآن . لذلك فقد استجمعت قواها وقالت :

– لن تعتذر إذن عن فعلتك ، إذ جعلت ابنة ماري تيريز ، زوجتك وأم بنيك ، تتألم كغريبة على باب منزلها ؟ طبعاً إن هذا بنظرك دعابة ملكية زدتها قيمة بما أضفيت عليها من لباقة الاخراج . وإنه من الطبيعي بنظرك أن ترغم ملكة فرنسا على

قضاء ليلها في منزل الكونت دارتوا الصغير الذي يستقبل فيه بنات الأوبرا وعشيقات القصر. طبعا كل هذا لا يشكل شيئاً بنظر ملك يحلّق فوق مثل هذه التفاهات، ولا سيما إذا كان فيلسوفا، مثلك أيها العاهل! ولكن سجّل في مفكرتك أن الكونت دارتوا لعب دوره جيداً، سجل أنه أدّى لي خدمة جُلّى، وأنني شكرت السماء هذه المرة على طيش سلفي، لأن طيشه ستر خجلي، وهفواته أنقذت شرفي.

فاحمرّ وجه الملك وتحرك ضاجّاً في مقعده، إلا أن الملكة لم تمهله وتابعت تقول وهي تبتسم ابتسامة مرة:

- أعرفُ أيها العاهل أنك ملك رائده الأخلاق، ولكنك هل فكرتَ إلى أين سيوصلك تعلقك بالأخلاق؟ لقد ادّعيت أن أحداً لم يدر شيئاً عن تأخري عن العودة إلى القصر، وأنت نفسك كنت تظنني هنا، فهل تدّعي أن جاسوسك الكونت دي بروفانس كان يظنّ ذلك؟ وأن الكونت دارتوا ظن ذلك أيضاً؟ وكذلك وصيفاتي اللواتي كذبن عليك بأمرٍ مني؟ ولوران الذي رشوناه أنا والكونت دارتوا؟ إنك ولا شك ملك، والملوك لا يخطئون، ولكن الحقّ قد يكون أحياناً بجانب الملكة.

ما رأيك أيها العاهل في أن نسير على هذا النمط: تحيطني أنت بالجواسيس والحرس السويسراني، وأرشو أنا حرسك

وجواسيسك. ونضيف بعد شهر أبهة العرش الى كرامة الزواج، ونُجري بيننا الحساب لنرى، كما فعلنا اليوم، أيّنا سيكون الخاسر؟

اتضح أن الملك قد تأثر بهذه الكلمات، فقال بصوت متهدّج:

– تعلمين أنني صادق، وأنني أبوح بأخطائي. ولكن هل يمكنك يا سيدتي أن تبرهني لي بأنك كنت على حق في أن تغادري فرساي بزلاّجة، برفقة شُبّانٍ من حشمك، أمثال هؤلاء الماجنين الذين يعرّضون بسمعتك في مثل هذه الظروف الحرجة التي نمرّ فيها؟ برهني لي أنك كنت على حق في أن تقصدي باريس برفقتهم فتضيعون فيها كما يضيع المقنّعون في حفلة راقصة، ثم تعودين ليلاً، في ساعة متأخرة تثير حولك الشبهات، بعد أن يكون مصباحي قد نضب زيته، والكرى قد أطبق أجفان جميع من في القصر. لقد تكلمت على كرامة الزواج، وأُبّهة العرش وواجب الأمومة، فهل يليق فعلك هذا بزوجة وملكة وأم؟

– أجيبك يا سيدي بكلمتين، وبازدراء أشد من ازدرائك، لأنه يبدو لي أن قسماً من اتّهامك إيّاي لا يستحق سوى الازدراء. فقد غادرت فرساي بالزلاّجة لكي أبلغ باريس بسرعة، وقد خرجت برفقة الآنسة «دي تافرني» التي هي

والحمد لله من أنقى وصيفات القصر، وقصدت باريس لأتأكد بنفسي من أن ملك فرنسا، أبا الأسرة الكبيرة التي هي الأمة، الملك الفيلسوف، نصير جميع الملهوفين وذوي الحاجة، الذي غذّى المساكين الغرباء، ووفّر الدفء للمتسوّلين، فاستحقَّ باحسانه حبّ شعبه، أجل أردت أن أتأكد بنفسي من أن هذا الملك أهمل بين أحضان الفاقة والنسيان والعار والبؤس شخصاً من أسرته، من حسبه ونسبه، من سلالة الملوك الذين حكموا فرنسا.

فعقلت الدهشة لسان الملك، وتابعت الملكة تقول:

- صعدتُ إلى منزل حقير، وشاهدت سليلة أمير كبير تعيش في الظلام بلا نار ولا مال، ضحيةً للنسيان والاهمال من جانب الملك. فنقدتها مائة دينار، ومكثت حيالها أفكر بعظمتنا كيف أنها كالهباء تزول، لأنني أنا أيضاً أكون أحياناً فيلسوفة. وهذا ما جعلني أتأخر، بالإضافة إلى تراكم الجليد الذي يعترض سير الخيل التي تجرّ المركبات.

- خيل المركبات! وهل عُدتِ في مركبة؟

- نعم أيها العاهل، في المركبة ذات الرقم ١٠٧.

وراح الملك يعيد كلمة مركبة، وساقه اليمنى تتأرجح فوق ساقه اليسرى كعادته عندما يكون في حالة من النزق وفروغ الصبر. أما الملكة فقد تابعت تقول:

- نعم في مركبة، وكم كان طالعي سعيداً في أن أجد مركبة أعود فيها.

- أحسنتِ الصنيع يا سيدتي، وإن مقاصدك في غاية النبل، وإن حققتها أحياناً بخفة. إن الذنب ولا شك واقع على سجية الجود الزاخرة التي تتحلين بها.

فأجابته الملكة بلهجة ساخرة: شكراً أيها العاهل!

- يجب أن تعتقدي أن ظنوني لم تحفل إلا بما هو مستقيم شريف. بيد أن مسلك المغامر الذي لا يليق بملكة هو الذي لم ينل رضاي. إنكِ فعلتِ خيراً كعادتك، ولكن الخير الذي أسديته للآخرين انقلب شراً على نفسك. هذا هو مأخذي عليك. والآن إني مستعد أن أصلح الإهمال الذي وقعتُ به، لأن واجبي يقتضيني السهر على من هم من سلالة الملوك. أفيديني عن بؤسهم وحاجتهم، وسترين كيف أغدق عليهم الهبات.

- إن اسم « فالوا »، أيها العاهل، أشهر من نار على علم، وأظن أن ذاكرتك لن تنساه بعد الآن.

فانفجر لويس السادس عشر ضاحكاً عند سماعه اسم « فالوا »، وهتف قائلاً:

- علمتُ الآن بمن تهتمين، بتلك السيدة الصغيرة من آل فالوا، التي تدعى الكونتس ... دعيني أتذكر ...

– الكونتس « دي لاموت » .

– إنها كذلك ، وزوجها دركي ؟

– نعم يا مولاي .

– إنها قهرمانة ماهرة . اسمحي لي أن أدعوها كذلك ولا تغضبي ، فهي تحرّك من في السماء وعلى الأرض ، وتزعج الوزراء ، وتقلق عمّاتي بشتى الوسائل ، وتسحقني أنا نفسي بتوسلاتها وعرائضها وبيّناتها التناسلية .

– هذا يثبت أيها العاهل أن مطلبها لم يحظ باهتمامك .

– إني لا أنكر هذا مطلقاً .

– أهي من آل « ڤالوا » أم أنها ليست منهم ؟

– أعتقد أنها منهم .

– إذن ، لتُعطَ راتباً محترماً ، ورتبة لزوجها ، يوفّران لهما حالة تليق بمن هم من سلالة ملكية .

– يا للشيطان ! رويدك يا سيدتي ! فلعلك تتسرعين . إن هذه السيدة الصغيرة من آل « ڤالوا » قادرة على نتف ريشي دون أن تلجأ الى مساعدتك ، وذلك لأنها ماكرة ومنقارها صلب !

– ولكنني لا أخشى عليك أيها العاهل ، لأن ريشك قاسٍ لا يُنتف .

- تقترحين لها راتباً محترماً؟ معاذ الله أن أفعل! ألا تعلمين كيف استنزف هذا الشتاء القارس خزينتي؟ وتقترحين رتبة لزوجها الدركي الصغير الذي ركب رأسه عندما قبل أن يقترن بسليلة من آل ڤالوا؟ كلا يا سيدتي، لم يبق لديّ رتب أمنحها حتى للذين يشترونها أو يستحقّونها. ثم تقترحين لهؤلاء المتسولين حالة تليق بأسلاف الملوك؟ رعاك الله! ألا ترين في أية حالة نرتع نحن الملوك إذ أصبحنا دون الموسرين من عامة الشعب غنىً وحفظاً للمال؟ فها هوذا شقيقي، دوق اورليان»، قد أرسل خيوله وبغاله الى انكلترا، لتباع هناك، كما أنه ألغى كل الأبنية المتممة لقصره. وكذلك أنا فقد استغنيت عن قصر الصيد، ولجأت الى السيد «سان جرمان» لكي يعيد ترميم قصري العسكري. إننا يا عزيزتي، نعيش كما ترين كباراً وصغاراً في حالة من الحرمان والتقتير.

- ومع هذا أيها العاهل، فان آل «ڤالوا» لا يستطيعون الموت جوعاً.

- أما أخبرتني أنك نقدتهاماية دينار؟

- يا لها من حسنة هزيلة!

- بل إنها حسنة ملكية.

- تبرّع بمثلها إذاً؟

- هذا ما أتورّع عن فعله. إن ما تبرعتِ به هو عن كلينا.

- عيّن لها إذن راتباً صغيرا .

- كلا أبدا ! لن أعيّن شيئاً ثابتاً . يكفي هؤلاء الناس ما يحتلبونه منا ، لأنهم من فصيلة القوارض . أما أنا ، فعندما أجد رغبة في العطاء ، أعطي ما لم يُعيّن سلفاً ، وما لا يُعتبر فرضاً في المستقبل . وبكلمة ، إنني أعطي عندما أجد لديّ فائضاً من المال . أما هذه الصغيرة من آل « ڤالوا » فإنني لا أستطيع أن أبوح لك بكل ما أعرف عنها . لا بد أن يكون قلبك الخيّر قد وقع في أحابيلها يا عزيزتي أنطوانيت ، وإني لأطلب المغفرة عن ذلك لقلبك الخيّر .

وفيما كان الملك يتلفظ بهذه الكلمات مدّ يده لزوجته الملكة ، التي أخذتها وقربتها بحركة عفوية من شفتيها . إلا أنها ما برحت أن أبعدتها قائلة :

- إنكَ لست خيّراً معي ، وإني حاقدة عليك !

- تحقدين علي ! أنت ! أما أنا فلا ...

فقاطعته قائلة بلهجة ساخرة :

- ستدعي طبعاً أنك لست حاقداً عليّ أنت الذي أوصدت في وجهي أبواب فرساي ، وبكّرت في الساعة السادسة والنصف إلى مقاصيري لتفتح بابي عنوة وتدخل إلى غرفتي وأنت تقلّب فيها عينيك المتجسستين .

فتضاحك الملك وقال :

- كلا ! إني لا أحقد عليك .

- يسعدني أنك لست بحاقد .

- ماذا تعطينني إذا برهنت لك أنني لم أحقد عليك حتى عندما ولجت مكانك هذا ؟

- قدّم أولاً البرهان على ذلك .

- هذا سهل جدّا ، فالبرهان هنا في جيبي .

فنهضت الملكة وقد استبدّ بها الفضول وهتفت قائلة :

- جلبت شيئاً تريد أن تعطيني إياه ؟ حقاً إنك ملك محب . ولكن احذر ، لن أصدّقك إلا إذا عرضت برهانك أولاً ، لأنني أخشى أن يكون ادعاؤك حيلة لن تنطلي عليّ ، وأراهنك على أن ما تدّعيه هو أيضاً مجرّد وعد .

عندئذ ابتسم الملك ابتسامة طيبة ورضى ، وشرع يبحث في جيبه بتؤدة تعمدها لكي يضاعف فضول الملكة ، مثل هاتيك التؤدة التي تجعل الطفل يتراقص فارغ الصبر أمام لعبته ، والحيوان أمام طعامه ، والمرأة أمام الهدية التي تحلم بها . وأخيراً أطلع الملك من جيبه علبة جلدية نُقشت نقشاً فنيّاً مذهباً . فلم تستطع الملكة أن تتمالك نفسها ، وهتفت صارخة .

- ما هذا ، حلية !

فوضع الملك العلبة على السرير ، فتلقّفتها الملكة بفارغ صبر ، وما لبثت أن فتحتها ، فإذا بها تصرخ مذهولة مبهورة :

– ما أجمله ! يا الله ، ما أجمله !

فشعر الملك أن قلبه يرتجف من الفرح ، فسألها :

– أترين حقاً أنه جميل ؟

إلا أن الملكة لم تحر جواباً ، لأنها كانت مذهولة تلهث ، وقد نزعت من العلبة عقداً من الماس ضخماً نقياً ، رُكّب بحذقٍ شديد ، حتى أنه خيّل اليها أنها ترى نهراً من الفسفور واللهب يجري على يديها الجميلتين . وكان العقد يتماوج بين تينك اليدين كحلقات أفعى يلمع في كل قشرة من جلدها برق متوهج . وعندما استطاعت الملكة أن تتمالك نطقها قالت :

– إنه رائع ! رائع !

كررتها مراراً بعينين متوهجتين لانعكاس الجواهر الباهرة عليهما ، أو لأنها فكّرت أن أي امرأة في العالم لا تستطيع أن تملك مثيل هذا العقد . وعندئذ سألها الملك :

– هل أنت مسرورة الآن ؟

– بل إني في غاية الحبور يا مولاي ، فلقد بعثتَ فيضاً من السعادة في قلبي .

– أحقاً ما أسمع !

– أنظر إلى هذا الصف الأول ، فإن حبوبه بحجم حبوب البندق .

– إنه كما تقولين .

- وكم هو منسّق! حتى يخيل للمرء أن حبوبه بحجم واحد، فقد راعى الصائغ تدرّج الأحجام بمهارة فائقة، وحافظ على النسب بطريقة علمية تموّه الفرق بين الحبة الأولى والثانية، وبين الثانية والثالثة. إن الصائغ الذي نسّق هذا العقد هو حقاً فنّان.

- إنهما صائغان لا واحد.

- أراهن إذاً على أنهما «بوهمير» و «بوسّانج» الشهيران؟

- أجل، لقد عرفتهما.

- لا يوجد حقاً غيرهما من يجرؤ على مثل هذا الابداع. إنه جميل يا مولاي، إنه رائع!

- ولكن حافظي على هذا العقد يا سيدتي، لأنك تدفعين ثمنه غالياً جداً.

ولم يكد الملك يتلفظ بهذه الكلمات حتى اربدّ جبين الملكة الذي كان مشرقاً، وانحنى منخفضاً. إلا أن هذا التغيّر الطارئ على سحنة الملكة قد تلاشى بسرعة، فلم يتسنّ للملك أن يلاحظه، لذلك فقد نطق يقول:

- إسمحي لي تحقيق متعة واحدة.

- وما هي؟

- أن أعلّق هذا العقد في عنقك.

بيد أن الملكة اعترضته وهي تقول بلهجة حزينة:

- إنه غالي الثمن، أليس كذلك؟

فأجاب الملك وهو يضحك:

- طبعاً إنه غالي الثمن، ولكنك تستحقين ما هو أثمن منه. إن هذا العقد لن يكون له ثمن حقيقي إلا في موضعه، أي في عنقك.

وبينما كان الملك لويس السادس عشر يفوه بهذه الكلمات، كانت يداه تلتقطان طرفي العقد الباهر وقد اقترب من الملكة ليبكّله لها في عنقها بيكلته المكونة هي أيضاً من ماسة كبيرة. إلا أن الملكة صدّته قائلة وهي تهز برأسها:

- كلا أيها العاهل! دعك من هذا العمل الصبياني، وأعد العقد إلى علبته.

- أتمانعين في أن أكون أول من يراه عليك؟

- لا سمح الله أن أمنع عنك هذه اللذة يا مولاي، فيما لو أخذت العقد، ولكنني ...

فقاطعها الملك مندهشاً وقال:

- ولكن ماذا؟!

- ولكن لن يرى أحد، أنتَ أو سواك، عقداً بمثل هذا الثمن في عنقي.

- ألن تلبسيه يا سيدتي؟

- لن ألبسه أبدا!

– أترفضين رغبتي ؟

– إني أرفض أن أعلق مليوناً بل مليوناً ونصف المليون من الدنانير في عنقي ، وهي كما أعتقد ثمن هذا العقد ؟

– إني لا أنكر ذلك .

– إني أرفض أن أعلق في عنقي هذا المبلغ الضخم عندما تكون خزائن الملك فارغة ، وعندما يضطرّ الملك إلى التقتير في مساعداته وإلى مخاطبة ذوي الفاقة قائلاً : « إن خزينتي فارغة ، فليعلكم الله ! »

– ماذا ، أجدّاً ما تقولين ؟

– اسمع يا مولاي ، قال لي السيد « دي سارتين » ذاتَ يوم إن مبلغ مليون ونصف يمكّننا من الحصول على باخرة تجارية . وفي الحقيقة أيها العاهل إن ملك فرنسا هو أكثر حاجة الى باخرة تجارية من حاجة ملكة فرنسا إلى عقد تعلقه في عنقها .

فهزّ الفرح العاهل الفرنسي واغرورقت عيناه بالدموع ، ولم يلبث أن صاح :

– يا للقول الرائع والموقف النبيل ! شكراً لك يا أنطوانيت ، شكراً ، شكراً ، شكراً ! إنك امرأة صالحة .

ولكي يتوّج ثناءه عليها بطريقة بورجوازية عطوفة ، فقد طوّقها بذراعيه وقبّلها هاتفاً :

- لكم سيباركونك في فرنسا يا سيدتي عندما تصل إلى أسماعهم كلماتك هذه.

فتنهّدت الملكة. إلا أن الملك عاجلها قائلاً:

- لم يفت الوقت، إذا كنت تتنهدين أسفاً!

- كلا يا سيدي! إن تنهدي تعبير عن التعزية. هيّا أغلق هذه العلبة وأعدها للصائغين.

- ولكنني أعددت فواتير الدفع، والدراهم اللازمة، فماذا أفعل بها؟ فلعلك ستندمين يا سيدتي؟

- لا، لن أندم، فكّرت ملياً بالأمر، وعزمت على رفض هذا العقد، ولكنني أطلب شيئاً آخر.

- اطلبي ما تشائين. ها هما مليونان من الدنانير رهن بتصرفك.

- مليونان من الدنانير؟ أكان العقد ثميناً إلى هذه الدرجة؟

- خرجت اللفظة من فمي عن غير قصد، ولن أكذّبها يا سيدتي.

- ولكن اطمئن، إن ما أطلبه يكلّف أقل من ذلك كثيراً.

- وماذا عساك تطلبين؟

- الذهاب إلى باريس مرّة أخرى.

- هذا أمر سهل، ولا يكلّف شيئاً.

- أريد أن أزور السيد « ميسمار » في ساحة الفندوم .

فحكّ الملك أذنه ثم قال :

- بما أنك رفضت حلية تكلف مليونين من الدنانير ، فإني أوافق على طلبك هذا . زوري السيد « ميسمار »، ولكن بشرط .

- وما هو هذا الشرط ؟

- أن تصطحبي معك أميرة أثيلة .

ففكرت الملكة قليلاً وقالت :

- أتعجبك مدام دي لامبال ؟

- مدام دي لامبال ، لا بأس !

- أعدك بذلك .

- إني موافق إذن .

- شكراً .

عندئذ أضاف الملك قائلاً :

- منذ الآن سأوصي على باخرتي التجارية ، وسأطلق عليها اسم « عقد الملكة » ، وإني لجاعلها تشدّ رحالها لتصل الى لابيروز .

ثم قبّل الملك يد زوجته وخرج من مقصورتها مسروراً .

نهوض الملكة في الصباح

★

لم يكد الملك يخرج حتى نهضت الملكة من سريرها ودنت من النافذة تتنشق نسيم الصباح البارد. وكان النهار قد انبلج ممتلئاً بتلك العذوبة التي يسلّفها الربيع للأيام الأولى من شهر نيسان. فالشمس البازغة قد أطلقت دفئها الناعم بعد جليد الليل، والرياح الخافتة حلّت محلَّ ريح الشمال القارسة، حتى خيّل للناس أن هذا الشتاء المرعب، شتاء ١٧٨٤، قد شارف على نهايته. وفي الواقع، أخذ يبدو في الأفق الوردي بخار رمادي إن هو إلا الرطوبة التي بدأت تكشّحها الشمس.

أما في الحدائق فقد أخذ الجليد يتساقط شيئاً فشيئاً عن الأغصان، وشرعت العصافير تتنقل حرّة فوق البراعم النافرة. كذلك أخذت زهور نيسان المنخفضة الجبين تحت الجليد، ترفع رؤوسها المسودّة كلما كان يذوب الثلج، وأزرار البنفسج تتحرك بين أوراقها السميكة الصلبة العريضة وتتفتح تويجاتها إيذاناً بانتشار العطر.

وبين حالتي التجمد والذوبان كان الجليد يزلق كالماس البرّاق في الممرات وعن التماثيل ومختلف الحواجز المعدنية، وكأني بكل شيء في الطبيعة قد بات يعلن صراع الربيع الخفي ضدّ الصقيع والزمهرير، مؤذناً بانهزام الشتاء هزيمة نكراء.

وبعد أن سبرت الملكة بناظريها غدر الطقس السائد، استدارت نحو السيدة دي ميزاري وقالت بلجاجة:

- يجب أن نسرع لكي نستفيد من الجليد، فهوذا الربيع يعلن عن مقدمه.

فأجابت الوصيفة الأولى: منذ زمن طويل أعلنت جلالتك عن رغبتها في التزلج على البحيرة.

- وإني أفضّل التزلج هذا اليوم، لأن الانتظار إلى الغد يفوّت علينا هذه المتعة.

- إذن في أية ساعة تريد مولاتي إصلاح هندامها؟

- في هذه اللحظة بالذات، وبعد أن أتناول فطوراً خفيفاً.

- هذه هي فقط أوامر مولاتي الملكة؟

- ليُسأل عن الآنسة دي تافرني إذا نهضت، ولتُخبر أنني أرغب في رؤيتها.

- الآنسة دي تافرني هي في بهو الانتظار الخاص بجلالتك.

فاندهشت الملكة عندما عرفت بنهوض أندريه في مثل هذه الساعة المبكرة لعلمها أنها لجأت إلى فراشها في ساعة متأخرة . وعندما استوضحت وصيفتها ، أجابت هذه قائلة :

- إنها يا مولاتي في بهو الانتظار منذ عشرين دقيقة ونيّف .

- أدخليها إليّ إذن .

فدخلت أندريه إلى ردهة الملكة في اللحظة التي كانت فيها ساعة قصر الرخام تقرع القرعة الأولى من الساعة التاسعة ، وكان هندامها على أكمله شأن كل سيدة في البلاط عندما تبدو أمام مولاتها ، وكانت تبتسم ويخالجها شيء من القلق . إلا أن الابتسامة التي طالعتها بها الملكة قد هدّأت روعها وبعثت في نفسها الإطمئنان .

عندئذ خاطبت الملكة وصيفتها قائلة :

- إذهبي يا ميزاري ، أيتها المرأة الطيبة ، وابعثي لي ليونار والخياط .

وطفقت الملكة ترافق مدام ميزاري بعينيها حتى خرجت وأغلقت خلفها الباب . عندئذ التفتت إلى أندريه وقالت لها :

- لم يحدث شيء ، كان الملك لطيفاً وقد ضحك مستسلماً .

- وهل عرف بقصّتنا ؟

- تعلمين يا أندريه أن ملكة فرنسا لا تكذب ، لا سيما إذا لم ترتكب خطأ .

فتخضّب وجه أندريه بحمرة كحمرة الشفق وقالت :

- هذا حق يا سيدتي .

- ومع ذلك يا عزيزتي أندريه ، يبدو أننا ارتكبنا بعض الخطأ .

- بل أكثر من خطأ يا سيدتي .

- هذا ممكن . ولكن الخطأ الأول هو شفقتنا على السيدة « دي لاموت » ، فالملك لا يحبّها . بيد أني لا أخفي عليك أنها أعجبتني .

- لمولاتي من فطنتها ما يجعل حكمها عين الصواب .

هنا دخلت مدام دي ميزاري وبصحبتها ليونار مزيّن الملكة . فجلست الملكة أمام مرآتها وشرع المزيّن الشهير يمارس عمله في أجمل شعر في العالم . وكانت الملكة تجد لذّة كبيرة في أن تعتني بتصفيف شعرها لكي تجلب إليه الأنظار . وكان ليونار يفهم شعورها فراح يتمهّل في ممارسة فنّه ، كما لا يفعل ذلك مع أية امرأة أخرى ، تاركاً للملكة فرصة التلذّذ بمشاهدة شعرها طويلاً .

وكانت ماري أنطوانيت في ذلك النهار مسرورة مغتبطة ،

تتألق حسناً وبهاء. وكانت من خلال مرآتها تبادل أندريه أرقّ النظرات. ولم تعتّم أن خاطبتها قائلة:

– ما أنّبك أحد، أنت، لأنك حرّة معزّزة، وإنك لعاقلة حكيمة كالإلهة مينرڤا التي يرهب جانبها الناس.

– أنا يا سيدتي؟

– نعم أنت. أنت التي تعرفين كيف تكبحين طيش مجناء البلاط. يا الله! ما أحسن طالعك في أن تكوني فتاة عذراء، وفي أن تجدي سعادتك في ذلك؟

فاحمرّ وجه أندريه، وارتسم على سحنتها ظل ابتسامة حزينة، وقالت:

– نذرتُ أن أبقى كذلك.

– وستوفين نذرك يا عذراء الهيكل الرائعة؟

– هذا ما أرجوه.

– ولكن هذا الحديث يجعلني أتذكر شيئاً ...

– وما هو يا ذات الجلالة؟

– أنه، وإن كنت عزباء، فقد أصبح لك بعل، منذ يوم أمس.

– بعل يا مولاتي!

– نعم: شقيقك العزيز. اسمه فيليب كما أعتقد؟

– نعم، فيليب يا مولاتي.

- وقد وصل؟

- وصل البارحة كما ذكرت جلالتك.

- وما رأيتهِ حتى الآن؟ إني أنانية، فقد انتزعتك منه البارحة لتصطحبيني إلى باريس. هذا حقاً شيء لا يُغتفر.

- رعاكِ الله يا مولاتي! إني أغفر لك من صميم فؤادي، وكذلك شقيقي فيليب.

- أحقاً ما تقولين؟

- أستطيع أن أؤكد لك.

- تؤكدين عن نفسك؟

- عني وعن شقيقي أيضاً.

- وكيف حاله؟

- إنه كعادته بهيّ الطلعة طيّب الجنان.

- كم عمره الآن؟

- اثنتان وثلاثون سنة.

- مسكين فيليب! أوتدرين أنني أعرفه منذ أربع عشرة سنة، وأنني لم أره منذ تسع أو عشر سنين؟

- عندما تشاء جلالتك استقباله فإنه ليغتبط بأن يؤكد لها أن غيابه لم يبدّل مشاعر التبجيل والاخلاص التي نذرها للملكة.

- أباستطاعتي أن أراه في الحال؟

- إذا سمحت جلالتك ، فإنه يكون عند قدميها بعد ربع ساعة .

- نعم أسمح . بل إني راغبة في ذلك .

ولم تكد الملكة تتلفظ بهذه الكلمات حتى انزلق شخص بخفة ولباقة وجلبة فوثب على سجادة المقصورة الخاصة بهندام الملكة ، وسرعان ما انعكس وجهه الضاحك الماكر في المرآة التي كانت ماري انطوانيت تنظر فيها بحبور الى وجهها . ولم تكد ماري أنطوانيت تشاهد وجهه حتى قالت :

- هوذا أنت يا أخي الكونت « دارتوا » ؟ لقد أرعبتني .

- التحية لجلالتك . كيف قضت جلالتك ليلتها ؟

- شكراً لاستفسارك ، قضيت ليلة عاطلة .

- والصباح ، كيف كان ؟

- على خير ما يرام .

- هذا هو المهم . فقد حزرتُ أن التجربة مرّت بسلام ، لأنني التقيت الملك منذ قليل فابتسم لي ابتسامة تدلّ على الرضى والوئام . وهذا طبعاً دليل على ثقته بي .

ضحكت الملكة لسذاجة كلماته الأخيرة ، وضحك الكونت دارتوا بدوره لسبب آخر ، ثم ما عتّم أن قال :

- أظن أنني كنت طائشاً البارحة فنسيت أن أسأل الآنسة دي تافرني المسكينة كيف تقضي أوقاتها ؟

أخذت الملكة تنظر في المرآة التي كانت تعكس لها كل ما يمكن أن يحدث في حجرتها. وكان ليونار قد فرغ من عمله فنزع عن كتفي الملكة المئزر المنسوج من حرير الهند الذي تستعمله عادة عند تصفيف شعرها أو تمشيطه، فقامت الملكة والتفعت بثوب الصباح. وعندئذ فُتح الباب، فقالت ماري أنطوانيت للكونت دارتوا:

– ها هي أندريه، وبإمكانك أن تعرف عنها ما تشاء.

وفي الواقع فقد دخلت أندريه في هذه اللحظة، وهي تأخذ بيد شاب بهيّ الطلعة أسمر الوجه تنعكس على عينيه سمات النبل والكآبة. إنه عسكريّ ذو قامة صلبة وجبين ذكي ووقفة صارمة يشبه لوحة من اللوحات الجميلة التي رسمها الرسّامان الشهيران «كوييل» و «غانسبوروت» لأبناء الأُسر العريقة. وكان فيليب دي تافرني، شقيق أندريه، يرتدي بزّة رمادية قاتمة مطرّزة بتطريز فضي نحيف، تبرز على لونها الداكن ربطة العنق البيضاء وحرير السترة الأبيض الخافت اللون. أما مجمل هندامه فقد كان يبرز سمات الرجولة في بشرته وقسماته.

تقدّم فيليب من الملكة ممسكاً بيد قبعته، وبالأخرى يد شقيقته أندريه التي انحنَت باجلال أمام ماري أنطوانيت وقالت:

– هذا هو أخي يا صاحبة الجلالة.

فقدّم فيليب للملكة التحية برصانة وبطء. وعندما رفع رأسه كانت ماري أنطوانيت ما تزال تنظر في مرآتها التي كانت تشاهد فيها فيليب كما لو أنها نظرت إليه وجهاً لوجه. وبعد أن أجابت الملكة على تحية فيليب استدارت نحوه، فكانت رائعة، وكان لحسنها ذلك الإشراق الدائم الذي طالما جمع حول العرش أنصار الملكية وعُبّاد المرأة. فقد كانت ماري أنطوانيت في الواقع تملك القدرة في الجمال، أو بالأحرى كان لها جمال القدرة والجلال.

وعندما رآها فيليب تبتسم له، وشعر بعينيها الصافيتين الفخورتين الرقيقتين تحطّان عليه، شحب لونه وبدا عليه تأثر عميق. فخاطبته الملكة قائلة:

– يبدو يا سيد دي تافرني أنك تزورنا أوّل مرة، فشكراً لك.

فأجاب فيليب:

– تلطفت جلالتك فنسيت أنني أنا المدين لها بالشكر...

– ما أطول الزمان الذي انقضى دون أن نرى بعضنا! إنه أجمل فترات عمرنا!

– هذا صحيح بالنسبة لي يا مولاتي، أما بالنسبة لجلالتك فكل أيامك هي أيام جميلة.

- هل استطعت الانسجام في أميركا يا سيد دي تافرني ؟ ولماذا مكثت فيها بعد أن عادت منها جميع قواتنا ؟

- قبل أن يغادرها قائدنا السيد دي لافاييت ، يا سيدتي ، احتاج إلى ضابط يثق به لكي يعهد له بقيادة القوات ، فاقترحني على الجنرال واشنطن الذي وافق على بقائي في أرض العالم الجديد .

- يبدو لي أن من هذه الأرض الجديدة عاد لنا أبطال عديدون .

فابتسم فيليب وأجاب : قول جلالتك لا ينطبق عليّ .

- ولِمَ لا ؟

ثم استدارت الملكة نحو الكونت دارتوا وقالت :

- أنظر يا أخي إلى هذه الطلعة البهية النبيلة التي للسيد دي تافرني .

وعندما رأى فيليب أنه عُرض على الكونت دارتوا ، وكان لا يعرفه قبل ذلك ، خطا نحوه ورجاه أن يأذن له بتحيته . فأعلن الكونت موافقته بإشارة من يده ، فيما انحنى الضابط الشاب أمامه يحيّيه . عندئذ قال الأمير الكونت دارتوا في نفسه:

«إنه ضابط بهيّ ، وفتى نبيل ، وتسرّني معرفته» .

ثم توجه إلى فيليب سائلا :

- ما هي مراميك بعد عودتك إلى فرنسا ؟

فنظر فيليب إلى شقيقته وأجاب :

- رأي شقيقتي يا مولاي يغلب رأيي ، وإني سأعمل بمشيئتها .

- ولكن هناك كما أعتقد والدك السيد دي تافرني ؟

- نعم يا مولاي ، إن بقاءنا في كنف والدنا هو من حسن حظنا .

إلا أن الملكة قاطعته قائلة باهتمام :

- أفضّل ، بالرغم من وجود الوالد ، أن تكون أندريه في حماية شقيقها ، وأن يكون شقيقها في حمايتك يا سيدي الكونت . عِدني بأن تهتم بالسيد دي تافرني .

فأشار الكونت دارتوا بأنه موافق ، فيما تابعت الملكة تقول :

- أتعلم أن روابط حميمة تربط بيننا ؟

- بينكما يا شقيقتي ؟ بالله ، ما هي ؟

- السيد دي تافرني هو الفرنسي الأول الذي وقعت عليه عيناي عندما وصلت الى فرنسا ، وكنتُ قد عاهدت نفسي بأن أُسعد الفرنسيّ الأول الذي أصادفه .

فشعر فيليب أن الحمرة صعدت الى جبينه ، فعضّ شفتيه لكي يحافظ على هدوئه . أما أندريه فقد نظرت إليه ثم

خفضت رأسها، وقد لاحظت ماري أنطوانيت النظرة التي تبادلها الشقيقان، ولكن كيف عساها تكتشف ما قد تحمل تلك النظرة من أسرار حزينة؟ فإنها كانت تجهل الأحداث التي رويناها في القسم الأول من هذه القصة، لذلك فقد نسبت الحزن الذي استشفّته لسبب آخر. تُرى ما الذي يمنع أن يكون السيد دي تافرني قد شقي فؤاده بحب ابنة ماري تيريز، شأنه في ذلك شأن الكثيرين الذين أولعوا بها عام ١٧٧٤ ولعاً لا شفاء منه؟

لا شيء يجعل هذا الافتراض مستحيلاً، حتى استطلاع هذه الفتاة جمالها في المرآة بعد أن اصبحت امرأة وملكة. ولعلّ ماري أنطوانيت قد نسبت تنهّد فيليب إلى بوح من هذا النوع باح به الشقيق لشقيقته، فابتسمت للشقيق ولاطفت الشقيقة بأحب النظرات. ولم تكن ماري أنطوانيت في شعورها هذا قد بلغت كل الصواب، ولكنها لم تكن كذلك مخطئة كل الخطأ، لأنها كانت تتحلى بذلك الدلال البريء الذي لا يُعتبر جرماً، ولأنها كانت دائماً تحمل طبيعة المرأة التي تفخر بأن تجد نفسها محبوبة. فإن بعض النفوس تشعر بميل إلى تحبّب الآخرين، ولعلها تكون أسخى النفوس بين العالمين.

ولكن مهلاً أيتها الملكة المسكينة! إنك توجهين هذه الابتسامة إلى قوم يحبّونك، وسيأتي يوم توجهينها فيه ويا

للأسف إلى قومٍ كفّوا عن حبّك، فتتبدّد ابتسامتك بينهم هباء.

وبينما كانت الملكة تستطلع أندريه رأيها في ثوب أعدّته للصيد، دنا الكونت دارتوا من فيليب وسأله قائلاً:

- هل تعتقد بصراحة أن الجنرال واشنطن هو قائد عظيم؟

- نعم يا سيدي، إنه إنسان عظيم.

- وما كان تأثير الفرنسيين هناك؟

- كان تأثيرهم حسناً، بعكس تأثير الانكليز السيء.

- إني موافق على رأيك. إنك يا سيد دي تافرني من أنصار الأفكار الجديدة. ولكن هل فكّرت بشيء؟

- أيّ شيء تقصد يا سيدي؟ إني أبوح لك أنني هناك، على عشب المعسكرات، وفي السهول المنبسطة على ضفاف البحيرات الكبيرة، أُعطيتُ الوقت لأفكر بأمور كثيرة.

- هل فكرت بأن الحرب التي خضتم غمارها هناك لم تخوضوا غمارها ضد الهنود أو ضد الانكليز؟

- ضد من إذاً يا سيدي؟

- ضدّ أنفسكم.

- إني لا أناقض فكرتك يا سيدي، فالأمر ممكن.

- أوتعترف بهذا؟

- إني أعترف بالصدمة المريرة، ولكنها صدمة أنقذت الملكية .

- أجل ، ولكن تأثير الصدمة قد ينجم عنه موت الذين جرى إنقاذهم .

- هذا مؤسف يا سيدي !

- لذلك فإني أرى أن الانتصارات التي أحرزها الجنرال واشنطن والمركيز دي لافاييت هناك، ليست باهرة كما يدّعون . إنها أنانية ومحض أنانية . واسمح لي أن أصارحك أنني لست الوحيد الذي يعتبرها كذلك .

- معاذ الله أن أناقضك يا سيدي !

- وهل تعلم لماذا سأبذل أقصى جهدي لمساعدتك ؟

- مهما كان دافع مولاي فإنني سأحفظ لسموّك الملكي أصدق الجميل .

- لأنك يا عزيزي السيد دي تافرني لست من أولئك الذين جعلهم البوق العسكري أبطالاً على مفترق الطرقات عندنا ، لقد زاولت خدمتك العسكرية ببسالة دون أن تنزلق دائماً في فوهة البوق . ثم لا أحد يعرفك في باريس ، لذلك فإني أحبك . ولو أختلف الأمر لما فعلت يا سيد دي تافرني... إنني أنانيّ كما ترى .

عندئذ قبّل الأمير الكونت دارتوا يد الملكة وهو يضحك ، ثم حيّا أندريه تحية محبة واحترام لم يألفها مع غيرها من النساء ، وما لبث أن خرج من الباب الذي انفتح أمامه.

فقطعت الملكة حديثها مع أندريه ، واستدارت نحو فيليب وقالت له :

– هل رأيت والدك يا سيدي ؟

– نعم رأيته يا سيدتي ، التقيته في ردهات الانتظار هنا في القصر ، لأن شقيقتي أخبرته عن قدومي .

– ولماذا لم تذهب إلى المنزل لترى والدك أولاً ؟

– بعثت إليه يا سيدتي خادمي ومعه حوائجي الصغيرة ، إلاّ أن والدي أعاده وقد حمّله أمره بأن أزور أولاً جلالة الملك أو جلالتك .

– ولقد أطعته ؟

– بكل غبطة يا سيدتي ، وقد تسنّى لي هكذا أن أعانق شقيقتي .

هنا طرأ على الملكة شعور مرح فهتفت قائلة :

– إن الطقس رائع ! وغداً يا مدام ميزاري يذوب الجليد ، فأعدّي لي زلاّجة في الحال .

فخرجت الوصيفة الأولى لتنفذ أمر سيّدتها التي أضافت تقول :

هذه الشمس تسحرني وتدعوني إليها . وإن جمعاً غفيراً سيكون على صفحة البحيرة .

فسألها فيليب قائلاً :

أتريد مولاتي التزلج على الجليد ؟

– لا بد أنك ستسخر منا يا سيدي الأميركي ... أنت الذي اجتزت بحيرات فسيحة لا تعدّ بحيرتنا شيئاً بالنسبة اليها .

– ولكن البرد والطريق هما مسليان هنا يا سيدتي ، وإنهما مميتان هناك .

وكانت الملكة قد استغنت عن فطورها واستعاضت عنه بكأس من الشوكولا أحضرته لها وصيفتها إلى مقصورتها . فعرضت ماري انطوانيت على أندريه أن تحسو كأساً مثلها ، فاحمرّت هذه الأخيرة من شدّة سرورها وانحنت معلنة عن قبولها ، فيما خاطبت الملكة السيد دي تافرني قائلة :

– هل رأيت يا سيد دي تافرني كيف أنني لم أتغير ؟ فالمراسم ما زالت تزعجني . أوتذكر أوقاتنا الغابرة ؟ أم تراك تغيّرت أنت ؟

نفدت هذه الكلمات نفاد السهم إلى خافق الشاب ، ذلك أن عبارات التأسف على الماضي التي تطلقها شفتا المرأة قد

تكون بمثابة خنجر يدمي فؤاد الذين كانوا على اتصال بها.
ولقد أجاب فيليب باختصار:

- كلا يا سيدتي ما تغيّرت، وخصوصاً فؤادي ما تغيّر ...

- ما دام قلبك الطيب لم يتغيّر، فإننا نشكرك على طريقتنا الخاصة: هاتي كأساً من الشوكولا للسيد دي تافرني يا مدام ميزاري!

فهتف فيليب مضطرباً:

- أرجوك يا سيدتي، هذا شرف عظيم لعسكري مجهول مثلي.

- يكفي أنك صديق قديم. إنّ هذا النهار يعيدني بالذاكرة إلى ربيع الشباب وكل طيوبه، وإني لأجد نفسي فيه سعيدةً حرّةً فخورةً ومجنونة!.. إنه يذكرني بنزهاتي الأولى في قصر التريانون، قصري العزيز عليّ، وبلهونا فيه أنا وأندريه. إنه يذكّرني بورودي وزنابقي وثمار الفريز وبالعصافير التي كنت أبحث عن أسمائها في حديقتي. وبكل شيء، حتى بعمّال حدائقي الأعزاء الذين كانت وجوههم المغتبطة تبشر دائماً بزهرة جديدة أو بثمرة لذيذة. إنه يذكّرني بالسيد «جوسّيو»، وبروسّو الغريب الأطوار الذي مات. هذا النهار يبهرني حتى الجنون! ولكن ماذا بكِ يا أندريه حتى تضرّج وجهك؟ وماذا بكَ يا فيليب حتى أصبحت باهت

اللون؟ وكانت هذه الذكريات في الواقع قد قلبت سحنة الفتيين، وقد استعان كل منهما برباطة جأشه لكي يخفي ما بعث في نفسه كلمات الملكة. لذلك قالت أندريه:

- لقد أحرقت سقف حلقي، أعذريني يا سيدتي.

- وقال فيليب:

- أنا أيضاً يا سيدتي لم أستطع ضبط نفسي إذ أرى أن جلالتك تكرمني كنبيل كبير.

فقاطعته ماري أنطوانيت وهي تسكب سائل الشوكولا الحارّ في كأسه قائلة:

- هيّا يا سيد فيليب، قلت إنك عسكري، أي أنك معتاد على النار، هيا كلل جبينك بغار المجد واحترق بهذا الشوكولا لأن الوقت لا يسمح لي بالانتظار طويلا.

وشرعت تضحك، فيما سارع فيليب الى احتساء كأسه بطريقة جدّية كما يفعل قرويّ في مثل موقفه، ولكن بفارق واحد: فالقروي يفعل ذلك بارتباك، بينما فعله فيليب بشجاعة رغم أن الملكة كانت ما تزال تنظر إليه. وعندما أفرغ كأسه في جوفه تضاعف ضحكها وقالت:

- إنك حقاً رجل فذّ!

ثم نهضت. وكانت وصيفاتها قد أحضرن لها قبعة جميلة ومعطفاً من الفرو الأبيض وقفّازين، فلم يستغرق هندامها أكثر

من دقائق معدودة . أما فيليب فقد لفّ ذراعه حول قبعته وهمّ أن يخرج ، ولكن الملكة استوقفته قائلة :

– لا أريد أن تتركني يا سيد دي تافرني ، ويمكنني اليوم أن أدّعي ، بلغة السياسة ، أنني احتجزت أميركياً . خذ يميني إذن يا سيد دي تافرني ...

فأطاع الشاب ، وانتقلت أندريه إلى يسار الملكة التي خرجت من مقاصيرها وأخذت تنحدر على الدرج العريض . وسرعان ما استقبلتها ، في ساحات القصر ، الطبول وهي تقرع ، وأبواق الحرس ، وقرقعة الأسلحة التي أخذت تتأهب لتحيتها . أما هذه الأُبّهة الملكية ، وهذا التبجيل الذي كان يقدّمه الجميع للملكة بحرارة تبلغ درجة العبادة ، فقد كان كل ذلك يملأ رأس السيد دي تافرني بالدوار ، حتى أن حبّات من العرق قد لمعت على جبينه فشعر أن الارتباك قد استولى على خطواته ، ولو لم تصفعه عاصفة الصقيع في عينيه وشفتيه لكان قد أُغمي عليه .

ولقد شعر هذا الفتى أنه ، بعد السنين الحزينة المؤلمة التي قضاها في المنفى ، قد عاد فجأة إلى صبوات الفرح المكتظة بالاعتزاز ومتع القلب .

وكانت الملكة تسير في موكب من البهاء ، فتنحني في طريقها الرؤوس ، وتتأهب الأسلحة . إلا أن شيخاً مسناً قد بدا

منهمكا بهذا المشهد فلم يحفل بمراعاة المراسم المترتبة عليه ، إذ بقي رأسه مرفوعاً متطاولاً ، وعيناه منصبتين على الملكة وعلى السيد دي تافرني . وعندما ابتعدت الملكة عنه شوهد هذا الشيخ الصغير الجسم يخرج من الصف المكتظ حوله ويعدو ملء ساقيه القصيرتين البيضاوين، ساقي الشيخ الذي ناهز السبعين من عمره .

على صفحة البحيرة الصغيرة

★

كان الممر الذي يمتدّ على ضفتي البحيرة المعروفة بالبحيرة السويسرانية حافلاً بالمتنزهين الذين كانت تظللهم أشجار الزيزفون المنبسطة اغصانها بفرح في ذلك اليوم المشمس . وكان المتنزهون من جميع الأعمار وقد أبهجهم مشهد التجلد على الجليد ولفتت انظارهم زينات النساء التي اختلط قديمها المزعج بحديثها المبتكر المتطرّف . فقد كانت هناك القبعات العالية ، والقبعات التي معظمها من القماش ومعاطف الفرو ، وفساطين الحرير الفضفاضة التي تؤلّف مع الأردية الحمراء ، والسترات الزرقاء بلون السماء ، وملابس الخدم الصفراء ،

والسراويل البيضاء، مزيجاً غريباً يثير الفضول. وكان منظر الخدم وهم يشقّون جمع أولئك الناس بثيابهم الحمراء أو الزرقاء يشبه منظر شقائق النعمان عندما تتماوج مع الريح في حقل من السنبل أو النفل. وفي بعض الأحيان كانت تنطلق من هذا الجمع المحتشد صيحة إعجاب توجّه للمتزلج الماهر «سان جورج» كلما رسم على الجليد دائرة بارعة لو قاسها مهندس لما عثر فيها على خطأ صغير.

وبينما كانت ضفاف البحيرة تكتظ بمثل هذا العدد الضخم من المشاهدين الذين كان يلتصق بعضهم ببعض فيبدون وكأنهم بساط مخطط الألوان يعلوه بخار الأنفاس المتجمدة، كانت صفحة البحيرة الشبيهة بمرآة ضخمة من الجليد تحفل بمشهد متنوع شديد الحركة. ففي ناحية منها زلاّجة يجرّها ثلاثة كلاب ضخام على طريقة الزلاّجات الروسية فتنطلق انطلاقاً جنونيا. وكانت الكلاب ترتدي نوعاً من الصدارى المخملية المنقوشة، ويخفق الريش فوق رؤوسها فتبدو وكأنها حيوانات أسطورية تشبه لوحات «كالو» و«غويا» الشهيرة بغرابتها. أما قائدها، السيد «دي لوزون»، فقد كان يجلس في الزلاّجة المبطنة بفراء النمر جلسة لامبالية، بيد أنه كان يميل على جانبه لكي يتجنب خط الريح الناجم عن السرعة فيتسنى له بذلك أن يتنفس. وكانت

زلاّجات أخرى، أقل سرعة من تلك، تنفرد هنا وهناك على صفحة البحيرة، وفي كلّ منها سيّدة متنكرة بسبب البرد، وقد انحنى على مؤخّرة زلاجتها متزلّج جميل يلتفع برداء مخملي عراه مذهبة فيدفع الزلاجة بشدّة ويوجهها بالاتجاه الذي يريد. أما الكلمات التي كانت تتبادلها السيدة وفتاها الجميل فقد كانت تضيع مع الريح، لا سيما لأنه لم يكن هناك من يلوم موعداً سرّياً ينعقد بين حبيبين تحت قبة السماء وعلى مرأى من فرساي بأجمعها. إن ما كان يقوله الاثنان لم يكن ليضيق به الآخرون لأنه كان يجري تحت بصرهم، ولم يكن ليهتمّ به المتخاطبان لأنه كان لا يتساقط في الأسماع. وكان من الواضح أن هذين العاشقين كانا يمرّان وسط ذلك الجمع من المتفرجين كطائرين من الطيور الراحلة، قاصدين عالماً مجهولاً تنشده النفوس ويدعى السعادة.

وفجأة، بين تلك الأرواح الهائمة التي تنزلق على الجليد أكثر مما تسير عليه، حدث هياج كبير وعلا ضجيج صاخب. فقد ظهرت الملكة على ضفة البحيرة، فعرفها الناس، وهمّ كلّ منهم ليُفرغ لها موضعه فيما كانت تشير بيدها لكل امرئ أن يبقى في مكانه. وسرعان ما ارتفعت من حناجر الجميع صرخة مدوّية: لتحيَ الملكة! ولم تمضِ لحظات حتى تحلق الجميع حول المكان الذي وقفت فيه الزائرة العظيمة. وأخذ

الرجال يقتربون منها بطرق مدروسة، والنساء يستصلحن هندامهنّ لكي يبرزن بطريقة فضلى. وكان الجميع يختلطون بجماعة النبلاء والضباط الكبار الذين أقبلوا لتقديم تودّدهم للملكة. بيد أنه بين تلك الشخصيات التي عرفها الجمهور شوهدت شخصية بارزة جداً لم تجارِ الشعور العام فتقترب من الملكة، ولكنّها بالعكس عندما عرفت الملكة من هندامها وحاشيتها خرجت من زلاّجتها مسرعة وتوغلت في ممرّ معاكس مع من يتبعها. أما الكونت دارتوا الذي كان يتميّز بأناقة مظهره وبخفّته في التزلّج فقد أسرع باجتياز المسافة التي تفصله عن زوجة أخيه وأقبل يلثم يدها وهو يقول:

- أرأيت كيف أن شقيقنا السيد دي بروفانس يتجنّبك؟

وقد أشار بإصبعه إلى سموّ أخيه الذي كان يسير بخطى واسعة بين الأشجار المليئة بالجليد لكي يصل بطريق معوّجة الى مركبته. فقالت الملكة:

- إنه يتجنبني خوفاً من توبيخي إياه.

- أنا سأتدبّر توبيخه يا سيدتي، ولكنه يخافك لشيء آخر.

فقالت الملكة وهي تضحك: إن ضميره يؤنبه.

- بل لسبب آخر يا شقيقتي.

- وماذا تُراه يكون؟

- لقد علم أن السيد دي سوفران، المنتصر الباهر، يعود في هذا المساء. إنه خبر هام توخّى أن يخفيه عنك.

ونظرت الملكة حولها فرأت آذان الفضوليين صاغية لسماع ما يتلفظ به شقيق زوجها، فأرادت أن تبعدهم عنها، لذلك التفتت إلى السيد دي تافرني وقالت له:

- أرجوك أن تهتمّ بزلاجتي، وإذا كان والدك حاضراً هنا فامضِ وقبّله، إني أعطيك فرصة ربع ساعة.

فانحنى الشاب ثم انطلق بين الجمهور ليحقق أمر الملكة. أما الجمهور فقد فهم قصدها بغريزته الحادّة فوسّع الحلقة حولها لكي تتابع حديثها مع الكونت. عندئذ قالت الملكة:

- أرجوك أن تشرح لي يا أخي ما الذي يربحه الكونت دي بروفانس إذا ما أخفى عليّ قدوم السيد دي سوفران.

- أرجوك يا شقيقتي، هل من الممكن ألا تفهمي، أنت المرأة والملكة والخصم، مقصد هذا السياسيّ المحتال؟ إن وصول السيد دي سوفران مجهول في البلاط، والسيد دي سوفران هو بطل بحار الهند ويستحقّ أن يُستقبل استقبالاً رائعاً في فرساي. ولكن الملك يجهل أنه قادم، لذلك سيتناساه عن غير علم منه وعن غير إرادة. وكذلك أنت ستفعلين، بينما يمضي دي بروفانس وحده لاستقبال البحّار

العائد ، فيبتسم له ويلاطفه ويمدحه ويحتكّ ببطل الهند فيصبح بذلك بطل فرنسا .

فقالت الملكة : هذا شيء في غاية الوضوح .

- طبعاً يا شقيقتي .

- ولكنك تنسى نقطة واحدة يا مخبري العزيز .

- وما عساه يكون هذا الشيء ؟

- كيف عرفت كل هذا المشروع الجميل الذي اختطه شقيقنا العزيز ؟

- كيف عرفته ؟ كما أعرف كلّ ما يفعل . وهذا أمر في منتهى البساطة ، ذلك أنني عندما عرفت أن دي بروفانس قد نصب عليّ الأرصاد لمراقبة أعمالي ، اشتريت بدوري أناساً يقصّون لي كل أعماله وأفعاله ، هذا ما قد يفيدني ويفيدك أنت أيضاً يا شقيقتي .

- شكراً لارتباطك بي يا شقيقي . ولكن ماذا يكون شأن الملك ؟

- لقد بلّغته النبأ .

- أنت بنفسك ؟

- كلا ، بواسطة وزير البحرية الذي أرسلته لمقابلته . إنك طبعاً تعتقدين أن هذا الأمر لا يعنيني لأنني أعيش حياة عابثة طائشة مجنونة ولا أحتفل بأشياء هامة كهذه .

- ووزير البحرية كان يجهل هو أيضاً عودة السيد دي سوفران إلى فرنسا ؟

- يا الله ! عشتِ يا شقيقتي العزيزة في فرنسا أربعة عشر عاماً وليّةً للعهد أو ملكة ، وعرفت كثيراً من الوزراء ، وأظنك تيقنتِ أن هؤلاء السادة يجهلون دائماً الأمور الهامة . لذلك فقد أخبرت وزيرنا الذي أبدى حماسته .

- هذا ما لا أشكّ فيه .

- إنك تفهمين ، يا شقيقتي العزيزة ، أن هذا الرجل سيعترف لي بالجميل طيلة حياته ، وإني بحاجة إلى عاطفته هذه .

- ولماذا أنت بحاجة إليه ؟

- ليساعدني على تحقيق قرضٍ مالي .

فهتفت الملكة وهي تضحك :

- لا رعاك الله ! لقد أفسدت فعلتك الصالحة .

هنا بدت الرصانة على وجه الكونت وصوته ، فقال :

- أظن يا شقيقتي أنكِ بحاجة إلى مال ، وإني أقسم بشرفي العائلي أنني سأضع تحت تصرفك نصف المبلغ الذي أقبضه .

- كلا يا أخي ! بالله عليك ! فإني والحمدلله لست بحاجة إلى شيء في الوقت الحاضر .

- ولكن لا تنتظري طويلاً لمطالبتي بوعدي يا أختي العزيزة .

- ولماذا ؟

-- لأنك إذا انتظرت طويلاً ينفد المال ، فلا أستطيع بعدئذ أن أفي بوعدي .

- لا تخف ، إنني أتدبّر أمري عند الحاجة فألتجئ إلى سرّ من أسرار الدولة .

- ها إن أعراض البرد تبدو عليك يا شقيقتي ، إني أنبهك ، خدّاك يزرقّان .

- ما عليك ، ها هوذا السيد دي تافرني يعود بزلاّجتي .

- إذاً ما عدت بحاجة إليّ يا شقيقتي ؟

-- كلا !

- اطرديني إذن ، أرجوك !

- ولماذا أطردك ؟ أوتعتقد أنك تزعجني في شيء ما ؟

- كلا ، ولكنني أنا محتاج إلى حريتي .

- وداعاً إذاً .

- بل إلى اللقاء يا شقيقتي العزيزة .

- ومتى تريد ؟

- في هذا المساء .

- وهل من داع للقائنا هذا المساء ؟

– نعم .

– وما هو ؟

– لأن قاعات الملك ستغصّ بالزائرين .

– وبأية مناسبة ؟

– لأن الوزير سيرافق السيد دي سوفران إلى القصر .

– حسناً ، فإلى المساء إذن .

عقبَ هذه الكلمات حيًّا الأمير الشاب زوجة أخيه بتلك اللياقة الطبيعية التي كان مفطوراً عليها ، ثم ابتعد فغاب في جمهرة الناس .

وكان السيد دي تافرني ، الوالد ، قد راقب ابنه بينما كان يبتعد عن الملكة ليهتمّ بزلاّجتها . ولكن عينه المتيقظة ما عتّمت أن حطت على الملكة ، وقد أقلقه ذلك الحوار الذي جرى بينها وبين شقيق زوجها ، لأنه كان سبيلاً إلى قطع العلاقة الودّية التي كانت لدقائق خلت متوثقة بين ابنه وصاحبة الجلالة . لذلك فقد اكتفى بإشارة ودّية أطلقها لابنه فيليب عندما انتهى هذا الأخير من الاعدادات الضرورية لسير الزلاّجة على الجليد . وعندما أراد ابنه الشاب ، كما أوصته الملكة ، أن يأتي لمعانقة والده الذي لم يعانقه منذ عشر سنوات ، أبعده والده بيده قائلاً :

- نتعانق فيما بعد، عد الآن إلى عملك. وفيما بعد نتحدّث بأمور كثيرة.

فابتعد فيليب عنه، وما أعظم ما كانت سعادة البارون الشيخ عندما رأى الكونت دارتوا يغادر الملكة التي اتجهت نحو زلاّجتها فدخلت إليها ودعت أندريه أن تدخل معها. عندئذ تقدّم عتعيتان لدفع الزلاّجة، ولكن الملكة صاحت قائلة:

- لا، لا! لا أريد دفع زلاّجتي بهذه الطريقة. ألا تحسن التزلق يا سيد دي تافرني؟

- المعذرة منك يا سيدتي.

- هاتوا زلاّقتين للفارس دي تافرني! لست أدري ما الذي يخالجني بأنك تضارع سان جورج بالتزلق؟

فقالت أندريه:

- في الماضي كان فيليب يتزلّق بحذق وأناقة.

- والآن لن تترك لك قرينا، أليس كذلك يا سيد دي تافرني؟

- سأحاول جهدي يا سيدتي ما دام لك هذه الثقة بي.

ولم يلبث فيليب أن وضع في قدميه زلاّقتين حادّتين كأنهما شفرتا سكين، وجاء فوقف خلف الزلاجة الملكية ودفعها بيده، فبدأ هكذا السباق.

وكان مشهد يُثير الفضول، إذ وجد المتزلق الشهير سان جورج، سيّد المتزلقين وأحذقهم على الاطلاق وأشهر الرياضيين بمرونة تمارينه وحركاته، وجد له خصماً قوياً في شخص هذا الفتى الذي كانت له الجرأة في مجاراته في مضماره. لذلك فقد شرع يدور حول زلاّجة الملكة وهو يرسم انحناءات التبجيل بحركات عذبة يعجز عن القيام بمثلها، داخل فرساي نفسها، أصلب النبلاء وأمهرهم. ثم أخذ يرسم حول الزلاجة حلقات سريعة صحيحة كان يتصل بعضها ببعض باتساق لا مثيل له. وفيما كانت الزلاّجة تصل إليه ثم تتركه خلفها، كان يعود بحركاته اللولبيّة فيتغلب عليها مستأنفاً رسم صوره الساحرة حولها. ولم يكن أحد يستطيع متابعة هذا المشهد بمجرّد النظرة دون أن تنبهر عيناه ويستولي عليه الذهول. لذلك فقد شعر فيليب بالنكاية توجه إليه، فعزم أن يلجأ إلى أسلوب جريء متهور، فإذا به يدفع الزلاجة بسرعة مخيفة جعلت المتزلق سان جورج يقطع دائرته مرتين متتاليتين وينكفئ إلى ما وراء الزلاجة. وعندما سمع فيليب أصوات الرعب تنطلق من أفواه الناس جميعاً ظن أن سرعته والصياح الذي يعلو على ضفاف البحيرة قد يبعثان الخوف في قلب الملكة، فخاطبها قائلاً:

- إذا أمرت مولاتي فإنني أتوقف أو أتباطأ.

ولكن الملكة هتفت به بتلك الحرارة وذلك الجموح اللذين يتسلطان عليها في انتهابها اللذائذ قائلة :

- كلا ! كلا ! لست خائفة . أسرع أكثر أيها الفارس اذا استطعت ، أسرع أكثر .

- إني شاكر لك يا سيدتي ، كلي أمرك إليّ فإنّ زلاجتك في قبضة حديدية .

عندئذ توثّقت يده القوية حول المثلث الفولاذي في ظهر الزلاجة ودفعها بعنف فارتجّت ارتجاجاً شديدا، حتى بدت وكأنه يرفعها فوق الجليد بيده الممدودة . ولم يكن فيليب حتى الآن قد استخدم سوى يد واحدة ، فعندما استخدم الثانية أصبحت الزلاّجة بين يديه الفولاذيتين وكأنها لعبة يتصرّف بها كما يشاء . عندئذ أصبح يقطع الطريق على سان جورج بدوائر أوسع وقد أصبحت الزلاّجة تتحرك بمرونة فائقة وكأنها رجل يندفع على زلاّقتيه الحادّتين . بل لقد أصبحت الزلاّجة بالرغم من حجمها ووزنها وامتدادها زلاّقة راحت تدور وتطير وتصمر على الجليد وتنساب بخفة راقص لم يقع البصر على مثله . وسرعان ما أخذ القلق يسطو على نفس سان جورج الذي كانت حركاته أكثر نعومة ونحافة ودقة ، والذي كان يتزلّق على صفحة البحيرة منذ ساعة ونيّف . وعندما شاهده

فيليب والعرق يتصبب من جبينه وقد بدأت ساقاه ترتجفان من الجهد قرّر أن يلجأ إلى إنهاكه لكي ينتصر عليه . لذلك فقد غيّر نسق سيره وتخلّى عن الدوائر اللولبية التي كانت تضطرة دائماً إلى رفع الزلاجة ، دافعاً بالآلة في خط مستقيم ، فإذا بها تنطلق كالسهم الرائش . فاستطاع سان جورج أن يلتحق بها بدفعة واحدة ، ولكن فيليب استغلّ اللحظة التي همّ فيها خصمه أن يجدّد اندفاعه فمال بالزلاجة على كتلة من الجليد غير مطروقة فتشبّثت في مكانها وظلّ فيليب خلفها ، وعندما استدار سان جورج على نفسه وعاد نحوها عبر فيليب أمامه على زلاقتيه وسمّر يديه في مثلث الزلاّجة ودفعها بالاتجاه المعاكس ، ففتّ هذا في عزم سان جورج الذي انقطع بعيداً عن الزلاجة الملكية . فإذا بالهتاف يشقّ كبد الفضاء حتى تضرّج وجه فيليب من الحياء .

عندئذ ، وبعد أن صفقت الملكة طويلاً ، التفتت إلى فيليب وقالت بلهجة تختلط فيها اللذّة بالعياء :

– بعد أن حالفك الانتصار يا سيد دي تافرني ، أرجوك أن تتوقف لئلا تقتلني .

الشيطان الصغير

★

عندما سمع فيليب أمر الملكة، أو بالأحرى توسّلها إليه، شدّ عضلاته الفولاذية وسمّر ساقيه فتوقفت الزلاّجة في الحال، وكان منظره يشبه منظر الجواد العربيّ الذي يرتعش على قائمتيه في رمال الصحراء. فخرجت الملكة من زلاّجتها وهي تقول:

- استرح الآن! لم أكن أعتقد أن السرعة تبعث في نفسي مثل هذه النشوة. آه! كدتَ تُفقدني عقلي!

ثمّ توكأت على ذراعه لأن الدوار قد تعتع قواها. ولكن همهمة الاستغراب التي علت من أفواه العسكريين والنبلاء ذوي الشرائط المذهّبة، أنذرتها بأنها إنما ترتكب ذنباً جديداً من ذنوبها المتكرّرة ضد الأعراف الملكية، وهي ولا شك ذنوب لا تُغتفر في نظر أهل الحقد والحسد من المحافظين اللؤماء. أما فيليب فقد بهره هذا الإيثار وشعر بجسمه يقشعر وبوجهه يتضرّج حياءً، فخفض عينيه، وكان قلبه يخفق خفقاناً شديداً فيكاد يفرّ من صدره. وشعرت الملكة هي أيضاً بشعور غريب تسرّب إلى قلبها، فنزعت ذراعها في الحال

وعقلته بذراع الآنسة دي تافرني ، ثم طلبت أن يؤتى لها بمقعد لتجلس عليه . فجلبوا لها مقعداً هزّازاً ألقت بنفسها عليه وهي تهمس قائلة :

– المعذرة يا سيد دي تافرني . يا الله ! إنها مصيبة كبيرة أن نجد حولنا دائماً الحُمق والفضوليين .

وسرعان ما أقبل نحوها النبلاء العاديّون ووصيفات الشرف ، وهم يحملقون جميعاً بفيليب الذي تشاغل ، لكي يخفي خجله ، بفك الزلاّقتين من قدميه . وعندما انتهى من ذلك انكفأ إلى الوراء لكي يترك مكانه لعملاء البلاط الذين همّوا أن يحيطوا بالملكة التي مكثت بضع ثوانٍ تفكرّ حالمة ، ثم ما لبثت أن رفعت رأسها وقالت :

– إن بقائي هكذا بلا حركة يعرّضني للبرد ، أفضّل أن أقوم بجولة ثانية .

ثمّ اندفعت فصعدت إلى زلاجتها . وانتظر فيليب أمراً منها ، ولكن عبثا . فأقبل حينئذ عشرون شاباً عارضين أنفسهم لدفع زلاجتها . ولكنها هتفت بهم قائلة :

– كلا ! إني أفضّل خدّامي ، فشكراً لكم أيها السادة .

عندئذ استلم الخدّام مراكزهم ، وشرعوا يدفعون زلاجة الملكة بتمهّل كما طلبت إليهم أن يفعلوا ، وقد أغمضت الملكة عينيها سارحة وراء حلم عميق . وكان الناس حولها

يشيّعون زلاجتها بنظرات عطشى فضوليّة حسودة. أما فيليب فقد مكث وحيداً في موضعه ماسحاً قطرات العرق عن جبينه. وكان يبحث بعينيه عن خصمه سان جورج لكي يطيّب خاطره، بعد هزيمته، ببعض الثناء الذي يستحقّه، ولكن سان جورج كان قد تلقّى أمراً من حاميه، دوق اورليان، فانسحب في الحال من ميدان المعركة. فظلّ فيليب مسمّراً في مكانه وقد شعر بالحزن والتعب يتسرّبان إلى قلبه، بل لقد شعر بمثل الرعب ينفذ إلى نفسه بعد أن أخذ يفكر بما جرى له. وكانت عيناه تتبعان زلاّجة الملكة المبتعدة عنه والمتوغّلة فوق صفحة البحيرة عندما شعر بأن شيئاً ما لمس خاصرته. فاستدار، فرأى بجانبه والده الشيخ الصغير الجسم، مكوّراً ملتفعاً بمعطف من الفرو الكثيف، وقد لمس ابنه بمرفقه لكي لا يُخرج يديه من معطفه. وقد لاحظ فيليب أن عيني والده تنفرجان واسعتين وتتوهجان من البرد أو من الحبور، وأحسّ أن في صوته شيئاً من الزهو يشبه ما كان يشعر به شيوخ اليونان عندما كانوا يعانقون أبناءهم الأبطال بعد خروجهم ظافرين من حلبات المصارعة والقتال، وقد سمعه يقول له:

- أوَلا تعانقني يا بني؟

- بلى يا أبي، ومن كل قلبي.

وكان من الواضح أن أي اتّساق لم يكن موجوداً بين لفظ هذه الكلمات ومدلولها. أما الوالد فلم يكد ينتهي من معانقة ابنه حتى دفعه بكتفه قائلاً:

- والآن، بعد أن عانقتني، إمضِ، إمضِ في الحال!

- إلى أين تريدني أن أمضي يا سيدي؟

- يا للشيطان! إلى هناك.

- إلى هناك؟

- أجل الى هناك، حيث الملكة.

- كلا، كلا يا والدي، شكراً لك.

- لماذا كلاّ! ولماذا شكراً! هل أصابك مسٌّ من الجنون؟ ألا تريد أن تلتحق بالملكة التي تنتظرك؟

- إنها تنتظرني، أنا؟

- نعم إنها تنتظرك وتشتهيك.

- تشتهيني أنا؟!

هنا حدّق فيليب دي تافرني في عيني والده البارون بعض لحظاتٍ، ثم قال بفتور:

- لعلك نسيت يا والدي مركز الملكة.

فشقل الشيخ قامته وخبط الأرض برجله وقال:

- أقسم بشرفي أن أمرك عجيب غريب! قل لي بالله عليك من أين أنت قادم!

فقال عندئذ فيليب بلهجة حزينة :

- أخاف يا سيدي من فكرة كدت أن أقتنع بها .

- وما هي ؟

- هي أنك تسخر مني ، أو ...

- أو ماذا ؟

- أو أنك أُصبتَ بالجنون ، أعذرني على هذا التعبير الفظ !

فقبض الشيخ عندئذ على ذراع ابنه قبضة عنيفة شديدة جعلته يقطّب حاجبيه من الألم وقال :

- اسمع يا سيد فيليب ، إن أميركا ، كما أعلم ، بلد بعيد عن فرنسا .

- نعم إنها بعيدة عنها يا والدي ، ولكنني ما فهمت قصدك .

- إنها بلد لا ملك فيها ولا ملكة .

- ولا رعايا يا والدي .

- ولا رعايا أيضاً أيها الفيلسوف ، هذا لا يعنيني . وإنما الذي يعنيني ويحزنني ويخجلني هو فكرة بدأت تخالجني .

- وما هي يا والدي ؟ أعتقد على كل حال أن أفكارنا مختلفة .

– فكرتي هي أنك معتوه، وهذا لا يليق بعتليت مثلك. أنظر، أنظر هناك! إن الملكة تستدير للمرّة الثالثة لتراك. فعمّن تُراها تبحث أيها الغبي، أيها القسيس المتأمرك؟

وعضّ الشيخ الصغير، لا بأسنانه بل بلثتيه من شدّة الحنق، على قفازه الرماديّ الواسع على مثل يده الصغيرة. فقال فيليب:

– وهب ذلك صحيحاً يا سيّدي؟

فطرق الوالد الأرض بقدميه وغمغم يقول:

– يا الله! إنه ما زال مرتابا! لا شك في أن هذا الفتى هو من غير دمي، ومن غير أسرة آل تافرني!

– نعم إني لست من دمك، وقد يكون من واجبي أن أشكر الله على ذلك!

– إني أكرر لك أيها السيّد أن الملكة تريدك وأنها تبحث عنك.

فقال فيليب بلهجة جافّة:

– ما أحدّ بصرك يا والدي!

ولكنّ الشيخ حاول أن يخفّف من عنفه ولجاجته فقال:

– دعني، دعني أشرح لك. لا شك في أن لك مبرّراتك، ولكنني أملك خبرة أكثر منك. قل لي يا بنيّ فيليب، هل أنت رجل أم لا؟

فاكتفى فيلب بهزّ كتفيه ولم ينبسِ ببنت شفة . وعندما لم يظفر الشيخ بجواب من ولده شرع يحدّق فيه بنظرات ملؤها الازدراء ، ولكنه سرعان ما أحسّ بذلك النبل العميق وبتلك الأنفة الأصيلة وتلك الإرادة الخيرة التي كان يتحلّى بها وجه ابنه ، لذلك فقد كظم الألم الذي حزّ في نفسه ، ومسح أنفه المحمرّ بكمّه ، ونطق بصوت رقيق يشبه صوت الإله اليوناني أورفيوس عند مخاطبته صخور « تسّاليا » الصمّاء :

– فيليب ، يا صديقي ، أصغ لي .

– إني أصغي لك منذ أكثر من ربع ساعة ، ولا أفعل غير هذا يا والدي .

هنا صمت الوالد لحظة وهو يغمغم في نفسه قائلاً : « سأجعلك نسقط من عرش جلالك يا سيدي الأميركي !.. إن لديك أيها العملاق نقطة ضعف ، فسأستغلها بمخالبي الصلبة المسنّة ! ولسوف ترى ! » ثم ما لبث أن قال بصوت مرتفع :

– أما لاحظت أمراً يا بني ؟

– ماذا تعني ؟

– أمراً لا يعيب سذاجتك .

– أفصح ، أفصح يا سيدي !

– إنك قادم من أميركا، وقد ذهبت إليها في وقت لم يكن هنا ملك أو ملكة. كان يحكم البلاد السيد «دي بارّي» دونما جلال. وها أنت تعود فتجد ملكة، وقد ملأت رأسك فكرة إجلالها.

– هذا أكيد ولا ريب فيه.

– يا للصبي الغشيم!

قالها الشيخ وهو يخنق في كمّه سعالاً وضحكة منفجرة. فاحتجّ فيليب قائلاً:

– ماذا، أوتلومني يا سيّدي على احترامي الملكية، أنت العريق من آل تافرني ومن خيرة نبلاء فرنسا؟

– رويدك، إني لا احدّثك عن الملكية، إني أحدّثك عن الملكة.

– وهل تفرّق بينهما؟

– رعاك الله يا عزيزي! ما هي الملكية؟ إنها تاج قيل إنه لا يُمسّ. ولكن من هي الملكة؟ إنها امرأة، والمرأة تُلمس. فهتف فيليب متعجباً.

– إنها تلمس!

وقد علت وجهه حمرة الغضب والازدراء، وندّت عنه إشارة لو رأتها أي امرأة لهامت به، وأي ملكة لعشقته حتى العبادة.

عندئذ ابتسم الشيخ ابتسامة شيطانية، وقال بصوت منخفض لا يخلو من الشراسة :

- ألا تصدّق أيها الغلام ؟ عليك إذن أن تسأل السيد « دي كونيي » والسيد « دي لوزون » والسيد « دي فودرويل » ، فعندهم الخبر اليقين ...

- أصمت يا أبي ، أصمت ! إن سيفي لينبو عن طعنك طعنات ثلاث مقابل هذه التجديفات الثلاث ، ولكني أقسم لك أني مغمد سيفي في صدري إذا لم تكفّ !

فتراجع الشيخ خطوة إلى الوراء ، ودار على نفسه كشابّ في الثلاثين وقال وهو يهزّ كمه :

- حقاً إنه حيوان أحمق ! ظننت الحصان حصاناً فإذا هو حمار ، وإذا النسر إوزّة والديك دجاجة ! ألا عم مساء يا سيدي ، ظننت نفسي أنني شيخ متساقط، فإذا بي أبولّون وأدونيس بالنسبة لك . ألا عم مساءً إذن !

واستدار كالدولاب على عقبيه . ولكن فيليب الذي بدت الكآبة على وجهه أوقفه قبل أن يتمّ دورته وهتف به قائلاً :

- لا شك في أنك ما نطقت جدّاً يا والدي ، لأنه يستحيل على نبيل عريقٍ مثلك أن يساهم في نشر الدسّ والنميمة لا ضد المرأة أو الملكة فحسب ، وإنما أيضاً ضد الملكية .

- يا للبهيم! إنه ما زال يرتاب بصحة قولي!

- وهل حدّثتني كأنك أمام الله؟

- كأنني حقاً أمام الله.

- أمام الله الذي تصلي له كل يوم؟

فشعر البارون الشيخ أن ابنه بدأ يستأنف الحوار معه، وهذا انتصار بالنسبة إليه. لذلك فقد اقترب منه وأجاب قائلاً:

- أعتقد أنني من النبلاء يا ولدي العزيز، فلا أكذب ... دائماً.

بدا لفيليب أن الكلمة الأخيرة مثيرة للضحك، ولكنه لم يضحك، وتابع يسأل:

- رأيك يا سيدي إذن أن للملكة عشاقاً؟

- بكل تأكيد.

- وهم من ذكرت؟

- وقد يكون لها غيرهم ... من يدري! سل المدينة والبلاط بأسره، فما يجهل ذلك إلا العائدون من أميركا.

- ومن الذي يدسّ ذلك يا سيدي، أهم بعض الهجّائين الأنذال؟

- يا رعاك الله! لعلك تظنني مخبراً صحفياً؟

- لا، ليس هذا. ولكن هنا يكمن الداء، إذ أن رجالاً مثلك يردّدون مثل هذه الدسائس التي تتلاشى سريعاً كما

تتلاشى الأبخرة الداكنة التي تغطي أحياناً أبهى الشموس. وإن مَثَلَك ومَثَل غيرك من أهل العرق والنسب إنما يساعد على نشر هذه الأضاليل. فباسم الدين يا سيدي أرجوك أن تكفّ عن تكرار مثل هذه الأشياء.

– بل إنني أكررها دائماً.

– ولماذا بالله عليك ؟

فتشبّث الشيخ مرّة ثانية بذراع فتاه، وحدّق في عينيه وهو يبتسم ابتسامة شيطانية وقال:

– لكي أبرهن لك أنني على صواب عندما أقول لك: يا فيليب، الملكة تلتفت وتنظر إليك، يا فيليب، الملكة تبحث عنك، يا فيليب، الملكة تهواك. فهيّا إذاً يا فيليب، طرْ، إن الملكة تنتظرك.

فخبّأ فيليب رأسه بين يديه وهتف بوالده متألماً:

– باسم السماء، كُفّ عني يا والدي، فإني أكاد أجن!

– حقاً إنني لا أفهمك يا فيليب، فهل من جريمة في أن يحبّ الانسان؟ بالعكس، الحب دليل على وجود القلب. أم تراك لا تحسّ بقلب هذه المرأة في عينيها وصوتها وتصرفها؟

هذه المرأة تحب، إنها تحب! ولكن ما العمل بك وأنت الفيلسوف والقسّ المتأمرك؟ إنك لا تحب، فدعها إذن تنظر، ودعها تلتفت، ودعها تنتظر، بل أهنها واحتقرها وصدّها عنك يا سيد فيليب ويا سليل آل تافرني!

وبعد أن تلفظ الشيخ الصغير بهذه الكلمات بسخرية متوحشة، وقد استشفّ ما فعلته في نفس فتاه، انسحب مبتعداً كما يفعل المحرّض على الجريمة. فمكث فيليب مغموماً ملتهب الرأس، ومرّت نصف ساعة دون أن ينتبه إلى أنه ظلّ مسمراً في مكانه، والى أن الملكة قد عادت من جولتها فنظرت إليه طويلاً ثم نادته قائلة:

- لا بدّ من أن تكون استرحت يا سيد دي تافرني؟ تعال إذن، فلا أحد أجدر منك بجعل الملكة تتنزه بطريقة ملوكية.

فاندفع فيليب نحوها وهو ثمل، أعمى، مشرّد اللب... وعندما وضع يده على مقبض الزلاجة شعر بأنه يحترق، لأن ماري أنطوانيت قد استلقت إلى الوراء، فلامس شعرها أصابعه...

البارجة «سوفران»

★

بقي سرّ وصول السيد «دي سوفران»، على غير عادة، مجهولاً في البلاط، فلم يعرف أحد سوى الملك والكونت دارتوا شيئاً عن موعد وطريقة وصوله. وكان الملك قد عيّن اللعبة التي سيمارسها في المساء. وعندما حانت الساعة السابعة دخل الملك إلى قاعة الألعاب وبصحبته الأميرات والأمراء من عائلته، وكذلك وصلت الملكة وهي ممسكة بيد سموّ وليّة العهد، ابنتها التي لم تكن قد بلغت السابعة من عمرها. وكان الحفل في ذلك المساء عديداً متألقاً. وبينما كان كلٌّ يجلس في المكان المعدّ له، اقترب الكونت دارتوا من الملكة بنعومة وقال لها:

- تطلعي حولك يا شقيقتي، وقولي لي ماذا ترين؟

فجالت الملكة بنظرها في الحلقة المحيطة بها، وبحثت في الوجوه، وحدّقت في الأماكن الفارغة، فلم تعثر إلا على أصدقاء وأنصار ومن بينهم أندريه وشقيقها. لذلك أجابت سائلها قائلة:

- إني لا أرى غير وجوه الأصدقاء اللطيفة.

– لا تنظري إلى الحضور يا شقيقتي ، أنظري إلى المتغيّبين .

– أوه ! هذا وأيم الحقّ صحيح !

فشرع الكونت دارتوا يضحك ، وقد فهمت الملكة أنه يعني شقيقه وشقيق الملك الكونت « دي بروفانس » ، فأجابت وهي تمزح :

– إنه متغيب أيضاً ! أويجعله وجودي يفرّ دائماً مني ؟

– كلا ! ولكن الفكاهة ما زالت مستمرّة ، لأنه مضى الى الحدود لينتظر القائد « دي سوفران » .

– فعلام تضحك إذن يا شقيقي ؟

– أما فهمت لماذا أضحك ؟

– طبعاً لا ، إن الكونت بذهابه إلى الحدود لاستقبال « دي سوفران » كان أكثر لياقة منا ، وإنه يسبق الجميع إلى تكريمه .

– ولكنك يا شقيقتي العزيزة تستهينين بدبلوماسيتنا . فشقيقنا الكونت مضى ينتظره في « فونتينبلو » ، بينما أرسلنا نحن من ينتظره في محيطة « ڤيلجويف » التي هي أبعد من « فونتينبلو » .

– أحقاً ما تقول ؟

– وهكذا سيظل الكونت ينتظره على الحدود ، وحيداً مخجولاً من نفسه ، فيما يستقبل رسول الملك السيد دي سوفران ثم يرافقه مباشرة إلى فرساي .

- إنها خطة رائعة!

- خطة لا بأس بها، وإني مسرور في نفسي. هيا ابدئي لعبك يا سيدتي.

كان يجتمع في هذه اللحظة، في قاعة اللعب، ما لا يقل عن مائة شخص من الأشراف ومن بينهم «دي كونديه» «دي بانتيافر» و «دي لاتريمويل» وغيرهم من الأمراء والأميرات. وقد لاحظ الملك وحده أن الكونت دارتوا كان يُضحك الملكة، فأراد أن يُظهر لهما أنه ليس غريباً عما يحوكانه فأرسل إليهما نظرة عميقة المعنى.

ولقد ذكرنا آنفاً أن نبأ وصول القائد «دي سوفران» ظلّ مكتوماً، ولكن أمراً مفاجئاً كان يعتلج في نفوس الجميع الذين كانوا يحسّون بأن سراً خفيّاً سيُكشف عنه، وأن شيئاً جديداً سيُعلن جهارا. إن فضولاً مجهولاً كان يخالج أفكار أولئك القوم الذين من عادتهم الاهتمام بأتفه الأحداث التي تستشفّها مخيلتهم كلما نظروا إلى الملك فرأوه يقطّب ما بين حاجبيه، أو رأوه يزمّ فمه ليبتسم.

وكان من عادة الملك، عند ممارسته لعب القمار، أن يجازف بقطع نقدية صغيرة لكي يضرب المثل لأمراء وأسياد القصر فيضطرون إلى الاعتدال في الإسراف، ولكنه في ذلك المساء لم ينتبه الى أنه بسط أمامه على الطاولة كل ما تحتويه

جيوبه من دنانير ذهبية . أما الملكة فقد استطاعت أن تلعب دورها على أكمله فوضعت كل حماستها في اللعب لكي تضلل اهتمام الحفل المزدحم حولها . وكان فيليب دي تافرني في جملة اللاعبين ، وقد جلس على طاولة القمار وجهاً لوجه أمام شقيقته . إن هذا الإكرام الذي لقيه كان يستولي على حواسّه ويذكي في عروقه ناراً متأججة . بيد أن كلمات والده كانت تعود إلى ذهنه فتجعله يتساءل عن صدقها وصوابها ، لا سيما وأن ذلك الشيخ قد رافق عهود ثلاث أو أربع ملكات ووعى بذلك تاريخ الأزمنة والأخلاق .

تُرى ألم تكن براءته الناجمة عن العبادة الدينية هي شيء مضحك جلبه معه من تلك البلاد البعيدة ، أي من أميركا التي كان مسافراً إليها ؟ والملكة ، الملكة الخيالية الرائعة الحسن ، أليست غير امرأة مدلوعة مخيفة تريد أن تضيف إلى ذكرياتها السالفة هوىً جديداً ، تماماً كما يفعل عالم الطبيعيات إذ يضع تحت عدسته حشرة أو فراشة ويغرز في قلبهما دبّوساً مميتاً دون أن يحفل بالألم الذي يكتوي به هذان الكائنان البريئان ؟ ثم ليست الملكة امرأة عادية مبتذلة ، فإن نظرةً منها إنما تعني دائماً شيئاً ما ، لا سيما وأنها لا تُرسل نظراتها جزافاً بل تتحكم بها كما تشاء . هنا أخذ فيليب يردّد أسماء عشاق الملكة التي ذكرها له والده ، قائلاً في نفسه :

- « كونيي » و « فودرويل » أحبا الملكة ، وأحبتهما هي أيضاً ... يا الله ! لماذا يبدو هذا النمّ هكذا قاتماً ؟ وما الذي يمنع في أن يتسرّب شعاع الحب المنير إلى اللجة العميقة التي يسمّونها قلب المرأة ، والتي هي أعمق أيضاً عندما يكون هذا القلب قلب ملكة ؟

وعندما همس فيليب في ذهنه هذين الاسمين التفت إلى صاحبيهما اللذين جمعهما القدر العابث جنباً إلى جنب على طاولة واحدة ، وقد جلسا لامبالين ، لكي لا نقول متناسيين، وأبصارهما متجهةً إلى مكان آخر غير الذي تجلس فيه الملكة . أما هو ، فلو أحبته الملكة ، لكان أسعد الناس جميعاً ! وهب أنها تناسته بعد حب ، لكان انتحر من يأسه المرير !

ثم حوّل فيليب بسرعة نظره عن السيدين « كونيي » و« فودرويل » وانتقل به إلى ماري أنطوانيت ، ومكث طويلاً يستوضح عن السرّ الكامن وراء هذا الجبين النقي والفم المهيب والنظر المشوب بالجلال والعظمة . ولكنه سرعان ما هتف في داخله قائلاً :

- أوه ! كلا ! كلا ! إن جميع هذه الإشاعات هي مجرد دسّ ونميمة بدأت تلوكهما ألسن الشعب بعد أن فجرّتهما أحقاد من في البلاط ومطامعهم ودسائسهم .

وكان فيليب غارقاً في أفكاره هذه عندما دقّت الساعة الثامنة إلا ربعاً في قاعة الحرَس، وعندما سُمع في هذه اللحظة ضجيج مرتفع، إذ تجاوب في القاعة المذكورة وقع أقدامٍ مسرعة مندفعة، واصطكّت أعقاب البنادق على الرخام، وعلا صراخ دخل من الباب المشقوق فنبّه الملك الذي أصغى قليلاً ثمّ وجّه للملكة إشارة ذات مغزى، ففهمت الملكة مقصده ورفعت في الحال جلسة اللعب. عندئذ جمع كل لاعب دراهمه، وأخذ يترقب أن تُفصح الملكة عن قصدها. أما الملكة فقد انتقلت في الحال إلى قاعة الاستقبال التي كان الملك قد سبقها إليها. وهناك في القاعة اقترب مساعد وزير البحرية السد «دي كاستري» من الملك وهمس في أذنه بعض كلمات أجاب الملك عليها قائلاً:

- حسناً، امضِ. ثم التفت إلى الملكة وقال:

- كل شيء على ما يرام.

فأثارت هذه الكلمات المبهمة فضول الجميع فراح كلٌّ يوجه إلى جاره نظرات التساؤل والاستفهام. ولم ينقضِ وقت طويل حتى دخل الماريشال «دي كاستري»، وزير البحر، وصاح بصوت مرتفع انبعثت أصداؤه الظافرة في أرجاء القاعة الواسعة:

– هل يريد جلالة مولاي أن يستقبل القائد « دي سوفران » العائد من طولون ؟

وما كادت هذه الكلمات تتساقط في أسماع الحاضرين حتى استثارت فيهم ضجّة عارمة . أما الملك فقد أجاب قائلاً :

– نعم يا حضرة الوزير ، نريد استقباله بكل سرور .

فخرج « دي كاستري » من القاعة ، وقد شخصت إلى الباب الذي خرج منه الأبصار مشدوهة مترقبة .

ولكن ، تُرى ، ما الذي يجعل فرنسا بأسرها تقيم للسيد « دي سوفران » هذا الاحتفال المهيب ؟ وما الذي يثير اهتمام الملك والملكة وأمراء العائلة المالكة ويدفعهم إلى التمتع بمشاهدته قبل أي شخص آخر ؟ الجواب مختصر وبسيط : إن اسم « دي سوفران » هو اسم فرنسي أصيل ، إنه شبيه بأسماء القادة المشهورين في تاريخ فرنسا أمثال « تورين » و « كاتينا » و« جان بار » . ذلك أن القائد « دي سوفران » ، في الحرب مع انكلترا ، وخلال المعارك التي تقدّمت معاهدة السلام ، قد خاض ظافراً سبع معارك بحرية ، فاستولى على مرفأي « ترنكمال » و « غوندلور » ، ووطّد الممتلكات الفرنسية فيهما ، ونظف البحر من الأعداء ، وأفهم الأمير حيدر علي أن فرنسا هي صاحبة السيادة الأولى في أوروبا . كما أنه استخدم

في ممارسة حرفته كبحّار حنكة المفاوض الذكي الشريف، وخطط الجندي الباسل، ومهارة الحاكم الحصيف في رأيه.

وعندما كان الأمر يتعلق بكرامة عَلَم بلاده كنت تراه مقداماً جلوداً إلى حدّ الأنفة والكبرياء، حتى أنه أرهق خصومه الانكليز في البرّ والبحر فما جرؤوا مرّة، وهم الذين ادّعوا سيادة البحار، على فتح معركة معه لأنه كان ينقضّ عليهم انقضاض الأسد الكاشح عن أنيابه. أمّا بعد المعركة التي كان يجازف فيها بحياته كآخر بحّار من بحّارته، فقد كنتَ تراه إنساناً شهماً كريماً رفيقاً بالآخرين. وكانت صفاته هذه تجعله مثال البحّار الحق الذي لم تشاهد مثله فرنسا منذ «جان بار» وغيره من الأبطال. لذلك لا يمكننا أن نصوّر الحماسة الهائلة التي بعثها قدومه إلى فرساي في نفوس أولئك النبلاء الذين كانوا مجتمعين في القصر.

وكان «دي سوفران»، وقد ناهز الخامسة والستين من عمره، ممتلئ الجسم، قصير القامة، عينه تقدح شرراً، وحركاته طائعة على مرونة ونبل. يعتمر قبعته باعتزاز، وكأنها عُفرة الأسد على جبينه، ويرتدي سروالاً أزرق مطرزاً بخيوط مقصّبة وسترة حمراء ترك فوقها ياقته العسكرية التي طوقت عنقه وقد ارتفع منها رأسه الضخم. وعندما دخل «دي

سوفران » إلى قاعة الحرس ، اقترب رجل وقال كلمة للوزير « دي كاستري » الذي كان يتمشى في عرض القاعة وطولها بفارغ صبر ، فصرخ هذا قائلاً :

- السيد « دي سوفران » ، أيها السادة !

عندئذ وثب رجال الحرس على بنادقهم ، واصطفّوا من أنفسهم وكأنهم يحيّون ملك فرنسا . وعندما مرّ « دي سوفران » أمامهم اصطفّوا وساروا خلفه أربعةً أربعة في موكب منتظم . وقد صافح « دي سوفران » السيد دي كاستري ، وهمّ أن يعانقه ، ولكن وزير البحرية أوقفه بلطف قائلاً :

- لا ، لا يا سيدي ! لا أريد أن أحرم من هذه اللذة من هو أحقّ بتقبيلك أولاً .

ثم دخل به على لويس السادس عشر وحاشيته . وعندما لمحه الملك هتف له متهللاً :

- أهلاً بك أيها القائد في فرساي ، فإنك تحمل إليها غار المجد وكلّ ما يحمله الأبطال إلى معاصريهم على الأرض . إني لا أحدثك عن المستقبل لأنه ملك يديك ، فهيا عانقني أيها القائد الباسل .

وكان « دي سوفران » قد حنى ركبته أمام الملك ، ولكن هذا رفعه وعانقه عناقاً حاراً حتى هزّت الحاضرين نشوة الفرح

والانتصار، ولولا احترامهم للملك لكان هتافهم ملأ المكان.

وعندما انتهى الملك من معانقته، التفت إلى الملكة وقال:

- ها هوذا السيد «دي سوفران» أيتها الملكة، القائد الظافر في معاركنا الشهيرة، الذي بعث الرعب في قلوب جيراننا الانكليز؛ إنه عندي بمثابة «جان بار».

فقالت الملكة: لا أستطيع إطراءك أيها السيد، يكفيني أن تعلم بأنك ما أطلقت طلقة مدفع واحدة في سبيل مجد فرنسا إلا وقد خفق قلبي إعجاباً بك!

ولم تكد الملكة تنتهي من كلمتها حتى اقترب الكونت دارتوا مع نجله الدوق «أنغوليم»، الذي خاطبه قائلاً:

- هذا بطل يا بني، أنظر إليه مليًّا لأن فرصة اللقاء بالأبطال نادرة.

فأجاب الأمير الصغير أباه قائلاً:

- منذ لحظات كنت أقرأ يا سيدي سيرة العظماء الذين يتحدّث عنهم بلوتارك، ولكنني لم أرهم بأمّ عيني، فشكراً لك لأنك جعلتني أشاهد السيد دي سوفران.

فأثارت كلمات الصبي همهمة من الإعجاب جعلته يدرك أنه تفوّه بما له قيمته.

وعندئذ تأبط الملك ذراع «دي سوفران» وأراد أن يصطحبه أولاً إلى مكتبه لكي يتبادل وإياه الأحاديث الجغرافية

المتعلقة بأسفاره وحملته. ولكن «دي سوفران» تمتّع باحترام وقال: عفواً مولاي، إني أسألكم شيئاً واحداً.

- لك ما تشاء أيها السيد.

- إن أحد ضبّاطي يا مولاي اقترف ذنباً ضد الطاعة والنظام، وقد فكّرت أن أحتكم الى جلالتكم في أمره.

- أوه يا سيد دي سوفران! كنت أتمنى أن يكون مطلبك الثواب لا العقاب.

- لي الشرف يا مولاي أن احتكم الى جلالتكم فيما يجب اتخاذه من تدابير.

- تكلم، فأنا مصغٍ اليك.

- إن الضابط الذي أكلمك عليه يا مولاي، كان في المعركة الأخيرة يقوم بحراسة «السافار».

فقطّب الملك ما بين حاجبيه وقال: أوه! إنها تلك السفينة التي استسلمت للعدو.

فانحنى سوفران أمام الملك وأجاب:

- في الواقع يا مولاي، أن قائد السافار قد استسلم، وأن الأميرال الانكليزي، السير هيجز، قد أرسل زورقاً محملاً بالجنود للاستيلاء على السفينة، لكن الملازم الذي كان يشرف على بطاريات المدفعية فيها، ما أن توقف إطلاق النار وتلقّى أمراً بإسكات المدفعية، ورأى السفينة وقائدها يستعدان

للاستسلام، حتى ثارت ثائرته وغلا في جسده الدم الفرنسي، فاستلم هو قيادة السفينة وأمر باستئناف إطلاق النار وركّز الراية الفرنسية على مقدمتها تحت وابل من النار الجهنمية. وبهذا العمل يا مولاي، أُنقذت السافار وبقيت ملكاً لجلالتكم.

فهتف الملك: يا للعمل العظيم!

وصاحت الملكة: يا لها من بطولة!

أما القائد سوفران، فقد استأنف يقول:

– نعم يا صاحبي الجلالة، إنه لعمل بطولي، ولكنه تمرد وعصيان على الأوامر وعدم انضباط فظيع. فالأمر قد أُعطي بواسطة قائد السفينة، وكان على الملازم أن يطيع. لذا، فأنا أطلب المغفرة لهذا الضابط يا مولاي، وإني أطلبها بكثير من اللجاجة، لأن هذا الضابط هو ابن شقيقتي.

فصاح الملك: ابن شقيقتك ولم تكلمني عليه!

– لا يا مولاي، ولكني قدمت تقريراً عن الحادث الى وزير البحرية، ورجوته ألّا يطلع جلالتك عليه قبل أن ألتمس منها العفو عن المذنب.

فقال الملك: إني أمنحك هذا العفو أيها القائد. ومقدماً، أعد بحماية كل متمرد على الأوامر، إذا ما انتقم هكذا

بتمرده ، لشرف ملك فرنسا وعلمها . وإني اطلب اليك أن تقدم إليّ هذا الضابط الشهم .

فأجاب السيد سوفران : طالما أنك سامحته ... فهو هنا يا مولاي !

ثم استدار وقال : تقدم أيها السيد شارني .

فارتعشت الملكة عند سماعها هذا الاسم الذي لم يَمَّحِ من ذاكرتها بعد ...

وعندئذ ، انفصل ضابط شاب عن زملائه وتقدم شامخ الرأس . فبدرت من الملكة حركة دلَّت على استعدادها للتقدم من ذلك الشاب فخورة بعمله المجيد . ولكن ما أن طرق أذنيها اسم ذلك البحار الذي قدَّمه السيد سوفران الى الملك ، حتى توقفت واصفرّ لونها وأطلقت همهمة خافتة ... كذلك فعلت الآنسة تافرني ، إذ اصفرت هي الأخرى بدورها وأخذت تنظر الى الملكة بقلق واضطراب !

أما الضابط شارني ، فلم يتطلع يمنة ولا يسرة ولا انفعل أو تبدلت تعابير وجهه إطلاقاً. بل انحنى باحترام أمام الملك الذي قدَّم إليه يده فقبَّلها ، ثم عاد الى حلقة الضباط الذين أخذوا يهنئونه بحرارة ويربتون على كتفه تيهاً وإعجاباً وقد ظهر التأثر على الجميع .

ثم ساد الصمت برهة ، بدا معها وجه الملك مشرقاً مشعاً ، بينما كانت الملكة تبتسم بحيرة وارتباك . أما شارني وفيليب دي تافرني ، فقد خفض الاول عينيه ، وساور القلق الثاني وارتسمت على وجهه اكثر من علامة استفهام ، لأنه لم يخف عليه ارتباك الملكة ...

وأخيراً تكلم الملك فقال :

- هيّا وتقدم يا سيد سوفران ، تقدم كي نتطارح الكلام ، فقد كنت أنتظرك بشوق لاهب لأثبت لك كم كنت أفكر فيك .

فصاح سوفران :

- يا لطيبتك ودعتك يا مولاي !

فقال الملك :

- أوه ! يا لك من قاضٍ يقرأ أفكاري ويعرف مقدماً كل خطوة سوف أقدم عليها. تعال ، تعال !

وبعد أن سار الملك عدة خطوات وهو ممسك بيد القائد سوفران ، التفت الى الملكة وقال لها :

بالمناسبة يا سيدتي ، سوف أُنشئ كما تعلمين بارجة مجهزة بمئة مدفع ، ولقد غيَّرت رأيي فيما يتعلق بالاسم الذي كنت سأطلقه عليها ، فعوضاً عن أن تحمل الاسم الذي كنَّا اتفقنا عليه ، أليس كذلك يا سيدتي ...

فانتبهت ماري انطوانيت الى نفسها ، وعرفت لتوها ما يقصده الملك ، فقالت :

- نعم ، نعم ، سوف نسميها سوفران ، وسوف أكون عرابتها الى جانب حضرة القاضي .

فتعالت الهتافات مدوية : عاش الملك ! عاشت الملكة !

وعندئذ زاد الملك بأن صاح : « وعاش سوفران ! لأنه ليس باستطاعة أحد أن يهتف بحضور الملك : عاش السيد سوفران ، بينما أشدّ المحافظين على التقاليد باستطاعتهم أن يهتفوا : عاشت بارجة جلالته ! »

فردّد مجلس البلاط بأجمعه : عاش سوفران !

فشكر الملك بإشارة من يده أولئك الذين فهموا جيداً ، واقتاد « القاضي » الى جناحه الخاص .

الضابط دي شارني

★

ما أن توارى الملك عن الأنظار حتى أقبل على الملكة كل من كان في القاعة من أمراء وأميرات . وكان القائد سوفران قد أشار الى ابن شقيقته كي ينتظره ، فبقي الملازم شارني بين الجمع حسب أوامر خاله .

أما الملكة التي تبادلت النظرات ذات المعاني مع وصيفتها أندريه، فبقيت في الوقت نفسه تلاحق بنظراتها الشاب الوسيم وتقول في نفسها كلما ألقت ببصرها عليه:

« مما لا شك فيه، أنه هو بعينه.»

وكانت الآنسة تافرني تردّ على تساؤلات الملكة بقولها الجازم لها: « يا إلهي! نعم مولاتي، إنه هو بذاته! »

وانشغال الملكة بالضابط الشاب، لفت انتباه شقيق وصيفتها فيليب، فلعب الفأر بعبه وقال يخاطب نفسه: « حقاً إن الذي يحب، لا يستطيع أن يخفي مشاعره عن حبيبه.»

إذن لقد حزر بأن الملكة تعرضت لحادث فريد وغامض ومجهول من كل الناس، باستثناء الملكة نفسها وأندريه.

وبالواقع، لقد فقدت الملكة السيطرة على نفسها، وحاولت ستر اضطرابها بمروحتها، هي التي اعتادت أن تجعل الكل يخفضون أبصارهم أمامها.

وبينما كان الضابط الشاب يتساءل إلى أين انشغال بال الملكة سيوصلها، ويحاول سبر غور السيدين دي كوانيي ودي فودريل، الى أن تأكد له أن سرّ الملكة لا يعنيهما وأنهما منهمكان بالكونت دي هاغا الذي جاء الى فرساي متملقاً، بينما كان يفعل ذلك، دخل الى القاعة رجل مهيب يرتدي ثوب كردينال ومتبوعاً بعدد من الضباط ولفيف من الأحبار.

فعرفت الملكة في الداخل لويس دي روهان ، فألقت عليه نظرة من طرف القاعة وهزّت برأسها دون أن تكلف نفسها حتى إخفاء تقطيب حاجبيها .

فاجتاز الحبر الحضور بأجمعهم دون أن يلقي التحية على أحد ، واتّجه رأساً الى الملكة فانحنى أمامها كرجل دنيا يحيي امرأة ، أكثر منه كتابع يحيي ملكته ...

ثم وجّه الى الملكة كلمات المجاملة وفيها الكثير من الشهامة وسموّ الأخلاق ، مما حمل الملكة بصعوبة على هزّ رأسها والرد عليه بكلمتين أو ثلاث كلمات بروتوكولية باردة . وبعدها استأنفت حديثها مع السيدتين دي لامبال ودي بولينياك[1] .

فتحاشى لويس دي روهان أن يظهر عليه تأثير استقبال الملكة السيء له ، واستدار بتؤدة وبكل عظمة رجل البلاط نحو عمات الملك ، فاستقبلنه بأفضل مما استقبلته به الملكة نظراً لما كان يمثل من فضيلة وحنكة في البلاط . فقد كان الكردينال لويس دي روهان وقور الجانب عليه خمائل الذكاء والطيبة ، وكل ما فيه يدل على أنه واحد من اثنين : إما رجل

---

١ - الدوقة دي بولينياك كانت صديقة حميمة لماري انطوانيت وذات نفوذ قويّ عليها.

شهوات وإما رجل علم. والواقع ان الأمير دي روهان كان يجمع الصفتين معاً، إذ كان رجلاً تستلطفه النساء اللواتي يعشقن الأناقة وتهويهنّ المغازلة الهادئة والبعيدة عن التملق. وكن يشهدن له بكرمه الفائق، مع ذلك استطاع أن يظهر نفسه بمظهر الرجل الفقير رغم ايراداته التي كانت تبلغ المليون والستماية الف ليرة.

وكان الملك يحبه كرجل علم ومعارف. أما الملكة، فقد كانت عكس الملك، تكرهه وتمقته.

وأسباب كره الملكة له بقيت سراً من الأسرار. ولكن باستطاعتنا أن نحدد لها تفسيرين إثنين:

أولهما، كون الأمير لويس دي روهان، كتب عندما كان سفيراً لبلاده في غينيا، كتب الى الملك لويس الخامس عشر رسائل عن والدتها ماري تيريز، مشحونة بالهزء والتهكم اللذين لم تستطع ماري انطوانيت أن تغتفرهما لهذا الدبلوماسي.

وبالإضافة الى ذلك، وهذا افتراض أقرب الى الحقيقة، هو أن هذا السفير، أخذ بمناسبة زواج ماري تيريز بأمبراطور النمسا فرنسوا الثالث، يبعث بالرسائل الى الملك فرنسوا الخامس عشر، الذي كان هذا يقرأها بصوت عالٍ أمام

عشيقته الكونتس دي باري أثناء تناوله العشاء عندها ، أخذ يبعث بالرسائل التي تتحدث بعداء عن خصوصيات وأنانيات تلك المرأة الشابة ، رغم أنها في ذلك الوقت كانت جدًّ نحيلة وهزيلة .

هذه التهجمات قد جرحت ماري انطوانيت في الصميم ولم تستطع ان تصفح عن جريمة مروجها ، لكنها صممت على الانتقام منه إن عاجلاً أم آجلاً .

وهناك بالطبع دسائس دبلوماسية أخرى ، منها أن السيد بروتيل قد استبعد من سفارة النمسا لمصلحة الأمير روهان . ولما كان السيد بروتيل أضعف من أن يجابه الأمير المذكور ، فقد استعمل بما يسمى بلغة الدبلوماسيين « االشطارة » ، إذ تمكن من الحصول على نسخ من رسائل ذلك الأمير ، وحتى على بعض رسائله الأصلية عندما كان سفيراً ، وأخذ يقارن بين ما أدّاه هو من خدمات حقيقية أثناء قيامه بمهمته الدبلوماسية ، وبين العداء السافر والحقير الذي كان يكنّه الأمير روهان للعائلة المالكة النمساوية ، فلقي عمله هذا أصداء طيبة لدى أمبراطورة النمسا ، كما لقي في هذه الامبراطورة مساعداً صمّم على الانتقام من الأمير روهان في يوم من الأيام .

وكان لهذا الكره اصداؤه البعيدة في البلاط، مما جعل وضع الكردينال روهان صعباً ومقلقلاً.

ومن هنا كان هذا الاستقبال الغاضب الذي استقبلته به الملكة، والذي كانت تستقبله بمثله في كل مرة تلتقيه.

لكن الكردينال المذكور، كان أقوى من كل ما اعترض سبيله. فهو لم تفته الوسيلة للتودد الى الملكة والتقرب منها. فالأمير لويس دي روهان كان مرشد البلاط الأكبر.

وهو لم يتشكَّ مرة ولا سعى وراء التوسط. فاثناء حلقة من الاصدقاء كان بينهم البارون بلانتا، وهو ضابط الماني كان روهان يأتمنه على أسراره نظراً للصداقة الحميمة التي تشدهما، حاول هذا الضابط إصلاح ذات البين بين صديقه الكردينال وسيدات البلاط اللواتي اقتدين بالملكة في سوء استقباله، فلم يفلح. ومع ذلك، مرّ الكردينال كالشبح المرعب على اللوحة الضاحكة التي كانت تتراءى للملكة. وما أن توارى عنها، حتى عادت بشاشتها اليها وسألت الأميرة دي لامبال:

« هل تعلمين أن ما قام به الضابط الشاب، ابن شقيقة دي سوفران، سيبقى أعظم عمل في هذه الحرب؟ وبالمناسبة، ما اسم هذا الضابط؟ »

فأجابت الاميرة: أعتقد أنه يدعى السيد دي شارني.

ثم استدارت نحو الوصيفة أندريه وسألتها: أليس كذلك أيتها الآنسة دي تافرني؟

فأجابت أندريه. نعم يا صاحبة السموّ، إنه يدعى دي شارني.

فأكملت الملكة قائلة:

- من المستحسن أن يقصّ علينا السيد دي شارني بذاته، وبالتفاصيل، ما قام به من بطولة. فليأتوا به، ألا يزال هنا؟

فانفصل ضابط عن سربه وأسرع ينفّذ رغبة الملكة.

وفي ذات اللحظة، وبينما كانت الملكة تنظر الى ما حولها، وقعت عيناها على فيليب دي تافرني، فصاحت بدهشة كما اعتادت دائماً:

- السيد دي تافرني، إنك هنا إذن!

فاحمرّ فيليب حتى أذنيه، واعتقد أن عليه القيام بعمل يفرح قلب الملكة، فأسرع بدوره يفتش عن الضابط السعيد الذي لم تفارقه نظراته منذ أن دخل المكان.

وكان البحث عن الضابط المنشود سهلاً، فما هي لحظات، حتى دخل على الملكة السيد دي شارني ودخل وراءه رسولاها.

فاتسعت بعد دخوله الحلقة أمامه، مما أتاح للملكة أن تتفحّصه بانتباه لم يتوفر لها في العشية. فبدا لها شاباً بهيّ

الطلعة في السابعة أو الثامنة والعشرين من عمره، ذا قامة مستقيمة ممشوقة، وكتفين عريضتين، وعينين زرقاوين واسعتين وعميقتي النظرات لم ترَ الملكة مثيلاً لهما.

والغريب في الأمر، أن هذا الضابط العائد من حرب الهند، احتفظ ببشرته بيضاء عكس فيليب الذي كان اسمر اللون. وكان عصبي العنق تتدلى من خلال خطوطه الرائعة المدهشة ربطة عنق بياضها أقل نصاعاً من بياض بشرته.

ولما اقترب من اللفيف الذي يحيق بالملكة، أحاط به الضباط وأخذوا يطرحون عليه الأسئلة وهو يجاوب عليها بأدب جمّ، وقد تناسى أن الملك قد استدعاه وأن الملكة تنظر اليه، حتى أنه لم يظهر عليه شيء يستدل منه أنه سبق له أن عرف الآنسة تافرني أو الملكة!

هذا الأدب، وهذا التحفظ، كان من شأنهما أن حملا الملكة على الإمعان في تأمل دي شارني، وقد زادها تأثراً الأسلوب الذي اتّبعه في إظهار تأدبه وتحفظه. إذ إنه لم يخفِ على الآخرين معرفته بالملكة ووصيفتها فقط، بلى أخفى أيضاً معرفته بالملكة حتى عليها نفسها.

فنظرات دي شارني بقيت طبيعية، وقد غالى في الحياء ورهافة الذوق، حتى أنه لم يرفع عينيه إلا بعد أن وجهت اليه الملكة قولها هذا:

– إن هؤلاء السيدات ايها السيد دي شارني ، يشعرن بالشوق ، وبالشوق الطبيعي الذي أشعر به أنا نفسي ، للوقوف على تفاصيل العمل البطولي الذي قمت به على ظهر السفينة سافار ، فأرجوك أن تقصّ علينا ما حدث بالضبط .

فأجاب البحار الشاب بعد ان خيَّم الصمت على الجميع :

– إني أتوسل صاحبة الجلالة مولاتي ، بدافع الانسانية لا بدافع التواضع ، ان تعفيني من هذه الرواية . فالذي قمت به كملازم في السافار ، قد فكّر بالقيام به في ذات الوقت عشرة من رفاقي الضباط ، ولكني كنت أنا السبَّاق ، وهذا هو فضلي الوحيد في العملية . أما الحديث الذي نقل الى صاحب الجلالة ، فأرجو مولاتي أن لا تعيره ذلك الاهتمام ، كما أرجو أن يستوعب قلب جلالتها الكبير ، الحقيقة ويتفهمها . فقائد السافار السابق ، كان ضابطاً بطلاً بكل معنى الكلمة ، ولكنه فقد صوابه في ذلك اليوم ، وإنه لشيء طبيعي يا مولاتي أن لا يكون الشجعان شجعاناً كل الأيام . فهو قد استعاد رشده بعد عشر دقائق ، ولكن كنا في خلال هذه الدقائق العشر قد عملنا ما يتوجب علينا لإنقاذ السافار . ومنذ ذلك الحادث ، أظهر من البطولة ما لم يظهره أحد منَّا . من أجل ذلك ، أتوسل الى جلالتك أن لا تطنب عملي اكثر مما يستحق . فقد حصل اتفاقاً أن فقد ذلك البطل سمعته ، وهو الآن يبكي

بصورة متواصلة الفرصة التي فاتته في غفلة من غفلات الدهر.

فقالت الملكة مبتسمة ومتأثرة بهذه الشهامة النادرة التي تجلت في كلام ذلك الضابط الشاب:

- حسناً، حسناً أيها السيد دي شارني، إنك رجل نبيل شهم. ولا غرو ولا عجب، فهذا ما كنت أعرفه عنك!..

عند هذا الكلام، رفع الضابط رأسه واحمرّ حتى أذنيه... وأخذت عيناه تتنقلان بين الملكة وأندريه مع شيء من الرهبة، إذ ساورته الشكوك في حقيقة ما أظهرته الملكة من إطراء وتبجيل له.

واسترسلت الملكة في حديثها متوجهة بكلامها الى سيدات البلاط:

- في الواقع، إن السيد دي شارني لم يكن غريباً عنا. فهذا الضابط الشاب، هذا البحار الذي كان حتى الأمس القريب مجهولاً من الغير، كنا نحن على معرفة تامة به قبل أن يمثل أمامنا هذا المساء، وهو يستحق أن يُعرف من نساء البلاط كافة، وأن يصفقن له إعجاباً.

فظنت النسوة أن الملكة ستحدثهن عن حادث غريب وقع لها، أو أنها ستكشف لهن سراً غامضاً، لذا تحلقن حولها وأمسكن أنفاسهن مصغيات، وأكملت الملكة تقول:

- تصورن أيتها السيدات، أن السيد دي شارني بقدر ما كان غير شفوق مع الانكليز، كان شفوقاً وحليماً مع النساء. فقد رووا لي قصة عنه، سأرويها أنا لكم بدوري، جعلتني أنظر اليه على أنه أشرف الشرفاء!

فقال الضابط الشاب متلجلجاً: أرجوك مولاتي!..

وسرت همهمة بين الحضور جميعاً، جعلت جبين دي شارني يتفصّد عرقاً ويتمنى لو بقي سنة أخرى في الهند.

أما الملكة فقد تابعت تقول:

- اليكم ما حدث: هناك سيدتان أعرفهما جيداً، تأخرتا عن الأوبة الى منزليهما، ووجدتا نفسيهما أمام حشد يشكل بالنسبة اليهما خطراً عظيماً. واتفق أن مرّ السيد دي شارني في لحظة الخطر الداهم، فأبعد الحشد المحدق بهما دون أن يتعرف اليهما، وكان من الصعب أن يعرف مكانتهما. وبسط حمايته على السيدتين ورافقهما، درءاً للخطر، الى مسافة بعيدة جداً... مسافة تبعد عشرة فراسخ عن باريس كما أعتقد.

وهنا قال شارني ضاحكاً وقد شجّعه الجو على الكلام: أوه، إن مولاتي تفرط في التقدير!

فتدخل الكونت دارتوا في الموضوع وقال: لنحسم الخلاف ونقدر المسافة بخمسة فراسخ.

فاستأنفت الملكة تقول :

– لتكن مشيئتك يا أخي . لكن الأغرب من هذا كله ، هو أن السيد دي شارني لم يحاول أن يعرف اسمي السيدتين اللتين أنقذهما . فهو ما أن أوصلهما الى المكان الذي عيّنتاه له ، حتى ابتعد عنهما ولم يلتفت الى ورائه ، بشكل جعلهما تتفلتان من قبضتيه المنقذتين دون أن ينتابهما القلق لحظة واحدة .

فهتفت النسوة إعجاباً وأقبلت أكثر من عشرين امرأة يهنئنه ويمتدحنه دفعة واحدة ، وتابعت الملكة تقول :

– إنه لعمل جميل ، أليس كذلك ؟ ففرسان الطاولة المستديرة ،[1] لم يقم أحد منهم بمثل هذا العمل المجيد .

فصاحت النسوة بصوت واحد : إنه لعمل عظيم !

وهنا توجهت الملكة بكلامها الى السيد دي شارني ، فقالت :

– لا شك أن الملك أيها السيد دي شارني ، لم يسمح له الوقت كي يكافئ خالك السيد دي سوفران . أما من جهتي

---

١ – إن «فرسان الطاولة المستديرة» هي من اشهر روايات الفروسية والحب التي ألّفها الكسندر دوماس الكبير.

أنا ، فإني أريد عمل شيء بالنسبة الى ابن شقيقة هذا الرجل العظيم .

ثم مدّت له يدها ، فطبع عليها دي شارني شفتيه ، وقد اصفرّ لونه من فرط سروره ... بينما اصفرّ فيليب دي تافرني من فرط غيظه وألمه وتوارى وراء ستائر القاعة الفضفاضة .

وأندريه أيضاً اصفرت بدورها ، لأن ما يؤلم أخاها يؤلمها هي الأخرى في آن واحد .

فقطع صوت الكونت دارتوا هذا المشهد الذي كان غريباً بالنسبة للمراقب ، بقوله :

– آه ، أهذا أنت يا أخي دي بروفانس ، لقد وصلت إذن ، ولكن فاتك مشهد جميل ، مشهد استقبال السيد دي سوفران . لقد كانت فعلاً برهة لن تنساها قلوب الفرنسيين إطلاقاً ! فكيف بربك تخلفت عن هذا الاستقبال يا أخي ، وأنت المشهور بالدقة في كل تصرفاتك ؟

فأجاب دي بروفانس جواباً مبتذلاً بعد أن زمّ شفتيه وحيّا الملكة وهو ذاهل ساهٍ ، ثم انحنى بكليته على رئيس حرسه الكابتن دي فافراس وسأله :

– متى حدث أن جاء الى فرساي ؟

فأجابه الكابتن دي فافراس :

– آهٍ يا مولاي ، إني أتساءل عن ذلك منذ ساعة ، وحتى الآن لم أفهم شيئاً !

ذهبيات الملكة المئة

★

والآن ، وبعد أن استعدنا مع القراء استعراض الشخصيات الرئيسية لهذه الرواية ، ودخلنا معهم الى منزل الكونت دارتوا الصغير ، كذلك الى قصر فرساي ، سنعود بهم الى ذلك المنزل الواقع في شارع سان كلود ، حيث دخلت ملكة فرنسا متنكرة وصعدت مع أندريه دي تافرني الى الطابق الرابع .

ما كادت الملكة تخرج من هذا المنزل وتتوارى عن الأنظار حتى أسرعت الكونتس دي لاموت التي عرفها القراء ، أسرعت تعدّ وتعيد عدّ المئة قطعة ذهبية التي جاءتها كأعجوبة هبطت عليها من السماء .

وبعد أن امتلأ قلبها فرحاً بهذه الذهبيات المئة نادت خادمتها قائلة لها :

- تعالي يا كلوتيلد ، تعالي الى هنا وانظري .

فخطت الخادمة العجوز عدة خطوات نحو سيدتها وصاحت مندهشة بعد أن ضمت يديها الاثنتين وتطاول عنقها : آه سيدتي !.. آه سيدتي !

فقالت لها سيدتها :

- هل ما زلت قلقة على مرتباتك ؟

- عفوك سيدتي ، أنا لم أقل إلا كلمة واحدة في الموضوع . كل ما قلته ، هو أني سألت سيدتي الكونتس متى باستطاعتها أن تدفع لي أجرتي ، وهو سؤال طبيعي ، فأنا منذ ثلاثة أشهر لم أقبض من أجرتي قرشاً واحداً .

- وهل تأكدت الآن بأنه لدي ما يكفي لدفع مرتباتك ؟

فحملقت الخادمة بالذهبيات البراقة وأجابت :

- بحق المسيح يا سيدتي ، لو كنت أملك ما هو موجود على هذه الطاولة لأصبحت غنية مدى الحياة .

فتطلعت السيدة لاموت باحتقار الى خادمتها ، ورفعت كتفيها وقالت :

- إنه لشيء مفرح أن يتذكر بعض الناس الاسم الذي أحمله ، بينما اولئك الذين يتوجب عليهم أن يتذكروه قد تناسوه !

فسألتها الخادمة كلوتيلد :

– ماذا ستفعلين بهذه الدراهم يا سيدتي ؟

– سأفعل بها كل شيء .

– قبل كل شيء ، فكري فيّ يا سيدتي ،فالأهم برأيي هو أن أصعد الى المطبخ كي أحضّر لك الغداء ، أليس كذلك بعد أن أصبح المال ملك يديك ؟

فصاحت الكونتس دي لاموت :

– صه ! إنهم يطرقون على الباب .

فأجابتها السيدة العجوز : إنك تتصورين ذلك يا سيدتي ، فأنت دائماً موسوسة .

– إني أقول لك هناك من يقرع الباب .

– ولكني لم أسمع شيئاً يا سيدتي .

– اذهبي وانظري ، إنك دائماً لا تسمعين شيئاً !

فأطاعت السيدة كلوتيلد وذهبت الى الباب ففتحته وقالت للكونتس : إنك على حق يا سيدتي .

فأسرعت السيدة دي لاموت وجمعت بيديها الاثنتين الذهبيات المئة ودستها في أحد الأدراج وهمهمت قائلة بعد أن أغلقت الدرج : أيتها العناية الإلهية ، مئة ذهبية ثانية ...

في خلال هذا الوقت ، فتح باب السطح وسمع في الغرفة الاولى من ذلك الطابق وقع خطوات رجل ، تلاها تبادل

الكلام بين الداخل والسيدة كلوتيلد دون أن تتمكن الكونتس من فهم شيء .

وبعد أن أغلق الباب من جديد وتلاشى وقع الخطوات على الدرج ، عادت العجوز الى سيدتها وهي تحمل رسالة قدمتها اليها قائلة : تفضلي !

فتفحصت الكونتس الرسالة جيداً ، تفحصت الخط والغلاف والخاتم الذي عليها ، ثم رفعت رأسها وسألت السيدة كلوتيلد : هل يلبس لبس الخدم ؟

- نعم سيدتي .

- ثياب خدم أي أسياد ؟

- ليست ثياباً مميزة يا سيدتي .

فألقت السيدة لاموت نظرة جديدة على الخاتم ، ثم قرَّبته من المصباح وقالت : إنها ألوان ذات شعب ذهبية تسع ، فمن يحمل هذا الشعار يا ترى ؟

وبعد أن أطلقت العنان لتفكيرها لحظة ، لم تنبئها في خلالها ذاكرتها بشيء ، أكملت تقول : ولكن لنقرأ ما في الرسالة .

ثم فضَّتها بعناية كي يبقى خاتمها سليماً ، وقرأت ما يلي :

« سيدتي ، إن الشخص الذي لجأت إليه ملتمسة ،

باستطاعته أن يراك غداً مساءً ، إذا كان يسرك أن تفتحي له بابك .»

فعادت إلى ذاكرتها تستشيرها وتقول:

– ولكني كتبت الى عدة أشخاص ... فهل هو رجل أم امرأة صاحب الجواب؟ إن الخط لا ينبئ عن شيء، إنه مبهم !..

ثم عادت تردد : « الشخص الذي لجأت اليه ملتمسة ...» إن في العبارة كثيراً من الاحتقار، فهي لا شك امرأة .

واكملت تقول :

« ... سوف يأتي غداً مساءً إذا كان يسرني أن أفتح له الباب ! »

ثم تابعت القول : إنها امرأة . إذ لو كان رجلا لقال : « انتظريني غداً مساءً .»

وعادت تتأمل الرسالة التي لا تحمل توقيعاً ، والشعار ذا الشعب الذهبية التسع ، ثم صاحت : آه ، هل فقدت صوابي ؟ إنه شعار آل روهان . يا إلهي ! نعم ، لقد كتبت الى السيد دي جامانيه والى السيد دي روهان ، فواحد من الاثنين قد أجابني . ولكن الترس الذي يحمل شعار الشرف ليس مكوناً من أربعة أجزاء ، فالرسالة من الكردينال ... آه ! إن الكردينال

من آل روهان ، إن هذا المعازل الطماع ، يريد رؤية السيدة دي لاموت ، إذا فتحت السيدة دي لاموت له الباب !

وأردفت تقول :

– حسناً ! ليكن مطمئناً ، فالباب سيفتح له . ولكن متى ؟ غداً مساءً ؟

وبعد أن تاهت في مهامه التفكير ، أكملت تقول :

– إن سيدة المحبة التي تهب مئة قطعة ذهبية ، تقبل أن تستقبل في كوخ صغير ، وباستطاعتها ان تتجمد برداً على بلاطي البارد وأن تتحمل عذاب الجلوس على كراسيّ الخشنة القاسية . لكن أميراً من أمراء الكنيسة ، ورجلاً لبقاً وأنيقاً ، وسلطاناً من سلاطين القلوب ، يأبى أن يستقبل إلا بمظاهر الأبهة والغنى .

ثم استدارت نحو خادمتها التي كانت قد انتهت لتوها من ترتيب سريرها ، وقالت لها :

– تصبحين على خير أيتها السيدة كلوتيلد . لا تنسي إيقاظي في ساعة مبكرة .

فتركت الخادمة العجوز سيدتها وحدها بناء لرغبتها ، وذهبت فنبشت الجميرات المغطاة بالرماد ، مما زاد في مظهر المكان بؤساً ، ثم أوصدت الباب ولجأت بدورها الى فراشها .

أما جان دي ڤالوا، فعوضاً عن أن تغفو، أخذت تفكر فيما يجب عمله في اليوم التالي. وقد كتبت على نور المصباح الليلي بعض تصاميمها على ورقة، واسترسلت للرقاد عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وإذا كانت الكونتس قد نامت واستراحت بعض الشيء، فإن السيدة كلوتيلد لم تعرف طعم الرقاد، وقد أقبلت تهزّ سيدتها في مطلع النهار عملاً بأوامرها.

وما أن أزفت الساعة الثامنة حتى كانت الكونتس قد أكملت زينتها ولبست أفخر ما عندها من ثياب، ثم استدعت نقالة[1] فركبتها وطلبت الى سائقها أن يسير بها الى «الساحة الملكية» حيث كانت تباع أفخم الأثاثات العائدة للملكين: هنري الرابع ولويس الثالث عشر.

وما هي إلا عشر دقائق حتى كانت الكونتس جان دي فالوا في الساحة المذكورة التي كان يملكها السيد «فانغرات». وبعد أن جالت ببصرها على موجودات تلك المحلات الواسعة، وقع بصرها على مجموعة من المقاعد المكسوة بالحرير الاصفر والمزررة بالأزرار المذهبة، فراقت لها

---

١ - النقالة في ذلك العصر كانت مجرد كرسي خشبي له دولاب واحد ومقبضان ويجره الانسان جراً.

وصممت على استئجارها ، لأن مثل هذه الاثاثات كانوا في باريس يؤجرونها في تلك الأيام اذا لم يشأ الطالب شراءها ، ولكنها وجدت هذه المجموعة المؤلفة من عشر قطع لا يتسع لها المكان في ردهة منزلها الواقع في الطابق الرابع من شارع سان كلود . فكي تنسقها تنسيقاً جميلاً عليها أن تستأجر الطابق الثالث المؤلف من غرفة للانتظار ، وقاعة طعام ، وردهة للضيوف ، وغرفة نوم .

وبهذه الطريقة تستقبل في الطابق الثالث صدقات الكرادلة ، وفي الطابق الرابع صدقات مكاتب رسل المحبة . أي أنها في الطابق الفخم تستقبل صدقات الناس الذين يمارسون المحبة بالمجاهاة ، وفي الطابق الحقير تستقبل تقدمات الناس الطيبين الذين يهبون العطايا الى مستحقيها دون منّة ولا مباهاة .

على هذا الأساس قرّ قرار الكونتس واستدارت بعينيها نحو الجهة المظلمة من الموجودات ، أي نحو الجهة التي يتمثل فيها الغنى الباهر بالبلور النادر والمرايا النقية والأشياء المطلية بالذهب .

فرأت في هذه الجهة بورجوازياً باريسياً يبتسم ويحمل قبعته بيده ويدير مفتاحاً بين سبّابتي يديه المتلاحمتين .

ولم يكن هذا البورجوازي سوى السيد « فانغرات » الذي أسرع الخدم اليه فأبلغوه عن قدوم سيدة جميلة كانت تركب نقالة . فهبّ السيد فانغرات واقفاً واقبل نحوها واضعاً نفسه تحت تصرفها ، فعرّفته الكونتس عن نفسها بقولها : « الكونتس دي لاموت فالوا » .

فانحنى السيد فانغرات امامها ووضع المفتاح في جيبه وقال لها :

– عفوك سيدتي ، إنه لا يوجد هنا ما يناسبك . فأنا لدي كل جديد وجميل وفاخر ، و « الساحة الملكية » لا بدّ من أن ترضي ذوق سيدتي الكونتس ، فاتركي كل هذه الأشياء وشرّفي الى المخزن الآخر .

فاحمرت جان دي فالوا من هذا التواضع المخجل إذ أنها كانت امام مجموعة من الأشياء المدهشة ... وتملكتها الحيرة امام هذا المأزق الذي جعل منها في نظر السيد « فانغرات » بورجوازية كبيرة مع أنها بالواقع ليست سوى بورجوازية متواضعة الحال . وأخيراً تفتّق ذهنها عن فكرة منقذة ، فقالت لصاحب الساحة الملكية :

– إني لا أرى أشياء جديدة ، لذلك لا أريد شراء شيء .

فقال لها السيد فانغرات :

– لا شك أن سيدتي تريد تأثيث شقق بعض الأصدقاء ؟

فأجابته الكونتس :

- لقد نطقت صواباً أيها السيد فانغرات ، فهي شقة صديق ، وانت تعرف ما يلزمها شقة الصديق ...

فردّ عليها السيد فانغرات باسلوب لبق فيه الكثير من إغراءات تجار باريس :

- إنك مدهشة يا سيدتي في ذوقك . فالهوا والشباب لا يليق بهما العتيق ، بل يلزمهما الجديد ، لأن في الجديد تجديداً للحيوية والشباب .

فسألت الكونتس بتكلف :

- ما رأيك بهذه المجموعة ذات الازرار المذهبة ؟

- أوه ! إنها لا تكفي ، فهي مؤلفة من عشر قطع فقط .

- ولكني أريدها لقرنة متوسطة .

- إذن لا بأس ، فهي مفروشات جديدة كما ترى سيدتي .

- جديدة ... أحقاً ما تقول ؟

فأجاب السيد فانغرات ضاحكاً :

- بدون شك . وعلى كل ، سواء كانت جديدة أم لم تكن ، فإنها تساوي ثمنماية ليرة . فأرعش هذا الثمن الكونتس ، إذ كيف يمكنها أن تعترف بأن وريثة آل فالوا

يسعدها الحصول على هذه القطع الأثاثية ولكنها لا تستطيع دفع ثمنماية ليرة. فاحتالت على الموضوع وقالت:

- ولكني لا أريد شراءها، بل استئجارها، فهل من المعقول أن اشتري مثل هذه الأثاثات القديمة؟

وبعد المفاصلة على السعر استأجرت هذه المقاعد مع الستائر التابعة لها لمدة شهر واحد، وأردفت تقول للسيد فانغرات:

- وماذا ستقدم لي من أجل غرفة ثانية؟

- هذه المقاعد الخضراء، وهذه الخزانة المصنوعة من خشب السنديان، وهذه الطاولة ذات الأرجل الملتوية، وهذه الستائر الدمشقية.

- حسناً. ومن أجل غرفة للنوم؟

- سرير عريض جميل، وغطاء له من المخمل المطرز باللونين الوردي والفضي، وستائر زرقاء، وستارة للموقد مطلية بالذهب.

- ومن أجل غرفة الزينة؟

- دانتيلا وخزانة ذات أبراج صنع بلجيكا، وصوفا من السجاد مع كراسٍ شبيهة بها، ومصباح أنيق كانت تستعمله المركيزة دي بومبادور في غرفة نومها.

- وبكم إكراء كل هذه الأشياء لمدة شهر واحد؟

- بأربعماية ليرة .

- أوه « مسيو فانغرات » ، لا تعاملني كامرأة مغناج ، أرجوك . فالنساء اللواتي من طبقتي لا تفتنهن البوارق . ولا تنسَ أن أربعماية ليرة في الشهر ، تعني أربعة آلاف وثمنماية ليرة في السنة ، وبمثل هذا المبلغ استطيع شراء قصر مفروش .

فحكّ السيد فانغرات أذنه ، بينما تابعت الكونتس قولها : « لا تجعلني أنفر من الساحة الملكية » .

وقد لفظت جان دي فالوا هذه العبارة الأخيرة بنبرة فيها الكثير من العظمة والتسلط النسائي ، مما جعل تاجرنا يفكر بالمستقبل ويقول لها :

- كما تأمر سيدتي .

- إذن ثلاثماية ليرة ، ولكن بشرط ...

- أي شرط سيدتي ؟

- هو أن تكون كل هذه الأشياء بعد ثلاث ساعات من الآن ، قد وضعت ونسقت في الشقة التي أعينها لك .

- ولكن هذا مستحيل يا سيدتي ، فإنها الساعة العاشرة .

- ممكن ، أو غير ممكن ؟

ففكر فانغرات لحظة وسأل :

- وهل المكان بعيد سيدتي ؟

- إنه في شارع سان كلود .

- أوه ، إنه قريب جداً .

ثم فتح الباب ونادى بأعلى صوته : سيلفان ، لاندري ، رامي .

فأقبل الثلاثة متلهفين لرؤية السيدة الجميلة التي بهرت أبصارهم ، فبادرهم سيدهم بقوله بعد أن حدَّد لكل واحد مهمته :

- انقلوا بعناية هذه الأشياء الى الشقة التي تحددها لكم السيدة .

ثم انبرى فحرر ايصالاً بالمفروشات ورجا الكونتس أن توقعه ، ففعلت بعد أن دفعت له الثمن ووعدت العمال بإكرامية إذا ما قاموا بمهمتهم على أفضل وجه .

وبعد أن أعطت السيد فانغرات عنوانها عادت الى النقالة فركبتها وأمرت صاحبها بدفعها . وما هي إلا ساعة حتى كانت قد استأجرت الطابق الثالث وبدأ العمال بوضع كل قطعة من الأثاث في مكانها .

وبعد أن تمّ كل شيء ودفعت الكونتس للعمال إكرامية سخية ، انبرت خادمتها تنظف الزجاج وتوقد النار ، ثم

جلست هي جان دي فالوا ، بكامل زينتها وبهائها ، على كنبة قرب الموقد في غرفة النوم وكأنها حورية من حوريات الجنة .

وكانت تمسك كتاباً بين يديها وتصيخ السمع الى دقات الساعة والى ضجيج العربات البعيدة التي كانت تعكر صفو المكان بعض الشيء . وبينما هي كذلك ، دقت الساعة معلنة التاسعة ، ثم العاشرة ... فالحادية عشرة ... ولم يقبل أحد لا بالعربة ولا سيراً على الأقدام !

ثم انتصف الليل والكونتس ما زالت وحدها ، والخادمة المتأهبة في غرفة الانتظار تكاد الشمعة تحرق رأسها الذي أخذ يكبو من شدة النعاس ...

وعند الساعة الثانية عشرة والنصف ، فتحت جان دي فالوا نافذة غرفتها وانطلق بصرها يغوص في أعماق الشارع، فإذا بالحي كله هادئ ساكن كأن أرجل البشر لم تطأه بعد!

عند ذاك خلعت ثيابها الجميلة ولبست ثياب النوم بعد أن صرفت الخادمة ورفضت تناول العشاء . ولكنها كالليلة السابقة لم تستطع الرقاد . ففي الليلة السابقة كان الفرح سبب سهادها ، أما في هذه الليلة فالحلم الذي لم يتحقق كان سبب السهاد .

ولكن هذا الحلم بقي يراودها ، إذ أنها بعد أن عللت الأسباب التي جعلت الكردينال دي روهان يتخلف عن المجيء

في الموعد الذي حدَّده هو بنفسه ، وجدت له عذرين إثنين :
الاول هو أنه كردينال ومشاغله كبيرة وكثيرة ، والثاني هو أنه لم يسبق له أن عرف جان دي فالوا كي يقدر قيمتها كامرأة جذابة وفاتنة .

فاطمأن قلبها لهذا التحليل وقفزت من سريرها فأضاءت شمعات القنديل الليلي وتأملت نفسها طويلاً في المرآة فتأكدت من جمالها وبهائها ، ثم أطفأت الشمعات وعادت الى سريرها حيث استرسلت الى النوم مطمئنة .

الكردينال دي روهان

★

نهضت جان دي فالوا في اليوم الثاني من نومها وأسرعت الى غرفة زينتها دون أي اضطراب ، فتبرجت وتحلّت بحلاها ولبست ثيابها وكأن مرآتها تقول لها بأن السيد دي روهان سيحضر قبل الساعة التي تنتظرها .

وفعلاً ما أن دقت الساعة مشيرة الى العاشرة ، حتى توقفت عربة فاخرة في طلعة شارع سان كلود وهبط منها رجل متدثر

برداء سميك وصعد درج البناء بينما اتجهت العربة الى شارع ضيق مجاور بانتظار أوبة السيد .

ثمّ رنّ الجرس مؤذناً بقدوم الضيف المنتظر ، فأخذ قلب السيدة دي لاموت يخفق خفقاناً شديداً ... ولكنها خجلت من الاستسلام الى تأثيرات لا مبرر لها ، فتمالكت نفسها وأخذت ترتب بعض الأشياء في الغرفة كي يعود لقلبها خفقانه الطبيعي .

وبعد لحظات أقبلت السيدة كلوتيلد تقول للكونتس :

– الشخص الذي كتب قبل البارحة .

فأجابتها جان على الفور : دعيه يدخل .

فدخل البهو بخطى رشيقة رجل جميل الطلعة شامخ الرأس يرتدي المخمل والحرير بأناقة . فنهضت جان لاستقباله وقد رأت المكان جدّ حقير بالنسبة لشخصيته ، ومع ذلك استعملت اسلوب النساء العظام وقالت له :

– مع من لي شرف التكلم ؟

فأجابها الأمير بعد أن رأى باب البهو يغلق وتختفي وراءه الخادمة العجوز :

– أنا الكردينال دي روهان .

فأحنت السيدة دي لاموت رأسها خشوعاً وكأنها في

حضرة ملك ، ثم قدمت له كنبة . وعوضاً عن أن تجلس هي على كرسي عادي وفق ما تقضي به الآداب ، جلست على الكنبة الكبيرة .

ورأى الكردينال أن كلا منهما يمكنه أن يتصرف على هواه ، فوضع قبعته على الطاولة وأخذ ينظر ، وجهاً لوجه ، الى جان دي فالوا التي كانت هي الأخرى تنظر اليه ، ثم قال لها :

– أصحيح إذن أيتها الآنسة ؟..

فقاطعته جان قائلة : سيدة ؟·

– عفواً ... لقد سها عن بالي . أصحيح إذن سيدتي ؟..

– إن زوجي يا مولاي ، يدعى الكونت دي لاموت .

– تماماً ، تماماً ، إنه في سلك الدرك .

– نعم يا مولاي .

– وأنت سيدتي ، هل تتحدرين بالولادة من آل فالوا ؟

– نعم يا مولاي .

فقال الكردينال بعد أن وضع رجلاً فوق رجل :

– إنه اسم كبير ! اسم قلّ وجوده ، بل انقرض .

– انقرض !.. كلا يا مولاي ، لأني أحمله ، ولأن لي أخاً هو البارون دي فالوا .

– وهل هو معروف ؟

- ليس بحاجة لأن يعرف يا مولاي. فأخي، سواء كان غنياً أو فقيراً، قد ولد البارون دي فالوا.

- أرجو سيدتي أن تقصّ علي قليلاً قصة هذه الحقوق المتوارثة، فأنا شغف بأشعرة الشرف.

فقصّت عليه جان بكل بساطة وبرودة ما سبق للقراء ان عرضوه. وكان الكردينال ينظر اليها بإصغاء وتأثر واشتهاء بصفتها امرأة جميلة وفقيرة. أما حقوقها المهضومة ومكانتها فلم يكن يؤمن بها إطلاقاً. ولقد لاحظت هي انفعالات نفسه وعرفت أفكاره الخبيثة.

وبعد أن انتهت الكونتس من قصتها، قال لها دي روهان دون اكتراث: حقاً إن حالتك تعيسة.

- أنا لا أتشكى يا مولاي.

- الواقع أنهم قد جسموا لي كثيراً الصعوبات التي تعترض سبيلك.

ثم نظر الى ما حوله وأكمل:

- إن هذه الشقة لا بأس بها، فهي مريحة ومؤثثة تأثيثاً حسناً.

فأجابته جان بخشونة ونفاد صبر.

- نعم يا مولاي، لا بأس بها من أجل عاملة مغناج...

فبدرت من الكردينال حركة تعجب وقال:

– أتعتبرين هذه الأثاثات ، هي أثاثات عاملة مغناج!

فأجابته جان دي فالوا :

– على كلٍ ، لا أعتقد أن باستطاعة مولاي اعتبارها أثاثات أميرة .

فسألها الكردينال بلهجة فيها الكثير من السخرية والتهكم :

– وهل أنت أميرة ؟

– أنا من أسرة فالوا بالولادة ، يا مولاي ، تماماً كما أنت من أسرة روهان . وهذا كل ما أعرفه .

وقد لفظت الكونتس هذا الكلام بجلال وعظمة المرأة التي تثور لكرامتها ويعتمل الألم في نفسها ، فكان لها وقعها المنسجم والمتوافق في آنٍ معاً ، مما جعل الكردينال يرتعش ويقول :

– لقد سها عن بالي سيدتي ، بأنه كان علي أن أعتذر منك بادئ ذي بدء لأني كتبت اليك بأني سأحضر البارحة ، ولكن كانت لدي مشاغل في فرساي بمناسبة استقبال السيد دي سوفران ، منعتني من تحقيق ما كنت أصبو إليه .

– إن تفكيرك فيَّ اليوم يا مولاي ، قد أنالني شرفاً كبيراً . وزوجي الكونت دي لاموت سيزداد شقاء في منفاه ، لأن هذا المنفى قد منعه من التمتع برؤيتكم .

فلفتت كلمة « زوجي » انتباه الكردينال وقال :

- وهل تعيشين وحدك سيدتي ؟

- نعم يا مولاي .

- هذا شيء جميل بالنسبة لامرأة شابة وجميلة .

- هذا أمر في غاية البساطة يا مولاي ، بالنسبة لامرأة أبعدها الفقر عن كل مجتمع .

فصمت الكردينال هنيهة ، ثم قال :

- يبدو أن النسّابة لا يجادلون في نسبك .

فرفعت جان بحركة فاتنة خصلات شعرها المجعد عن جبينها ، وقالت باختصار :

- وماذا يهمني الأمر ؟

عندئذ قدّم الكردينال مقعده بحركة يستدل منها أنه يريد تقريب رجليه من نار الموقد ، وقال :

- أريد أن أعرف سيدتي ، ماذا باستطاعتي أن أنفعك .

- ولكني لا أريد شيئاً يا مولاي .

- كيف لا تريدين شيئاً ؟!

- إن نيافتك قد أكسبتني فخراً وشرفاً ، وهذا يكفيني .

- لنتكلم بحرية أكثر .

- ما كنت يوماً حرة أكثر مما أنا حرة هذا اليوم يا مولاي .

فتطلَّع الكردينال الى ما حوله كأنه يريد تذكيرها بقولها : « إن هذه الشقة لا بأس بها من أجل عاملة مغناج » ، ثم قال لها :

– ولكنك الآن كنت تتشكين .

– نعم ، كنت أتشكى فعلاً .

– إذن سيدتي ؟

– حسناً مولاي . إني أرى بأن نيافتك تريد التصدق عليّ ، أليس كذلك ؟

– أوه سيدتي !..

– لا شيء سوى ذلك . فالصدقة سوف أقبلها هذه المرة ، ولكني لن أقبلها مرة ثانية .

– ما هذا القول الذي تقولينه ؟

– يا مولاي ، أنا امرأة أعاني من الذل كفاية ، وليس باستطاعتي أن أرفع هذا الذل عني .

– إنك تسيئين استعمال الكلمات يا سيدتي ، فالشقاء لا يستوجب الشنار أو العار ...

– حتى مع الاسم الذي أحمله ؟ أيمكنك أنت ، وأنت الكردينال دي روهان ، ان تتسول ؟

فأجاب الكردينال بحيرة ممزوجة بالكبرياء : أنا لا أتكلم عن نفسي .

- إني لا أعرف يا مولاي سوى طريقتين لطلب الصدقة : في عربة فاخرة أو على باب كنيسة: بالثياب المخملية المذهبة أو بالثياب الرثة . لذا فأنا لا أطمح بالشرف من زيارتك ، وقد ظننت بأنك نسيتني .

- أوه ! إذن كنت تعرفين بأني أنا الذي كتبت اليك ؟

- وكيف لا وقد رأيت شعارك على خاتم الرسالة التي بعثت بها إليّ ؟

- ومع ذلك تظاهرت بعدم معرفتي !

- نعم ، والسبب أنك لم تشرفني بتوقيعك .

فقال الكردينال ملاطفاً وهو ينظر بانتباه الى عيني جان المشعتين والى هيئتها الشامخة :

- حسناً ، إن هذه الأنفة تروق لي .

وأردفت الكونتس تقول :

- كنت قبل أن أراك ، قد قررت أن أخلع عني هذا المعطف الذي يستر شقائي وإسمي ، واستعيض عنه بالثياب الرثة وأذهب ككل متسولة مسيحية ، استجدي عيشي من محبة المارة لا من كبرياء المتكبرين .

- أليس لديك أي مورد سيدتي ؟

فصمتت جان ولم تجاوب وأكمل الكردينال يقول:

- أراضٍ مثلاً ، أو جواهر متوارثة ؟

فتناولت المرأة الشابة علبة وأخذت تنقّل عليها أصابعها الناعمة البيضاء، ثم قالت له: هذه!

- إنها لعمري علبة مبتكرة.. هل تسمحين؟

وبعد أن أمسك بالعلبة قال مندهشاً: آه! إنها صورة!..

فسألته جان: وهل تعرف صاحبة هذه الصورة؟

- إنها صورة ماري تيريز.

- ماري تيريز؟

- نعم، امبراطورة النمسا.

فصاحت جان: أحقاً ما تقول يا مولاي؟

فأخذ الكردينال يقلب العلبة بين يديه، ثم سألها: من أين جاءتك هذه العلبة؟

- من امرأة جاءت أول البارحة.

- الى عندك؟

- نعم، الى عندي.

فعاد الكردينال يتأمل العلبة بانتباه، وسأل مرة ثانية: من سيدة؟

فقالت الكونتس: عفوا، لقد كانتا سيدتين.

- وإحدى هاتين السيدتين أعطتك هذه العلبة؟

- كلا، لم تعطني إياها.

- إذن كيف وصلت اليك ؟

- لقد نسيتها عندي .

فأطرق الكردينال مفكراً بعض الوقت ، ثم رفع رأسه وتطلع الى الكونتس بانتباه وقال لها :

- وماذا تدعى هذه السيدة ؟ أرجو المعذرة من طرحي هذا السؤال عليك ، فأنا خجول من قيامي بدور المحقق .

فقالت السيدة دي لاموت :

- الواقع أن هذا السؤال غريب يا مولاي .

- قد يكون مغايراً للرصانة ، أما غريب ...

- نعم غريب ، إني أردد هذه الكلمة . فلولا أني عرفت السيدة التي تركت هنا علبة الملبس هذه ...

- لماذا فعلت ؟

- لكنت أرسلتها إليها . فهي بدون شك تهمها ، وأنا لا أريدها أن تدفع قلق ثماني واربعين ساعة مقابل زيارتها الكريمة .

- هكذا إذن ، لا تعرفينها ؟

- لا ، وكل ما أعرفه عنها ، هو أنها رئيسة جمعية خيرية .

- من باريس ؟

- لا ، من فرساي ...

- من فرساي ؟.. ورئيسة جمعية خيرية ؟!

– إن عطاء النساء لا يجرح يا مولاي. فهنّ لا يحتقرن امرأة فقيرة إذا ما حملن اليها إعانة ما. وهذه السيدة التي وقفت على حالتي، وضعت على هذه المدفأة عندما زارتني، مئة قطعة ذهبية.

فقال الكردينال مندهشاً: مئة قطعة ذهبية؟!

ثم أردف يقول بعد أن لاحظ بأنه قد جرح شعور جان دي فالوا:

– عفوك سيدتي، فأنا لم أتعجب من إعطائك هذا المبلغ، فأنت تستحقين كل حدب جماعات الرحمة والمحبة. ولكنّ الذي أدهشني، هو لقب هذه السيدة. إذ المعروف عن سيدات المحبة، أنهن لا يقدمن الى المستحقين إلا الصدقات الضئيلة. فهل باستطاعتك أيتها الكونتس، أن تصفي لي تلك السيدة؟

– هذا صعب يا مولاي.

– ولماذا صعب، طالما أنها قد زارتك؟

– صعب لأن هذه السيدة كانت تجهد لإخفاء ملامحها، ومع ذلك...

– مع ذلك، ماذا؟

– مع ذلك، أعتقد يا مولاي...

– ماذا تعتقدين؟

- أعتقد ان عينيها زرقاوان .

- وفمها ؟

- وفمها صغير وشفتاها سميكتان ، خصوصاً الشفة السفلى .

- هل هي طويلة القامة أو متوسطة ؟

- متوسطة .

- وماذا عن يديها ؟

- في غاية الجمال .

- وعنقها ؟

- طويل وأملس .

- وهيئتها بشكل عام ؟

- إن لها هيئة النبل والوقار . ولكن هل تعرف هذه السيدة يا مولاي ؟

- وكيف تريدينني أن أعرفها يا سيدتي الكونتس ؟ كلا ، إني لا أعرفها .

- ولكن أسئلتك تدلّ على أن بعض الظنون قد ساورتك ، فإذا كان ذلك صحيحاً كما أعتقد ، يمكنك أن تستوحي شيئاً من الصورة المطبوعة على العلبة .

فانتفض الكردينال وأجاب :

– آه ، صحيح ما تقولين ، هذه الصورة ... يتراءى لي أنها صورة ...

– الامبراطورة ماري تيريز ، أليس كذلك ؟

– هذا ما أظنه .

– إذن ماذا تعتقد ؟

– أعتقد أن محسنة المانية قد زارتك ، محسنة من تلك المحسنات اللواتي أسسن فرعاً للأعمال الخيرية ...

– في فرساي ؟

– نعم سيدتي ، في فرساي .

وهنا صمت الكردينال ، وكان يبدو عليه بأن الشك ما زال يشغل باله ، وأن وجود هذه العلبة في منزل الكونتس قد أحيا كل محاذيره وجعله يتصور بأنه ربما كان هناك فخّ ينصب له . فأخذ يفكر ويفكر وجان تتأمله وتحاول سبر غوره . كان يفكر في نفسه ويقول : « كيف وصلت هذه العلبة التي سبق له أن رآها مئة مرة بين الأيدي الى جان المتسولة ؟ هل جاءت الملكة فعلاً الى هذا المنزل المتواضع ؟ وإذا كانت قد جاءت ، لماذا جاءت متسترة وأخفت عن جان شرف معرفتها ؟ وهل إن ماري انطوانيت محسنة وشفوقة الى هذه الدرجة ؟

بينما كان الكردينال يفكر بكل هذه الأمور ونظرات جان دي فالوا لا تفارقه والصمت مخيّم، قطع حبل الصمت بهذا السؤال الجديد :

- والسيدة التي كانت ترافق المحسنة، هل لاحظتها؟ وهل باستطاعتك رسم صورة عنها؟

فأجابته الكونتس قائلة :

- بكل تأكيد، فهذه قد رأيتها جيداً. إنها امرأة جميلة وطويلة القامة، ذات وجه حازم وبشرة بهية، وعليها مظاهر الغنى .

- والسيدة الثانية، ألم تنادها باسمها؟

- لقد لفظت اسمها مرة واحدة، ولكنها لفظت اسمها الشخصي .

- وما اسمها الشخصي؟

- اندريه ...

فارتعش الكردينال وهتف قائلاً : اندريه !

فلم توحي حركته بشيء جديد الى الكونتس. أما بالنسبة الى الكردينال، فقد كشف له اسم اندريه كل شيء. ففي العشية تناقل الكل في قصر فرساي خبر سفر الملكة والآنسة تافرني الى باريس ورجوعهما في ساعة متأخرة وبعد أن كانت

بوابات القصر قد أوصدت ، كذلك خبر الجدال الزوجي بين الملك والملكة .

وبعد أن تأكد له بأن ليس هناك فخّ ولا مؤامرة في شارع سان كلود ، بدت السيدة دي لاموت في عينيه جميلة وطاهرة القلب وسليمة النية كملاك . ومع ذلك بقي لديه ما يشغل باله وتعليقه كرجل دبلوماسي ، فسأل الكونتس قائلاً :

- ما زال هناك أمر أستغربه أيتها الكونتس .

- ما هو يا مولاي ؟

- هو أنك رغم الاسم الذي تحملينه ورغم ألقابك ، لم تتوجهي الى الملك .

- إلى الملك ؟

- نعم .

- ولكني بعثت عشرين توسلاً الى الملك ، ولم أحصل على نتيجة .

- ولكن اذا أسقطنا الملك من الحساب ، يبقى أمراء البيت المالك ، فدوق اورليان مثلاً ، هو شخص شفوق ويحب أن يعمل ما لا يعمله الملك .

- لقد التمست العون من سموّ دوق اورليان أيضاً يا مولاي ، ولكن بدون جدوى .

- بدون جدوى ! إن ذلك لمدهش حقاً .

- لا تندهش يا مولاي ، فطالما أني فقيرة وليس لدي من يشفع بي ، فكل التماس أقدمه لن يتعدى غرفة الانتظار .

- هناك أيضاً الكونت دارتوا . فالأناس الطائشون يقومون بعض المرات بأعمال لا يقوم بمثلها أصحاب القلوب الرحيمة والمحبة .

- والكونت دارتوا أيضاً توسلت اليه ، فلم يكن أفضل من سموّ دوق أورليان ولا من صاحب الجلالة ملك فرنسا .

- إذن لم يبق سوى عمات الملك . فهؤلاء أيتها الكونتس ، إن لم أكن جدّ مخدوع بهنّ ، سوف يستجبن ملتمسك .

- لا يا مولاي ، لن يستجبن .

- أوه ! أنا لا أستطيع أن أصدق بأن السيدة اليزابيت ، شقيقة الملك ، ليست ذات قلب رقيق .

- هذا صحيح يا مولاي . فقد قدمت التماساً الى سموها الملكي ، ووعدت باستقبالي . لكنها بعد أن استقبلت زوجي ، لا أعرف ماذا حدث حتى رفضت استقبالي .

فقال الكردينال : إنه لأمر غريب فعلاً !

وأردف فجأة وكأن فكرة جديدة طرأت على باله :

- يا إلهي ! ولكننا نسينا شخصاً ...

- من هو هذا الشخص ؟

- لقد نسينا الشخص الذي كان من الواجب أن تتوجهي اليه قبل أي شخص آخر.

- أي شخص تريدني أن أتوجه إليه؟

- يجب أن تتوجهي الى موزعة الهبات، الى تلك التي لم ترفض طلباً حقاً، الى الملكة.

- إلى الملكة؟

- نعم، الى الملكة. فهل رأيتها؟

فأجابت جان ببساطة كلية: كلا.

- كيف! ألم تقدمي التماساً الى الملكة؟

- إطلاقاً.

- ألم تحاولي طلب مقابلة جلالتها؟

- لقد حاولت، ولكنني لم أنجح.

- كان من الواجب عليك على الأقل، أن تعترضي طريقها، أن تلفتي نظرها اليك كي تستدعيك الى البلاط، فهذه وسيلة من الوسائل.

- إنها وسيلة لم أستعملها أبداً.

- في الحقيقة يا سيدتي، إن ما تقولينه لا يصدق.

- هذا هو الواقع. فأنا لم أذهب الى فرساي إلا مرتين، ولم أرَ سوى شخصين: الدكتور لويس الذي اعتنى بوالدي

في أوتيل ديو، والبارون دي تافرني الذي لجأت اليه، متوسلة.

- ماذا قال لك السيد دي تافرني؟ لا شك أنه حاول إيصالك الى الملكة.

- لقد قال لي بأنه ليس من الحكمة والتعقل، أن تطلبي من الملك لقباً يقربك منه وهو يأبى التقرب من الفقراء.

فقال الكردينال: يا للبارون الأناني الشرس!

وبعد أن فكّر بزيارة أندريه الى الكونتس، قال في نفسه: «شيء غريب! الأب يحرم المتوسلة من حقها، والملكة تصطحب الابنة الى عندها. في الحقيقة، يجب استخلاص شيء من هذا التناقض».

ثم أردف بصوت عالٍ: إنه ليدهشني أن أسمع مثل هذا الكلام يقال لامرأة مرتبتها الأولى في الحسب والنسب، كذلك يدهشني كونها لم تواجه الملك ولا الملكة إطلاقاً. إني سأقودك بنفسي ال فرساي، وسأعمل كي تُشرَّع الأبواب أمامك.

فصاحت الكونتس وقد غمر الفرح قلبها: يا لك من رجل طيب يا مولاي!

فاقترب الكردينال منها وقال لها:

- من غير الممكن، بعد مضيّ وقت قليل، أن لا تصبحي موضع اهتمام الجميع.

فتنهدت جان من أعماق قلبها وقالت: آه مولاي! هل أنت واثق مما تقول؟

- نعم أنا واثق.

- إني أعتقد بأنك تتملق إليّ يا مولاي.

قالت عبارتها الأخيرة وأخذت تتأمله بعذوبة المرأة الصارخة الأنوثة، فوقعت نظراتها كالسهم على قلب الكردينال، مما جعل الشهوة تضج في جسده ويشعر بنار الرغبة تحرقه، وبأن هذه المرأة هي من القلائل اللواتي تعرّف إليهن وشعر بإغرائهنّ، فقال في نفسه: «إنه لغريب حقاً أن تجتمع في هذه المرأة مظاهر المراوغة والشقاء في آنٍ معاً!»

وبعد أن صمت قليلاً، قالت له الكونتس:

- إن صمتك يقلقني يا مولاي، فاغفر لي ما سأقوله:

فسألها الكردينال: ماذا ستقولين؟

- سأقول بأن رجلاً مثلك لا يتخلى عن أدبه سوى مع نوعين من النساء.

- آه، إنك ترعبينني أيتها الكونتس، فبربك ماذا تريدين قوله؟

قال هذا القول وأمسك بيدها ... فرددت الكونتس كلامها : قلت مع نوعين من النساء ...

- أيهما ؟

- مع نساء تحبهنّ كثيراً ، ومع نساء لا تقدرهن كفاية .

- كونتس ، كونتس ، لقد أخجلتني . فهل بدر مني قلة أدب تجاهك ؟

- أرجوك ، قل سيدتي ...

- أعفني منها ، فهذه الكلمة لم تعد تروق لي !

- إني في الواقع يا مولاي لا ألومك على شيء ، طالما أنك لا تستطيع أن تحبني كثيراً ، وطالما أنني لم أتح لك حتى الآن أن تقدرني كفاية .

- ولكنك تكلمينني وكأنك غضبانة عليّ !

- كلا ، فأنت حتى الآن لا تستحق غضبي .

- ولن أستحقه أبداً يا سيدتي . فأنت ابتداء من هذا اليوم ، ستكونين موضع اهتمامي الدائم .

فقالت الكونتس دون أن تسحب يدها من يدي الكردينال :

- بالله عليك ، كفى يا مولاي .

- ماذا تريدين أن تقولي ؟

- لا تحدثني عن حمايتك لي .

- ولكني لم ألفظ كلمة حماية . أوه سيدتي ، لست أنت من نالك الاحتقار ، بل أنا !

- إذن لنتفق على شيء يرضيني يا حضرة الكردينال .

- أنا مستعد لكل ما يرضيك .

- إن ما يرضيني هو القول بأنك قد زرت السيدة دي لاموت دي فالوا زيارة مجاملة ، ولا شيء سوى ذلك .

فابتسم الكردينال الضليع في فن المغازلة ورفع يد الكونتس الى شفتيه وقبّل أصابعها قبلة طويلة ، سحبت جان دي فالوا على أثرها يدها ، فقال الكردينال برزانة وذوق مرهف :

- إنها قبلة مجاملة ...

فأعادت جان يدها ... وأعاد الكردينال الكرة فطبع عليها هذه المرة قبلة احترام نهمة ، مما جعل الكونتس تهتف :

- آه ، هذا كثير يا مولاي !

وأكملت بعد أن انحنى الكردينال عليها :

- ربما استمرّ نصيبي من رجل مثلك سنة واحدة ، فإني أقسم لك بأني قابلة بهذه القسمة .

- سنة واحدة ! هذا قليل جداً ... فكري بأكثر أيتها الكونتس .

فابتسمت جان دي فالوا وأجابت :

- ربما ... فأنا لن اعترض يا حضرة الكردينال .

فقرّب الكردينال نفسه منها زيادة وقال لها : ضعي ثقتك بي .

- إن الثقة موجودة يا مولاي ، لأن نيافتك ...

فقاطعها الكردينال بقوله :

- إنك الآن تخليت عن كلمة مولاي ، فلماذا عدت إليها ؟

- عفوك يا مولاي ، فأنا لا أتقن فن المغازلة . لقد قلت إذن بأن لي ثقة بك لأنك جدير بأن تفهم روحاً مغامرة وشجاعة كروحي ، وقلباً نقياً كقلبي . فأنا رغم الفقر الذي عانيته ، ورغم ما لحقني من الأصدقاء الخسيسين ، لا يسعني إلا أن أثق ، وإلا أن أشعر بعطف نيافتك .

- لقد أصبحنا إذن صديقين يا سيدتي . هل تريدين أن نقسم على صداقتنا ؟

- نعم ، أريد .

فنهض الكردينال وتقدم نحو السيدة دي لاموت وذراعاه مفتوحتان للقسم ...

لكن الكونتس تملصت بخفة ورشاقة وقالت له بنبرة فيها الكثير من اللباقة والتهكم البريء .

- يجب ان يشتمل القسم على محبة ثلاثة !

فسأل الكردينال بتعجب : محبة ثلاثة ؟! وكيف ذلك ؟

– بدون شك ، أليس هناك دركي فقير يدعى الكونت دي لاموت ؟

– اوه كونتس ! أية ذاكرة محزنة هي ذاكرتك !

– ولكن علي أن أحدثك عنه ، طالما أنك أنت لم تتكلم عليه .

– ألا يكفي ما سيقوله الناس ؟

– ماذا سيقولون ؟

– سيقولون مثلاً ، بأن حضرة الكونت دي لاموت ، قد وجد من المستحسن أن يأتي الكردينال دي روهان ، ثلاث أو أربع أو خمس مرات في الاسبوع ، لزيارة السيدة دي لاموت في شارع سان كلود .

– آه ! أربع أو خمس مرات في الاسبوع ؟

– وأين تذهبين بالمحبة أذن أيتها الكونتس ؟ لقد قلت خمس مرات ، ولكني كنت أكذب ، أذ يجب أن أقول ست أو سبع مرات . هذا إذا أسقطت من حسابي أيام الكبيس .

فأخذت جان تضحك وتضحك حتى لاحظ الكردينال بأن مزاحه قد بدأ يدخل السرور الى قلبها ، ثم قالت :

– وهل ستمنع الناس من أن يتكلموا ؟ أنت تعلم بأن هذا الشيء غير ممكن .

فقال الكردينال : نعم سأمنعهم .

- وكيف ذلك ؟

- إنه لأمر بسيط جداً ، فإن الشعب الباريسي يعرفني ، سواء كان ذلك خطأ أم صواباً .

- نعم ، إنه يعرفك يا مولاي ، وهو عين الصواب .

- ولكن من سوء حظه ، انه لا يعرفك أنت .

- ماذا تريد أن تقول ؟

- أريد أن أقول ...

- أكمل !

- أريد أن أقول ، ماذا لو تخرجين أنت عوضاً عن أن أخرج أنا ؟

- أن أذهب أنا الى قصرك يا مولاي !

- سوف تذهبين لزيارة وزير .

- والوزير ، أليس رجلاً يا مولاي ؟

- ليس من الضروري أن تذهبي الى قصري أيتها المعبودة ، فلديّ بيت ...

- إنه بيت صغير خاص ... أليس كذلك ؟

- كلا ، بل هو بيت لك .

- بيت لي ! وأين يقع هذا البيت ؟ إني لا أعرفه .

فوقف الكردينال الذي كان جالساً ، وقال :

- غداً، عند الساعة العاشرة صباحاً، سوف تتلقين عنوان البيت.

فاحمرت الكونتس ... وتناول الكردينال يدها برقة وقبّلها قبلة فيها من الجسارة والحنوّ بقدر ما فيها من الاحترام.

وبعد أن ودّعا بعضهما البعض بالابتسامات والنظرات التي تدل على تفاهمهما التام ... صاحت الكونتس تقول بصوت مرتفع: أنيري الطريق يا كلوتيلد.

فأسرعت الخادمة العجوز ولبّت أمر سيدتها، وخرج الحبر الجليل بينما كانت جان تقول في نفسها: «يبدو لي أني قد خطوت خطوة كبيرة في هذا العالم.»

أما الكردينال، فقد قال يخاطب نفسه بعد أن صعد الى عربته: «لقد قمت بعمل مزدوج، فهذه المرأة تتمتع بقدر من الذكاء يجعلها تستقبل الملكة عكس ما استقبلتني به.»

في عيادة الدكتور ميسمار

★

في ذلك الوقت، أي في العام ١٧٨٤، كان الموضوع الذي طغى على كل المواضيع في باريس، هو موضوع

« الميسمارية » ، ذلك العلم الغامض وغير المحدود الذي جاء به الى العاصمة الفرنسية الطبيب الألماني ميسمار الذي قال بنظرية المغناطيس الحيواني ، أي الجاذبية الموهومة في بعض الناس ، والتي عرفت بالميسمارية . فقد طبقت شهرة هذا الطبيب الآفاق وأخذ الناس يتحدثون عن المرضى الذين أشفاهم بواسطة علمه العجيب المدهش ، وعن المجانين الذين أعاد اليهم عقولهم ، وعن العميان الذين أعاد اليهم أبصارهم ، مما جعل الملك لويس السادس عشر يسمح للملكة ماري انطوانيت أن تزور عيادة هذا الطبيب ، بدافع الفضول . شرط أن ترافقها في هذه الزيارة إحدى أميرات البلاط .

وقد تمت زيارة الملكة لهذا الطبيب بعد مضيّ يومين على الزيارة التي قام بها الكردينال روهان الى الكونتس دي لاموت .

وكان الطقس في ذلك اليوم قد غدا جميلاً لطيفاً وأخذت الثلوج تذوب وانبرى جيش من الكناسين الفرحين بانتهاء فصل الشتاء يدفعون الى البواليع ، بهمة الجنود الذين يقومون بحفر الخنادق ، بقايا الثلوج الوسخة التي تحولت بعد ذوبانها الى سواقٍ سوداء .

وعندما أضاءت أولى النجوم القبة الزرقاء الصافية في تلك الليلة لبست السيدة دي لاموت أجمل ثيابها حتى بدت عليها

مظاهر الثراء والأناقة، وركبت عربة جميلة اختارتها لها خادمتها السيدة كلوتيلد واتجهت بها الى ساحة الفاندوم حيث ترجلت امام منزل فخم المظهر تشع الأنوار من نوافذه العالية.

ولقد كان هذا المنزل منزل الدكتور ميسمار ...

وعدا عربة السيدة دي لاموت كان هناك عدد من العربات الأنيقة تقف أمام هذا المنزل، بالاضافة الى ما يقارب الثلاثماية فضولي يدوسون الوحول بانتظار خروج المرضى المعافين أو دخول المرضى القاصدين الشفاء.

أما المرضى فكانوا جميعهم من طبقة الأغنياء وأصحاب الألقاب وقد نزلوا من عرباتهم التي تحمل أشعرة الشرف بمساعدة خدمهم.

وسط هذا الجمهور المحتشد شقّت السيدة دي لاموت طريقها بقوة وهي مقنَّعة الوجه وبشكل لفت الانظار وجعل البعض يردد: «هذه ليست مريضة، هذه ليست مريضة». ولكن إذا لم تكن السيدة دي لاموت مريضة، فماذا جاءت تفعل عند الطبيب ميسمار؟

الواقع ان السيدة دي لاموت قد أطالت التفكير في زيارة الكردينال دي روهان لها، خصوصاً في ما أبداه من اهتمام بالعلبة التي نسيتها المحسنتان عندها وبالصورة التي عليها.

وبما أن في اسم صاحبة العلبة يكمن كل السر الذي جعل الكردينال يبدي ما أبداه من لطف مفاجئ ... فقد عمدت السيدة دي لاموت الى وسيلتين لمعرفة هذا الاسم.

اتجهت أولاً الى فرساي وأخذت تستعلم عن السيدات الالمانيات اللواتي يعملن في مكاتب البر والاحسان، ولكنها لم تحصل على نتيجة لأن عدد هؤلاء النساء في فرساي كان كبيراً جداً بسبب المعاملة الحسنة التي كانت توفرها الملكة الى مواطنيها الألمان. ورغم ان كلهن كنَّ من المحسنات، فلم تكن أية واحدة منهن تضع على صدرها شارة المكتب الذي تنتمي اليه. وعبثاً قالت السيدة دي لاموت بأن إحدى السيدتين المحسنتين اليها تدعى جان، فلم تكن بين النساء الألمانيات في فرساي أية واحدة منهن تحمل هذا الاسم، عدا أنه ليس اسماً المانياً.

ولما أعيتها الحيلة، فكرت بالطبيب الالماني الذي سمعت بعجائبه الشبيهة بعجائب السيد المسيح والذي لم تكن قدرته السحرية موقوفة على شفاء المرضى وحسب، بل كان ينتزع الأسرار الخفية ويفرِّج عن النفوس المعذبة.

وبعد أن استقصت أخبار هذا الطبيب وأصغت الى الروايات الكثيرة عن عجائبه، باتت مقتنعة بأنه الوحيد الذي

باستطاعته أن يكشف لها اسم صاحبة العلبة . ولهذا السبب رأيناها تشق طريقها بالصورة التي وصفناها الى القاعة التي تجمع فيها المرضى بانتظار جلسة الطبيب ميسمار المغناطيسية لتقف بنفسها على مقدرة هذا الطبيب الفائقة الوصف .

وكانت الشقة التي اتخذها الطبيب المذكور مقراً له تتألف من قاعتين رئيسيتين . فعندما يجتاز المرضى غرف الانتظار ويبرزون تذاكر المرور الضرورية الى الحجاب القائمين على خدمته ، يسمح لهم بالدخول الى قاعة نوافذها مغلقة بإحكام كي تحجب النور والهواء أثناء النهار ، والضوضاء والهواء أثناء الليل .

وفي وسط هذه القاعة وتحت ثريًا ينبعث من شمعاتها نور ضئيل يكاد يتلاشى ، يلاحظ المرء وعاء كبيراً مغطّى شبيهاً بالدِنّ ، ولم يكن هذا الوعاء أنيق الشكل ولا مزيناً بأي رفرف يخفي عري جوانبه المعدنية ، وكان تقريباً مملوءاً بالماء الممزوج بالكبريت وغيره من المواد الكيمائية ، ومن هذا المزيج كانت تتصاعد الأبخرة من خلال الغطاء المتعدد الثقوب فتشبع المكان بالرطوبة التي سيكون لها تأثيرها الفعال على الحضور .

وقد ثُبِّت في غطاء « الدن السحري » الذي كانوا يسمونه «دلو السيد ميسمار » حلقة شُدَّ اليها حبل طويل سوف نعرف الغاية منه بعد ان نلقي نظرة على المرضى .

فهؤلاء المرضى الذين رأيناهم يدخلون عيادة الطبيب ميسمار، كانوا يجلسون على مقاعد صُفَّت حول « الدن » وقد اصفرت وجوههم وظهرت عليهم دلائل الضعف والوهن. وكانوا خليطاً من الرجال والنساء، بعضهم غير مبالٍ وبعضهم ينتظر نتيجة التجربة بجدية وقلق.

وقد تقدم احد الخدم وأخذ يلف الحبل الطويل حلقات حلقات حول المرضى، وبشكل أصبح معه الكل مربوطين بسلسلة واحدة، مما جعلهم يشعرون بتأثير الكهرباء التي يحتويها « الدن السحري ».

ثمّ كي لا يتعطل أبداً عمل الجاذبية الحيوانية، المنقولة والمتكيفة مع كل طبيعة، كان على المرضى، بناء لأوامر الدكتور ميسمار، أن يلمسوا بعضهم البعض، سواء بالمرافق، أو بالأكتاف، أو بالأرجل، بشكل يتيح للوعاء السحري المنقذ أن يُنفذ في وقت واحد، حرارته المجددة للقوى والأنسجة الى كل الأجساد.

وهنا يرتسم هذا المشهد المدهش العجيب الذي أثار فضول الباريسيين على اختلاف فئاتهم ودرجاتهم: ثلاثون مريضاً تقريباً مصطفين كالبكم حول الدن المعهود، أو « دلو ميسمار »، مع خادم أبكم ايضاً يقف امام اولئك الأشخاص الموثوقين بحبل ملفوف على أجسادهم كالحية. ثم ينسحب

هذا الخادم بخطوات حذرة بعد أن يعين للمرضى القضبان الحديدية التي بفضل تداخلها ببعض الثقوب في الدلو السحري تولّد الجاذبية الميسمارية التي ستشفي أمراضهم .

وعند افتتاح الجلسة تنطلق دفعة من الحرارة الناعمة النافذة وتأخذ بالدوران في القاعة ، فترتخي على أثرها قليلاً ألياف المرضى المتوترة . ثم تأخذ هذه الحرارة بالارتفاع تدريجياً من أرضية القاعة الى السقف ، ولا يطول الوقت حتى تتحول هذه الحرارة الى أبخرة ذات رائحة عطرية لذيذة تجعل أكثر الرؤوس تمرداً تترنح وتنحني .

وبينما نرى المرضى مستسلمين الى هذا الاحساس اللذيذ في ذلك الجو المعطّر ، تنطلق فجأة من موسيقيين غير منظورين لا هم ولا آلاتهم ، موسيقى ناعمة مؤثرة وتتلاشى أصداؤها في ذلك المكان الدافئ والعابق بالشذا كما يتلاشى نور الشعلة الضئيل في آخر الليل ، ثم تعود هذه الموسيقى بقوة وكأنها انبثقت من مقلع بلوري لتهزَّ الأعصاب بشكل لا يقاوم ، كمثل صخب الطبيعة غير المنظور الذي يرعب حتى الحيوانات ويسلب لبّها ، وكمثل صرير الرياح الهوجاء في الليلة العاصفة المظلمة .

ولا يمضي طويل وقت حتى تلتقي مع هذه الألحان الموسيقية أصوات متناسقة كأنها كومة أزهار نثرتها العلامات الموسيقية على رؤوس الحاضرين .

وعلى كل الوجوه التي أحيتها المفاجأة في أول الأمر، يأخذ الحبور الهيولي بالارتسام شيئاً فشيئاً. فالنفس التي كانت ترزح تحت وطأة المرض في كل جسد، خرجت من ملاذها الذي لجأت اليه عندما كانت آلام الجسد تحاصرها، وانتشرت حرة فرحة في أعضاء الجسد كافة. لقد قهرت هذه النفس المادة وأخذت تتحول من حالة الى حالة.

إنها اللحظة التي أمسك فيها كل واحد من هؤلاء المرضى قضيباً حديدياً من تلك القضبان المتداخلة في «دلو ميسمار» السحري وأدار هذا القضيب باتجاه صدره أو قلبه أو رأسه، أي باتجاه مكمن المرض الذي من أجله قصد عيادة الدكتور ميسمار.

ولنتصور ساعتذاك الغبطة التي حلت محل الألم والقلق على الوجوه، والصمت المطبق الذي ساد الجميع والذي كانت تتخلله بعض التنهدات والزفرات، لنكوّن فكرة قريبة من الواقع عن ذلك المشهد الذي لخصناه بعد مضيّ ثلثي قرن على اليوم الذي جرى فيه.

ولنلق الآن نظرة على الممثلين الذين اشتركوا بهذا المشهد، والذين كانوا ينتسبون الى طائفتين من الناس. الطائفة الاولى كانت مؤلفة من المرضى، وهم الممثلون الحقيقيون الذين أمّوا

هذه القاعة بقصد الشفاء، وكان همهم الوحيد أن تتحقق آمالهم.

أما الطائفة الثانية، فقد كانت من المشككين أو الفضوليين الذين لا يشكون من أي مرض، وقد دخلوا الى منزل الدكتور ميسمار كما يدخلون الى أي مسرح من المسارح ليروا بأم أعينهم هذه الظاهرة الميسمارية التي شغلت الباريسيين وبات الناس يتحدثون عن المرضى الذين استعادوا عافيتهم بواسطتها ومن دون أي دواء كأن ذلك قد تمّ بفعل سحر ساحر.

وقد لفتت الأنظار بين جماعة المرضى الذين آمنوا بالدكتور ميسمار إيماناً صادقاً وباتوا من اتباعه الخُلّص، امرأة ممشوقة القوام جميلة الوجه ذات أناقة فريدة، كانت مستسلمة لتأثير المغناطيس المسلط بشكل ملحوظ على رأسها وعلى أعلى صدرها بواسطة أحد القضبان الحديدية، وكانت بالوقت نفسه تجول بعينيها الساحرتين هنا وهناك والكل يتوقون لمعرفتها، بينما كانت يداها ترتعشان بصورة عصبية ظاهرة.

وعندما أرخت هذه المرأة الجميلة رأسها الى الوراء وأسندته على مؤخرة الكنبة، استطاع الحضور أن يروا بوضوح وسهولة جبهتها الصفراء وشفتيها المتشنجتين وعنقها البديع الذي جعله انسياب الدم في شرايينه شبيهاً بقطعة من المرمر.

وبينما كان الكثيرون من الحضور يصبون نظراتهم بدهشة على هذه المرأة الشابة ، كان هناك ثلاثة أشخاص ينحنون على بعضهم البعض ويتهامسون فيما بينهم عن سرّ اكتشفوه وقد ضاعف انتباههم وفضولهم .

وكان في عداد الفضوليين في تلك الساعة السيدة دي لاموت التي كانت تمسك بيدها قناع «الساتان» الذي وضعته على وجهها ساعة اخترقت الجموع كما سبق وذكرنا ، من دون أن يبدو عليها أنها قلقة أو خائفة من أن يعرفها أحد .

ومع ذلك ، حاولت بما أظهرته من تصرفات ، التهرب من كل النظرات . اذ انسلت رويداً رويداً الى قرب الباب وأسندت ظهرها الى إحدى الركائز وحجبت نفسها بستارة للزينة، بمعنى أنها أصبحت بوضع يسمح لها بأن ترى كل شيء ولا يراها أحد .

ولكن من بين كل الذين وقعت عليهم أنظارها ، لم يثر اهتمامها سوى وجه تلك المرأة الشابة المكهرب بالمغناطيس المسماري . فقد أذهلها هذا الوجه لدرجة جعلتها تبقى في مكانها عدة دقائق ، جامدة وشاخصة اليه والرغبة الملحة التي لا تقاوم تدفعها للمزيد من التحديق فيه ، الى أن هتفت أخيراً دون أن تفارق عيناها هذه المريضة الجميلة : «آه ، لقد عرفتها !

إنها تلك السيدة المحسنة التي زارتني ذلك المساء، والتي كانت السبب الوحيد الذي جعل السيد دي روهان يهتم بي ذلك الاهتمام .»

وبشوق كبير دفعها هذا الاتفاق غير المنتظر الى قرب تلك السيدة لتتأكد من أنها غير مخدوعة. لكن تلك الشابة المتشنجة الأعصاب، أغمضت في تلك اللحظة عينيها، وانقبض فمها، وأخذت تضرب الهواء بيديها الواهنتين.

ويجوز لنا القول، بأن اليدين اللتين كانتا تضربان الهواء، لم تكن أبداً تلك اليدين الناعمتين النحيلتين والناصعتي البياض اللتين أعجبت بهما السيدة دي لاموت عندما وقع عليهما بصرها منذ عدة أيام.

وقد سرت عدوى تلك النوبة الكهربائية حتى شملت معظم المرضى. فالأدمغة قد أُشبعت بالضجيج والطيوب، والتوتر العصبي بلغ أقصى الدرجات، مما جعل الرجال والنساء يتأوهون، ويهمهمون، ويصرخون، ويحركون أذرعهم وسيقانهم ورؤوسهم بشكل عجيب غريب!

وعندما بلغت النوبة أشدها، ظهر في القاعة رجل لم يدرِ أحد كيف دخل ولا من أين جاء!..

فهل خرج هذا الرجل من الدلو السحري؟ هل كان ذلك البخار المعطَّر الذي تكاثف في القاعة حتى انتشت منه

الرؤوس وترنحت ؟ إن ظهوره بهذا الشكل المفاجئ، وبثوبه الليلكي الذي كان يرتديه، وبمنظره المحبب ووجهه الجميل الشاحب والمعبّر عن ذكاء وصفاء، أوحى بأنه من طينة شبيهة بطينة الآلهة.

ولقد كان يمسك بيده مقرعة طويلة أشار بها إشارة فتحت على أثرها الأبواب، وأسرع عشرون خادماً فحملوا بسواعدهم المفتولة، المرضى الذين فقدوا توازنهم على المقاعد التي كانوا يجلسون عليها، ونقلوهم بسرعة لم تتعدَّ الدقيقة الواحدة الى قاعة مجاورة.

وبينما كانت تجري هذه العملية المثيرة للاهتمام، خصوصاً بعد أن كانت المرأة الشابة التي رأيناها متشنجة الأعصاب قد استسلمت الى غبطة ما بعدها غبطة، بينما كانت تجري هذه العملية أسرعت السيدة دي لاموت مع من أسرع من الفضوليين الى تلك القاعة الجديدة التي نقلوا اليها المرضى، وما أن دخلتها حتى سمعت رجلاً يصيح: إنها هي! إنها هي!..

فتهيأت السيدة دي لاموت لتسأل ذلك الرجل: ومن تكون هي ؟ ولكن فجأة ولجت القاعة الأولى سيدتان واتجهتا الى أقصاها، وكانتا تتكئان على بعضهما البعض ويتبعهما على مسافة قصيرة منهما، رجل تنكر بثوب بورجوازي ويدل مظهره على أنه خادمهما وموضع ثقتهما.

وقد أدهشت هيئة هاتين السيدتين، خصوصاً هيئة إحداهما، أدهشت الكونتس ودفعتها الى أن تتقدم نحوهما بعض الشيء. وفي هذه اللحظة، تفلتت من بين شفتي المتشنجة في القاعة صرخة كبيرة، هرع الكل على أثرها باتجاهها. والرجل الذي سبق له أن هتف: إنها هي! إنها هي! والذي كان في تلك اللحظة بالقرب من السيدة دي لاموت، صرخ هو الآخر بصوت مخنوق وخفيّ: أيها السادة، انظروا، إنها الملكة!

فارتعشت جان عند سماعها هذه الكلمة ... وصاحت دفعة واحدة عدة أصوات خائفة ومنذهلة: الملكة عند ميسمار!

ورددت أصوات أخرى: الملكة في حالة بحران!!

ثم قال أحدهم: أوه، هذا غير ممكن!

فأجابه الرجل المجهول بكل هدوء: إذن، أنت لا تعرف الملكة.

ساعتذاك تمتم معظم الحاضرين: فعلاً، إن الشبه لا يصدق!

وكان لدى السيدة دي لاموت قناعها كسائر النساء اللواتي كان يودّهن، بعد الخروج من لدن ميسمار، أن يتوجهن الى دار الاوبرا لحضور الحفلة الراقصة. لذا كان

باستطاعتها أن تطرح الأسئلة دون أي حرج. فسألت ذاك الرجل، وقد كان ضخم الجثة مملوء الوجه ملتمع النظرات شديد الملاحظة، سألته قائلة:

- ألم تقل إن الملكة هنا؟

فأجابها الرجل:

- أوه سيدتي، إن الأمر لا يحتمل الشك.

- وأيها تكون؟

- إنها تلك المرأة الشابة التي ترينها هناك على الوسائد البنفسجية، وهي تعاني من نوبة حادة.

- ولكن على أي أساس ارتكزت في اعتقادك يا سيدي، بأن هذه المرأة هي الملكة بذاتها؟

فأجابها الرجل ببرودة: إني ارتكزت على معرفتي بأن هذه المرأة هي الملكة.

ثم ترك الكونتس وانبرى ينشر الخبر ويؤكده بين الحضور.

أما جان، فقد أشاحت بوجهها عن ذلك المشهد المثير والشبيه بمشهد المصاب بداء النقطة، واتجهت نحو الباب. ولكن ما أن خطت بضع خطوات، حتى وجدت نفسها أمام السيدتين اللتين كانتا، وهما تجتازان المتشنجين، تنظران باهتمام الى الوعاء السحري، والى القضبان الحديدية والغطاء.

فما أن وقع نظر جان على السيدة الأكبر سناً، حتى أطلقت بدورها صرخة، مما جعل السيدة تسألها: ما بك؟

فرفعت جان قناعها بسرعة وقالت: ألا تعرفينني؟

فبدرت من السيدة حركة دلّت على اضطرابها وأجابت:

- كلا يا سيدتي!

- أما أنا، فإني أعرفك، وسوف أقدم لك البرهان على معرفتي إياك.

وبعد هذا السؤال والتأكيد عليه، التصقت السيدتان بعضهما البعض بدافع الخوف. أما جان، فقد سحبت من جيبها العلبة المعهودة وقالت لها:

- لقد نسيتما هذه العلبة عندي.

فسألت السيدة الكبرى: متى كان ذلك، ولماذا أنت مضطربة الى هذه الدرجة يا سيدتي؟

- إن سبب اضطرابي هو الخطر الذي ستتعرض له جلالتك في هذا المكان.

- أوضحي أيتها السيدة.

- سأوضح، ولكن ليس قبل أن تضعي هذا القناع على وجهك يا سيدتي.

قالت جان هذا ثم قدمت الى الملكة قناعها، فترددت

الملكة في أخذه اعتقاداً منها بأنها محتجبة كفاية تحت قلنسوتها، فأكملت جان تقول :

- أرجوك، ليست هناك لحظة للضياع.

فقالت المرأة الثانية للملكة : خذيه، خذيه يا سيدتي.

عندئذ تناولت الملكة القناع ووضعته على وجهها بحكم العادة ومن دون تفكر. ولما تمَّ ذلك قالت جان :

- أما الآن، فتعالي، تعالي !

وجرّت السيدتين بقوة ولم تسمح لهما بالتوقف إلا عند مدخل الشارع الذي بلغته في عدة ثوانٍ.

وهناك أخذت الملكة نفساً وقالت : وأخيراً ؟

فسألتها جان : ألم يرَ جلالتك أحد ؟

- لا أعتقد.

- حسناً.

- ولكن هل ستوضحين لي أخيراً ...

فقاطعتها الكونتس بقولها :

- أرجو صاحبة الجلالة أن تؤمن بما قالته لها خادمتها الأمينة، وهي أنها كانت منذ هنيهة وما زالت، معرضة لخطر جسيم.

- وما هو نوع هذا الخطر الذي ما زال يلاحقني ؟

- سوف يكون لي الشرف بقول كل شيء لصاحبة الجلالة، اذا ما تنازلت جلالتها ومنحتي شرف مقابلتها لمدة ساعة في يوم من الأيام. أما الآن، فالبحث طويل وقد تلفتين الأنظار ويتعرف اليك المارة.

ولما لاحظت جان بأن الملكة أخذت تتبرّم، قالت لرفيقتها، أميرة لامبال:

- آه سيدتي، أرجوك أن تساعديني على إقناع الملكة بأن تذهب، وأن تذهب في هذه اللحظة بالذات.

فألقت الأميرة على الملكة نظرة توسل، قالت بعدها الملكة: لنذهب، طالما أنكما تريدان ذلك.

ثم استدارت نحو السيدة دي لاموت وأردفت تقول: ألم تطلبي مني مقابلة؟

- أني أتوق للحصول على شرف إطلاع صاحبة الجلالة على سيرة حياتي.

- حسناً، عليك أن تحملي هذه العلبة وتطلبي البواب لوران، فهو سيكون على علم بالأمر.

قالت الملكة هذا واستدارت نحو الشارع وصاحت بالألمانية: تعال الى هنا يا ويبار!

وللحال تقدمت من الملكة عربة فاخرة،فصعدت اليها هي والأميرة دي لامبال، ثم انطلقت بأقصى سرعتها.

وبعد أن شيّعت السيدة دي لاموت العربة حتى توارت عن الأنظار، قالت بصوت خافت جداً.

«إن ما عملته حتى الآن لا بأس به. أما الباقي ... فهو يستحق التفكير.»

الآنسة أوليفا

★

خلال هذا الوقت، كان الرجل الذي لفت الانظار الى الملكة في عيادة الدكتور ميسمار، وقد كان رجلاً نهم النظرات يرتدي ثوباً بالياً، يلامس كتف أحد الحضور ويقول له:

- إنه لموضوع شيّق بصفتك صحافي، أليس كذلك؟

فأجابه الصحافي: كيف ذلك؟

- أتريد موجزاً عن الموضوع؟

- بكل طيبة خاطر.

- حسناً، هاك الموجز: «إنه لمن الخطر أن يكون هناك بلد تحكم ملكَه ملكةٌ تهوى الاسترسال الى النوبات الهستيرية.»

فأخذ الصحافي يضحك، ثم قال: والباستيل؟

- ولا يهمك ! أليس هناك كلمات تستطيع التلاعب بها لتتجنب كل المراقبين الملكيين؟ إني أسألك ، هل باستطاعة مراقب أن يمنعك من قصّ حكاية الأمير « سيلو » والأميرة « أتانيوتنا » عاهلة النارفيك؟ ما قولك بذلك؟

فصاح الصحافي متحمساً: هذا صحيح ، إنها لفكرة مدهشة .

- وإني أرجو أن تؤمن بأن مقالاً يتوج بعنوان « نوبات الأميرة أتانيوتنا عند الفقير رمسام » سوف يحقق نجاحاً باهراً .

- إني أعتقد اعتقادك .

- إذهب إذن وحبّر لنا هذا المقال بقلمك السيّال .

فضغط الصحافي على يد الرجل المجهول وقال له : أتريد أن أبعث اليك ببعض النسخ؟ أنا على استعداد تام ، إذا شئت أن تفصح لي عن اسمك .

- طبعاً نعم ، فطالما أن الفكرة موفقة جداً ، وأنت ستقوم بتنفيذها ، فمما لا شك فيه أنها ستنجح مئة بالمئة . فكم اعتدتم أن تطبعوا من منشوراتكم الصغيرة التي تحمل الانتقاد العنيف والقدح والهجو؟

- ألفان .

- إذن ، سوف أطلب منك خدمة صغيرة .

- وأنا على استعداد لخدمتك بطيبة خاطر .

– خذ هذه الخمسين ليرة ذهبية ، واطبع عوضاً عن الألفين ستة الآف .

– كيف يا سيدي ! ولكنك غمرتني بفضلك ... فعرّفني على الأقل باسم أسخى نصير لرجال القلم .

– سوف أعرّفك بنفسي عندما أحضر الى مكتبك كي أشتري ألف نسخة وأدفع ثمن النسخة الواحدة ليرتين . فهل ستكون المنشورات جاهزة بعد ثمانية أيام ؟

– سوف أعمل ليلاً نهاراً يا سيدي .

– على أن يكون عملك مثيراً للضحك والسخرية .

– سوف أُبكي الباريسيين كلهم من شدة الضحك ، باستثناء شخص واحد .

– إن ذلك الشخص سيبكي دماً ، أليس كذلك ؟

– آه يا سيدي ! كم أنت ثاقب الفكر !

– وأنت يا لك من رجل طيب . بالمناسبة ، أرّخ المنشورات على أنها طبعت في لندن كي تتجنب الملاحقة .

– بالطبع ، هكذا اعتدت .

– وأنا دائماً خادمك يا سيدي .

وعند ذلك أطلق المجهول الضخم الجثة سراح الثائر التي امتلأت جيوبه بالخمسين ليرة ذهبية ، فمضى هذا مسرعاً بخفة طائر الشؤم .

وبقي المجهول جالساً وحده، أو بالأحرى من دون رفيق، فعاد ينظر الى المرأة الشابة في قاعة التشنج حيث حل الاختطاف محل الوهن المطلق، وحيث أخذت إحدى النسوة المخصصة بخدمة المتشنجات تخفض بعفَّةٍ التنانير المنحسرة بشكل مغاير للرصانة.

فلاحظ في جمال تلك المرأة أساريرها الشهوانية الناعمة، وتلك الكياسة الأثيلة في استسلامها المطمئن، فرجع الى الوراء وقال في نفسه:

«حقيقة، إن الشبه لمخيف! فالخالق الذي ابتدعها، قد توخّى أن تكون ملامح هذه، شبيهة بملامح تلك.»

وما أن انتهى من تكوين تلك الفكرة المهددة، حتى نهضت المرأة الشابة بهدوء من بين وسائدها، وبمساعدة جارٍ لها أفاق لتوّه من الاختطاف، نهضت وانهمكت بإعادة ترتيب زينتها التي قضي عليها كلياً.

وبعد ان احمرت قليلاً عندما لاحظت اهتمام الحضور بها، وأجابت بتهذيب مغناج على أسئلة ميسمار الوقورة والبشوشة في آنٍ معاً، مدَّدت ذراعيها وساقيها الجميلتين كما تفعل القطة عندما تصحو من النوم، ثم اجتازت القاعات الثلاث دون أن تفوتها أية شاردة أو واردة من نظرات الحضور

اليها ، وقد تفاوتت هذه النظرات بين السخرية والانشداه والاشتهاء .

لكن المفاجأة التي حملتها على الابتسام ، هي أنها بينما كانت تمرّ أمام جماعة يتهامسون في إحدى زوايا القاعة ، قوبلت ، عوضاً عن الغمزات وكلمات الغزل ، بانحناءات الرؤوس وتقديم الاحترامات بصورة لا يستطيع أي فرنسي من البطانة الملكية ان يتقن أفضل منها إذا ما شاء تقديم الاحترام الى ملكته .

والواقع أن هذه الجماعة التي تكلفت الاحترام المبالغ فيه ، قد استعجل في إعدادها ذلك المجهول الذي لا يملّ ولا يتعب ، واختبأ هو وراءها وأخذ يقول لأفرادها بصوت منخفض :

« لا تكترثوا لا تكترثوا أيها السادة ، فهي ليست أبداً ملكة فرنسا . حيُّوها ، حيّوها باحترام . »

واجتازت الشابة الجميلة التي قوبلت بمظاهر الاحترام هذه ، مع شيء من القلق ، المدخل الأخير ووصلت الى الباحة حيث أخذت تفتش بعينيها المتعبتين عن عربة أو محفة ، فلم تجد لا عربة ولا محفة . لكنها بعد حيرة لم تتعدَّ الدقيقة الواحدة ، اقترب منها خادم من خدم العائلات الغنية وقال لها :

– أتريدين عربتك يا سيدتي ؟

فأجابته المرأة الشابة : لا ، إني لا أملك عربة ؟

- وهل جاءت سيدتي بعربة ؟

- نعم .

- ومن شارع دوفين ؟

- نعم .

- إذن سأتولى أمر نقلك يا سيدتي .

فقالت المرأة الجميلة بعد تفكير قصير : حسناً ، انقلني .

وللحال ، وبعد إشارة من الخادم المذكور ، تقدمت عربة فخمة منهما ، فرفع الخادم موطئها وصاح بالحوذي بعد أن صعد هو والسيدة اليها : « الى شارع دوفين » . فانطلقت الجياد بسرعة حتى وصلت الى الجسر الجديد .

هناك ترجل الخادم بعد أن أرخى موطئ العربة ، ومدّ يده فتناول مفتاحاً عمومياً كان سكان باريس في ذلك الوقت يفتحون بواسطته بوابات منازلهم المتواضعة والتي ليس لها بوابون كما هي الحال في القصور .

إذن ، حرصاً من الخادم على أصابع السيدة الجميلة ، فتح لها البوابة ، ثم حيّاها وأغلق البوابة في اللحظة التي دخلت هي فيها الممرّ المظلم .

وبعد أن عادت العربة من حيث أتت ، صاحت المرأة الشابة قائلة :

– آه كم أنا تعبة ! لكنها كانت مغامرة لذيذة. فميسمار طبيب عظيم، ولقد كان شهماً وشريفاً.

وكانت، عندما قالت هذه الكلمات، قد وصلت الى سطح في الطابق الثاني يقود الى بابين إثنين. فما أن طرقت على أحدهما وأقبلت امرأة عجوز ففتحت لها، حتى بادرتها بقولها:

– مساء الخير يا أماه، هل العشاء حاضر؟

– نعم، ولقد برد أيضاً.

– وهو، هل حضر؟

– لا، لم يحضر بعد، ولكن السيد هنا.

– أي سيد تعنين؟

– السيد الذي أنت بحاجة لتكليمه هذا المساء.

– أنا!

– نعم، أنت.

هذه المحادثة جرت في فسحة غرفة الانتظار الصغيرة والمزججة، والتي تفصل سطح الدرج عن غرفة كبيرة تطل على الشارع. وكان القنديل الذي يضيء هذه الغرفة يُرى من خلال الزجاج، مما جعل المشهد مرضياً نوعاً ما. فستائر هذه الغرفة كانت من الحرير الأصفر وقد ابيضت مع الأيام وتخللتها خطوط داكنة. أما أثاثها فقد كان مؤلفاً من عدة

كراسٍ مكسوة بالمخمل الأخضر، وخزانة كبيرة ذات أدراج، وأريكة صفراء عتيقة.

إن المرأة الشابة لم تعرف الرجل الذي ينتظرها، لكن القراء يعرفونه جيداً. فهو نفس الرجل الذي أثار الفضوليين عند مرور الملكة المزعومة، أي الرجل الذي أعطى الصحافي خمسين ليرة ذهبية.

لقد فتحت المرأة الباب المزجج ودفعته بسرعة، فوجدت نفسها أمام الأريكة التي كان يجلس عليها مطمئناً رجل حسن المنظر بدين بعض الشيء. فحيّا هذه الرجل الفريد مضيفته بأن قام بنصف حركة ونصف انحناءة، وألقى عليها نظرة لطيفة فاتنة، ثم قال لها:

– أنا أعرف ما سوف تسألينني إياه. ولكن أرى من الأفضل أن أجيبك بسؤالي لك: هل أنت الآنسة أوليفا؟

– نعم يا سيدي.

– إنك امرأة عذبة وعصبية جداً وهائمة جداً بطريقة الدكتور ميسمار.

– إني عائدة لتوّي من عنده.

– عظيم! والآن، لا شك أن عينيك الجميلتين تسألانني عمّا لم أفصح عنه بعد، وهو لماذا أنا جالس على أريكتك. هذا ما تودين معرفته كما أعتقد، أليس كذلك؟

- لقد حزرت تماماً يا سيدي .

- هل تتكرمين علي بالجلوس ؟ إن بقيت واقفة سأضطر أنا الى النهوض ، وعند ذاك لن يكون بإمكاننا أن نتحدث ملياً .

فأجابته المرأة الشابة التي سنطلق عليها من الآن فصاعداً اسم الآنسة أوليفا :

- إنك ولا شك تتمتع بأساليب غير اعتيادية في الحديث مع النساء.

فأجابَ الرجل بعد أن جلست :

- آنستي ، لقد رأيتك منذ قليل عند الدكتور ميسمار ، فوجدتك كما كنت أتمناك .

- أرجوك سيدي !

- أوه ! لا تشهري السلاح يا آنستي ، فأنا لم أقل لك بأني وجدتك فاتنة . لا ، فهذه الكلمة هي بمثابة تصريح بالحب ، وأنا ليس الحب قصدي . أرجوك ، لا ترتدي الى الوراء ، وإلا ألزمتني على الصراخ كالأصمّ .

فسألته أوليفا ببساطة : ماذا تريد إذن ؟

فأكمل الرجل المجهول قوله :

- إني أعرف بأنك اعتدت على كلمات الإطراء ، الكلمات التي تمتدح جمالك ، وأنا أقدر هذا الجمال ، لكني جئت أقترح عليك اقتراحاً لا علاقة له بالجمال .

- فعلاً يا سيدي ، إنك تحدثني بترفُّع .

- إذن لا تقاطعيني قبل أن تستمعي إلي . هل هناك أحد مخبأ هنا ؟

- لا يا سيدي ، لا يوجد أحد ، فتكلم وأفصح عما تريد .

- إذن طالما أنه لا يوجد أحد ، يمكننا أن نتحدث من دون ازعاج ... ما رأيك بشراكة صغيرة بيننا ؟

- شراكة ... انت ترى جيداً ...

- إنك ما زلت تخلطين . أنا لم أقل لك علاقة ، بل قلت شراكة . لم أقل لك حباً ، بل قلت أعمالاً .

فسألته أوليفا وقد تحول فضولها الى دهشة شديدة :

- أي نوع من الأعمال ؟

- ماذا تعملين طوال يومك ؟

- لكن ...

- لا تخافي أبداً . فأنا لا أقصد ذمَّك وملامتك .

- إني لا أعمل شيئاً يذكر .

- إنك كسلانة ؟

- أوه !

- حسناً جداً .

- أوه ! وتقول حسناً جداً !

– بدون شك . فماذا يهمني أنا إن كنت كسلانة ؟ هل تحبين التنزه ؟

– كثيراً .

– وهل تسعين وراء التمثيليات والحفلات الراقصة .

– دائماً .

– أتحبين حياة الترف والتنعّم ؟

– بصورة خاصة .

– إذا أعطيتك خمساً وعشرين ليرة ذهبية في الشهر ، هل ترفضين ؟

– سيدي !

– ها إنك قد عدت تشكين يا آنستي العزيزة أوليفا . فلا داعي لأن تجفلي . فأنا قلت خمساً وعشرين ليرة ذهبية ، وكان عليّ أن أقول خمسين .

– أنا أفضل الخمسين على الخمس والعشرين ، ولكني أفضل على الخمسين ليرة ذهبية ، أن اختار عشاقي بنفسي .

– يا للشيطان ! لقد قلت لك منذ هنيهة بأني لا أريد أن أكون عشيقك . فسكنّي بالك من هذه الناحية .

– حسناً ، قل لي الآن ماذا يجب علي أن أفعل كي أربح الخمسين ليرة ذهبية ؟

– وهل قلنا خمسين ؟

– نعم .

– لتكن خمسين . عليك أن تستقبليني عندك ، وأن يكون وجهك باشاً بقدر الامكان ، وأن تساعديني ساعة أطلب مساعدتك ، وأن تنتظريني في المكان الذي أعيّنه لك .

– ولكن لي عشيق يا سيدي .

– أوه ! دائماً العشيق ؟

– ماذا تريدني أن أفعل ؟

– أريد ... أن تطرديه !

– يا إلهي ! وهل تعتقد أن طرد « بوزير » من الأمور الهينة ؟

– هل تريدين أن أساعدك على ذلك ؟

– لا ، إني أحبه ... ولكن قليلاً .

– بل كثيراً ...

– هذا هو الواقع .

– إذن احتفظي ببوزير .

– يا لك من رجل دمث الاخلاق يا سيدي .

– على شرط الانتقام . هل تناسبك هذه الشروط ؟

– إنها تناسبني إذا أوضحتها كاملة غير منقوصة .

– لقد قلت لك أيتها العزيزة كل ما يجب أن أقوله في الوقت الحاضر .

– كلام شرف ؟

– كلام شرف ! ولكن مع ذلك ، عليك أولاً أن تفهمي شيئاً ...

– ما هو هذا الشي ؟

– هو أني قد أضطرك بعض المرات ، لكي تتصرفي معي وكأنك عشيقتي .

– إذا كان التصرف ظاهرياً ، فلا مانع .

– نعم ظاهرياً ، واليك الشهر الاول مقدماً .

قال الرجل المجهول هذا وقدَّم الى الآنسة أوليفا كيساً يحتوي على خمسين ليرة ذهبية ، قدّمه من دون أن يلمس أطراف أصابعها . ولما تظاهرت بالتردد ، دسَّه في جيب فستانها من دون أن تمس يده أيضاً وركها المستدير والمتهزز كأنه ورك أبرع الراقصات الاسبانيات .

وما كادت الليرات الذهبية تلامس قعر جيبها ، حتى نُقر الباب الخارجي نقرتين خفيفتين ، حملتا أوليفا على القفز الى النافذة ، ثم صاحت :

– يا إلهي ؟ أهرب بسرعة ، إنه هو ...

– هو ، من ؟

– بوزير ... عشيقي ... عجّل يا سيدي ، عجّل !

– أوه ، لا بأس ، ليدخل !

- كيف لا بأس ! إنه سيقطّعك إرباً إرباً . ألا تسمع كيف يضرب ؟ لقد أوشك أن يخلع الباب .

- هاها ! افتحي له وإن كان الشيطان بنفسه !

ثم تمدد الرجل المجهول على الأريكة ، وقال بصوت جدّ منخفض : « يجب ان أرى هذا الشخص الحقير وأن أصفي الحساب معه » .

وتوالت الضربات على الباب وتعالى التجديف المخيف حتى بلغ مسامع الذين فوق الطابق الثاني . عندئذ قالت أوليفا وقد عصف بها الغضب :

- إذهبي يا أماه ، إذهبي وافتحي . أما أنت يا سيدي ، فخسارة إذا حصل لك مكروه .

فأجاب ذلك الرجل المجهول والثابت الجنان من دون أن يتحرك عن الأريكة : نعم ، كما قلت ، خسارة .

ووقفت أوليفا على سطح الدرج خافقة الفؤاد مرتجفة ، وصامتة صمت أهل القبور ...

السيد بوزير

★

وما أن فتح الباب ، حتى ارتمت أوليفا أمام رجل غاضب ، باسط اليدين ، أصفر الوجه ، وقد دخل الشقة مهدداً متوعداً كأنه أحد الغزاة الفاتحين ، ثم قالت له بصوت هادئ النبرة نسبياً في محاولة لاستعادة شجاعتها :

- رويدك يا بوزير ، رويدك .

فصاح بها بوزير : اتركيني !

وتخلَّص من بين يديها بشراسة وفظاظة وأكمل طريقه الى الداخل ، ثم وقف مرغياً مزبداً وصاح :

- هاها ! لأن لديك رجلاً لم تفتحي لي الباب ...

أما الرجل الذي نعرفه ، فقد بقي على الأريكة في وضع هادئ ومن دون حراك ... فاقترب بوزير حتى أصبح أمامه ، وقال له :

- يفترض فيك أن تجاوبني أيها السيد .

فأجابه الرجل المجهول بكل برودة :

- ماذا تريدني أن أقول لك أيها السيد العزيز بوزير ؟

- أولاً من أنت ؟ ثم ماذا جئت تفعل هنا ؟

– إن من تنظر اليه بعينين غاضبتين هكذا، هو رجل مطمئن جداً، وقد كان يتحدث مع السيدة بشرف وبما هو خير كله.

فرددت أوليفا من ورائه: نعم، بشرف وبما هو خير كله.

فصاح بها بوزير منذراً: حاولي أن تصمتي أنت.

فقال الرجل المجهول:

– لا تكن عنيفاً هكذا مع السيدة التي هي بريئة كل البراءة. أما إذا كانت أخلاقك سيئة...

– نعم، أخلاقي سيئة.

فقالت أوليفا بصوت مخنوق: يظهر أنه خسر في اللعب.

فصاح بوزير زاعقاً:

– نعم، خسرت كل ما لدي. الموت لكل الشياطين؟

فقال الرجل المجهول وهو يضحك:

– ولن يضيرك إن سطوت قليلاً على نقود أحد الأشخاص، فهذا ما تضمره أيها السيد العزيز بوزير.

– دعك من المزاح السمج أنت، واذهب من هذا المكان فوراً.

– أوه، خذني بحلمك يا سيد بوزير.

– لتمت كل شياطين جهنم! إنهض واذهب، وإلا سحقت هذه الأريكة وكل ما عليها.

فتلفّت الرجل المجهول الى الآنسة أوليفا وقال لها :

- لم تقولي لي يا آنسة بأن السيد بوزير تتوتر أعصابه هكذا في هلات القمر ...

فاستشاط بوزير غضباً وسحب سيفه وضرب به الهواء في حركة مسرحية بارعة ، ثم قال :

- إنهض وإلا سمّرتك على مؤخرة الأريكة .

فقال الرجل المجهول : في الحقيقة إنك شخص مخيف .

ثم تظاهر بالنهوض البطيء . وبيده اليسرى ، أخرج من الغمد السيف الصغير الذي كان قد وضعه على الأريكة خلفه بشكل أفقي . فما أن رأت أوليفا السيف في يده ، حتى أخذت تطلق الصرخات الحادة . فقال لها الرجل باطمئنان بعد أن أصبح السيف في قبضته ومن دون أن يتحرك من مكانه .

- اصمتي يا آنسة ، اصمتي ! اصمتي لأنك ستشوشين على السيد بوزير فأشكه بسيفي كما يشكون اللحم بالسفود .

فاستعاضت أوليفا عن الصراخ بالإيماءات والإشارات الأشد تعبيراً ، فكانت هذه المشاهد مضحكة حقاً . فمن جهة ، كان السيد بوزير ثملاً مكشوف الصدر ومرتعشاً من الهياج يسدد الضربات الى خصمه بلا نظام وبشكل عشوائي فلا يدركه ، ومن جهة ثانية ، كان الرجل الجالس على

الأريكة يبسط إحدى يديه على ركبته ويمسك السيف بالثانية ويدفع عنه الضربات باحتراز وبخفة ولباقة دون أن يهتز ، وفي الوقت نفسه يضحك بشكل يرعب أمهر الفرسان .

في هذه المبارزة الغريبة لم يحافظ سيف بوزير قط على خطه المستقيم ، بل كان دائماً يهتز ويرتج بفضل دفاع خصمه الذي كان يردّ الضربات ويخيّبها بفن وقوة .

أخيراً بدأ التعب يظهر على بوزير . لكنه عندما فكر بالإندحار ، عصف الغضب الشديد في رأسه واستجمع قواه المهزومة وانقضَّ على خصمه بضربة اعتبرها الفاصلة ، إلا أن خصمه تنبّه لها ، وبأسرع من لمح البصر ردّ ضربته بضربة مباشرة هائلة ، فطار السيف من يد بوزير وفرّ عبر الغرفة فخرق زجاج النافذة واختفى في الخارج .

فجمد بوزير مبهوتاً لا يدري إلى أية جهة عليه أن يتطلع... أما الرجل فقد قال له هازئاً :

– إحذر يا سيد بوزير من أن يكون سيفك قد وقع على حدّه ، لأنه إذا وقع هكذا على أحد المارة ، كان هناك قتيل ولا شك ...

فانتبه بوزير الى نفسه ، وأسرع الى الباب وهبط الدرجات بسرعة ليستدرك الشر الذي كاد يلحقه الشرطي بشخص مسكين ظنّ أن السيف يخصّه .

وفي هذه الأثناء أمسكت أوليفا بيد المنتصر وقالت له :

– آهٍ يا سيدي كم أنت باسل؟ ولكن بوزير رجل غادر، وأظنك فهمت بقية ما أقصده، فهو حتماً سيضربني عندما تذهب .

– إذن سأبقى .

– لا، لا، أتوسل إليك . فإذا ضربني سوف أضربه أنا أيضاً، وأنا دائماً أقوى منه . وبما أنه ليس لي مهرب من هذا المكان، فأرجوك أن تنسحب .

– ولكن انتبهي الى شيء مهمّ يا جميلتي، هو أني إذا انسحبت، سوف ألتقيه متربصاً بي على الدرج، وحتماً سنتقاتل، وإذا ما تقاتلنا على الدرج لن يكون بوسعي أن أعامله كما عاملته وأنا جالس على الأريكة .

– ماذا تقصد؟

– أقصد أني سأقتل السيد بوزير أو سيقتلني .

– يا إلهي! إنها ستكون فضيحة كبيرة .

– وأنا كي أتجنب الفضيحة، سأبقى .

– لا، أرجوك، اخرج واصعد الى الطابق العلوي وابق هناك الى ان يدخل . وحالما يدخل، ستسمعني أصفق الباب وأقفله بالمفتاح جيداً وأضع المفتاح في جيبي . وساعتذاك

يصبح هو أسيري وتخرج أنت بينما أكون أنا في عراك شجاع معه .

– يا لك من فتاة ساحرة ! الى اللقاء .

– الى اللقاء . ولكن ... متى ؟

– هذه الليلة ، إذا طاب لك .

– هذه الليلة ! هل أنت مجنون ؟

– نعم ، هذه الليلة . ألا يوجد حفلة راقصة في الاوبرا هذا المساء ؟

– ولكنه نصف الليل الآن .

– أعرف جيداً ، لا يهمّ .

– ونحن بحاجة الى « دومينو [1] »

– سوف يذهب بوزير ويجلب لنا ثوبين إذا أحسنت التغلب عليه .

فضحكت أوليفا وقالت : معك حق .

وضحك الرجل المجهول أيضاً وقال : وهذه عشر ليرات ذهبية ثمن الثوبين . فشيعته أوليفا الى سطح الدرج وهي تقول : شكراً ، الى اللقاء ، الى اللقاء ! وبعد أن ردّ عليها الرجل المجهول بقوله : الى اللقاء ! استدرك قائلاً :

---

١ – إن كلمة «دومينو» مصدرها انكلترا، وهي كناية عن توب تنكري.

- ولكن ماذا لو تغلب هو عليك؟ كيف يمكنك أن تعلميني؟

ففكرت أوليفا قليلاً وسألته: أليس لديك خدم؟

- لدي، وسأضع واحداً منهم تحت نافذتك.

- عظيم! وعلى هذا الخادم أن يبقى متطلعاً الى الهواء حتى يرى ورقة صغيرة تسقط على أنفه.

فأجابها الرجل المجهول: وهو كذلك.

وبعد أن صعد الى الطابق العلوي، أخذت أوليفا تصيح بأعلى صوتها: بوزير! بوزير!

وإذا ببوزير مقبل كالكلب الكَلِب وقد وضع السيف في غمده، فدفعته أوليفا الى غرفة الانتظار وأقفلت الباب بالمفتاح قفلتين إثنتين.

وما هي إلا لحظات حتى ترامى الى مسامع الرجل المجهول الصراخ من الاثنين. وقد تبين له من هذا الصراخ، بأن المرأة التي انذهلت عندما دخل عليها عشيقها في حضوره، تملك مقدرة على المقاومة لم يكن ينتظرها.

فلم يشأ أن يضيع الوقت سدى، بل أراد متابعة المشهد حتى النهاية. لذا هبط الدرج ودار حول زاوية شارع أنجو-دوفين الصغير ووصل الى حيث كانت عربته بانتظاره. فقال كلمة الى أحد رجاله، انفصل على أثرها هذا الرجل عن

رفاقه وذهب فقبع في الظلمة الكثيفة تحت قنطرة مواجهة لنوافذ الآنسة أوليفا ، وأخذ يراقب كل ما يجري داخل ذلك البيت الأثري القديم .

الذهب

★

أما الذي جرى بين الآنسة أوليفا وعشيقها ، فهو التالي :

في بادئ الأمر ، فوجئ بوزير برؤيته الآنسة أوليفا تقفل الباب بالقفل ، ثم فوجئ بصراخها العالي . وأخيراً فوجئ عندما دخل الغرفة ولم يجد خصمه فيها .

فأخذ يفتش عنه ويناديه مهدداً متوعداً وقد ظنّ نفسه أنه انتصر عليه ، الى أن أجبرته أوليفا على الكف عن البحث والإجابة عن أسئلتها .

وقد كان بوزير على شيء من العنف ، فارتفع صوته واشتدت لهجته . لكن أوليفا التي كانت تعرف حدود غضبه وأنه غير أهل لارتكاب جريمة ، صرخت به صوتاً فاق صراخه . وكي يسكتها ، همّ بكمّ فمها بيده .

لكن ظنه خاب . فأوليفا التي عرفت مسبقاً ما سوف يقدم عليه بوزير ، قبضت بإحدى يديها على اليد التي امتدت الى وجهها بحركة فيها من الخفة والرشاقة ما يعادل الخفة والرشاقة اللتين أظهرهما الرجل المجهول منذ هنيهة ، وصفعته باليد الثانية على خده .

فردّ لها بوزير الصفعة بصفعة مثلها جعلت خدها الأيسر يحمرّ ، وكانت هذه الصفعة بداية مشادة عنيفة بين الاثنين طرقت مسمعي الرجل المجهول وهو خارج من البناء . ولما تطورت المشادة ، قذفت أوليفا بوزير بإبريق خزفي ثقيل ، فردّ لها التحية بقذفه إياها بإناء حطّم ما اعترضه واستقرّ على كتف المرأة الشابة .

فثارت ثائرة أوليفا عند ذاك وقفزت على بوزير وأطبقت بيديها على تلابيبه وأخذت تشد ، فاضطر المسكين أن يتمسك بأي شيء كي يدافع عن حياته المهددة ، وكان هذا الشيء فستان اوليفا الذي تمزق شرّ تمزيق ، مما اضطرها الى ان تتركه وتدفعه عنها شراً لعارها فانقلب يتدحرج وسط الغرفة ، ثم وقف مرغياً مزبداً .

ولم يستطع بوزير الذي كان يكن لأوليفا احتراماً عميقاً ، إلا أن يكبر شجاعتها ويستأنف معها الحوار العنيف عوضاً عن العراك ، فقال لها :

– إنك مخلوق شرير هدم حياتي .

– أنت من هدم حياتي وجعلني صفر اليدين .

– أتقولين صفر اليدين وأنت لا تملكين شيئاً ؟

– بل قل لم أعد أملك شيئاً ، لأن ما كنت أملكه قد أنفقته أنت أيها المعدم على اللهو والشرب والمقامرة .

– أتعيِّرينني بفقري ؟

– إن آفتك هي سبب فقرك .

– إن كانت لي آفة ، فأنت كلك آفات .

فأمسكت لحظتذاك أوليفا ملقطاً ضخماً وأخذت تهزه بين يديها ، فارتعب بوزير وتراجع الى الوراء ، وقال :

– لم يعد ينقصك إلا أن تتخذي لك عشاقاً .

– وأنت ماذا تسمي كل هاتيك الشقيات اللواتي يجلسن حولك في المقامر حيث تقضي أيامك ولياليك ؟

– إني أقامر كي أعيش !

– يا لها من تجارة رابحة جعلتك تموت جوعاً .

– أما أنت ، فتجارتك جعلتك تبكين عندما تمزق فستانك ، لأنه ليس لديك نقود لشراء غيره .

فصاحت به أوليفا غاضبة : إنني على حال أفضل منك ، واليك البرهان !

قالت هذا ومدت يدها الى جيبها وأخرجت منه قبضة من الليرات الذهبية ورمتها في طول الغرفة وعرضها .

فعندما رأى بوزير الليرات الذهبية تتدحرج على الأرض ملتمعة فيختبئ بعضها تحت قطع الأثاث والبعض الآخر تحت الباب ويستقر البعض منها على البلاط ، فغر فاه وصاح مندهشاً :

- ليرات ذهبية ! ليرات ذهبية !

أما أوليفا ، فقد أخرجت من جيبها قبضة ثانية ورمت محتوياتها هذه المرة على فمه المفغور وعينيه المحملقتين ، فأغمض عينيه متألماً وركع وهو يفركهما بيديه وأخذ يلتقط الذهبيات ويقول :

- أوه أوه ! إن هذه الأوليفا غنية كما يظهر !

فنكعت أوليفا قفاه بباجوها وقالت له باحتقار : اليك ما جنته تجارتي .

وبينما كان بوزير يلتقط الذهبيات بفرح ويعد : خمس عشرة ... عشرون ... خمس وعشرون ... كانت أوليفا تراقبه وهي تبتسم بهزء وسخرية الى أن انتهى ، فقالت له :

- ردّ لي نقودي .

- ماذا تريدين عوضاً عنها .

- أريد الضِعف .

- حسناً ، سوف أذهب الى شارع بوسي وألعب بها وأعيد اليك ليس ضعفها ، بل خمسة أضعافها .

قال هذا ثم خطا خطوتين نحو الباب ، فأمسكته أوليفا بفلقة سترته البالية ، مما حمله على القول لها :

- اتركيني ، لقد تمزق ثوبي .

- من الأفضل أن يتمزق لتشتري لك ثوباً جديداً ، خذ !

- آه ! ست ذهبيات يا عزيزتي أوليفا ، ست ذهبيات ! من حسن الحظ أن اللاعبين في شارع « بوسّي » لا يكترثون كثيراً للمظهر الخارجي .

فأمسكت عندئذ أوليفا بفلقة سترته الثانية وشدت بها حتى انمزقت في يدها ، فصاح بوزير ساخطاً :

- الموت لكل الشياطين ! لقد عريتني أيتها الشقية ولم يعد باستطاعتي الخروج من هنا .

- بالعكس ، سوف تخرج للحال .

- وكيف تريدينني أن أخرج هكذا ، أللسخرية مني ؟

- سوف تلبس معطف الشتاء .

- ولكنه مثقوب ومرقّع .

- إذن لا تلبسه إذا كان لا يروق لك ، ولكنك ستخرج .

- لن أخرج أبداً .

فأطلعت أوليفا من جيبها ما بقي فيه من الليرات الذهبية، وكان عددها حوالى الأربعين، ودستها في يديه المضمومتين. فرقص بوزير المفلس فرحاً، وركع هذه المرة على قدميها وقال لها:

– مريني! مريني!

– عليك أن تذهب الى شارع السين حيث يبيعون «الدومينو» لحفلات الرقص المقنع في مخزن الكبوشي الساحر.

– حسناً، وبعد ذلك؟

– ثم تشتري لي ثوباً كاملاً من الساتان الابيض بما فيه القناع والجوارب، وتشتري لنفسك ثوباً أسود.

– أمراً وطاعة.

– ولا أعطيك اكثر من خمس وعشرين دقيقة للقيام بهذه المهمة.

– هل سنذهب الى الرقص؟

– نعم، الى الرقص.

– وهل سنتناول العشاء في «البوليفار»؟

– من دون شك، ولكن بشرط.

– ما هو هذا الشرط؟

– هو أن تكون مطيعاً.

– أوه ! إني دائماً مطيع ، دائماً .
– إذهب إذن ، وأرني همتك .
– سوف أذهب ركضاً .
– أسرع ولا تنسَ الوقت المحدد ... خمس وعشرون دقيقة فقط !

فخرج بوزير لتوّه مسرعاً وهو ممزق السترة وسيفه يتأرجح على جنبه بوقاحة ، بينما كانت قميصه المنتفخة تحت سترته شبيهة بالقمصان التي كانوا يلبسونها في عصر الملك لويس الثالث عشر .

وما أن وصل ذلك الرجل السافل الى أول شارع السين ، حتى أسرعت أوليفا وكتبت على قصاصة ورق هذه الكلمات المختصرة والمفيدة :

« السلام استتبّ ، والقسمة وقعت ، والرقص اعتمد . بعد ساعتين سنكون في الاوبرا ، وسيكون ثوبي المقنع أبيض ، وعلى كتفي الأيسر شريط من الحرير الأزرق . »

ثم لفّت الورقة حول كسرة من الابريق الخزفي ، وذهبت الى النافذة فأطلت برأسها ورمتها الى الشارع ، فتلقفها خادم الرجل المجهول الذي كان يرقبها في الظلمة .

وبعد برهة قليلة ، رجع بوزير بعد أن اشترى ثوبين من « الدومينو » بثماني عشرة ليرة ذهبية من مخزن الكبوشي

الساحر، ذلك المخزن الذي كان يزود الملكة وسيدات الشرف بما يحتجن اليه .

البيت الصغير

★

لقد تركنا السيدة دي لاموت تشيع الملكة بعد أن خرجت من عيادة الدكتور مسمار. ولقد بقيت تتابعها بعينيها حتى غابت عن الأنظار وحتى انقطع صوت عجلات العربة التي عادت بها الى قصر اللوفر.

بعد ذاك ، صعدت جان دي لاموت دي فالوا بدورها الى عربتها وعادت الى منزلها لتتفقده وتلبس ثوبها التنكري وتجلب قناعاً عوضاً عن القناع الذي تخلت عنه للملكة . وما أن وصلت الى البناية التي تقطنها ، حتى وجدت أحد خدم الكردينال دي روهان في انتظارها عند البواب ، وقد قدم لها بطاقة من نيافته جاء فيها ما يلي :

« سيدتي الكونتس ،

- إنك لم تنسي ولا شك بأنه لدينا أمور يجب أن نرسي

قواعدها سوية . قد تكون ذاكرتك ضعيفة ، أما أنا ، فلا أنسى أبداً ما يسرني .

« لي الشرف بأن أنتظرك حيث سيقودك حامل هذه البطاقة إذا شئت . »

وكان الصليب الراعوي يحل محل التوقيع على هذه العجالة .

فقابلت السيدة دي لاموت هذه الدعوة المفاجئة في بادئ الأمر ، بشيء من الحذر ، لكنها بعد تفكير قصير ، قررت قبولها وقالت لخادم الكردينال :

- إصعد الى جانب الحوذي ، أو اعطه العنوان .

فصعد الخادم الى جانب الحوذي وجلست هي في العربة . وما هي إلا عشر دقائق ، حتى كانت الكونتس في ضاحية سان انطوان ، وفي مكان تلفّه الأشجار الظليلة من كل جانب وتحجب عن الأنظار واحداً من تلك البيوت الجميلة المشادة في عصر لويس الخامس عشر ، مع الذوق الخارجي للقرن السادس عشر والفرش الأنيق والمريح الذي اتسم به القرن الثامن عشر ، فهمهمت قائلة في نفسها :

« أوه ! أوه ! إنه بيت صغير ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لأمير كبير ، ولكنه شي محقّر بالنسبة الى امرأة من آل فالوا . - أخيراً ! »

فكشفت هذه الكلمة «أخيراً»، التي فيها من الخضوع للأمر الواقع بقدر ما فيها من التأوه ونفاد الصبر، كشفت كل ما كان يكمن في نفسها من توق مفترس وطموح مجنون.

ولكن ما أن اجتازت عتبة المنزل، حتىٰ اشتدت عزيمتها واتخذت قرارها. فقد اخذ الخادم يطوف بها من غرفة الى غرفة، أي من مفاجأة الى مفاجأة، حتى وصل بها الى قاعة صغيرة للطعام لا تجارى في البهاء وحسن الذوق.

هناك وجدت الكردينال وحده بانتظارها.

وقد كان الكردينال يقلب اوراق كتيّب من تلك الكتب الصغيرة التي كانت تتضمن المقالات الانتقادية العنيفة والمحرضة على الانتفاض والثورة في ذلك العهد، والتي كانت توزع سراً. فعندما أطلت عليه الكونتس، وقف وقال:

- آه! أهذا أنت؟ إني أشكرك يا سيدتي الكونتس.

وتقدم منها كي يقبّل يدها، فتراجعت الكونتس ممتعضة وكأنها قد مُسّت في كبريائها، فأردف الكردينال يقول:

- يا للعجب! ما بالك يا سيدتي؟

- إنك لم تتعود أن ترى هكذا وجهاً، بين وجوه النساء اللواتي شرّفتهن نيافتك باستدعائهن الى هنا، أليس كذلك يا مولاي؟

- آه!.. سيدتي الكونتس!

فقالت الكونتس وهي تلقي نظرة احتقار حواليها :

- نحن في بيت صغير ، أليس كذلك يا مولاي ؟

- ولكن ، سيدتي ...

- كنت آمل من نيافتك يا مولاي ، أن تتنازل وتذكر محتدي . كنت آمل من نيافتك أن تتنازل وتذكر بأنه إذا كان الله قد جعلني فقيرة ، فهو قد ترك لي على الأقل ، اعتزاز وفخر المقام الرفيع .

فقال الكردينال :

- أعفنا من هذا أيتها الكونتس ، فأنا قد نظرت اليك كامرأة راجحة العقل .

- إن المرأة الراجحة العقل في نظر مولاي ، كما يبدو ، هي كل امرأة غير مبالية ، كل امرأة تضحك للجميع ، حتى للمتسربلين بالعار والشنار . إني استميح نيافتك عذراً وأقول ، بأني اعتدت أن أطلق على مثل هؤلاء النسوة إسماً يليق بهنّ .

- لا تقولي هذا القول أيتها الكونتس ، فأنت على ضلال . إن المرأة الراجحة العقل في نظري ، هي تلك التي تصغي عندما يحدثونها ، ولا تتكلم قبل أن تصغي للآخرين .

- إن كان هذا رأيك فعلا ، فأنا صاغية ، تكلم !

- لدي أشياء سرية أودّ أن أحدثك عنها .

- وقد جئت بي الى قاعة الطعام من أجل ذلك ؟

- نعم، وهل تكونين مكرمة أكثر فيما لو انتظرتك في بهو صغير؟

- إنه تكريم لطيف.

- هذا ما أعتقده أيتها الكونتس.

- وهكذا، أُصبح ملزمة أن أتعشى مع مولاي؟

- لا شيء غير هذا...

- وعلى نيافتك أن تقتنع بأني أشعر بهذا الشرف كما يجب أن أشعر.

- هل تهزئين أيتها الكونتس؟

- كلا، إني أضحك.

- تضحكين؟

- نعم، وهل تفضل أن أغضب؟ آه! إنك ذو طباع صعبة الفهم يا مولاي، كما يبدو لي.

- أوه! إنك عذبة عندما تضحكين، وأنا لا مطلب لي سوى أن أراك دائماً ضاحكة. ولكنك الآن لا تضحكين، فأنا أرى الغضب وراء شفتيك الجميلتين اللتين تنفرجان عن أسنان لؤلؤية.

- لا، أبداً يا مولاي. إن قاعة الطعام تجعلني أطمئن، وإني أرجو لك عشاءً هنيئاً.

- ترجين لي! وأنت؟

- أنا لست بجائعة .

- أتأبين مشاركتي العشاء يا سيدتي ؟

- ماذا تقول ؟

- هل تطردينني ؟

- إني لا أفهمك يا مولاي .

- أصغي إليّ أيتها الكونتس العزيزة .

- إني مصغية .

- لو كنت أقل حنقاً لقلت لك أشياء كثيرة ، لأنك لا تستطيعين حجب سحرك وفتنتك . ولكني أخاف أن يؤدي بي الاسترسال في المجاملة الى الطرد من قبلك .

- تخاف أن تطرد ! إني في الحقيقة يا مولاي ، أودّ أن اعتذر منك ، ولكنك رجل مبهم وغامض .

- مع أن ما يجري ، هو في غاية الوضوح .

- إذن أغفر عدم إدراكي .

- على هذا الأساس ، إني أصارحك بأنه يوم استقبلتني عندك ، وجدت أنك تعيشين في شقة لا تليق أبداً بمنزلتك وبالاسم الذي تحملينه ، وهذا ما جعلني اختصر زيارتي ، وبالتالي ما جعلك كالحة الوجه قليلاً . ولقد فكرت عندئذ أن أضعك في وسطك ، وأن أوفر لك العيش اللائق بمقامك ، أي

أن أطلق العصفور من القفص الذي حُبس فيه كي يعود الى الفضاء الوسيع.

فابتدأت الكونتس تعي ما يقصده وسألته بقلق: وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك أيتها الكونتس الجميلة، وكي يصبح بإمكانك أن تستقبليني بحرية، وكي من جهتي أنا، يصبح بإمكاني أن أزورك من دون أي حرج، ومن دون أن أسبب لك حرجاً أيضاً...

وهنا توقف الكردينال وصبّ نظراته على الكونتس، فسألته جان قائلة:

- هكذا إذن؟

- نعم هكذا، وإني أرجو أن تتنازلي وتقبلي هذا البيت الضيق. وأعتقد أنك فهمت أيتها الكونتس، فأنا لم أقل أبداً هذا البيت الصغير.

فصاحت الكونتس وقد أخذ قلبها يخفق بالكبرياء والطمع في آنٍ واحد:

- أقبل، أنا؟ أتهبني هذا البيت يا مولاي؟

- إنه شيء لا يذكر أيتها الكونتس، شيء قليل جداً. ولو لم أكن أخشى أن ترفضي، لوهبتك أكثر بكثير.

فقالت الكونتس :

- أوه ! لا أكثر ولا أقل يا مولاي .

- ماذا تقولين يا سيدتي ؟

- أقول إنه من غير الممكن أن أقبل هكذا هبة .

- من غير الممكن ! ولماذا ؟

- لأنه بكل بساطة ، من غير الممكن .

- أوه ! لا تتلفظي بهذا الكلام أمامي أيتها الكونتس .

- لماذا ؟

- لأني لا أريد أن أصدق بأنه صدر عنك .

- مولاي !...

- لقد أصبح البيت يخصك يا سيدتي ، وها هي المفاتيح هناك على الصحن العقيقي . إني أعاملك كغازية منتصرة ، فهل هناك مهانة في هكذا معاملة ؟

- أبداً ، ولكن ...

- أرجوك ، اقبلي .

- لقد قلت كلمتي يا مولاي .

- ولكن كيف قبلت يا سيدتي ، أن تكتبي الى الوزراء ملتمسة المعونة ، وكيف قبلت مئة ليرة ذهبية مزدوجة من سيدتين مجهولتين ؟

- إن هذا يختلف يا مولاي ، فالتي تقبل ...

فقاطعها الكردينال بنبل :

- التي تقبل تخضع أيتها الكونتس . وأنت رأيت بأني قد انتظرتك في قاعة طعامك الصغيرة ، ورفضت حتى أن أرى البهو والغرف ، ولكني أفترض وجودها في بيتك هذا .

- عفوك يا مولاي . فقد أجبرتني على أن أعترف بأنه لا يوجد رجل بلطفك وسلامة قلبك .

قالت الكونتس هذا القول وقد اطمأنت نفسها واحمرت فرحاً عندما فكرت بأنه سيصبح بإمكانها أن تقول : بيتي . ثم رأت نفسها تنقاد الى إشارة الكردينال وتقول بعفوية :

- مولاي ، إني أرجو نيافتك أن تقدم لي العشاء .

فنزع الكردينال عنه عباءته التي كان لم يزل يتسربل بها ، فظهر بثيابه المدنية الأنيقة وأخذ يقوم بمهمة رئيس الخدم على أفضل وجه .

وعندما دخل الخدم الذين كانوا في غرفة الانتظار ، وضعت جان قناعاً نصفياً على وجهها ، فقال لها الكردينال :

- هو أنا من يجب أن يتقنع لا أنت ، لأنك أنت في بيتك وبين خدمك ، ولأني أنا الغريب هاهنا !

فنزعت جان القناع عن وجهها وهي تضحك. ورغم البهجة والمفاجأة اللتين كادتا تخنقانها، فقد أكلت بشهية مما قُدِّم لها.

وكان الكردينال معها رجلاً واقعي التفكير وذا قلب كبير، كما عرف عنه. فخبرته الطويلة بالبلاطات الاوروبية الراقية التي كانت تحكمها ملكات، وبطبائع النساء اللواتي كنّ في ذلك العصر يعقدن المسائل السياسية أو يحللنها، إن خبرته هذه التي قلما نجدها في غيره من الرجال، قد جعلت من هذا الأمير رجلاً من الصعب جداً على أخصامه من رجال السياسة، وعلى عشيقاته من النساء، أن يكتشفوا مكنونات صدره.

وهكذا كان الكردينال يعتقد بأنه متفوق على جان. ولكن اعتقاده هذا المقرون بكبريائه، لم يستطع أن يخفي اشتهاءه لها. فجمال الكونتس الصاعق وخفة روحها كانا يغريان ليس فقط الرجال البسطاء، بل أيضاً أشدّ الرجال غطرسة وأكثرهم ترفعاً. وقد عرفت جان كيف تستغل اشتهاء الكردينال لها، فتصرفت معه بذكاء ذلَّل كبرياءه وأظهره بمظهر الضعيف لا القوي. ولما نفد صبره أخيراً، قال وهو يملأ للكونتس بالخمرة القبرصية كأساً بلورية صغيرة مطلية بالذهب:

- هيّا أيتها الكونتس، فطالما أنك قد وقعت عقداً معي، عليك أن لا تستائين مني.

- أستاء منك ! أوه ! كلا .

- إذن سوف تستقبلينني هنا بعض المرات دون اشمئزاز ونفور؟

- أنا لن أكون أبداً جاحدة يا مولاي كي أنسى بأنك أنت هنا في بيتك .

- في بيتي ؟ يا للحماقة !

- كلا ، كلا ، لست بحمقاء ، فأنت تماماً في بيتك .

- إياك ومعاكستي ، وإلا ...

- وإلا ماذا ؟

- وإلا فرضت عليك شروطاً أخرى .

- طالما أنك تحذرني ، فأنا أقول لك : خذ حذرك بدورك .

- من أي شي ؟

- من كل الأشياء . فأنا في بيتي ، وإذا وجدت شروطك غير محقة ، سوف أستدعي خدمي .

فأخذ الكردينال يضحك ، وتابعت الكونتس تقول :

- أرأيت أنك غير جاد ، وأنك تهزأ بي ؟!

- وما الدليل ؟

- إنك تضحك !..

- أضحك لأن الظرف مناسب .

– طبعاً مناسب ، لأنك تعرف جيداً بأن خدمي لن يحضروا إن استدعيتهم .

– أوه ! إذا حدث ذلك ، ليأخذني الشيطان ؟

– الشيطان !.. ولكنك تجدف يا مولاي .

– أنا هنا لست كردينالاً أيتها الكونتس . فأنا عندك ، أي في سعادة ما بعدها سعادة .

فاه بهذا الكلام وأخذ يضحك ، فقالت الكونتس في نفسها : « حقاً إنه رجل فريد .»

ثم سألها الكردينال وكأن فكرة مفاجئة قد طرأت على باله :

– بالمناسبة ، ماذا كنت قد قلت لي عن تلك السيدتين المحسنتين ، السيدتين الالمانيتين ؟

– السيدتان صاحبتا الصورة ؟

– نعم ، صاحبتا الصورة .

– أوه ! إنك تعرفهما جيداً يا مولاي ، إني أشارط بأنك تعرفهما أفضل مني .

– أنا ؟! أوه ! إنك على خطأ في اعتقادك أيتها الكونتس ، ألم تتظاهري بالشوق لمعرفتهما ؟

– بلى ، وهذا شيء طبيعي .

– إذن لو كنت أعرف هاتين المحسنتين، لما كتمت عنك إسميهما.

– سيدي الكردينال، لقد قلت بأنك تعرف هاتين السيدتين جيداً.

– كلا.

– إذا قلت كلا مرة ثانية، سأناديك بالكاذب؟

– وأنا سأنتقم لشرفي إذا ما أهنتني.

– بربك قل لي، كيف ستنتقم؟

– بتقبيل عينيك!..

– يبدو لي يا حضرة السفير لدى بلاط النمسا، ويا أيها الصديق الكبير للأمبراطورة ماري تيريز، بأنك عكس ما تتظاهر، تعرف جيداً صورة صديقتك.

– ماذا!.. صحيح أيتها الكونتس، إنها صورة ماري تيريز!

– وقد تجاهلتها أيها الدبلوماسي!

– لم أتجاهلها، ولكنها سقطت من بالي. على كلٍ، ماذا أستنتج من هذه الصورة؟

– إن الذي يعرف صورة ماري تيريز، يجب أن يعرف المرأة التي تحملها.

– ولماذا يجب عليّ أن أعرفها؟

– لأنه ليس مستغرباً أن تكون صورة الأم – أقول الأم وليس الأمبراطورة – بين يدي ...

– أكملي ؟

– بين يدي الإبنة .

فصاح لويس دي روهان بنبرة صادقة انخدعت لها جان : الملكة ! الملكة ! جلالتها جاءت الى عندك !

– يا للعجب ! وهل لم تعرف ذلك يا سيدي ؟

فأجاب الكردينال بلهجة اعتمد فيها البساطة التامة :

– كلا ، كلا ، فقد جرت العادة في هنغاريا ، بأن تنتقل صور الأمراء الحاكمين من عائلة الى عائلة . فالذي يكلمك مثلاً ، وهو ليس ابناً ولا ابنة ولا حتى قريباً لماري تيريز ، يملك مع ذلك صورة لها .

– تملك صورة لها يا مولاي ؟

فأجاب الكردينال ببرودة : وها هي .

ثم سحب من جيبه علبة تبغ وأراها الى جان ، وقال لها بعد أن أفحمها :

– وكما أملك أنا هذه الصورة ولا أحظى بشرف الانتماء الى العائلة الامبراطورية ، كما قلت ، قد يملك مثلها غيري وينساها عندك ، ولا يكون من العائلة النمساوية المالكة والجليلة القدر .

فخانت جان الدبلوماسية التي ولدت منها ، وصمتت ولم تحر جواباً ، فأكمل الأمير لويس قائلاً :

- إذن ، حسب رأيك ، هي الملكة ماري انطوانيت التي زارتك ؟

- الملكة مع سيدة أخرى .

- هل هي السيدة دي بولينياك ؟

- لا أعرف .

- السيدة دي لامبال ؟

- إنها امرأة شابة خارقة الجمال ورزينة جداً .

- قد تكون الآنسة دي تافرني ؟

- محتمل ، فأنا لا أعرفها .

- إذن ، إذا كانت جلالتها قد قامت بزيارتك ، فأنت بالتأكيد قد حظيت برعاية الملكة ، وبالتالي خطوت خطوة نحو الثروة.

- هذا ما أعتقده يا مولاي .

- استمحيك عذراً عن هذا السؤال : هل كانت جلالتها سخية نحوك ؟

- بالطبع ، فلقد أعطتني مئة قطعة ذهبية .

- ولكن جلالتها ليست غنية ، خصوصاً في هذه الأيام .

- وهل شهدت لك شهادة فيها منفعتك الخاصة ؟

- شهادة فيها من الشهامة ما يكفيني .

فقال الحبر وهو يفكر بصاحبة الرعاية الملكة ، لا بالمشمولة برعايتها :

- إذن كل شيء يسير على ما يرام ، ولم يبق ينقصك سوى عمل واحد .

- ما هو؟

- الدخول الى قصر فرساي .

فابتسمت الكونتس ، وأكمل الكردينال يقول :

- لا تستخفي بهذا الأمر ايتها الكونتس، ففيه تكمن الصعوبة الحقيقية .

فعادت الكونتس الى الابتسام من جديد ، لكن ابتسامتها هذه المرة كانت معبرة أكثر من الأول ، فابتسم الكردينال بدوره وقال :

- في الحقيقة ، أنت عكس أبناء الأقاليم . فبمجرد أنك رأيت قصر فرساي ببواباته المشبكة بالقضبان الحديدية وبسلالمه ، تصورت أن باستطاعة كل الناس ان يلجوا هذه البوابات وأن يصعدوا هذه السلالم . فهل رأيت كل الحيوانات التي يحتويها فرساي ، والمرمر والرصاص اللذين يزينان حدائقه وسطوحه أيتها الكونتس ؟

- كلا يا صاحب النيافة، فهلاّ ساعدتني على مشاهدة كل ما في فرساي من عجائب وغرائب؟

- سأحاول، ولكن ذلك سيجلب لي متاعب كثيرة. فقبل كل شيء، عليك أن لا تتلفظي باسمي، وإلا أصبح ذلك مستحيلاً بعد الزيارة الثانية.

فقالت الكونتس:

- من حسن الحظ، أنني أتمتع بحماية الملكة المباشرة. لذلك، إذا دخلت فرساي، سوف أدخله بالمفتاح الصالح.

- أي مفتاح أيتها الكونتس؟

- آه! إنه سريّ سيدي الكردينال ... ولكن لا، فأنا لا أقول الحقيقة، إذ لو كان سرياً لأطلعتك عليه، لأني لا أريد أن يبقى هناك سرّ بيني وبين الشخص الأحب إليَّ الذي تعهد حمايتي والدفاع عني.

- إذن، صارحيني القول.

- الحقيقة أنني غداً سأذهب الى قصر فرساي، وكلي أمل بأني سأستقبل فيه خير استقبال.

فأخذ الكردينال يتأمل تلك المرأة الشابة، ثم ضحك وقال لها:

- سنرى أيتها الكونتس، إذا كنت ستدخلين فرساي.

- أنا لا أكذب إطلاقاً.

– وأنا منذ الغد، سأبدأ بالتصريح عن الشرف التليد الذي سينالك من دخول فرساي.

– نعم يا مولاي، وسيكون ذلك في الشقق الدافئة التي ترتادها.

– أؤكد لك أيتها الكونتس، أنك لغز حيّ بالنسبة لي!

– كواحد من تلك الحيوانات التي تحتويها حدائق فرساي؟

– أوه! أنت تعتبرينني رجل ذوق، أليس كذلك؟

– بدون شك يا مولاي.

فانحنى الكردينال وأمسك بيدها وقبلها بحرارة ثم قال لها:

– إذن لا يمكنك أن تقولي بأن شفتيّ قد لامست مخلباً وبأن يدي قد قبضت على ذنب سمكة ذات أسفاط.

فقالت جان ببرودة:

– إني أتوسل اليك يا مولاي أن تتذكر بأني لست عاملة مغناج ولا ابنة من بنات الاوبرا، وهذا يعني أنني سيدة نفسي، وأني يوم يصبح زوجي في نظري مثل أي رجل في المملكة، سوف اختار تلقائياً وبحرية تامة وساعة يطيب لي، الرجل الذي يروق لي. لذلك عليك أن تحترمني يا مولاي،

وإذا ما احترمتني تكون قد احترمت كرم الأصل الذي ننتسب اليه نحن الإثنين.

فانتفض الكردينال وقال:

- إيه، هل تريدين أن أحبك حباً أفلاطونياً؟

- أنا لا أقول هذا يا سيدي الكردينال. ولكن أريد أن أحبك أنا أيضاً. فصدقني بأنه عندما يحين الوقت، إذا حان، سوف تكتشف بكل سهولة هذا الحب. فأنا واثقة من شبابي، ولن أتهيب التمهيد لأكون مقبولة من رجل نبيل مثلك.

- إذا كان الأمر يتعلق بي دون سواي، فإني أؤكد لك أيتها الكونتس، بأنك سوف تحبينني.

- سنرى.

- وبانتظار الفوز بحبك، هل يمكنني الاعتماد على صداقتك؟

- إن بيننا أكثر من صداقة.

- أحقاً ما تقولين؟ إذن نحن في منتصف الطريق.

- وعلينا أن نجتاز هذا الطريق بسرعة.

فتنهد الكردينال وقال:

- يا لك من امرأة معبودة أيتها الكونتس، دعيني أقيم لك هيكلاً في قلبي.

- سوف أدعك بعد أن تبتسم لي الثروة كفاية، وذلك كي أعفيك من التذلل لي ومن تقبيل يدي قبل الأوان.

- كيف؟

- نعم، عندما أصبح بغنى عن إحسانك، ينتفي ظنك بأني أسعى وراء زياراتك لمنفعة ما. وبالتالي يرتفع شأن نظراتك إليّ، فأكون أنا رابحة يا مولاي، ولا تكون أنت خاسراً.

قالت الكونتس هذا القول بكل هدوء ورزانة، ثم وقفت كي تعزز معنوياتها، فقال الكردينال:

- إذن أنت تلقين بي في سجن المستحيلات؟

- كيف ذلك؟

- إنك تمنعينني من مغازلتك.

- لا ... أبداً. ألا يوجد وسيلة لمغازلة المرأة، سوى السجود والشعوذة؟

- لنتكلم بصراحة أيتها الكونتس، ماذا ستهبيني؟

- كل ما هو غير مغاير لرغباتي وواجباتي.

- أوه! أوه! إنك تضعين أصعب شرطين في العالم.

- لقد قاطعتني قبل أن أنهي كلامي يا مولاي، إذ لدي شرط ثالث.

- شرط ثالث أيضاً!.. ما هو؟

- هو أهوائي !

- لقد أفقدتني صوابي ...

- هل تريد نقض الإتفاق ؟

ففكر الكردينال ملياً ، وأجاب بعد أن انتصرت فتنة جان على سلامة تفكيره :

- لا ، لن أنقض الاتفاق .

- ولا حتى أمام واجباتي ؟

- ولا حتى أمام رغباتك وأهوائك .

- ما هو برهانك ؟

- هو أن تأمري فأطيع .

- أريد الذهاب هذا المساء الى مرقص الأوبرا .

- إن الأمر يعنيك أيتها الكونتس . فأنت حرة كما الهواء ، وإني لا أرى سبباً يمنعك من الذهاب الى مرقص الأوبرا .

- ولكن هذه نصف رغبتي . أما النصف الثاني ، فهو أن تأتي أنت أيضاً الى الاوبرا .

- أنا الى الاوبرا !.. أوه كونتس !

وقام الكردينال بحركة مسرحية اعتاد القيام بها في مثل هذه المواقف ، فقالت له الكونتس :

- إذن أنت لا تريد مرضاتي ومسرتي ؟

– ولكني كردينال أيتها الكونتس ، والكردينال لا يذهب الى مرقص الأوبرا . فهذا الاقتراح كما لو أقترح عليك أنا الدخول الى محششة ...

– تريد القول إن الكردينال لا يرقص أبداً ؟

– أبداً ...

– إذن لماذا رقص الكردينال دي ريشيليو « الساراباند [1] » ، كما قرأت ؟

– هذا صحيح . ولكنه رقص أمام الملكة آنّ دوتريش .

فأجابته الكونتس بعتب ظاهر : وأنت أيضاً قد ترقص امام ملكة ...

فوقع الأمير روهان في حيرة وارتباك ، ولم يستطع ، رغم مهارته وقوة إرادته ، أن يخفي الاحمرار الذي صبغ وجهه . ولما رأته تلك المخلوقة الماكرة على هذه الحالة ، شاءت ان تنقذه من حيرته وارتباكه ، فأردفت قائلة :

– كيف لا تريدني أن أغتاظ عندما أرى بأنك تقدرني أقل من ملكة ، وعندما تفشّلني في أول طلب أطلبه منك وفيه ما يفرح قلبي ويبهج نفسي ، مع أني لا أريدك أن تذهب معي الى الأوبرا إلا مقنعاً ؟

---

١ – الساراباند رقصة خاصة بنبلاء ذلك العصر.

فطابت نفس الكردينال لتخلصه من المأزق الذي وجد نفسه فيه ولشعوره بانتصاره على الكونتس، فارتمى على يدها وقبّلها بحرارة وقال لها:

- كرمى لعينك، أنا على استعداد لعمل المستحيل.

فأجابته الكونتس:

- شكراً لك يا مولاي، فإن الرجل الذي يقوم بهكذا تضحية من أجلي، إنما هو صديق لا يقدر بثمن. لذا سأعفيك من طلبي بعد أن أظهرت استعدادك لتنفيذه.

- لا أبداً، لا أبداً، فتحقيق رغبتك وحدها، باستطاعتها أن تشفع بي تجاهك. سوف أتبعك أيتها الكونتس، ولكن بالثياب التنكرية.

- حسناً، سوف نمرّ في شارع سان دينيس المجاور للأوبرا، حيث سأدخل أنا مقنّعة أحد المخازن وأشتري لك « دومينو » وقناعاً، فتلبسهما في العربة.

- وسيكون ثوباً تنكرياً رائعاً، أليس كذلك أيتها الكونتس؟

- أوه سيدي، إنك على قدر من الطيبة أخجلني ... ولكني أعتقد بأنه ربما كان هناك في قصرك الفخيم، « دومينو » يتلاءم مع ذوق سيادتك اكثر من « الدومينو » الذي سوف نشتريه.

- إن في كلامك أيتها الكونتس، خبثاً لا يمكن الصفح عنه. فأنا كي أذهب الى مرقص الأوبرا، عليك الموافقة على شيء...

- ما هو هذا الشيء يا مولاي؟

- هو أنك ستتعشين، وجهاً لوجه، مع رجل غير زوجك، وسيكون هذا العشاء مفاجأة سارة لي...

فلم تجد الكونتس ما تجاوب به، واكتفت من الجواب بالشكر.

وللحال، تقدمت من بوابة ذلك المنزل الصغير عربة خالية من أشعرة الشرف، فصعد اليها الكردينال والكونتس وسارت بهما في طريق البوليفارات.

في مرقص الاوبرا

★

كان الرقص في الأوبرا قد بلغ ذروته عندما اندسَّ خلسة بين الراقصين والراقصات لويس دي روهان والسيدة دي لاموت، وغدا الحبر واحداً من الالوف الذين يلبسون «الدومينو» والأقنعة من كل الأجناس، وما عتَّم الأمر حتى اختلط هو ورفيقته بين الجموع واختفيا كما تختفي عن أعين

المتنزهين على الشاطئ تموجات المياه الصغيرة عندما تتحطم على الصخور بفضل اندفاع التيّار.

وكان هناك بين الجموع الصاخبة والمنتشية إثنان من لابسي «الدومينو» يدفعان الحضور عنهما ويلازمان بعضهما البعض بقدر ما يسمح ذلك الحشد. ولما أعيتهما عملية الدفع لجآ الى تحت مقصورة الملكة حيث كانت الجموع أقلّ صخباً واندفاعاً، ووقفا مسندين ظهريهما الى الحائط.

وكان أحد الإثنين يلبس «دومينو» أسود والآخر دومينو أبيض، أحدهما طويل القامة والآخر متوسط القامة، وهذا ما يدل على أنهما رجل وامرأة. وقد دار بين الاثنين حديث مشبع بالحيوية والحركات التعبيرية، بدأه الشخص الطويل بقوله:

– أنا واثق يا أوليفا بأنك تنتظرين شخصاً ما. فعنقك غدا كدوّارة الهواء التي لا تدور جهة الريح فحسب، بل أيضاً جهة كل آتٍ.

–حسناً، وماذا بعد ذلك؟

– تقولين ماذا بعد ذلك؟

– نعم، ما الذي يزعجك في دوران رأسي؟ ألست أنا هنا من أجل ذلك؟

– بلى، ولكن إذا أدرته للآخرين...

– غريب أمرك يا سيدي! لماذا جئنا إذن الى الأوبرا؟

– جئنا لأجل ألف سبب.

– أوه! إن الرجال يأتون لألف سبب، أما النساء فيأتون لسبب واحد لا غير.

– ما هو هذا السبب؟

– هو أن يدرن رؤوسهن قدر المستطاع. فعليك أن تخضع لهذه الحقيقة طالما أنك أنت قد جئت بي الى مرقص الأوبرا.

فصاح الرجل بانفعال: آنسة أوليفا!

– أوه! لا ترفع صوتك. فأنت تعلم بأن الصوت المرتفع لا يخيفني. ثم إياك أن تناديني باسمي. فأنت تعلم بأن مناداة الناس بأسمائهم في مرقص الأوبرا دليل انعدام الذوق.

فبدت من صاحب «الدومينو» الأسود حركة دلت على سخطه، ولكن هذا السخط لم يعبر عنه بالكلام نظراً لقدوم شخص يلبس «دومينو» أزرق. وقد كان القادم شخصاً بديناً طويل القامة جميل الشكل، وصل وبادر صاحب «الدومينو» الأسود بقوله:

– هدّئ من روعك أيها السيد ودع السيدة تلهو على هواها، فليس كل يوم منتصف الصوم، وحتى في مثل هذه المناسبة قلما يفتح مرقص الأوبرا أمام السيدات.

فأجابه صاحب «الدومينو» الأسود بفظاظة وشراسة:

- عليك ألا تتدخل يا هذا بما لا يعنيك.

فقال صاحب الدومينو الأزرق ببرودة:

- من الجميل أن تتذكر يا سيدي، بأن الكلام اللطيف لا يكلفك شيئاً.

فردّ صاحب «الدومينو» الأسود بقوله:

- إني لا أعرفك يا هذا، فلماذا تضايقني وتزعجني هكذا؟

- قد تكون أنت لا تعرفني، أما...

- أما ماذا؟

- أما أنا فإني أعرفك جيداً أيها السيد بوزير.

فعندما سمع صاحب «الدومينو» الأسود مخاطبه يسميه باسمه، ارتعش واضطرب، إذ شعر بحراجة موقفه، فبادره صاحب «الدومينو» الأزرق بقوله:

- لماذا هذا الاضطراب أيها السيد بوزير؟ فأنا لست الشخص الذي تفكر به.

- ولكن بمن تعتقدني أفكر؟ هل أنت تعلم بالغيب وتدعي قراءة الأفكار أيضاً؟

- ولماذا لا؟

– إذن إحزر ما الذي أفكر به . أنا لم أرَ قط ساحراً ، وفي الحقيقة ، يسرني أن ألتقي واحداً من هؤلاء السحرة .

– أوه ! إن ما تطلبه مني ليس صعباً كفاية كي استحق هذا اللقب الذي يبدو أنك تمنحه بسهولة .

– على كلٍ ، تكلم !

– وهل تصرّ على طلبك ؟

– نعم .

– حسناً ، لقد اعتقدت بأني عميل السيد دي كروسن .

– السيد دي كروسن ؟

– نعم ، وأنت لا تعرف سواه ، السيد دي كروسن ، ضابط البوليس .

– أيها السيد ...

– مهلاً يا سيد بوزير ، فالسيف الذي تفتقده في جنبك قد تركته في منزلك ، وحسناً فعلت . أما الآن ، فلنتكلم بأمور أخرى . هل تسمح لي بمخاصرة السيدة ؟...

– مخاصرة السيدة ؟!

– نعم مخاصرة السيدة . وهذا الطلب ليس غريباً في حفلة راقصة تقام في الأوبرا .

– ليس بالغريب اذا وافق المراقص .

- ولكن بعض المرات ايها العزيز بوزير، يكفي أن توافق السيدة.

- وهل تريد مخاصرتها لمدة طويلة؟

- أفٍ كم أنت فضوليّ أيها السيد بوزير! قد يكون ذلك لمدة عشر دقائق، وقد يكون لمدة ساعة، وقد يكون طوال الليل.

- إذهب عني ايها السيد، يبدو أنك تمزح معي.

- سيدي العزيز، جاوب بنعم، أو لا، هل تريد أن تتخلى لي عن ذراع السيدة؟

- لا.

- دعك من الخبث والمخابثة.

- لماذا تكلمني بهذا الكلام؟

- لأنك تملك قناعاً، ومن غير المفيد أن تتخذ لك قناعاً آخر.

- ما هذا القول الذي تقوله أيها السيد!

- أرأيت كيف استشطت غضباً، وقد كنت منذ ساعة هيّناً ليّناً؟

- أين كنت هكذا؟

- في شارع دوفين.

فصاح بوزير مندهشاً: شارع دوفين!

وأغربت أوليفا في الضحك ، فانتهرها بقوله : اصمتي ايتها السيدة ! واستدار نحو « الدومينو » الأزرق وقال له :

– إني لم أفهم شيئاً مما قلت أيها السيد . فأفصح لي عما تقصد بصدق وأمانة إذا كان ذلك ممكناً .

– ليس هناك ما هو أصدق وأكثر أمانة من الحقيقة أيها السيد ، أليس كذلك أيتها الآنسة أوليفا ؟

فتظاهرت الآنسة أوليفا بالتعجب وسألته : وهل تعرفني أنا أيضاً ؟

– ألم يتلفظ باسمك السيد منذ بعض الوقت ، وبصوت مرتفع ؟

فعاد بوزير الى الحديث ، وسأله : والحقيقة ، ما هي ...

– الحقيقة أنه في اللحظة التي كنت تهمّ فيها بقتل هذه السيدة المسكينة ، أي منذ ساعة ، في تلك اللحظة أوقفتك عن قتلها رنة عشرين ليرة ذهبية ...

– كفى ايها السيد ، كفى .

– ليكن ما تريد . أعطني ذراع السيدة إذن ، طالما أنك قد اكتفيت .

– أوه ! إني أرى جيداً ، أن السيدة وأنت ...

– ماذا أنا والسيدة ؟

– متفاهمان ومتفقان على اللقاء .

- أقسم لك أن لا ، وإذا ما اتفقنا ، فسيكون ذلك لخيرك .

- لخيري أنا ؟

- بدون شك.

- فقال بوزير : عندما يكون في نية المرء عمل الخير ، فيجب أن يقدم البرهان على ذلك .

- بكل طيبة خاطر . فالبرهان هو أن وجودك هنا مضرٌ بك ، بينما غيابك مفيد لك .

- مفيد لي ؟

- نعم ، لك .

- أرجوك ، ما هو نوع هذه الافادة ؟

- نحن عضوان في أكاديمية واحدة ، أليس كذلك ؟

فارتسم الغضب على وجه بوزير وصاح : أنا وأنت ؟!

- لا تغضب أيها العزيز بوزير ، فأنا لا أتكلم على الأكاديمية الفرنسية .

فدمدم مراقص أوليفا : أكاديمية ... أكاديمية ...

- في شارع « بو دي فير » ، وفي الطابق الذي يسبق الطابق الأرضي . هل أنا مخطئ ايها السيد العزيز بوزير ؟

- اصمت !

- يا للعجب !

– نعم، اصمت! أوه! يا لك من رجل بغيض أيها السيد.

– يجب أن لا تقول هذا القول.

– لماذا؟

– لأني أقسم لك بأنك لا تستطيع أن تصدق كلمة منه. لنرجع إذن الى هذه الأكاديمية.

– أما زلت تقول الأكاديمية؟

فسحب «الدومينو» الأزرق ساعته، وكانت ساعة جميلة وغنية بالأحجار الكريمة، فثبّت عليها بوزير بؤبؤي عينيه وبدرت منه صيحة أعجاب، فقال له صاحب «الدومينو» الأزرق:

– بعد ربع ساعة، وفي اكاديميتك الواقعة في شارع «بو دي فير» أيها السيد العزيز بوزير، سوف نناقش مشروعاً صغيراً قد يدرّ مليونين من الليرات على إثني عشر شريكاً حقيقياً، ستكون أنت واحداً منهم أيها السيد بوزير.

– وحتماً ستكون أنت أيضاً أحد الشركاء، إذا ما كنت...

– أكمل.

– إذا ما كنت أحد رجال المباحث.

- في الواقع، كنت أعتقدك رجلاً عاقلاً أيها السيد بوزير، ولكن تبين لي ويا للأسف، بأنك لست سوى أحمق. فأنا لو كنت من رجال المباحث، لكنت حتى الآن قد قبضت عليك عوض المرة الواحدة عشرين مرة، في أمور أقل أهمية وشأناً من مشروع المليوني ليرة الذي سننظر في أمره ونناقشه في الأكاديمية بعد دقائق معدودات.

ففكر بوزير قليلاً، وقال:

- يا للشيطان! أتريد إرسالي الى شارع «بو دي فير» كي تقبض علي! ولكني لست مجنوناً.

- ألا تريد التخلي عن حماقاتك؟

- حماقاتي!..

- بدون شك. فلو كانت لي السلطة لأن أفعل ما قلته، ولو كان باستطاعتي أن أعلم ما يحاك في أكاديميتك، لما جئت أطلب أذنك للحصول على السيدة. بل لكنت، والحالة هذه، أوقفتك فوراً، وتخلصنا منك نحن الاثنين: أنا والسيدة. ولكن تراني بالعكس، أتصرف معك بكل لطف وكياسة وإقناع أيها السيد بوزير، لأن هذه هي طريقتي الفضلى في الحياة.

عند ذاك ترك بوزير ذراع أوليفا وسأله: ألست أنت الذي كنت على أريكة السيدة منذ ساعتين؟ ها! أجب.

فسأله صاحب «الدومينو» الأزرق بدوره: أية أريكة هذه؟

وتابع يقول بعد أن قرصت أوليفا بنصره قرصة خفيفة: إني، في الواقع، لا أعرف أريكة سوى أريكة غرابيون الابن [1].

فأجاب بوزير:

- إن الأمر سيان عندي، وحججك الجميلة هي كل ما يهمني. أقول حججك الجميلة، وكان علي أن أقول الممتازة. فخذ ذراع السيدة وتصرف معها كرجل ظريف يتقن مغازلة النساء.

فأغرب صاحب «الدومينو» الأزرق في الضحك، إذ أعجبه لقب «الرجل الظريف» الذي أنعم به عليه بوزير بملء الحرية، ثم ربّت على كتفه وقال له:

- نم مطمئن البال، وإذا ما رأيتك هناك، سوف أقدم لك هدية لا تقل عن مئة الف ليرة. لأنك إن لم تذهب الى الأكاديمية هذا المساء، حسب ما اعتاد عليه شركاؤك، ستخسر حصتك، بينما إذا ذهبت...

---

١ - غرابيون الابن من كبار الكتاب اللغويين في القرن التاسع عشر، ومن مؤلفاته الشهيرة رواية شرقية بعنوان «الأريكة».

فغمغم بوزير : حسناً ، سوف أذهب ، ولن أدع هذه الثروة تفوتني .

ثم حيّا أوليفا وفارسها الجديد وانصرف بعد ان استدار دورة كاملة على قدم واحدة .

وبعد أن تأبط صاحب « الدومينو » الأزرق ذراع الآنسة أوليفا وخلا لهما الجو ، قالت هذه الأخيرة :

– أما وقد تركتك تتلاعب بهذا المسكين بوزير على هواك ، فإني أحذرك ، بعد أن أصبحنا وحيدين ، بأني سوف أكون صعبة الانقياد اكثر منه ، أنا التي تعرفك جيداً ، لذا عليك ان تبحث لي عن الأشياء الجميلة ، وإلا ...

فقال صاحب « الدومينو » الأزرق بعد أن ضغط بلذة على الذراع المستديرة لتلك المرأة الصغيرة :

– إني لا أعرف ما هو أجمل من قصتك أيتها الآنسة نيكول .

فأطلقت تلك المرأة الصغيرة صرخة مخنوقة عند سماعها هذا الاسم يهمس به الرجل المقنع في أذنها . لكنها عادت فتمالكت نفسها وتظاهرت كأنها لم تفاجأ به إطلاقاً ، وقالت :

– الله !... ما هذا الاسم نيكول ؟ وهل هو يعنيني حتى تفاجئني به ؟ إنني أُدعى أوليفا ولا شيء سوى ذلك .

– إني أعرف جيداً. فأنت الآن تدعين أوليفا. ولكنك امرأة ذات اسمين: أوليفا ونيكول. وسوف نتكلم فيما بعد على أوليفا، أما الآن، فلنتكلم على نيكول. فهل نسيت الزمن الذي كنت تردين فيه على هذا الاسم؟ إني لا أعتقد ذلك، فالاسم الذي يطلق على فتاة وهي في ربيع العمر، هو الاسم الذي تحتفظ به، إن لم يكن ظاهرياً، ففي أعماق قلبها، مهما كان الاسم الذي يجبرونها على اتخاذه جميلاً كي تنسى اسمها الأول. أليس كذلك أيتها المسكينة أوليفا، بل أيتها السعيدة نيكول؟

عند ذاك أقبل نحو المتنزهين المتخاصرين جمهور من المقنعين، مما اضطر نيكول، أو أوليفا، وقد يكون رغماً عنها، الى أن تلتصق أكثر فأكثر بالرجل الذي يطوق خصرها، فقال لها:

– انظري، انظري الى هذا الخليط العجيب من الناس الموزع اثنين اثنين كي يتهامسوا كلمات الغزل والحب. إن كل هؤلاء يحملون مثلك أكثر من اسم واحد، وبينهم الكثيرون الذين سوف تعتريهم الدهشة فيما لو سميتهم بالأسماء التي يتذكرونها ويعتقدون بأن الناس قد نسوها.

– لقد قلت: المسكينة أوليفا!..

– نعم.

- ألا تعتقد بأني سعيدة إذن؟
- من الصعب أن تكوني سعيدة مع رجل مثل بوزير.
فهدت أوليفا وأجابت: لن أكون له بعد الآن!
- ومع ذلك، فأنت ما زلت تحبينه؟
- إن العقل يفرض عليّ ذلك!
- إن العقل يفرض عليك أن تتركيه، إذا كنت لا تحبينه.
- لا.
- كيف لا؟
- لأني ما من مرة تخليت عنه، إلا وندمت.
- ندمت؟! وعلى أي شيء تندمين في رجل سكير ومقامر، في رجل يضربك، في رجل نصّاب سيأتي يومٌ يلقى فيه حتفه تحت إحدى العجلات؟
- ربما أنك لم تفهم قصدي.
- أوضحي إذن.
- إن ندمي هو بسبب الضجة التي كان يثيرها حولي.
- كان علي أن أحزر. فشتان بين من تعاشرين وبين من أمضيت معه مطلع شبابك.
- مطلع شبابي!.. وهل تعرف مطلع شبابي؟
- كل المعرفة.

فأخذت أوليفا تضحك وتهز رأسها ، ثم قالت : آهٍ أيها السيد العزيز .

– أتشكين فيما أقول ؟

– كلا ، لا أشك إطلاقاً .

– إذن لنتحدث عن مطلع شبابك أيتها الآنسة أوليفا .

– تحدث ، ولكني أحذرك بأني لن أعطيك أي جواب .

– أوه ! أنا لست بحاجة الى ذلك .

– إذن ، أنا صاغية .

– لن أبدأ بمرحلة طفولتك ، لأن طفولتك لا تعني شيئاً بالنسبة لي ، بل سأبدأ بمرحلة المراهقة ، في هذا الوقت الذي عرفت فيه أن الله قد وهبك قلباً كي يحب .

– كي يحب من ؟

– كي يحب جيلبار ...

عندما تلفظ صاحب « الدومينو » الأزرق بكلمة جيلبار ، شعر بأن المرأة الشابة التي يتأبط ذراعها قد ارتعشت من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، ثم قالت :

– أوه ! يا إلهي ! كيف عرفت هذا ؟!

وتوقفت فجأة لتستشف بسهام عينيها من خلال قناعها ، وبشعور لا يحد ، عيني صاحب « الدومينو » الأزرق .

أما صاحب «الدومينو» الأزرق، فلقد بقي صامتاً.

وبعد لحظات من الصمت الرهيب، قالت أوليفا، أو بالأحرى نيكول:

- آهِ سيدي، لقد تلفظت باسم يثير أعذب الذكريات في قلبي. فهل تعرف هذا الجيلبار؟

- طبعاً أعرفه، طالما أني أكلمك عليه.

- واحسرتاه!

- إنه فتى يأخذ بمجامع القلوب، فهل كنت تحبينه؟

- لقد كان جميلاً ... كلا ... لم يكنْ جميلا ... ولكن أنا كنت أجده جميلاً. لقد كان فتى ذكياً، وكان يتحدر من أبوين في منزلة أبويَّ. ولكن لا، أبداً، طالما أن جيلبار لم يكن يريد هذه المساواة، فليس هناك امرأة تساويه.

- حتى ...

- حتى من؟

- حتى الآنسة دي تا...

فقاطعته نيكول قائلة:

- آه! لقد عرفت ما كنت تودّ أن تقوله. آه؟ إنك رجل جدّ مثقف يا سيدي كما أرى. نعم، لقد كان يحب من هي أرفع منزلة من المسكينة نيكول.

- لقد توقفتُ عن الكلام كما رأيت.

فقالت أوليفا وهي ترتعش :

- نعم ، نعم ، إنك تعرف أسراراً جدّ مرعبة يا سيدي ، والآن ...

قالت كلمة « والآن » ثم تطلعت الى الرجل المجهول وكأنها تحاول أن تقرأ مكنونات صدره من خلال قناعه ، وأكملت : والآن ماذا أصبح عليه ؟

- ولكني أعتقد أنه باستطاعتك ، أفضل من أي شخص آخر ، أن تطرحي أنت عليه هذا السؤال .

- يا إلهي !.. لماذا ؟

- لأنه إذا كان هو قد لحق بك من تافرني الى باريس ، فأنت قد لحقت به من باريس الى تريبيانيون .

- نعم ، هذا صحيح ، ولكنه قد مضى على ذلك عشر سنوات ، فأنا أحدثك عن السنوات العشر التي انقضت على هربي وعلى اختفائه . يا إلهي ! كم من الأمور قد جرت في خلال عشر سنوات !

فلزم صاحب « الدومينو » الأزرق الصمت ، وتابعت نيكول تقول بلهجة ملحّة ومتوسلة :

- أرجوك أن تخبرني عما حدث لجيلبار . فلماذا أنت صامت ؟ ولماذا تحوّل رأسك عني ؟ فهل هذه الذكرى تنكأ جراحك وتؤلمك ؟

والواقع أن صاحب «الدومينو» الأزرق لم يحوّل رأسه عن نيكول، بل أحنى رأسه كأنه قد ناء تحت ثقل ذكرياته.

وتابعت نيكول طرح الأسئلة، فقالت:

- عندما كان جيلبار يحب الآنسة دي تافرني...

فقاطعها صاحب «الدومينو» الأزرق بقوله:

- لا تتلفظي بالأسماء هكذا بصوت مرتفع. ألم تلاحظي بأني قد امتنعت عن لفظ الأسماء أنا؟

فأكملت أوليفا بعد تنهدة: عندما كان عاشقاً، كانت كل شجرة في تريبيانيون تعلم بحبه.

- حسناً، ألم تعودي تحبينه أنت؟

- أنا، بالعكس، أكثر من أي يوم مضى. وإن هذا الحب هو الذي يفقدني صوابي، فأنا ما زلت جميلة ومعتدة بنفسي، وعندما أشاء، أكون وقحة وأحطم رأسي على قرمة شجرة، وهذا أفضل لي من أن أقول بأني طأطأت رأسي.

- هل يؤذيك هذا الحديث يا نيكول؟

- لا، أبداً، فهو يعيدني بالذاكرة الى مطلع شبابي، وهو كالأنهر بالنسبة للحياة، فالنهر العكر يكون منبعه نقياً وصافياً أكثر من غيره. فاكمل يا سيدي ولا تكترث لتنهدات صدري.

فتمايل صاحب «الدومينو» الأزرق قليلاً، وقال بعد أن ارتسمت على شفتيه تحت قناعه ابتسامة خفيفة:

- أوه! إني أعرف الكثير عنك وعن جيلبار وعن امرأة أخرى أيتها الابنة المسكينة.

فصاحت أوليفا:

- إذن، قل لي لماذا هرب جيلبار من تريبيانون، واذا ما قلت...

- هل ستقتنعين؟ لا، لن أقول، ومع ذلك ستكونين أكثر اقتناعاً.

- كيف ذلك؟

- ذلك أنك لا تقصدين من سؤالك: لماذا ترك جيلبار تريبيانون، التأكد من الحقيقة، بل أنت تجهلين أمراً ما وتريدين معرفته.

- هذا صحيح.

قالت نيكول «هذا صحيح» وأخذت ترتجف بشدة، ثم أطبقت يديها المتشنجتين على يدي صاحب «الدومينو» الأزرق، وصاحت:

- يا إلهي!.. يا إلهي!..

فقال لها الرجل المقنع: إيه! ماذا جرى لك؟!

فتظاهرت نيكول بأنها قد استبعدت الفكرة التي استبدت بها، وأجابت:

- لا شيء، لا شيء.
- من غير المعقول. فأنت تودين سؤالي عن شيء.
- هذا صحيح. فقل لي بربك، ماذا جرى لجيلبار؟
- ألم تسمعي بأنه قد مات!
- سمعت، ولكن...
- ولكن ماذا؟ لقد مات؟
- مات؟ قالتها نيكول بلهجة الشك، ثم أردفت بلهجة التوسل:
- رحماك سيدي، هل تتكرم عليّ بخدمة؟
- أنا مستعد لخدمتين، بل لعشر خدمات أيتها العزيزة نيكول.
- منذ ساعتين، رأيتك عندي، ألستَ أنت؟
- أنا بذاتي.
- ومنذ ساعتين، لم تكن تحاول أن تخفي نفسك عني.
- بالعكس، كنت أحاول أن أظهر امامك على حقيقتي.
- أوه! يا لي من مجنونة! أنا التي تطلعت اليك ملياً. مجنونة، مجنونة غبية! امرأة، لست سوى امرأة! هذا ما كان يقوله جيلبار.

– ماذا تفعلين يا نيكول ؟! دعي شعرك الجميل وشأنه، وراعي صحتك قليلاً .

– لا ، أريد أن أنتقم من نفسي لأني نظرت اليك دون أن أتفحصك .

– لم أفهم قصدك .

– أتعلم الذي أودّ أن أطلبه منك ؟

– اطلبي .

– إنزع قناعك .

– هنا ؟! غير ممكن .

– لا تخشَ ان تراك سوى عينيَّ اللتين منعتهما من التطلع اليك . فهناك وراء هذا العمود ، وفي ظلمة الرواق ، لن يراك أحد سواي .

– أي شيء يمنعني إذن ؟

– أنت تخشى أن لا أعرفك .

– أنا ؟

– وأن لا أصرخ : هذا أنت ، هذا جيلبار !

– آه ! إنك في الحقيقة كما قلت : مجنونة ! مجنونة !

– إنزع قناعك .

– حاضر ، ولكن بشرط .

– إني أوافق على شرطك مقدماً .

- هو ان تحذي حذوي، وتنزعي قناعك مثلي.

- سوف أنزعه، وإذا لم أفعل، انزعه أنت بالقوة.

فانبرى صاحب «الدومينو» الأزرق الى المكان المظلم الذي حددته المرأة الشابة، ونزع قناعه ووقف أمام أوليفيا التي افترسته بنظراتها لمدة دقيقة، ثم قالت وهي تضرب الأرض برجلها وتحك بأظافرها راحة كفها:

- واحسرتاه! إنه ليس جيلبار.

فسألها الرجل المجهول: من أكون إذن؟

- هذا الأمر لا يهمني، طالما أنك لست جيلبار.

- وماذا لو كنت جيلبار؟

- لو كنت جيلبار لصحت بي: نيكول، نيكول، هل تتذكرين المنزل الأحمر في تافرني؟ آه! عندئذ...

- عندئذ ماذا؟

- عندئذ لما بقي هناك بوزير في حياتي.

- لقد قلت لك أيتها الابنة العزيزة بأن جيلبار قد مات.

فتنهدت أوليفا وأجابت: قد يكون، وهذا أفضل لي.

- نعم، فجيلبار رغم جمالك، لم يحبك قط.

- أتريد القول بأن جيلبار قد احتقرني؟

- لا، بالأصح، كان يخيفك.

- هذا صحيح ، فلقد كنت أشعر بالرهبة تجاهه ، وكان هو يعرف ذلك .

- إذن ، كما قلت ، من الأفضل أن يكون ميتاً .

- لماذا تردد كلماتي ؟ فكلماتي على شفتيك تجرحني . لماذا من الأفضل ان يكون ميتاً ، قل !

- لأنك اليوم أيتها العزيزة أوليفا ، وها إنك تريني قد تخليت عن نيكول - اليوم أيتها العزيزة أوليفا ، باستطاعتك أن تؤمني لنفسك مستقبلاً سعيداً وثروة أكيدة .

- وهل تعتقد ذلك ؟

- بالطبع ، إذا أنت عزمت على أن تفعلي كل ما يوصلك الى هذا الهدف الذي أعدك به .

- إن كان الأمر كذلك ، فكن مطمئناً .

- فقط ، عليك أن لا تتنهدي كما كنت تتنهدين منذ هنيهة .

- لقد كنت أتنهد من أجل جيلبار . وطالما أن جيلبار قد مات ، وطالما أنه لا يوجد جيلبار آخر على وجه هذا البسيطة ، فأنا لن أتنهد بعد الآن .

- لقد كان جيلبار شاباً ، وكانت له أخطاؤه ككل الشبان ، أما الآن ...

– إن عشر سنوات تصرمت لم تفقد جيلبار شبابه .

– لا ، بدون شك ، لأن جيلبار قد مات .

– نعم ، لقد مات شاباً . إن أفراد أسرة جيلبار لا يعمرون .

فصاح الرجل المجهول :

– إيه ايها الشباب ! إيه أيها الجمال ! إنكما بذور الحب الخالدة ، فالذي يفقد شبابه وجماله ، يفقد الحياة فعلاً . فالشباب والجمال هما الجنة ، هما كل شيء ، إذ لا يوجد شيء على الاطلاق يعوض عن خسارة الشباب والجمال .

فقالت أوليفا :

– إن نظرتك الى الشباب والجمال هي ذات نظرة جيلبار ، ولكن دعنا من هذا الموضوع .

– نعم ، لنترك هذا الموضوع جانباً ، ولنتحدث عما يخصك :

– لنتحدث عمّا تريد .

– لماذا هربت مع بوزير ؟

– لأني كنت أريد أن أترك تريبيانون ، وعليّ أن أهرب مع واحد . فقد شعرت بأنه لم يعد باستطاعتي البقاء مع جيلبار أطول مما بقيت كامرأة محتقرة يلفها الشقاء .

– ومع ذلك بقيت وفيّة لحبه عشر سنوات ؟! يا لك من امرأة قد دفعت غالياً ثمن عجرفتها وغرورها !

فأخذت أوليفا تضحك، وقال الرجل المجهول بانفعال :

- إني أعرف جيداً لماذا تضحكين. فأنت تضحكين من رجل يزعم أنه يعرف كل شيء، ومع ذلك يتهمك بالإخلاص لمدة عشر سنوات، بينما أنت في الواقع كنت تعبثين وتهزئين بهكذا إخلاص . فتأكدي أيتها الشابة المسكينة بأني على علم بأنك قد سافرت مع بوزير الى البرتغال حيث بقيتما هناك سنتين، ومن البرتغال انتقلت الى الهند، ولكن ليس برفقة بوزير، بل برفقة قبطان فرقاطة خبأك في غرفة القيادة ثم تركك في مدينة « شاندر تاغور » وقفل عائداً الى أوروبا. وأعرف ايضاً أنك قد سلبت لبَّ أحد حكام المقاطعات الهنود، فأغدق عليك المال والمجوهرات وكان يحتجزك وراء ثلاثة مشبكات من القضبان الحديدية، وأنك قد فريت من ذلك السجن بواسطة عبد امتطيت كتفيه بعد أن قفزت من فوق المشبكات، ثم رجعت الى باريس حيث التقاك بوزير من جديد .

فقالت نيكول متعجبة :

- أوه ! من تكون أنت يا إلهي كي تعرف كل هذه الأشياء ؟!

- وأخيراً أعرف بأن بوزير قد أوهمك بأنه يحبك، فباع مجوهراتك وتركك فريسة الشقاء والتعاسة ... وأعرف بأنك

ما زلت تحبينه . ولما كان الحب هو ينبوع السعادة ، فيجب أن تكوني أسعد امرأة في العالم .

فطأطأت أوليفا رأسها وأسندت جبهتها بيدها . ومن خلال أصابع هذه اليد تدحرجت دمعتان كاللؤلؤ السائل ، ربما كانتا أثمن من سواريها ، ومع ذلك لم يشأ أحد أن يبتاعهما لبوزير . ثم قالت :

– وهذه المرأة المتعجرفة ، هذه المرأة السعيدة ، قد اشتريتها أنت هذا المساء بخمسين ليرة ذهبية ...

فقال الرجل المجهول بلهجة هي في غاية الرقة ورهافة الذوق لا يتقنها إلا من كان ممالقاً حاذقاً مثله :

– أوه ! إني أعرف جيداً بأن هذا المبلغ قليل جداً يا سيدتي .

– بالعكس يا سيدي ، إنه مبلغ كبير جداً . وأقسم لك بأنك قد فاجأتني به ، إذ استغربت أن تكون امرأة مثلي ما زالت تساوي خمسين ليرة ذهبية .

– إنك تساوين أكثر من هذا المبلغ بكثير ، وأنا مستعد لإقامة الدليل على ذلك . ارجوك أن لا تجاوبيني لأنك لم تفهميني . ثم ...

– ثم ماذا ؟

- ثم إني بحاجة إلى كامل إصغائك في هذه اللحظة .

- إذن عليّ أن أصمت .

- لا ، بالعكس ، كلميني .

- عن أي شي ؟

- عمّا تشائين ، عن الأشياء العديمة الفائدة إذا شئت ، فالأمر لا يهمني ، شرط ان لا نبقى في فراغ .

- حسناً ، ولكنك رجل نسيج وحده !

- أعطني ذراعك ، ولنمشِ.

ومشى الاثنان وسط الجموع التي غصت بها قاعات الاوبرا . وكانت نيكول تختال بقامتها الرشيقة وتلفت الأنظار بحركات رأسها وتمايل عنقها ، وإن من تحت القلنسوة و« الدومينو » ، مما جعل الكل ينظرون اليها باشتهاء ، لأنه في ذلك الوقت ، كانت مشية امرأة مغناج في حفلات الاوبرا تلفت الأنظار كما يلفت عدْو الجواد الجميل اليوم أنظار الهواة بالجياد الأصيلة .

وبعد أن سارا هكذا بضع دقائق ، فاجأت أوليفا الرجل المجهول بسؤال ، أجابها عنه بقوله :

- اصمتي ! أو بالأحرى تكلمي ما شئت ولكن لا تجبريني على الجواب . واذا ما تكلمت ، فليكن صوتك متنكراً ، وليبقَ رأسك مستقيماً ، واستري عنقك بمروحتك .

فرضخت أوليفا لهذه التعليمات .

في تلك اللحظة كان المتنزهان يمران بجماعة يفوح العطر من أفرادها وقد توسطهم رجل ذو قامة أنيقة وهيئته تدل على رفعة المقام، كان يكلم ثلاثة من رفاقه وهم يصغون اليه باحترام، فسألت أوليفا رفيقها :

- من يكون هذا الرجل الظريف ذو «الدومينو» الرمادي اللؤلؤيّ ؟

فأجاب الرجل المجهول :

- إنه الكونت دارتوا. ولكن لطفاً، لا تتكلمي !

فأدهش هذا الاسم الكبير أوليفا واستقامت لترى صاحبه جيداً وهو يتابع إصدار أوامره التي كان يرددها عدة مرات. وبينما هي كذلك انسحب اثنان من أصحاب «الدومينو» كانا مع لفيف لهما واقتربا من مكان يخلو من المقاعد حيث قال أحد الاثنين لرفيقه بصوت خفيض أثار فضول «الدومينو» الأزرق :

- اجلسي أيتها الكونتس على ركيزة العمود .

وفي ذات البرهة تقريباً، اخترق الجمع شخص يلبس «دومينو» برتقالي اللون وتدل هيئته على أنه ذو نفع أكثر مما هو جليس مماالق، واقترب من «الدومينو» الأزرق وقال له :

- إنه هو .

فأجابه صاحب «الدومينو» الأزرق : حسناً .

ثم صرف بحركة منه ذلك الرجل وانحنى على أوليفا وهمس في أذنها قائلاً : ما رأيك أيتها الصديقة الطيبة بأن نتلهى بعض الشيء فنروِّح عن أنفسنا قليلاً ؟

فأجابته أوليفا :

- هذا ما أتمناه ، لأنك أدخلت الحزن الى قلبي مرتين . المرة الأولى عندما انتزعت مني بوزير الذي كان يضحكني دائماً ، والمرة الثانية عندما حدثتني عن جيلبار الذي أبكاني عدة مرات .

فقال «الدومينو» الأزرق برصانة :

- سوف أكون لك ولجيلبار وبوزير .

فتنفست نيكول الصعداء وتأوهت ، وأردف صاحب «الدومينو» الأزرق يقول :

- لن أطلب منك أن تحبيني ، افهمي ذلك ، بل سأطلب منك أن تقبلي الحياة كما أرتبها لك ، أي بتحقيق كل رغباتك ، شرط أن تراعي أنت رغباتي من وقت لآخر ، وها هي واحدة من رغباتي حاضرة الآن .

- ما هي ؟

- أرأيت هذا «الدومينو» الأسود ، إنه أحد أصدقائي الألمان .

- آه !

- إنه مخادع ، رفض دعوتي لحضور حفلة الرقص بحجة صداع انتابه .

- وأنت قلت له بأنك لن تحضر الحفلة .

- بالضبط .

- أليست امرأة تكون التي برفقته ؟

- بلى .

- من تكون ؟

- لا أعرفها . سوف نتقدم منهما ، أليس كذلك ؟ وسوف نتظاهر بأنك المانية ، فإياك أن تفتحي فمك مخافة أن يعرف من لهجتك بأنك باريسية خالصة .

- حسناً ، وهل ستثير فضوله ؟

- سوف ترين . امسكي الآن مروحتك وأشيري اليه بطرفها وكأنك تدلين عليه ، ثم اهمسي في أذني ...

فأطاعت أوليفا وقامت بما أمرها به ببراعة فائقة ، مما أثار الفضول فعلاً في نفس ذلك الشخص وأيقظت حركاتها كوامن نفسه رغم تقنعها .

وكان « الدومينو » الأسود ، موضوع هذه التمثيلية ، يدير ظهره الى صالة الرقص ويتحدث الى السيدة التي ترافقه ، فلاحظت هذه الأخيرة بعينيها اللتين كانتا تبرقان تحت

قناعها ، الحركة التي قامت بها أوليفا ، فقالت لرفيقها بصوت يشبه الهمس :

– عجباً سيدي ! فهناك مقنعان يختلسان الينا النظرات ويتهامسان علينا .

– أوه ! لا تخافي أيتها الكونتس ، فمن غير المعقول أن يعرفنا أحد . وبالمناسبة ، اسمحي لي بأن أردد على مسامعك بأن قوامك الرشيق ونظراتك الساحرة لا يضاهيها قوام ونظرات أي امرأة على الاطلاق . واسمحي لي ايضاً بأن أقول لك ...

– كلَّ ما يقولونه تحت القناع .

– لا أيتها الكونتس ، بل كل ما يقولونه تحت ...

– لا تكمل . إنك تعذب نفسك ... ثم هناك خطر كبير يهددنا ، فالجواسيس تسترق السمع الينا .

فصاح الكردينال مرتعشاً : أجاسوسان هما ؟!

– نعم ، وها هما يقتربان منا .

– غيِّري لهجة صوتك تماماً أيتها الكونتس ، إذا ما تكلما اليك .

– وأنت كذلك يا صاحب السيادة .

وبالواقع أخذت أوليفا و « الدومينو » الأزرق يقتربان منهما ، ثم قال هذا الأخير موجهاً كلامه الى الكردينال :

- أيها المقنع .

ومال على أذن أوليفا بحركة تدل على التأكيد ، فأجابه الكردينال بنبرة صوت تنكرية :

- ماذا تريد يا هذا ؟

فأجاب « الدومينو » الأزرق : إن المرأة التي ترافقني ، كلفتني أن أطرح عليك عدة أسئلة .

فأجاب السيد دي روهان : قل بسرعة .

وأضافت السيدة دي لاموت بصوت مزماري النغم : ولتكن أسئلة بعيدة عن التطفل .

فردّ عليها « الدومينو » الأزرق قائلاً :

- إنها أسئلة فيها من التطفل ما لا تستطيعين سماعه أيتها الفضولية .

ومال مرة جديدة على أذن أوليفا ومثّل معها نفس الدور ، ثم طرح على الكردينال بألمانية لا عيب فيها ، هذا السؤال :

- هل أنت مغرم بتلك المرأة التي تصطحبها يا صاحب السيادة ؟

فانتفض الكردينال وأجاب : ألم تناديني بصاحب السيادة ؟

- بلى يا صاحب السيادة .

- إذن ، أنت على ضلال . فأنا لست الشخص الذي ظننته .

- أوه ! من غير المفيد لك أن تنكر يا حضرة الكردينال . فحتى لو كنت أنا على ضلال ، فإن السيدة التي أنا مراقصها ، قد كلفتني بأن أقول لك بأنها تعرفك حق المعرفة .

قال هذا ومال على أوليفا وأفهمها بأن تشير مؤكدة قوله ، وبأن تؤكد بذات الاشارة كل ما يقوله بعد أن يضغط على ذراعها. فقامت بالاشارة المطلوبة فوراً ، وقال الكردينال وهو مضعضع الحواس :

- إنك تدهشني أيها الرجل ، فمن تكون هذه المرأة التي ترافقك ؟

- يا للعجب يا صاحب السيادة ! فقد اعتقدت بأنه سبق لك أن عرفتها ، طالما هي قد عرفتك . ولكن قاتل الله الغيرة ...

فصاح الكردينال : ماذا تقصد بكلامك يا هذا ؟

فأجاب الرجل المجهول : أنا لم أقصد شيئاً ، ولكن الغيرة عند النساء شيء مألوف .

وهنا انبرت السيدة دي لاموت تقول بنبرة حادة وقد ساءها هذا الحوار الذي لم تفهمه : ما هذا الحوار الألماني ؟

فأجابها الكردينال مطيباً خاطرها : لا شيء ، لا شيء .

ولكن صبر السيدة دي لاموت قد عيل ، فأخذت تضرب الارض برجلها ... عندئذ قال الكردينال موجهاً كلامه الى أوليفا بلهجة المتوسل :

- أرجوك سيدتي ، إن كلمة واحدة منك تكفيني لأن أعرفك .

لكن أوليفا التي تجهل الالمانية جهلاً تاماً ، لم تفهم ما قاله الكردينال بالألمانية ، فانحنت على رفيقها تسأله : ما العمل ؟ فأجابها الدومينو الأزرق .

- أتوسل إليك سيدتي ، إياك أن تتكلمي .

فأثارت هذه الحركة وصمت أوليفا فضول الكردينال ، فأردف يقول :

- كلمة واحدة بالألمانية ، تنقذين موقفي الحرج سيدتي .

فتظاهر « الدومينو » الأزرق بأنه ينفذ أوامر أوليفا ، وأجاب الكردينال بقوله :

- سيدي الكردينال . إليك كلام سيدتي حرفياً : « إن الذي لا يوقظه فكره دائماً ، والذي لا تتمثل دائماً في مخيلته صورة الشخص الذي يحبه ، هو شخص غير خليق بالحب . »

فكان لهذا الكلام على الكردينال وقع الصاعقة ، إذ جعله

في موقف المضعضع، الفاقد احترامه وعظمته، فتراخت يداه ودمدم قائلاً بالفرنسية:

- هذا مستحيل!

فصاحت به السيدة دي لاموت التي لم تفهم من هذا الحوار الذي كانت تواقة لفهمه سوى كلمتي: «هذا مستحيل!»، صاحت تسأله:

- ما هو هذا المستحيل؟

فأجابها الكردينال: لا شيء، لا شيء يا سيدتي.

فقالت له بألم: يتراءى لي يا صاحب السيادة بأنك تدفعني للعب دور مؤسف.

قالت له هذا وتركت ذراعه. أما هو، فليس فقط أنه لم يحاول دفع هذه التهمة عنه، بل بدا لفرط تأثره بالسيدة الألمانية، كأنه لم ينتبه لما قامت به السيدة دي لاموت. ثم قال موجهاً كلامه لتلك السيدة المقنعة التي خلبت لبّه:

- إن الكلام الذي فاه به باسمك رفيقك، هو مقطع من قصيدة المانية كنت قد قرأته في منزل تعرفينه كما أعتقد؟

فعبّرت عن كلمة «نعم» بانحناءة من رأسها، بعد أن ضغط الرجل المجهول على ذراعها، مما جعل الكردينال يرتعش ويسأل متردداً:

- وهذا المنزل ... ألا يدعى ... شوانبرن [1]؟

فأشارت أوليفا برأسها أن نعم.

عند ذاك توقف الكردينال عن الكلام، إذ شعر بثورة عارمة تعتمل في نفسه ... ثم تهادى ومدّ يده باحثاً عن شيء يستند إليه، بينما كانت السيدة دي لاموت تراقب عن بعد خطوتين هذا المشهد الغريب. وأخيراً استقرت يد الكردينال على «الدومينو» الأزرق وقال له: واليك التتمة ...

«... لكن الرجل الذي يرى محبوبه في كل مكان، الذي يراه في الزهرة ويحسه في الشذا، فهذا الرجل يمكنه أن يصمت، لأن صوته في قلبه، ويكفي أن يسمعه قلب آخر ليكون سعيداً.»

وفجأة سُمع صوت شاب انطلق من بين مجموعة التفت حول الكردينال يقول:

- ما هذا !.. إنهم يتكلمون الالمانية هنا! لنرى قليلاً. هل تفهم الالمانية أيها الماريشال؟

- لا يا صاحب السيادة.

- وأنت يا شارني.

---

١ - شوانبرن هو القصر الامبراطوري قرب فيينا، وقد بدأ بإشادته جوزف الاول وأكملته ماري تيريز والدة ماري انطوانيت.

- اوه ! نعم ، إني أفهمها يا صاحب السموّ .

ثم صاحت أوليفا وهي تحشر نفسها بالدومينو الأزرق بعد ان حشرها قليلاً أربعة مقنعين بطريقة خالية من الاحترام :

- إنه الكونت دارتوا !

وفي هذه البرهة عزفت الاوركسترا لحناً صاخباً جن له جنون الراقصين وألهب حماسهم وجعل الغبار يتطاير من أرضية القاعة ويعمُّ المكان بكل ما فيه ويلفّ الثريات المشعة بمختلف الألوان بما يشبه الغمام الخفيف . وامام هذا الجنون شعر صاحب « الدومينو » الأزرق بأن أرجل الراقصين المقنعين تكاد تدوسه فصاح قائلاً :

- مهلاً أيها السادة ؟

- وقال له الأمير دي روهان : أرأيت يا سيدي ، نرجو المعذرة من السيدتين .

ثم قالت السيدة دي لاموت بصوت خافت : لنذهب ! لنذهب سيدي الكردينال .

وللحال شعرت أوليفا بيدين تلامس ثوبها التنكري برشاقة ... واذا بقناعها يفكّ ويسقط على الأرض ... وبملامح وجهها تبدو للعيان ... فأطلق « الدومينو » الأزرق صيحة قلق ، وأطلقت أوليفا صيحة رعب ، ثم توالت صيحات الدهشة والتعجب !

فخارت قوى الكردينال وشعر بالغثيان وكاد يسقط على ركبتيه ... فأسرعت السيدة دي لاموت الى نجدته .

وجرف التيار الذي عصف بالقاعة زمر المقنعين فأقبلوا يفصلون بين الكونت دارتوا والكردينال والسيدة دي لاموت . وأسرع بدوره « الدومينو » الأزرق فركز القناع من جديد على رأس أوليفا وربطه ربطاً محكماً . ثم تقدم من الكردينال وقال له بعد أن شدَّ على يده :

- إن ما حصل يا سيدي شيء فظيع . فالإساءة التي لحقت بشرف هذه السيدة ، أنت المسؤول عنها .

فانحنى الأمير دي روهان ودمدم قائلاً : آه ! سيدي ، سيدي ...

ثم أخذ يمسح بمنديله ، وبيد مرتجفة ، العرق المتصبب من جبهته ... فاغتنم « الدومينو » الأزرق فرصة تضعضعه وقال لأوليفا : تعالي نذهب .

وبعد أن أنسلا بين جمهور المقنعين واختفيا ، وقفت مدام دي لاموت تنظر الى الكردينال وتقول في نفسها : « لقد عرفت الآن سرّ انهياره ... فقد اعتقد أن هذه المرأة هي الملكة بالذات نظراً للشبه الكبير بينهما ، وهو شبه يستأهل الملاحظة والاهتمام» .

وبينما هي تفكر بهذا الشبه، إذا بالكردينال يقول لها بصوت وهن:

- أتريدين أن نترك حفلة الرقص أيتها الكونتس؟

فأجابت جان بهدوء وسكينة:

- كما يروق لك يا صاحب السيادة.

- لا أرى أن هناك فائدة من بقائنا، أليس كذلك؟

- أبداً، فإني أشاطرك الرأي.

وعلى الأثر شقّا طريقهما بين المحتشدين، وكان الكردينال بقامته الطويلة يتلفت ذات اليمين وذات اليسار علّ بصره يقع على المرأة التي ضعضعت حواسه، ولكن تلك المرأة كانت قد اختفت. فخرج كئيباً حزيناً واستقل مع رفيقته العربة التي كانت بانتظاره، فانطلقت بهما وسارت اكثر من عشر دقائق دون أن ينبس الكردينال بكلمة واحدة...

في منزل الضاحية

★

قطعت مدام دي لاموت حبل الصمت على الكردينال الجالس الى جانبها بقولها:

- الى أين تقودني هذه العربة ؟

فصحا الكردينال من غفلته وقال :

- لا تخافي أيتها الكونتس ، فأنت قد أتيت من منزلك ، والعربة ستعيدك إليه .

- منزلي ... في الضاحية ؟

- نعم أيتها الكونتس . فهو منزل صغير وكل ما فيه يوحي بالسحر والجمال !

قال الكردينال هذا الكلام وأمسك بإحدى يدي جانّ وطبع عليها قبلة حارة ...

ثم أكملت العربة سيرها . وعندما وصلت أمام ذلك البيت الساحر والجميل وتوقفت ، هبطت منها جانّ بخفة وتهيأ الكردينال ليلحق بها ، فقالت له :

- لا تزعج نفسك يا صاحب السيادة ... فليس من الضروري أن ترافقني . فصاح الكردينال مندهشاً :

- كيف أيتها الكونتس ؟! أليس من الضروري أن نقضي معاً عدة ساعات ؟

فقالت جان : وأن تنام يا صاحب السيادة ...

- أعتقد جيداً بأنك سوف تجدين عدة للنوم في منزلك أيتها الكونتس .

- من أجلي ، نعم ، ولكن من أجلك ...

- من أجلي ، لا ؟

فقالت له بلهجة الرفض المقرون بالوعد : حتى الآن ، لا .

فأجاب الكردينال بخيبة أمل مريرة : إلى اللقاء إذن .

- الى اللقاء يا صاحب السيادة .

وأردف الكردينال يقول وهو يهمّ بالخروج : في الواقع ، إني أفضل هكذا .

ثم دخلت جانّ منزلها الجديد ، فأسرع ستة من الخدم أيقظتهم من نعاسهم طرقات المطرقة واصطفوا في البهو ، فألقت عليهم جانّ نظرات التعالي الهادئة التي لا تهبها الثروة لكل الأغنياء ، وسألتهم :

- وأين الوصيفتان ؟

فتقدم منها أحد الخدم باحترام ، وأجاب :

- الوصيفتان في غرفة سيدتي .

- ناديهما .

فأطاع الخادم . وبعد عدة دقائق حضرت الوصيفتان ، فسألتهما جانّ :

- أين تنامان عادة ؟

فأجابت المرأة الاكبر سناً : ليس في العادة ان ننام في مكان معين ، بل حيث تشاء سيدتي .

- أين مفاتيح الغرف ؟

- ها هي يا سيدتي .

- حسناً ، عليكما أن تناما هذه الليلة خارج المنزل .

فأخذت المرأتان تنظران الى سيدتهما بدهشة ، وأردفت جانّ تسألهما :

- هل لديكما مأوى آخر ؟

- بدون شك ، ولكن الوقت أصبح متأخراً قليلاً. مع ذلك ، إذا شاءت سيدتي أن تبقى وحدها ...

فقاطعتها الكونتس وهي تشير الى الخدم الستة : وهؤلاء السادة سوف يصطحبونكما أيضاً وسيكونون مسرورين أكثر منكنّ .

فسأل أحد هؤلاء الخدم ببرودة :

- و ... متى سنعود ؟

- غداً عند الظهر .

فتناظر الخدم والوصيفتان لحظة ، ثم اتجهوا نحو الباب ترافقهم جانّ بعينيها الآمرتين . وبعد أن أصبحوا خارجاً ، لحقت بهم وسألتهم قبل أن تصفق الباب وراءهم :

– هل بقي أحد داخل المنزل ؟

فأجابها الأكبر سناً :

– لا يا سيدتي ، لم يعد هناك أحد . فكيف يا إلهي ستبقين وحدك ولا من يهتمّ بك ؟! لتبقَ على الأقل وصيفة تسهر عليك . لتبقَ في الممرات ، في غرف الخدم ، في أي مكان ، ولكن لتبقَ .

– لست بحاجة الى أحد .

ثم سحبت الكونتس كيس نقودها وقالت لهم : وهاكم أول دفعة على حساب خدمتكم لي . اذهبوا جميعاً ولتكن ليلتكم سعيدة .

فكان جواب الخدم الوحيد على هذا السخاء همهمات الفرح وكلمات الشكر ، ثم انحنوا حتى الأرض محيين سيدتهم وتواروا ، وقد سمعتهم جان من وراء الباب يقول الواحد منهم للآخر : « إن القدر قد ساق لنا سيدة غريبة الاطوار ! »

وعندما اختفت أصواتهم وتلاشت ضجة أقدامهم في البعيد ، أغلقت جانّ الباب وقالت بلهجة المنتصرة : وحدي ، وحدي أنا في منزلي !

ثم دخلت الى البهو وأضاءت المشعل المخصص لإنارته وأقفلت مزاليج بابه الضخم وجلست على أحد مقاعده تمثل

مشهداً صامتاً فريداً من تلك المشاهد الاسطورية التي كثيراً ما قدمها الشعراء لعشاق المشاهد الليلية .

وبعد ذلك أخذت جانّ تتجول في المنزل وتتفقد أقسامه واحداً واحداً ، فبدا لها بأثاثه الفخم أنه منزل ذو قيمة كبيرة . فالطابق الأرضي فيه يشتمل على قاعة للحمام، ومكاتب وقاعات للأكل ، وثلاثة صالونات ، وغرفتين للاستقبال . وفرش هذا الطابق ليس بالفرش الحديث الذي يستهوي نساء العصر ، ولكنه فرش أثري مصنوع من خشب الآبنوس المحفور ، بالاضافة الى ثريات الكريستال وساعات الحائط الأثرية والسجاد الفاخر وغير ذلك مما احتوته قصور أثرياء ذلك العصر من كنوز لا تقدر بثمن .

والخلاصة ان كل ما في هذا القصر يشهد على ان صاحبه قد ورث ثروة كبيرة ، وأنه قد أضاف الى الكنوز التي ورثها عن أجداده كنوزاً جديدة ليورثها بدوره الى أولاده .

بعد هذه الجولة التفقدية التي قامت بها جانّ ، شعرت بأن « الدومينو » الذي تلبسه يزعجها ويضغط على جسدها الرخص ، فدخلت الى غرفة النوم ونزعت ثيابها بسرعة وارتدت مئزراً من الحرير المبطن ، فبدت نصف عارية إلا من « الساتان » الهادل على صدرها وقامتها وساقيها المرمريتين ...

لقد صعدت الى غرفة نومها هذه في الطبقة العليا ، متسلقة الدرج والشمعة بيدها تنير سبيلها ولا تخشى نظرة خادم. وعندما رفعت يدها البضة الى خزانة الثياب انزلق مئزرها من أعلاه ، فانحسر عن كتفيها والقسم الأعلى من صدرها المرمري ، فبدت الطنافس والستائر وكل ما في المكان كأنها أعناق ثملة تشرئب الى هذه الضيفة الفاتنة وتودّ لو تمتلكها.

وبعد أن أقفلت جانّ باب غرفتها ونوافذها وأرخت الستائر ، استرخت فوق سريرها الوثير وهي تشعر بحرارة جسدها كأنها سلك كهربائي يسري في عروقها. والحرارة التي شعرت بها جانّ في تلك الساعة لم تكن إلا حرارة الحب الذي يتفجر من حيوية وجمال جسدها وأنوثتها.

لقد وجدت نفسها جميلة وفاتنة تلك الليلة ، وشعرت بشبابها يتدفق حيوية ونشاطاً. ولكن عندما بحثت في ذهنها عن الشخص الجديد بحبها لم تعثر عليه ... فأحنت رأسها على كتفها حتى لامست شفتاها صدرها العادي ، وتأوهت وتنهدت من أعماق قلبها واستكانت ...

وكانت الشمعة التي وضعتها على منضدة من الخزف الفاخر تلفظ أنفاسها الأخيرة عندما أطبقت جان عينيها واستسلمت للرقاد.

أكاديمية مسيو بوزير

★

عمل السيد بوزير بنصيحة « الدومينو » الأزرق وتوجه الى ما كانوا يسمونه اكاديميته ، يحدوه الأمل بالحصول على تلك الثروة التي تقدر بمليوني ليرة . وكانت الشكوك تساور صديق أوليفا من الطريقة التي اعتمدها مساعدوه لتنفيذ هذا المشروع وهو غافل لا علم له به ، لو لم ينبهه اليه في سهرة الاوبرا ذلك « الدومينو » الأزرق .

كان لبوزير بين شركائه في الاكاديمية سمعة الرجل المرعب . ولا غرو ولا عجب ، فقد كان برتبة ضابط شرطة يعرف أن يضع يداً على وركه ويداً على مقبض سيفه ، كما أنه اعتاد أن يغرز قبعته حتى عينيه ليفرض وقاره . لذلك حسب حساب الانتقام من الذين احتقروه بما قرروه دون علمه ، وذلك بإلقاء الرعب في نفوس زبائن مقمرة شارع « بو دي فير » التي كانوا يسمونها أكاديمية بوزير .

كانت المسافة بعيدة بين بوابة سان مارتين وكنيسة القديس سيلبيس ، إلا أن بوزير لم يكن يعوزه المال ، لذا استقل عربة

ونقد حوذيها مبلغاً يكفي لاستئجار عربة يوماً بكامله . فألهب الحوذي أقفية جياده مما جعلها تنطلق بأقصى سرعتها .

وبما أن بوزير في ذلك الوقت كان يرتدي « الدومينو » وليس لديه سيفه ولا قبعته ، فقد اتخذ لنفسه مظهراً فظاً جعل دخوله الى الأكاديمية يوحي بالرهبة والسطوة .

إذن وصل بوزير إلى أكاديميته بأسرع وقت ممكن ، فوجد في القاعة الأولى ما يقارب العشرين مقامراً يحتسون الجعة وغيرها من المشروبات الروحية ، وهم يبتسمون لسبع أو ست نساء كن ينظرن الى أوراق اللعب وهنَّ مخضباتٍ ببشاعة وانعدام ذوق .

وعلى الطاولة الرئيسية في تلك القاعة كانوا يلعبون « الفرعونية » ، وهي نوع من لعب الورق كان شائعاً في القرن الثامن عشر ، وكان الرهان هزيلاً والحماس لا أثر له على وجوه اللاعبين .

فعندما وصل بوزير ، انحنى وأخذ يدعك قلنسوته المسترسلة على طيات ثوبه ، مما جعل النسوة يضحكن مع شيء من السخرية المقرونة بالغنج والدلال . إلا أن بوزير تجاهل حركاتهن وتقدم من طاولة اللعب وكأنه لم يسمع ولم ير شيئاً . وانتظر بصمت الجواب على موقفه هذا .

وقد جاء الجواب من لاعب رأسمالي مبهم لا يخلو وجهه من السذاجة وبساطة القلب ، إذ قال معلقاً على حضور بوزير :

- عجباً أيها الفارس ! إنك تعود من الرقص بسحنة مقلوبة !

- فقالت النسوة : هذا صحيح .

وسأله لاعب آخر : هل إن « الدومينو » قد عقر رأسك أيها الفارس العزيز ؟

فأجاب بوزير بقساوة : لا ، ليس « الدومينو » هو الذي عقر رأسي .

فقال أمين الصندوق في تلك اللعبة وهو يسحب بيده دزينة من الليرات الذهبية :

- يظهر أن الفارس بوزير قد خاننا . ألا ترون أنه كان في الأوبرا ، وأنه وجد في محيط الأوبرا من يلاعبه ، فلعب وخسر ؟

فضحك البعض والبعض الآخر أظهر شفقته ، خصوصاً النسوة ، وأجاب بوزير :

- ليس صحيحاً أني خنت أصدقائي كما تدعي . فأنا لست كبعض معارفي الذين خانوا أصدقاءهم فعلاً .

وكي يعطي لكلامه وزناً أكبر، عمد الى الحركة، أي أنه غرز قبعته في رأسه. ولكن حركته، ويا للأسف، أعطت نتيجة معكوسة. فقبعته التي كانت من الحرير أمَّلست على رأسه فأعطته شكلاً هزلياً عوضاً عن أن تعطيه شكلاً رزيناً. فسأله إثنان أو ثلاثة من شركائه:

– ماذا تريد أن تقول أيها الفارس العزيز؟

فأجاب بوزير: إني أعرف جيداً ما أودُّ قوله.

فقال أكبر اللاعبين وهو رجل مسنّ وثري وذو ميل الى الدعابة:

– ولكن ما قلته لا يكفينا.

فأجابه بوزير بحماقة ورعونة: إن هذا الأمر لا يعنيك يا حضرة الثري.

فألقى أمين الصندوق نظرة معبرة على بوزير، تحذره بأن عبارته ليست في محلها. فالواقع أنه في مثل هذا الظرف، يجب التمييز في المعاملة بين الذين يدفعون المال والذين يضعون المال في جيوبهم.

فعرف بوزير غلطته، واستدرك قائلاً: أعتقد أن لي أصدقاء بينكم.

فأجابته عدة أصوات دفعة واحدة: حتماً... حتماً.

– إذن، عليّ أن أصارحكم بأني رجل مخدوع.

- بأي شيء؟
- بأشياء كثيرة جرت دون علمي.

فبدرت من امين الصندوق حركة جديدة، كما بدرت من الشركاء الحاضرين احتجاجات جديدة أيضاً، وتابع بوزير يقول:

- يكفي أن أعرف الحقيقة وأن يعاقب الأصدقاء المزيفون.

قال هذا ووضع يده بصورة عفوية على مكان مقبض سيفه، ولكن يده لم تلامس سوى كيس نقوده الذي كان ملآناً بالليرات الذهبية التي فضحها رنينها، فصاحت النسوة:

- أوه! أوه! إن السيد بوزير في وضع جيد هذا المساء!

وقال أمين الصندوق بمداجاة:

- هذا أكيد. وأكيد أيضاً بأنه إن كان قد خسر فهو لم يخسر كل شيء، وإن كان قد تخلّى عن أصدقائه، فهو لم يتخلَّ عنهم بصورة نهائية. لقد تحديتنا بليراتك الرنانة أيها الفارس العزيز، فهات لنرى ما سيطلع منك.

فقال بوزير بخشونة:

- شكراً! طالما أن كل واحد يحتفظ بما لديه، فأنا أيضاً سأحتفظ بما لديّ. فمال أحد اللاعبين على أذنه وسأله باستغراب: ماذا تقصد من هذا القول؟

- سوف نتصارح هذه الساعة.

– فقال أمين الصندوق : إلعب إذن .

وقالت له إحدى النسوة وهي تلامس كتفه بغنج ودلال وتقترب ما استطاعت من كيس نقوده : إلعب بليرة ذهبية واحدة .

فقال بوزير بوقاحة :

– إني لا ألعب إلا بالملايين ! وفي الحقيقة لم أكن أتصور بأنهم سيلعبون هنا بليرات صغيرة . ملايين !.. هلموا يا سادة شارع « بو دي فير » ، إن الأمر يتعلق بالملايين يا أصحاب الملايين ! فليسقط الرهان على ليرة ذهبية واحدة . إلا أن حماس بوزير في تلك الساعة ، وقد كان حماساً غير معقول وأشد خطراً من حماس الخمرة ، قد قطعته ركلة قوية من الوراء استهدفت ساقيه ، فاستدار ليرى وجهاً كبيراً متصلباً زيتونيّ اللون مع عينين سوداوين كالفحم تقدحان شرراً . وقد ردّ صاحب هذا الوجه على سورة الغضب التي ارتسمت على محيا بوزير بتحية حارة مصحوبة بنظرة طويلة كأنها سيف دقيق حادّ .

فصاح بوزير مذهولاً من هذه التحية التي قدَّم لها ذلك الغريب بتلك الركلة :

– البرتغالي !..

ورددت النسوة اللواتي تركن بوزير وحصرن اهتمامهن بالرجل الغريب :

- البرتغالي !..

وكان هذا البرتغالي بالواقع ، الولد المدلل لهؤلاء النسوة . إذ كان يحمل إليهن على الدوام قطع الحلوى ، ولا يبخل عليهن بالبخشيش . وكان بالنسبة للمقمرة ، المحرك الأساسي للاعبين ، إذ أنه كان يخسر باستمرار وبسخاء ولا يأبه ولا يتذمر .

لذلك تقبَّل بوزير ركلة رجله بالصمت ، وإن على مضض، واتخذ صاحبنا مكاناً له على طاولة القمار ووضع أمامه عشرين ليرة ذهبية . وما أن دار اللعب عشرين دورة ، حتى كانت الليرات الذهبية العشرون قد تبخرت .

وعندها دقت الساعة معلنة الثالثة بعد منتصف الليل .

وعلى الأثر ، دخل إثنان من الخدم يحملان المعاطف والسيوف التي تخص اللاعبين . وبعد أن لبس كل منهم معطفه وتقلد سيفه ، تأبط الرابحون منهم أذرع النسوة واستقلوا عرباتهم ، بينما انسلّ الخاسرون بخفي حنين ... وخيَّم على القاعة صمت الليل الرهيب .

أما صاحبنا بوزير الذي بدا في « الدومينو » الذي كان يلفه وكأنه مهيأ لسفرة طويلة ، فقد أفرغ في جوفه ما تبقى من

كأس الجعة أمامه، وتوجّه الى القاعة المخصصة لاجتماع الشركاء في تلك الاكاديمية حيث وافاه اليها شركاؤه الاثنا عشر، وقد بادرهم بقوله:

- أخيراً، علينا أن نتصارح ونتفاهم.

فقال له البرتغالي ببرودة وبفرنسية سليمة:

- قبل المصارحة والتفاهم عليك أن تتكلم بصوت منخفض.

ثم أخذ البرتغالي يتفحص درف النوافذ والستائر والأبواب وكأن هناك سراً رهيباً سيفضي به ويخشى أن يتسرب الى الخارج، وقال:

- جئت أبلغكم أمراً، ويسرني أني قد وصلت في الوقت المناسب، لأن السيد بوزير يتحرق للكلام بتطرف هذا المساء...

فهمَّ بوزير لئن يجيب، لكن البرتغالي أسكته بقوله:

- عليك أن تحافظ على السلام فيما بيننا، وذلك بأن تكفَّ عن الكلام المبطن والمؤذي. فقد تلفظت بكلمات أقل ما يقال فيها أنها غير لائقة، وأعتقد ان حب الذات يجب أن لا يتغلب على المصلحة المشتركة.

فقال بوزير: لم أفهم قصدك.

وقال بقية الشركاء: ونحن أيضاً لم نفهم.

فأجاب البرتغالي: الواقع أن السيد بوزير قد فقد حسن النية في المشروع ...

فصاح الشركاء دفعة واحدة: أي مشروع؟

وصاح بوزير بملء فمه: مشروع المليوني ليرة!

فهتف الشركاء: مليونا ليرة!.. بربك حدثنا عن هذا المشروع بسرعة.

فقال البرتغالي: لا تكونوا لجوجين أيها الرفاق، فإن هكذا مشروعاً يتطلب التروي والسرية، وها إني سأحدثكم عنه.

فران الصمت على الشركاء وفغروا أفواههم ... أما البرتغالي، فقد كرع كأساً كبيرة ملأى بمشروب «الأورجا» واستمر محافظاً على برودته، ثم قال:

- ليتأكد السيد بوزير، أن العقد لا يساوي اكثر من مليون ونصف المليون من الليرات.

فقال بوزير: آه! إن الأمر يتعلق بعقد!

- نعم يا سيدي، أليس هذا هو مشروعك؟

- قد يكون.

فهزّ البرتغالي كتفه وقال: إن السيد بوزير يلعب دور الكتوم بعد ان لعب دور المفشي للسر.

فأجابه بوزير بقساوة : أراك بكل أسف تتكلم بلهجة لا تروق لي . فإذا شئت أن نضع النقاط على الحروف ، أنا على استعداد لكشف النوايا .

– إن الوقت ضيق يا سيد بوزير ولا يسمح للجدال غير المجدي . فعليك أن تعلم بأن السفير سيصل في خلال ثمانية أيام على الأكثر .

فتناظر بقية الشركاء وأخذوا يتهامسون بهذه الكلمات : « العقد ، مليون ونصف المليون من الليرات ، سفير ... ماذا يعني كل هذا ؟ »

فردّ البرتغالي على تساؤلهم بقوله :

– سوف أختصر لكم الموضوع بكلمتين : إن السيدين بوهمير وبوسانج قد قدما للملكة عقداً من الماس يساوي مليوناً ونصف المليون من الليرات ، لكن الملكة رفضته ، فوقع هذان الصائغان في حيرة من أمرهما، لا يدريان ماذا سيفعلان بالعقد ولا أين يخبئانه ، لأن هكذا عقداً لا يمكن شراؤه إلا بثروة ملكية . أما أنا ، فقد وجدت الشخص الملكي الذي سوف يشتري هذا العقد ويخرجه من خزنة السيدين بوهمير وبوسانج .

فصاح الشركاء : وجدته ... من هو ؟

– إنها عاهلتي الجليلة ، ملكة البرتغال .

أما بوزير، فقد قال في نفسه: «أنا لم أفهم شيئاً حتى الآن». ثم قال موجهاً كلامه الى البرتغالي:

فسِّر لنا بوضوح أيها السيد العزيز مانويل، لأن التباين في الرأي بيننا يجب أن يخضع للمصلحة العامة. فأنت أبو الفكرة، إني أعترف لك بذلك وأتنازل عن كل حق في التبني، ولكن بحق السماء، كن صريحاً وواضحاً.

فكرع مانويل جرعة جديدة من مشروب «الأورجا» دون أن يجيب! وقال امين الصندوق: لقد فهمنا بأن هناك عقداً بقيمة مليون ونصف المليون من الليرات، فهذه نقطة هامة...

فقاطعه بوزير بقوله:

– وهذا العقد موجود في خزنة السيدين بوهمير وبوسانج، وهذه نقطة ثانية، لكن الدون مانويل صرح بأن جلالة ملكة البرتغال سوف تشتري العقد، وهذا ما يحيرنا.

عندئذ قال البرتغالي:

– القضية في منتهى الوضوح، فما عليكم إلا أن تصغوا لكلامي: إن السفارة البرتغالية فارغة، وهناك وكيل بالنيابة. أما السفير الجديد السيد بوزا، فلن يصل قبل ثمانية أيام. ومن يمنع هذا السفير المتشوق لرؤية باريس، من أن لا يصل ولا يستقرّ خلال هذه الأيام؟

فتطلَّع الحضور ببعضهم البعض فاغرين أفواههم ، وقال بوزير :

– عليكم أن تفهموا إذن ، بأن الدون مانويل يريد أن يقول لكم بأنه قد يصل سفير حقيقي ، وقد يصل سفير مزيَّف .

وأضاف البرتغالي قائلاً :

– بالضبط . فاذا كان السفير الذي سيحضر ميالاً لشراء هذا العقد لصاحبة الجلالة ، ألا يملك الصلاحيات التي تخوله ذلك ؟

فقال الحضور : طبعاً ، طبعاً !

– عندئذ سيفاوض السيدين بوهمير وبوسانج . وهذا كل ما في الأمر .

فقال أمين الصندوق في لعبة الفرعونية :

– ولكن عندما يفاوض عليه أن يدفع ، فالسيدان بوهمير وبوسانج لن يسلما العقد الى السفير ، حتى لو كان هذا السفير السيد سوزا بالذات ، إلا لقاء ضمانات محترمة وصالحة لهكذا صفقة . فمن سيدفع والسفارة خاوية خالية ؟

فقال البرتغالي :

– هذا صحيح ، فلا يوَجد في السفارة سوى موثق عقود ، وهو فرنسي نشيط يعرف من اللغة البرتغالية أقل مما يعرفه رجل

المجتمع، لذا يُسرُّ عندما يكلمه البرتغاليون باللغة الفرنسية، وينزعج عندما يكلمه الفرنسيون باللغة البرتغالية.

فقال بوزير: ما العمل إذن؟

- العمل أيها السادة هو أن نقدم أنفسنا لهذا الرجل على أننا الممثلون الحقيقيون للسفارة الجديدة.

- إن الظواهر لا تعوزنا لمثل هذه الخدعة، ولكن الذي يعوزنا هي الأوراق الثبوتية.

- سوف نحصل على هذه الأوراق، وعندما يقتنع موثق العقود بالظواهر والأوراق الثبوتية، نستقرّ في السفارة.

فقال بوزير: وإذا اكتشف موثق العقود الحقيقة؟

- ساعتذاك نصرفه ونستبدله بشخص آخر، وهذا حق من حقوق السفير.

فصاح الجميع: حتماً! حتماً!

فاستوى البرتغالي في جلسته وتابع يقول: إذن عندما نصبح أسياد السفارة، اول عمل مطلوب منا، هو أن نقوم بزيارة السيدين بوهمير وبوسانج.

فأجاب بوزير بعنجهية:

- لا، لا أبداً، تبدو لي أنك تجهل ناحية مهمة أنا ملمّ بها لكوني عشت في بلاطات الملوك. وهي أن عملية كهذه لا يمكن القيام بها بواسطة السفير من دون محاذير. لأنه من

المفروض أن يستقبل السفير بصورة رسمية ، وهنا يكمن الخطر في نظري ، لأن السيدين بوهمير وبوسانج ، سيلاحظان ساعتذاك ركاكة لغتنا البرتغالية ولهجتنا الفرنسية ، وقد يودي بنا هذا الاكتشاف الى سجن الباستيل .

فقال البرتغالي :

- إنك تذهب بعيداً في تصوراتك أيها الرفيق ، فنحن لن نعرّض أنفسنا لهكذا أخطار ، لأننا سنبقى في مركزنا .

- وهل يصدق السيد بوهمير أننا برتغاليون ، وأن من يفاوضه هو سفير البرتغال فعلاً ؟

- سنوهم السيد بوهمير أننا جئنا الى فرنسا في مهمة محددة ، هي شراء العقد ، وأن السفير قد استُبدِل ونحن في الطريق . وسنطلعه على الأمر الوحيد الذي تلقيناه لننوب مكانه ، وهو الأمر الذي سنبرزه لموثق العقود في السفارة . ولكن علينا أن لا نطلع وزراء الملك على هذا الأمر ، لأن الوزراء فضوليون وحذرون ، ولن يتوانوا عن جرّنا الى تفاصيل تثير ارتباكنا .

فصاح الجميع : أوه ! نعم ، لا نريد أي احتكاك بالوزراء .

وقال بوزير متسائلاً : وإذا طلب السيدان بوهمير وبوسانج عربوناً ؟

فارتسمت الحيرة على وجه البرتغالي وأجاب :

– ساعتذاك يتعرقل المشروع .

وتابع بوزير يقول : لأن العادة المتبعة هي أن يحمل السفير أوراق اعتماده ، أو أن يحمل الدراهم اللازمة .

فقال الشركاء بصوت واحد : هذا صحيح .

وأردف بوزير : إن المشروع يتعثَّر ...

فردّ عليه البرتغالي ببرودته المعهودة : أنت دائماً تفتش عن الأسباب التي تعرقل المشروع ، أما الوسائل التي تؤدي الى نجاحه فلا تجهد نفسك في البحث عنها .

– بالعكس ، إني أفتش عن الوسائل التي تذلل الصعوبات ، وأستطيع القول بأني قد وجدتها ...

فأقتربت الرؤوس منه بشكل حلقة ، وأكمل هو يقول : في كل قنصلية يوجد صندوق ، فما رأيكم في صندوق « سفارتنا ؟ »

فأخذوا ينظرون الى بعضهم البعص من دون جواب ... وأخيراً سأل أحدهم : وإذا كان صندوق السفارة فارغاً ؟

وانتظر الرفاق جواب بوزير . أما بوزير فقد حكَّ جبهته وأمعن فكره ، ثم قال :

– لقد وجدت طريقة أفضل . فنحن بصفتنا هيئة السفارة البرتغالية ، يمكننا أن نسأل السيدين بوهمير وبوسانج عن

وكيلهما في ليشبونة، ونوقع لهما تحويلاً على هذا الوكيل بالمبلغ المطلوب، ممهوراً بختم السفارة ومختوماً بالشمع الأحمر.

فانتفض الدون مانويل عند ذاك وقال: هذا كلام منطقي ومعقول. أما ما عداه، فمضيعة للوقت.

وقال بوزير:

– طالما أن حلّ العقدة الأساسية قد اتفقنا عليه، فلنتفق الآن على توزيع الأدوار. فأنا أقترح أن يكون السفير الدون مانويل.

فوافق الحضور بالاجماع، وقال الدون مانويل:

– وأنا اقترح أن يكون السيد بوزير أمين سري وترجماني.

فاعترض بوزير متسائلاً بشيء من القلق: كيف ذلك؟

فقال الدون مانويل:

– إن السيد سوزا الذي سأنتحل شخصيته، أعرفه جيداً. فهو متعصب للغة البرتغالية ولا يتكلم سواها، لذا عليّ أن لا أتلفظ بأية كلمة فرنسية. أما أنت يا سيد بوزير، فبالعكس، لأنك سافرت كثيراً واعتدت على المعاملات التجارية الباريسية، ولأنك تتكلم البرتغالية...

– إني أتكلمها بصعوبة.

– إن إلمامك بها يكفي لإخفاء شخصيتك الباريسية.

- هذا صحيح ... ولكن ...

- كن مطمئناً ... فكل واحد سيناله من الربح قدر ما يستحق.

فوافق الشركاء بقولهم: حتماً، حتماً. ووافق بوزير على أن يكون أمين السر والترجمان، ثم قال أمين الصندوق:

- لنتكلم الآن على اقتسام المبلغ.

فقال الدون مانويل:

- الأمر في منتهى البساطة. فنحن إثنا عشر شخصاً، والحصص يجب أن تكون إثنتي عشرة حصة توزع بالتساوي، باستثناء البعض الذين يستحقون حصة ونصف. فأنا مثلاً، بصفتي أب الفكرة والسفير، أستحق حصة ونصف. وبوزير بصفته أمين السر والترجمان، يستحق حصة ونصف. كذلك الشخص الذي سيتولى بيع الماس يستحق حصة ونصف.

فوافق بوزير بإشارة من رأسه على هذا التوزيع، واقترح أن تترك التفاصيل الى الغد، لأن الوقت أصبح متأخراً، فاحتج الشركاء قائلين:

- لا، لا، لننهِ كل شيء الآن، فما هي هذه التفاصيل؟

- إن التفاصيل تتعلق بالتمركز في السفارة وبدور كل واحد منا، وأخيراً ببعض المصاريف... فالمال عصب كل شيء.

فباشروا في درس هذه التفاصيل وتوزعوا الأدوار فيما بينهم. وعندما وصلوا الى النفقات، سأل الشركاء أمين الصندوق:

- ما هو المبلغ الموجود في الصندوق؟

فقال لهم أمين الصندوق: هاتوا مفاتيحكم لنرى.

فقد كان المخبأ السري للصندوق يلزمه ليفتح إثنا عشر مفتاحاً موزعين على الشركاء كافة، كي لا يتمكن أحد بمفرده من فتح الصندوق. فسحب كل من الرفاق مفتاحه وقدّمه الى أمين الصندوق وتمت عمليه الكشف على رصيد المقمرة، فتبين أنه تسعون ليرة ذهبية، فقال الدون مانويل موجهاً كلامه الى أمين الصندوق:

- أعطِ نصف المبلغ الى السيد بوزير والنصف الباقي لي، فذلك ليس بالكثير علينا، أليس كذلك أيها الرفاق؟

فاقترح بوزير حلاً يرضي الجميع ويظهره بمظهر الرجل الشهم، وهذا الاقتراح يقضي بأن يأخذ هو ثلث المبلغ، والدون مانويل الثلث الثاني، والثلث الباقي يوزع على بقية الرفاق. وهكذا كان من دون أن يعترض أحد.

ثم افترقوا بعد أن تواعدوا على اللقاء في اليوم التالي، وأسرع بوزير الى شارع دوفين وهو يأمل أن يلتقي مجدداً

الآنسة أوليفا وهي باقية على ما كانت عليه بالنسبة له، وأن يحصل منها على ليرات ذهبية جديدة.

السفير

★

في اليوم التالي، حوالى المساء، توقفت عربة أمام بوابة بناء يقع في شارع جوسيان ولا يخلو مظهره من الجمال، وكان الغبار يعلوها لدرجة غدت شعائرها غير مميزة.

وأمام بوابة هذا البناء وقف رجلان ينتظران. أحدهما يلبس ثياب الحفلات والآخر يلبس بذلة بدا فيها وكأنه سويسري في ثياب الأبهة.

وبعد أن ولجت العربة باحة البناء وأُغلقت خلفها البوابة في وجوه الفضوليين، تقدم الرجل الذي يلبس ثياب الحفلات باحترام كلي من باب العربة وتلفَّظ ببعض العبارات بالبرتغالية وبصوت لا يخلو من الارتعاش.

فأجابه ببرتغالية ممتازة صوت من داخل العربة، قال:

- من تكون يا هذا؟

- المستشار غير الجدير بالسفارة، يا صاحب السعادة.

- حسناً ، ولكنك لا تتقن البرتغالية جيداً يا عزيزي ! هيّا . من أين ننزل ؟

- من هنا يا مولاي ، من هنا .

فقال « السفير » الدون مانويل وهو يتكئ على خادم غرفته وأمين سره وقد بدا عريض المنكبين :

- يا له من استقبال حزين !

فقال المستشار بلغته السيئة :

- أرجو المعذرة يا صاحب السعادة ، فقد كنت خارج السفارة في شغل يتعلق بالسفارة ، ومنذ ساعتين فقط وقفت على رسالة سعادتكم ولم يسمح لي الوقت أكثر من فتح الأجنحة وإضاءتها .

- حسناً ، حسناً .

- لقد غمر الفرح فؤادي يا صاحب السعادة ، عندما علمت بأن سفيرنا الجديد هو ذاك الرجل الجليل الطائر الصيت...

- صه ! لا تبح بشيء قبل أن نتلقى أوامر جديدة من ليشبونة . فقط تفضّل وسِرْ بي الى غرفة النوم الخاصة بالسفير ، فإن التعب قد أنهكني . أما أنت ، فابق على اتصال دائم مع أمين سري الذي سيبلغك أوامري .

فانحنى المستشار باحترام أمام بوزير الذي ردَّ على تحيته هذه بتحية عطوف، ثم قال له بلطف مغلف بالسخرية:

- إنك تتكلم الفرنسية يا عزيزي، وهذا الأمر يريحك ويريحني في الوقت نفسه.

فتمتم المستشار قائلاً:

- نعم، نعم، سوف أكون في وضع مريح، لأني سوف أعترف لك يا سيدي بأن لفظي...

فقاطعه بوزير قائلاً: لقد لاحظت ذلك.

فأسرع المستشار الى القول من دون تحفظ:

- سوف أستفيد من هذه المناسبة يا سيدي أمين السر، لأني أجد فيك رجلاً محباً ولطيفاً، سوف أستفيد من هذه المناسبة كما قلت، كي أسألك عما إذا كنت تعتقد بأن سعادة السفير «سوزا» لا يريدني أن أشوّه اللغة البرتغالية هكذا؟

- أبداً، أبداً، إذا كنت تتكلم الفرنسية جيداً.

فرقص قلب المستشار فرحاً وأجاب:

- أنا! إني باريسي من شارع سان أونوريه!

- أوه! هذا شيء يثلج القلب! يبقى أن أعرف اسمك؟ أعتقد أنه ديكورنو؟

- نعم يا سيدي، ديكورنو. وهو اسم جميل، لأن المقطع الأخير فيه هو أسباني، إذا شئت. إن سيدي أمين السر يعرف اسمي، وهذا شي مفرح بالنسبة لي.

- نعم، إني أعرف إسمك لأن سمعتك عطرة، وهذا ما جعلنا نصرف النظر عن استجلاب مستشار من ليشبونة.

- أوه! كم أنا مدين لك يا سيدي امين السر، وكم كان حظي سعيداً عندما وقع الاختيار على السيد «سوزا» كي يخلف الوزير السابق.

وهنا رنَّ الجرس في إحدى غرف السفارة، فقال بوزير: إنه السفير يقرع الجرس.

وأسرع الاثنان يلبيان نداء السفير الذي كان بفضل خادم غرفته قد نزع ثيابه وارتدى مبذلاً بديعاً وأخذ الحلاق الذي استدعي على الفور يسوي من شأنه، ووضعت على الطاولات والأفاريز حقائب السفر التي يدل مظهرها الكاذب على أنها حقائب ذات قيمة كبيرة...

وعندما طرق المستشار وامين السر المزعوم باب غرفته احتراماً قبل الولوج، كان السفير غارقاً في أحد المقاعد يصطلي النار الملتهبة في المدخنة، فقال: ادخلوا، ادخلوا.

وهنا مال المستشار على أمين السر وسأله همساً عمّا اذا كان السفير لا يغتاظ إن هو أجابه بالفرنسية، فقال له بوزير:

- أبداً، أبداً، ادخل ولا يهمك.

فدخل السيد ديكورنو وقدم عبارات المجاملة للسفير باللغة الفرنسية، فقال له السفير بإعجاب:

- أوه! هذا شيء جميل وملائم تماماً. إنك تتكلم الفرنسية بشكل رائع يا سيد ديكورنو!

فقال ديكورنو في نفسه وهو نشوان من الفرح: «إنه يرحب بي كما لو أنني برتغالي».

وأكمل مانويل، أو السفير:

- هل يمكننا أن نتعشى يا ديكورنو؟

- بالطبع يا صاحب السعادة. فالقصر الملكي [1] هو على بعد خطوتين من هنا، وإني أعرف طاهياً ماهراً هناك سيقدم لسعادتك أشهى المأكولات. وأنا بدوري سأستأذن سعادتك، إذا سمحت، بأن أقدم لها بعض زجاجات الخمر الفرنسية

---

١ - عدة أبنية وحدائق أنشأها لومرسيان في العام ١٦٣٣ من أجل ريشيليو، ثم وزعت فيما بعد على أمراء أورليان، وكانت غابة القصر الملكي ملتقى أهل الحب والغرام. ويشغل القسم الاكبر من هذه الابنية حالياً، العديد من دوائر الدولة الفرنسية.

التي لن تتمكن سعادتك من أن تجد مثيلها حتى في « بورتو » ذاتها .

فقال بوزير بسرور :

- آه ! إن المستشار لديه قبو للخمور الجيدة إذن !

فأجاب المستشار بتواضع :

- إن هذا القبو هو مظهر البذخ الوحيد في حياتي .

وقال له السفير :

- إعمل ما يحلو لك يا سيد ديكورنو. هات لنا من خمرتك الطيبة هذه ، وتعال نتعشى سوية .

- إن شرفاً كهذا ...

فقاطعه السفير بقوله :

- من دون رسميات . فأنا اليوم ما زلت مسافراً ، ولن أصبح سفيراً إلا غداً . ثم إننا سنتكلم على أشغال السفارة .

فقال ديكورنو بخجل :

- ولكن ... هل تسمح لي بأن ألقي نظرة على زينتي .

فقال بوزير : إنك رائع فيما أنت عليه .

فقال ديكورنو : زينة استقبال ، لا زينة حفلة .

- إبق كما أنت عليه يا سيد ديكورنو ، فالوقت الذي ستضيعه في استبدال ملابسك بملابس الحفلات ، من الأفضل ان تمضيه في تناول المقبلات .

فترك ديكورنو السفير وأسرع فرحاً الى قبو خموره ليربح عشر دقائق من الوقت يضيفها الى الفترة التي سيتناول في خلالها سعادة السفير مقبلاته .

في هذا الوقت ، أخذ الخبثاء الثلاثة ، أي السفير وأمين سره وخادمه ، أخذوا وقد خلت لهم الغرفة ، يستعرضون أثاثها والأعمال المطلوبة منهم بعد أن تمت سيطرتهم على السفارة بسهولة ، فقال الدون مانويل :

– هل ينام في السفارة هذا المستشار ؟

فأجاب بوزير :

– كلا ، فهذا الرجل المضحك يملك قبو خمور جيد ، ومما لا شك فيه أن لديه خليلة جميلة ، فهو أعزب عتيق .

– والسويسري ؟

– سأتدبر أمره ، إذ يجب أن نتخلص منه .

– وبقية خدم السفارة ؟

– إنهم خدم مستكرون ، وسوف نستبدلهم بشركائنا غداً .

– وما هي حال المطبخ والمكتب ؟

– عدم ! عدم ! فإن السفير السابق لم يكن يظهر في السفارة . فقد كان لديه منزل في المدينة .

– وما هي حال الصندوق ؟

فقال بوزير :

– بشأن الصندوق ، من اللائق أن تسأل المستشار . واذا شئت ، فإني أتكفل بذلك ، لأننا قد أصبحنا أفضل صديقين في العالم .

– أصمت !.. فها هو آتٍ .

وبالفعل كان ديكورنو قد عاد وهو يحمل ست زجاجات من الخمر ومظاهر الفرح على وجهه . وما أن وطأت قدماه عتبة الباب حتى بادر السفير بقوله :

– ألا تريد سعادتك أن تنزل الى قاعة الطعام ؟

فأجابه السفير : لا ، أبداً ، لا ، أبداً ، لنأكل هنا في الغرفة قرب النار ، كعائلة واحدة .

– لقد ملأت قلبي فرحاً يا مولاي ... هاك الخمرة .

فتناول بوزير إحدى الزجاجات ورفعها بمحاذاة ضوء إحدى الشموع وصاح قائلاً : آه ! إنه الزبرجد !

وقال السفير موجهاً كلامه الى المستشار :

– إجلس يا حضرة المستشار ! إجلس إلى أن يرتب خادم غرفتي المائدة .

فجلس ديكورنو ، ثم سأله السفير :

– أي يوم وصلت فيه آخر البرقيات ؟

- عشية سفر خلفك يا صاحب السعادة .

- حسناً . هل السفارة في حالة جيدة ؟

- أوه ! بالتأكيد يا مولاي .

- أليس هناك مشاكل مالية ؟

- لا ، لا أعتقد .

- أليس هناك ديون ؟.. أوه ! قل إذا كان هناك ديون كي نبدأ بدفعها . فإن خلفي كان شخصاً يتقن فنون المغازلة ، وعلي أن أتحمل نتيجة مغامراته ككفيل متضامن .

- شكراً لله يا مولاي ، فلن تكون بحاجة الى ذلك . إذ إن الديون قد دفعت منذ ثلاثة أسابيع ، وغداة سفر السفير السابق بالذات ، تلقت السفارة مبلغ مئة الف ليرة .

فصاح بوزير والدون مانويل بصوت واحد وقد رقص قلباهما فرحاً :

- مئة ألف ليرة ؟

فقال ديكورنو : وذهبية أيضاً !

فردد عبارة « وذهبية أيضاً » كل من السفير وأمين السر ، وحتى خادم الغرفة .

ثم سأل بوزير المستشار وهو يبلع ريقه ويحاول إخفاء مشاعره :

- هذا يعني أن الصندوق يحتوي على ...

- على مئة ألف وثلاثماية وثمانٍ وعشرين ليرة ذهبية يا حضرة أمين السر.

فقال الدون مانويل ببرودة:

- إنه مبلغ قليل... لكن صاحبة الجلالة قد وضعت بكل سرور مبالغ من المال تحت تصرفنا.

ثم تابع يقول موجهاً كلامه الى بوزير:

- لقد كنت صارحتك يا عزيزي بأن المال سيعوزنا في باريس.

فأجاب بوزير باحترام:

- سوى أن سعادتك قد اتخذت احتياطاتها بشأن هذا الموضوع.

وبعد هذا التصريح الهام الذي فاه به المستشار، غدا جو السفارة مسرحاً للمرح والضحك. وكان ديكورنو أكثر الحضور غبطة وانشراحاً، فأكل وشرب كعشرة أشخاص، وشكر السماء التي أرسلت إليه سفيراً يفضل اللغة الفرنسية على اللغة البرتغالية والخمور البرتغالية على الخمور الفرنسية.

وبينما كان يسبح في هذه الغبطة التي تتصاعد الى الرأس من المعدة الملأى بالمأكولات الشهية والخمور المعتقة، طلب اليه «السفير سوزا» أن يذهب الى فراشه، بعد أن استجوبه ما فيه الكفاية. فنهض ديكورنو وانحنى أمام السفير حتى كاد

يلامس الأرض، تعبيراً عن احترامه، وخرج من الباب متجهاً نحو الشارع ومتحسراً على تلك الجلسة الحميمة التي لم تدم حتى انبلاج الفجر كما كان يشتهي ويتمنى.

أما بوزير والدون مانويل فلم يكونا قد احتفيا كفاية بخمرة السفارة كي يستسلما الى الرقاد في الحال. عدا أن «خادم الغرفة» يجب أن يتعشى هو الآخر بعد أن تعشى «أسياده».

وقبل أن يسدل الستار عن الفصل الأول من التمثيلية التي أخرجها السفير وأمين سره، رسم الشركاء الثلاثة مخطط الغد، ثم قاموا بجولة استطلاعية على سائر أقسام السفارة، بعد أن تأكدوا من أن الحارس السويسري قد استغرق في نومه.

السيدان بوهمير وبوسانج

★

في اليوم التالي، وبفضل همة ديكورنو ونشاطه، خرجت السفارة البرتغالية من جمودها. فالمكاتب المشرعة الابواب، والموظفون المزيفون وادوات الكتابة، وجوّ الابهة، ووقع حوافر الجياد في الباحة، كل ذلك قد بدّل جوّ الجمود الذي كانت

عليه السفارة في اليوم السابق، بجو حركة لفتت الأنظار وانتشر الخبر في المنطقة بأن شخصية كبيرة قد وصلت من البرتغال أثناء الليل.

وهذه الضجة التي كان من المفروض أن تخدم المحتالين الثلاثة، أعطت نتيجة معكوسة، وسببت لهم الهلع والخوف.

فالواقع أن آذان رجال الشرطة التابعين للسيدين دي غروسن ودي بريتاني كانت رهيفة السمع، وعيونهم كانت حادَّة البصر، خصوصاً عندما يكون الأمر متعلقاً بدبلوماسيين برتغاليين.

لكن الدون مانويل، حمل بوزير على الاعتقاد بأنه مع قليل من الجرأة سيفشِّلون رجال المباحث ولن يكوننَّ موضع شك قبل ثمانية أيام، كما أن هذا الشك لن يصبح يقيناً قبل خمسة عشر يوماً. إذن لن يزعج سير أعمال الشركة شيء قبل عشرة أيام كحدٍ وسط، وعلى الشركة إن أحسنت التصرف أن تنهي أعمالها خلال ستة أيام.

وكان بقية أعضاء الشركة التسعة قد وصلوا الى السفارة عند بزوغ الفجر بواسطة عربتين إثنتين، وبهم اكتمل ملاك الموظفين... وعلى الفور قام بوزير بتوزيعهم، فجعل واحداً أميناً للصندوق، وواحداً مسؤولاً عن الأرشيف، وأحلَّ ثالثاً مكان السويسري الذي منحه ديكورنو ذاته مأذونية بحجة أنه

لا يتقن البرتغالية . وهكذا وزع بقية الرفاق حتى غدت أقسام السفارة كلها مشغولة بالموظفين المزيفين الذين بات عليهم أن يدافعوا عن السفارة ضدَّ كل منتهك لحرمتها ...

وحوالى ظهر ذلك اليوم ، ارتدى الدون مانويل - أو السفير سوزا - ثيابه الرسمية الفخمة واستقل عربة في غاية النظافة كان بوزير قد استأجرها بمبلغ قدره خمسماية ليرة في الشهر ، وانطلق بها باتجاه السيدين بوهمير وبوسانج ، وقد اصطحب معه أمين سره وخادم غرفته .

أما المستشار ديكورنو ، فقد تلقى الأمر ، كما هي العادة في غياب السفير ، بأن يصرّف الأعمال المتعلقة بجوازات السفر ، ودفع النفقات الطارئة والإعانات ، شرط أن لا يعطى أي مبلغ مهما كان زهيداً ، أو أن يدفع أي حساب ، إلا بعد موافقة أمين السر .

وعندما وصلت عربة « السفير » الى امام مكتب الصائغين بوهمير وبوسانج ، ترجل منها خادم غرفته وطرق بتواضع الباب الحديدي الذي كان مقفلاً بالأقفال الضخمة الشبيهة بأقفال السجون ، ففتحت إذذاك كرة صغيرة انطلق منها صوت يسأل خادم الغرفة عما يريده ، فقال :

- إن سعادة سفير البرتغال يريد التكلم مع السيدين بوهمير وبوسانج .

وللحال ظهر وجه في الطابق الاول ، ثم سمعت خطوات مسرعة تهبط الدرج ، وفتح الباب . وكان هذا الوجه وجه السيد بوهمير الذي أسرع لاستقبال سعادة السفير بذراعين مفتوحتين .

وبينما كان الدون مانويل يصعَد الدرج الى الطابق الأول والسيد بوهمير يرحب به معتذراً ، لاحظ بوزير أن خادمة مسنَّة قد أغلقت الباب وراءهم وأقفلته بالأقفال الضخمة كما كان ، فوقف مستغرباً ، مما جعل السيد بوهمير يقول له :

– عذراً يا سيدي . فنحن معرَّضين جداً في مهنتنا الشاقة ، لذا اعتدنا أن نتخذ جميع الاحتياطات التي تقينا شرَّ اللصوص .

ولاحظ بوهمير أن الدون مانويل بقي هادئ الأعصاب غير مكترث لما قاله ، فردد على مسامعه الكلام نفسه ، مما جعل بوزير يبتسم ابتسامة رضى ، أما السفير فقد استمرَّ في برودته ولم ينبس ببنت شفة ، فعاد بوهمير وقال له :

– أرجو المعذرة يا سعادة السفير ...

فقاطعه بوزير بقوله :

– إن سعادة السفير لا يتكلم الفرنسية ، ولكني سأنقل اليه اعتذارك . ثم أنت ، ألا تتكلم البرتغالية ؟

– لاْ يا سيدي ، لا .

- لا بأس، سوف أكون ترجمانك اليه .

وبعد أن رَطَن بوزير بعض الكلمات البرتغالية مع الدون مانويل، وردَّ عليه هذا الأخير باللغة نفسها، استدار نحو السيد بوهمير وقال له :

- إن سعادة الكونت دي سوزا، سفير صاحبة الجلالة الوفية جداً، قد تنازل وقبل اعتذارك يا سيدي، وكلفني بأن أسألك عما إذا كان صحيحاً بأن لديك عقداً جميلاً من الماس .

فرفع بوهمير رأسه وأخذ يقيس بوزير، الذي وقف وقفة الرجل الديبلوماسي، من قمة رأسه الى أخمص قدميه، ثم أجابه بلهجة هادئة :

- عقداً من الماس؟ أيريد صاحب السعادة عقداً في غاية الروعة والبهاء؟

- يريد العقد الذي سبق لك أن عرضته على ملكة فرنسا . فصاحبة الجلالة الوفية جداً، قد سمعت بهذا العقد .

فقال بوهمير : هل يكون سيدي ضابطاً مرافقاً لسعادة السفير؟

- إنني أمين سره الخاص يا سيدي .

فلم يحر بوهمير جواباً، بل شرد ساهماً في بحر تفكيره، بينما كان الدون مانويل يجلس بعظمة الأسياد مسرحاً الطرف

عبر النافذة في نهر السين الذي كانت الشمس تغمره في ذلك الوقت ، وقد أخذ الثلج يذوب ويتساقط عن شجرات الحور الكبيرة على ضفتيه .

فقطع بوزير على الصائغ حبل تفكيره ، وقال له :

– يبدو لي أنك لم تسمع كلمة مما قلته لك ؟

فأجاب بوهمير : كيف يا سيدي ؟ ولكني ...

– ولكنك ماذا ؟ إن سعادة السفير قد عيل صبره كما يتراءى لي يا حضرة الصائغ .

فصبغت الحمرة وجه بوهمير ، وقال :

– عفوك يا سيدي ، فليس لي الحق بأن أعرض العقد قبل حضور شريكي ، السيد بوسانج .

– حسناً ، إنده شريكك .

عند ذاك ، نهض الدون مانويل وتقدم وأجرى ، ببرودة تتّسم بالعظمة ، حديثاً قصيراً باللغة البرتغالية مع بوزير ، أحنى خلاله هذا الأخير عدة مرات رأسه باحترام كلي ، ثم استدار السفير وعاد الى تأملاته عبر النافذة ، بينما اتجه بوزير الى الصائغ بوهمير ، وقال له :

– لقد قال لي سعادة السفير بأنه ما زال على استعداد لأن ينتظر عشر دقائق فقط ، مع العلم بأن مثل هذا الانتظار لم يتعود عليه حتى في مقابلته للملوك ...

فانحنى بوهمير احتراماً، ثم أمسك بحبل جرس صغير وشدَّه. وما هي دقيقة واحدة حتى دخل الغرفة شخص آخر، وكان هذا الشخص شريكه، السيد بوسانج.

وبعد أن أطلعه بوهمير بكلمتين على المقصود، ألقى بوسانج نظرة على كلا الرجلين البرتغاليين، ثم طلب من بوهمير مفتاحه كي يفتح الخزنة. فقال بوزير في نفسه: «يبدو لي أن هذين الرجلين يحذران بعضهما البعض كما لو أنهما لصان».

وبعد عشر دقائق، عاد بوسانج حاملاً علبة جواهر في يده اليسرى، ويده اليمنى مدسوسة تحت سترته. فلاحظ بوزير بروز مسدسين، وقال الدون مانويل بوقاره، ودائماً بالبرتغالية:

- إن وجودنا يفرض الاحترام والثقة الكلية. ومع ذلك، فإن هذين التاجرين يتصرفان معنا كما لو أنهما يتصرفان مع لصوص لا مع سفراء!!

قال هذا ونظر ملياً في وجهي الصائغين ليتأكد إن كانا يفهمان البرتغالية. ولكن بوهمير وبوسانج لم يظهر على وجهيهما أي تأثر.

ولكن الشيء الوحيد الذي ظهر، هو عقد من الماس يبهر الأبصار في روعته وتألقه، قدَّمه بوسانج في علبته الجميلة الى

السفير الذي ما أن ألقى نظرة عليه ، حتى التفت الى أمين سره وقال له بغضب :

– قل لهذين الرجلين بأن مزاجهما سمج وفي غير محله !.. قل لهما بأني سأشتكيهما الى رئيس وزراء فرنسا ، وأني باسم صاحبة الجلالة مليكتي سألقي في الباستيل بهذين الوقحين اللذين حاولا خداع سفير البرتغال .

قال هذه الكلمات وقذف بظاهر يده ، وبحركة عصبية ، علبة الجواهر على الطاولة أمامه !

ولم يحتج بوزير الى ترجمة كل ما قاله السفير ، لأن حركاته وانفعالاته قد كفّت ووفّت .

ولما حاول الصائغان الاعتذار بحجة أن العادة جرت في فرنسا بأن يعرض الصائغ نموذجاً عن العقود الماسية تداركاً للسرقة ، وحتى اذا ما تمت الصفقة جاء بالعقد الحقيقي وسلمه الى الشاري . لما حاول ذلك ، بدرت من السفير حركة انفعالية واتجه نحو الباب تلاحقه عيون التاجرين القلقة ، وتابع بوزير يقول :

– إن سعادة السفير قد كلفني بأن أعبّر لكما عن سخطه الشديد لوجود أناس يحملون لقب « صاغة التاج الفرنسي » ، وبالوقت نفسه لا يميزون بين سفير ونذل ، وأن سعادته قد انسحب الى مقرّ السفارة .

فعاد بوهمير وبوسانج الى الاعتذار وقد بدا القلق على وجهيهما ، إلا أن « السفير سوزا » أكمل طريقه وخرج من الباب ، بينما كان الصائغان منحنين حتى الأرض ...

ثم لحق بوزير بمعلمه فخوراً أنوفاً . وبعد أن فتحت لهما الخادمة المسنَّة الباب وأصبحا خارجاً ، صاح بوزير بخادم الغرفة :

- الى مقر السفارة في شارع جيسيان .

وبدوره صاح خادم الغرفة بالحوذي :

- الى مقرّ السفارة في شارع جيسيان .

ولما انطلقت بهم العربة ، قال خادم الغرفة : لقد فشل المشروع .

فأجابه بوزير : بل لقد نجح . فبعد ساعة سيكون هذان الصائغان عندنا في السفارة .

في السفارة

★

عندما عاد « الفرسان الثلاثة » الى السفارة ، كان ديكورنو يتناول عشاءه في مكتبه وهو ناعم البال قرير العين . فدخل عليه بوزير ورجاه بأن يصعد لمقابلة السفير . ثم أردف قائلاً :

– أنت تعلم أيها المستشار العزيز، بأن رجلاً كالسيد سوزا، ليس سفيراً عادياً.

فقال المستشار: لقد لاحظت ذلك يا سيدي.

وتابع بوزير يقول:

– إن سعادته يريد أن يحتل مكانة مرموقة في باريس بين الأثرياء وأهل الذوق. أريد أن أقول لك بأن هذا البناء الحقير، في شارع جيسيان، ليس لائقاً به. لذا يجب أن نجد مقراً آخر خاصاً بالسيد سوزا.

فقال المستشار:

– ولكن ذلك يعقد المعاملات الديبلوماسية، إذ سيتوجب علينا عند ذاك أن نعدو كثيراً وراء تواقيعه.

فأجاب بوزير قائلاً:

– أوه! إن سعادة السفير سيضع تحت تصرفك عربة أيها العزيز ديكورنو.

فصاح ديكورنو وقد كاد يغمى عليه من شدة الفرح:

– عربة لي!!

– إن السفير مستاء لأنك لم تخصص بعربة حتى الآن. فمستشار في سفارة ليس بجدارتك، يستحق عربة، كم بالحري أنت ... ولكن هذه التفاصيل سنتكلم عليها في

الوقت والمكان المناسبين. أما الآن، فلنقدم تقريراً الى سعادة السفير عن السياسة الخارجية. وبالمناسبة، أين هو الصندوق؟

- فوق يا سيدي، في جناح السفير ذاته.

- ولكنه بعيد عنك!

- التدابير الأمنية تقضي بذلك يا سيدي، فصعود اللصوص الى الطابق الأول، أصعب عليهم من دخولهم الطابق الأرضي.

فقال بوزير باحتقار:

- لصوص! من أجل مبلغ زهيد!

- إرحمني يا رب! مئة ألف ليرة مبلغ زهيد! يبدو أن السيد سوزا غني جداً. فكل صناديق السفارات لا تحتوي على مئة ألف ليرة.

- أتسمح بأن نتثبَّت من المبلغ؟ إني مستعجل، فلدي أشغال كثيرة.

- في هذه اللحظة يا سيدي، في هذه اللحظة.

قال ديكورنو ذلك وأسرع الى الطابق الأول يلحق بوزير، حيث تم التثبت وظهرت الليرات متألقة. نصفها ذهباً ونصفها الآخر فضة.

ثم قدم ديكورنو مفتاح الخزنة الى بوزير. فتناوله هذا وأخذ يتأمل حطوطه المتشابكة بإعجاب... وبطريقة ماهرة وفي

غفلة عن عيني ديكورنو، نقش طابعه على قطعة من الشمع الأحمر، ثم أعاده الى المستشار وقال له:

- احتفظ به يا سيد ديكورنو، فهو في يديك أفضل من أن يكون في يديَّ. هيَّا، لنذهب الى السفير.

وذهبا فوجدا الدون مانويل مكباً على دراسة أوراق مملوءة بالأرقام، فما أن رأى المستشار حتى بادره سائلاً:

- هل تعرف شيفرة المراسلات القديمة.

- كلا يا صاحب السعادة.

- يا للعجب! أريدك من الآن فصاعداً أن تكون ملماً بها، وبذلك تريحني من هذا الأسلوب ومن التفاصيل المزعجة.

ثم التفت نحو بوزير وسأله: بالمناسبة ... الصندوق؟

فأجابه بوزير: إنه بحالة ممتازة، ككل الأمور التي هي باستلام السيد ديكورنو.

- والمئة ألف ليرة؟

- موجودة نقداً يا سيدي.

- حسناً، إجلس يا سيد ديكورنو، فسوف أطلب منك بعض المعلومات.

فقال المستشار وقد أشرق وجهه:

- أنا رهن أوامرك يا صاحب السعادة.

قال هذا وقدم مقعده من السفير الذي قال له :

- إنه عمل مهم يا سيد ديكورنو ، وأنا بحاجة الى معلوماتك . هل تعرف صاغة شرفاء في باريس ؟

- أعرف السيدين بوهمير وبوسانج ، صائغي التاج الملكي .

- لا لا ، لا أريد التعامل مع هذين الصائغين ، فلقد تركتهما ولا أريد رؤيتهما من جديد .

- وهل أساءا إلى سعادتك ؟

- كثيراً يا سيد ديكورنو ، كثيراً .

- آه ! لو أستطيع أن أكون أقل تحفظاً ، لو كنت أجرؤ ..

- تجرأ وقل ما عندك .

- لو تجرأت لسألت سيدي : بماذا هذان السيدان الشهيران في مهنتهما ...

- إنهما يهوديان حقيقيان يا سيد ديكورنو ، وأساليبهما الدنيئة قد جعلتهما يخسران مليوناً أو مليونين !!

فصاح ديكورنو صيحة عجب ، وتابع الدون مانويل يقول :

- لقد كلفتني صاحب الجلالة الوفية جداً ، بأن أفاوض في شراء عقد من الماس لها .

- نعم ، نعم ، إنه العقد الشهير الذي أوصى عليه الملك الراحل للسيدة دي باري ، إني أعلم ، إني أعلم .

- إنك رجل ذو قيمة ومطلع على كل شيء. حسناً، كان بودي أن أشتري هذا العقد، ولكني عدلت عن شرائه بعد قلة الذوق التي بدرت من الصائغين المذكورين.

- أيتوجب علي أن أقوم بمسعى؟

- سيد ديكورنو!

- مسعى ديبلوماسي يا سيدي، ديبلوماسي صرف.

- حبذا لو كنت تعرف هذين الصائغين.

- إن بوسانج هو ابن عمي الصغير وفقاً للتقاليد البريتانية [١].

فأخذ مانويل وبوزير يتناظران ويفكران وقد خيَّم الصمت على الجميع... وفجأة فتح أحد الخدم الباب وأعلن:

- السيدان بوهمير وبوسانج!

فانتفض الدون مانويل واقفاً وصاح غاضباً:

- أطرد هذين الشخصين.

فانبرى الخادم كي ينفذ الأمر. لكن الدون مانويل أوقفه وقال لأمين سره:

- إذهب أنت واطردهما بنفسك.

---

١ - بريتانيا، مقاطعة في فرنسا.

وهنا صاح ديكورنو متوسلاً: بحق السماء يا سيدي، دعني أنفّذ أمرك بنفسي. فسوف ألطّفه لأنني لا أستطيع التملص منه.

فقال الدون مانويل بلا مبالاة.

- إفعل إذا شئت.

فخرج ديكورنو بأقصى السرعة. وفي نفس البرهة تقدم بوزير من الدون مانويل الذي بادره بقوله:

- آه! كيف تصرفنا هذا التصرف! إن مشروعنا قد فشل.

فأجابه بوزير:

- لا، إنه لم يفشل. فديكورنو سيرتب الأمر.

- بالعكس، سيزيده تعقيداً ذلك الشقي! فأنا تكلمت البرتغالية وحدها عند الصائغين، وأنت قلت لهما بأني لا أعرف أية كلمة فرنسية، لذا سيفضحنا ديكورنو.

- إذن سألحق به.

- إياك أن تفعل، وإلا فضحت نفسك.

- كلا، لن أفضح نفسي، اترك لي حرية التصرف وسترى.

- أنت وشأنك.

وخرج بوزير مسرعاً.

أما ديكورنو فقد وجد في الخارج بوهمير وبوسانج ومظاهر الحيرة والارتباك بادية على وجهيهما . فما أن وقع نظرهما على ديكورنو حتى صاح بوسانج صيحة فرح وقال :

- أأنت هنا ؟!

وتقدم ليقبله ، فقال له ديكورنو :

- آه ! آه ! إنك لطيف جداً . لقد تعرفت علي يا ابن العم الثري . فهل لأنني في سفارة ؟

فقال بوسانج : الحقيقة أننا قد افترقنا عن بعضنا قليلاً ، فاغفر لي يا ابن العم ، وتكرم علي بخدمة .

- ها إني قد جئت من أجل ذلك .

- أوه ! شكراً ، شكراً . هل أنت ملحق بالسفارة ؟

- طبعاً .

- إذن نريد منك معلومات .

- عن أي شيء وبخصوص أي شيء ؟ ،

- عن السفارة ذاتها .

- أنا المستشار فيها .

- أوه ! عظيم ! نريد التحدث مع السفير .

- أنا آتٍ من قبله .

- من قبله !! كي تقول لنا ؟...

- كي أقول لكما بأنه يرجوكما الخروج حالاً من السفارة، وبسرعة يا سيديَّ.

فأخذ الصائغان يتناظران بحيرة وخجل، وأكمل ديكورنو يقول:

- لأنكما كنتما غير لائقين معه وغير شريفين، كما يبدو.

- استمع الينا إذن.

فأجابهما بوزير الذي كان قد ظهر على عتبة الغرفة، ببرودة وعجرفة:

- من غير المفيد الاستماع إليكما!

ثم التفت نحو ديكورنو وتابع يقول:

- لقد قال لك سعادته يا سيد ديكورنو، بأن تطرد هذين السيدين، فاطردهما، هيّا!

قال بوزير ذلك وقفل راجعاً. فأمسك المستشار بيمناه كتف قريبه اليمنى، وبيسرها كتف شريكه اليسرى، ودفعهما الى الخارج بلطف وهو يقول:

- إن تصرفكما قد جعل الصفقة تفلت من أيديكما.

فهمهم بوهمير، وقد كان المانياً: يا إلهي! يبدو أن هؤلاء الأغراب نزقون وسريعو التأثر.

فأجابه المستشار:

- إن من يكون حاملاً اسم « سوزا » ، وإيراده السنوي تسعماية ألف ليرة يا ابن العم العزيز ، له الحق أن يكون كما يشاء .

فتنهد بوسانج وقال :

- آه ! لقد قلت لك يا بوهمير ، بأن تصرفاتك غير لائقة .

فردّ عليه الالماني العنيد قائلاً :

- لا تأسف ، فإن لم تكن لنا دراهمه ، لن يكون له عقدنا .

وكان الصائغان قد أصبحا على مقربة من البوابة الخارجية ، عندما أخذ ديكورنو يضحك ، ثم قال لهما باحتقار :

- أتعلمان من هو هذا البرتغالي ؟ أتعلمان من هو هذا السفير البورجوازي ؟ طبعاً لا . حسناً ! سوف أقول لكما من هو : إنه سفير محظيّ من قبل جلالة ملكة البرتغال ، إنه السيد سوزا المستعد ان يشتري كل مناجم البرازيل (١) كي يستخرج منها للملكة ماسة تساوي بحجمها ما لديكما من أحجار ماسية . إن هذا العمل سيكلفه عشرين مليوناً ، أي ما يعادل

---

١ - لقد كانت البرازيل في ذلك الوقت بلد الاستيراد للبرتغال، ثم أصبحت فيما بعد مرتبطة بالمملكة البرتغالية.

ريعه لمدة عشرين سنة. ولكن ذلك لا يهمه، طالما أنه ليس لديه أولاده.

قال ديكورنو هذا وهمَّ ليغلق الباب، فحاول بوسانج إغراءه بقوله:

- أرجوك ان تدبر لنا الأمر، وستكون لك...

فقاطعه ديكورنو بقوله: هنا لا يمكن إصلاح ما بدر منكما.

وصفق الباب.

وفي مساء ذلك اليوم، تلقى السفير الرسالة التالية:

« سيدي،

« إن على باب مقركم رجلاً ينتظر أوامركم ويرغب في المثول بين يديكم ليقدم لكم اعتذارات واحترامات خادميكم، وهو بانتظار إشارة من سعادتكم ليضع بين أيدي من تختارونه العقد الذي حظي بشرف إعجابكم.

« تفضل واقبل يا سيدي فائق احترامنا...

« بوهمير وبوسانج.»

عندما قرأ الدون مانويل هذه الرسالة، ابتسم وقال:

- لقد أصبح العقد في حوزتنا.

أما بوزير، فقد أبدى رأيه بقوله:

- لن يصبح العقد في حوزتنا، إلا إذا اشتريناه، فلنشتره!

– كيف ؟

– إن سعادتك لا تتقن الفرنسية ، وهذا شيء موافق . فعلينا بادئ ذي بدء أن نتخلص من المستشار .

– بأية طريقة ؟

– بطريقة في غاية السهولة . يجب إرساله في مهمة ديبلوماسية هامة ، وأنا أتكفل بذلك .

فقال الدون مانويل : إنك على خطأ ، فهو الآن ضمانة لنا .

– ولكنه سيصرح بأنك تتكلم الفرنسية مثلي ومثل السيد بوسانج .

– لن يصرح بذلك ، وأنا أتكفله .

– كما تشاء . إذن استدعِ رجل الماس .

فأدخل الرجل الذي كان السيد بوهمير بذاته . وبعد ان انحنى احتراماً حتى كاد يلامس الأرض ، وأخذ يقدم اعتذاراته بأسلوب فيه كل الخضوع والطاعة ، قال له بوزير :

– يكفي ما قدمت من براهين على حسن نيتك ، إنك والحق يقال تاجر معتبر . فاجلس كي نتحدث ، طالما أن سعادة السفير قد غفر لك .

فتنهد بوهمير وقال : أفٍ كم يستوجب بيع الماس من مشقة !

أما بوزير، فقد قال في نفسه: «أفٍ كم تستوجب سرقة العقد من مشقة!»

الصفقة

★

عندئذ قبل السفير بأن يتفحص العقد ملياً. فأخذ السيد بوهمير يشرح له روعة بهائه حبة حبة. ولما انتهى من شرحه قال له بوزير نيابة عن الدون مانويل الذي كان يتكلم البرتغالية:

– لا مأخذ لسعادة السفير على مجمل العقد كعقد. أما حبات الماس فيه فشيء آخر، إذ أن سعادته قد لاحظ بأنها غير متساوية.

فصاح بوهمير مستفظعاً! أوه!...

فقال له بوزير:

– إن سعادته ملمٌّ بالماس أكثر منك لو تعلم: فنبلاء البرتغال يلعبون بالماس، في البرازيل، كما يلعب الأولاد هنا بالزجاج!

وفي الواقع كان الدون مانويل قد لمس بأصابعه عدة حبات في العقد ولاحظ بكثير من الدقة والحساسية بعض الشائبات التي لا تدرك، والتي لا يستطيع اكتشافها إلا من أُوتي خبرة في الماس لا تضاهى، مما اضطر السيد بوهمير إلى أن يقول له مندهشاً من اكتشافه الذي دل فيه على أنه سيد من أسياد خبراء الماس :

- مع ذلك، فإن هذا العقد يا سعادة السفير، يضمّ أروع مجموعة من الماسات الموجودة في أوروبا .

فأجابه الدون مانويل : هذا صحيح .

وأضاف بوزير بإشارة منه :

- حسناً يا سيد بوهمير . الواقع أن صاحبة الجلالة، ملكة البرتغال، قد طرق مسامعها الحديث عن هذا العقد، وكلفت سعادة السفير أن يفاوض بأمر شرائه بعد أن يطّلع عليه، ولقد وافق سعادته على شرائه . فبكم تودون بيع هذا العقد ؟

فقال بوهمير : إن ثمنه هو مليون وستماية ألف ليرة !

فردد بوزير المبلغ على مسامع السفير بالبرتغالية، فقال الدون مانويل :

- إن الثمن باهظ جداً !

فقال الصائغ :

- لا يمكننا يا سيدي أن نقدر قيمة الارباح بالضبط بالنسبة الى هذه التحفة. فهذا العقد، قد استوجب لجمع ماساته الكثير من التفتيش والسفر، وكلها مجهودات لا يستطيع تقديرها إلا من قام بها.

فعاد السفير وقال مرة ثانية: ولكنه غالٍ مع ذلك.

وأردف بوزير قائلاً:

- كي يقول سعادة السفير بأن الثمن باهظ، يجب أن يكون اقتناعه راسخاً. لأن سعادته لا يحب المساومة أبداً.

فتململ بوهمير قليلاً، لأن لا شيء يزعزع ثقة الباعة المشككين سوى الشاري الذي يحب المساومة. ثم قال بعد برهة من التردد:

- لا يمكنني الموافقة على إنقاص الثمن الذي قد يقلل من المكاسب بيني وبين شريكي، أو قد يسبب لنا خسارة.

فلما استمع الدون مانويل الى ترجمة بوزير عمَّا قاله الصائغ، نهض واقفاً من دون اكتراث. وبدوره بوزير أطبق العلبة التي تحتوي العقد وناولها الى بوهمير.

فاضطر بوهمير امام عدم الاكتراث هذا الى أن يقول:

- على كل الأحوال سأعرض الأمر على شريكي السيد بوسانج. فهل يقبل سعادة السفير؟

فسأل السفير بوزير: ماذا يودّ أن يقول؟

فقال بوهمير :

– أودّ القول بأن سعادة السفير يبدو وكأنه قد دفع بالعقد مليوناً ونصف المليون .

فقال بوزير : نعم .

فسأله : هل سعادته ثابت على هذا الثمن ؟

– إن سعادته لا يتراجع إطلاقاً في كلامه ، ولكن سعادته تزعجه المساومة كثيراً .

فقال الصائغ :

– أليس من حقي وواجبي يا حضرة امين السر ، أن أتفاوض مع شريكي وأنال موافقته ؟

– أوه ! بالطبع ، بالطبع يا سيد بوهمير .

وقال الدون مانويل بالبرتغالية بعد ان استمع الى الترجمة :

– بالطبع له الحق . ولكني قدمت حلاً سريعاً ومعقولاً .

فقال الصائغ :

– حسناً يا سيدي . إذا قبل شريكي التخفيض ، فأنا أقبل به مسبقاً .

– حسناً .

– اذن ، الثمن في الوقت الحاضر هو مليون ليرة ونصف المليون .

- ليكن .

فقال بوهمير : لم يبق إذن إلا أن أحصل على موافقة السيد بوسانج .

- موافق !

- تبقى فقط طريقة الدفع .

وهنا قال بوزير :

بخصوص الدفع ، ليس هناك أية صعوبات . كيف تريد أن تقبض الثمن ؟

فأشرق وجه بوهمير وأجاب : إذا كان ممكناً ، ليكن الدفع نقداً .

فقال بوزير ببرودة : ماذا تعني بالدفع نقداً ؟

- أوه ! إني أعلم بأنه ما من أحد يحتفظ في خزنته بمبلغ مليون ونصف المليون من القطع النقدية .

- إذن طلبك يحيّر يا سيد بوهمير ! مع ذلك ، سأسأل حضرة السفير كم باستطاعته أن يدفع نقداً .

ثم التفت الى الدون مانويل وسأله .

- كم باستطاعة سعادتك أن تدفع نقداً للسيد بوهمير ؟

فقال البرتغالي : مئة ألف ليرة !

فترجم بوزير كلامه الى الصائغ ، فقال هذا الأخير :

- والباقي ؟

- الباقي يلزمه الوقت الذي يتطلبه وصول تحويل سعادة السفير من باريس الى ليشبونة . هذا إذا كنت لا تفضل رجوع الموافقة بالدفع من ليشبونة الى باريس .

فقال بوهمير :

- أوه ! نحن لدينا عميل في ليشبونة ، فإذا ما كتبنا إليه ...

فقال بوزير وهو يضحك بتهكم :

- عظيم ! أكتب له واسأله إذا كان السيد سوزا موسراً أم لا ، وإذا كان تحويل مبلغ مليون وأربعماية ألف ليرة على جلالة الملكة مقبولاً أم لا .

فصاح بوهمير مرتبكاً : سيدي ...

- إذن هل تقبل ، أم أنك تفضل طريقة أخرى ؟

- إن الطريقة التي اقترحها حضرة أمين السر في الأول ، تبدو لي مقبولة . ولكن هل هناك استحقاقات محددة للدفع ؟

- هناك ثلاثة استحقاقات ، قيمة كلٍ من الاستحقاقين الأول والثاني خمسماية ألف ليرة ، وقيمة الاستحقاق الثالث أربعماية ألف ليرة . والسفر من أجل هذه الاستحقاقات سيكون سعيداً ولا شك .

– سفر الى ليشبونة ؟!

– ولماذا لا ؟.. إن قبض مليون ونصف في خلال ثلاثة أشهر، لن يسبب لك إزعاجاً كما أعتقد.

– أوه! بدون شك، ولكن...

– اطمئن. إن سفرك سيكون على حساب السفارة، وسأرافقك أنا أو المستشار.

– وهل يترتب علي أن آتي بالماس؟

– بدون أي شك. إلا إذا كنت تفضل إرسال الكمبيالات من هنا، وترك الماس يذهب وحده الى البرتغال.

– لا أعرف ... إني ... أعتقد ... بأن ... السفر، سيكون نافعاً، وأن...

فقال بوزير مطمئناً:

– وهذا هو رأيي. نوقع هنا. تقبض المئة ألف ليرة نقداً. ثم توقع عقد البيع، وتحمل ماساتك الى صاحبة الجلالة.

– ما هو اسم عميلكم؟

– إنه نيناز بالبوا وإخوانه.

عندئذ رفع الدون مانويل رأسه وقال مبتسماً:

– إنهم صيارفتي.

وابتسم بوزير بدوره وأردف يقول:

– إنهم صيارفة سعادة السفير.

فأشرقت البسمة على وجه بوهمير، وتبدد كل تحفظ لديه، ثم انحنى شاكراً واستأذن.

ولكن فجأة، بدا وكأن فكرة استوقفته. فقال له بوزير بقلق:

- ماذا؟ هل هناك شيء آخر؟

فقال بوهمير: هل أُعطي الكلام؟

- نعم، أُعطي.

- ولكن بشرط...

- بشرط موافقة السيد بوسانج، لقد قلنا ذلك.

فأضاف بوهمير: إلا في حالة واحدة.

- آه! آه!

- إن ذلك من باب اللياقة يا سيدي، ومن الواجب أيضاً. فهذا العقد سبق أن عرض على جلالة ملكة فرنسا.

- ورفضته.

- نعم، رفضته. ولكن لا يمكننا أن نُخرج العقد بصورة نهائية من فرنسا، إلا باستئذان الملكة. فالاحترام، وواجب الطاعة والأمانة، يفرضان علينا إعطاء الأفضلية لجلالتها.

فقال الدون مانويل بوقار:

- هذا حق، وإني أتمنى على التاجر البرتغالي أن يتحلى بنفس المنطق الذي يتحلى به السيد بوهمير.

فقال بوهمير :

– أنا جدّ سعيد يا سيدي ، وفخور بالثناء الذي تفضلت به علي سعادتك . إذن هناك شرطان فقط : موافقة شريكي بوسانج ، ورفض جلالة ملكة فرنسا شراء العقد بصورة نهائية . ومن أجل هذين الشرطين ، أطلب مهلة ثلاثة أيام .

فقال بوزير :

– من جَهتنا نحن . مئة ألف ليرة نقداً . ثلاث كمبيالات بقيمة مليون واربعماية ألف ليرة تسلم اليك . علبة الماس تسلم الى مستشار السفارة أو إلي لينقلها أحدنا برفقتك الى ليشبونة . دفع كامل المبلغ المتبقي في خلال ثلاثة أشهر ، وبواسطة السادة نيناز بالبوا وإخوانه . مصاريف السفر لا شيء .

فقال بوهمير وهو يقدم فائق احتراماته :

– نعم يا سيدي ، نعم يا سيدي .

ثم استدار ليذهب ، فاستوقفه الدون مانويل وقال له :

– يبقى عليك واجب !

فسأله بوهمير بقلق : ماذا يا سيدي ؟ ماذا ؟

– تقديم خاتم بقيمة ألف بيستول [1] لأمين سري ، أو لمستشاري . أي لمن سيرافقك منهما .

---

١ – عملة ذهبيةاسبانية أو اوروبية.

– على رأسي يا سيدي، على رأسي. فهذا الأمر قد حسبت حسابه.

عندئذ ربَّت الدون مانويل بعظمة الأسياد على كتف الصائغ، وانصرف هذا الأخير وهو ينحني انحناءات متتالية.

ولما أصبح الدون مانويل وبوزير وحدهما، قال الأول للثاني بشيء من الحدة:

– تفضل واشرح لي الفكرة الشيطانية التي حالت دون طلبك تسليم العقد هنا؟ سفر الى البرتغال!! هل أنت مجنون؟ ألم يكن بإمكاننا دفع المال المتوفر الى هذين الصائغين، وبالمقابل استلام العقد منهما؟

فقال بوزير:

– إنك تلعب دور السفير بجدية زائدة، مع أنك لست السيد سوزا تماماً في نظر السيد بوهمير.

– إقلع عن هذا الكلام! فلو كان لديه أي شك، لما تفاوض معي.

– هذا صحيح. ولكن كل رجل يملك مليوناً ونصف المليون من الليرات، يتصور نفسه فوق الملوك وكل السفراء. وكل شخص يضطر الى المقايضة على مثل هذا العقد بوريقات تحمل تواقيع، يريد التأكد عما إذا كانت هذه الوريقات، تساوي فعلاً القيمة المسجلة عليها.

- إذن ستذهب الى البرتغال، أنت الذي لا يعرف البرتغالية ؟! إنك فعلاً مجنون .

- أبداً، أبداً، سوف تذهب أنت بنفسك .

فصاح الدون مانويل :

- أنا أعود الى البرتغال !! لا، لا، هذا شيء بعيد عن الصواب .

- وإني اطمئنك، بأن السيد بوهمير لن يسلم العقد مقابل أوراق .

- أوراق تحمل تواقيع سوزا !

فصاح بوزير وهو يضرب كفاً بكف :

- لقد قلت لك بأنك لست السيد سوزا تماماً في اعتقاده .

- على كلٍ، إني أفضل فشل المشروع على السفر الى البرتغال .

فقال بوزير : أبداً، اطلاقاً .

ثم التفت فرأى شريكهما، خادم الغرفة، على عتبة الباب، فصاح به :

- تعال يا حضرة « الكومندور »، لقد علمت موضوع الحديث، أليس كذلك ؟

- نعم .

- هل استمعت الى ما قلته ؟

- بالتأكيد .

- حسناً . هل برأيك قد عملت حماقة ؟

- إنك برأيي ، مئة ألف مرة على حق وصواب .

- قل لماذا ؟

- لأن السيد بوهمير ، لم ينقطع عن مراقبة مقر السفارة والسفير .

فقال الدون مانويل : إذن ما العمل ؟

فقال بوزير :

- العمل هو أن تجعل السيد بوهمير يطمئن الى ماله ، إلى أنه في يده ، عندئذ يذهب إلى البرتغال مطمئناً ولا تعود تساوره أية شكوك .

وأردف خادم الغرفة يقول :

- لن نذهب معه الى البرتغال فعلاً يا حضرة السفير ، أليس كذلك أيها الفارس بوزير ؟

فصاح عشيق أوليفا فرحاً :

- هذا شخص واسع الأفق يفهمني .

عندئذ قال له الدون مانويل ببرودة :

- قل ، قل ما أنت مزمع عليه .

فقال بوزير :

- على بعد خمسين فرسخاً من باريس ، هذا الشخص

الواسع الأفق، مع قناع على وجهه، يأتي ويعترض المركبة التي نقلها ويشهر علينا مسدساً أو مسدسين، ثم يسلبنا الكمبيالات والعقد، ويطعن السيد بوهمير عدة طعنات، ونعود بدونه ...

فقال خادم الغرفة:

- لم أفهم هذا القول. فأنا أرى أن يبحر بوزير وبوهمير الى البرتغال من بايون.

- عظيم!

- فالسيد بوهمير، ككل الألمان، يعشق البحر. لذا سيخرج إلى سطح المركب ليمتع الطرف بمشهد الأزرق الرجراج. وفي يوم يكون البحر فيه هائجاً، يتمايل ويسقط... ومعه تسقط علبة الجواهر... وكما حفظ البحر سفن الهند الكبيرة، سوف يحفظ عقداً من الماس يساوي مليوناً ونصف المليون من الليرات.

فقال الدون مانويل: آه! لقد فهمت.

ودمدم بوزير: هذا شيء مفرح.

وأردف الدون مانويل يقول:

- ولكن، كي نختلس العقد، سنستحق دخول الباستيل. وكي ندفن السيد بوهمير في أعماق البحر، سنستحق الشنق.

فقال « الكومندور » :

- كي نختلس العقد، قد وضعنا الخطة. كي نغرق صاحبه، لن نكون لحظة موضع شك.

وأخيراً قال بوزير :

- سندرس وسيلة التنفيذ عندما يحين الوقت. أما الآن، فلنتوزع الأدوار. علينا قبل كل شيء، أن نتصرف في السفارة تصرف برتغاليين مثاليين، كي يقولوا عنا : « لو لم يكونوا فعلاً هيئة السفارة، لكانت تصرفاتهم قد كشفتهم ». وذلك بانتظار الأيام الثلاثة.

منزل الصحافي

★

في شارع مونتورغاي، وفي مكان بعيد عن الضجة، ارتفع بيت مستطيل في عمق باحة مصوَّنة لا يتصل به سوى شبه دكان مفتوح نصف فتحة، كان المعبر الوحيد لهذا البيت الذي كان يقطنه صحافي ذو شهرة، وعنه تصدر صحيفته التي نالت بعض الشهرة في ذلك الوقت.

خُصّص الطابق الأول من هذا البيت المؤلف من أربعة طوابق للتحرير، والطابق الأرضي لطبع الصحيفة. أما الطابقان الباقيان فقد كان يقطنهما جماعة من الناس الناعمي البال، والذين كانوا يدفعون ثمناً بخساً للمزعجات التي كانت تسببها لهم عدة مرات في السنة مداهمات رجال الشرطة للصحيفة المذكورة.

فماذا جرى في ذلك المكان المنغلق على نفسه تقريباً، في اليوم التالي لاتفاق «البرتغاليين» مع بوهمير على مشروع العقد الماسي، وبعد مرور ثلاثة أيام على حفلة الأوبرا؟

كان هناك رجل ملاحق، وباب سري يفتح ويغلق، والصمت مخيّم. أما الرجل الملاحق فقد توارى كما اعتاد من مخرج في غرفته يوصل الى شارع الاوغسطينيين. أما مطاردوه فقد وجدوا أنفسهم وحدهم أمام أربعة جنود من الحرس الفرنسي مسلحين ببنادق، كانت خادمة مسنّة قد أسرعت فاستدعتهم من مركز الهال.

ولقد تردد هنا وهناك بأن المطاردين، عندما لم يعثروا على أي شخص يصبون عليه جام غضبهم، جمعوا بعض الأوراق المبللة والتي لا فائدة منها في الطابق الأرضي، ومزقوها، ثم أحرقوها وكأنها أوراق مجرمة!

فما هي هذه الصحيفة التي استحقت ذلك الانتقام؟ وما هي الجريمة التي اقترفها صاحبها؟ ومن يكون؟

إنه السيد ريتو، وقد كان يخرج صباح كل يوم، ويقوم بجولة على الأرصفة، والساحات والشوارع، فيلتقي الهازئين، والناقمين، وأصحاب العاهات، ومختلف طبقات الشعب، فيستنطقهم، ويخربش رسومهم، ويسجل أفكارهم وكل شيء عنهم، وبذلك تتجمع لديه مواد العدد المقبل من صحيفته المتواضعة.

ولقد كانت الصحيفة المذكورة اسبوعية، بمعنى أنه في خلال أربعة أيام، كان السيد ريتو يكتب مقاله الأسبوعي ويحضرّ رسومه، وفي الأيام الثلاثة الباقية يطبع الصحيفة، وفي اليوم التالي يقوم بتوزيعها.

واتفق ان كان موعد صدور هذه الصحيفة في نفس اليوم الذي نتحدث عنه، أي بعد اثنتين وسبعين ساعة من حفلة الأوبرا، حيث حظيت الآنسة أوليفا بمقدار من السعادة وهي تتأبط ذراع «الدومينو» الأزرق.

نهض السيد ريتو في ذلك اليوم من رقاده في الساعة الثامنة، فقدمت له خادمته المسنّة العدد الأخير من الصحيفة، فانبرى يقرأه بعناية الأب الحنون الذي يستعرض حسنات وسيئات ابنه العزيز على قلبه.

وعندما انتهى من القراءة ، قال لخادمته : إنه عدد جميل يا ألديغوند ، فهل قرأته ؟

فقالت الخادمة :

- حتى الآن لا ، فلم أنتهي من إعداد الحساء .

فقال الصحافي وهو يتثاءب :

- إني مسرور من هذا العدد .

فأجابته ألديغوند :

- نعم ، ولكن أتعلم ماذا يقولون في المطبعة ؟

- ماذا يقولون ؟

- يقولون بأنك هذه المرة لن تنجو من الباستيل .

فجلس ريتو على قعدته ، وقال بصوت هادئ :

- ألديغوند ، ألديغوند ، حضري لي حساءً طيباً ولا تتدخلي في الأدب .

فأجابته المرأة المسنَّة :

- أوه ! أنت دائماً هكذا ، مغامر مهووس مثل عصفور الدوري .

فقال الصحافي :

- سوف أشتري لك أقراطاً بثمن هذا العدد ، فالإقبال على شرائه سيكون كبيراً .

– إن أقراطي لن تكون براقة . هل تتذكر العدد الممتاز الذي هاجمت به السيد دي بروغلي ؟ لقد بعنا منه مئة نسخة في خلال عشر دقائق . وأعتقد بأن هذا العدد لا يساوي عدد السيد دي بروغلي .

فقال ريتو :

– ليكن ، فهو لم يكلفني الجهد الذي كلفني إياه ذلك العدد . وفوق ذلك ، سأتناول حسائي قرير البال ، أتعلمين لماذا يا ألديغوند ؟

– لا يا سيدي ، لماذا ؟

– لأني هذه المرة ، عوضاً عن أن أهاجم رجلاً ، هاجمت جسداً . وعوضاً عن أن أهاجم عسكرياً ، هاجمت ملكة .

فصاحت ألديغوند :

– الملكة !.. ليتمجد اسم الرب . إذن لا تخف أبداً ، فإذا هاجمت الملكة ، سوف يرفعك الشعب على الراحات إجلالاً وتكرمة ، وسوف نبيع الأعداد كلها ، وسوف تشتري لي أقراطاً .

وهنا سمع ريتو قرع الجرس ، فالتحف وقال لخادمته :

– إنهم يقرعون الجرس .

فأسرعت الخادمة بالهبوط الى الدكان الذي ذكرنا كي

تستقبل الزوار. وبعد برهة عادت وهي ترقص فرحاً، وصاحت بمعلمها:

- ألف نسخة دفعة واحدة!.. هذا طلب.

فقال ريتو باهتمام: باسم من؟

- لا أعلم.

- يجب أن تعلمي. عجلي واسألي.

- أوه! لدينا متسع من الوقت. فليس بهذه السرعة عدُّ ألف نسخة وربطها وحملها.

- قلت لك عجلي واسألي الخادم. هل هو خادم؟

- إنه متعهد صحف، متعهد مع كلاالييه.

- حسناً. اسأليه الى من سيحمل هذه الأعداد.

فأسرعت ألديغوند وهبطت السلم الخشبية التي كانت تهتز تحت ثقل ساقيها، وصوتها المتسائل لا يتوقف عن الدوي، الى أن أجابها متعهد الصحف: «إنها للكونت كاغليوسترو».

فما ان سمع الصحافي اسم الكونت المذكور حتى قفز واقفاً، وهبط السلم بدوره وقام بنفسه بتسليم المطلوب من صحيفته.

وبعد أن حمل متعهد الصحف النسخ الألف، انتعش الأمل عند السيد ريتو بأن يكون العدد المقبل ناجحاً كذلك،

وصمَّم على تخصيص بعض الأسطر فيه للثناء على ذلك السيد السخيّ، الذي شاء شراء ألف نسخة من ورقة لا تحمل سوى مقال هجائيّ واحد، وقد اعتبرها صحيفة سياسية تستحق الاهتمام!

وبينما كان السيد ريتو يهنئ نفسه على هذا النجاح غير المنتظر، إذا بالجرس يقرع من جديد... وبصوت الخادمة ألديغوند يصيح بعد لحظات:

- أيضاً ألف نسخة!! آه يا سيدي كم أنا سعيدة بهذا النجاح. ولكن لا عجب، فيكفي أن يكون متعلقاً بالنمساوية [1] حتى يستهوي كل الناس.

- اصمتي! اصمتي يا ألديغوند ولا تتكلمي بصوت مرتفع! إن كلمة نمساوية شتيمة تكلفني دخول الباستيل الذي تتكهنين لي به.

فقالت المرأة المسنَّة بحدة:

- يا للعجب! أليست نمساوية؟

- إنها كلمة نتداولها نحن الصحافيين، ولكن يجب أن لا تتناقلها الألسن.

---

١ - المقصود بالنمساوية الملكة ماري انطوانيت لأنها نمساوية الأصل.

بعد هذا الكلام قرع الجرس مرة جديدة ، فقال الصحافي :

- إذهبي وانظري يا ألديغوند ، ولكني لا أعتقد أن القادم هذه المرة يرغب في شراء أعداد من الجريدة .

فقالت الخادمة وهي تهبط السلم :

- لا أعلم ، يتراءى لي أني أرى رجلاً كالح الوجه أمام الشعرية .

وأكملت الخادمة هبوطها وفتحت ، وإذا بها أمام رجل يرتدي ثيابا بسيطة ، بادرها بقوله :

- هل محرر الصحيفة هنا ؟

فسألته ألديغوند بشيء من الحذر ، وتهيأت لإغلاق الشعرية في وجهه عند أول إشارة خطر :

- ماذا تريد منه ؟

فخشخش الرجل بالريالات التي تملأ جيبه ، وأجاب :

- جئت أدفع له ثمن النسخ الألف من صحيفة اليوم ، التي طلبها الكونت كاغليوسترو .

- آه ! إذا كان الأمر كذلك ، تفضل .

فاجتاز الرجل الشعرية من دون ان يغلقها ، إذ كان وراءه شاب ضخم الجثة ، جميل الشكل ، أمسك بالشعرية وقال له : « عفواً يا سيدي » . ثم انزلق وراء الرجل الذي جاء يدفع من قبل الكونت كاغليوسترو .

أما ألديغوند التي رقص قلبها مع رنين الريالات التي سيقبضها معلمها، فقد أسرعت تقول له :

- يا لفرحتي، يا لفرحتي، فكل شيء يسير على ما يرام. ها هي الخمسماية ليرة ثمن الألف نسخة قد جاء من يدفعها.

فقال ريتو مقلداً الممثل «لاريف» في آخر تمثيلية له: «لنستقبله على عادة الاشراف». ثم لبس مبذلاً جميلاً وأخذ يخرج عدداً من الهدايا المختلفة الأنواع والأشكال.

وما هي لحظة حتى حضر مندوب الكونت كاغليوسترو وبسط كيساً صغيراً من الريالات وأخذ يعدّ ما فيه وريتو يراقب العدّ بدقة خشية النقص. ولما اكتمل المبلغ المطلوب، شكره ريتو وأعطاه إيصالاً بالمبلغ، ثم زوّده بتحياته واحتراماته الى الكونت كاغليوسترو، فشكره الرجل بصورة طبيعية وهمّ بالانسحاب، فقال له ريتو :

- قل لحضرة الكونت بأني رهن إشارته، وليكن مطمئناً فإني أعرف كيف أحافظ على السر.

فأجابه ناقل الريالات :

- إن الكونت كاغليوسترو رجل حيادي ولكنه يريد أن يهزأ الناس من أعدائه، وهو لا يعتقد بالتنويم المغنطيسي، لذا يريد أن يسخر الناس من السيد ميسمار، صاحب هذه النظرية.

عند ذاك سُمع صوت يقول: «حسناً، ونحن أيضاً سنحاول الهزء على حساب الكونت كاغليوسترو».

فالتفت السيد ريتو، فرأى رجلاً قد دخل غرفته ولا تبشّر هيئته بالخير... إذ كانت يده اليسرى على مقبض سيفه، ويده اليمنى على مقبض عصاه. وقد كان هذا الرجل شاباً ضخم الجثة، تبدو عليه مظاهر القوة، فسأله ريتو بصوت متلجلج:

- هل تأمر خدمة يا سيدي؟

- نعم، أريد السيد ريتو.

- أنا هو.

- من يتكلم باسم الصحيفة؟

- أنا.

فسحب الشاب من جيبه عدداً من الصحيفة وقال له ببرودة:

- أنت كاتب هذا المقال؟

فأجاب الصحافي:

- في الحقيقة، أنا الناشر وليس الكاتب.

- الناشر والكاتب كلاهما واحد في المسؤولية. فإن كانت الجرأة تنقصك لكتابة هكذا مقال، فإن الجبانة لم

تنقصك لنشره . وإذا كان كاتب المقال سافلاً ، فإن ناشره حقير ...

فقال ريتو وقد صبغ الاصفرار وجهه :

– سيدي !

– لا تقل سيدي ! فكل شيء في دوره . منذ قليل قبضت الريالات ، وها أنت الآن ستقبض ضربات العصا ...

فصاح الصحافي : آه ! سنرى .

فسأل الشاب خصمه باقتضاب وبلهجة عسكرية بينما كان يتقدم نحوه :

– ماذا سترى ؟

لكن ريتو الذي لم يكن هذا الحادث الذي تعرض له هو الأول من نوعه ، كان يعرف خفايا ومنعطفات بيته ، وكان في كل مرة يداهمه الخطر ، ينسل من أحد الأبواب ويهبط درجاً سرياً يوصله إلى بوابة تفضي به الى شارع الأوغسطينيين، وهناك يطلق العنان لرجليه الى أن يصبح في مأمن من الخطر . وكان دائماً يحتفظ في جيبه بمفتاح هذه البوابة .

لكن ذلك اليوم ، كان يوم شؤم بالنسبة له ، وعملية الهرب لم تكن ناجحة . فما أن وصل الى البوابة المذكورة ، وهي مشبك من القضبان الحديدية ، حتى وجد عملاقاً آخر

بانتظاره في الجهة المقابلة ، فتوقف حائراً ... ولما همّ بالرجوع من حيث أتى ، وقعت عيناه على الرجل الذي وعده بضربات العصا ، بعد أن تمكن من خلع الباب الذي انصفق وراء ريتو ، واللحاق به .

ولما وجد ريتو نفسه بين نارين ، أو بين عملاقين ، صاح متوسلاً الرجل الواقف وراء القضبان الحديدية :

- بربك يا سيدي ، دعني أمرّ .

عندئذ قال الرجل الذي يلاحقه بعصاه الى الخفير الآخر :

- إقبض على هذا الحقير يا سيدي ، إقبض عليه .

فأجابه ذلك الرجل :

- كن مطمئناً يا سيد دي شارني ، فلن يمرّ .

فصاح دي شارني مندهشاً :

- السيد دي تافرني ، أنت !

والواقع أن الرجلين ما أن قرآ صحيفة السيد ريتو عند الصباح ، حتى راودتهما فكرة واحدة ، لأن شعورهما كان واحداً . ومن دون أن يعلم أحد ما في نية الآخر ، قاما بوضع الفكرة موضع التنفيذ . وهذه الفكرة كانت تقضي بالذهاب الى منزل الصحافي وطلب التعويض منه ، فإن لم يدفع ، يعالجانه بالعصا .

لكن كلاً منهما، عندما لمح الآخر، شعر بتبدل في طباعه، إذ اكتشف في الآخر خصماً له ومنافساً.

من أجل ذلك تلفظ دي شارني بهذه الكلمات وهو عابس الوجه: «السيد دي تافرني، أنت!»

وقد أجابه دي تافرني بنفس اللهجة: «أنا هو بذاته، ولكن يبدو أني قد وصلت متأخراً، ولن يكون دوري سوى حضور الحفلة، إذا لم تتكرم علي بفتح البوابة».

فدمدم الصحافي مرتعباً: الحفلة! الحفلة! ماذا تقصدون بذلك؟ هل ستذبحانني يا سيديَّ؟

فقال دي شارني:

- لا، لن نذبحك، ولكننا سنستجوبك أولاً، ثم نرى فيما بعد...

ثم التفت نحو فيليب دي تافرني وقال له:

- هل تسمح بأن أتصرف وفق رغبتي مع هذا الرجل يا سيد دي تافرني؟

فأجابه فيليب: بكل تأكيد يا سيدي، فلك الحق الأول طالما أنك قد وصلت اولاً.

فقال دي شارني للصحافي وهو يشكر دي تافرني بإشارة من يده:

- التصق بالحيط ولا تتحرك. ثم، هل تعترف بأنك كتبت ونشرت مقالاً ضدٌ الملكة في صحيفتك التي صدرت هذا الصباح؟

- ليس ضدٌ الملكة يا سيدي.

- لم يكن ناقصاً سوى أن تنكر!

وقال فيليب دي تافرني موجهاً كلامه الى دي شارني وهو في حالة هياج في الجهة الثانية:

- إنك كثير الصبر يا سيدي!

فأجابه دي شارني:

- كن مطمئناً، فلن يطير هذا الرجل إن هو انتظر قليلاً.

- ولكنني أنا أيضاً أنتظر.

فلم يردّ شارني على تافرني، بل التفت نحو الشقي ريتو وقال:

- «أتانيوتنا» هي انطوانيت ... لا تنكر، وإلا تعرضت لما هو أشدّ من الضرب والقتل... إلى سلخ جلدك وأنت حي!.. إذن جاوب على هذا السؤال بوضوح وصراحة:

- هل أنت وحدك وراء هذا القدح والذم؟

فاعتدل ريتو وأجاب:

- أنا لست نمّاماً وواشياً يا سيدي.

حسناً! هذا يعني بأن هناك شريكاً محرضاً ... وهذا الشريك هو الرجل الذي اشترى الألف نسخة من عدد اليوم الذي يحمل مقال القدح والذم بالملكة. إنه ولا شك، الكونت كاغليوسترو الذي بعثت إليه بتحياتك واحتراماتك منذ قليل، والذي سينال نصيبه كما ستنال أنت نصيبك. وبما أنك قد وقعت في قبضة يدي أولاً، فستنال نصيبك أولاً.

قال شارني هذا ورفع العصا ... فصرخ ريتو عاوياً: لا، لا يا سيدي فليس من عادة الاشراف مهاجمة نبيل أعزل.

فأخفض شارني يده وقال لفيليب دي تافرني:

- أرجوك يا سيد فيليب، أن تقرض سيفك هذا النذل.

فصاح فيليب: أعوذ بالله! أنا أقرض سيف نبلٍ الى هذا الرجل!

- إذن اقرضني سيفك لي، وأنا أقرضه سيفي كي نصبح متساويين.

ثم رمى شارني بسيفه الى الصحافي، فلم يعد باستطاعة فيليب تافرني أن يرفض طلبه، فسحب سيفه من غمده ومرّره اليه من خلال القضبان الحديدية للبوابة، فتناوله شارني وحيّاه به، ثم استدار نحو ريتو وقال له:

- إنك نبيل، ها! نبيل وتكتب عن ملكة فرنسا هذه القبائح!.. حسناً! التقط هذا السيف وأثبت بأنك نبيل.

ولكن ريتو بقي جامداً... فقد أرعبه السيف الذي سقط بين رجليه، أكثر مما أرعبته العصا التي كانت فوق رأسه. فصاح فيليب ساخطاً:

- لقد عيل صبري... إفتح لي هذه البوابة.

فقال دي شارني:

- عفوك يا سيدي، فلقد وافقت على أن أكون البادئ بتأديب هذا الرجل.

- إذن أسرع كي يأتي دوري، فأنا على عجلة من أمري.

- أريد أن استنفد كل الوسائل، قبل أن أصل الى الوسيلة الفضلى. ولكن طالما أن السيد يفضّل ضربات العصا على ضربات السيف، فليكن له ما يريد.

وما كاد دي شارني يتلفظ بهذه الكلمات، حتى تعالى صراخ ريتو... فقد قرن دي شارني الكلام بالأفعال، وانهالت ضربات العصا القوية على خصمه الذي استمرّ بالصراخ حتى تناهى صراخه الى مسمع خادمته ألديغوند.

في هذا الوقت، كان فيليب دي تافرني، يقف كآدم، في الجهة الثانية من الجنة، يقضم أظافر يديه، ويشهد ترويض الدب من خلال القضبان الحديدية.

وأخيراً توقف دي شارني عن الضرب ، بعد أن أعياه هذا الضرب ، وانبطح ريتو على الأرض منهوكاً من الضرب الشديد المتواتر .

ثم قال فيليب موجهاً كلامه الى شارني :

– هل انتهيت يا سيدي ؟

فأجابه دي شارني : نعم .

– حسناً ! ردَّ لي الآن سيفي الذي لم يكن مفيداً لك ، وافتح لي أرجوك .

فصاح ريتو متوسلاً ، بعد أن وجد في الرجل الذي أنهى حسابه معه ، مدافعاً :

– سيدي ! سيدي !

فقال له شارني :

– أنت تعلم بأني لا أستطيع ترك السيد وراء البوابة . يجب أن أفتح له .

فصرخ ريتو عاوياً :

– آه ! إنه سيقتلني ! بربك ، اقتلني حالاً بضربة سيف ، وخلصني من هذا العذاب .

فأجابه شارني :

– لا ، لا ، كن مطمئناً ، فهو لن يمسَّك كما أعتقد .

وقال فيليب تافرني باختصار كلي وهو يلج البوابة :

– لن أقتلك ، فلقد نلت ما تستحقه من الضرب . ولكن هناك أعداد من الصحيفة ما زالت موجودة ، وهذه الأعداد يجب أن تتلف .

فقال شارني موجهاً كلامه الى فيليب :

– آه ! أرأيت أن وجودنا نحن الاثنين ، أفضل من وجود واحد منّا فقط . فأنا قد سها عن بالي هذا الأمر . ولكن كيف كان حضورك المفاجئ على هذه البوابة يا سيد دي تافرني ؟

فقال دي تافرني :

– لقد استعلمت في الحي عن أخلاق هذا النذل ، فعلمت أنه قد اعتاد الهرب كلما شددوا عليه الحصار . لذا تحريت وسائله في الهرب ، فثبت لي ان حضوري على هذه البوابة يمكنني من إلقاء القبض على الثعلب في وكره . ويبدو أن نفس فكرة الانتقام قد راودتك ، ولكن المعلومات التي وصلتك عن أساليب هربه كانت ناقصة ، لذلك دخلت من الباب الذي يدخله الجميع ، فتمكن من الهرب ، ولو لم تجدني هنا لأفلت من بين أيدينا ونجا بجلده .

– لقد أفرحتني بما قمت به . تعال يا سيد دي تافرني ، فهذا السخيف سوف يدلنا على المطبعة .

فقال ريتو :

– ولكن مطبعتي ليست هنا .

فصاح دي شارني مهدداً : كذاب !

فقال له فيليب دي تافرني :

- لا ، لا ، ليس كذاباً . فالأحرف قد تفرقت ، ولم يبق سوى أعداد الصحيفة ، وهذه الأعداد يجب أن تكون كاملة ، باستثناء الألف نسخة التي ابتاعها السيد دي كاغليوسترو .

- إذن سوف يمزق هذه الأعداد أمامنا .

- بل سوف يحرقها ، فهذا أضمن .

وكانت هذه الوسيلة من العقاب كافية لإرضاء فيليب دي تافرني ، فدفع ريتو باتجاه الدكان المعهودة .

كيف أصبح الصديقان عدوين

★

ما أن سمعت ألديغوند صراخ معلمها ورأت البوابة مقفلة في وجهه ، حتى أسرعت تستدعي رجال الحرس .

ولكن قبل أن تتمكن من العودة ، كان السيدان دي تافرني ودي شارني قد أحرقا الأعداد المتبقية من صحيفة معلمها ، ومزّقا كل ما عثرا عليه من أوراق . وعندما وصل رجال الحرس كانت النار تلتهم ما تبقى من هذه الأعداد والأوراق .

ولما كان فيليب وشارني قد باتا يعرفان جيداً الطريق التي كان يسلكها ريتو للهرب، فما أن سمعا وقع أقدام رجال الحرس حتى ولّيا الإدبار من هذه الطريق الى أن وصلا الى شارع الأوغسطينيين، ثم أقفلا البوابة وراءهما بالقفل ورميا بالمفتاح في أول مجرور للمياه.

ولما وجد ريتو نفسه قد أصبح حراً، أخذ يصرخ بأعلى صوته طالباً النجدة، كذلك فعلت خادمته ألديغوند عندما رأت ألسنة النار ترتفع ملتهمة كل شيء.

أما رجال الحرس، فلما لم يجدوا أمامهما سوى نار تكاد تنطفئ، لم يكلفوا أنفسهم عناء التفتيش عن الشابين المهاجمين، بل قفلوا عائدين الى مركز حراستهم تاركين ريتو وخادمته وحدهما، وقد انبرت هذه الأخيرة تضع على ظهر معلمها الذي تعرّض لضربات العصا الأليمة، الرفائد المبللة بشراب ماء الحياة المشبع بالكافور.

ولنعد الآن الى تافرني وشارني. فما أن أصبحا في شارع الأوغسطينيين، حتى قال دي شاري لرفيقه:

- أما الآن يا سيدي، وقد انتهينا من تنفيذ مهمتنا، فيسرني أن يكون بمقدوري تأدية خدمة لك.

- شكراً لك يا سيدي، فقد كنت على وشك أن أطرح عليك نفس السؤال.

- وأنا أشكرك بدوري . فقد جئت باريس من أجل أشغال خاصة قد تستوجب بقائي فيها قسماً كبيراً من النهار .

- وأنا أيضاً يا سيدي .

- إذن ، إسمح لي بالذهاب ، مهنئاً نفسي على السعادة والشرف اللذين نلتهما من جراء لقائي بك .

- هذا لسان حالي يا سيدي . وإني أتمنى أن تأتي نهاية العمل الذي جئت من أجله ، وفق رغباتك .

ثم حيّا الرجلان بعضهما البعض وافترقا ، بعد أن تنافسا في تأدية عبارات المجاملة التي كانت تتلفظ بها شفاههما ولا تعبّر عما في قلبيهما !

وقد سار فيليب دي تافرني في طريق البوليفارات ، بينما اتخذ دي شارني الطريق المحاذية لنهر السين . وبعد أن دار كل منهما عدة دورات الى أن ضاع عن عيني رفيقه ، اجتاز دي شارني عدة شوارع حتى وصل أخيراً الى شارع القديس لويس ، ومنه تقدم نحو شارع « نيف - سان - جيل » .

وبينما هو يسير في هذا الشارع ، وقع بصره على شاب كان بدوره يمشي صعوداً في شارع القديس لويس ، وقد تراءى له بأنه يعرفه ، ولكنه بقي بين الشك واليقين . وبعد أن توقف عدة مرات يسائل نفسه ، توارى الشك نهائياً وثبت له بأن هذا الشاب هو فيليب دي تافرني بذاته .

وأخيراً وجد الشابان نفسيهما وجهاً لوجه في مدخل شارع «سان جيل»، فتوقفا وأخذا ينظران الى بعضهما البعض بعيون قد فضحت هذه المرة ما في نفسيهما.

ولكن فكرة واحدة راودتهما هذه المرة أيضاً، إذ نسب كل منهما سبب وجوده في ذلك الشارع، الى رغبته في طلب التعويض من الكونت كاغليوسترو، وهكذا تبدَّد لديهما الشك من تلاقيهما مجدداً، فقال فيليب دي تافرني:

- لقد تركت لك يا سيد دي شارني البائع تؤدبه بالعصا، فاترك لي الشاري أؤدبه بالسيف.

فأجابه دي شارني:

- إن سبب بادرتك اللطيفة كما أعتقد، هو كوني وصلت الأول، وليس شيئاً آخر.

- هذا صحيح. ولكن هنا، وصلت في الوقت نفسه الذي وصلت فيه أنت، ولقد طلبت طلبي قبلك، ولن أتنازل لك عنه أبداً.

- ومن قال لك بأني سأطلب تنازلك يا سيدي؟ إن حقي سأدافع عنه ولن أستجديه.

- وما هو حقك، حسب رأيك، يا سيد دي شارني؟

- هو أن أحرق الألف نسخة التي اشتراها ذلك الحقير كاغليوسترو.

– ولكنك تذكر جيداً، بأني أنا صاحب فكرة حرق النسخ في شارع مونتورغاي.

– حسناً! لقد قمت أنت بحرق النسخ في شارع مونتورغاي، وأنا سأقوم بتمزيقها في شارع «سان جيل».

– لقد قنطت وأنا أقول لك بجدية يا سيدي، بأني أرغب في القيام بنفسي، بما يجب أن أقوم به لدى الكونت كاغليوسترو.

– إن كل ما يمكنني أن أفعله لك يا سيدي، كمخرج مشرّف، هو أني سأرمي ليرة ذهبية في الهواء، فمن يستولي عليها منّا نحن الاثنين، تكون له الأفضلية.

فوافق فيليب على هذا الحل، ولكن ما أن خطا خطوة الى الأمام، حتى أوقفه دي شارني وقال له:

– كلمة يا سيدي، وأعتقد بأننا سوف نتفاهم.

فاستدار فيليب بسرعة، إذ كان في صوت شارني لهجة تهديد طابت له، وقال له:

– تفضّل، قلها.

فقال دي شارني:

– كي نذهب لنطلب حقنا من الكونت دي كاغليوسترو، علينا أن نمرَّ في غابة بولونيا، وإني أعلم جيداً بأن هذه الطريق طويلة جداً، لكنها ستضع حداً لخلافاتنا

كما أعتقد، إذ إن واحداً منّا نحن الاثنين، ربما بقي في الطريق، وعاد الآخر ليؤدي الحساب...

- في الحقيقة، هذا ما كنت أفكر به، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تصلح فيما بيننا. فأين تريد أن نتلاقى؟

- إذا كان باستطاعتك احتمال رفقتي يا سيدي، فأنا قد أعطيت الأمر لحوذيٍّ عربتي كي يأتي وينتظرني في الساحة الملكية القريبة من هذا المكان كما تعلم.

- هل تريد القول بأنك ستهبني مكاناً فيها؟

- بكل سرور.

وهكذا يكون الشابان اللذان شعرا عند أول نظرة بأنهما مزاحمان، قد أصبحا عدوين عند أول مناسبة، وأخذا يحثان الخطى باتجاه الساحة الملكية. وما أن وصلاها حتى أشار دي شارني الى خادمه، فتقدمت العربة وانطلقت بالاثنين باتجاه غابة بولونيا.

وقبل أن يصعد دي شارني الى العربة، كتب عدة كلمات على قصاصة ورق ودفعها الى خادمه الراجل كي يحملها الى قصره في باريس.

وفي أقل من نصف ساعة، وبفضل جياد السيد دي شارني الأصيلة، كان الإثنان في غابة بولونيا، وقد أوقف الحوذي عربته في المكان الذي وجده دي شارني مناسباً.

وكان الوقت جميلاً جداً ، والهواء يهب نسيمات خفيفة لطيفة ، والشمس تنشر أشعتها على الزهور المتنوعة فينتشر منها الطيب معطراً الأنفاس .

امام هذا المشهد البديع ، قال دي شارني :

- إن الوقت جميل للنزهة ، أليس كذلك يا سيد دي تافرني ؟

فأجاب دي تافرني :

- حقاً ، إنه طقس جميل يا سيدي !

ثم هبط الإثنان من العربة ، وقال دي شارني للحوذي :

- إذهب يا دوفين .

فقال له تافرني :

- أعتقد أنك عجّلت في صرف العربة يا سيدي ، فقد يضطر أحدنا الى الرجوع بها .

فقال شارني :

- إن السر في هكذا عمل ، لو اطّلع عليه الخدم لأصبح غداً حديث الناس في باريس كلها .

- ولكن هذا ما تريده أنت يا سيدي . ثم إن الحوذي لا تفوته الغاية من مجيئنا الى هنا . فهؤلاء الخدم يعرفون جيداً كيف يتعامل النبلاء ، لذا عندما ينقلون بعضهم الى غابة

بولونيا ، أو فنسانّ ، أو ساتوري ، لن يفكروا إطلاقاً بأن هؤلاء النبلاء قد قصدوا هذه الغابات من أجل النزهة والتمتع بمشاهد الطبيعة . لذلك ، أكرر عليك القول بأنك استعجلت كثيراً في صرف حوذيك . فقد يُجرح أحدنا أو يقتل ، ولا يجد من ينقله .

فقال دي شارني : معك كل الحق .

ثم استدار نحو الحوذي الذي سار بعربته الهوينا لأنه كان يترقب مناداته ، وصاح بأعلى صوته :

- دوفين ، دوفين ، توقف وانتظر هنا .

فتوقف دوفين وهو لا يعلم ماذا سيحدث . ثم اتكأ على مقعده بشكل يتيح له ، من خلال الأشجار التي كانت ما تزال عارية من الأوراق ، رؤية المشهد الذي بدا له أن معلمه سيكون أحد الممثلين فيه .

غير أن فيليب وشارني قد سارا في الغابة مسافة خمس دقائق ، حتى كادا أن يختفيا عن أنظاره . وكان فيليب يسير اولاً ، فوصل الى مكان ناشف شعر بصلابته تحت وطأة أقدامه ، وكانت مساحته صالحة للغاية التي جاء من أجلها الشابان ، فقال للسيد دي شارني :

- إني أرى هذا المكان صالحاً إذا لم يكن لديك اعتراض عليه .

فأجابه دي شارني وهو ينزع ثيابه :

- بالعكس ، إنه مكان ممتاز !

وبدوره ، نزع فيليب ثيابه ورمى بقبعته على الأرض ، باستخفاف وازدراء . فقال له دي شارني ، وكان سيفه ما يزال في غمده :

- بالرغم من كل شيء ، سأقول لك أيها السيد ، بل أيها الشيفالييه ، إن كلمة اعتذار منك ، أو على الأقل كلمة لطيفة ، نغدو بعدها صديقين .

فأجابه فيليب تافرني :

- وأنا ، بالرغم من كل شيء سأقول لك أيها السيد ، بل أيها الكونت ، استعد ليكون السيف حكماً شريفاً بيننا .

قال فيليب هذا القول واستلَّ سيفه ، فحذا الكونت دي شارني حذوه ، واشتبك السيفان وكل منهما يصيح بالآخر : « خذ حذرك أيها السيد ! »

وبعد مرور عدة ثوانٍ ، لاحظ فيليب تفوقه على خصمه ، ولكن هذا التفوق عوضاً عن أن يزيده حماساً ، خفف من حماسته الى درجة البرودة ، وبات يتصور نفسه وكأنه في قاعة السلاح التي يتبارز فيها الهواة ، وأن السيف الذي في يده ليس سوى سيف للتدريب .

لكن أكثر من دقيقة مضت على بدء البراز، دون أن يسدد أية طعنة لخصمه، مما حمل دي شارني على أن يقول له:

- إنك توفرني يا سيدي، فهل باستطاعتي أن أسألك عن الغاية من ذلك؟

ثم هجم عليه بسرعة الفهد وطعنه طعنة هائلة... إلا أن فيليب قد ردّ طعنة سيفه بطعنة أشد وأسرع، ففوّت عليه فرصة الانتصار وأرجعه الى الوراء خائباً.

وبالرغم من أن مهارة تافرني في البراز قد جعلت سيف شارني يتضعضع، فإنه لم يردُّ على طعنته بطعنة مماثلة. بل بالعكس، قد أفسح له في المجال كي يعاود الكرة. إلا أن فيليب قد ردَّ هذه المرة طعنة دي شارني بضربة كشح بسيطة أوقعت الكونت أرضاً، وقد أجهد نفسه حتى استطاع النهوض بسرعة.

لقد كان شارني أفتى من خصمه، وبنوع خاص أكثر حمية. فعندما غلى الدم في عروقه، شعر بالخجل أمام سكينة خصمه، وأراد أن يرغمه على التخلي عن هذه السكينة، فقال له:

- حتى الآن يا سيدي، لم يلمس أحدنا الآخر حسب المفهوم الحقيقي للبراز.

فلم يجاوب فيليب، ولكنه قال في نفسه: «سوف أعطيك درساً قاسياً في المفهوم الحقيقي للبراز، طالما أنت قد دعوتني اليه، ودعوتني بدافع الغيرة».

وأمام صمت فيليب وبرودة أعصابه، قال الكونت دي شارني:

- أي نوع من البراز تمارس يا سيد دي تافرني؟! إن في نيتك إنهاك قواي، ولكن هذا الأسلوب لا يليق بك. فبربك اقتلني إذا استطعت، ولكن اقتلني ببراز شريف ودفاع قويّ.

فهزَّ فيليب رأسه وقال:

- نعم يا سيدي، إن التأنيب الذي وجهته إليَّ أستحقه، فأنا قد نازلتك، وندمت بعد فوات الأوان.

- ليس الوقت وقت ندامة، فإن سيفك الآن في يديك وعليك أن تحسن استخدامه لغير التزين به. فإذا كنت لا تستطيع مهاجمتي، دافع عن نفسك على الأقل.

فأجابه فيليب:

- لي الشرف أن أقول لك مرة ثانية يا سيدي، بأني ندمت على منازلتك.

إلا أن شارني الذي كان دمه يغلي في عروقه، لم يقدر لخصمه هذه الشهامة، بل قابلها بهجوم مباغت وقال:

- آه ! لقد عرفت الآن الغاية من شهامتك . فأنت تريد القول هذا المساء أو غداً الى بعض السيدات الجميلات ، بأنك قد طلبتني الى حلبة البراز ، وهناك عفوت عني .

- في الحقيقة ، إني أخشى يا سيدي الكونت أن تكون قد جننت !

- إنك تريد قتل السيد دي كاغليوسترو كي ترضي الملكة ، أليس كذلك ؟ وكي تنال رضاها بشكل أكيد ، تريد أن تقتلني أنا أيضاً . ولكن بهذه الطريقة المضحكة والمثيرة للسخرية ؟

فقطب فيليب دي تافرني حاجبيه ، وصاح :

- لقد زدتها الآن بما قلت ، وقولك هذا يثبت بأنك لست نبيل القلب كما كنت أعتقدك .

فقال دي شارني :

- حسناً ، اثقب هذا القلب إن استطعت !

عند ذاك ثارت ثائرة فيليب ووثب عليه بسرعة النمر وطعنه طعنة نجلاء ، فانزلق السيف على طول خاصرته وفتح أخدوداً دامياً تحت قميصه المصنوع من الحرير الناعم ، فقال دي شارني فرحاً :

- وأخيراً ، ها أنا جريح الآن ! فإذا قتلتك ، أكون قد قمت بدوري خير قيام .

فقال له فيليب :

- هيَّا ! إفعل ! إنك حقاً لمجنون يا سيدي . ثق بأنك لن تقتلني ، وسيكون دورك سافلاً ، لأنك ستُجرح بدون سبب ولا فائدة ، وبدون أن يعلم أحد لماذا نحن نتبارز .

فسدَّد إليه شارني طعنة مستقيمة بالكاد استطاع فيليب أن يردها . ولكن ما أن ردَّها ، حتى شدَّد قبضته على سيفه ، وردَّ عليه بطعنة جبارة أطارت السيف من يد خصمه وسقط قطعتين على بعد عشر خطوات منه ...

وبعد أن تأمل فيليب دي تافرني خصمه قليلاً ، قال له :

- إني آسف يا سيدي لأنك لم تستطع أن تثبت بطولتك . لماذا أنت تكرهني الى هذه الدرجة التي حملتك على طلب مبارزتي ؟

فبقي دي شارني صامتاً أصفر الوجه ... وعاد فيليب يتأمله وهو يأمل أن يحمله على الإقرار ، ثم قال له :

- هيَّا يا سيدي الكونت ، فالمقدر قد وقع وأصبحنا عدوين .

فأخذ دي شارني يترنح ... وأسرع فيليب الى إسعافه ، إلا أن الكونت دفعه عنه بيده وقال له :

- شكراً ، باستطاعتي أن أذهب وحدي الى عربتي .

- خذ على الأقل هذا المنديل كي تلملم به دمك .

فأخذه دي شارني بطيبة خاطر، وتابع فيليب يقول :

- وذراعي يا سيدي . فعند أقل حاجز تصطدم به ، وأنت تترنح هكذا ، سوف تقع أرضاً وتسبب لنفسك آلاماً أنت بغنى عنها .

فقال دي شارني :

- إن السيف لم يخترق سوى اللحم ، وأنا لا أشعر بشيء في صدري .

- خيراً يا سيدي ، خيراً .

- وإني أرجو أن أشفى قريباً .

- وأيضاً خيراً يا سيدي . ولكن إن كنت تأمل سرعة الشفاء لتستأنف هذا البراز ، فإني احذرك منذ الآن بأنه من الصعب أن تجد فيَّ خصماً لك .

فحاول دي شارني أن يجاوب ، لكن الكلمات تلاشت على شفتيه وأخذ يترنح ، فأسرع فيليب وأحاطه بذراعه ورفعه وكأنه يرفع ولداً ، ثم حمله الى عربته وهو بين الوعي واللاوعي .

ومما لا شك فيه ، أن دوفين قد شاهد كل شيء من خلال أغصان الشجر ، فاختصر الطريق على معلمه المهزوم بملاقاته . وبعد أن وضعه فيليب بالعربة ، وشكره دي شارني بإشارة من رأسه ، قال للحوذي :

- سر على مهلك أيها الحوذي ولا تدع الخيل تسرع.

فدمدم الجريح قائلاً:

- وأنت يا سيدي؟

- أوه! لا تقلق علي.

وحيَّاه بدوره وأغلق باب العربة، ووقف ينظر اليها وهي تبتعد ببطء، الى أن توارت في منعطف ممرّ. ثم اتخذ هو أقرب طريق توصل الى باريس.

ولما التفت فيليب لآخر مرة، لمح العربة وقد استدارت باتجاه قصر فرساي، عوضاً عن أن تتخذ طريق باريس كما فعل هو، فتلفظ بهذه الكلمات الثلاث التي انتزعت من أعماق قلبه:

«سوف تشفق عليه!»

منزل شارع سان جيل

★

عندما وصل فيليب دي تافرني في سيره الى بوابة الحرس، وجد عربة برسم الكراء، فقفز اليها وقال لسائقها:

- شارع «سان جيل»، بسرعة.

وقد أثار هذا الرجل الخارج لتوه من المبارزة محتفظاً بهيئة المنتصر، والتي تدل قامته على نبل محتده، ولباسه على أنه بورجوازي، وهيئته على أنه رجل عسكري، أثار حماس الحوذي فألهب صوته في أقفية جياده، واختصر المسافة الى أمام قصر الكونت كاغليوسترو في شارع «سان جيل» الى النصف.

وكان مظهر هذا القصر الخارجي في غاية البساطة، إلا أن نسق بنائه كان يدل على العظمة كمعظم القصور التي شيِّدت في عصر الملك لويس الرابع عشر.

ولما دخلت العربة باحة القصر الواسعة، أقبل خادمان ووقفا في مدخل قاعة الشرف بانتظار الضيف الجديد، فقفز ساعتذاك فيليب الى الأرض وتوجه نحو الخادمين وقال لهما:

- هل الكونت دي كاغليوسترو هنا؟

فأجاب أحد الخادمين:

- إن سعادة الكونت يتهيأ للخروج.

فقال فيليب:

- إني بحاجة كي أكلمه قبل أن يخرج. قل له بأن الشيفالييه فيليب دي تافرني يود التحدث اليه.

فردد عبارة «الشفالية فيليب دي تافرني» صوت فيه من الرجولة بقدر ما فيه من النعومة، ثم قال:

- دعه يدخل .

فدخل فيليب وقد أثّر فيه هذا الصوت الهادئ بعض الشيء ، وحيّا ثم قال :

- أرجو المعذرة يا سيدي .

وكان الرجل الذي حيّاه ضخم الجثة ، ذا بأس ونضارة عزّ نظيرهما ، ولم يكن سوى الشخص الذي ظهر بالتتابع على مائدة الماريشال ريشيلو ، وفي عيادة الدكتور ميسمار ، وفي غرفة الآنسة أوليفا ، وفي حفلة الأوبرا الراقصة . وقد أجاب هذا الرجل على اعتذار فيليب بقوله :

- أتعتذر يا سيدي! وعن أي شيء؟

- لأني أعقت خروجك وقد كنت مزمعاً عليه .

- كان عليك أن تعتذر لو وصلت متأخراً أيها الشيفالييه .

- لماذا؟

- لأني كنت أنتظرك .

فقطب فيليب حاجبيه وقال :

- كيف كنت تنتظرني؟

- نعم ، لقد أُحطت علماً بزيارتك .

- بزيارتي أنا ... أُحطت علماً !

- نعم ، ومنذ ساعتين . ألم تكن مزمعاً على أن تكون هنا

منذ ساعة أو ساعتين، لو لم يعترضك حادث خارج عن إرادتك ، اضطرك الى تأخير تنفيذ مشروعك ؟

فأخذ فيليب يضغط بأصابعه على مجمع كفيه ، وشعر بأن هذا الرجل غدا ذا نفوذ قوي عليه .

لكن الكونت كاغليوسترو ، ومن دون أن يظهر عليه أنه لاحظ أقل حركة من حركات فيليب الانفعالية ، قال له :

– تفضَّل واجلس يا سيد دي تافرني ، أرجوك .

ثم قدم له أريكة كانت موضوعة أمام المدفأة ، وأضاف قائلاً :

– إن هذه الأريكة قد وضعت هنا من أجلك .

فأجاب فيليب بصوت حاول أن يكون هادئاً كصوت مضيفه ، ولكنه لم يستطع إخفاء رعشته الخفيفة :

– كفَّ عن المزاح يا سيدي الكونت .

– إني لا أمزح إطلاقاً ، فقد كنت انتظرك كما قلت لك .

– إذن كفَّ عن الشعوذة ... فلو كنت كاشفاً للغيب ، لما جئت أجرب علمك التنبئي . ثم لو كنت هذا الكاشف للغيب ، لكان ذلك خيراً لك ، لأنك كنت عرفت ماذا جئت لأقول ، وكنت مقدماً اتخذت لك ملجأ .

فأجاب الكونت بابتسامته الفريدة :

– ملجأ !.. ولماذا الملجأ إذا أردت ؟

– إحزر، طالما أنك تكشف الغيب.

– حاضر. كي أدخل السرور الى قلبك، سوف أوفر عليك وأكشف السبب الذي دعاك لزيارتي: لقد جئت تطلب مبارزتي.

– أتعرف هذا؟

– بدون شك.

فصاح فيليب: إذن، هل تعرف السبب؟

– السبب هو الملكة. والآن جاء دورك لتكمل يا سيدي، أما أنا فسأستمع.

ولم يلفظ الكونت كاغليوسترو هذه الكلمات: «أما أنا فسأستمع»، بلهجة المضيف، بل لفظها بلهجة الخصم، فقال فيليب:

– معك حق يا سيدي، وإني أفضّل ذلك.

– إذن لقد كان لكلمة «مبارزتي» الوقع الحسن في نفسك؟

– إن الأمر يا سيدي يتعلق بمقال قدح وذم.

– هناك مقالات كثيرة من هذا النوع أيها السيد.

– وقد نشره صحافي...

– إن الصحافيين كُثُر.

- استمع إليّ : إن هذه المقالة ... ولكن لا ، سوف نهتم بالصحافي فيما بعد .

فقاطعه كاغليوسترو قائلاً :

- لقد سبق لك أن اهتممت به .

- حسناً ، لقد كنت أقول بأن هناك مقال قدح وذم بحق الملكة .

فسأله كاغليوسترو بعد أن عمل إشارة برأسه .

- وهل تعرف هذا المقال ؟

- نعم أعرفه ، وإنك قد اشتريت من الصحيفة التي نشرته ألف نسخة .

- أنا لا أنكر ذلك .

- وهذه الألف نسخة ، من حسن الحظ ، لم تصل بعد الى بين يديك .

- ما الذي جعلك تعتقد ذلك ؟

- كوني التقيت مندوبك الذي كان ينقل الحزمة ، فدفعت له مبلغاً من المال ، وحولت وجهة سيره الى منزلي ، حيث استقبله خادمي الذي كان قد أحيط علماً بقدومه .

- ولماذا لم تقم بهذا العمل بنفسك حتى النهاية ؟

- ماذا تريد أن تقول ؟

- أريد أن أقول بأنك لو فعلت ، لجاءت النتيجة أفضل .

– لم أقم بهذا العمل الى النهاية بنفسي لأنه في الوقت الذي كان فيه خادمي مهتماً بالاستيلاء على النسخ الألف المنقولة اليك ، كنت أنا مهتماً بتلف الباقي من النسخ في المطبعة .

– إذن أنت واثق بأن الألف نسخة التي اشتريتها هي في منزلك ؟

– بكل تأكيد .

– إنك مخدوع يا سيدي .

فقال تافرني وقد شعر بانقباض في صدره :

– كيف ذلك ؟ ولماذا أنا مخدوع ؟

فقال الكونت بسكينة وهو يسند ظهره الى المدفأة :

– لأن الألف نسخة هي عندي هنا !

فضرب فيليب الأريكة بقبضته مهدداً . وقال الكونت ببرودة ورباطة جأش :

– آه ! أتعتقد ، وأنا كاشف الغيب كما سبق لك وقلت ، بأنه قد فاتني ما سيحدث لمندوبي ؟ لا ، إن ذلك لم يفتني . فإن لدي قيّماً ، وقد تنبأ هذا القيّم بما سيحدث وكافأته على نبوءته ، ومن الطبيعي أن يكون قيّم النبي نبياً ... لقد تنبأ هذا القيم إذن ، بأنك سوف تأتي الى منزل الصحافي ، وأنك ستلتقي مندوبي وتغريه بالمال ، فتبعه وهدده بالاستيلاء على

الذهب الذي أعطيته إياه ، فخاف . وعوضاً عن أن يكمل طريقه باتجاه منزلك ، لحق قيّمي الى هنا . فهل لديك شك بروايتي ؟

- نعم ، إني أشك بها .

- لقد قال السيد المسيح للقديس توما يا سيد تافرني : «أنظر رجليَّ ، أنظر يديَّ » ، وأنا سأقول لك : « أنظر الخزانة ، وتلمَّس الكراريس » .

قال ذلك وفتح خزانة مصنوعة من خشب السندان ذي التعاريق الجميلة ، وأطلع الشيفالييه المصفرّ الوجه على الألف نسخة في درجها الرئيسي ، وكانت لم تزل مشبعة براحة الورق الرطب كأنها خارجة من المطبعة لتوها !

فتقدم فيليب من الكونت الذي لم يتحرك قيد أنملة رغم مظاهر التهديد التي بدت على وجه الشيفالييه ، وقال له :

- تبدو لي يا سيدي أنك رجل شجاع . وها إني أخطرك بأنه بات من واجبي امتشاق السيف في يدي .

فسأله : لماذا من واجبك ؟

- لأن الملكة أُهينت ، وأنت شريك في هذه الإهانة ، حتى ولو كنت محتفظاً بعدد واحد من هذه الصحيفة .

فقال كاغليوسترو من دون أن يتزحزح :

- في الحقيقة، إنك على ضلال يا سيدي، وهذا الضلال قد أحزنني. فأنا أهوى كل ما ينشر حديثاً، واحتفظ بمجموعات أعود اليها فيما بعد لأتذكر ألف قضية أكون قد نسيتها. ولقد اشتريت هذه الصحيفة لنفس الغرض، فلماذا أكون بشرائها قد أهنت أحد الأشخاص؟

- وقد أهنتني أنا نفسي!

- أنت؟

- نعم، أنا يا سيدي، هل فهمت؟

- لا، أقسم بشرفي أني لم أفهم.

- ولكن كيف تفسر إلحاحك على شراء هذه الصحيفة القذرة؟

- لقد قلت لك: هوايتي بالمجموعات.

- إن الرجل النبيل يا سيدي، لا يهوى الأشياء الشائنة.

- أعذرني يا سيدي إن لم أكن من رأيك فيما يتعلق بهذه الصحيفة، فالمقال الذي نشرته، هو مقال انتقادي وليس عملاً شائناً.

- ألا تعتقد، على الأقل، بأن ما جاء في هذا المقال، هو زور وبهتان؟

- أنت ما زلت مخدوعاً يا سيدي، لأن الملكة قد حضرت فعلاً جلسة السيد ميسمار المغناطيسية.

– هذا ليس صحيحاً يا سيدي .

– أتريد القول بأني أكذب ؟

– لا أريد القول ، بل قلت .

– حسناً ، طالما أن الأمر هكذا ، أراني مضطراً الى مصارحتك بأني قد شاهدتها بنفسي .

– أنت شاهدتها ؟

– نعم ، وكما أراك يا سيدي .

فأخذ فيليب يحملق في وجه الكونت متمنياً لو تستطيع نظراته المتسمة بالصراحة ، والنبل ، والصفاء ، أن تتصارع مع نظرات كاغليوسترو المشعة . لكن هذا الشوق قد انتهى به الى الاستسلام ، فحوَّل نظره وقال :

– حسناً ، لا أريد الاستمرار في القول بأنك تكذب .

فرفع كاغليوسترو كتفيه احتقاراً وكأنه أمام مجنون ، فقال فيليب :

– ألم تسمعني يا سيدي ؟

– بالعكس ، لم تفتني كلمة مما قلت .

– إذن ، ألا تقدر قيمة التكذيب ؟

– بلى يا سيدي . فهناك مثل فرنسي يقول : إن التكذيب يساوي صفعة .

- طالما أنك تعرف هذا المثل، وطالما أنك نبيل، فلماذا حتى الآن لم ترفع يدك على وجهي؟

- لأني قبل أن أعرف هذا المثل، وقبل أن أصبح نبيلاً، عمل الله مني إنساناً وقال لي: أحبب مثيلك.

- إذن أنت ترفض مرضاة نفسي بدعوتك الى المبارزة؟

- أنا لا أدفع إلا ما يتوجب عليّ.

- إذن هل تودّ مرضاتي بطريقة أخرى؟

- كيف؟

- أنا لن أعاملك بأسوأ مما يعامل النبيل نبيلاً آخر. لذا سأقتصر في طلبي على دعوتك لحرق كل النسخ الموجودة في الخزانة أمام ناظريَّ.

- وأنا سوف أرفض طلبك.

- فكّر بالأمر.

- لقد فكرت.

- سوف تضطرني إلى أن أتصرف معك كما تصرفت مع الصحافي.

- آه! ضربات العصا.

- لا أكثر ولا أقل يا سيدي. إيه! ألن تدعو رجالك؟!

- ولماذا أدعوهم؟ إن الأمر لا يعنيهم، بل يعنيني أنا وحدي، وأنا أقوى منك. هل تشك؟ إني أقسم لك. إذن

فكّر بدورك. هل تودّ أن تتقدم نحوي بعصاك؟ سوف أتناولك برقبتك وأرميك على بعد عشر خطوات مني إن فعلت.

- هولا! إنك مصارع على طريقة لوردات الانكليز. حسناً، لقد قبلت منازلتك يا سيد هرقل.

وانقضّ فيليب بغضب جنوني على كاغليوسترو الذي أمسك بالشيفالييه في حنجرته ومنطقته بقبضتيه الفولاذيتين ورماه بنزق على عرمة من الوسائد السميكة كانت تغطي أريكة في زاوية الصالون. ثم وقف بعد هذا العمل البطولي أمام المدفأة وكأن شيئاً لم يحدث!

وعندما نهض فيليب، كان أصفر اللون مزبداً. لكنه عاد الى الصواب وتحكيم العقل بسرعة، فسوّى من شأنه وقال بصوت كئيب:

- أنت في الواقع قويّ كأربعة رجال أيها الكونت. لكن المنطق عندك أقل تأثراً من زندك. فعندما عاملتني كما عاملتني، سها عن بالك أن المهزوم أو المهان سيضمر لك العداوة الدائمة. لذا بات من حقي أن أدعوك لامتشاق السيف أيها الكونت، وإلا قتلتك.

فلم يتحرك كاغليوسترو إطلاقاً. فعاد فيليب وكرر عليه القول: «امتشق حسامك!»، فقال الكونت:

– أنت لست قريباً مني كفاية يا سيدي، كي أعاملك كما عاملتك في المرة الأولى، ولن أعرّض نفسي للجرح من قبلك، بل للقتل، كما حصل لذلك المسكين جيلبار.

فصاح فيليب قائلاً:

– جيلبار! بأي اسم تلفظت؟

– من حسن الحظ أنك لا تحمل بندقية هذه المرة، بل سيفاً.

فصاح فيليب مرة ثانية:

– سيدي! لقد تلفظت بإسم ...

– نعم، بإسم أيقظ في نفسك ذكريات مرعبة.

– سيدي!

– بإسم كنت تعتقد بأنك لن تسمعه إطلاقاً، لأنك كنت وحدك مع ذلك المسكين في إحدى مغائر جزر آسوراس.

فأجاب فيليب متجاهلاً الموضوع:

– أوه! دافع عن نفسك، دافع عن نفسك.

فقال كاغليوسترو وهو ينظر اليه شزراً:

– لوكنت تعلم كم هو صعب أن يسقط السيف من يدك ...

– يسقط بسيفك؟

– نعم، بسيفي، إذا أردت.

– إذن هيا !.. هيا ولا تتردد !

– أوه ! لن أعرّض بنفسي ، فلدي وسيلة أفضل .

فقفز فيليب بإتجاه الكونت وصاح به :

– للمرة الأخيرة أقول لك : امتشق حسامك وإلا أنت مائت !

لكن الكونت المهدد هذه المرة بحد السيف الذي بات على بعد ثلاث أصابع من صدره ، تناول من جيبه قمقماً صغيراً ، وبأسرع من لمح البصر نزع سدادته ورشق بمحتوياته وجه فيليب ...

وما كاد السائل يلامس وجه الشيفالييه دي تافرني ، حتى أخذ يترنح ... ثم سقط السيف من يده ، ودار على نفسه وسقط على ركبتيه ... وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى تعطلت كل حواسّه .

فأسرع كاغليوسترو وأمسك به متحاشياً سقوطه على الأرض . ثم أعاد سيفه الى غمده ، وأقعده على أريكة ، وانتظر حتى عاد اليه كامل صوابه ، فقال له :

– لا يليق بك ، وأنت في هذه السن أيها الشيفالييه ، أن ترتكب الحماقات وتتصرف كما الأولاد . فاقلع عن هذه التصرفات المجنونة ، واستمع إلي !

فتململ فيليب وتحرك ، وطرد الرعب الذي اجتاح دماغه ، ودمدم قائلاً :

- أوه سيدي ! أهذا هو السلاح الذي تسمونه سلاح النبلاء ؟!

فهزّ كاغليوسترو كتفيه وأجاب :

- إنك تردد دائماً نفس العبارة ، بينما نحن معشر النبلاء ، قد فتحنا فمنا واسعاً كي تخرج منه كلمة « نبيل » من دون زيادة ولا نقصان . فما هو برأيك سلاح النبلاء ، هات لنرى؟ هل هو سيفك الذي أسأت استعماله ضدي؟ هل هي بندقيتك التي أحسنت استعمالها ضدَّ جيلبار ! من الذي يصنع الرجال المتفوقين أيها الشيفالييه ؟ أتعتقد أن هذه الكلمة الرنانة « نبيل » ، هي التي تصنعهم؟ لا . إن ما يصنعهم هو العقل أولاً ، ثم القوة ، وأخيراً العلم . وأنا قد استعملت الثلاثة معك . فبعقلي جابهت شتائمك ، يحدوني الأمل بحملك على الإصغاء إليَّ . وبقوتي جابهت قوتك . وبعلمي أخمدت قوتك الجسدية والمعنوية في آنٍ واحد . بقي علي الآن أن أُثبت لك بأنك ارتكبت غلطتين ، بمجيئك الى هنا والتهديد على فمك . فهل تريد أن تشرفني بإصغائك ؟

فقال فيليب :

- لقد حطمتني ولم يعد باستطاعتي أن أتحرك . فقد

سيطرت على عضلاتي وتفكيري ، ومع ذلك ، أنت تسألني الإصغاء اليك ؟! وهل باستطاعتي أن أفعل غير ذلك ؟

عندئذ تناول كاغليوسترو قمقماً صغيراً مذهباً كان موضوعاً على المدفأة ضمن علبة من البرونز ، وقال له برقة متناهية :

- تنشق هذا القمقم أيها الشيفالييه .

فأطاع فيليب ، وللحال تبددت الأبخرة السوداوية التي كانت تظلم دماغه ، وتراءى له بأن الشمس الهابطة من جوانب جمجمته ، قد أضاءت كل أفكاره ، فقال :

- آه ! إني أولد من جديد !

- هل تشعر بأنك في حالة جيدة ، أي هل تشعر بنشاط وإرادة حرة ؟

- نعم .

- وهل عادت إليك ذاكرتك ؟

- أوه ! نعم .

فقال الكونت كاغليوسترو :

- أما وقد عادت ذاكرتك اليك ، فأرجو أن تكون قد ندمت على تصرفك .

- لا ، أبداً ، لأني كنت أتصرف بمقتضى مبدأ مقدس .

- مبدأ مقدس ؟! ما هو هذا المبدأ ؟

– الدفاع عن المملكة .

– أنت ، تدافع عن المملكة ؟

– نعم ، أنا .

– أنت ، الرجل الذي ذهب الى أميركا ليدافع عن الجمهورية ! آه ! يا إلهي ! كن إذن صريحاً ، فإما التي دافعت عنها هناك ليست الجمهورية ، وإما التي تدافع عنها هنا ليست المملكة .

فأخفض فيليب عينيه وزفر زفرة انسحق معها قلبه ، وأكمل كاغليوسترو يقول :

– أَحببهم ، أَحببهم أولئك الذين يحتقرونك . أَحببهم أولئك الذين سلوك . أَحببهم أولئك الذين خدعوك . فهكذا النفوس الكبيرة المفعمة بالمحبة ، تُطعن ويُغدر بها دائماً ، وهكذا تأمر شريعة المسيح ، بأن يبادل الانسان الشر بالخير . هل أنت مسيحي يا سيد تافرني ؟

فصاح فيليب وقد أرعبه أن يرى كاغليوسترو يقرأ حاضره وماضيه :

– سيدي ، ليس لدي كلمة أزيدها . لأني إن لم أدافع عن المملكة ، فقد كنت أدافع عن الملكة ، أي عن امرأة محترمة بريئة ، والشريعة الإلهية توصي بالدفاع عن الضعفاء .

- الضعفاء !.. ملكة وضعيفة ؟! تلك التي يحني الركاب والرؤوس أمامها ثلاثون مليوناً من الكوائن الحية، تعتبرها ضعيفة ؟ يا للرأي العجب !

- إنها ضحية نميمة وافتراء يا سيدي .

- كيف عرفت أنها ضحية ؟

- أريد أن أصدق ذلك .

- وهل تعتقد أن ذلك من حقك ؟

- بدون شك .

- حسناً ! ومن حقي أنا ، أن أصدق العكس .

- ولكنك تكون القدوة السيئة .

فصاح كاغليوسترو وقد قدحت عيناه بالشرر فجأة ، وتبلل فيليب بالعرق :

- من قال لك بأني سأكون هذه القدوة ؟ من أين جئت بهذه الفتوى كي تعتقد بأنك أنت على حق ، وأني أنا على ضلال ؟ من أين جئت بهذه الجسارة كي تفضّل مبدأك على مبدئي ؟ أنت تريد الدفاع عن الملكة ؟ حسناً ! أنا أريد الدفاع عن الانسانية . أنت تقول : ردوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وأنا أقول : ردُّوا ما لله لله . فيا أيها الجمهوري في أميركا ، ويا حامل وسام الفروسية الملكي ، إني أدعوك إلى حب البشر ، إلى حب المساواة . فأنت تمشي على الشعب لتقبّل أيدي

الملكات ، وأنا أطأ بقدميّ الملكات كي أرفع مستوى الشعب . فلا تعكر عليّ عملي ، لأني لن أعكر عليك عباداتك . سوف أترك لك شمس السموات وشمس البلاطات ، فأترك لي الظل والعزلة . إنك تفهم قوة منطقي ، كما فهمت منذ بعض الوقت قوة شكيمتي ، أليس كذلك ؟ لقد كنت تقول لي : مت ، أنت الذي أهان معبودتي . أما أنا ، فأقول لك : عش ، أنت الذي حاربت هياماتي . وإذا كنت أقول لك هذا القول ، فلأني أشعر أني قويّ كمبدئي . قويّ الى درجة لا تستطيع معها ، لا أنت ، ولا مبادؤك ، ولا كل القوى التي تساندك ، أن تعيق مسيرتي لحظة واحدة .

فقال فيليب :

- لقد أرعبتني يا سيدي ! فقد أكون الأول في هذا البلد ، الذي شاهد بفضلك قعر الهاوية حيث تنزلق المملكة .

- إذن كن فطناً ، طالما أنك قد رأيت الهاوية .

فأجاب فيليب وقد ارتعش من اللهجة الرحيمة التي كلّمه بها كاغليوسترو .

- أنت الذي تقول لي هذا القول ، أنت الذي كشف لي أسراراً رهيبة ، ما زالت تنقصك الأريحية . لأنك تعلم جيداً ، بأني سوف أرمي بنفسي في اللجة قبل أن ترى عيناي أولئك الذين أدافع عنهم يسقطون ...

- حسناً إذن ! لقد حذَّرتك ، وسوف أغسل يديّ كما فعل بيلاطس يا سيد تافرني .

فقال فيليب :

- وأنا ، أنا الذي لست سوى رجل ضعيف وأدنى مرتبة منك ، سوف أستعمل تجاهك سلاح الضعفاء ، فأتصدى لك بعين دامعة ، وصوت مضطرب ، ويدين مضمومتين ، متوسلاً اليك كي تهبني ، على الأقل هذه المرة فقط ، العفو عن أولئك الذين تلاحقهم . سوف أطلب لنفسي ، هل تسمع ، لنفسي أنا الذي اعتاد أن ينظر إليك نظرة عداء ولا أعرف لماذا ، سوف أطلب تحننك ، سوف أقنعك ، سوف أحصل منك على وعد بأنك لن تدعني فريسة تبكيت الضمير على فقدان هذه الملكة المسكينة ، وعلى رؤيتها محاطة بالمؤامرات . أعدني يا سيدي ، أعدني بأنك سوف تمزق النسخ التي تحمل ذلك المقال المشؤوم الذي ، ولا شك ، سوف يبكي المرأة التي يستهدفها . أعدني ، وإلا ... فبهذا السيف القاصر ، والخجول بأن يشهر في وجهك ، سوف أطعن قلبي على قدميك !!

فتطلّع كاغليوسترو الى فيليب بعينين تعبران عن ألم موجع ، ودمدم قائلاً :

- آه ! آه ! لو كان الكل مثلك ، لكنت أنا لهم ، ولما تعرضوا للهلاك !

- سيدي ، سيدي ، أرجوك أن تستجيب طلبي ، إني أتوسل إليك .

فقال كاغليوسترو بعد صمت قصير :

- إذهب الى الخزانة ، وعدَّ النسخ إن كانت ألفاً بالتمام ، ثم احرقها بنفسك حتى آخر نسخة .

فشعر فيليب كأن قلبه أخذ يرقص بين أضلاعه ... وأسرع الى الخزانة فأخرج منها النسخ الألف ، وحرقها ... ثم عاد فشدَّ يد الكونت كاغليوسترو بحرارة ، وقال له :

- إلى اللقاء . إلى اللقاء يا سيدي ، وألف شكر على صنيعك معي .

فقال كاغليوسترو وهو ينظر إليه يبتعد:

- حقاً ، إن هذا الشخص يستحق الشفقة !

ثم نادى بأعلى صوته :

- إليّ بجيادي .

رأس عائلة دي تافرني

★

كانت فرساي في ذلك الوقت غنية بالقصور القديمة والحدائق ذات الطراز الفرنسي الفريد. وكانت هذه الحدائق تضمّ فيما تضمّ، أحواض المياه ومساكب الزهور ومجموعات فريدة من الطيور المختلفة الأشكال والألوان، وكان قصر السيد دي تافرني، الأب، وحديقته، من أجمل هذه القصور وأبدعها.

فبينما كانت هذه الأمور تجري في شارع «سان جيل»، كان السيد دي تافرني، الأب، يتنزه في حديقة قصره متبوعاً بخادمين يلحقانه بتكأة أينما سار. وأخيراً وصل الى صف مستطيل من الزيزفون المغطى بالشباك الحمراء وقد بدا كأنه قضيب من الحديد المحمّى، فأخذ يمشي ببطء في محاذاة صف الزيزفون هذا ويداه داخل فروة لليدين بشكل اسطواني، والخادمان يقدمان اليه، كل خمس دقائق، التكأة ليستريح عليها بعد ممارسة رياضته تلك...

وبينما كان دي تافرني، الأب، يتهنأ بهذه الاستراحة ويطرف بعينيه طرفاً متواتراً بسبب حرارة شمس ذلك اليوم، رأى بواب قصره مقبلاً نحوه بأقصى السرعة وهو يصيح :

- سيدي الشيفالييه ! سيدي الشيفالييه !

فقال البارون الشيخ بلهجة فيها من الغطرسة بقدر ما فيها من الفرح : ولدي !

ثم استدار فلمح ولده فيليب يتبع البواب، فأكمل يقول : عزيزي الشيفالييه !

ثم صرف الخادم بإشارة منه، وقال لولده :

- تعال يا فيليب، تعال، لقد وصلت في الوقت المناسب، فرأسي مملوء بالأفكار السارة. آه ! إني أراك عابس الوجه ... يظهر أنك مستاء.

- أنا !.. لا يا سيدي.

- يظهر أنك قد عرفت حصيلة المغامرة.

- أية مغامرة تعني ؟

فاستدار الشيخ ليتأكد من أن أحداً لا يسمعه، فقال له الشيفالييه :

- باستطاعتك أن تتكلم يا سيدي، فما من أحد يصيخ السمع.

- إني أكلمك على المغامرة التي قمت بها في حفلة الرقص.

- لم أفهم كفاية.

- الرقص في الأوبرا.

فاحمرَّ فيليب، ولاحظ الشيخ الخبيث احمراره، فقال له:

- عديم الفطنة. فقد عملت كالبحارة السيئين الذين ينشرون كل الأشرعة عندما يرون الهواء مؤاتياً. هيَّا، إجلس هنا على هذا البنك، واصغِ إلي أيها الولد المتهور!

- سيدي، أخيراً ...

- أخيراً أنت تتصرف بطيش، وأنت الذي كنت فيما مضى كثير الخجل، كثير التحفظ، قد غدوت اليوم مجازفاً غير مكترث لسمعتك!

- عن ماذا تتكلم يا سيدي؟

- عنها، بالطبع! عنها.

- من تكون؟

- آه! أتعتقد بأني أجهل إهمالك للواجب، بل إهمالكما أنتما الإثنين في حفلة الأبرا؟

- سيدي، إني أحتج ...

- اصمت! فإن ما قلته لخيرك ولا لزوم لأن تغضب. وإني أحذرك بأنك إن بقيت هكذا غير محترز، فإن أمرك

سينكشف. فكما شاهدوك معها هذه المرة في حفلة الأوبرا الراقصة، سوف يشاهدونك مرة ثانية في مكان آخر.

- تقول شاهدوني؟

- نعم، شاهدوك. ألم تكن ترتدي «دومينو» أزرق؟ قل، نعم أم لا؟

فأوشك تافرني أن يصرخ بوالده بأنه ليس لديه «دومينو» أزرق، وأنه لم يحضر حفلة رقص، وأن والده مخدوع، لكنه كان يأبى الدفاع عن نفسه في الظروف الحرجة، ففكر في نفسه قائلاً: «لا بأس من مجاراة والدي، فإني أريد معرفة كل شيء».

ثم أحنى رأسه أمامه كالمجرم الذي يعترف بذنبه، فقال الشيخ منتصراً:

- أرأيت كيف أنهم عرفوك؟ لقد كنت واثقاً من ذلك كل الثقة. فالواقع أن السيد ريشيليو الذي يحبك كثيراً، والذي حضر حفلة الرقص رغم سنواته الأربع والثمانين، قد سعى لمعرفة صاحب «الدومينو» الأزرق الذي أعطته الملكة ذراعها، فما وجد سواك كي يشك به، لأن الآخرين قد شاهدهم كلهم. وأنت تعلم عندما يتيقن الماريشال من أمر.

فقال فيليب ببرودة:

- أن يكون الماريشال قد ظنَّ بي ، فهذا أمر معقول . أما أن يكون قد عرف الملكة ، فهنا العجب العجاب !

- ولِمَ العجب ، طالما أنها كانت غير مقنعة ؟ إنها جرأة تتعدى كل تصوّر ! ويجب أن تكون هذه المرأة مجنونة بحبك كي تقدم على ما أقدمت عليه !

وصبغ الاحمرار وجه فيليب ، وتابع والده يقول :

- خذ حذرك أيها الشيفالييه . فهناك غيارى ، وغيارى مخيفون ... فهذا المركز ، محظيّ الملكة ، سيكون موضع حسد الكثيرين ، عندما تصبح الملكة هي الملك الحقيقي .

وبعد أن تنشق تافرني الأب نشقة سعوط طويلة ، أكمل يقول :

- سوف تصفح عن تأنيبي لك ، أليس كذلك ؟ إصفح يا عزيزي وسأكون لك شاكراً . فما أردته ، هو أن أجنّبك الرياح المفاجئة ، التي قد تهدم الصقالة التي رفعتها بمهارة .

فنهض فيليب وقد بلّله العرق وتشنجت قبضتا يديه ، وتهيأ للخروج كي يقطع على والده حديثه . لكن إحساساً أوقفه ، إحساساً فضولياً تثيره الرغبة الملحاحة لمعرفة الشر ، ذلك المحرك العديم الرحمة الذي يصدم القلوب المفعمة بالحب .

واستأنف الشيخ حديثه ، فقال :

- كنت أقول لك إذن بأنهم يحسدوننا، هكذا بكل بساطة. ومع ذلك فنحن لم نصل بعد الى الذروة. إن الفضل يعود إليك بالشهرة التي نالها اسم تافرني المتواصل الأصل، ولكننا لم نصل الى مبتغانا بعد. فكن فطناً يا بني، وإلا فإن مشاريعك ستحبط في الطريق.

فاستدار فيليب كي يخفي تذمره الشديد، والاحتقار الذي بدا على تقاسيم وجهه في تلك اللحظة، وقد أدهش هذا التعبير الشيخ، وربما أرعبه، فقال:

- بعد قليل، سوف تطلب منصباً كبيراً، وسوف تمنحني وظيفة وكيل الملك في ناحية ما، لا تكون بعيدة عن باريس، على أن تكون ترقيتي ضمن الدفعة الأولى من الترقيات. أما أنت، فباستطاعتك أن تكون دوقاً، أو ضابطاً لتاج فرنسا، أو أمير لواء. الخلاصة أنني أريد أن أحيا أيامي الأخيرة كما أشتهي وأتمنى، وعليك أن تمنحني...

فقاطعه فيليب مزمجراً:

- كفى! كفى!

- أوه! إذا كنت مستكفياً وراضياً، فأنا لست كذلك. أنت ما زالت لك كل الحياة، أما أنا، فبالكاد بقي لي عدة أشهر، فيجب أن تعوض عليَّ هذه الأشهر الباقية، كل ما فاتني وما لحقني من حزن. فكن ذلك البطل، ذلك التافرني

العظيم الذي يوحي بالاحترام، وأنت فعلاً توحي لي بهذا الاحترام رغم تصرفك الغريب في البلاط.

فسأله فيليب وقد أقلقته مرضاة ذلك الصل عليه أخيراً:

- وماذا بعد ذلك؟

- إن تصرفك عظيم! فأنت لا تظهر غيرة، وتترك المجال حراً، ظاهرياً،لكل إنسان، بينما في الواقع تحتكره لنفسك. هذا جميل، ولكن ما زلت بحاجة الى بعض الملاحظات.

فقال فيليب وقد شعر بأن الصل قد زاده لسعاً:

- هات.

- المطلوب: لا تواضع، أفهمت؟ هكذا تصرف بوتمكين[1] الذي أدهش العالم بثروته. فبوتمكين هذا، قد لاحظ أن كاترين تحب التباهي في غرامياتها، وأنها إذا ما تركت حرة، سوف تتنقل من زهرة الى زهرة، مختارة من بينها الأكثر جمالاً وسحراً. كما لاحظ بأن ملاحقته لها، ستجعلها تنفر منه وتفرّ كالغزال الشارد. لذلك أذعن للأمر الواقع. فهو الذي جعل محظيي كاترين الثانية الجدد الذين فضلتهم على غيرهم، الأحب الى قلب الامبراطورة. وهو

---

١ - الفيلد ماريشال بوتمكين، وقد كان محظيّ الامبراطورة الروسية كاترين الثانية.

الذي أنهك العاهلة بالنزوات الفانية ، عوضاً عن أن يفجرها بملذاته الخاصة . وفيما كان يمهد الطريق للحكم الزائل أمام هؤلاء المحظيين الذين أُطلق عليهم تهكماً لقب « الاثنا عشر قيصراً » ، كان في الواقع ، يعمل ليسيطر هو على الحكم سيطرة دائمة وأبدية .

فدمدم فيليب قائلاً ، وهو يتطلع الى والده بدهشة وذهول :

– ولكنها فضائح لا يمكن إدراكها .

فأكمل الشيخ برباطة جأش :

– وفق طريقة بوتمكين ، تكون قد ارتكبت خطأ بسيطاً . فبوتمكين لم يكن يتخلى كثيراً عن الرقابة ، بينما أنت تراخيت . ومع أن السياسة الفرنسية هي غير السياسة الروسية ، فهذا التراخي في غير محله .

تلفظ تافرني الأب بهذه الكلمات بأسلوب فيه من التكلف والنعومة ما يحيِّر أكبر العقول الدبلوماسية ، فلم يجاوب عليها فيليب الذي يعرف هذيان والده بسوى هزِّ الكتفين المقرون بقليل من الاحترام ، وقد ردَّ عليه الشيخ بقوله :

– نعم ، نعم ، أتعتقد بأني لم أسبر أفكارك ؟ سوف ترى .

– هيَّا يا سيدي !

فقال والده وقد شبك يديه :

- سوف تقول لي بأنك لن تنفذ السيف بخلفك ، أليس كذلك ؟

فقال فيليب وقد اصفرَّ وجهه :

- خلفي !

- سوف تقول لي بأنك لا تعرف مقدار الثبات في الأفكار الوالهة للملكة ، وأنك لا تريد أن تُستبعد ويضحى بك نهائياً ، إذا ما خطر للملكة أن تنقّل فؤادها كما يحدث لها دائماً ، لأنها لا تريد أن تحب الحاضر وتتألم من الماضي .

- إنك تتكلم العبرية يا سيدي البارون !

فأخذ الشيخ يقهقه قهقهات كأنها نداء العفاريت ، وأجاب :

- تريد أن توهمني بأن نهجك لا يراعي جانب السيد دي شارني .

فصاح فيليب قائلاً : دي شارني ؟!

- نعم ، دي شارني الذي سيكون خلفك في المستقبل . دي شارني الرجل الذي باستطاعته اذا ما حكم أن ينفيك ، كما باستطاعتك أنت اليوم أن تنفي دي كواتيي ، ودي فودرايل وغيرهما .

فصعد الدم الى رأس فيليب وصاح بوالده :

- كفاك ! كفاك يا سيدي ! في الحقيقة ، بتُّ أخجل من

نفسي لأني استمعت اليك طويلاً! فالذي يقول عن ملكة فرنسا بأنها ميسالين[1]، إنما هو مجرم ونمَّام.

فقال الشيخ:

- أحسنت! أحسنت! فأنت على حق، لأن هذا هو دورك. ولكني أؤكد لك بأنه ليس باستطاعة أي إنسان أن يسمعنا.

- أوه!..

- أما من جهة شارني، فأنت ترى بأني قد وقفت على أسرار قلبك. فمهما كنت بارعاً في وضع الخطط، باستطاعتي اكتشافها، كما رأيت. على كل، أكمل يا فيليب، أكمل. تملَّق، وتساهل، وساعد شارني ما استطعت كي ينتقل بهدوء مما هو عليه الى حالٍ أفضل، ولا تزعزع ثقتك بنبله وبأنه في المستقبل سيجازيك بالمثل.

وبعد هذه الكلماتِ التي قالها تافرني الأب وهو فخور بمقدرته العقلية، وثب على كتفه وثبة صغيرة، أيقظت تافرني الشاب وأثارت غضبه، فأمسك بمقبض يد والده ودفعه وقال له:

---

١ - الامبراطورة الفاتنة التي دمرت عظماء روما، والتي أباحت جسدها للعشرات من عشاقها.

– هكذا إذن ! ما هذا يا سيدي ؟! إن منطقك لعجيب !

فقال الشيخ بلهجة أبوية :

– أغفر لي صراحتي يا بني . فأنا ، رغم ملاحظاتي ، أحب شارني ، ويسرني أن تكون قد تصرفت معه على هذا الشكل .

فقال له فيليب :

– إن شارني الذي تحبه ، هو الآن عصفوري المشكوك على السفود ... فالواقع ، أنني منذ قليل قد فتحت بهذا النصل أخدوداً في خاصرته ...

قال فيليب هذا وعرض سيفه لوالده ، فصاح هذا وقد أرعبه المنظر :

– ما هذا ؟! أتريد القول بأنك قد تبارزت مع السيد دي شارني ؟

– نعم ، وقد أنفذت السيف به !

– يا إلهي !

– وهذه هي طريقتي في المجاملة والتملق الخلفائي ... أما وقد عرفتها الآن ، فقارن بينها وبين نظريتك .

وقام فيليب بحركة قنوط استعداداً للتملص من أبيه ، فتشبث الشيخ بذراعه وقال متوسلاً :

– فيليب ! فيليب ! قل لي بأنك كنت تمزح .

– سمّ ذلك مزحاً إذا شئت ، ولكن ما حدث قد حدث .

فرفع الشيخ عينيه نحو السماء وتمتم ببضع كلمات، ثم ترك ولده وأسرع باتجاه غرفة الانتظار وهو يصيح:

- بسرعة! بسرعة! إلي بفارس يذهب ويستعلم عن السيد دي شارني الذي جرح. ليأتني بأخباره ولا ينسى أن يقول له بأنه آتٍ من قبَلي!

ثم أكمل وهو يدخل الغرفة:

- هذا الخائن فيليب، أليس شقيق أخته!؟ آه! كنت اعتقدت بأنه تخلص من عيوبه. ولكن لا، لا يوجد إلا رأس واحد في عائلتي... وهذا الرأس، هو رأسي!

رباعية الكونت دي بروفانس

★

بينما كانت هذه الأحداث تجري في باريس وفرساي، كان الملك مطمئناً كعادته، يستعرض في غرفته مجموعة من الخرائط والكتب ويحلم بمخر عباب البحر مجدداً بواسطة سفن مصنوعة في مدينة «باروز» الإيطالية.

وإذ هو كذلك، طرق الباب طرقاً خفيفاً أيقظه من حلمه الجميل هذا، ثم سمع صوتاً يقول:

- هل أستطيع الدخول يا أخي؟

فدمدم الملك وهو يدفع عن أمامه كتاباً في علم الفلك كان يتصفحه باهتمام كلي: «إنه الكونت دي بروفانس».

ثم قال بصوت مرتفع:

- أدخل!

وعلى الفور دخل غرفة الملك بكثير من الاحترام، شخص ضخم الجثة، قصير القامة، أحمر الوجه، بادر الملك بقوله:

- لم تكن تنتظر قدومي يا أخي، أليس كذلك؟

- في الواقع، لا.

- قد أكون أزعجتك؟

- لا، ولكن هل لديك شيء مفيد تقوله لي؟

- شائعة مضحكة حقاً، مثيرة للسخرية...

- آه! آه! اغتياب؟

- هذا هو الواقع يا أخي.

- هل هناك عار لحق بي؟

- نعم يا أخي، والله شاهد عليَّ إن كنت أكذب في نقل الخبر، مع أني أشك في صحته.

- إذن، الأمر يتعلق بالملكة؟

- تصور يا مولاي أنهم قد قالوا لي بجدية، وأنا أقولها لك بحذر كلي...

- أسرع وقل، ما الذي حدث؟

فقال الكونت دي بروفانس ببرودة لا تتفق مع الانفعال الذي ظهر على وجه الملك:

- يقولون يا أخي، بأن الملكة قد باتت ليلة خارج القصر الملكي...

قال الكونت دي بروفانس ذلك، وأجهد نفسه ليضحك... متظاهراً بالهزء والسخرية من هكذا تهمة. فقال الملك بوقار:

- هذا شيء مؤسف جداً، إن كان صحيحاً.

- ولكني أعتقد بأن الشائعة ليست صحيحة، أليس كذلك يا أخي؟

- أبداً.

- وليس صحيحاً أيضاً بأنهم شاهدوا الملكة وهي تنتظر على بوابة الخزانات؟

- أبداً.

- أنت تذكر يوم أعطيت الأوامر لتقفل هذه البوابة عند الساعة الحادية عشرة؟

- لا أدري.

- حسناً! تصوَّر يا أخي بأن الإشاعة تزعم...

- إيه! إشاعة! وما هي؟ وأين هي؟

- هناك قول عويص يا أخي، عويص جداً، هو الإشاعة في الواقع. إذن هذا الكائن الذي لا يُرى ولا يُدرك والذي يسمونه الإشاعة، يزعم بأنهم قد شاهدوا الملكة مع الكونت دارتوا، في الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر...

فصاح الملك: أين؟

- إذا قصد المرء المنزل الذي يملكه الكونت دارتوا، هناك وراء الاصطبلات... ألم تسمع جلالتك بهذه الفاحشة؟

- بلى، لقد سمعت بها، ولكنها كانت ضرورية بالنسبة للكونت.

- كيف يا مولاي؟

- نعم، ألم تعمل أنت شيئاً كي يصل الى مسمعي حديث الناس عنه؟

- أنا؟!

- نعم، أنت.

- ماذا يا سيدي؟ ماذا فعلت؟

- رباعية مثلاً، وقد نُشرت في مجلة «عطارد».

فقال الكونت دي بروفانس وقد ازداد احمراراً:

- رباعية !

- وقد أنهيتها بهذا البيت من الشعر: «هيلانة، لا تقولي شيئاً للملك الطيب مانالاس[1]».

- أنا يا مولاي!..

- لا تنكر. هاك مخطوط الرباعية بخط يدك... إن معرفتي بالشعر قليلة، أما بالخطوط، فإني خبير بها...

- مولاي، إن الحماقة تسبب حماقة أخرى.

- إني أؤكد لك يا حضرة الكونت دي بروفانس، بأنه ليس هناك حماقة سوى حماقتك. وإني لأعجب كيف يرتكب فيلسوف مثل هذه الحماقة التي لا تليق نعتاً إلا لرباعيتك.

- مولاي، إن جلالتك قد قست علي.

- إني أعاملك بالمثل يا أخي. فعوضاً عن أن تنشر رباعيتك هذه، كان عليك أن تتحقق مما عملته الملكة. وعوضاً عن هذه الرباعية ضدها، وبالتالي ضدي أنا، كان عليك أن تكتب بعض الأبيات العاطفية في امرأة أخيك. قد تقول بأنها ليست مصدر وحي لك. لا بأس، إني أفضّل

---

١ - ملك إغريقي كانت زوجته الجميلة هيلانة تخونه وهو لا يصدق، وهي إحدى بطلات الالياذة.

رسالة شعرية سيئة، على هجاء جميل. فهوراس، شاعرك المفضل، كان يقول هذا القول.

- مولاي، إنك تفحمني.

فقال الملك بحزم:

- إذن إن كنت مثلي أكيداً من براءة الملكة، فما عليك إلا أن تعيد قراءة شاعرك هوراس الذي استشهدت بقوله المأثور.

وبعد هذا الدرس الذي لقّنه الملك، كأب وليس كأخ، للكونت دي بروفانس، تراءى له بأن أخاه يفكر في تبرير نفسه. وفعلاً بقي الكونت صامتاً وغارقاً في مهامه التفكير بعض الوقت، كأنه محتار في أمره، أو كأنه خطيب يفتش في ذاكرته عن أكثر التعابير لباقة، ثم قال:

- مولاي، مهما كانت جلالتك قاسية في حكمها عليّ، تبقى لدي وسيلة للاعتذار وأمل في العفو.

- تكلم يا أخي.

- أرجو أن تقبل عذري على أني مخدوع، وليس على أني سيء النية.

- موافق.

- الواقع أن جلالتك، كما تعرف بأن ما من إنسان لا يخدع، تعرف أيضاً بأن أخاك لا يخدع بسهولة.

- إني لا أشك إطلاقاً بعقلك الكبير وفكرك النيّر يا أخي.

- إذن كيف تريد أن لا أنخدع، وأنا أسمع كل ما يشاع ويقال؟ فأنا لم أقل بأني صدقت، بل قلت بأني سمعت.

- الحمد لله طالما أن الأمر هكذا. ولكن...

- ولكن الرباعية، أليس كذلك؟ أوه! إن الشعراء يا مولاي هم كوائن غريبة. ثمَّ، ألم يكن من الأفضل أن تردَّ عليَّ بنقد ناعم يكون بمثابة إنذار لي، عوضاً عن أن تقطب حاجبيك؟ ثم ما أهمية بعض أبيات من الشعر بالنسبة الى هذه المقالة التي جئت أطلعك عليها بنفسي...

- مقال قدح وذم!!

- نعم يا مولاي، وأنا بحاجة ماسة إلى أمر يخولني زجَّ ذلك الحقير الذي كتبها في الباستيل.

فنهض الملك بانفعال وقال بحدة: هيَّا بنا!

- لا أدري إذا كان يتوجب عليَّ يا مولاي...

- بالطبع يتوجب عليك. فلا مجال للمراعاة في مثل هذه الظروف. هل لديك هذه المقالة الهجائية؟

- نعم يا مولاي.

- هاتها.

فسحب الكونت دي بروفانس من جيبه نسخة من تلك الصحيفة المتوجة بمقال عنوانه «تاريخ أتانيوتا»، كبرهان

ساطع على ان عصا شارني ، وسيف فيليب ، وريالات الكونت دي كاغليوسترو ، لم تحل دون تداول هذه الصحيفة .

فألقى الملك عليها نظرة سريعة كمثل الرجل الذي اعتاد قراءة المقاطع الهامة في الكتاب أو الصحيفة ، ثُمَّ قال :

– فضيحة ! فضيحة !

فأجاب الكونت دي بروفانس .

– أرأيت يا مولاي ، كيف أنهم يتهمون شقيقتي الملكة بأنها كانت بين الذين حضروا بهلوانات ميسمار ؟

فقال الملك : ولِمَ العجب ؟ نعم كانت .

فصاح الكونت دي بروفانس مندهشاً : كانت !

– نعم كانت . وكانت بإذن مني ...

– أوه ! مولاي .

وليس حضورها عند ميسمار هو الذي أثار حفيظتي ، لأني أنا الذي سمحت لها بالذهاب الى ساحة فاندوم .

– ولكن جلالتك لم تسمح بأن تقترب الملكة من « دلو ميسمار » ، كي تختبر بنفسها ...

فخبط الملك الأرض برجله ... إذ اتفق الكلام الذي تلفَّظ به الكونت ، مع قراءة الملك لويس السادس عشر للمقطع الأكثر إهانة بحق ماري انطوانيت ، أي المقطع الذي يصف

حالة بُحرانها المزعوم في تلك الجلسة المغناطيسية، وتشنجات عضلاتها، وشهوانيتها المهتاجة، وحركاتها المضطربة، وكل ما أُعطي من وصف للحالة التي بدت بها الآنسة أوليفا حول «الدلو السحري» للدكتور ميسمار. خبط الملك الأرض برجله وقال:

- هذا مستحيل! هذا مستحيل! أوه! إن الشرطة يجب أن تكون لديها المعلومات الحقيقية.

ثم قرع الجرس وقال للضابط الذي أقبل:

- السيد دي كروسن، ليبحثوا لي عن السيد دي كروسن.

فأجاب الضابط:

- مولاي، إن اليوم هو اليوم المعين لتقديم التقرير الأسبوعي، والسيد دي كروسن ينتظر الأوامر للدخول على جلالتك.

فقال الملك: ليدخل!

وهنا قال الكونت دي بروفانس بلهجة المحتال: «إسمح لي يا أخي ...» وتهيأ ليخرج، فقال له لويس السادس عشر:

- إبق هنا. فإذا كانت الملكة مذنبة، لا بأس إن اطلعت على ذنبها، فأنت من أهل البيت. وإن كانت بريئة، فيتوجب عليك أن تعرف أيضاً، أنت الذي ظننت بها.

ولما دخل السيد دي كروسن ورأى الكونت دي بروفانس مع الملك، بدأ بتقديم الاحترامات لأعظم عظيمين في المملكة، ثم توجه الى الملك قائلاً:

- إن التقرير حاضر يا مولاي.

- قبل التقرير، فسّر لي كيف نُشر في باريس مقال يتهجم على الملكة؟

فسأل السيد دي كروسن الملك: أتانيوتا؟

فأجاب الملك: نعم.

- إنه يا مولاي صحافي يُدعى ريتو.

- نعم، أنت تعرف اسمه، ومع ذلك لم تمنعه من نشر مقاله، أو تُلقي القبض عليه بعد النشر!

- إن إلقاء القبض عليه يا مولاي، لم يكن أمراً عسيراً. بل بالعكس، كان من أسهل الأمور.

- إذن، لماذا لم تلق القبض عليه؟!

فالتفت السيد دي كروسن ناحية الكونت دي بروفانس، وكأن هناك سراً في الموضوع لا يجوز أن يطّلع عليه سوى الملك. فقال لحظتذاك الكونت دي بروفانس: «إني استأذن جلالتك».

فردّ عليه الملك بقوله:

- أبداً، أبداً، لقد قلت لك إبق هنا، وعليك أن تبقى.

فانحنى الكونت تعبيراً عن طاعته، وأكمل الملك قائلاً:

- تكلم يا سيد دي كروسن. تكلم بصراحة ومن دون أي تحفظ.

فقال ضابط البوليس:

- الواقع يا مولاي، أني لم ألقِ القبض عليه، لأني رأيت من الضرورة قبل الإقدام على هكذا عمل، أن أتشاور مع جلالتكم.

- هات لنرى.

- قد يكون من الأفضل يا مولاي، لو تعطي هذا الصحافي كيساً من النقود، وترسله الى مكان قصيّ، كي يكيل لنفسه فيما بعد عبارات القدح والذم.

- لماذا؟

- لأن هذا الشقي يا مولاي، هو من طينة الصحافيين الذين إذا ما طرحوا أكذوبة، يفرح الشعب ويهلل عندما يراهم يجلدون، وتُصلم آذانهم، وحتى يُشنقون. ولكن إذا ما الشعب لمس الحقيقة...

فصاح الملك:

- الحقيقة؟! نعم، إني أعرف بأن الملكة قد حضرت جلسة ميسمار المغناطيسية، وقد يكون وجودها في ذلك المكان أمراً مؤسفاً، ولكني أنا الذي سمحت لها.

فدمدم السيد دي كروسن مندهشاً :

- أوه ! مولاي ...

فانفعل الملك من هذه الدهشة الصادرة عن أحد رعاياه المخلصين ، وليس عن قريب له تتآكله الغيرة والحسد ، وقال :

- ولكنَّ الملكة ليست طائشة كما أقدر .

- لا يا مولاي ، ولكنها متهمة .

فقال الملك بعد لحظة من التفكير :

- ماذا يقول رجالك يا سيد دي كروسن؟ هات لنرى .

- مولاي ، مع الاحترام المتوجب عليَّ لجلالتكم ، ومع الاحترام العميق الذي أكنّه لجلالة الملكة ، هناك أمور كثيرة في التقرير مطابقة لما جاء في مقالة السيد ريتو !

- تقول مطابقة ؟!

- نعم يا مولاي . فقد جاء في التقرير : « إن ملكة فرنسا ، ذهبت في ثياب النساء العاديات والمأخوذات بغرائب ميسمار المغناطيسية ، وإنها كانت وحدها ...» .

فصاح الملك : وحدها !

- نعم يا مولاي ، وحدها .

- إنك مخدوع يا سيد دي كروسن .

- لا أعتقد يا مولاي .

- إن التقارير المقدمة اليك خاطئة .

- إنها من الدقة يا مولاي ، بحيث أني أستطيع إعطاءك التفاصيل عن زينة جلالتها ، عن خطواتها ، عن حركاتها ، عن صرخاتها ...

فصاح الملك وقد اصفرّ وارتعشت زخارف التقصيب في بزته .

- صرخاتها !..

فأضاف دي كروسن بخجل :

- وحتى تأوهاتها ، قد سجلها رجالي .

- تأوهاتها !.. لقد نسيت الملكة نفسها إلى هذه الدرجة !.. الملكة تصرفت بشكل حطٌّ من شرفي كملك ، ومن شرفها هي كامرأة !..

فتدخل الكونت دي بروفانس وقال :

- هذا مستحيل ! وإلا كان الأمر أكثر من فضيحة ، وحاشا لجلالتها أن تكون مثار فضائح .

وكانت هذه العبارة التي فاه بها الكونت دي بروفانس ، إحياءً لشكواه أكثر مما هي اعتذار . وقد شعر الملك بقصده ، فثار كل ما فيه وقال لضابط البوليس :

- هل تتمسك بكل ما قلته يا سيد دي كروسن ؟

- بكل كلمة يا مولاي .

فاستدار لويس السادس عشر نحو أخيه ، وقال له وهو يمسح بمنديله جبهته المبللة بالعرق :

- يتوجب عليَّ يا أخي أن أقدم اليك الدليل على صحة ما سبق وقلته . فإن شرف الملكة هو شرف عائلتي كلها ، وإني لن أجازف بهذا الشرف إطلاقاً . فأنا قد سمحت للملكة بالذهاب الى منزل ميسمار ، لكنني فرضت عليها أن تصطحب معها شخصية توحي بالثقة ، شخصية لا عيب فيها ، شخصية في مرتبة القداسة .

فقال دي كروسن :

- آه ! لو جرى الأمر هكذا ...

فقال الكونت دي بروفانس:

- نعم ، لو كانت امرأة كالسيدة دي لامبال مثلاً ...

فقال الملك :

- هي بالضبط يا أخي . فالأميرة دي لامبال هي التي عينتها لمرافقة الملكة .

فقال ضابط الشرطة .

- بكل أسف يا مولاي ، الأميرة دي لامبال لم تكن برفقتها .

فارتعش الملك وأجاب :

– إن كان الأمر كذلك ، وإن كانت أوامري لم تُنفَّذ ، فيتوجب عليَّ أن أعاقب بقسوة ، وسوف أعاقب ...

ثم تنهد تنهدةً صامتة ولكنها مؤلمة ، وتابع يقول بصوت منخفض :

– إلا أنه ما زال لدي بقية شك . وهذا الشك من الطبيعي أن لا تشاركاني به ، لأنكما لستما الملك ، ولا الزوج ، ولا الصديق لتلك المتهمة . أما أنا ، فإني الملك والزوج والصديق ، لذلك أريد أن أجلو هذا الشك .

ثم قرع الجرس فحضر ضابط الخدمة ، فقال له الملك :

– إبحثوا لي عن الأميرة دي لامبال ، إن كانت عند الملكة أو في جناحها الخاص .

فأجاب الضابط :

– إن الأميرة دي لامبال يا مولاي ، تتنزه في الحديقة الصغيرة مع الملكة وسيدة أخرى .

– قل للأميرة لتتفضَّل وتصعد الى هنا على جناح السرعة .

فانحنى الضابط وخرج .

وعلى غير عادته ، قطب لويس السادس عشر حاجبيه ، وألقى على الشاهدين على ألمه العميق نظرة فيها الكثير من

التهديد ... أما الشاهدان ، فقد لزما الصمت ، وكان صمت دي كروسن حزيناً فعلاً . أما صمت الكونت دي بروفانس ، فقد كان حزيناً في الظاهر ، أما في الواقع ، فإن قلب الكونت كان يرقص فرحاً ...

وبعد هذا الصمت ، سمع الملك حفيف الحرير وراء الأبواب ، فعلم بأن الأميرة دي لامبال مقبلة إليه .

الأميرة دي لامبال

★

دخلت الأميرة دي لامبال على الملك بجمالها الرائع ، وسكينتها المميزة ، وجبهتها المكشوفة ، وشعرها المرفوع والمتدلي بأنفة وكبرياء ، وعينيها الزرقاوين كزرقة السماء الصافية ، وأنفها المستقيم المتمرد ، وشفتيها المعبرتين عن العفة والشهوة في آنٍ معاً ، وقد شُكب كل هذا الجمال بقالب ممشوق رائع التقاسيم كأنه نُحت على يد أمهر النحاتين !

دخلت وقد فاح العطر الناعم المنعش منها ، كأنها كلها باقة من الخزام والبنفسج ...

وعندما رآها الملك تدخل باسمة متواضعة، شعر بالألم وفكر قائلاً في نفسه: «إن ما سيفوه به هذا الفم، سيكون حكماً مبرماً.» ثم قال للأميرة بعد أن حيَّاها بحرارة:

- تفضلي واجلسي أيتها الأميرة.

ثم تقدم الكونت دي بروفانس ليقبّل يدها، فاستجمع الملك أفكاره، وقالت الأميرة بصوتها الملائكي:

- ماذا تريد مني يا صاحب الجلالة؟

- بعض المعلومات يا سيدتي. معلومات مختصرة يا ابنة العم.

- إني صاغية يا مولاي.

- أي يوم ذهبت فيه برفقة الملكة الى باريس؟ تذكري جيداً.

فأخذ السيد دي كروسن والكونت دي بروفانس يتناظران مندهشين، وأجابت الأميرة:

- يوم الأربعاء يا مولاي.

فقال الملك:

- اعذريني يا ابنة العم، أريد معرفة الحقيقة.

فأجابته الأميرة ببساطة:

- يمكنك معرفة كل شيء يا مولاي بواسطة الأسئلة، فأنا مستعدة للإجابة.

- ماذا ذهبت تعملين في باريس يا ابنة العم؟

- ذهبت الى منزل الدكتور ميسمار في ساحة فاندوم يا مولاي.

فارتعش الشاهدان، واحمرَّ وجه الملك من التأثر، وسألها:

- وحدك؟

- لا يا مولاي، مع جلالة الملكة.

فصاح لويس السادس عشر وهو يمسك يدها بلهفة:

- مع الملكة؟ تقولين مع الملكة!

- نعم يا مولاي.

فاقترب السيدان دي كروسن ودي بروفانس مشدوهين، وأكملت الأميرة دي لامبال تقول:

- لقد كانت جلالتك قد سمحت للملكة ... هذا ما قالته لي الملكة على كل حال.

- وجلالتها على حق يا ابنة العم ... أما الآن ... فيبدو لي بأني أتنفس بارتياح، لأن السيدة دي لامبال لا تكذب إطلاقاً.

فقالت الأميرة بصوت خافت:

- إطلاقاً يا مولاي.

فصاح السيد دي كروسن بلهجة فيها من اليقين بقدر ما فيها من الشك:

- أوه! إطلاقاً! إذن أرجوك يا مولاي أن تسمح لي...

- أوه! نعم، إني أسمح لك يا سيد دي كروسن، فاطرح السؤال الذي تريده. إني أضع أميرتي العزيزة على كرسي الاتهام، إني أضعها تحت تصرفك.

فابتسمت السيدة دي لامبال وقالت:

- إني مستعدة. ولكن الارتباك قد زال يا مولاي.

فقال الملك وهو يبتسم:

- نعم، لقد أزلت الارتباك بالنسبة للآخرين، أما بالنسبة إليّ، فلم يزل:

فتدخل ضابط البوليس وسأل الأميرة:

- هل تتكرم سيدتي وتقول للملك ماذا عملت مع صاحبة الجلالة عند السيد ميسمار، وماذا كانت ترتدي جلالتها من ثياب.

فأجابت أميرة دي لامبال قائلة:

- لقد كانت جلالتها ترتدي فستاناً من «التافتا» رمادياً لؤلؤياً، وعباءة من «الموسلين» المطرز، وفروة من جلد الفاقُم، وقبعة من المخمل الوردي ذات أشرطة سوداء.

وكانت هذه الأوصاف مناقضة تماماً لأوصاف الآنسة أوليفا.

فاعترى السيد دي كروسن انذهال واضطراب شديدين، وأخذ الكونت دي بروفانس يعضّض شفتيه... أما الملك فقد فرك يديه وسأل الأميرة:

- وماذا عملت الملكة وهي تدخل المكان؟

- معك حق أن تسألني هذا السؤال يا مولاي، لأننا بالكاد استطعنا الدخول...

- هل دخلتما سوية؟

- نعم يا مولاي، سوية. وبشق النفس وصلنا الى الصالون الأول، من دون أن يتمكن أحد من معرفتنا، لأن الانظار كلها كانت متجهة نحو تلك الأسرار المغناطيسية. وهناك تقدمت من جلالتها امرأة وقدمت لها قناعاً، ورجتها أن لا تحاول التقدم أيضاً.

فقال الكونت دي بروفانس بحدة:

- وهل توقفتما؟

- نعم يا سيدي.

وسأل السيد دي كروسن:

- وما اجتزتما عتبة الصالون الأول؟

- لا يا سيدي.

وقال الملك مع بقية من القلق:

- ولم تتركي ذراع الملكة إطلاقاً؟

– حتى ولا ثانية واحدة. فذراع جلالتها كان طوال الوقت متكئاً على ذراعي.

عندئذ صاح الملك قائلاً:

– حسناً! ما رأيك يا سيد دي كروسن؟ وأنت ماذا تقول يا أخي العزيز؟

فقال الكونت دي بروفانس وهو يتظاهر بالسرور، مع أن الغيظ كان يتآكله:

– ذلك أمر عجيب! أمر فوق الطبيعي!

فأسرع السيد دي كروسن إلى الردّ عليه، وقد أنَّبه ضميره عندما رأى علامات الفرح مرتسمة على وجه الملك، فقال:

– ليس هناك ما هو عجيب وغير طبيعي يا حضرة الكونت، فإن سيدتي الأميرة لم تقل إلا الحقيقة.

فسأله الكونت:

– ما الذي حصل إذن؟

– الذي حصل يا سيدي هو أن رجالي قد انخدعوا.

فسأله الكونت هذه المرة وقد توترت أعصابه وبدت يداه مرتعشتين:

– هل أنت تتكلم بجدية؟

– بكل جدية يا سيدي. فإن رجالي قد انخدعوا، وصاحبة الجلالة تصرفت تماماً كما قالت السيدة دي لامبال،

ولا شيء سوى ذلك . أما الصحافي ، فلو كنت مطلعاً على الحقيقة كما روتها سعادة الأميرة ، لكنت تصرفت معه تصرفاً آخر . لذا سأصدر الأمر لإلقاء القبض عليه في الحال وإيداعه السجن .

فهزت الأميرة دي لامبال رأسها ببراءة متذمرة ، وقال الملك :

– لحظة ، لحظة ، فلدينا متسع من الوقت لشنق الصحافي . تكلمت أيتها الأميرة عن امرأة أوقفت الملكة في مدخل الصالون ، فأخبريني عن هذه المرأة ، من تكون ؟

– يبدو أن جلالتها تعرفها يا مولاي . فهذا ما ثبت لي ، أقوله لأني لا أعرف الكذب إطلاقاً .

فقال الملك :

– من الضرورة بمكان يا ابنة العم ، أن أتكلم مع هذه المرأة . فلديها كل الحقيقة ، وهي وحدها مفتاح السر .

فقال دي كروسن ، وكان الملك قد استدار نحوه :

– وهذا هو رأيي يا مولاي .

وسأل الكونت دي بروفانس الأميرة بصوت-مرتفع :

– هل اعترفت لك الملكة يا ابنة العم ، بأنها تعرف هذه المرأة ؟

– إن جلالتها لم تعترف لي يا سيدي ، بل قالت لي .

- نعم، نعم، قالت لك، عفواً.

فقاطعه الملك وقال للأميرة:

- إن أخي يريد أن يقول لك: طالما أن الملكة تعرف هذه المرأة، فلا بدَّ أن تكوني أنت تعرفين اسمها.

- إنها السيدة دي لاموت فالوا.

فصاح الملك بغيظ:

- هذه المتآمرة!..

وقال الكونت:

- هذه المتسولة! يا للشياطين! من الصعب طرح الأسئلة عليها، فهي داهية محتالة!

فقال السيد دي كروسن:

- وسنكون نحن دهاة مثلها. إلا أنه لم يعد هناك مجال للدهاء، فقد باتت الكلمة للملك...

فقال الملك وقد وهنت عزيمته:

- لا، لا، إني تعب من رؤية هذه الجماعة السيئة تحيق بالملكة. إن الملكة من الطيبة، بحيث أن ذريعة الشقاء تستدرج اليها كل من يمت بصلة غامضة وتافهة إلى نبالة المملكة.

فقالت الأميرة دي لامبال :

– ولكن السيدة دي لاموت هي فعلاً من عائلة فالوا .

– لتكن كما تشاء يا ابنة العم ، فإني لا أريد أن تطأ قدماها هذا القصر . إني أفضّل حرمان نفسي من ذلك الفرح العظيم الذي يوفره لي الغفران الكامل للملكة ، على أن أرى هذه المخلوقة أمام وجهي .

فصاح صوت من الباب يقول : « ومع ذلك فسوف تراها ! ..»

وكان هذا الصوت صوت الملكة ، وقد دخلت الغرفة صفراء الوجه من شدة الغضب ، فبدت رائعة النبل في عيني الكونت دي بروفانس ، الذي حيّاها بارتباك .

وأكملت الملكة تقول :

– نعم يا مولاي ، لا يجوز القول : أحب رؤية أو أخاف رؤية هذه المخلوقة . فهذه المخلوقة هي الشاهد الوحيد على براءتي أمام متهميَّ وقضاتي. إنني بصفتي المتهمة ، أطلب الاستماع الى هذه المرأة ، وسوف تستمعون اليها ...

فأسرع الملك الى القول :

– سيدتي ، لقد سمعت جيداً بأننا لن نستدعي السيدة دي لاموت كي يكون لها شرف الشهادة لصالحك أو ضدك . فأنا لا أقبل بأن أضع شرفك في الميزان مقابل حقيقة هذه المرأة .

فقالت الملكة :

- لن تضطر الى استدعاء السيدة دي لاموت يا مولاي ، لأنها موجودة هنا !

فصاح الملك وقد انفتل كأنه دعس على حية :

- هنا !.. هنا !..

- مولاي . كنت قد قمت ، كما تعلم ، بزيارة الى امرأة بائسة تحمل إسماً جليلاً . وخلال الزيارة ، كما لا يخفاك ، قد تحدثنا عن أمور كثيرة ...

قالت الملكة هذا وتطلعت الى الكونت دي بروفانس الذي كان يتمنى في تلك اللحظة لو تبتلعه الأرض ، فقال الملك :

- حسناً !

وتابعت الملكة تقول :

- في ذلك اليوم يا مولاي ، نسيت عند السيدة دي لاموت علبة تمثل صورة عزيزة على قلبي ، فجاءتني بها اليوم ، ولذلك هي هنا .

فقال الملك :

- لا ، لا ... فأنا قد اقتنعت ببراءتك ، ولا حاجة الى شهادتها .

- إن كنت أنت قد اقتنعت يا مولاي ، فأنا ما زلت غير راضية ، لذلك أريد إدخالها . ثمّ لماذا هذا النفور؟! وماذا

عملت ؟! إن كانت ذنوبها تستحق كل هذا الكره ، فأطلعني عليها لأني أجهلها . هيَّا يا سيدي كروسن ، أنت تعرف كل شيء ...

فأجاب قائد الشرطة :

– في الواقع ، إنها امرأة فقيرة ، وقد تكون على شيء من الطموح ، هذا كل شيء .

فقالت الملكة :

– إن الطموح هو نداء الدم . فإذا لم يكن لديك غير هذا المأخذ عليها ، أعتقد بأن الملك سوف يقبل شهادتها .

فأجاب الملك :

– لا أعلم ، لا أعلم ، فلديَّ إحساس داخلي بأن هذه المرأة ستكون شؤماً علي ... وعلى حياتي !

فقالت الملكة :

– أوه ! ما هذا التطير يا مولاي ! ثم قالت للأميرة دي لامبال : إذهبي وعجلي بجلبها .

وبعد خمس دقائق ، دخلت جانّ دي لاموت الى غرفة الملك خجولة محتشمة ، إلا أنها كانت تتميز بهيئتها ولباسها وزينتها . فأدار لويس السادس عشر ظهره الى الباب ، وأسند رأسه فوق مكتبه بكلتا يديه ، فبدا وكأنه غريب بين الحضور !

ورشق الكونت دي بروفانس جانّ بنظراته الفاحصة المزعجة ، فتبين له بأن هذه المرأة إن كانت صادقة في خجلها ، فسيتعطل النطق لديها ولن تخرج من فمها أية كلمة .

ولكن يجب أن يكون هناك شيء آخر قد عطّل صفو جانّ دي لاموت في تلك الساعة . فلا أي ملك ولا أي امبراطور بصولجانيهما ، ولا أي بابا بتاجه ، ولا أية قوى سماوية أو أرضية ، باستطاعتهم أن يؤثروا بالخوف أو بالإجلال ، على هذه المرأة القوية الشخصية .

وبعد أن قادتها الملكة الى وراء الملك ، قالت لها :

– أرجوك يا سيدتي ، أن تتفضلي وتقولي كل ما فعلته يوم زيارتي للسيد ميسمار . تفضلي وقوليه حرفاً حرفاً .

فصمتت جانّ ، وأكملت الملكة تقول :

– لا كتمان ولا تحفظ ولا مراعاة . لا شيء سوى الحقيقة الماثلة في مخيلتك من دون زيادة ولا نقصان .

ثم جلست الملكة جانباً كي لا يكون لنظراتها أي تأثير على الشاهدة .

فأي دور على جانّ أن تلعبه ، وقد أنبأها حدسها بأن العاهلة بحاجة إليها ، وأن ماري انطوانيت قد ظُن بها خطأً وأن بالإمكان تبرأتها من دون التخلي عن الحقيقة ؟

بعد هذا التساؤل الذي ارتسم سريعاً في مخيلة جانّ ،

طاب لها أن تبرئ ساحة الملكة بالمبالغة في البراهين. وكانت جانّ ذات ذهن ثاقب وحجة قوية، فقدحت زناد فكرها وقالت:

- كنت قد ذهبت يا مولاي الى منزل السيد ميسمار بدافع الفضول، كما ذهب مثلي بهذا الدافع معظم سكان باريس. ولقد بدا لي المشهد فظاً قليلاً، فانسحبت. وما أن وصلت الى عتبة الباب الخارجي، حتى تفاجأت بجلالتها، وكنت قد تشرفت برؤيتها قبل عشية ذلك اليوم من دون أن أعرفها، إذ سبق لجلالتها أن أظهرت لي بسخائها عن سموّ مقامها. فعندما وقع نظري على ملامحها الجليلة، تراءى لي بأن حضور جلالة الملكة قد يكون انتقل الى هذا المكان، حيث المتألمون والمبتلون قد انتشروا بكثرة وبشكل تمثيلي. إني بخضوع أطلب عفو جلالتها، لأني تجاسرت وأقدمت على الظن بتصرفها. لكن ذلك كان وميضاً مرَّ كالسهم، كان غريزة امرأة. وإني أطلب العفو جاثية، إذا كنت قد تجاوزت حدّ الاحترام المتوجب عليّ تجاه أقل حركة من حركات جلالتها.

وهنا توقفت جانّ وقد ظهر التأثر جلياً على وجهها. ثم أحنت رأسها ومثَّلت بمهارة فائقة لحظة الاختناق التي تسبق انسكاب الدموع...

فاتُّخذ السيد دي كروسن بهذا المشهد المؤثر. وشعرت الأميرة دي لامبال بانجذاب نحو هذه المرأة التي بدت في آن واحد: ناعمة، خجولة، مرهفة العقل، وطيبة!

أما الكونت دي بروفانس، فقد طاش رأسه!

أما الملكة، فقد شكرت جانّ بنظرة منها، وقالت:

– حسناً، هل استمعت يا مولاي؟

فقال الملك من دون أن يبدي حراكاً:

– لست بحاجة الى شهادة السيدة.

فقالت جانّ بخجل وصوت منخفض:

– لقد طُلب مني أن أتكلم، فتوجبت عليّ الإطاعة.

فقال لويس السادس عشر بانفعال.

– كفى! فعندما تقول الملكة شيئاً، ليست بحاجة الى شهود لإثبات قولها. وعندما تكون الملكة مشمولة برضاي واستحساني، فليست بحاجة الى رضى واستحسان أي شخص آخر.

وبعد أن تلفظ الملك بهذه الكلمات التي سحقت الكونت دي بروفانس، نهض وأدار ظهره الى أخيه، وتقدم من ماري انطوانيت التي كانت تبتسم ابتسام احتقار وقبّل يدها، كما قبّل يد الأميرة دي لامبال واعتذر منها لأنه «أزعجها من أجل لا شيء!»

أما بالنسبة للسيدة دي لاموت، فلم يوجه الملك إليها أية كلمة، وحتى لم يلق عليها أية نظرة! ولكن بما أنه كان مضطراً للمرور من أمامها كي يعود الى مقعده، وقد خشي من إهانة الملكة إن هو لم يتصرف في حضورها بأدب تجاه امرأة قد استقبلتها، لذا اضطر أن يحييها تحية عابرة ردت عليها بانحناءة فيها كل الخضوع والاحترام.

ثم خرجت أولاً من غرفة الملك الأميرة دي لامبال، تبعتها السيدة دي لاموت التي دفعتها الملكة أمامها. وأخيراً خرجت الملكة بعد ان تبادلت مع الملك آخر نظرة ولهى.

وسُمعت في الرواق أصوات النساء الثلاث يتهامسن مبتعدات...

وعندئذ قال لويس السادس عشر الى الكونت دي بروفانس:

- لن أستبقيك كثيراً يا أخي، فعليَّ أن أنهي أشغال الأسبوع مع قائد الشرطة. إني أشكرك على ما أظهرته من غيرة وإنصاف نحو شقيقتك، ومما لا شك فيه أن براءتها مما علق في بعض الأذهان قد ملأت قلبك سروراً كما ملأت قلبي...

ثم التفت إلى السيد دي كروسن، وقال له:

- لقد جاء دورنا نحن الإثنين، فتفضل واجلس، أرجوك.

فحيًّا الكونت دي بروفانس، والبسمة دائماً على شفتيه، وخرج من غرفة الملك يجرُّ أذيال الخيبة وراءه ...

في غرفة الملكة

★

خرجت الملكة من غرفة لويس السادس عشر وقد عرفت أهمية الخطر الذي تعرَّضت له، وقدرت لجانّ لباقتها وحسن تصرفها وما تميزت به من ذوق خلال إدائها شهادتها المرتجلة.

أما جانّ دي لاموت فقد غمرتها سعادة غير منتظرة لاطّلاعها لأول وهلة على مثل هذه الأسرار الحميمة التي لا يتوفر الاطلاع عليها لرجال البلاط الماهرين بعد عشر سنوات من تقربهم من العاهلين، فخرجت من غرفة الملك وهي متأكدة من أنها كانت شيئاً مهماً في ذلك النهار بالنسبة للملكة.

والملكة بدورها قدرت أهمية الدور الذي لعبته جانّ، لذلك عندما حاولت هذه الأخيرة أن تقدم احتراماتها مستأذنة بالانصراف، رفضت الملكة استئذانها واستبقتها لديها مبتسمة وقالت لها بلطف:

– لقد أحسنت أيتها الكونتس بمنعي من الدخول على السيد ميسمار برفقة الأميرة دي لامبال. فتأملي بأنهم قد شاهدوني إما على الباب أو في قاعة الانتظار، فاتخذوا من هذه «الجريمة» ذريعة للقول بأني كنت في ما يسمونه صالة البحران. أليس كذلك؟

– نعم يا سيدتي، في صالة البحران.

فقالت الأميرة دي لامبال.

– ولكن كيف نفسّر معرفة الحضور بوجود الملكة وخداع عملاء السيد دي كروسن؟ هنا السر الغامض برأيي. فرجال الشرطة يؤكدون بأن الملكة كانت فعلاً في حالة البحران.

فقالت الملكة مفكرة:

– هذا صحيح. والعجيب أنه ليس للسيد دي كروسن أية فائدة في ذلك، فهو رجل شريف ويحبني. ولكن ربما كان عملاؤه قد ارتشوا أيتها العزيزة دي لامبال. فأنا كما لا يخفاك، لي أعداء، ومما لا شك فيه أن هذه الضجة التي أثيرت تستهدف النيل مني. وبما أن تلك النشرة السافلة أظهرتني ثملة، مخلوبة اللب، مجردة بواسطة التنويم المغناطيسي من كل كرامة وشرف المرأة، فأرجو الكونتس ان تطلعنا على الحقيقة. هل حدث شيء من ذلك؟ وهل، في الواقع، كان هنالك امرأة في ذلك اليوم؟...

فاحمرّت جانّ وأجابت :

- في الواقع ، كان هناك امرأة يا سيدتي ، امرأة مضطربة جداً ، أساءت كثيراً الى سمعتها بتشنجاتها العضلية ، والتواءاتها ، وتقلص وجهها وهذيانها . ولكن يبدو لي ...

فقالت الملكة بحدة :

- يبدو لك بأن هذه المرأة كانت إحدى الممثلات ، أو ما يسمونه بالفتاة اللعوب ، وليس ملكة فرنسا ، أليس كذلك ؟

- هوذا بالتأكيد يا سيدتي .

- حسناً أيتها الكونتس . فقد أحسنت التصرف بأجوبتك إلى الملك . والآن قد جاء دوري للتحدث بشأنك . فأين أنت من مشاكلك ؟ وفي أي وقت اعتمدت المطالبة بحقوقك ؟ ولكن ، أليس هناك أحد أيتها الكونتس ...

وهنا دخلت الوصيفة السيدة دي ميزيراي ، وقالت للملكة :

- هل تودّ جلالتك أن تستقبل الآنسة دي تافرني ؟

- بكل تأكيد . يا لها من امرأة متمسكة بالرسميات وقواعد السلوك . ادخلي يا أندريه ! ادخلي !

فدخلت الآنسة دي تافرني وحيَّت ثم قالت : إن جلالتك تشملني بعطفها الدائم .

ثم لمحت جانّ ، التي عرفت هي الأخرى في أندريه دي تافرني ، المحسنة الألمانية الثانية ، مما اضطرها الى مضاعفة التكلف بالخجل والاحمرار .

وقد اغتنمت الأميرة دي لامبال الفرصة لتنسحب بخفة الى حيث الدوق دي بانتيافر .

وبعد أن اتخذت أندريه مكاناً لها الى جانب ماري انطوانيت ، واستمرت شاخصة بعينيها الهادئتين المستقصيتين بالسيدة دي لاموت ، قالت الملكة :

- إنها يا أندريه ، السيدة التي ذهبنا لرؤيتها في آخر يوم من أيام الصقيع .

فأجابت اندريه مع انحناءة خفيفة :

- لقد عرفتها يا سيدتي .

وأسرعت جانّ المتعجرفة تبحث في قسمات أندريه عن دلائل الغيرة ، فلم تجد سوى لامبالاة تامة . فأندريه التي كانت المرأة المتفوقة على كل النساء في طيبتها ، وروحها ، ومروءتها ، كانت تشعر بالسعادة في الصمت والكتمان العصيّ على الفهم ، بمعنى أن البلاط كله كان يرى في تأدبها وحشمتها الأنوف ديانا فيرجينال .

وبهذه النظرة إليها ، سألتها الملكة :

- هل تعلمين ما الذي قالوه عني للملك ؟

فأجابت أندريه :

– حتماً ، يجب أن يكونوا قد قالوا كل ما هو سيء ، لأنهم لم يتعودوا أن يقولوا العكس الذي هو فيك .

فقالت جانّ ببساطة :

– يا لها من عبارة جميلة سمعتها ! أقول جميلة ، لأنها عبرت تعبيراً صادقاً عما في قلبي ولم أحسن التعبير عنه .

وقالت الملكة :

– سوف أقصُّ عليك ما قالوه يا أندريه .

فأجابت أندريه :

– أوه ! إني أعرف ذلك . فحضرة الكونت دي بروفانس قد رواه منذ ساعة ، وما رواه سمعته صديقة لي .

فقالت الملكة بغضب :

– إنها وسيلة مبتكرة أن ينشر الإنسان الأكذوبة بعد أن يكون قد حيّا الفضيلة !! ولكن دعينا من ذلك يا أندريه ، ولنستعرض مع الكونتس وضعها . من يذود عنك أيتها الكونتس ؟

فقالت جانّ بجرأة :

– أنت يا سيدتي . أنت التي تسمحين لي بالمجيء لتقبيل يدك .

فقالت ماري انطوانيت الى أندريه : إنها تروق لي ، فهي طيبة القلب مندفعة .

فلم تجاوب أندريه ، وأكملت جانّ تقول :

- قليلون هم الأشخاص يا سيدتي ، الذين تجرأوا وذادوا عنى عندما كنت في شدة وضيق . أما الآن ، وبعد أن شاهدوني أدخل قصر فرساي لأول مرة ، وبعد أن أصبحت مشمولة بعطف الملكة ، وبعد أن تنازلت جلالتك وشرفتني بلفتتها الكريمة ، فالكل سيتنافسون على إنصافي .

فقالت الملكة وهي تجلس :

- غريب ! ألم يتحلَّ أحد بالشجاعة الكافية ليفكر بإنصافك ؟

- أبداً يا سيدتي ، أبداً ، فمنذ زواجي لم أصادف هذا الشخص . ولكن كي أكون منصفة ، هناك رجل ظريف ، أمير شهم ...

- أمير أيتها الكونتس ! من يكون ؟

- حضرة الكردينال دي روهان .

فبدرت من الملكة حركة نزقة باتجاه جانّ ، وقالت :

- عدوي !...

فصاحت جانّ :

- عدوّ جلالتك ، هو ! الكردينال ! أوه سيدتي !

– إنك لم تعيشي في البلاط أيتها الكونتس، وإلا لما اندهشت بأن يكون للملكة عدو.

– ولكن الكردينال يعبدك يا سيدتي، هذا إذا لم أكن مخدوعة. فاحترامه لزوجة الملك الجليلة المقام، لا يضاهيه إلا وفاؤه لصاحب الجلالة.

فأجابت ماري انطوانيت وقد استسلمت لبشاشتها المعتادة:

– أوه! إني أصدقك أيتها الكونتس... فعلاً، إن الكردينال يعبدني!...

ثم استدارت نحو أندريه دي تافرني، وأطلقت ضحكة رنانة. وبعد أن رأت الدهشة قد عقلت لسان جانّ دي لاموت، تابعت تقول:

– هات أيتها الكونتس، طالما أنك محمية من قبل رئيس الأساقفة، الأمير لويس دي روهان، هات حدثينا كيف اتفق لك ذلك.

– الأمر في غاية البساطة يا سيدتي. فسعادته، بالأساليب المتسمة بالشهامة والنبل والذوق الرهيف واللياقة والسخاء، قد أعانني وأنجدني.

فقالت الملكة:

– أن يكون الأمير لويس رجلاً سخياً، فهو واقع لا

نستطيع نكرانه، ولكن هل تعتقدين يا أندريه، أن حضرة الكردينال قد استطاع أن يشعر ببعض العبادة تجاه الكونتس؟ ثم ما هو رأيك أنت أيتها الكونتس؟

طرحت ماري انطوانيت هذا السؤال وأخذت تضحك وكأنها في أسعد ساعاتها، بينما بقيت الآنسة دي تافرني محتفظة برزانتها. أما جانّ، فقد فكرت في نفسها قائلة: «من المستحيل أن تكون كل هذه البهجة الصاخبة طبيعية وغير مصطنعة.» ثم قالت للملكة بمظهر وقور ولهجة واثقة:

- لي الشرف يا سيدتي، بأن أثبت لجلالتك بأن الأمير دي روهان...

فقاطعتها الملكة قائلة:

- حسناً، حسناً، أيتها الكونتس. طالما أنك متحمسة له الى هذا الحد... وطالما أنك صديقته...

فصاحت جانّ بكثير من الحشمة والاحترام:

- أوه! سيدتي، أوه! سيدتي.

فأجابتها الملكة وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة ناعمة:

- لا بأس، لا بأس يا عزيزتي، ولكن اسألي حضرة الكردينال ماذا صنع بشعري الذي سرقه بواسطة أحد المزينين، وقد كلفته هذه الدعابة غالياً، لأني طردته.

فقالت جانّ :

- أنت تفاجئينني يا صاحبة الجلالة ... ماذا ! الأمير دي روهان عمل ذلك ؟

- نعم ... وهي العبادة ، دائماً العبادة . فبعد أن استعمل في فيينًا كل الوسائل وحاول بكل الطرق أن يفسخ الزواج الذي كان مقرراً بين الملك وبيني ، جاء يوم وجد نفسه فيه أمام امرأة قد أصبحت ملكته . ورغم أنه دبلوماسي كبير ، فقد ارتكب خطأ لا يمَّحي في خصامه معي . إذ خشي هذا الأمير العزيز عل مستقبله ، فتصرف كما يتصرف كل رجال السياسة ، وذلك بالتودد الى الذين يخشونهم أكثر من غيرهم . وبما أني كنت صغيرة السن ، اعتقد بأني حمقاء ومغترتة ، فمثَّل معي دور العاشق العذري ... فبعد التنهدات والتأوهات ، وبعد مظاهر الكآبة الحالمة ، ارتمى على قدميّ عابداً ، كما قلت . إنه يعبدني ، أليس كذلك يا أندريه ؟

فانحنت أندريه وقالت : سيدتي !

وأكملت الملكة تقول :

- نعم ... أندريه أيضاً لا تريد أن تعرِّض نفسها . أما أنا ، فأريد أن أجازف . أريد على الأقل أن يكون في المملكة شيء صالح . أنا أعرف أيتها الكونتس كما تعرفين أنت ، بأن

الكردينال يعبدني ؟ هذا أمر متفق عليه . ولكن قولي له بأني لا أريد عبادته .

فأصابت هذه الكلمات المعبرة عن سخرية مريرة ، أعماق قلب جانّ دي لاموت الفاسد .

ولو كانت هذه المرأة نبيلة حقاً ، ومن دم ملكي نقي ، لما رأت سوى هذا الاحتقار المجرد من امرأة سامية المقام ، ذات روح عالية وخُلُق قويم . امرأة تترفع عن الصغائر وتأبى حتى الدفاع عن سمعتها التي كثيراً ما تناولتها بالتجريح ألسن أصحاب النوايا السيئة .

إلا أن جانّ ، ذات السليقة السوقية الفاسدة ، فسّرت غيظ الملكة على تصرف الكردينال دي روهان تفسيراً آخر ، إذ تذكرت الإشاعات المشينة التي انطلقت من قاعة الانتظار في القصر الملكي ، وربطت بينها وبين غضب الملكة .

فالكردينال دي روهان الذي يحب النساء من أجل جنسهن ، كان قد قال للملك لويس الخامس عشر الذي كان زميلاً له في هذا المضمار ، إن زوجة وليّ العهد امرأة غير كاملة ... والكل يعرفون العبارات الشاذة التي فاه بها لويس الخامس عشر أثناء حفلة زواج حفيده ، والأسئلة التي طرحها على بعض السفراء السذّج .

وجانّ دي لاموت ، تلك المرأة الكاملة الأنوثة ، والمتميزة بأمور كثيرة تثير اشتهاءات الرجال ، جانّ التي كل همها أن تسحر الرجال وتنال إعجابهم ، لا تستطيع الاعتقاد بأن هناك امرأة لا تفكر تفكيرها في هذه الأمور . لذا قالت في نفسها : « بما أن الملكة مغتاظة ، فيجب أن يكون وراء هذا الغيظ شيء آخر ...» .

واعتقاداً منها بأن الاحتكاك يولّد النور ، أخذت تدافع عن الكردينال بكل ما أُوتيت من قوة ، يدفعها الفضول الأنثوي لمعرفة هذا الشيء الآخر وراء غيظ الملكة . ولما رأت الملكة صاغية الى دفاعها ، اطمأنت الى هذا الإصغاء واستبشرت خيراً ...

إلا أن الكونتس المخدوعة بفضل طبيعتها السيئة ، لم تلاحظ قط بأن إصغاء الملكة إليها لم يكن إلا تلطفاً وتأدباً منها ، فاسترسلت في الدفاع وفي التحدث بإسهاب عن صفات الكردينال وشيمه . وبينما هي كذلك والملكة صاغية بهذه الروح الطيبة ، دوّى في الغرفة المجاورة صوت فتيّ صاخب ودَعِب ، فقالت الملكة :

- إنه الكونت دارتوا !

فنهضت أندريه على الفور ، واستعدت جانّ للخروج . لكن الأمير دخل غرفة الملكة بأسرع مما هو منتظر ، فبات

الخروج متعذراً تقريباً . ومع ذلك ، فقد قامت الكونتس بحركة مسرحية ... إلا أن الأمير وقف مشدوهاً بهذه المرأة الجميلة وحيّاها ، فقدمت الملكة عند ذاك الكونتس الى الأمير بقولها :

- الكونتس دي لاموت !

فقال الكونت دارتوا :

- آه ! آه ! أرجو أن لا يكون حضوري سبباً لخروجك أيتها الكونتس .

وأشارت الملكة إشارة الى أندريه ، فأمسكت هذه بجانّ واستبقتها . وكان قصد الملكة من هذه الإشارة أن تقول : أريد أن أهب السيدة دي لاموت هبة ، وقد داهمني الوقت ، فلنؤجل ذلك إلى ما بعد .

ثم أعطت الملكة يدها الى شقيق زوجها على الطريقة الإنكليزية ، وقالت له :

- إذن ، لقد عدت من صيد الذئاب يا أخي .

فأجاب الكونت دارتوا :

- نعم يا شقيقتي ، وقد كان صيداً موفقاً ، إذ إني قتلت ستة ذئاب .

- أنت بنفسك قتلتها ؟

فقال وهو يضحك :

– ليس أكيداً ، ولكن هذا ما قالوه لي ... ثم هل علمت يا شقيقتي بأني ربحت ستماية ليرة ؟

– عجباً ! كيف ذلك ؟

– ذلك أن المبلغ المعين ثمناً لكل رأس من هذه الحيوانات المرعبة هو مئة ليرة . إنه مبلغ كبير ، ولكني مستعد بكل طيبة خاطر أن أدفع مئتي ليرة ثمناً لرأس صحافي ... ألا توافقينني يا شقيقتي ؟

فقالت الملكة :

– آه ! هل عرفت القصة ؟

– لقد رواها لي دي بروفانس .

فقالت ماري انطوانيت :

– يا له من راوية لبق ! هات إذن حدثنا ، كيف رواها لك ؟

– بشكل أظهرك أكثر بياضاً من فرو الفاقُم ، بل من فينوس، إلهة الحب والجمال . وهناك اسم آخر ينتهي بـ« ـلانة » ، باستطاعة العلماء معرفته ، أو أخي دي بروفانس مثلاً ...

– وماذا عن الصحافي ؟

– صحيح يا شقيقتي ، الصحافي ! ولكن جلالتك خرجت من هذه المغامرة محتفظة بشرفها ، ويمكننا القول

أيضاً، بأن البراءة شملت الجلسة المغناطيسية التي جرت في منزل ميسمار.

- آه! يا له من تلاعب مريع في الكلمات!

- لا تعاملي بالقسوة يا شقيقتي، مغامراً وضع سيفه وذراعه تحت تصرفك. من حسن الحظ أنك لست بحاجة الى أي شخص. آه! إنك فعلاً لسعيدة في ذلك أيتها الشقيقة العزيزة.

فقالت الملكة مندهشة:

- أنت تسمي ذلك سعادة! أسمعت يا أندريه؟

فأخذت جانّ تضحك والكونت ينظر اليها مشجعاً، ثم كرّر قوله:

- نعم، هي سعادة. وبالنتيجة ستشتد هذه السعادة وتقوى، لأنه أولاً: السيدة دي لامبال لم تكن معك...

- لم تكن معي! إذن كنت وحدي؟

- ثانياً: إن السيدة دي لاموت، لم يصادف وجودها هناك لتمنعك من الدخول.

- آه! أنت تعرف بأن السيدة دي لاموت كانت هناك؟

- أوه! إن الكونت دي بروفانس عندما يروي قصة يا شقيقتي، فهو يرويها كاملة غير منقوصة. ومن المحتمل أيضاً بأن السيدة دي لاموت لم يصادف وجودها في فرساي

بالضبط كي تؤدي شهادة . مما لا شك فيه ، أنك ستقولين لي بأن الفضيلة والبراءة هما كالبنفسج الذي ليس بحاجة لأن يشاهد كي تعرف حقيقته . ولكن البنفسج يا شقيقتي ، يجمعونه ضمات عندما يرونه ، ويرمونه بعد أن يتنشقوه . هذا مبدئي !..

- أنه مبدأ جميل !

- إني أحكم على الأمور كما أراها ، وقد ثبت لي بأنك حظيت بسعادة .

- إن إثباتك خاطئ .

- أتريدين إثباتاً أفضل ؟

- هات ، ربما كان مجدياً .

فقال الكونت وهو يستدير كي يلقي بنفسه على « صوفا » بالقرب من الملكة :

- حسناً ! لن تكوني عادلة إن أنت اشتكيت من الثروة . لأنك قد تخلصت أخيراً من العمل الطائش الشهير في « الكبريوليه [1] ...»

فقالت الملكة وهي تعدّ على أصابعها : هذه واحدة .

- وتخلصت من جلسة ميسمار .

---

١ - عربة ذات عجلتين.

– لتكن، سأعدها: إثنان. وماذا بعد؟

فقدَّم الكونت فمه من أذنها وهمس يقول:

– وتخلصت من مشكلة الحفلة الراقصة.

فصاحت الملكة: أية حفلة راقصة؟

– حفلة الأوبرا يا شقيقتي.

وأخذ الكونت دارتوا يضحك، ثم تابع يقول:

– إنها لحماقة مني أن أكلمك على سرّ.

– سرّ! في الحقيقة إنك تحيرني يا أخي. حفلة راقصة في الأوبرا، وتعتبرها سراً!

فطرقت هذه الكلمات: «حفلة راقصة في الأبرا»، أذن جانّ، فضاعفت إصغاءها. وقال الأمير:

– أليس الصمت أجدى أيتها الشقيقة؟

– أبداً، أبداً، أريد معرفة كل شيء. فأنت قد تكلمت على حفلة رقص في الأوبرا، فما هي قصة هذه الحفلة؟

– أرجوك أن تعفيني يا شقيقتي.

– إني ألحُّ على معرفة ذلك أيها الكونت.

– وأنا ألحُّ على الصمت.

– هل تريد أن تحزنني؟

– أبدأ، لكني أعتقد أن ما قلته كفاية لأن تفهمي المقصود.

- لم تقل شيئاً حتى الآن .

- أوه ! إنك أنت التي تحيرينني أيتها الشقيقة . فهل أنت جادَّة فيما تطلبين ؟

- إني لا أمزح ، وهذا كلام شرف .

- إذن ، تريدينني أن أتكلم ؟

- وبسرعة .

فقال بعد أن نظر الى جانّ وأندريه :

- دعي ذلك الى مكان آخر .

- هنا ! هنا ! حتى ولو كان العالم كله حاضراً .

- إني أحذرك يا شقيقتي .

- وأنا أريد المجازفة .

- حسناً ، ألم تكوني في حفلة الرقص الأخيرة في الأوبرا ؟

فصاحت الملكة :

- أنا !.. أنا في حفلة الأوبرا ؟!

- أرجوك أن تخفضي صوتك .

- أوه ! لقد تكلمت عالياً يا أخي ، لأن ذلك ... أتقول أنا ، كنت في حفلة الأوبرا الراقصة ؟

- نعم وبالتأكيد كنت .

فقالت الملكة بتهكم مرير :

– وقد تكون رأيتني أنت ؟

– نعم رأيتك .

– أنا ! أنا !

– أنت ! أنت !

– هذا كثير .

– وهذا ما قلته لنفسي .

– لماذا لا تقول بأنك كلمتني أيضاً ، فذلك أكثر طرافة ؟..

– في الواقع ، كنت على استعداد لأن أكلمك ، ولكنَّ موجة من المقنعين قد حالت بيني وبينك .

– أنت مجنون !

– كنت واثقاً بأنك ستقولين لي هذا القول . لذا كان عليَّ أن لا أعرِّض نفسي ، إنها غلطتي .

فنهضت الملكة فجأة ، وخطت عدة خطوات في الغرفة وهي مهتاجة ...

وكان الكونت دارتوا ينظر إليها منذهلاً ، وأندريه ترتعش من الخوف والقلق . أما جانّ ، فقد غرست أظفارها في لحم يديها كي تحتفظ برباطة جأشها .

ثم توقفت الملكة وقالت للأمير الشاب :

– قل لي بجدية يا صديقي ، لأن طبعي لا يحتمل المزاح

كما رأيت . اعترف لي فوراً بأنك أردت أن تتلهّى على حسابي ، وسأكون جدّ سعيدة .

- إني أعترف لك بذلك ... إذا كنت تريدين يا شقيقتي .

- كن رزيناً يا شارل ، وقل لي : ألم تختلق هذه القصة ؟

فنظر الكونت دارتوا الى السيدتين ، وغمز بإحدى عينيه ، وقال :

- نعم ، لقد اختلقتها . فتكرمي وسامحيني .

فقالت الملكة بحدة :

- لم تفهمني يا أخي . فما أريده منك ، هو أن تقول نعم أو لا أمام هاتين السيدتين . هل ستتراجع عمّا قلت ؟ لا تكذب ، ولا تجاملني .

فاحتجبت أندريه وجانّ وراء ستارة « الغوبيلان » ، وقال الأمير بصوت منخفض :

- حسناً يا شقيقتي ، أتريدين الحقيقة التي لا غبار عليها ؟

- هذا ما أريده تماماً . فهل شاهدتني أنت في حفلة الأوبرا الراقصة ؟

- كما أراك الآن وترينني أنت !

فأطلقت الملكة صيحة جعلت أندريه وجانّ تسرعان إليها من الجهة الثانية للستارة ، وتحاولان تلطيف الجو المتكهرب

بينها وبين شقيق زوجها . فقالت لهما الملكة بلهجة المتهمة البريئة :

– أرأيتما ! إن الكونت دارتوا يؤكد بأنه شاهدني في الأوبرا ! أثبت !.. أثبت أيها الكونت .

فدمدمت أندريه : أوه !

وقال الأمير :

– إليك الإثبات : لقد كنتُ برفقة الماريشال دي ريشيليو ، والسيد دي كالون ، وآخرين غيرهما ، عندما سقط القناع عن وجهك ...

– القناع عن وجهي !!

– نعم ، ولقد خفت من هول المجازفة ، فتواريت مجرورة بالراقص الذي كان يتأبط ذراعك .

– الراقص !.. يا إلهي ! ستجعلني أجن .

فقال الأمير :

– ولقد كان مرتدياً « دومينو » أزرق ...

ففركت الملكة جبهتها بأصابع يدها ، وسألت :

– أي يوم كان ذلك اليوم ؟

– يوم سبت ، عشية ذهابي الى الصيد . ولقد كنت ما زلت نائمة في صباح ذلك اليوم الذي بدأت فيه رحلة الصيد ، فلم أتمكن أن أقول لك ما قلته الآن .

- يا إلهي ! يا إلهي ! في أية ساعة شاهدتني ؟

- بين الثانية والثالثة بعد منتصف الليل .

- حتماً ، يجب أن يكون أحدنا مجنوناً ... إما أنا ، وإما أنت .

- حاشاك ، قد أكون أنا المجنون ... وقد أكون انخدعت ... فضلاً عن ذلك ...

- ماذا ؟

- كنت أودّ الاعتقاد بأنك كنت برفقة الملك . لكن رفيقك كان يتكلم الألمانية ، والملك لا يحسن اللغة الألمانية !

فصاحت الملكة :

- ألماني !.. ألماني !.. أوه ! لديَّ برهان يدحض هذه التهمة يا أخي ، فيوم السبت ، أويت إلى فراشي في الساعة الحادية عشرة .

فقال الكونت وهو يبتسم :

- رويدك يا شقيقتي ، ولا تدعي الغضب يسيطر عليك . فأنا أودّ تصديقك ، ولكن هناك آخرون قد شاهدوك .

- آخرون ؟! آخرون ؟!

- نعم ، وقد شاهدوك كما شاهدتك أنا .

- إن كنت صادقاً فيما تقول ، فسمِّ لي هؤلاء الآخرين .

- حالاً وسريعاً ... فيليب دي تافرني ، كان هناك .

فصاحت اندريه : أخي !

فأجابها الأمير :

- نعم أيتها الآنسة . هل تودين أن نسأله يا شقيقتي ؟

- أريد ؟.. إني ألحّ .

ثمّ دمدمت أندريه : يا إلهي !

فالتفتت اليها الملكة وقالت : ماذا ؟

- أخي يستدعى للشهادة !..

- نعم ، نعم . أريد أن أستمع إليه .

وأصدرت الملكة أوامرها ، فأسرع الخدم يفتشون عن فيليب دي تافرني ، حتى عند والده . ولكن فيليب كان قد ترك والده بعد تلك المشاحنة التي جئنا على ذكرها ، فالتقوه في الطريق وبلَّغوه رغبة الملكة .

فسار فيليب الذي انتصر في المبارزة على شارني ، والمستدعى لتأدية خدمة للملكة ، سار باتجاه قصر فرساي ، فرحاً فخوراً .

فما أن وقع بصر الملكة عليه ، حتى هبَّت لملاقاته ، ووقفت أمامه قائلة :

- هل أنت جدير بقول الحقيقة يا سيد تافرني ؟

فأجاب فيليب :

- نعم يا مولاتي ، وإني غير جدير بأن أكذب .

- إذن ، تكلم ... تكلم بجرأة عمّا إذا ... عمّا إذا كنت قد شاهدتني في مكان عام منذ ثمانية أيام .

فأجاب فيليب بسلامة طوية :

- نعم يا سيدتي !..

فأخذت قلوب الحاضرين تخفق خفقاناً شديداً ... وقالت الملكة بصوت مضطرب :

- أين شاهدتني ؟

فصمت فيليب ولم يحر جواباً ... وتابعت الملكة تقول :

- أوه ! لا تجامل أبداً يا سيدي . فأخي الذي تراه هنا ، قال بأنه شاهدني في حفلة رقصٍ في الأوبرا . وأنت ، أين شاهدتني ؟

- حيث شاهدك مولاي الكونت دارتوا ، في حفلة الأوبرا يا سيدتي . فسقطت الملكة مصعوقة على « الصوفا ...» ، ثم نهضت بسرعة الفهد الجريح ، وقالت :

- هذا مستحيل ! لأني لم أكن في الأوبرا . خذ حذرك يا سيد دي تافرني ، فأنت تهين شرف ملكة فرنسا !

فقالت أندريه وقد اصفرت من شدة الغيظ :

- إنك تظلمين أخي يا صاحبة الجلالة . فهو إن قال بأنه شاهدك ، فهذا يعني أنه شاهدك .

فصاحت ماري أنطوانيت :

– أنت أيضاً ! أنت أيضاً ! لم يعد ينقص إلا شيء واحد ، هو أن تقولي أنت أيضاً بأنك قد شاهدتني . يا لحظي التعس ! إن كان لي أصدقاء يدافعون عني ، فإن لي أعداء يودون قتلي : شاهد واحد لم يؤدِّ شهادة حق أيها السادة !

فقال الكونت دارتوا :

– أنت تذكّرينني باللحظة التي رأيتك فيها وقد تأكد لي بأن « الدوّمينو » الأزرق لم يكن الملك . فقد اعتقدته ابن شقيقة السيد دي سيفران . بأيّ اسم كنت تنادينه ذلك الضابط الشجاع الذي قام بذلك العمل المجيد عندما رفع راية فرنسا فوق « السافار » ؟ لقد استقبلته خير استقبال في ذلك اليوم الذي اعتقدت فيه أنه فارس الشرف الذي خصصته بنفسك .

فاحمرت الملكة ... وعلا وجه أندريه اصفرار شبيه باصفرار الموت ، وأخذت الاثنتان تتناظران وترتعشان من منظريهما .

أما فيليب فقد غدا أدكن اللون ، وهمهم قائلاً :

– إنه السيد دي شارني .

فأكمل الكونت دارتوا قائلاً :

– دي شارني ! إنه هو . ألا توافقني يا سيد فيليب بأن

شكل ذلك «الدومينو» الأزرق يشبه بعض الشبه شكل السيد دي شارني؟

فقال فيليب وقد كاد يختنق:

- لم ألاحظ يا مولاي.

فتابع الكونت دارتوا يقول:

- ولكن تبيَّن لي فوراً بأنه ليس السيد دي شارني، لأن دي شارني مَثَل فجأة امام ناظريَّ، إذ كان هناك بالقرب من السيد دي ريشيليو. تجاهك تماماً يا شقيقتي عندما سقط القناع عن وجهك...

فصاحت الملكة وقد تخلَّت عن كل احتراس وتعقّل.

- وشاهدني؟

فقال الأمير:

- على الأقل، لم يكن ضريراً...

فبدرت من الملكة حركة يأس، ثم عادت تقرع الجرس من جديد، فقال لها الأمير:

- ماذا تفعلين؟

فأجابته:

- أريد أن استجوب السيد دي شارني أيضاً، أريد أن أشرب الكأس حتى الثمالة.

فدمدم فيليب قائلاً :

– لا أعتقد أن السيد دي شارني موجود في فرساي .

فقالت الملكة : لماذا ؟

– أعتقد ، وهذا ما قالوه لي ، بأنه كان ... منحرف الصحة .

– آه ! إن الأمر يستوجب حضوره يا سيدي ، فأنا أيضاً منحرفة الصحة ، ومع ذلك ، فأنا مستعدة للذهاب الى أقاصي الدنيا حافية القدمين ، كي أثبت ...

فتقدم فيليب الممزق القلب من شقيقته أندريه التي كانت تنظر من النافذة المفضية الى الحدائق . وبدورها الملكة اقتربت منها وسألتها :

– ماذا يوجد ؟

– أبداً ، أبداً ... يقولون بأن السيد دي شارني مريض ، وها إني أراه .

فصاح فيليب وقد أسرع ينظر هو الآخر :

– قلت ، ترينه ؟

– نعم ، إنه بنفسه .

فنسيت الملكة كل شيء ، وفتحت النافذة على مصراعيها بنشاط غير اعتيادي ، ونادت بأعلى صوتها :

– مسيو دي شارني ! مسيو دي شارني !

فالتفت دي شارني ... ثم اتجه نحو القصر وقد امتلأ قلبه رعباً !

الملكة أمام التهم المتلاحقة

★

دخل دي شارني على الملكة تعلوه مسحة من الإصفرار، إلا أنه كان مستقيم المشية وخلوّاً من مظاهر المعاناة.

وعندما وقع نظره على هذه الجماعة الجليلة، اتخذ لنفسه مظهر الوقار المفروض أن يتجلى به رجل عسكري ومجتمعي مثله.

فقال الكونت دارتوا للملكة بصوت منخفض:

- يبدو لي أنك ستستجوبين الكثيرين من الناس.

فردت عليه الملكة قائلة:

- سوف أستجوب العالم كله، حتى أتوصل الى واحد يقول لي بأنك مخدوع.

في هذه الأثناء، كان شارني قد أبصر فيليب وحيّاه بلطف، فقال هذا الأخير الى خصمه بصوت يشبه الهمس:

- أنت فظٌّ فيما يتعلق بصحتك. فقد خرجت مجروحاً! ولكن في الواقع، أنت تريد أن تموت.

فأجابه شارني، وقد سرّه أن يردّ لعدوه وخزة إخلاقية أشدُّ ألماً من جرح السيف:

- إن أحداً لم يمت لأنه انخدش بعليقة في غابة بولونيا.

ثم تدخلت الملكة فوضعت حداً لهذا الغمز واللمز بقولها:

- هؤلاء السادة يا سيد دي شارني، يقولون بأنك كنت في حفلة الأوبرا الراقصة، فهل هذا صحيح؟

فانحنى شارني احتراماً وأجاب:

- نعم يا صاحبة الجلالة.

- قل لنا ماذا رأيت في هذه الحفلة.

- هل تقصد جلالتك، ماذا رأيت، أو من رأيت؟

- حتماً... من رأيت. ولست أريد كتماناً يا سيد دي شارني، ولا تحفظاً، ولا مجاملة.

- هل عليَّ أن أقول كل شيء يا سيدتي؟

فتبدل للمرة العاشرة منذ الصباح، احمرار خدي الملكة الشبيه باحمرار المحموم، باصفرار شبيه باصفرار المحتضر، وقالت:

- نعم... كل شيء... هل شاهدتني؟

- نعم يا صاحبة الجلالة، وذلك في اللحظة التي سقط فيها قناعك، لسوء الحظ.

فأخذت ماري انطوانيت تفرك بيديها، وبعصبية ظاهرة، دانتيلا الشال الملقى على كتفيها، وقالت بصوت لم يفت الملاحظ النبيه أن الدموع كادت تطفر معه من عينيها:

- أنظر إليّ جيداً يا سيدي، هل أنت متأكد؟

- إن تقاسيم وجهك يا سيدتي، محفورة في قلوب رعاياك كافة. فيكفي الواحد أن يشاهد جلالتك مرة، حتى تبقى صورتك مطبوعة في مخيلته حتى الموت.

وهنا تطلّع فيليب بشقيقته أندريه، فالتقت نظراته بنظراتها، ووحدت هذه النظرات ألم الغيرة الموجع لدى الشقيقين.

ورددت الملكة وهي تقترب من شارني:

- أؤكد لك يا سيدي، بأنني لم أكن في حفلة الأوبرا الراقصة.

فصاح الشاب وقد أحنى جبهته حتى كادت تلامس الأرض:

- أوه مولاتي! ألا يحق لجلالتك أن تذهب الى حيث تراءى لها أنه مكان صالح؟ ولنفترض أن هذا المكان هو

جهنم، فإن جهنم ما أن تطأها قدماك حتى تصبح النعيم بذاته!

فقالت الملكة:

- أنا لم أطلب منك تبرير مسلكي، بل رجوتك أن تصدق بأني لم أسلك هذا المسلك.

فأجاب شارني، وقد تأثر حتى أعماق قلبه من إلحاح الملكة هذا، ومن هذا التواضع تبديه امرأة مزهوة كثيرة الاعتداد بنفسها:

- إني على استعداد لأن أصدق كل ما تأمرني جلالتك أن أصدقه.

فهمهم الكونت دارتوا في أذن ماري انطوانيت، قائلاً:

- شقيقتي! شقيقتي! هذا كثير...

لأن هذا المشهد قد جمّد كل الحضور: بعضهم بدافع الألم والحب أو الكبرياء المهانة، وبعضهم بدافع التأثر الذي يحثُّ عليه بصورة دائمة منظر المرأة المتهمة التي تدافع عن نفسها بشجاعة ضدَّ البراهين المفحمة.

فتهادت الملكة على مقعدها منهارة من شدة الغضب، ومسحت بطرف إصبعها، خفية، أثر الدمعة التي أحرقها الكبرياء في طرف جفنها. ثم نهضت بسرعة وصاحت:

- سوف يصدقونه! سوف يصدقونه!

فقال الكونت دارتوا بحنوّ :

– سامحيني يا شقيقتي ! سامحيني ! فأنت محاطة بأصدقاء مخلصين . وهذا السر الذي يرعبك فوق الحد ، نحن وحدنا مطلعون عليه ، ولن يستطيع أحد أن يستلّه من أعماق قلوبنا إلا إذا استلَّ أرواحنا معه .

فصاحت الملكة مجدداً :

– السر !.. السر !.. آه ! إني لا أقبل به .

فقال الكونت دارتوا : شقيقتي !

وقالت أندريه : هناك من يأتي يا مولاتي .

وقال فيليب بصوت بطيء : الملك يا مولاتي .

ثم صاح الحاجب في قاعة الانتظار .

– الملك .

فقالت الملكة :

– الملك ! أهلاً بقدومه . إن الملك هو صديقي الوحيد . الملك لن يحكم عليَّ كمذنبة ، حتى ولو ثبت لديه بأني ارتكبت هفوة . أهلاً بالملك .

عند ذاك ، دخل الملك ولاحظ فوراً البلبلة والاضطراب على الوجوه المحيطة بالملكة التي صاحت قائلة :

– لقد جئت في الوقت المناسب يا مولاي . فما زالت هناك فرية ، بل إهانة تستوجب تدخلك .

فقال لويس السادس عشر وهو يتقدم :

- ما القصة ؟

- شائعة يا سيدي ، شائعة دنيئة تتناقلها الألسن . فساعدني ، ساعدني يا مولاي ، لأنهم ليسوا أعدائي الذين يتهمونني هذه المرة ، بل أصدقائي !

- أصدقاؤك ؟!

- نعم ، هؤلاء السادة . أخي، عفواً ! إن الكونت دارتوا ، والسيد دي تافرني ، والسيد دي شارني ، يؤكدون ، يؤكدون لي ، بأنهم شاهدوني في حفلة الأوبرا الراقصة .

فصاح الملك وقد قطّب ما بين حاجبيه :

- في حفلة الأوبرا الراقصة !

- نعم يا مولاي .

وخيّم الصمت المرعب على الجميع . فثبت للسيدة دي لاموت بعد أن رأت القلق مرتسماً على وجه الملك ، والصفرة الشبيهة بصفرة الموت تعلو جبين الملكة ، بأن كلمة واحدة منها ، باستطاعتها أن تقلب الموقف رأساً على عقب ، وأن تدحض كل الاتهامات ، وأن تنقذ مستقبل الملكة .

لكن قلبها المرتهن لمصلحتها ، لم يوافق على أن تقول هذه الكلمة ، لأن الوقت في نظرها لم يحن بعد ، لذلك بقيت صامتة .

وعندئذ ردَّد الملك سؤاله، وقد ظهر عليه الغمّ الشديد:

- في حفلة الأوبرا الراقصة؟ من قال هذا القول؟ هل الكونت دي بروفانس على علم بذلك؟

فصاحت الملكة بلهجة البريئة اليائسة:

- ولكن هذا ليس صحيحاً، هذا ليس صحيحاً. فالكونت دارتوا مخدوع، والسيد دي تافرني مخدوع، والسيد دي شارني مخدوع، أنتم كلكم مخدوعون أيها السادة.

فأحنى الجميع رؤوسهم، وعادت الملكة تقول بذات النيرة:

- هيّا! ليأت كل الناس، ليأت العالم كله، وليستجوب العالم كله. لقد كانت تلك الحفلة نهار سبت، أليس كذلك؟

فقال الكونت دارتوا:

- نعم يا شقيقتي.

- حسناً! ما الذي كنت أعمله يوم السبت؟ ليقولوا لي، في الحقيقة إني أكاد أجنّ، وإذا استمرَّ هذا الافتراء بهذا الشكل، أنا نفسي سوف أصدق بأني ذهبت الى هذه الحفلة الملعونة. ولكنني لو كنت ذهبت، لصارحتكم بذلك أيها السادة.

وفجأة تقدم الملك بصدر منشرح وابتسامة مشرقة ، وقال معقباً على جواب أخيه الكونت دارتوا :

– لقد قلت السبت ، أليس كذلك أيها السادة ؟

فأجاب الكونت دارتوا :

– نعم يا أخي .

فتابع الملك يقول وقد ازداد سكينة :

– حسناً ! ليس باستطاعة أحد سوى وصيفتك ماري أن تكشف الحقيقة كما هي ، فهي ستتذكر ولا شك ، في أية ساعة دخلت عليك في ذلك اليوم . أما أنا ، فأعتقد بأني دخلت حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً .

فصاحت الملكة وقد رقص قلبها فرحاً :

– آه ! نعم يا مولاي .

وارتمت بين ذراعيه ... ثم انتبهت لنفسها فجأة ، فاحمرت حتى أذنيها وخبأت وجهها في صدر الملك ، الذي أخذ يقبّل بحنوّ شعرها الجميل .

ثم قال الكونت دارتوا وقد ضعضعته المفاجأة وملأ الفرح قلبه :

– إن هذا المشهد أيها السادة يساوي مليوناً من الليرات .

في تلك الأثناء، كان فيليب مسنداً ظهره الى زخارف الغرفة وقد غدا باصفراره كأنه قائم من بين الأموات. بينما كان شارني يمسح بهدوء العرق المتصبب من جبهته...

فقال الملك وقد سرّه وشدّد من عزيمته حصوله على هذه النتيجة:

- أرأيتم لماذا أيها السادة من المستحيل أن تكون الملكة قد حضرت في تلك الليلة حفلة الرقص في الأوبرا؟ يسرني أن تكونوا قد اقتنعتم، كما يسرني أن تكون الملكة قد اقتنعت هي الأخرى بما قلته.

وأضاف الكونت دارتوا:

- نعم لقد اقتنعنا يا مولاي، وعلى الكونت دي بروفانس أن يفكر ما يشاء. ولكني أتحدى زوجته بأن تثبت براءتها بذلك الشكل، يوم اتهموها بأنها قضت الليل خارج مخدعها الزوجي.

فصاح الملك:

- أخي!..

- مولاي، إني أقبّل يديك!

فقال الملك بعد أن قبّل الملكة القبلة الأخيرة:

- سوف نخرج سوية يا شارل.

وقالت الملكة بقسوة :

- وأنت يا سيد تافرني ، ألا تريد أن ترافق الكونت دارتوا ؟

فانتفض فيليب واقفاً وقد غلى الدم في عروقه وصبغ الاحمرار وجهه وشعر بأن الأرض تدور حوله . وبالكاد استطاع أن يحيي ، وينظر الى أندريه ، ويرشق شارني بنظرة مرعبة ، ويكظم ألمه الموجع وحزنه الشديد ... ثم خرج .

واحتفظت الملكة بالقرب منها بأندريه والسيد دي شارني .

في هذه الحالة ، وجدت أندريه نفسها بين أخيها والملكة ، وبين تعاطفها وغيرتها . ولا يمكننا أن نلخص موقفها ، دون أن نخفف من سير المشهد المأسوي الذي توصل الملك فرحاً الى حلّ عقدته .

مع ذلك ، ليس هناك ما يستحق أن يُلفت نظرنا سوى عذاب هذه الشابة التي كانت تشعر بأن فيليب قد بذل حياته كي يمنع الملكة من أن تبقى وجهاً لوجه مع شارني . وقد شعرت اندريه بانسحاق قلبها لأنها لم تلحق بفيليب وتؤاسيه كما كان يتوجب عليها أن تفعل . ولكنها لو تبعته وتركت شارني مع السيدة دي لاموت والملكة ، لشعر شارني بحرية تفوق حريته فيما لو بقي وحده مع الملكة . والسبب في اعتقادها هو الجو العائلي المتواضع الذي خلقه وجود جانّ .

فكيف يمكننا أن نفسّر شعور أندريه دي تافرني هذا؟

هل هو بدافع الحب؟ ولكن الحب في رأيها لا يتكون ويكبر بهذه السرعة في جو البلاط البارد عاطفياً. الحب، تلك الغرسة النادرة، يطيب لها أن تُزهر في القلوب النبيلة الطاهرة. أما القلب المدنس بالذكريات، فلا يمكن للحب أن تنبت له أصول فيه. لا، ليس الحب هو ما كانت تشعر به الآنسة دي تافرني تجاه السيد دي شارني. فهي ترفض بقوة مثل هذه الفكرة، لأنها كانت قد أقسمت بأنها لن تحب أحداً على الاطلاق في هذا العالم.

إذن لماذا تألمت بهذا المقدار عندما وجّه دي شارني الى الملكة بعض عبارات الاحترام والإخلاص؟ بالتأكيد، كان ذلك بدافع الغيرة.

نعم، إن أندريه أقرت بينها وبين نفسها بأنها كانت غيورة، ولكن ليس من الحب الذي باستطاعة إنسان أن يشعر به تجاه امرأة سواها، بل غيورة من المرأة التي باستطاعتها أن توحي بهذا الحب وتجيزه وتقطف ثماره.

كانت أندريه تنظر بكآبة الى العشاق الوسماء في البلاط. هؤلاء العشاق الأقوياء المملوئين نشاطاً وحيوية والذين لم يفهموها، فكانوا يبتعدون عنها، بعضهم لأن برودتها لا تتفق مع فلسفة الحياة، وبعضهم لأن هذه البرودة كانت غريبة

تتناقض مع الخفة المتأصلة للبيئة التي أبصرت فيها النور اندريه دي تافرني .

ثم إن الرجال ، سواء الذين يسعون منهم وراء اللذة أو الذين يحلمون بالحب ، ينفرون من برودة امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها ، جميلة وغنية ومحظية ملكة ، ومع ذلك فهي تسير وحدها جامدة ، صامتة صفراء ، في طريق يضج بالفرح والسعادة .

فاندريه رغم جمالها ، كانت ترى عيون الباحثين عن الغرام تتحول رويداً رويداً عن هذا الجمال ، حتى غدا هذا الزهد بها ، عادة لدى القدماء منهم ، وميلاً فطرياً لدى الجدد . ومن كان يحييها منهم ، كان يكتفي بالتحية ليستدير مبتسماً لغيرها إتماماً لواجبه ...

كل هذه الأمور لم تكن تخفى على بصر الشابة الجميلة المهملة . فالآنسة دي تافرني التي كابد قلبها كل صنوف العذاب ولم يعرف واحدة من الملذات ، والتي كانت تشعر بأن العمر يتقدم بها نحو الهموم والذكريات السوداء ، كانت تستعرض اللذات المقدمة بسخاء الى عشاق فرساي السعداء ، ثم تقول متنهدة بمرارة قاتلة :

– وأنا !.. وأنا يا إلهي !

فعندما التقت شارني ذلك المساء البارد جداً ، وعندما رأت عينيه تتوقفان بفضول عليها وتلفانها شيئاً فشيئاً بهالة من الجاذبية العذبة ، نسيت كل ما لحق بجمالها من إهانات وإهمال ، وغدت أمام هذا الرجل امرأة بكل معنى الكلمة . فلقد أيقظ شباب شارني شبابها ، وجعل من وجهها المرمري الشبيه بوجه ديانا إلهة الصيد ، يحاكي الورد في احمراره ...

لهذا السبب ، لم تلحق أندريه بفيليب الى خارج غرفة الملكة ، مع أن الإهانة التي وجهت اليه قد آلمتها جداً ، ومع أن هذا الأخ ، كان بالنسبة إليها كمعبود ، كان حبها الوحيد تقريباً . لم تلحق به لأنها خشيت على حلمها الذي بالكاد خرج من الباب الذهبي ، أن تنتزعه منها امرأة أخرى .

والآنسة دي تافرني التي لم تشأ أن تبقى الملكة وجهاً لوجه مع شارني ، لم تفكر بأن تكون لها حصتها في المحادثة بعد صرف أخيها . لذا جلست على زاوية المدفأة وأدارت ظهرها تقريباً الى المجموعة التي كانت مؤلفة من الملكة الجالسة ، وشارني الواقف والمنحني نصف انحناءة ، والسيدة دي لاموت التي كان خجلها الكاذب يفتش عن ملاذّ ، بينما كان فضولها الحقيقي يفتش عن التصرف الذي يرضيه في هكذا موقف ، ويجعلها تعير انتباهها لكل شاردة وواردة .

وبقيت الملكة صامتة عدة دقائق لم تعرف خلالها كيف

تستأنف الحديث. وبدا شارني متألماً، فلم يرق الملكة مظهره الحزين.

وأخيراً قطعت ماري انطوانيت حبل الصمت فجأة، وقالت معبرة عما يجول في رأسها ورؤوس الآخرين:

- هذا يثبت بأنه لا ينقصنا الأعداء. فهل كان أحد يتصور بأنه ستجري هكذا أمور حقيرة في بلاط فرنسا يا سيد دي شارني؟

فبقي دي شارني صامتاً ولم يجاوب، وأكملت الملكة تقول:

- كم هي سعيدة الحياة على سفينتك في عرض البحر وتحت قبة السماء! إن ساكني المدن يحدثوننا عن غضب الأمواج العاتية. ولكن أنظر الى نفسك يا سيدي! ألم تعترضك الأمواج الثائرة في الاوقيانوس؟ ألم يحدث أن انقضّت هذه الأمواج على سفينتك حتى كادت تبتلعها؟ لقد حدث لك ذلك كثيراً ولا شك، ومع هذا، فأنت ما تزال سالماً، وفتياً، ومكرماً.

فقال دي شارني: سيدتي!

وتابعت الملكة تقول وقد أخذت تستعيد نشاطها تدريجياً:

- وهل الانكليز لم يصبوا عليك جام غضبهم بوابل من قنابلهم الملتهبة القاتلة؟ بلى، لقد فعلوا، ومع ذلك فها أنت

قويّ معافى . وبسبب غضب الأعداء هذا الذي انتصرت عليه ، هنأك الملك ولاطفك ، وغدا اسمك بين الشعب محبوباً ومبجلاً .

فهمهم شارني وقد خشي من هذا الانفعال الذي وتّر أعصاب ماري انطوانيت :

- سيدتي ! سيدتي !

فقالت الملكة :

- مهما يكن من أمر ، فليتبارك أعدائي الذين رموني بسهامهم ، والذين قذفوني بأمواجهم المزبدة . ليتبارك هؤلاء الأعداء الذين لا يخشون غير الموت .

فقال شارني :

- يا إلهي ! ليس لجلالتك أعداء يا سيدتي . فهؤلاء ليسوا سوى حيات بالنسبة للنسر . إن كل ما يزحف وهو ملتصق بالأرض ، لا يزعج أولئك الذين يحلقون فوق الغيوم .

فأسرعت الملكة للردّ عليه بقولها :

- سيدي ، أنت كما أعهدك ، قد عدت سالماً سليماً من المعركة ، كما أنك خرجت من الزوبعة سالماً معافى . لقد خرجت منتصراً محبوباً ، بينما أولئك الذين عدوهم منهم وفيهم ، كما هي حالنا ، وهذا العدو نمّام قذر السمعة وجارح الكلام ، فهؤلاء ، صحيح أنهم لا يتوقون الى المجازفة بالحياة ،

لكنهم يبدون أكبر سناً بعد كل زوبعة، ويعتادون على تعفير الجباه، خوفاً من أن يواجهوا، كما حدث لي اليوم، الإهانة المزدوجة من الأصدقاء والأعداء على حدٍ سواء، تلك الإهانة المركزة على هجوم واحد. ثمَّ لو تعلم يا سيدي، كم هو صعب أن يكون المرء مكروهاً!

فانتظرت أندريه بقلق جواب الشاب، وقدرت بأنه سيكون معبّراً عن التعزية المحبة التي يبدو أن الملكة قد توسلتها.

لكن شارني لم يجاوب إطلاقاً، بل مسح بمنديله العرق المتصبب من جبهته، وارتمى على أريكة مرتبكاً أصفر اللون...

فنظرت اليه الملكة وقالت:

- أليس الحر شديداً هنا؟

ففتحت السيدة دي لاموت النافذة بيدها الصغيرة، وقالت بعد أن تنشق دي شارني الهواء بملء رئتيه:

- إن السيد معتاد على هواء البحر، لذا يشعر بالاختناق في قاعات فرساي الصغيرة بالنسبة إليه.

فأجابها شارني قائلاً:

- ليس هذا هو السبب يا سيدتي، ولكن لديَّ خدمة بعد ساعتين، إلا إذا أمرت الملكة ببقائي...

فقالت الملكة :

– أبداً يا سيدي ، فنحن نقدر أهمية حجز الحرية ، أليس كذلك يا أندريه ؟

ثم استدارت نحو شارني ، وبلهجة لاذعة بعض الشيء ، قالت :

– أنت حرّ يا سيدي .

وأشارت له إشارة تؤذن بالانصراف . فحيًا شارني تحية الرجل المسرع ، واختفى وراء الستارة الفخمة .

وبعد ثوانٍ معدودات ، طرق مسامع الحضور ما يشبه الأنين في غرفة الانتظار ، تلته جلبة أشخاص مسرعين . وكانت الملكة ما زالت قرب الباب ، إما اتفاقاً ، وإما لأنها شاءت أن تلاحق بعينيها شارني الذي لم يكن انسحابه بهذه السرعة منتظراً . فرفعت الستارة ، وأطلقت صرخة خافتة ... وبدت كأنها مستعدة للوثوب .

لكن أندريه التي لم تفارقها بنظرها ، كانت ، بوقفتها ، حائلاً بينها وبين الباب ... وقالت :

– أوه ! سيدتي !

وتطاولت السيدة دي لاموت برأسها . وكان بين الملكة وأندريه فرجة صغيرة ، استطاعت الملكة من خلالها أن ترى دي شارني فاقداً وعيه ، وقد أسرع الخدم والحراس الى نجدته .

وبعد أن رأت الملكة الحركة التي قامت بها السيدة دي لاموت ، أغلقت الباب بسرعة .

ولكن إغلاق الباب جاء متأخراً، فقد رأت السيدة دي لاموت كل شيء .

مشت ماري انطوانيت ساهمة متجهمة الوجه ، وجلست في مقعدها فريسة الهم الذي ينتج عن التأثر الشديد .

وأندريه من جهتها ، مع أنها بقيت واقفة ومستندة الى الحائط ، لم تقلَّ عن الملكة سهوماً وشرود فكر .

فكانت برهة من الصمت ... قالت بعدها الملكة فجأة وبصوت مرتفع :

- إنه لأمر غريب ! فإن السيد دي شارني ما زال يشك كما يبدو لي ...

فارتعشت رفيقتا الملكة من هذا الكلام غير المنتظر، وسألت أندريه :

- بأي شيء يشك يا سيدتي ؟

- يشك ببقائي في القصر ليلة تلك الحفلة الراقصة .

- أوه ! سيدتي !

فقالت الملكة :

- أليس كذلك أيتها الكونتس ، ألست على صواب في قولي بأن السيد دي شارني ما زال يشك ؟

فقالت أندريه .

- بعد كلام الملك يا سيدتي ؟! أوه ! ذلك مستحيل !

- ربما اعتقد بأن الملك قد هبَّ لنجدتي بدافع حبه لي .

أوه ! لا ، إنه لم يصدق ! إنه لم يصدق ! وهذا ظاهر عليه .

فأخذت أندريه تعضّض شفتيها ... ثم قالت :

- إن أخي ليس أبداً مشككاً كالسيد دي شارني ، وقد تبيَّن جلياً بأنه اقتنع كل الاقتناع .

فلم تسمع الملكة إطلاقاً جواب أندريه ، وتابعت تقول :

- أوه ! إن ذلك مؤسف . وفي هذه الحالة ، لا يكون ذلك الشاب أبداً طاهر القلب عادلاً ، كما كنت أعتقده .

قالت هذا وضربت بيديها الاثنتين على جانبي مقعدها وصاحت تقول :

- بعد اعتبار الأمر من كل جهاته ، ثبت لي أن هناك شيئاً خفياً وراء كل ذلك ، طالما أن كلام الملك لم يقنعهم بأنهم مخدوعون ، بل تظاهروا بأنهم اقتنعوا . وبات علي أن أكتشف هذا السر الغامض ، أليس كذلك يا أندريه ؟

فقالت أندريه :

- إن جلالتك على حق يا سيدتي ، وأنا متأكدة بأن السيدة دي لاموت من رأيي . فهي تفكر تفكيرك ، ومثلك ستسعى لاكتشاف الحقيقة. أليس كذلك يا سيدتي ؟

فارتعشت السيدة دي لاموت أمام هذا السؤال المفاجئ، ولم تجاوب. وأكملت الملكة تقول:

- لأنه فيما بعد، سوف يقولون بأني كنت عند ميسمار.

فأسرعت السيدة دي لاموت الى القول:

- ولكن جلالتك كانت هناك.

فأجابت الملكة:

- نعم، كنت. ولكني لم أفعل شيئاً مما ذكره المقال الهجائي. ثم هم يقولون بأنهم شاهدوني في الأوبرا، وأنا ما كنت إطلاقاً في الأوبرا.

وبعد أن أطرقت ماري انطوانيت مفكرة، صاحت فجأة تقول:

- لقد اهتديت الى الحقيقة.

فقالت الكونتس بصوت متهدج:

- الحقيقة؟

وقالت أندريه:

- أوه! عظيم!

وقالت الملكة بسرور موجهة كلامها الى السيدة دي ميزيراي التي دخلت في تلك اللحظة:

- ليأتوني بالسيد دي كروسن.

السيد دي كروسن

★

كان السيد دي كروسن رجلاً في غاية التهذيب ، لذا وجد نفسه في حيرة ما بعدها حيرة بعد التفسيرات التي شرحها الملك والملكة .

وليس من السهل معرفة أسرار امرأة معرفة تامة ، خاصة إذا كانت هذه المرأة ملكة تستوجب سمعتها المراعاة ، حفاظاً على مصالح المملكة .

ورغم الحمل الثقيل الذي شعر دي كروسن بأنه ملقى على كتفيه ، ورغم غضب الملكة وسخطها ، بقيت له الشجاعة الكافية لأن يردَّ الطعنات عن صدره بكياسته المعروفة والتي كانت أفضل درع واقية له .

فدخل على الملكة والبسمة على شفتيه . فقالت له الملكة دون أن تبتسم :

- تفضل يا سيد دي كروسن ، لقد جاء دورنا في إبداء الرأي .

- أنا رهن أوامر جلالتك .

- عليك أن تعلم السبب في كل ما حدث لي يا حضرة قائد الشرطة .

فالتفت دي كروسن الى ما حواليه بشيء من الرعب ، وتابعت الملكة تقول :

- لا تقلق إطلاقاً ، فأنت تعرف تماماً هاتين السيدتين ، أنت تعرف كل الناس .

- تقريباً ، أنا أعرف الأشخاص وأعرف تصرفاتهم ، لكنني لم أعرف المقصود من كلام جلالتك .

فأجابت الملكة وقد أغاظها هدوء ضابط الشرطة .

- سوف أفهمك هذا المقصود . من المفروغ به أن باستطاعتي إطلاعك على سري بصوت منخفض أو على انفراد ، كما يفعل الغير . لكنني خلقت كي أتصرف في وضح النهار وكي أقول كلمتي بالصوت القوي الرنان . أنا أعتقد يا سيد دي كروسن ، أن التصرفات المنسوبة إليّ قد قامت بها امرأة تشبهني، وشبه هذه المرأة قد خدعك وخدع عملاءك فظننتموها الملكة .

فصاح دي كروسن :

- امرأة تشبه جلالتك !

- هل تجد أن هذا الافتراض مستحيل ، يا حضرة قائد

الشرطة؟ هل يروق لك أن تعتقد بأني مخدوعة، أو بأني أخدعك؟

- أنا لم أقل ذلك يا سيدتي، ولكن مهما كان الشبه كبيراً بين أية امرأة وبين جلالتك، لا بدَّ أن يبقى هناك فارق ما، تستطيع العين البصيرة أن تميِّزه.

- إن التشابه كثيراً ما يخدع يا سيدي، وقد انخدع الكثيرون فعلاً.

فقالت أندريه:

- وباستطاعتي يا صاحبة الجلالة أن أقيم الدليل على صحة اعتقادك. فعندما كنا نقطن في «تافرني - مازون - روج»، مع والدي، كانت لدينا خادمة، ومن غريب الصدف أن هذه الخادمة...

- كانت تشبهني!

- أوه! غاية الشبه يا صاحبة الجلالة.

- وماذا حلَّ بها؟

- عندما جئنا الى تريبانون، خشي والدي أن يزعج هذا الشبه الملكة، فكان يخبئ هذه الخادمة عن أعين أهل البلاط...

- آه! آه! أسمعت يا سيد دي كروسن؟ إن ذلك يفيدك.

– كثيراً يا سيدتي .

فقالت الملكة موجهة كلامها الى أندريه :

– أكملي يا عزيزتي أندريه ، ماذا جرى لتلك الخادمة فيما بعد ؟

– لقد كانت هذه الخادمة يا سيدتي ، فتاة طموحاً متمردة ، فأبت أن تبقى هكذا محجوزة الحرية . لذا ، وهذا أمر لا يحتمل الشك ، أقامت علاقة مشبوهة مع أحد الشبان . فعندما أويت الى سريري مساء أحد الأيام ، تفاجأت بعدم وجودها ، فأخذنا نفتش عنها ، ولكن عبثاً ، فقد اختفت تلك الخادمة نهائياً .

– وهل سرقت لك شيئاً قبل اختفائها ؟

– لا يا سيدتي ، لم أكن أملك شيئاً يستحق السرقة .

بعد هذا الحوار الذي أصغت اليه جانّ دي لاموت بانتباه ملحوظ ، سألت الملكة دي كروسن :

– ألست على علم بكل ذلك يا سيدي ؟

– لا يا سيدتي .

– هكذا ، امرأة تشبهني هذا الشبه المدهش ، وأنت لا تعلم ؟ هكذا ، حادث بهذه الأهمية يجري في المملكة وينتج عنه بلبلة وتشويش ، وأنت آخر من يعلم ؟ هيّا ، ألا تعترف يا سيدي ، بأن سلك الشرطة سلك فاسد ؟

– أؤكد لك أن لا يا سيدتي . ولكن جلالتك التي مقامها فوق مقامي في هذا الكوكب الأرضي ، تعلم جيداً بأن ولاة الملك ليسوا سوى بشر ، وأن هناك أحداثاً غريبة ، بالكاد يستطيع الذكاء البشري أن يفهمها .

فقالت الملكة :

– عندما تتوفر للرجل كل الامكانيات التي تتيح له حتى معرفة أفكار الآخرين ، وعندما يكون لديه العملاء والجواسيس والمال ، وعندما يستطيع بواسطة جواسيسه حتى أن يسجل علي حركاتي أمام المرآة ، فهذا الرجل إن لم يكن سيد الأحداث ...

– سيدتي ، عندما أمضت جلالتك الليل خارج جناحها ، علمت ، وكانت شرطتي غير فاسدة . في ذلك اليوم ، ذهبت جلالتك الى منزل السيدة التي أمامي ، في شارع سان كلود ، وقد علمت ، وكانت الشرطة غير فاسدة . وعندما ظهرت في جلسة ميسمار المغناطيسية مع السيدة دي لامبال ، علمت ، وكانت شرطتي غير فاسدة . وعندما ذهبت الى الأوبرا ...

فانتفضت الملكة تودّ الاعتراض ، فقال لها قائد الشرطة .

– أرجوك سيدتي أن تتركيني أكمل . ان رجال الشرطة اعتقدوا بأنهم رأوك ، والشرطة كانت بحالة جيدة في ذلك اليوم . وإذا قالت سيدتي بأن رجالي لم يلاحقوا قضية

الصحافي ريتو كما يجب ، فإني أقول لها بأن ريتو المذكور قد نال نصيبه من السيد دي شارني .

فصاحت الملكة وأندريه معاً :

– نال نصيبه من دي شارني ؟!

– إن الحادث لم يمض عليه وقت طويل يا سيدتي ، وضربات العصا ما زالت ساخنة على كتفي الصحافي .

– السيد دي شارني عرَّض نفسه مع هذا الشقي ؟

– أنا لم أعلم ذلك إلا من شرطتي ، المفترى عليها يا سيدتي ، وأنت توافقينني بأن هذه الشرطة يلزمها بعض الذكاء كي تكتشف المبارزة التي تلت ذلك العمل .

فصاحت الملكة :

– مبارزة مع السيد دي شارني ! السيد دي شارني تقاتل !

وسألت أندريه بحمية :

– مع الصحافي ؟

– أوه ! لا يا سيدتي . فالصحافي الذي أُشبع ضرباً ، لم يكن جديراً بأن يسدد للسيد دي شارني طعنة السيف التي كان يتألم منها في غرفة الانتظار .

فصاحت الملكة مجدداً :

– جريح ! هو جريح ! ولكن متى حدث ذلك ؟ وكيف ؟ إنك مخدوع يا سيد دي كروسن .

- أرجو جلالتك أن تعفيني من كلمة « مخدوع » هذه المرة .

- ولكنه كان هنا منذ قليل .

- أعرف جيداً .

فقالت أندريه :

- إن السيد دي كروسن على حق يا سيدتي ، فأنا قد لاحظت جيداً بأنه كان يتألم .

تلفظت أندريه بهذه الكلمات بشكل اكتشفت فيه الملكة عملاً عدوانياً ، فاستدارت بسرعة نحوها وسألتها :

- ماذا تقولين ؟ لقد لاحظت بأن السيد دي شارني يتألم ، ولم تقولي !

فلم تجاوب أندريه . إلا أن جانّ التي شاءت أن تجعل من محظية الملكة صديقة لها ، هبت لنجدتها بقولها :

- وأنا أيضاً يا سيدتي ، لاحظت بأن السيد دي شارني كان يقف بصعوبة طوال الوقت الذي شرَّفته جلالتك بالسماح له بالكلام .

فقالت أندريه المزهوة بنفسها ، والتي لم تشكر الكونتس ولو بنظرة :

- نعم ، بصعوبة !..

أما السيد دي كروسن، فقد كان يستمع الى النساء الثلاث مستمتعاً، الى أن قالت له الملكة أخيراً:

– مع من، ولماذا، السيد دي شارني تبارز؟

– مع نبيل كان ... ولكن، يا إلهي! من غير المفيد يا سيدتي في الوقت الحاضر... إن الخصمين من قوة الذكاء، بحيث أنهما كانا قبل قليل يتحدثان سوية أمام جلالتك!

– أمامي ... هنا؟!

– نعم، هنا ... وقد خرج المنتصر أولاً، ربما منذ خمس عشرة دقيقة. فصاحت الملكة وقد التمعت عيناها ببريق الغضب الشديد:

– السيد دي تافرني!

ودمدمت أندريه متظاهرة بما يخفي حقيقة نفسها:

– أخي!

فقال السيد دي كروسن:

– أعتقد بأنه كان فعلاً السيد فيليب دي تافرني، الشخص الذي تبارز معه السيد دي شارني.

فضربت الملكة بعنف كفاً بكف دليل غضبها الذي بلغ أقصى حدّه، وقالت:

– إن ذلك لعمل وقح ... وقح! ماذا!... هل الأخلاق الأميركية نُقلت الى فرساي؟ أوه! لا، لن أسمح بذلك أبداً.

فأخفضت أندريه رأسها، وكذلك فعل السيد دي كروسن، وتابعت الملكة تقول:

- بمجرد أن البعض قد ذهب الى اميركا واشترك مع لافاييت في حرب التحرير الاميركية، يريد أن يُرجع بلادي الى القرن السادس عشر! لا، ومرة ثانية لا، لن أقبل، وعليك يا أندريه أن تعلمي بأن شقيقك قد سلك سبيل التقاتل.

فأجابتها أندريه:

- إني أعلم ذلك يا سيدتي.

- لماذا تقاتل إذن؟

- علينا أن نطرح هذا السؤال على السيد دي شارني، فهو الذي تقاتل معه.

فقالت الملكة بكبرياء:

- أنا لم أسأل ما الذي عمله السيد دي شارني، بل ما الذي عمله فيليب دي تافرني.

فأجابت أندريه وقد أخذت لهجتها تخف رويداً:

- إذا كان أخي قد تقاتل، فربما تقاتل من أجل مصلحة جلالتك.

- وهل تعتقدين بأن السيد دي شارني، لم يتقاتل هو الآخر من أجل مصلحتي يا آنسة؟

فردت أندريه بذات اللهجة :

– لي الشرف بأن ألفت انتباه جلالتك ، الى أني تحدثت عن الملكة فيما يتعلق بأخي ، وليس بشخص آخر .

فأجهدت ماري انطوانيت نفسها الى أن عادت الى كامل هدوئها ، وقد كانت ذات مقدرة فائقة في ضبط الأعصاب ، ثم نهضت ودارت عدة دورات في الغرفة ، توقفت في خلالها قليلاً أمام المرآة تنظر الى نفسها ، ثم تناولت كتاباً من درج مُبرنق ، قرأت فيه سبعة أو ثمانية أسطر ، ورمته وقالت الى قائد الشرطة :

– شكراً يا سيد دي كروسن ، لقد أفحمتني . فرأسي كان مشوشاً قليلاً بسبب هذه التقارير وهذه الافتراضات . نعم ، إن شرطتك هي على ما يرام يا سيدي ، ولكن أرجوك أن تفكر بهذا الشبه الذي كلمتك عليه ، أليس كذلك يا سيدي ؟ إلى اللقاء .

قالت الملكة ذلك ومدت يدها الى ضابط الشرطة مبرهنة عن عفوها السامي ، فخرج دي كروسن وقد غمر السرور فؤاده .

وشعرت أندريه بالتعبير الخاص الذي أعطته الملكة لعبارة « الى اللقاء » ، فانحنت معبرة عن احترامها العميق على

الطريقة الاحتفالية، فقالت لها الملكة «إلى اللقاء» بلا مبالاة، ولكن بدون أية ضغينة ظاهرة.

أما جانّ دي لاموت، فقد انحنت بخشوع كأنها أمام هيكل مقدس، وتهيأت للإستئذان بالخروج. إلا أن السيدة ميزيراي دخلت في تلك اللحظة وقالت للملكة:

– ألم تمنح جلالتك السيدين بوهمير وبوسانج مقابلة؟

– آه! صحيح أيتها الطيبة ميزيراي، ليدخلا. إبقي أيضاً أيتها السيدة دي لاموت، فإني أريد أن يصالحك الملك مصالحة تامة.

قالت الملكة هذه الكلمات وهي تراقب ببرودة ما ارتسم على وجه أندريه من تعبير، بينما كانت هذه الأخيرة تسير ببطء نحو باب الغرفة الواسعة.

فربما كانت تريد إثارة غيرتها بتفضيلها المحظية الجديدة عليها.

إلا أن أندريه، اختفت وراء الستارة الأنيقة وكأن الأمر لا يعنيها، مما جعل الملكة تتنهد وتقول:

– فولاذ! فولاذ! نعم فولاذ هذان التافرنيان، بل ذهب أيضاً!

ثم انتبهت فجأة الى السيدين بوهمير وبوسانج، فأردفت تقول:

آه ! صباح الخير يا سيديَّ الصائغين . ماذا تحملان إلي من جديد ؟ ولكنكما تعلمان جيداً بإنه ليس لدي دراهم .

إنها امرأة !

★

عادت السيدة دي لاموت إلى معقدها البعيد عن الملكة وجلست فيه كامرأة لها الحق بأن تصغي وتسمع بعد أن سمحت لها الملكة بالبقاء .

وكان السيدان بوهمير وبوسانج قد جاءَا لمقابلة الملكة بالملابس الرسمية ، فأخذا يتقدمان نحو مقعدها بانحناءات متواصلة بعد أن كانا قد وقفا عند الباب بانتظار السماح لهما بالتقدم .

وبعد أن جلسا بكل خشوع واحترام ، بادرتهما الملكة بقولها :

– إن الصاغة لا يأتون إلي إلا للتحدث عن الجواهر ، ولكن خاب فألكما أيها السيدان .

فأجاب بوهمير ، وقد كان الشريك الأكثر فصاحة :

– نحن يا مولاتي ، ما جئنا أبداً كي نعرض بضاعة على جلالتك ، خشية أن نتَّهم بالتطفل .

فأجابت الملكة وقد ندمت على تسرعها :

– على كلٍ، إن رؤية المجوهرات لا تعني شراءَها .

– بدون شك يا مولاتي ، ولكن نحن جئنا لإتمام واجب ، وهذا ما شجعنا على إزعاجك .

فقالت الملكة بدهشة :

– واجب !..

– نعم ، واجب يتعلق بذلك العقد الماسي الرائع ، الذي لم تتنازل جلالتك وتوافق على اقتنائه .

فصاحت ماري انطوانيت وهي تضحك :

– آه ! حسناً ... العقد ... ها نحن قد عدنا إليه !

فبقي بوهمير محتفظاً بجديته ، وأكملت الملكة تقول :

– الواقع أنه عقد جميل يا سيد بوهمير .

فأجاب بوسانج ببرودة :

– في غاية الروعة يا مولاتي ، وجلالتك وحدها هي الجديرة بلبسه .

فقالت الملكة بعد تنهدة خفيفة لم تفت السيدة دي لاموت :

– إلا أن ثمنه ... مليون ونصف ، أليس كذلك يا سيد بوهمير ؟

– نعم يا صاحبة الجلالة .

فتابعت الملكة تقول:

- وفي هذا الوقت الذي نعيش فيه، وحالة الشعب على ما هي عليه، ليس باستطاعة أي ملك أن يشتري عقداً بهذا المبلغ.

فقال بوهمير:

- إن تأدية الواجب تجاه جلالتك، هو الذي فرض علينا هذه الزيارة يا مولاتي. أما بيع العقد لجلالتك، فلم يعد وارداً، لأن العقد قد بيع.

فصاحت الملكة وهي تستدير:

- قد بيع!

- نعم يا صاحبة الجلالة.

- من اشتراه؟

- ذلك سرّ دوليّ يا مولاتي.

فضحكت ماري انطوانيت وقالت:

- سرّ دولي! شيء مضحك حقاً! ولكن ما لا يقوله الانسان، يكون في الغالب لا يستطيع أن يقوله، أليس كذلك يا سيد بوهمير؟

- مولاتي!

- أوه! سرّ دولي... على الملكة! خذ حذرك يا سيد

بوهمير، فإن لم تطلعني على سرك، سوف ينتزعه منك رجال السيد دي كروسن.

قالت الملكة هذا وأخذت تضحك وكأنها في جو مزاح، معبرة بذلك عن رأيها الصريح بهذا السر المزعوم الذي منع السيدين بوهمير وبوسانج من كشف هوية الشخص الذي اشترى العقد.

فقال بوهمير برصانة:

- إن تصرفنا مع مولاتي، يختلف عن تصرفنا مع زبائننا الآخرين. فنحن قد جئنا لنقول لجلالتك بأن العقد قد بيع، وهو قد بيع فعلاً. وإذا كنا اضطررنا لكتمان إسم المشتري، فلأن الصفقة قد تمت بسرية تامة، وعلى أثر رحلة سفير موفد بصورة سرية.

فعندما سمعت الملكة كلمة سفير، غيرت أسلوب مزاحها، فاستدارت نحو السيدة دي لاموت وقالت لها:

- إن العجيب في السيد بوهمير، هو مقدرته على تصديق ما جاء يقوله لي.

ثم عادت بوضعها الى ما كانت عليه، وتابعت تقول:

- حسناً يا سيد بوهمير، قل لي فقط اسم البلد، من أين جاء هذا السفير؟..

ثم ضحكت وأكملت مستدركة :

- لا ، هذا كثير ... يكفيني الحرف الأول من اسمه ، فما هو ؟

وأخذت ماري انطوانيت تضحك ضحكاً متواصلاً . فقال بوهمير بصوت يشبه الهمس ، وكأنه شاء أن يبعد سرّه ، على الأقل ، عن أذني السيدة دي لاموت :

- إنه سفير البرتغال .

بعد هذا الجواب الايجابي والصريح ، توقفت الملكة عن الضحك فجأة ، وقالت :

- سفير البرتغال ! ولكن ليس للبرتغال سفير هنا يا سيد بوهمير .

- لقد جاء على وجه السرعة يا مولاتي .

- إلى مكتبكما ... خفية ؟

- نعم يا مولاتي .

- من هو إذن ؟

- إنه السيد سوزا .

فصمتت الملكة لحظة ، ثم أذعنت للأمر الواقع وقالت :

- حسناً ! إن جلالة ملكة البرتغال تستحق هذا العقد الجميل ، فلا لزوم للكلام عليه بعد الآن .

فقال بوهمير :

- بالعكس يا مولاتي ، إن جلالتك سوف تتكرم بالسماح لي بالكلام عليه ...

ثم التفت نحو شريكه وأكمل : بالسماح لنا .

فانحنى بوسانج احتراماً ، وألقت الملكة نظرة على الكونتس وسألتها :

- هل شاهدت هذا العقد أيتها الكونتس ؟

- كلا يا مولاتي .

- إنه في غاية الروعة !.. ومن الخسارة أن يكون هذان السيدان لم يحملاه معهما .

فقال بوسانج بسرعة :

- ها هو يا سيدتي .

وسحب من قعر قبعته التي كان يتأبطها ، العلبة الصغيرة المسطحة التي تحتوي تلك الحلية ، فقالت الملكة :

- أنظري ، أنظري أيتها الكونتس ، فأنت امرأة يستهويها ذلك .

ثم ابتعدت قليلاً عن الإسكملة المصنوعة من الخزف الفاخر ليبسط عليها بوهمير العقد الماسي بشكل فني يتيح لأشعة الشمس المتسربة من النافذة أن تغمر حباته لتشعَّ بمختلف الألوان البراقة المدهشة .

وبعد أن أتمَّ بوهمير وضع العقد بالشكل الذي يرضيه، أطلقت جانّ صيحة إعجاب شديدة، لأنه في الواقع، لم يكن هناك أجمل ولا أروع من ذلك العقد الذي بدا كأنه لسان من نار بألوان تأخذ بمجامع القلوب.

واستمرت عينا جانّ دي لاموت شاخصتين في تموجات الألوان الساحرة وهي تصيح: «يا للروعة! يا للروعة!»، إلى أن قالت لها الملكة معتمدة الأسلوب الفلسفي:

- ولكن لا يخف عن بالك أن هذا العقد الذي باستطاعة يد واحدة أن تضمه في باطنها، ثمنه مليون ونصف المليون من الليرات.

إلا أن جانّ رأت في ازدراء الملكة شيئاً آخر لا يمتّ الى الازدراء بصلة... لذا قالت بعد إمعان الفكر ومن دون أن تفقد الأمل بإقناع الملكة:

- إن الصائغ على حقٍ فيما قال. فليس في العالم إلا ملكة جديرة بلبس هذا العقد، وهذه الملكة هي جلالتك.

فأجابت ماري انطوانيت:

- ومع ذلك، فجلالتي لن تلبسه!

فقال الصائغ:

- إن الواجب قضى علينا بأن لا نسمح بخروج هذا العقد من فرنسا، قبل أن نطرحه على قدمي جلالتك للتدليل على

بالغ أسفنا . فهذه الطُرفة التي تعرفها كل أوروبا وتتنافس عليها كل الملكات ، لن يسمح كبرياؤنا الوطني ببيعها لإحداهن ، إلا إذا رفضتها جلالتك مرة أخرى ، رفضاً قاطعاً وجازماً ونهائياً .

فأجابت الملكة :

– ولكن رفضي أعلنته وعرف به الشعب كافة ، وقد امتدحني كثيراً على حسن تصرفي .

فقال بوهمير :

– أوه سيدتي ! إذا كان الشعب قد راق له بأن تفضل جلالتك يختاً على عقد ، فإن الطبقة النبيلة ، وهي فرنسية أيضاً ، لن تجد في الأمر ما يدعو الى الدهشة ، إن اشترت ملكة فرنسا عقداً بعد أن اشترت يختاً .

فقالت ماري انطوانيت وهي تلقي نظرة أخيرة على علبة المجوهرات :

– دعنا من الكلام في هذا الموضوع .

فتنهّدت جانّ ، كي تساعد تنهدة الملكة التي قالت :

– آه ! أنت تتنهدين أيتها الكونتس . ولكنك لو كنت مكاني ، لما فعلت غير ما فعلته أنا .

فدمدمت جانّ قائلة : لا أعلم ...

واستمرت تنظر الى العقد، فقالت لها الملكة:

- ألم تشبعي من النظر إليه؟

- لا يا سيدتي، لا، فحبذا لو يبقى دائماً أمام عينيَّ.

- إذن، إتركا هذه الفضولية تستمتع كفاية من منظر هذا العقد أيها السيدان، طالما أن النظر الى ماساته لا يقلل من قيمتها، وأن ثمنه سيبقى دائماً مليوناً ونصف المليون من الليرات، بكل أسف.

فلفتت عبارة «بكل أسف» نظر الكونتس، وثبت لديها بأن الملكة تتحرق على هذا العقد وترغب فيه، فقالت لها:

- ولكنَّ هذا العقد على عنقك يا مولاتي، ولو بمليون ونصف المليون، سيميت كل النساء حسداً منك، حتى ولو كانت هذه النساء في جمال وسحر كليوباتره وفينوس.

قالت الكونتس هذا القول وأخذت العقد من علبة المجوهرات وبسطته بمهارة فائقة على عنق الملكة الشبيه بالمرمر، فوجدت ماري انطوانيت نفسها، بلمحة عين، مغمورة بالفسفور والألوان البراقة، وقالت جانّ:

- أوه! كم أنت مهيبة وجليلة هكذا يا صاحبة الجلالة!

فتقدمت ماري انطوانيت بسرعة من إحدى المرايا، وأخذت تنظر إلى نفسها منذهلة!

لقد كان عنقها الرشيق الأملس شبيهاً بقضيب الزنبق المرتفع بفخر واعتزاز، وبريق الماسات في العقد البديع كأنه أشعة شموس طالعة من بين نهديها...

وأمام دهشة الملكة التي ما بعدها دهشة، تجرأت جانّ وكشفت عن كتفيها بشكل جعل الصف الأخير من العقد يهبط إلى صدرها اللؤلؤي، فبدت ماري انطوانيت في أروع بهائها وتألقها، بدت امرأة لو شاهدها العشاق والرعايا على حدٍّ سواء لخرّوا أمامها ساجدين.

فنسيت الملكة نفسها أمام صيحات الإعجاب... ثم شعرت بالرهبة، فقالت وهي تحاول نزع العقد من عنقها:

- كفاية! كفاية!

فصاح بوهمير:

- لقد لامس العقد جيدك يا صاحبة الجلالة، فلم يعد جائزاً أن تلبسه امرأة أخرى...

فقالت الملكة بحزم:

- مستحيل! مستحيل! لن أرتكب هذه الغلطة.

فقال بوهمير للملكة همساً:

- خذي الوقت الكافي يا صاحبة الجلالة كي تتأكدي من صواب الفكرة، ونحن سنرجع غداً.

فصاحت الملكة :

- لا ، لا ، خذ ! خذ ! ضع العقد في العلبة بسرعة ! بسرعة !

- ربما سها عن بال جلالتك ، بأن هذا العقد ثروة دائمة . فبعد مئة سنة ، تبقى قيمته كما هي اليوم .

فقالت الملكة للكونتس ، مكرهة نفسها على التبسم :

- أعطني مليوناً ونصف المليون أيتها الكونتس ، وسنرى فيما بعد .

فصاحت الكونتس :

- أوه ! لو كنت أملك هذا المبلغ ...

اكتفت الكونتس بهذا الجواب المقتضب ، وخنقت في حنجرتها العبارات الطويلة التي جالت في خاطرها .

أما بوهمير وبوسانج فقد ارتأيا أن يتركا حبات الماس تتألق ربع ساعة أخرى أمام عيني الملكة قبل أن يقفلا العلبة عليها .

وبقيت الملكة صامتة ... ترنو إلى العقد ويكاد لعابها يسيل !

ووفق ما اعتادت عليه في فترات الغم والغيظ ، تناولت كتاباً وأخذت تتصفحه دون أن تقرأ ...

فاغتنم الصائغان الفرصة ليقولا لها :

- هل رفضت جلالتك ؟

فتنهدت الملكة من أعماق قلبها وأجابت :

- نعم ... ونعم!

فحمل إذ ذاك الصائغان علبة المجوهرات وخرجا.

وبعد خروجهما، جلست ماري انطوانيت ساهمة صامتة، وقد لاحظت جان بأن رجلها كانت تهتز فوق وسادة المخمل، فثبت لديها بأن الملكة تتألم...

وفجأة، نهضت ماري انطوانيت ودارت في غرفتها دورة، ثم توقفت أمام جانّ وقالت لها:

- يبدو أن الملك لن يأتي أيتها الكونتس، فلنؤجل التماسنا الصغير إلى مقابلة أخرى.

فحيّت جانّ بكل احترام وتراجعت حتى الباب.

ثم أضافت الملكة برفق:

- ولكن سوف أفكر بك.

فطبعت جانّ شفتيها على يدها وكأنها تودعها قلبها، وخرجت تاركة ماري انطوانيت فريسة الحزن والتيه.

ولما توارت، قالت في نفسها:

«إن حزن الملكة دليل عجزها، وتيهها دليل تحرقها، ولكنها الملكة!.. أوه! لا، إنها امرأة!»

انتهى الجزء الأول من رواية «عقد الملكة»
وبليه الجزء الثاني والأخير وفيه المفاجآت المدهشة

عِقْدُ المَلِكَة

تُعدُّ رواية «عقد الملكة» من أشهر الروايات التاريخية والغرامية. فأحداث هذه الرواية الشيّقة جداً، تدور حول عصر وحياة الملكة الفاتنة ماري انطوانيت التي قطعت الثورة الفرنسية رأسها الجميل بواسطة المقصلة. أما قصة العقد فيها، فهي قصة غرام جنوني بالملكة ماري انطوانيت من قبل أمير كردينال... وكانت وراء هذا العقد والغرام كونتس مخادعة من العائلة المالكة. أما الملكة التي وقعت في خديعة الكونتس المذكورة، فقد أُغرمت هي الأخرى بأحد فرسان الملك الذي بادلها الغرام بأشد منه، لكن الملكة بقيت محافظة على مكانتها كملكة فرنسا، والفارس بقي متهيباً الموقف كأحد رعايا زوجها لويس السادس عشر.

لذلك كانت العلاقة الغرامية بين الملكة والفارس علاقة مأساوية مثيرة، نترك للقارئ ان يكتشف تفاصيلها، كما نترك له ان يكتشف سرَّ «عقد الملكة» وما رافقه من محاكمات أقامت فرنسا وأقعدتها في ذلك العصر...

الكسندر دوماس الكبير

عِقدُ المَلِكة

تعريب

فيليب عطاالله

الجزء الثاني

دار الجيل

بيروت

Bibliotheca Alexandrina
01149736

عِقْدُ المَلِكَة

(٢)

كتب للمعرّب

١ - زوجات الفراعنة
٢ - السلطان الأحمر (عبد الحميد)
٣ - حياة بوذا
٤ - كابيتان (رواية)
٥ - نبوخذنصر (ملك بابل)
٦ - عقد الملكة - الجزء الأول
٧ - عقد الملكة - الجزء الثاني
٨ - بطرس الأكبر (قيصر روسيا الشهير)
٩ - كليوباتره (رواية)

الكسندر دوماس الكبير

عِقْدُ المَلِكَة

تعريب

فيليب عطاالله

الجزء الثاني

دَارُ الجيل

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل
الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

حبَّان ومطمحان

★

وجانّ أيضاً كانت امرأة، دون أن تكون ملكة.

فهي ما كادت تجلس في عربتها حتى أخذت تقابل بين قصر فرساي الجميل وأثاثه الفاخر، وبين منزلها في الطابق الرابع في شارع سان جيل. بين الخدم الملكيين بمظهرهم الأنيق وبين خادمتها العجوز.

ولكن بيتها المتواضع وخادمتها العجوز كانا قد أصبحا، تقريباً، في عالم النسيان، وباتت جانّ لا تنظر إلا الى منزلها الصغير في ضاحية سان – انطوان، وهو منزل يمتاز بجمال هندسته وبما يحتويه من أسباب الراحة، بالإضافة الى خدمه المطيعين اللائقين، وإن كانت ثيابهم أقل تطريزاً من ثياب خدم قصر فرساي.

فهذا المنزل وهؤلاء الخدم كانوا فرساي ثانٍ بالنسبة للسيدة لاموت، ولم تكن جانّ في «فرسايها» هذا أقل من الملكة ماري انطوانيت. فرغباتها كلها، شرط أن تكون محققة، كانت تنفَّذ بسرعة وكأنها تمسك بيدها الصولجان.

لذا دخلت جانّ الى منزلها الصغير هذا منشرحة الصدر متهللة الأسارير. وكان الوقت ما زال باكراً، فتناولت قلماً وورقة وكتبت عدة أسطر، ثم وضعت الورقة في ظرف ناعم ومعطّر، وكتبت العنوان وقرعت الجرس.

وللحال فُتح الباب وانتصب على عتبته خادم، فدمدمت جان: «كنت على حق، فالملكة ليست أفضل مني.» ثم مدت يدها وقالت للخادم:

– هذه الرسالة لسيادة الكردينال دي روهان.

فتقدم الخادم صاغراً وتناول الرسالة وخرج دون أن ينبس ببنت شفة، وذلك على طريقة خدم القصور.

واسترسلت الكونتس بكليتها الى هواجسها، ولم تكن هذه الهواجس جديدة، بل امتداداً لتلك التي شغلتها وهي في طريق عودتها من فرساي.

ولم تمضِ خمس دقائق، إلا وقُرع الباب، فقالت السيدة دي لاموت:

– أدخل!

فظهر في الباب نفس الخادم ، مما جعل السيدة دي لاموت تتأكد بأن أمرها لم ينفَّذ ، فسألته بحركة تدل على نفاد صبرها ، فأجاب الخادم :

– في اللحظة التي خرجت فيها لتنفيذ أوامرك يا سيدتي ، كان سيادة الكردينال ينتظر نتيجة قرع الباب ، فأخبرته أني ذاهب الى قصره ، فتناول رسالة سيدتي الكونتس وقرأها ، ثم هبط من عربته ودخل وقال لي : «حسناً ، أعلن عن وصولي .»

– وبعد ذلك ؟

– إن سيادته هنا ، ينتظر من سيدتي السماح له بالدخول .

فانفرجت شفتا الكونتس عن ابتسامة خفيفة ، وقالت بعد دقيقتين بلهجة اتسمت بالرضى :

– ليدخل !

فهل كان قصدها من هاتين الدقيقتين ، أن تجعل أمير الكنيسة ينتظر أوامرها في غرفة الانتظار ، أو أنهما كانتا ضروريتين للسيدة دي لاموت كي تنتهي من رسم خطتها ؟

الواقع أن جانّ دي لاموت عندما عادت الى منزلها وأرسلت تستدعي الكردينال ، كانت لديها خطة ، ولذلك شعرت بالفرح الكبير عندما حضر .

فالرغبة المجنونة لدى الملكة في اقتناء العقد، قد أيقظ كل المطامح الدفينة في نفس الكونتس المتآمرة.

وطوال المدة التي استغرقتها الطريق الطويلة بين فرساي وباريس، كان شيطان الجشع يرافقها ويهمس في أذنها بأعذب الكلمات المشجعة على العمل الجريء، للحصول على الثروة.

فمليون ونصف المليون من الليرات تتألق في حبات من الماس على «الساتان» الأبيض في علبة مجوهرات السيدين بوهمير وبوسانج، هو رقم قد أسكر الكونتس، لأنه في الواقع ثروة عظيمة بالنسبة إلى امرأة فقيرة، كانت منذ شهر تمدُّ يدها مستعطية صدقات الكبار.

وهذه الثروة التي اشتهتها جانّ، لم تكن وهماً ككلمة في صك تعاقدي، او كامتلاك قطعة أرض، بل كانت ثروة منظورة وملموسة.

لذا باتت أحلامها كلها منصبة على هذا العقد. والكردينال الذي وحده باستطاعته أن يحقق لها أحلامها، كانت له هو الآخر أحلامه، كانت له مطامحه المخبأة تحت قناع من الملاطفة والتظاهر بالحب.

وبهذا التظاهر الذي يخفي وراءه ما يخفي، قال الكردينال عندما دخل الى غرفة الكونتس:

– آه ! أهذا أنت أيتها العزيزة جانّ ، إنك فعلاً قد أصبحت ضرورة كبيرة لحياتي . فالتفكير بأنك غائبة عني ، قد جعل نهاري كله مظلماً . هل عدت بصحة جيدة من فرساي على الأقل ؟

– كما ترى يا سيدي .

– ومسرورة ؟

– بل مسحورة !

– إذن، استقبلتك الملكة ؟

– لقد أُدخلتُ إليها فور وصولي .

– إنك مغتبطة ، فهل حدثتك الملكة ؟

– لقد أمضيت في غرفة جلالتها ثلاث ساعات تقريباً !

فارتعش الكردينال ، وكاد أن يردد بلهجة الإعجاب عبارة «ثلاث ساعات» ، إلا أنه تمالك نفسه وقال :

– إنك فعلاً ساحرة ، وليس باستطاعة أحد مقاومة سحرك .

– أوه ! أوه ! إنك تفرط في تعظيمي يا أميري .

– لا ، أبداً . إذن ، قلت بأنك بقيت ثلاث ساعات لدى الملكة ؟

فأجابت جانّ إيجاباً بحركة من رأسها .

فقال الكردينال مردداً ومبتسماً :

- ثلاث ساعات!.. كم من أمور باستطاعة امرأة ذكية مثلك، أن تبحثها في مدى ثلاث ساعات!

- أوه! إني أؤكد لسيادتك بأني لم أُضع وقتي.

فقال الكردينال مجازفاً:

- إني أشارط بأنك خلال الساعات الثلاث هذه، لم تفكري بي ولو دقيقة واحدة؟

فأجابته جانٌ:

- يا لك من عقوق!

فصاح الكردينال:

- صحيح!

- لقد عملت أكثر من التفكير بك.

- ماذا عملت؟

- لقد تحدثت عنك.

فأخذ قلب الحبر يخفق خفقاناً شديداً وسأل بصوت حاول فيه عبثاً أن يخفي تأثره:

- تحدثت عني ... ولمن؟

- لمن، إن لم يكن للملكة؟

وعندما تلفظت جانّ بهذه الكلمات العزيزة على قلب الكردينال، استعملت مهارتها كي لا تنظر اليه وجهاً لوجه،

وكأنها قلقت قليلاً من النتيجة التي ستحدثها هذه الكلمات في نفسه. فقال الكردينال بصوت متلجلج:

– آه! هيّا وحدثيني عن ذلك أيتها الكونتس العزيزة. في الحقيقة، إن ما جرى يهمني جداً، ولا أريد أن تعفيني حتى من التفاصيل التافهة.

فابتسمت جانّ، إذ إنها كانت واقفة على ما يهمّ الكردينال أكثر من الكردينال نفسه.

ولما كان ما ستقصه عليه قد تهيأت له سلفاً، وكانت على استعداد لأن ترويه له حتى وإن لم يطلبه منها، فقد بدأت حديثها بتؤدة، مشددة على كل مقطع، مقدِّمة الدليل على أنها باتت صديقة ماري انطوانيت التي لا يستغنى عنها.

لكن الكردينال دي روهان لم يكترث في كل ما روته جانّ عمّا قالته الملكة بشأنها، وجانّ بدورها لم تشدد إلا على ما قالته الملكة بشأن الكردينال.

وما كادت الكونتس تنتهي من سرد قصتها، حتى أقبل الخادم نفسه معلناً أن العشاء بات حاضراً.

فدعت جانّ الكردينال بغمزة من عينها، قبلها الكردينال بإشارة منه، وتأبط ذراع سيدة المنزل وانتقلا معاً الى قاعة الطعام.

وعندما انتهى العشاء، كان الحبر قد شرب نخب الأمل والحب جرعات كبيرة في القصص التي استعيدت عشرين مرة والتي قوطعت عشرين مرة من قبل تلك الفاتنة التي سحرت قلوب ذوي السلطان.

ولاحظ الكردينال بدهشة مرعبة، أن الكونتس عوضاً عن أن تظهر مزاياها كما تفعل كل امرأة يسعون وراءها لحاجتهم إليها، كانت تذهب إلى أبعد من أمنيات مخاطبها، وبطيبة خاطر تختلف كل الاختلاف عن غطرستها الأسدية في العشاء الأخير الذي تناولاه معاً في المكان نفسه والمنزل ذاته.

فجانّ دي لاموت هذه المرة، كانت تتصرف لا كامرأة سيدة نفسها وحسب، بل أيضاً كسيدة على الآخرين. فلم يكن هناك أية حيرة في نظراتها، ولا أي تحفظ في صوتها. ولا غرو ولا عجب، ألم تعاشر طيلة النهار نخبة الطبقة النبيلة الفرنسية؟ ألم تنادِها أعظم ملكة على الأرض بـ «عزيزتي الكونتس؟»

لذلك لم يحاول الكردينال، رغم أنه رجل سيد ومطاع، أن يقاوم هذا التعالي الذي أُخضع له، بل قال للكونتس وهو يأخذ يدها:

- لقد أصبحت لك شخصية امرأتين أيتها الكونتس!

فسألته الكونتس:

– كيف ذلك ؟

– شخصية امرأة الأمس، وشخصية امرأة اليوم .

– وأية امرأة تفضّل نيافتك ؟

– لا أعلم . غير أن امرأة هذا المساء، هي امرأة لا تقاوم !

– لا أعتقد أن أميراً مثلك، خانته المقارنة في موقف من المواقف.

فانزلق الأمير عن مقعده، وسقط جاثياً على ركبتيه أمام السيدة دي لاموت، فقالت تسأله :

– هل تطلب صدقة ؟

– وإني أنتظر أن تمنحيني إياها ...

فأجابت جانّ :

– إن اليوم هو يوم توزيع الهبات فعلاً، فالكونتس دي فالوا قد استعادت مكانتها، وغدت امرأة بلاط . فقبل قليل، كانت في عداد النساء الأكثر اعتزازاً في فرساي . لذلك، أصبح بإمكانها أن تبسط يدها وتمدُّها إلى كل من يروق لها .

– وهل ستمدينها إلى أمير ؟

– بل سأمدها الى كردينال ...

ومدَّت جانّ يدها، فطبع الكردينال عليها قبلة طويلة محرقة، رفع بعدها عينيه سابراً نظرة الكونتس وابتسامتها، ثم خرج الى غرفة الانتظار وقال لسائق عربته كلمتين .

وبعد عشر دقائق، سُمعت ضجة عربة تبتعد ... فرفعت الكونتس رأسها، فقال لها الكردينال:

- أقسم لك أيتها الكونتس، بأني قد صممت ألا أتراجع ...

فقالت له الكونتس:

- ولماذا القسم! ما دمت قد بلغت هدفك.

ظهور الوجوه تحت الأقنعة

★

بعد أن ابتعدت عربته ولم يعد يُسمع لها ضجيج، قضى الكردينال مع الكونتس ساعتين في الوضع الذي ذكرناه. وأخيراً استسلمت الكونتس وقضى الكردينال وطره، فأصبح هو العبد، وأصبحت هي المنتصرة.

وكما أن الرجلين قد يتصافحان ويخدعان بعضهما البعض، هكذا الرجل والمرأة قد يتبادلان القبل ويخدعان بعضهما البعض. ولكن هنا، لم يخدع الواحد منهما الآخر، إلا لأن هذا الآخر يريد أن يكون مخدوعاً.

فقد كان لكلٍ منهما هدفه، ومن أجل هذا الهدف، كانت المودة ضرورية. إذن، لقد بلغ كل منهما هدفه.

لذلك لم يجهد الكردينال نفسه ليخفي نفود صبره. فقد اكتفى بأن يتحول قليلاً عن الطريق المباشر، ليرجع الى الحديث عن فرساي وعمّا لقيته فيه من تكريم محظية الملكية الجديدة، فقال:

- إن الملكة من السخاء بحيث أنها لا تكترث لأي مبلغ تنفقه في سبيل الذين تحبهم. فهي ذات تفكير قلَّ نظيره، إذ إنها تعطي القليل للكثير من الناس، وتعطي الكثير للقليل من الأصدقاء.

فسألته السيدة دي لاموت:

- هل تعتقد بأنها ثرية؟

- إنها بكلمة، أو حركة، أو ابتسامة، تحصل على الثروات التي تريدها. ولا يستطيع أحد أن يرفض للملكة طلباً، باستثناء الوزير تورغو[1].

فقالت السيدة دي لاموت:

- غريب! فأنا قد تبين لي بأنها أقلّ غنى مما تعتقد. مسكينة الملكة، أو بالأحرى مسكينة هذه المرأة!

- ماذا تقولين؟!

١- كان الوزير تورغو شديد المحافظة على أموال الخزينة، وقد حاول تخفيض مخصصات العائلة المالكة، مما حمل لويس السادس عشر على إقالته.

– أقول بأنها كيف يمكن أن تكون ثرية ، وهي ملزمة بأن تفرض على نفسها الحرمان ؟

– الحرمان !.. قلت الحرمان أيتها العزيزة جانّ ؟!

– أوه ! أنا قلت ما رأيت وشاهدت بأم العين ، لا زيادة ولا نقصان .

– وما الذي رأيته وشاهدته ؟ قولي ، فأنا مصغٍ اليك .

– تصور بأن هذه التعيسة ، قد عانت من عذابين مريعين .

– عذابان مريعان !.. وما هما ؟

– أنت تعلم أيها الأمير العزيز ، ماذا تعني أمنية امرأة .

– كلا ، ولكني أريد أن أعلم أيتها الكونتس .

– حسناً ! إن الملكة ليس باستطاعتها أن تحقق أمنيتها .

– مع مَنْ ؟

– ليس مع مَنْ ، بل بماذا .

– حسناً ! بماذا ؟

– بعقد ماسي ...

– آه ! لقد عرفت . ألا تقصدين عقد بوهمير وبوسانج ؟

– بالضبط .

– أوه ! إنها قصة قديمة أيتها الكونتس .

– قديمة أو جديدة ، أليس من المؤسف جداً أيها الأمير ، أن لا تستطيع ملكة ، امتلاك ما كادت أن تمتلكه محظية عادية ؟

خمسة عشر يوماً زيادة، قضتها جانّ فوبرنياي في عشرة لويس الخامس عشر، مكنتها من الحصول على ما لم تستطع أن تحصل عليه ماري انطوانيت!

– ولكن لا يخفى عن بالك أيتها الكونتس العزيزة، بأن الملكة استطاعت أن تحصل على هذا العقد خمس أو ست مرات، لكنها كانت دائماً ترفض.

– أوه!

– وإني أقول لك أكثر من ذلك. فالملك نفسه، قد قدّمه لها بيده، فرفضته!

وقصَّ عليها الكردينال حكاية اليخت، فاستمعت إليها جانّ باهتمام كبير. وعندما انتهى الكردينال، قالت له:

– حسناً! على ماذا يدل ذلك؟

– ذلك يدل على أنها لا ترغب في هذا العقد.

فهزت جانّ كتفيها وقالت:

– أنت تعرف النساء أيها الأمير، وتعرف البلاط، وتعرف الملوك، ومع ذلك، تسمح لنفسك بهكذا جواب؟!

– سيدتي! أنا متأكد من رفضها.

– ذلك يؤكد شيئاً واحداً يا أميري العزيز، وهي أن الملكة كانت بحاجة لأن تطلق كلمة براقة، كلمة يستسيغها الشعب ويصفق لها، ففعلت.

فقال الكردينال :

– إذن ، أنت تشككين بفضائل الملوك ؟

– سواء كنت مشككة أم مؤمنة ، فأنا أؤكد لك شيئاً .

– ما هو هذا الشيء ؟

– هو أن الملكة ما أن رأت العقد ، حتى غدت كالمجنونة من فرط رغبتها في اقتنائه .

– أنت تتصورين ذلك أيتها العزيزة . فالحقيقة التي يجب أن تعرفيها ، هي أن الملكة رغم عيوبها، تتمتع بصفة عظيمة .

– ما هي هذه الصفة ؟

– هي عدم المبالاة . فالملكة لا تحب الذهب، ولا الفضة ، ولا الأحجار الكريمة . فهي توازن بين المعادن وقيمتها ، وفي معتقدها ، أن زهرة في صدرها ، تساوي ماسة في أذنها .

– أنا لا أقول لا ، ولكنها في هذه الساعة ، أنا أؤكد بأنها ترغب شديد الرغبة في وضع عدة ماسات في عنقها .

– أوه ! قدّمي برهانك أيتها الكونتس .

– ليس هناك أهون من ذلك . فمنذ قليل ، رأيت العقد بنفسي .

– أنت ؟

– نعم . وليس فقط رأيته ، بل لمسته أيضاً .

– أين حدث ذلك ؟

– في فرساي، دائماً في فرساي.

– في فرساي؟!

– نعم، حيث جاء به الصاغة في محاولة أخيرة لإغراء الملكة.

– وهو جميل، أليس كذلك؟

– إنه مدهش!

– إذن، بصفتك امرأة كاملة الأنوثة، هل تعتقدين بأن هذا العقد يستهوي النساء؟

– إن المرأة التي تشاهده، يفقدها التفكير به شهية الأكل ولذة الرقاد.

– واحسرتاه! ليس لدي يخت أقدمه للملك.

– يخت؟

– نعم، فإذا ما قدمته إليه، وهبني العقد، وعند ذاك يصبح بأمكانك أن تأكلي وتنامي مطمئنة.

– أتمزح يا أميري؟

– لا، إني أقسم لك.

– حسناً! سوف أقول لك شيئاً يدهشك.

– قولي.

– أنا لا أريد هذا العقد.

– حسناً فعلت أيتها الكونتس العزيزة ، لأني لا أستطيع أن أهبك إياه .

– واحسرتاه ! لا أنت ولا أي شخص آخر . هذا ما تشعر به الملكة ، ولهذا السبب هي تتحرق عليه .

– ولكنني أكرر عليك القول ، بأن الملك سبق له أن قدمه لها .

فقامت جانّ بحركة سريعة ، حركة تدل على الإنزعاج ، وقالت :

– وأنا أقول لك ، بأن النساء لا يقبلن مثل هذه الهدايا ، إلا إذا أُرغمن على قبولها .

– أوه ! لو كنت أنا الملك وكنت أنت الملكة ، لأرغمتك على قبول هذا العقد .

– حسناً ! أرغم الملكة على قبوله ، وإن لم تكن الملك ، فترى بأنها لن تكون متكدرة من هذا الإرغام .

فقال الكردينال بعد لحظة من التفكير :

– هل أنت أكيدة ولست مخدوعة ، بأن لدى الملكة رغبة في هذا العقد ؟

– ورغبة ملحاحة . إسمع أيها الأمير العزيز . ألم تقل لي مرة ، بأنك لن تكون متكدراً فيما لو أصبحت وزيراً ؟

– من المحتمل جداً ، أني قد قلت لك هذا القول أيتها الكونتس .

– حسناً! وها هي الفرصة مؤاتية أيها الأمير العزيز...

– ماذا تقصدين؟

– أقصد بأن الملكة على استعداد لأن تعمل وزيراً، من الشخص الذي يؤمن لها ضمَّ هذا العقد الى مجموعة حلاها في خلال ثمانية أيام.

– أوه! كونتس!

– إني أعني ما أقول. وفضلاً عن ذلك، إن ما قلته لا يعنيك. فمن الواضح جداً، أنك لن تبدد مليوناً ونصف المليون في سبيل نزوة ملكية، لأن ذلك سيكون، في الواقع، ثمناً غالياً لحقيبة وزارية يجب أن تحصل عليها من دون أي مقابل. ولكن هذا العقد الذي سلب لبّ الملكة يا عزيزي، هو كالشمس في منتصف القبة الزرقاء، لا يستطيع أن ينظر إليها إلا من كانت له عيناك الشبيهتان بعيني النسر.

فلم يجاوب الكردينال، بل غرق في بحر من التفكير... إلى أن قالت له جانّ:

– يبدو أنك قد حكمت علي حكماً جائراً يا أميري، إذ اعتبرتني مبتذلة وحقيرة، ولم يعد يليق بك أن تتنازل وتكلمني.

– لا يا عزيزتي الكونتس، ولكني أحلل اعتقادك هذا

بالملكة، وأقارن بينه وبين رفضها للعقد عندما عرضه الملك عليها.

- صدقني يا عزيزي بأن الملكة تتحرق على هذا العقد. فقد ثبت لي ذلك من تأوهاتها عندما وقع بصرها عليه. واعذر ضعفي إذا قلت لك، بأني لو كنت أنا مكانها لشعرت الشعور نفسه.

- إنك امرأة عجيبة أيتها الكونتس! فقد تحالف فيك، بشكل لا يصدق، ضعف القلب مع رجاحة العقل، فجعل منك هذا التحالف امرأة مخيفة بعض المرات، وبعض المرات امرأة جديرة بالعبادة كما هي حالك الآن.

وقرن الكردينال القول بالفعل في غزله هذا، بقبلة حارة طويلة، ثم قال:

- هيّا، ولنتوقف عن الكلام على هذه الأمور.

فقالت جانّ في نفسها: «ليكن، لكني أعتقد بأن الصنارة قد غرزت في اللحم.»

ثم أكمل الكردينال يقول:

-هل تعتقدين بأن الذي أعاد الكرة، هو بوهمير؟

فأجابت السيدة دي لاموت ببراءة:

- نعم، وكان برفقته بوسانج.

فقال الكردينال وكأنه يبحث في ذاكرته:

– بوسانج ... بوسانج ... أليس هذا البوسانج شريكه؟

– بلى، وهو رجل ضامر.

– هو ذاك.

– وأعتقد أنه يقطن في منطقة الجسر الجديد.

– معك حق. فقد قرأت هذا الاسم فوق بوابة في تلك المنطقة، بينما كنت ماراً بعربتي.

فقالت جانّ في نفسها مرة ثانية:

«إن السمكة أخذت تعضّ الصنارة أكثر فأكثر.»

وقد كانت جانّ على حق، فالصنارة قد دخلت الى عمق الفريسة.

لذلك، عندما خرج الكردينال من منزل ضاحية سان انطوان في اليوم التالي، توجّه فوراً إلى مكتب بوهمير متنكراً. لكن صائغي التاج، بوهمير وبوسانج، ما أن فاه الكردينال بأول كلمة، حتى كلّماه بقولهما: يا صاحب النيافة.

فقال الكردينال مندهشاً:

– طالما أنكما عرفتماني، فحاولا على الأقل، أن لا يعرفني الآخرون.

فأجابه بوهمير:

– كن مطمئناً يا صاحب النيافة، ونحن رهن أوامرك.

فقال الكردينال :

- جئت بصدد شراء العقد الماسي الذي عرضتماه على الملكة .

- في الحقيقة ، نحن متأسفان ، لأن نيافتكم قد جاءت متأخرة جداً .

- كيف ذلك ؟

- ذلك أن العقد قد بيع .

- هذا مستحيل ! فالبارحة بالضبط قد عرضتماه من جديد على جلالتها .

فقال بوهمير :

- وقد كررت رفضها يا صاحب النيافة ، فاضطررنا الى بيعه .

فسأل الكردينال :

- ومع من تمت هذه الصفقة ؟

- ذلك سرٌّ يا صاحب النيافة .

فنهض الكردينال ممتعضاً وقال :

- أعتقد يا سيدي ، بأنه كان من المفروض بصائغ التاج الفرنسي ، أن يبيع هذه الماسات في فرنسا . ولكنك قد فضّلت البرتغال على وطنك يا سيد بوهمير !

فصاح بوهمير متعجباً :

- إن نيافتك تعرف كل شيء!

- ولما العجب والدهشة؟

- ولكن، طالما أن نيافتك تعرف كل شيء، فمما لا شك فيه، أنها قد عرفت ذلك من الملكة ذاتها.

- لنفترض ذلك، فما الذي يغيّر في حقيقة الواقع؟

- هل تسمح يا صاحب النيافة أن نتكلم بحرية؟

- تكلم.

- حسناً! إن الملكة ترغب في عقدنا.

- هل تعتقدان ذلك؟

- بل نحن نؤكده.

- إذن، لماذا لم تشترِه؟

- لأنه سبق لها أن رفضته عندما عرضه الملك عليها، فإذا ما عادت عن قرارها السابق الذي نالت المدح والثناء عليه، أصبح ذلك نزوة غير مستحبة.

- إن الملكة فوق كل كلام.

- هذا صحيح، عندما يكون المتكلم هو الشعب، أو الممالقون. أما عندما يكون المتكلم هو الملك...

- أنتما تعرفان جيداً، بأن الملك قد شاء أن يقدم هذا العقد للملكة.

– بدون شك ، ولكن الملك بادر الى شكر الملكة عندما رفضته .

– أنتما مخدوعان أيها السيدان ، فهذا لم يحدث إطلاقاً .

– على كل ، إذا كان ذلك سبباً كافياً لنحنث بكلامنا مع سفير البرتغال ، فإن هذا السبب قد جاء متأخراً .

فأخذ الكردينال يفكر ...

فكائنة ما كانت دبلوماسية الدبلوماسيين من القوة ، تبقى دبلوماسية التجار متفوقة ... فالدبلوماسي يحصر مفاوضته تقريباً في القيمة ، بينما يحاول التاجر بكل الأساليب المغرية أن يثير فضول المشتري حتى ينتزع منه الثمن انتزاعاً ، مهما كان هذا الثمن غالياً .

وقد شعر الامير دي روهان بتأثير بوهمير من هذه الناحية ، فقال له :

– افترض يا سيدي ، إذا شئت ، بأن الملكة ترغب في عقدكما .

– أوه ! عند ذاك يتغير كل شي يا صاحب النيافة . فعندما يتعلق الأمر بإعطاء الأفضلية للملكة ، يصبح بإمكاني إلغاء كل الصفقات .

– كم تريدان ثمناً لهذا العقد ؟

– مليون ليرة ونصف المليون !

– وكيف ستكون طريقة الدفع؟

– إن اتفاقنا مع البرتغالي يقضي بأن يدفع لنا عربوناً، ثم أحمل العقد بنفسي الى ليشبونة، حيث يتمّ الدفع بعد المعاينة.

– إن هذه الطريقة في الدفع ليست قابلة للتحقيق بالنسبة إلينا يا سيد بوهمير. أما العربون، فهذا حق من حقوقكما.

– مئة ألف ليرة يا صاحب النيافة.

– باستطاعتنا تأمينه. والباقي؟

فقال بوهمير:

– إن نيافتكم تريد بعض الوقت حتماً! وهذا ممكن طالما أن نيافتكم هي الكفيلة. إلا أن التأخير في الدفع سيوقعنا في خسارة يا سيدنا، لأن عملاً بهذه الأهمية، يجعل الأرقام تتضخم تلقائياً وبدون إنصاف، فالفوائد على مليون ونصف المليون من الليرات بمعدل خمسة في المئة، حصيلتها في السنة خمسة وسبعون ألف ليرة فقط، وذلك خراب علينا، فالفائدة المقبولة هي عشرة في المئة.

– تصبح الفائدة بموجب حسابك هذا مئة وخمسين ألف ليرة.

– نعم يا سيدنا.

– لنفترض أنكما ستبيعان هذا العقد بمليون وستماية ألف

ليرة يا سيد بوهمير، وأنكما ستقبضان عربوناً قدره مئة الف ليرة، والباقي سيقسط ثلاثة أقساط كل قسط قيمته خمسماية ألف ليرة تسدد في خلال سنة، هل توافقان؟

– بهذه الطريقة يا سيدنا نخسر في هذه الصفقة خمسين الف ليرة!

– لا أعتقد يا سيدي، فأنتما لو قبضتما غداً خمسماية الف ليرة، لوقعتما في حيرة، إذ من غير المعقول أن يشتري الصائغ أرضاً بهكذا مبلغ.

– ولكن نحن إثنان يا سيدنا، شريكي وأنا.

– ليكن. فستكونان أكثر سروراً بأن تقبضا خمسماية الف ليرة في كل ثلث من السنة، أي مئتين وخمسين ألف ليرة لكل واحد.

– ولكن فات سيدنا بأن هذه الماسات لا تخصنا. أوه! لو كانت تخصنا، لكنا في درجة من الغنى تجعلنا غير مكترثين، لا للدفع، ولا للتوظيف عند قبض المال.

– إذن، لمن تخصّ؟

– إنها تخصّ عشرة دائنين تقريباً. فقد اشترينا هذه الماسات بالتقسيط. لذلك نحن مديونون بواحدة إلى همبورغ، وبأخرى إلى نابولي، وبثالة إلى بونس أيرس، وبرابعة إلى موسكو، إلخ... ودائنونا ينتظرون بيع العقد كي

نفيهم حقهم ، وتبقى حصتنا نحن من الربح الذي نحققه . ولكن واحسرتاه يا سيدنا ! فمنذ أن طرحنا هذا العقد برسم البيع حتى الآن ، أي منذ سنتين ، قد ترتبت علينا فوائد بلغت قيمتها مئة ألف ليرة . فاحكم إذا كان سيبقى لنا شيء من الربح ...

فقاطع الكردينال بوهمير بقوله :

– مع هذا كله ، أنا لم أرَ هذا العقد بعد .

فقال بوهمير :

– صحيح يا سيدنا ، ها هو !

وبعد أن اتَّخذ كل الاحتياطات التي اعتادها، أبرز الحلية الثمينة .

فصاح الكردينال بعد أن لامس بشغف المشابك التي لامست عنق ماري انطوانيت:

– رائع !..

وبعدما لامست أصابعه كل ماسة ، وتملَّت عيناه من روعة هذا العقد ، قال :

– هل وافقت على الصفقة ؟

فأجاب بوهمير :

– لا أستطيع إلا أن أوافق يا سيدنا ، ولكن يتوجب علي الذهاب الى السفارة البرتغالية كي أفسخ الاتفاق .

- لا أعتقد أن هناك سفيراً للبرتغال في باريس في هذه الأيام.

- في الواقع يا سيدنا، إن السيد سوزا موجود في هذه البرهة، إذ إنه قد جاء متخفياً.

فقال الكردينال ضاحكاً:

- كي يتفاوض في موضوع العقد؟

- نعم يا سيدنا.

- أوه! يا لسوزا المسكين! إني أعرفه جيداً. مسكين سوزا!

وأخذ الكردينال يضحك ضحكاً مرحاً، فاعتقد بوهمير أن من واجبه مشاركته في السخرية على السيد سوزا، ففعل، واستمرا هكذا عدة دقائق، همّ بعدها الكردينال بالخروج، فاستوقفه بوهمير قائلاً:

- هل تريد نيافتك أن تقول لنا كيف سينفذ الاتفاق؟

- بشكل طبيعي جداً.

- هل بواسطة معتمد نيافتكم؟

- لا، أبداً، فلن يتعامل معكما سواي.

- ومتى؟

- ابتداء من الغد.

- والمئة ألف ليرة؟

- سأحملها اليكما غداً.

- وبقية المعاملات؟

- سوف أوقع عليها غداً أيضاً. وبما أنك رجل يؤتمن على السر يا سيد بوهمير، فتذكر جيداً بأنك مؤتمن على واحدٍ من أهمّ الأسرار.

- إني أعرف جيداً يا سيدنا، وتأكد بأني سأكون موضع ثقتك...

ثم أضاف قائلاً:

... كما أني سأكون موضع ثقة صاحبة الجلالة الملكة.

فاحمرّ الأمير روهان وخرج مرتبكاً، إلا أنه خرج سعيداً أيضاً، ككل رجل يكون في ذروة الغرام والشغف...

وفي صباح اليوم التالي، توجَّه بوهمير الى السفارة البرتغالية متجهم الوجه.

وفيما كان يطرق الباب، كان السيد بوزير «السكرتير الاول» يجري جردة حساب مع موثق العقود السويسري، السيد ديكورنو، بينما كان الدوق مانويل، أي السفير سوزا، يشرح لشريكه، «خادم الغرفة»، الخطة الجديدة لغزوته.

وكانت قد طرأت على مقر السفارة تغييرات كثيرة منذ آخر زيارة قام بها السيد بوهمير الى شارع «الجيسيان». فكل «الموظفين» الذين جاؤوا بمركبتي خيل مخصصتين لنقل

المسافرين كما سبق وذكرنا ، قد وزعوا في أرجاء السفارة كل بحسب حاجته .

ويجب القول ، بأن الشركاء ، باقتسامهم الأدوار التي اتقنوا تمثيلها ، قد أُتيحت لهم الفرصة لأن يسهروا بأنفسهم على مصالحهم ، مما منحهم بصورة دائمة بعض الشجاعة في المهمات الاكثر صعوبة .

والسيد ديكورنو الذي كان مندهشاً بذكاء كل هؤلاء «الموظفين» ، كان في الوقت نفسه معجباً بقلة اهتمام السفير بالتعصب الوطني ، وإصراره على اتخاذ مسكن له ذي طابع فرنسي صرف ، ابتداء من السكرتير الأول حتى خادم الغرفة .

لذا اغتنم فرصة تثبت السيد بوزير من الأرقام ، ليبدأ حديثاً معه كله مدح وثناء على وليّ أمر السفارة ، فقال له بوزير :

– إن أفراد عائلة سوز ليسوا من هؤلاء البرتغاليين المتحجرين فكرياً والذين يعيشون بعقلية القرن الرابع عشر ، بل هم نبلاء سائحون وأصحاب ملايين ، وباستطاعتهم أن يكونوا ملوكاً لو كانوا يطمحون إلى ذلك .

– ولماذا لا يطمحون ؟

– ليس من الضرورة يا سيد ديكورنو . ألا تساوي ملكاً ، عدة ملايين ولقب أمير ؟

فقال ديكورنو مندهشاً :

– أوه! يا له من تفكير فلسفي هذا التفكير يا حضرة السكرتير الأول، فهذه المعادلة الحقيقية لم أسمعها إطلاقاً من فم أي دبلوماسي.

فأجاب بوزير:

– نحن البرتغاليين شواذٌ من هذه الناحية، ونختلف بعض الشيء عن الآخرين في نظرتنا للأمور. بالإختصار، نحن واقعيون أكثر من غيرنا.

فصاح موثق العقود بحمية:

– هل تعلم بأنه من حسن حظكم أن تكون البرتغال دولة صغيرة؟

– لماذا؟

– لأنه مع هكذا رجال يديرون أمورها، ستنمو بسرعة يا سيدي.

– أوه! أنت تطرينا كثيراً يا عزيزي ديكورنو. لا، نحن نتمشى على سياسة فلسفية، والسياسة الفلسفية مموَّهة، لكنها قابلة للتطبيق. على كل، لنتوقف عن المناقشة الآن. إذن، هناك مئة وثمانية آلاف ليرة في الصندوق، كما قلت؟

– نعم يا حضرة السكرتير الأول، مئة وثمانية آلاف ليرة.

– ولا يوجد ديون؟

– إطلاقاً.

- إنه وضع مثالي. أعطني جدولاً مفصلاً لمضمون الحساب، إذا سمحت.

- ها هو: ولكن الى متى ستحتفظ به يا سيدي السكرتير؟ إني أقول لك ذلك، لأن هذا الجدول سيكون موضع فضول وتفسيرات لا نهاية لها، وقد تكون تفسيرات مقلقة.

- آه! آه!

- نعم، إنهم يشاهدون من وقت إلى آخر، أناساً يجولون حول السفارة، ويودون لو يكون بابها من زجاج.

فقال بوزير:

- أناس!.. أناس من الحي؟

- من الحي ومن سواه. فمهمة حضرة السفير السرية، قد جعلت الشرطة تهتم بسرعة لتقف على أسرارها.

فقال بوزير وقد انتابه القلق:

- أنت على حق يا عزيزي ديكورنو.

فقال ديكورنو مشيراً الى شعرية نافذة كانت تفتح وتغلق باتجاه مقرّ السفارة:

- أنظر يا سيدي السكرتير. أرأيت هذا الرجل الذي يرتدي معطفاً داكناً ووسخاً؟

- نعم، إني أراه. فمن تعتقد يكون هذا الرجل؟

– لا أعلم. ولكن ... ربما كان جاسوساً للسيد دي كروسن.

– هذا محتمل.

– على كل، إن السيد دي كروسن ليس قائد شرطة بمقدرة السيد دي سارتين. هل عرفت السيد دي سارتين؟

– لا يا سيدي، لا.

– أوه! قد كان يكشف الغيب بسرعة مدهشة!

وعند ذاك قُرع الجرس، فقال بوزير بسرعة، وقد بدأ الحديث يزعجه:

– إن سعادة السفير يستدعيني.

وفتح الباب بقوة، فدفع بمصراعيه إثنين من شركائه كانا يصيخان السمع الى المحادثة الطويلة التي شغلت بالهما، ولقد وضع الاول قلماً فوق أذنه، بينما أمسك الثاني بمكنسة. فاعتقد بوزير أنه مشكوك به، وعوَّل على أن يضاعف من تيقظه.

ثم صعد الى مكتب السفير، بعد أن صافح، خفية، صديقيه وشريكيه.

ديكورنو آخر من يعلم

★

عندما دخل بوزير على الدون مانويل، أي السفير سوزا، كان هذا الأخير أقل شحوباً من العادة، أي أكثر إحمراراً، وقد انهمك في نقاش وتفسيرات شاقة مع خادم غرفته. فما أن أطل بوزير، حتى بادره خادم الغرفة بقوله:

– هات لنرى يا عزيزي بوزير، مع من الحق.

فسأله السكرتير وقد اتخذ لنفسه هيئة الحكم، بعد أن تبادل الغمزات مع السفير، حليفه الطبيعي:

– بأي شيء؟

فقال خادم الغرفة:

– أنت تعلم بأن السيد بوهمير سيحضر اليوم لإنهاء قضية العقد.

– نعم، أعرف.

– وأنه يتوجب علينا أن ندفع له المئة ألف ليرة.

– وأعرف أيضاً.

– حسناً! أليست هذه المئة ألف ليرة ملكاً للشركة؟

– ومن يقول العكس؟

فقال خادم الغرفة وقد استدار نحو الدون مانويل:

- آه ! لقد أعطاني السيد بوزير الحق.

فقال البرتغالي وهو يشير بيده إشارة الصبر:

- صبراً ! صبراً !

وقال بوزير:

- أنا لم أعطك الحق إلا في نقطة واحدة، وهي أن المئة الف ليرة هي ملك الشركة.

- هذا يكفيني، فأنا لم أطلب زيادة. وعليه إذن، لا يجوز أن يوضع الصندوق الذي يحتوي هذا المبلغ، في الغرفة الوحيدة في السفارة التي تتصل بغرفة السفير.

فقال بوزير: لماذا؟

فأكمل خادم الغرفة يقول:

- ويتوجب على السفير أن يعطي كل واحد منّا مفتاحاً لهذا الصندوق.

فقال البرتغالي:

- لا، أبداً، لا يجوز.

- وما هي براهينك؟

فقال البرتغالي وهو يعبث بلحيته:

- طالما أن البعض يحترس مني، فلماذا لا يجوز لي أنا، أن أحترس من هذا البعض؟ إن ظنهم بأني ربما سرقت

الشركة ، مع أني رجل شريف ، يحملني على الريبة والاعتقاد بأنهم هم قد يسرقوني .

فقال خادم الغرفة :

– أنا لا أشك فيك يا عزيزي ، ولكن إذا شئت أن نحقق المساواة هنا ، فعليك ان تعترف بأن كل واحد منًّا يلعب دور السفير في المهمة التي أُوكلت إليه ، وإن بدت مهماتنا أقل شأناً في أعين الغرباء .

فقاطعه بوزير بقوله :

– لست على حق يا عزيزي فيما تقول ، فأنت لا تتصرف كرفيق محق وعادل . أليس للدون مانويل امتياز لا يقبل المنازعة ، لكونه صاحب الابتكار ؟

فقال السفير :

– آه ! نعم ... والسيد بوزير يتقاسم معي هذا الامتياز.

فأجاب رئيس الغرفة :

– عندما يكون المشروع في طريق التنفيذ ، لا يجوز التفكير بامتيازات .

فقال بوزير :

– أنا أوافقك ، ولكن علينا الاستمرار في الحذر بالنسبة للأساليب .

فدمدم رئيس الغرفة بشيء من الخجل :

– لست الوحيد الذي يطالب بما طالبت به، فإن رفاقنا كافة يفكرون تفكيري.

فقال البرتغالي وبوزير معاً:

– ولكنهم أخطأوا.

فرفع رئيس الغرفة رأسه وقال مغتاظاً:

– وأنا أيضاً أخطأت لأني عملت برأي السيد بوزير. أما السكرتير، فلا يمكنه أن يخطئ في التفاهم مع السفير...

فأجاب بوزير برباطة جأش مدهشة:

– سوف أصلم أذنيك أيها النذل. هذا إذا كان لم يزل لديك أذنان، بعد أن قُصَّتا عدة مرات.

فقال خادم الغرفة وهو ينتصب:

– ماذا قلت؟

فأكمل بوزير يقول:

– نحن هنا في غرفة السفير، وباستطاعتنا أن نعالج أمورنا عائلياً، فجئت أنت تهينني بقولك، إني متفق مع الدون مانويل.

وقال البرتغالي ببرودة داعماً قول بوزير:

– وأنا أيضاً أهنتني.

فصاح خادم الغرفة بغضب:

– أنتما تستحقان الإهانة!

ثم أخذ يصيح: إليّ! إلي! وذلك بعد أن أمسك به عشيق الآنسة أوليفا، وكاد البرتغالي يخنقه...

ولكن في اللحظة التي أوشك فيها رأسا المؤامرة أن يصفّيا حسابهما معه، قُرع الجرس منبهاً بأن زائراً قد أقبل، فقال الدون مانويل:

– لنتركه!

وقال بوزير: ليلزم غرفة الخدمة.

أما خادم الغرفة، فقد قال وهو يصلح ثيابه:

– سوف أطلع الرفاق على ذلك.

فأجاب بوزير:

– قل لهم ما تشاء، فسنعرف كيف نجاوبهم.

وتعالى صوت السويسري في الخارج يقول:

– السيد بوهمير!

فقال بوزير عند ذاك لخصمه بعد أن صفعه صفعة خفيفة على قفا رقبته:

– هوذا من سينهي كل شيء يا عزيزي.

وقال له الدون مانويل:

– لن يبقى هناك نزاع على المئة الف ليرة، لأن هذه المئة ألف ليرة ستدفع إلى بوهمير، وبذلك يروق الجو فيما بيننا يا صديقي.

فخرج خادم الغرفة وهو يدمدم متذمراً، ثم تظاهر بالتواضع ليدخل صائغ التاج بصورة ملائمة.

وبعد أن تبادل بوزير والبرتغالي النظرات وتفاهما على ما يجب عمله، دخل بوهمير متبوعاً ببوسانغ، وقد اتخذا لنفسيهما هيئة الرجلين المغلوبين على أمرهما والعاجزين عن الوفاء.

فقدم اليهما بوزير مقعدين وأخذ، تارة ينظر اليهما متقصياً، وتارة ينظر الى الدون مانويل مستوضحاً.

أما الدون مانويل فقد احتفظ بكل جدِّيته كسفير لصاحبة الجلالة ملكة البرتغال.

وفي هذا الموقف الصعب، بدأ الكلام رجل المبادرات بوهمير، فقال:

- إن أسباباً سياسية ذات أهمية كبرى يا صاحب السعادة، قد حالت بيننا وبين متابعة التفاوض الذي بدأناه.

فرفع الدون مانويل صوته محتجاً، بحجة أن الصفقة قد تمت كما قال، وأن العربون قد حضر.

فتشبث بوهمير في رأيه، وتابع السفير يقول بعد أن تدخل بوزير داعماً وجهة نظره:

- إن حكومتي قد أُشعرت بالاتفاق على الصفقة، فنقضها

والحالة هذه، سيعرّض صاحبة الجلالة ملكة البرتغال الى ما يشبه العار.

فردَّ السيد بوهمير بقوله:

- إني أخذت بعين الاعتبار كل النتائج التي قد يسببها نقض الاتفاق، ولكني لم أستطع التصرف عكس ما تصرفت.

فلم يقبل بوزير التسليم بمنطق بوهمير، فقال له بصراحة:

- إن رجوعك عن كلامك، يعني أنك تاجر سيء، وأنك رجل لا قيمة لكلامه.

فاتخذ عندئذ الكلام بوسانج، في محاولة لردِّ التهمة عنه وعن شريكه في تجارتهما، لكنه لم يكن بليغاً في دفاعه، فأسكته بوزير بقوله:

- لا تحاول التمويه، فالقضية أنكما قد وجدتما مزايداً.

ولما كان الصائغان غير ملمين كفاية بالسياسة، وكان اعتقادهما أن السياسيين البرتغاليين أرباب السياسة، فقد احمرَّا حتى آذانهما...

ورأى بوزير أنه قد أصاب الهدف. ولما كان يهمه أن ينهي هذه القضية بالتي هي أحسن، فقد استشار سفيره بالبرتغالية، وقال للصائغين:

- لقد قدمنا لكما أيها السيدان ربحاً هو أكثر من معقول.

مع ذلك ، فإن صاحبة الجلالة ملكة البرتغال ، ترفض صفقة قد تسبب بعض الضرر لتاجرين شريفين مثلكما ، وهي بالتالي لا تبخل عليكما بخمسين الف ليرة زيادة ، فهل توافقان ؟

فوضع الصائغان في حيرة ... وبعد أن تشاورا في هذا العرض ، قال بوهمير :

- لا يا حضرة السكرتير ، ونرجوك أن لا تحاول إغراءنا ، لأن هناك إرادة أقوى من إرادتنا تحتِّم علينا أن نبيع هذا العقد في فرنسا . فنرجو أن تفهمنا وتقبل عذرنا ، لأننا لسنا نحن من رفض الصفقة ، فذاك الذي اعترض عليها ، هو واحد أكبر منا وأكبر منكم .

فلم يجد بوزير ومانويل ما يجيبان به ، لذلك قاما بما يشبه المجاملة نحو الصائغين ، مظهرين نفسيهما بمظهر اللامبالاة .

فاغتنم الصائغان الفرصة واستأذنا بالخروج . ولما فتح لهما الباب بوزير ، انزلق خادم الغرفة الذي كان يتنصت وراءه وسقط على الارض ، فانتهره بوزير وأمره بأن يرافق الصائغين الى خارج مبنى السفارة .

وما كاد الصائغان وخادم الغرفة يهبطان الدرج ، حتى تبادل بوزير والدون مانويل النظرات وتفاهما على عمل سريع ، فاقتربا من بعضهما البعض ، وقال الدون مانويل :

- إن المشروع قد فشل ، ولم يبق علينا إلا أن نتقاسم

الدراهم الموجودة في الصندوق. فإذا قلنا بأن الصندوق يحتوي على مئة الف ليرة، يكون نصيب كل واحد منّا، ثمانية آلاف وأربعماية ليرة.

فأجابه بوزير:

- ليس من الضرورة أن تتمّ القسمة هكذا. فالصندوق يحتوي بالضبط على مئة وثمانية آلاف ليرة، أي أربعة وخمسون ألفاً لك، وأربعة وخمسون ألفاً لي...

فقال الدون مانويل:

- حسناً! حسناً! لنسرع ونتقاسم المبلغ.

- ولكني أخشى أن يبقى خادم الغرفة ملازماً لنا، بعد أن علم بفشل المشروع.

فقال الدون مانويل:

- ما العمل إذن؟

ففكر بوزير لحظة وقال:

- لقد وجدت وسيلة.

- ما هي؟

- إن خادم الغرفة سيعود بعد لحظات ليطالب بحصته وحصة بقية الشركاء، أليس كذلك؟

- حتماً.

- حسناً، إذهب واستدعه بحجة أني سأطلعه على سرّ، والبقية عليّ.

فقال الدون مانويل:

- يبدو لي أني قد عرفت هذا السر، إذهب واستدعه بنفسك.

- لقد طلبت اليك أن تذهب أنت، فاذهب ودعني أفكر قليلاً.

وهكذا استمرا يتجادلان في من يجب أن يذهب ويستدعي خادم الغرفة، وكل منهما لا يريد أن يترك الصندوق بعهدة الآخر، الى أن قال الدون مانويل:

- إن مركزي كسفير، يمنعني من القيام بهكذا عمل.

فأجابه بوزير:

- إنك لست سفيراً عليه. على كلٍ...

- ماذا؟ هل ستذهب؟

- لا، بل سأندهه من النافذة.

وفعلاً، نادى بوزير خادم الغرفة من النافذة، فأسرع هذا الأخير اليه بعد أن كان يتهيأ للحديث مع السويسري، فوجد، «الرئيسين» في غرفة مجاورة لغرفة الصندوق.

وكي يخفي بوزير حقيقة ما في نفسه، قال له مبتسماً:

- أراهن بأنك أطلعت السويسري على سرٍّ يتعلق بنا وحدنا .

- أنا ؟

- نعم ، أنت . لقد أخبرته بأن الصفقة مع بوهمير قد أخفقت .

- لا .

- كذاب !

- أقسم لك بأن لا .

- الحمد لله . لأنك لو أخبرته ، لكنت أرتكبت حماقة كبيرة أفقدتك مبلغاً من المال لا يستهان به .

فصاح خادم الغرفة بدهشة :

- كيف ذلك ؟ أي مبلغ من المال ؟

- أنت تعلم جيداً ، بأننا نحن الثلاثة فقط مطلعون على السرّ .

- هذا صحيح .

- وانه بالنتيجة ، ستكون لنا نحن الثلاثة فقط ، المئة والثمانية آلاف ليرة ، لأن بقية الشركاء قد اعتقدوا بأن هذا المبلغ قد أصبح في حوزة السيدين بوهمير وبوسانج .

فصاح خادم الغرفة وقد رقص قلبه فرحاً :

- يا لحظي ! يا لحظي !

فقال الدون مانويل :

وعليه تكون حصة كل واحد منّا نحن الثلاثة : ثلاثة وثلاثون ألفاً وثلاثماية وثلاث وثلاثون ليرة وثلث .

فصاح خادم الغرفة :

– أكثر ! أكثر ! هناك ثمانية آلاف ليرة كسوراً .

فقال بوزير :

– لا تجادل وقل ، هل تقبل ؟

فقال خادم الغرفة وهو يفرك يديه :

– نعم ، أقبل . الحمد لله ... هذا كلام شهم ما فهت به .

فقال بوزير بصوت صاعق :

– أما ما فهت به أنت ، فهو كلام نذل لئيم ! هيّا يا دون مانويل واقبض على هذا النصاب ، فأنت قوي ، ولنسلمه الى شركائنا الذين شاء أن يحرمهم أتعابهم ، كي يقتصوا منه .

فصاح التعيس :

– عفواً ! عفواً ! لقد كنت أمزح .

وأكمل بوزير يقول :

– هيّا ! هيا ! إلى غرفة التحميض لينال أقصى العقاب .

وفيما كان الدون مانويل يضغط بيديه الفولاذيتين على رقبة خادم الغرفة ، وهذا الأخير يصيح : العفو ! العفو ! قال بوزير موجهاً كلامه إلى السفير :

- لا تنس يا سيدي بأن ديكورنو لن ينتظر طويلاً.

عند ذاك قال خادم الغرفة:

- إذا لم تتركاني فسوف أفضحكم كلكم.

فقال له الدون مانويل بصوت غاضب وهو يدفع بالمسكين نحو الحمام القريب:

- وأنا سوف أخنقك.

ثم همس في أذن بوزير قائلاً:

- إذهب واصرف السيد ديكورنو.

فأسرع بوزير الى الغرفة المجاورة لغرفة السفير دون تردد، بينما كان الدون مانويل يوصد الباب على خادم غرفته في تلك الزنزانة الصامتة!

ولما انقضت دقيقة ولم يرجع بوزير، تحرك الشيطان في رأس الدون مانويل... فالصندوق على بعد عشر خطوات منه، وكي يفتحه ويستولي على المئة والثمانية آلاف ليرة ويفرّ من النافذة عبر الحديقة، لا يلزمه سوى دقيقتين إثنتين، وبوزير لن يرجع قبل خمس دقائق على الأقل.

فوثب الى باب الغرفة التي تحتوي الصندوق ... إلا أنه وجد الباب مقفلاً بالمزلاج. ولقد كان الدون مانويل قوياً وحاذقاً، فقال في نفسه: «لقد احترس مني بوزير لأني الوحيد

الذي بحوزته مفتاح الغرفة فوضع مزلاجاً للباب . حسناً ! سوف أُريه .»

ثم استلَّ سيفه وضرب به المزلاج ضربة قوية جعلته يقفز من مكانه ، وإذ ذاك دفع الدون مانويل الباب وبقفزة واحدة كان قرب الصندوق ... ثم أطلق صيحة مرعبة ! فالصندوق كان مفتوحاً وفارغاً ...

فالظاهر أن بوزير قد دخل من الباب الثاني الذي لا يملك مفتاحه سواه ، وسطا على المال .

وعندما خاب فأل الدون مانويل ، أسرع يعدو كالمجنون الى حجرة السويسري ، فوجد ديكورنو وحده يغني ... فانبرى يصيح شاكياً متظلماً ، إلى أن علم بما جرى كل الرفقاء . وكي يدعم نفسه بشهادة ظنها في مصلحته ، أطلق سراح خادم الغرفة . لكنه لم يلقَ منه ومن رفاقه إلا اللعنات والاتهامات بأنه هو من دبَّر المؤامرة بالإتفاق مع بوزير ، وأن بوزير الذي سبقه في الهرب سيحتفظ له بنصف السرقة .

أما ذلك المسكين الطيب القلب ديكورنو ، فقد وقف حائراً لا يدري أين هو موجود ... وقد كاد يغمى عليه عندما رأى هؤلاء الدبلوماسيين قد استعدوا لشنق الدون مانويل تحت سقيفة ، فصاح يقول :

- أتريدون شنق السيد سوزا!.. ولكن خذوا حذركم! فهذه جريمة وقدح في الذات الملكية.

لكن أحداً لم يكترث لكلامه.

وبينما كان «موظفو السفارة» يجرون «السفير» ليلقوه في قبو مظلم، وهو يصرخ صراخاً يشق عنان السماء، طُرق الباب الرئيسي ثلاث طرقات قوية ... فأخذ الشركاء يرتعشون خوفاً وقد ران عليهم الصمت ...

ثم تكررت الطرقات الثلاث، وتلاها صوت مرتفع يقول بالبرتغالية:

- إفتحوا باسم سعادة سفير البرتغال!

فدمدم سائر المحتالين: «السفير! ...»

وتبددوا بإسرع من لمح البصر وأخذوا يقفزون من النوافذ فوق بعضهم البعض وكأن إبليس يطاردهم...

فقد جاء السفير الحقيقي هذه المرة، ودخل دار السفارة بعد أن خلعت فرقة من نبالة الشرطة الباب بحضور جمهور غفير من الفضوليين.

وبعد أن فتَّش رجال الشرطة كل مكان في السفارة، اقتادوا مؤلف العقود المسكين الى سجن الشاتليه حيث بات ليلته.

وهكذا انتهت مغامرة أركان السفارة البرتغالية المزيفين.

أوهام وحقائق

★

ما كاد بوزير يصبح خارج مبنى السفارة حتى أطلق ساقيه للريح ولم يلتقط أنفاسه إلا بعد أن أصبح في شارع «سان أونوريه» وتأكد بأن أحداً لم يتمكن من اللحاق به.

وهناك أخذ يزورب على عادة كبار اللصوص الى أن نفدت قواه، فجلس على كيس قمح في شارع «فيارم» وأخذ يمسح العرق المتصبب من جبهته ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال دون أن يرى شيئاً في ذلك الشارع المليء بالأشياء التي تلفت الأنظار وتستوقفها، وذلك بسبب أفكاره المضطربة وشبح الخوف الذي كان يلاحقه.

وبعد أن أخذت أنفاسه تعود تدريجياً الى حالتها الطبيعية، وخفّ تصبب العرق من جبهته واطمأن الى نجاته بمبلغ المئة والثمانية آلاف ليرة، قال في نفسه:

«آه! ها هو حلمي يتحقق بعد أن أصبحت من أصحاب الثروات.»

ثم أخذ نفساً طويلاً وتابع يناجي نفسه:

«وأصبح بإمكاني أن أكون من الأشراف بكل ما في

الكلمة من معنى، وذا مكانه مرموقة في المجتمع. كذلك سأجعل أوليفا امرأة شريفة وذات مكانة مثلي، فهي جميلة وطيبة القلب وليس فيها سوى عيبين: الكسل والتعجرف.»

وبعد أن علل بوزير نفسه بهذه الآمال وتفقد المال في جيوبه، تابع يقول بعد تفكير قصير:

«إنهم لن يفتشوا عليَّ في شارع «فيارم» ولكنهم حتماً سيفتشون عليَّ ... فسادة السفارة لن يتخلوا عن حصتهم من الغنيمة، لذا سوف ينقسمون الى عدة عصابات ويبدأون عملهم بتفتيش منزلي، وهناك الطامة الكبرى، فأوليفا تقطن في هذا المنزل، وحتماً سوف يهددونها ويعاملونها بقسوة، وربما اتخذوها رهينة أيضاً، إذ من غير المعقول أن يعوفوا الآنسة أوليفا وهم يعلمون جيداً بأنها كانت ولم تزل المرأة المشتهاة من بوزير ...»

عندما فكر بوزير بهذا الخطر الداهم على المرأة التي يحبها، غلى الدم في عروقه وكاد يجن ...

وخشية على حبّه من أن يمسّ، أسرع كالسهم الى منزله في شارع دوفين.

ومع أن ثقته بالسير على الأقدام كانت لم تزل غير محدودة ومن الصعب على أعوانه أن يتمكنوا من اللحاق به،

فقد ارتمى في أول عربة وصل إليها وقال للحوذي بعد أن أراه ريالاً :

- إلى الجسر الجديد .

فألهب الحوذي بسوطه أقفية جياده ، فانطلقت تنهب الأرض نهباً .

وعندما وصلت العربة إلى فسحة كبيرة قرب الجسر المذكور تقع وراء تمثال الملك هنري الرابع ، وكان هذا المكان ملتقى أهل العشق والغرام ، جازف بوزير ورفع ستر العربة وأخذ يتفحص بنظراته شارع دوفين .

ولم يكن بوزير غبياً بالنسبة لتحركات رجال الشرطة وأساليبهم ، فهو قد أمضى عشر سنوات يراقب هذه التحركات ويدرس هذه الأساليب ليعرف كيف يتجنبها . لذا لاحظ وجود رجلين في نزلة الجسر لجهة شارع دوفين ، وقد وقفا متباعدين وكل منهما يمطّ رقبته نحو الشارع المذكور وينظر ملياً الى مشهد ما...

وكان هذان الرجلان جاسوسين . ولم يكن وجود الجواسيس في منطقة الجسر الجديد أمراً مستغرباً ، لأن هذه المنطقة كانت ملتقى جميع طبقات الشعب ، وكان الناس يرددون هذا القول : «إن شئت في أي وقت ، أن ترى حبراً ،

أو فتاة لذة ، أو جواداً أبيض ، فما عليك إلا أن تقصد الجسر الجديد .»

فالجياد البيضاء ، وثياب الكهنة ، وفتيات الملذات ، كانت دائماً هدف رجال الشرطة .

ورغم وجود هذين الجاسوسين ، قرر بوزير أن يستمرَّ في المجازفة حتى النهاية . فنزل من العربة واجتاز الجموع كأعرج محدودب الظهر الى أن بلغ شارع دوفين دون أن يعترضه معترض . وتابع تقدمه حتى وصل الى قرب المنزل الذي كانت أوليفا الجميلة تقف على شرفاته كالنجمة المتألقة ، فوجد نوافذه مقفلة ، فقال في نفسه : «لا شك أنها مستلقية على «الصوفا» تقرأ بعض الكتب ، أو تلتهم بعض قطع الحلوى .»

وفيما بوزير شاخص الى ذلك المنزل ، تراءى له فجأة أنه رأى سترة جندي يتربص في أحد ممراته . ثم أصبحت الرؤيا حقيقة عندما رأى جندياً آخر عند مدخل الصالون الصغير .

فأخذ العرق البارد يتصبب منه بغزارة ، إذ بات حجراً بين شاقوفين ، فهو لا يستطيع التراجع ، والمرور أمام المنزل يشكل خطراً كبيراً عليه .

فاستجمع بوزير شجاعته ومرَّ وهو يتطلع الى المنزل ، ويا لهول ما رأى !

لقد رأى ممراً مليئاً بالجنود التابعين لحرس باريس، يتوسطهم مفوض سجن الشاتليه بثيابه السوداء.

فألقى بوزير نظرة سريعة على هؤلاء الجنود، فتبين له أنهم مضطربون، وأن مظاهر الخيبة والإخفاق على وجوههم، فقال في نفسه:

«لا شك أن السيد دي كروسن قد أُشعر بما حدث، فأرسل رجاله ليلقوا القبض عليَّ، ولكنهم لم يجدوا سوى المسكينة أوليفا.»

وبعد أن ردَّد بوزير عدة مرات عبارة «مسكينة أوليفا!»، تمنَّى لو أنه في ظروف عادية ولا يحمل في جيوبه مئة وثمانية آلاف ليرة، فيدخل إذ ذاك على هؤلاء الجنود ويصيح بهم كما صاح «نيسيس» في ملحمة الإلياذة لفرجيل، عندما شاء أن ينقذ حبيبته:

«أنا هنا! أنا هنا! وأنا الذي عمل كل شيء!»

لكن خوفه على المئة والثمانية آلاف ليرة التي باستطاعته أن يشرب الخمور بها طوال عمره، قد بدَّد حيرته وخنق عذاب الحب في قلبه، فقال في نفسه:

«عليَّ أن أكون منطقياً، والمنطق يدعوني للهرب بالثروة التي أحملها في جيوبي، لأنها تمثل الحرية، والسعادة، وفلسفة الحياة. وعندما ألتقي أوليفا، سوف أبرر لها عملي

وأثبت لها تعلقي الجنوني بها، ولا بأس إن نالني منها بعض التقريع.»

قال بوزير هذا وضغط بيديه على الأوراق النقدية وأخذ يعدو بدافع غريزي باتجاه حديقة الليكسمبورغ، لأنه سبق له مئة مرة أن قصد هذه الحديقة للبحث عن أوليفا، إذ كانت هذه الحديقة ملتقى المتنزهين الناعمي البال، والطلاب، والأدباء، ورجال الدين.

ورغم أن نبّالة الشرطة كانوا يبحثون عن بوزير في تلك الحديقة، فإن العناية الإلهية لم تشأ أن يقع بين أيدي رجال السيد دي كروسن.

فما كاد عشيق نيكول، أو أوليفا، ينعطف من شارع سان جيرمان، حتى صدمته عربة فخمة كانت جيادها تسير بأقصى سرعتها باتجاه شارع دوفين، فانقلب الى جانب الطريق.

وفيما كان ينهض، لمح في تلك العربة اوليفا برفقة شاب جميل وقوي يتحدثان بمرح، فأطلق صرخة صغيرة لم يكن لها من تأثير سوى حثّ جياد العربة زيادة. فحاول اللحاق بتلك العربة، إلا أنها انعطفت وسارت في شارع دوفين، وهو الشارع الوحيد في باريس الذي بات على بوزير أن يتجنب المرور به في تلك الساعة.

فوقف يحدث نفسه ويقول: «هل هي أوليفا بالذات يا ترى أم أنها امرأة شبيهة بها؟ هل من المعقول أن تكون أوليفا قد أفلتت من نبّالة الشرطة في شارع دوفين؟ لا، ليس ذلك معقولاً.»

وسار بوزير المسكين وهو في حالة من الضيق الشديد والأمل الميئوس، سار بلا وعي من شارع الى شارع حتى بلغ منطقة كانت لم تزل شبه مقفرة في ذلك الوقت، وهناك التجأ إلى بيت صغير كانت صاحبته امرأة تكن لبوزير كل اعتبار.

فقضى بوزير ليلته في ذلك البيت المتواضع، بعد أن خبأ مال السفارة البرتغالية الذي سرقه تحت إحدى بلاطاته ووضع رجل سريره فوق تلك البلاط.

ونام وهو مطمئن إلى أن أعين رجال الشرطة لن تصل إليه، وإلى أن أحداً لن يستطيع أن يسلبه ماله.

وكان واثقاً أيضاً بأن أوليفا قد أُلقي القبض عليها من دون سبب، لذا ستظهر براءتها قريباً ويخلى سبيلها. وحتى إن لم يخلوا سبيلها، فباستطاعته بواسطة ما توفر لديه من أموال، أن ينتزع رفيقته الدائمة من السجن بسهولة كلية.

يبقى رفاق السفارة... فهؤلاء من الصعب على بوزير أن يسوّي حسابه معهم. لكن بوزير قرر أن يتحاشى المنازعة مع

رفاقه، وذلك بالسفر إلى سويسرا، بلد الحريات، حالما تصبح الآنسة أوليفا حرة طليقة.

لكن ما كان يحلم به بوزير، هل سيتحقق يا ترى؟

سوف نرى ذلك في الفصول المقبلة.

حيث أخذت الآنسة أوليفا تتساءل عما سيفعلونه بها

★

لو شاء بوزير أن يصدق عينيه الثاقبتين عوضاً عن أن يشغّل دماغه الذي كان معطلاً، لوفّر على نفسه الكثير من الأحزان وخيبات الأمل.

ففي الواقع، كانت الآنسة أوليفا بذاتها تلك التي شاهدها في العربة الفخمة الى جانب الرجل الذي ظن بأنه لم يعرفه، مع أنه لو استطاع أن ينظر إليه ملياً لكان عرفه بدون شك.

فأوليفا، كانت في صباح ذلك اليوم تقوم بنزهتها المعتادة في حديقة اللوكسمبورغ، وعندما قربت الساعة من الثانية بعد الظهر، وهو الوقت الذي اعتادت ان تتناول فيه غداءها، خرجت لتعود الى منزلها، وإذا بذلك الصديق الغريب الذي

انتزعها من بوزير في حفلة الاوبرا الراقصة ، يسرع إليها ويمسك بيدها ويسألها فيما هي تطلق صرخة خافتة :

– إلى أين تذهبين ؟

– الى منزلي ، في شارع دوفين .

فأجابها الرجل المجهول بسرعة :

– ذاك ما يحقق أماني الذين ينتظرونك فيه .

– الذين ينتظرونني !.. كيف ذلك ؟ فلا يوجد أحد بانتظاري .

– أوه ! هناك تقريباً دزينة من الزائرين .

فصاحت أوليفا وهي تضحك :

– دزينة من الزائرين ! ولماذا لا تقول فرقة بكاملها ؟

– صدقيني ، لو كان ممكناً إرسال فرقة الى شارع دوفين ، لأرسلت .

– إنك ترعبني يا سيدي !

– وسوف أرعبك أكثر إذا تركتك تذهبين الى شارع دوفين .

– لماذا ؟!

– لأنك إن ذهبت ، سيقبضون عليك أيتها العزيزة .

– سيقبضون عليَّ ، أنا ؟

– بكل تأكيد. فهذه الدزينة من الزائرين، هم نبّالة الشرطة الذين أرسلهم السيد دي كروسن.

فارتعشت أوليفا، وأخذت تفحص ضميرها عما فعلت، ثم قالت:

– ولكن، لماذا سيقبضون عليَّ وأنا لم أعمل شيئاً؟

– لماذا يقبضون على امرأة، إن لم يكن بسبب مؤامرة؟

– أنا لا دخل لي بأية مؤامرة.

– قد يكون ذلك صحيحاً، وقد يرتكبون خطأ في إلقاء القبض عليك، ولكن الواقع أنهم يبحثون عنك. فهل تريدين الذهاب الى شارع دوفين؟

فصمتت أوليفا وقد شحب لونها وبان عليها الاضطراب، ثم قالت:

– إنك تلعب بي كما يلعب الهرّ بالفأرة المسكينة. فإذا كنت واقفاً على أمر، أخبرني به. أليس بوزير هو من يريدون؟

– ربما، فأنا أظن بأن ضميره أقل نقاءً من ضميرك.

– مسكين بوزير!..

– إشفقي عليه، ولكن إن كانوا قد قبضوا عليه، فلا تقتدي به وتسهلي لهم سبيل القبض عليك.

فقالت أوليفا بجرأة:

– ولكن أية فائدة لك في حمايتي ؟ أية فائدة لك في الاهتمام بي ؟ أنا أعجب من رجل مثلك...

فقاطعها الرجل بقوله :

– لا تكملي فترتكبي حماقة . فالوقت ثمين ، إذ إن رجال السيد دي كروسن عندما يرون بأنك لم تعودي الى منزلك ، سيأتون الى هنا للتفتيش عنك .

– إلى هنا ! وهل يعلمون بأني هنا ؟

– كوني على ثقة بأنهم لا يفوتهم شيء . وبما أني شخصياً يهمني أمرك ، وأنت تريدين الخير لنفسك ، بات عليك أن تتبعيني دون جدال ، فالعربة بانتظارك .

وتابع يقول عندما لاحظ تردد أوليفا :

– آه ! أما زلت تشكين بصدق نيتي ؟

– نعم .

– حسناً ! سنقوم بعمل طائش ، ولكنه سيجعلك تقتنعين نهائياً كما أرجو . سوف نمرّ أمام منزلك بعربتي ، حتى إذا شاهدت بعينيك الاثنتين هؤلاء «الزائرين» من رجال الشرطة ، اقتنعت بحسن نيتي وقدرت لي صنيعي .

قال الرجل المجهول هذا ودفع أوليفا أمامه الى حيث كانت تقف عربته في أول شارع جهنم ، وانطلق الحوذي

بكاغليوسترو وأوليفا إلى شارع دوفين، أي الى المكان نفسه الذي شاهدهما فيه بوزير.

ولو أن أوليفا عرفت بوزير عندما لطمته العربة التي كانت تقلها مع ذلك الرجل المجهول، لكانت عملت المستطاع لإنقاذه، أو الهرب معه والتخلص من الورطة التي هي فيها. لكن كاغليوسترو عندما رأى ذلك الشقي، حوَّل انتباهها الى ذلك الجمع المحتشد بدافع الفضول حول منزلها المداهم.

وعندما رأت أوليفا رجال الشرطة ومنزلها المحتل، ارتمت بين ذراعي حاميها بيأس يثير شفقة كل رجل، باستثناء ذلك الرجل الحديدي الذي احتمت فيه.

ومع ذلك، فقد طابت نفس كاغليوسترو وهو يضغط على يد تلك المرأة الشابة ويسدل الستارة ليخبئها، فيما كانت تلك المسكينة تردد: أنقذني! أنقذني!

فقال لها: لا تخافي، سوف أنقذك.

– ولكنهم سيكتشفونني أينما كنت، طالما أن هؤلاء النبَّالة لا يفوتهم شيء كما قلت.

– لا، لا، إنك ستكونين في منزلي، ومنزلي لن يداهمه رجال الشرطة كما داهوا منزلك.

فقالت أوليفا برعب:

– أوه! منزلك... أإلى منزلك ستأخذني؟

فأجابها كاغليوسترو :

- يا لك من مجنونة ! أنا لست عاشقك أيتها الجميلة ، ولن أكون ذلك العاشق.

- إذن ، هل ستودعني السجن ؟

- إذا كنت تفضلين السجن ، فأنت حرة .

فقالت أوليفا وقد سيطر عليها الرعب واليأس .

- إفعل بي ما تشاء ، يا سيدي ، فإني تحت تصرفك .

فذهب بها كاغليوسترو الى ذلك المنزل الذي استقبل فيه فيليب دي تافرني في شارع سان جيل ، وأقامها في شقة صغيرة منعزلة من الطابق الثاني ، ثم قال لها :

- إن لم تبرحي هذا المكان ستكونين سعيدة .

فقالت أوليفا مغتمة :

- سعيدة ! كيف ذلك ؟ سعيدة بدون حرية ، وفي مكان ليس فيه حتى كتاب للتسلية ! بالعكس ، سأكون هنا جداً حزينة .

وبعد أن ألقت نظرة شاردة الى الخارج ، قال لها كاغليوسترو :

- أنت على حق ، فأنا أريد أن أوفر لك جميع أسباب الراحة ، لذا سأنقلك الى مكان آخر .

وفعلاً نفَّذ الكونت وعده ونقلها الى شقة أخرى لاقت فيها أوليفا ما يسليها، وخصوصاً الكتب التي تناسب ذوقها. وبعد أن طمأنها كاغليوسترو بأنه سيكون رهن إشارتها في كل ما تريده، وما عليها إلا أن تقرع الجرس كلما احتاجت الى شيء، قبَّل يدها وتركها.

ولكنه قبل أن يخرج، صاحت به تقول:

– آه! أرجو بنوع خاص، أن تصلني أخبار بوزير.

فأجابها كاغليوسترو:

– قبل كل شيء.

وبعد أن أوصد الباب عليها وهبط الدرج، توقف وقال في نفسه:

«إن إقامتها في ذلك المنزل الواقع في شارع سان كلود، هو انتهاك للحرمات. ولكن يجب أن لا يراها أحد، وفي هذا المنزل لن يراها أحد. وإذا توجب أن يلمحها شخص واحد دون سواه، فعليه أن يلمحها في المنزل المذكور. هيَّا، لتكن أيضاً هذه التضحية، ولنطفئ آخر ألَقٍ في المشعل الذي اضطرم فيما مضى.»

وبعد أن تناول معطفاً فضفاضاً وأخذ بعض المفاتيح من مكتبه، خرج وحده من منزله وسار صعداً في شارع سان لويس.

المنزل المجهور

★

وصل الكونت كاغليوسترو وحده الى ذلك المنزل القديم الذي يتذكره القراء، ولا شك، في شارع سان كلود، وكان الليل قد أرخى سدوله.

وفيما كان واقفاً أمام بوابته لم يلمح إلا ما ندر من المارة على البوليفار. كما أن الضوضاء الوحيدة التي سمعها في تلك الساعة، هي وقع خطوات جواد في شارع سان لويس، وعواء كلب في الأرض المسوَّرة للدير المجاور، ودقات ساعة كنيسة «سان بول» الحزينة التي كانت تصل الى مسمعه خافتة ومعلنة الساعة التاسعة إلا ربعاً.

إذن وقف كاغليوسترو أمام بوابة ذلك المنزل وسحب من تحت دثاره الفضفاض مفتاحاً ضخماً وأدخله في القفل وضغط بشدة كي يزيل من طريقه ما تجمع من بقايا حملتها إليه الرياح على مدى سنوات.

ولكن ولوج المفتاح في القفل بعد الجهد لم يكن كافياً لأن تفتح تلك البوابة، إذ إن خشبها كان قد زاد سماكة بسبب الرطوبة، وأكل الصدأ كل مفصلاتها ونبت العشب في كل

فرجة وفجوة ، مما جعل أسفل البوابة متماسكاً مع ذلك العشب .

والخلاصة أن بوابة ذلك المنزل المهجور لم يستطع كاغليوسترو فتحها إلا بعد الجهد الجهيد وبعد أن استعمل كل قواه الجسدية . وعندما فُتحت ، بدا الفناء لناظريه حزيناً موحشاً أشبه بمقبرة مكسوّة بالطحلب .

فأغلق البوابة وراءه ومشى بخطوات متثاقلة في ذلك الفناء المسوّر بجدران عالية من دون أن يراه أحد . ثم صعد الدرج الذي كان يرتجّ تحت قدميه ، وبواسطة مفتاح آخر دخل الى غرفة الانتظار الواسعة .

وهناك فقط أضاء فانوساً . لكن تلك الشمعة التي أضاءها بعناية ، ما عتّمت نفحة الشؤم في ذلك المنزل أن أطفأتها . فلهاث الموت كان أقوى من فسحة الحياة ، والكلمة أقوى من النور .

فعاد كاغليوسترو وأضاء الفانوس من جديد وأكمل طريقه حتى وصل الى قاعة الطعام ، فوجد خزائن الأطباق عفنة تفوح منها رائحة العطنة ، والبلاط لم يعد معروفاً أنه بلاط ، وكل الأبواب الداخلية مشرَّعة .

وفيما هو واقف يستعرض هذا المشهد الحزين الذي أعاده بالذاكرة الى سنوات مضت ، سمع حركة تشبه وقع الأقدام

في طرف قاعة الاستقبال حيث كان فيما مضى يبدأ السلم السري. وكانت مثل هذه الحركة في الماضي تشير إلى حضور شخص عزيز كان يوقظ الحياة والأمل والسعادة في كل حواسّ سيد المنزل.

ومع ان هذه الحركة لم تعد تمثل شيئاً الآن، فقد سرت في جسد كاغليوسترو قشعريرة قفَّ معها شعر رأسه ... فتقدم باتجاه نابض الباب القديم الذي كان يربط ما بين المنزل المعروف والمنزل السري، فوجد هذا النابض ما زال يعمل بسهولة، مما مكَّنه من فتح الباب المذكور.

ولكن ما كاد يضع قدمه على ذلك السلم السري، حتى عاد يسمع تلك الحركة الغريبة ... فمدَّ يده بالفانوس كي يكتشف السر، وإذا ببصره يقع على حية ضخمة من فصيلة الثعابين كانت تهبط السلَّم ببطء وتسوط بذيلها كل درجة من درجاته.

فحددت تلك الحية النظر باطمئنان الى كاغليوسترو، ثم انسلت واختفت داخل أول وكر في خشب الجدران.

وبعد أن تسمَّر الكونت في مكانه عدة دقائق، تابع سيره والذكريات ترافقه خطوة فخطوة. وعندما رسم ضوء الشمعة على الجدران شبحاً متحركاً، ارتعش الكونت وتصور أن ظله

هو ظل غريب : قد بُعث هو الآخر ليقوم بزيارة ذلك المنزل المكتنف بالأسرار .

وهكذا كان يمشي ويفكر الى أن وصل الى لوح المستوقد الذي كان يستخدم كممرّ بين غرفة السلاح الخاصة بـ«بلسامو[1]» وعزلة «لورنزا فاليسياني» المضمخة بالطيب .

لقد كانت جدران ذلك المنزل عارية وغرفه فارغة . وكانت لم تزل في الموقد كومة من رماد تومض في وسطها بعض السبائك الذهبية والفضية الصغيرة .

وهذا الرماد الأبيض الناعم والمعطر ، هو بقايا أثاث لورنزا الذي حرقه «بلسامو» عن بكرة أبيه ، ولقد كان أثاثاً في غاية الفخامة ، حتى أن العلب المصنوعة من خشب القمبر والصندل ذي الرائحة الثاقبة ، قد تضوعت رائحتها من خلال المداخن أثناء الحريق فغمرت بالطيب كل المنطقة التي عمَّها الدخان من باريس ، إلى درجة بقي معها المارة يومين يرفعون رؤوسهم ليتنشقوا ذلك الشذا الغريب .

وكانت تلك الغرفة المهجورة والباردة التي توقف فيها كاغليوسترو ما زالت تحتفظ بشيء من هذا الطيب . فانحنى

---

(١) سيكتشف القارئ شخصية بلسامو هذا في الفصول المقبلة.

الكونت والتقط بأصابع يده بعضاً من هذا الرماد وتنشقه بشغف وحشي، وقال يناجي نفسه:

«لقد تمكنت أن أدخل الى أحشائي شيئاً من بقايا تلك المرأة التي كانت تطيب بأنفاسها أصول ذلك الغبار.»

وأكمل جولته بعد أن هبط من علياء فلسفته وشعر بذلك الحنو البشري الذي يسمونه عواطف القلب. وفجأة تسمرت عيناه على شيء يلتمع بين هذه الأنقاض، فانحنى عليه، وإذا به سهم صغير من الفضة مدفون في الغبار حتى نصفه، وقد بدا كأنه سقط حديثاً من شعر امرأة.

وقد كان هذا السهم واحداً من تلك الدبابيس الايطالية الجميلة التي كانت نساء ذلك العصر، كما هنَّ اليوم، يزينَّ بها شعورهنّ.

فالتقط الفيلسوف، والعالم، والنبي، والمزدري بالانسانية والسماء، التقط كاغليوسترو الملحد والمشعوذ، ذلك الدبوس وقرَّبه من شفتيه ودمدم قائلاً بينما اغرورقت عيناه بالدموع:

- لورنزا!

وكان هذا كل ما قاله وشعر به، لأن الرجل كان يسكنه الشيطان...

فبعد أن لثم بحرارة تلك الذخيرة المقدسة، فتح النافذة

ومدَّ يده من خلال قضبانها الحديدية ورماها الى الأرض المسوَّرة التابعة للدير المجاور.

وبذلك عاقب نفسه لأنه انصاع الى عاطفته القلبية.

وبعد أن استقرَّ ذلك الدبوس على الأرض، وربما على أغصان الأشجار، قال يخاطب ذلك الأثر الذي لا يحسّ ولا يشعر والذي ربما اضمحلَّ نهائياً:

«إلى اللقاء، إلى اللقاء أيها التذكار الذي مَثُلَ أمامي ليضعفني ويثير شفقتي، فمن الآن فصاعداً لن أفكر بسوى التراب.

«نعم، هذا المنزل سيدنس. ماذا قلت؟ إنه الآن مدنس، فقد أعدت فتح أبوابه، ورأيت داخل القبر، ونبشت رماد الميت.

«المنزل مدنس إذن، وسيعمّ الدنس كل أرجائه. فهناك امرأة ستجتاز فناءَه وتدوس بقدميها درجه، وربما غنَّت أيضاً تحت هذه القبة التي ما زالت تتموج تحتها التنهدة الأخيرة للورنزا!

«ولكن هذا الدنس كله، سيكون من أجل هدف، وهذا الهدف هو تحقيق ما تصبو إليه نفسي. فإن كان الله ضدي، فالشيطان معي...»

وبعد أن وضع الفانوس على الدرج، تابع يقول:

«هذا الدرج كله سينهار، وكل ما في داخل هذا المنزل سينهار أيضاً، وستبرحه الألغاز والأسرار الخفية ليصبح مخبأ، بعد أن كان معبداً.»

وانبرى لتوّه فكتب على دفتر مذكراته ما يلي:

«في ثمانية أيام: تنظيف الفناء والأروقة. ترميم المستودعات والاصطبلات. هدم الجناح الداخلي. اختصار البناء الى طابقين.»

وبعد أن كتب ما كتب، قال:

«والآن، هيّا لنرى إن كانت مشاهدة الكونتس الصغيرة مستطاعة جيداً من النافذة.»

وتقدم من نافذة تقع في الطابق الثاني وتطل على شارع سان كلود، حيث يقع على بعد ستين خطوة المنزل الذي تشغله جان دي لاموت. ثم قال كاغليوسترو:

– أوه! أوه! إنه لثابت وأكيد، بأن كلاً من المرأتين سترى الأخرى جيداً من هذه النافذة.

وتناول فانوسه وهبط الدرج عائداً الى منزله.

وفي اليوم التالي، أخذ ما يزيد على الخمسين عاملاً يُعملون مطارقهم ومناشيرهم ومعاولهم في كل مكان من ذلك المنزل المهجور، كما أخذ الدخان يتصاعد من العشب المحروق والمكوم في إحدى زوايا الفناء. ولم تمض الأيام

الثمانية المحددة ، إلا وكان المهندس لونوار قد أكمل تنفيذ أوامر الكونت كاغليوسترو !

جانّ تكشف أوراقها

★

تلقى الكردينال دي روهان بعد زيارته بوهمير بيومين بطاقة ، هذا ما جاء فيها :

«نيافة الكردينال دي روهان يعرف ، بلا شك ، أين سيتعشى هذا المساء .»

فقال الكردينال بعد أن قرأ البطاقة :

«إنها من الكونتس الصغيرة ، سوف أذهب .»

ومن بين خدمه الخمسة ، اختار دي روهان لمرافقته واحداً مميزاً بشعره الأسود ، وعينيه الداكنتين ، ووجهه النضر الأحمر . وكانت هذه المميزات هي المفضلة في خدم الكبار في ذلك العصر .

وبعد ربع ساعة ، كان الكردينال في طريقه الى ملاقاة الكونتس دي لاموت .

وسبق وصوله الى المكان المتعارف عليه ، سلة ملأى بخمور «توكاي» ، وبعض التحف النادرة .

لكن جان عندما انفردت بالكردينال، تظاهرت بأنها لم تعرْ ما أرسله كبير اهتمام، ودخلت معه رأساً في حديث فيه شيء من الحنان، ابتدأته بقولها:

«في الحقيقة يا سيدي، إني أشعر بحزن كبير.»

فقال الأمير دي روهان بذلك التصنع الذي يخفي حقيقة ما يضمره الانسان:

– أوه! ما هو سبب حزنك أيتها الكونتس؟

– سبب حزني يا سيدي، هو حبك... وليس فقط لأنك لم تعد تحبني، بل لأنك ما أحببتني أصلاً...

– ماذا تقولين أيتها الكونتس؟!

– لا تبرر نفسك يا سيدي، فالأمر لا يستحق الاهتمام.

فقال الكردينال برقة: بالنسبة لي؟

– لا، بالنسبة لي. زد على ذلك...

– أوه! كونتس!

– لا تزعج نفسك يا سيدي، فأنا غير مبالية إطلاقاً.

– إن أحببتك وإن لم أحبك؟

– نعم.

– وما هو سبب هذه اللامبالاة؟

– سببها أني أنا، لا أحبك.

– ولكن هل تعلمين أيتها الكونتس، بأن ما تقولينه ليس فيه شيء من اللطف والمجاملة؟

– الحقيقة، أن علاقاتنا لم تبدأ باللطف والمجاملة، وهذا واقع يجب أن نعترف به.

– أي واقع؟

– واقع الحب المفقود. فأنا منذ البدء لم أحبك، كما أنك أنت أيضاً لم تحبني.

فصاح الكردينال بلهجة كادت تعبر عن حقيقة شعوره:

– أوه! بالنسبة لي، لا ينطبق علي هذا القول ولا يجوز أن تساويني بنفسك. فأنا كنت ولم أزل، أكنّ لك كل محبة.

– هيّا يا سيدي، ولتكن لنا الشجاعة لنقول الحقيقة.

– الحقيقة! أية حقيقة؟

– هناك رابطة تشدنا الى بعضنا، أقوى من رابطة الحب.

– ما هي؟

– المنفعة!

– المنفعة؟ أُفٍ أيتها الكونتس!..

– سأقول لك يا سيدي، كما كان يقول ذلك النورمندي الى ابنه: إذا كرهت الشيء فلا تحمل الآخرين على كرهه.

– حسناً ايتها الكونتس، ولنفترض أننا نفعيان. فكيف

يمكنني أن أخدم مصالحك، وكيف يمكنك أن تخدمي مصالحي؟

- قبل كل شيء يا سيدي، هناك رغبة تدفعني الى مخاصمتك.

- لماذا أيتها الكونتس؟

- لأني فقدت ثقتي بك، بعد أن قلَّ احترامك لي.

- احترامي لك! أرجوك، متى كان ذلك؟

عندما قررت إرضاء سيدة كبيرة بتحقيق ما تصبو إليه نفسها، من دون أن تعلمني.

- في الحقيقة، إنك لغز مبهم أيتها الكونتس! فأية سيدة تقصدين، وما الذي تصبو إليه نفسها؟

- لا، لست بلغز مبهم. فالسيدة هي تلك التي كشفت لك أسرار نفسها، هي الملكة ... أما ما تصبو إليه نفسها، فهو ذلك العقد الشهير الذي اشتريته أمس من السيدين بوهمير وبوسانج.

فترنح الكردينال وشحب لونه، ودمدم قائلاً:

- كونتس!

فألقت عليه جانّ نظرة حادَّة وسألته:

- لماذا تنظر إلي وأنت مرتعب هكذا؟ ألم تجرِ البارحة صفقة مع السيدين اللذين ذكرتهما لك؟

فصمت الكردينال ولم يجاوب. إذ لم يكن من عادته أن يكذب حتى على النساء.

ولما أخذ الاحمرار يصبغ وجهه دليل عدم استعداده لأن يغفر لتلك المرأة ما سببته له من كدر وازعاج، أسرعت جانّ وأمسكت بيده وقالت له:

- عفواً يا أميري، لقد تسرعت في مصارحتك بخيبة أملي فيك. فهل ستحكم عليّ بأني حمقاء وسيئة النية؟

- أوه! أوه! كونتس.

- وأخيراً...

- أخيراً دعيني أتكلم بدوري بعد أن اتضحت لي الصورة. فأنا كنت أنتظر أن أجد فيك امرأة ظريفة، امرأة ذات رأي، وعشيقة فاتنة، فاذا بك امرأة أخرى، امرأة شاءت أن تكون صديقتي وعشيقتي من دون أن تحبني، ولقد صارحتني بذلك، أليس كذلك؟

فقالت السيدة دي لاموت:

- إنني أكرر ما قلته.

- إذن، فإن لديك هدفاً؟

- بكل تأكيد.

- ما هو هدفك أيتها الكونتس؟

- وهل أنت بحاجة لأن أشرحه لك؟

- لا ، لقد لمسته لمس اليد . فأنت تريدين أن تتأمن لي الثروات ، كي أؤمن لك ثروتك . أليس كذلك أم أني مخدوع ؟

- أنت لست مخدوعاً أبداً يا سيدي ، فذلك فعلاً هو هدفي . ولكن صدّقني بدون صياغة جمل رنانة ، بأني لم ألاحق هدفي وسط النفور والكراهية ، فالطريق كانت مستحبة وممتعة .

- أنت امرأة لطيفة أيتها الكونتس ، ويسرني أن أكشف لك أسرار قلبي . فهل تعلمين أني حظيت في مكان ما ، بلفتة كريمة ؟

- لقد لاحظت ذلك في حفلة الاوبرا يا أميري .

- آه ! ليرعاني الله حتى أرى ذلك الحلم يتحقق .

فقالت الكونتس :

- إن المرأة لا تستطيع أن تكون دائماً ملكة ، وأنت لا تقل قدراً ، كما أعهدك ، عن الكردينال مازاران .

فقال الأمير دي روهان وهو يضحك :

- إن مازاران هو أيضاً رجل قوي وجميل ، ورئيس وزارة ممتاز !

فأجابت جانّ بكل هدوء وسكينة : ورئيس وزارة ممتاز . ومع ذلك ، فهو ليس أفضل منك .

– الحقيقة أيتها الكونتس ، إني أطمح بهذا المركز ، ولدي كل المؤهلات التي تخولني احتلاله : المحتد ، والمقدرة ، وعطف البلاطات الأجنبية علي ، والتأييد الذي ألقاه من الشعب الفرنسي .

فأجابته جانّ:

– ولكن ما زالت هناك عقبة واحدة تعترض سبيلك .

– ما هي هذه العقبة ؟

– إنها نفور الملكة ، وهو العقبة الأهم . فمن ترضى عليه الملكة ، لا بدَّ من أن يرضى عليه الملك ، ومن تكرهه الملكة يزايد عليها الملك في كرهه .

– وهل تكرهني الملكة ؟

– الواقع أنها لا تحبك يا سيدي .

– إذن ، لقد تبخرت كل آمالي ، ولم يعد للعقد أية فائدة . آه ! ليتني لم أشتره .

– لا تيأس إلى هذه الدرجة أيها الأمير . فالعقد ، وإن كانت الملكة لا تحبك ، سيثبت لها على الأقل ، بأنك أنت تحبها.

– أتقصدين بأنك لم تقطعي الأمل من رؤية ذلك اليوم الذي أصبح فيه رئيساً للوزارة ؟

– أنا أكيدة من أن هذا اليوم سيأتي .

- وأنا لن أتوانى في ذلك اليوم عن تحقيق مطالبك ومطامحك. وباستطاعتك تحديدها منذ الآن.

- دع ذلك أيها الأمير الى الوقت الذي يصبح فيه بإمكانك أن تحققها.

- كما تشائين، وسأكون رهن إشارتك في ذلك اليوم.

- شكراً يا أميري، ولنتناول الآن عشاءَنا.

فأمسك الكردينال بيد جانّ وضغط عليها كما اشتهت أن يضغط عليها منذ عدة أيام. ولكن تلك المحتالة سحبت يدها بمهارة الممثلة البارعة، فقال الكردينال متعجباً:

- لماذا أيتها الكونتس؟

- قلت لك لنتناول عشاءَنا يا سيدي.

- ولكني لم أعد جائعاً.

- إذن، لنتحدث.

- ولكن لم يعد لديَّ ما أقوله.

- إذن، لنفترق.

- أتصرفينني وقد تحالفنا؟!

- كي يكون الواحد منّا للآخر حقيقة يا سيدي، علينا أن نكون كلانا كلياً لبعضنا.

- أنت على حق أيتها الكونتس، فقد أسأت فهمك مرة أحرى، ولكني أقسم لك بأنها ستكون الأخيرة.

وأمسك الكردينال بيد الكونتس وقبّلها باحترام بالغ ، وقد فاتته ابتسامة المكر والخداع التي ارتسمت على شفتيها .

ثم نهضت جانّ وشيّعت الأمير الى غرفة الانتظار ، حيث سألها بصوت يشبه الهمس :

– ماذا علي أن أفعل أيتها الكونتس ؟

– لا شيء ، انتظرني فقط .

– وهل ستذهبين الى فرساي ؟

– نعم .

– متى ؟

– غداً .

– وهل سأحصل على جواب ؟

– بكل تأكيد .

– هيّا أيتها الكونتس ، إني أضع نفسي تحت تصرفك .

– دعني أفعل .

وعند هذه الكلمة ، عادت جانّ الى غرفتها وارتمت على سريرها ، ودمدمت قائلة :

«حتماً ، الحرية أفضل .»

في قاعة الحمامات

★

بعد أن حظيت الكونتس دي لاموت بعطف الملكة، وأصبحت ثروتها شبه مؤمنة من قبل عشيقها الكردينال دي روهان، شعرت بأنها قد أصبحت قوية المركز وقوية الثقة بنفسها.

وبهذه الثقة سارت الى مقابلة ماري انطوانيت في قصر فرساي بدون إذن مسبق، وكأنها ذاهبة الى زيارة صديقة من صديقاتها.

وكانت ثقة جانّ في محلها. فضباط البلاط كلهم قد لاحظوا كم كانت الملكة مرتاحة ومسرورة وهي بصحبة الكونتس الجميلة. لذلك ما أن وصلت الى القصر، حتى أسرع حاجب ذكي وقال لرئيس الحرس:

«سيدي، كيف العمل وقد جاءت الكونتس دي لاموت فالوا وليس لديها إذن بالدخول؟»

وصادف أن كانت الملكة مارّة في تلك اللحظة وبرفقتها السيدة دي لامبال، فاستدارت نحو قائد الحرس، بعد أن تناهى الى مسمعها اسم الكونتس، وسألته:

- أما قيل بأن السيدة دي لاموت فالوا هنا ؟

- نعم يا مولاتي .

- من قال ذلك ؟

- هذا الحاجب يا سيدتي .

فانحنى الحاجب احتشاماً ، وقالت الملكة وهي تكمل طريقها :

- سوف أستقبل السيدة دي لاموت فالوا ، فأتوني بها الى قاعة الحمامات .

وأكملت الملكة طريقها .

وعندما عاد الحاجب وقصّ على جانّ ببساطة ما قام به وما قالته الملكة ، وضعت يدها فوراً على كيس نقودها ، إلا أن الحاجب أوقفها مبتسماً وقال لها :

- أرجو سيدتي الكونتس أن تحتفظ لي بهبتها ، وباستطاعتها فيما بعد أن تدفعها لي مع الفائدة .

فأعادت جان الدراهم الى جيبها وقالت له :

- أنت على حق يا صديقي ، فشكراً ولن أنساك .

وبعد برهة من الوقت كانت الكونتس في حضرة الملكة ، التي استقبلتها برزانة وبادرتها بقولها :

- لم أجد حتى الآن المناسبة كي أكلم الملك عليك .

فقالت الكونتس في نفسها: «لا شك أن الملكة قد اعتقدتني جئت أستعطي مرة ثانية.» ثم أجابت:

– إن جلالتك يا مولاتي قد كفَّت ووفَّت ولم أعد أنتظر شيئاً، فقط جئت...

فقالت الملكة:

– ماذا جئت تفعلين إن لم يكن لمقابلة الملك؟ ألم تطلبي مقابلة، ومقابلة مستعجلة... من أجلك؟

– مستعجلة... نعم يا سيدتي، ولكن من أجلي، لا.

– من أجل أنا إذن... هيا، تكلمي أيتها الكونتس.

وقادت الملكة جانّ الى قاعة الحمامات، حيث كانت نساؤها بانتظارها.

ولما رأت الكونتس نفسها محاطة بهؤلاء النسوة. لم تشأ أن تبدأ الحديث. ولكن عندما أصبحت الملكة داخل الحمام وصرفت نساءَها، قالت جانّ:

– لا شك يا مولاتي بأن جلالتك قد لاحظت ارتباكي.

– نعم، وكنت على وشك أن أسألك، فلماذا هذا الارتباك؟

– أعتقد بأن جلالتك على علم بالرعاية التي شملني بها الكردينال دي روهان، وبالفضل الذي طوَّق به عنقي مرغمة؟

فقطبت الملكة ما بين حاجبيها وأجابت:

- لا، لست على علم.

- كنت أعتقد...

- مهما يكن ... قولي.

- حسناً يا سيدتي. إن نيافته قد شرفني بزيارته قبل البارحة، وكان القصد من زيارته، عملاً نبيلاً وشريفاً...

- حسناً جداً أيتها الكونتس، وأنا أيضاً لن أتوانى تجاهك... في عمل مماثل.

- عفواً يا صاحبة الجلالة، فقد التبس الأمر عليك. إن نيافته لم يزرني كمحسن، بل جاء يحدثني، على عادته، عن طيبة قلب الملكة، وعن نعمها التي لا تنضب.

- وسأل إن كنت أساعد الذين يحميهم؟

- في أول الأمر، نعم يا صاحبة الجلالة.

- إن ما أقوم به ليس من أجل الكردينال، بل من أجل التعساء الذين أستقبلهم دائماً خير استقبال، من أية جهة جاؤوا. فقط قولي لنيافته بأني جدّ متضايقة.

فتأوهت جانّ وقالت:

- اليك ما قلته له يا سيدتي، وما هو سبب حيرتي...

- آه! آه!

- لقد عبّرت لحضرة الكردينال عن الرأفة التي تملأ قلب جلالتك كلما تبلغتِ نبأ مصيبة حلت بإنسان، وعن سخائك الذي لا يحدّ تجاه أصحاب الحظوظ العاثرة، مما سبَّب فراغ صندوقك الخاص من المال وجعلك في ضيق دائم.

- حسناً! حسناً!

- وقلت له أيضاً بأن صاحبة الجلالة قد أصبحت أسيرة رأفتها وحلمها، وهي تبذل نفسها من أجل الفقراء. لكن حدبها المستمرّ على الضعفاء والمساكين، قد أصبح مصدر عذابها وحرمانها. وقد حمَّلت نفسي مسؤولية قسط من هذا العذاب والحرمان...

- كيف ذلك أيتها الكونتس؟

- ذلك يا سيدتي أني قلت بأن جلالتك قد وهبتني مبلغاً كبيراً من المال منذ مدة قصيرة، وأن مثل هذا المبلغ قد وهبته الملكة ألف مرة منذ سنتين، ولو كانت الملكة أقل شفقة وإنسانية وسخاء، لكان الآن في صندوقها مليونان من الليرات على الأقل، ولما كان هناك أي اعتبار يمنعها من اقتناء ذلك العقد الماسي الرائع، الذي رفضته وحرمت نفسها منه بسبب كرمها الذي أفرغ صندوقها.

فاحمرت الملكة وأخذت تنظر الى جانّ وتحلل عبارتها الأخيرة وتتساءل: هل هي فخّ؟ أم هي مجرد تملق؟

لكن جلالتها تبيَّنت البراءة وسلامة النية في وجه جانّ، ولم يكن هناك ما يدل على أنها مخادعة ومحتالة. ولما كانت الملكة في الواقع جوَّادة وكريمة، ولما كانت الشجاعة والصدق من شيم الكرام. فقد تنهدت ماري انطوانيت وقالت:

- نعم، إن العقد رائع أيتها الكونتس، ويسرني أن تكون امرأة ذواقة مثلك قد امتدحتني لأني رفضته.

- آه لو تقفين في هكذا مناسبة يا سيدتي، على شعور الذين يحبون تجاه الذين يحبونهم.

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- أريد أن أقول يا سيدتي، بأنه ما أن بلغ خبر تضحيتك البطلة بالعقد مسمع الكردينال دي روهان، حتى اصفرّ اصفرار الأموات.

- اصفرّ!..

- وفي ذات اللحظة، امتلأت عيناه بالدموع ... لا أعلم يا سيدتي إن كان الأمير دي روهان رجلاً وسيماً وسيداً لا عيب فيه كما يزعم الكثيرون، لكنّ ما كان عليه منذ برهة قصيرة لا يفارق مخيلتي مدى الحياة.

- ما الذي كان عليه؟

- كان وجهه مضاء بنور عواطفه الصادقة، والدموع التي أثارها ترفُّعك النبيل والشهم، تكرج على خديه...

فصمتت الملكة برهة كانت خلالها تنظر الى المياه المتساقطة من منقاد الإوزة الذهبية اللون كلما غطّسته في مغطسها المرمري، ثم قالت:

- حسناً أيتها الكونتس، طالما أن الكردينال دي روهان قد بدا لك وسيماً وكاملاً الى الدرجة التي أفصحت لي عنها، فلن أدعك بعد الآن تتورطين في استقباله، فهو حبر دنيوي، وراعٍ يرعى النعجة من أجل نفسه أكثر مما يرعاها من أجل المولى.

- أوه! سيدتي!

- لما العجب؟ هل افتريتُ عليه؟ أليست هذه هي سمعته التي يفتخر بها؟ ألم تشاهديه أيام الاحتفالات، كيف يحرك يديه الجميلتين في الهواء كي تصبحا اكثر بياضاً، وحتى إذا ما برق الخاتم الماسي في إصبعه، أصبحت عيون الورعات أشدّ بريقاً من خاتم الكردينال؟

فأحنت جانّ رأسها، وتابعت الملكة تقول غاضبة:

- إن غنائم الكردينال كثيرة، وبعضها أثار الفضائح. فالحبر هو رجل شَبِق كأهل الفروند. أما الثناء الذي يتوخاه، فليس هنا مكانه الصالح.

فقالت جانّ وقد شجعها ذلك الجو العائلي على الكلام، كما شجعها أيضاً وضع الملكة المادي:

- عجباً يا سيدتي، فعندما كان الكردينال يحدثني بحرارة عن فضائل جلالتك، لم ألاحظ بأنه كان يفكر بالورعات. بل كل ما لاحظته، هو أنه عوضاً عن أن تكون يداه الجميلتان في الهواء، كانتا تضغطان على قلبه...

فهزت الملكة رأسها وأخذت تضحك قسراً. فقالت جانّ في نفسها: «إنها تضحك طوعاً ولو تهكماً! فهل تجري الأمور أفضل مما كنت أنتظر؟ وهل سيكون الغيظ مساعداً لي؟ أوه! سوف أحصل على تسهيلات كثيرة إذن.»

وعادت الملكة فاتخذت هيئة المرأة النبيلة وغير المبالية، وقالت: أكملي أيتها الكونتس.

فقالت جانّ: إن جلالتك قد جمدتني. فتواضعك يرفض حتى الثناء...

- نعم، حتى ثناء الكردينال!

- ولكن، لماذا يا سيدتي؟

- لأن هذا الثناء يريبني أيتها الكونتس.

فأجابت جانّ ببالغ الاحترام:

- أنا لا يحق لي أن أدافع عن الذي كان تعيساً كفاية لأنه

لم ينل حظوة جلالتك. ومما لا شك فيه أنه مذنب، لأنه أغاظ الملكة.

- إن السيد دي روهان لم يغظني، بل أهانني. ولكن بما أني ملكة مسيحية، تضاعف واجبي كي أغفر له إهاناته.

قالت الملكة هذا الكلام بتلك الطيبة المهيبة التي لا تتوفر لسواها.

ولما لم تحر جانّ جواباً، سألتها:

- لماذا صمتٌ؟

- أخشى يا سيدتي إن استمريت في التعبير عن رأيي الذي يخالف رأيك، أن أصبح مريبة أنا أيضاً، فاستحق من جلالتك زوال الحظوة والتأنيب.

- وهل إن اعتقادك بالكردينال يخالف اعتقادي؟

- تماماً يا سيدتي.

- أنا واثقة بأنك لن تقولي هذا الكلام يوم تعلمين ما الذي فعله بي الأمير لويس.

- أنا لست مطلعة إلا على ما فعله من أجل خدمة جلالتك.

- مغازلات؟

فأحنت جانّ رأسها، وأكملت الملكة تقول:

- ملاطفات، تمنيات، مجاملات؟

فبقيت جان صامتة. وتابعت الملكة كلامها:

- يظهر أنك تكنين محبة قوية للسيد دي روهان أيتها الكونتس، لذا سأتوقف عن مهاجمته أمامك.

وأخذت الملكة تضحك ... فقالت جانّ:

- كنت أفضّل غضبك على مزاحك يا سيدتي. فحقيقة ما يشعر به الكردينال تجاه جلالتك، هو العاطفة المفرطة في الاحترام. وأنا جدّ واثقة، بأنه لو رأى الملكة تسخر منه، لفضّل الموت على الحياة.

- أوه! أوه! إذن لقد تغيَّر كثيراً.

- بالطبع تغيَّر يا سيدتي، فمنذ أكثر من عشر سنوات كان كما تتصورينه، أما الآن ...

فقالت الملكة بقساوة:

- هل صدقت مزحتي أيتها الكونتس؟

فأرغمت جانّ على الصمت، وبدت للملكة كأنها استسلمت في دفاعها عن الكردينال. لكن ماري انطوانيت كانت مخدوعة تماماً. فجانّ دي لاموت هي من النساء اللواتي لهنّ طبيعة النمر والحية. فالنمر والحية عندما ينطويان على نفسيهما، تكون تلك اللحظة لحظة الاستعداد للتوثب. وهكذا كانت حال الكونتس عندما استأنفت الملكة الحديث، فقالت بتهور:

– أنت تتحدثين عن هذا العقد أيتها الكونتس وكأنك ما زلت تفكرين بماساته.

فأجابت جان بفرح الجنرال الذي يرى خصمه قد ارتكب خطأً تكتيكياً في المعركة الحاسمة.

– ليلاً نهاراً يا سيدتي، فحبات الماس هذه، هي من الروعة بحيث لا يجوز أن تتألق إلا على جيد جلالتك.

– كيف ذلك؟

– نعم يا سيدتي، نعم، على جيد جلالتك.

– ولكن العقد قد ابتاعه سفير البرتغال.

فهزّت جانّ رأسها وابتسمت بدهاء، فسألتها الملكة فرحة:

– لا؟

– لا يا سيدتي.

– من اشتراه إذن؟

– لقد اشتراه الكردينال دي روهان يا سيدتي...

فقفزت الملكة من مكانها وصاحت وقد تثبَّطت عزيمتها:

– آه!

فقالت جانّ ببلاغة اعتادت عليها في مثل هكذا موقف:

– ثقي يا سيدتي بأن ما فعله الأمير دي روهان هو عمل جزيل يدل على أريحتيه وطيب قلبه، وصنيعه هذا لا يجوز أن

تقابله نفس كنفس جلالتك إلا بالتقدير والعطف . فهو ما كاد يعلم مني ، وأنا اعترف لك بذلك ، بالعسر المالي الموقت الذي يزعج جلالتك ...

ثم عمدت إلى حركة تدل على عظم دهشتها وتابعت تقول :

«كيف ذلك ! أترفض ملكة فرنسا ما لا تقدم على رفضه امرأة مزارع ؟ كيف ذلك ! أيجوز للملكة فرنسا ، أن تعرّض نفسها في يوم من الأيام ، لرؤية امرأة صيرفيّ أو وزير ، وهي متزينة بهذه الحلية الفريدة ؟»

ثم ضاعفت جانّ سخطها المصطنع وتابعت تقول :

«ليست المسألة مسألة إسعاد الملكة ، بل مسألة كرامتها . فأنا أعرف ذهنية البلاطات الأجنبية القائمة على التفاخر والتباهي . فسوف تهزأ هذه البلاطات من ملكة فرنسا التي لا تملك المال الكافي لإرضاء ذوقها إرضاءً مشروعاً . وأنا ، سيؤلمني هذا الهزء كثيراً كما سيؤلم الكردينال ، لذلك ما أن علم مني بالصفقة التي كادت تتمّ بين سفير البرتغال والسيدين بوهمير وبوسانج ، حتى تركني فوراً ، وبعد ساعة ، علمت بأنه قد اشترى العقد .»

فسألتها الملكة :

– بمليون ونصف المليون ؟

– بل بمليون وستماية ألف ليرة .

– وما هو قصده من شرائه ؟

– قصده أن لا يكون العقد لامرأة أخرى ، إن لم يكن لجلالتك .

– وهل أنت أكيدة بأنه لم يشتره ليقدمه لإحدى عشيقاته ؟

– أنا أكثر من أكيدة بأن غايته من شرائه هو أن لا يراه يتألق على عنق سوى عنق الملكة .

فقالت الملكة :

– إن ما قام به الأمير دي روهان لهو عمل جميل وبادرة نبيلة تستحق التقدير .

فاهتزّ كيان جانّ لهذا الكلام ورقص قلبها فرحاً ، وأكملت الملكة تقول :

– إذن ، سوف تشكرين الأمير دي روهان .

– أوه ! طبعاً يا سيدتي .

– وبالإضافة إلى الشكر ، قولي للأمير دي روهان بأنه قد ثبتت لي محبته ، وسوف أقبل هذه المحبة وأبادله بمثلها . كذلك سوف أقبل ، ولكن ليس هبته...

– ماذا إذن ؟

– سوف أقبل سلفته ... فقد شاء أن يقدم ماله أو اعتماده

كي يسعدني ، لكني سأفيه حقه . وأعتقد أن بوهمير كان قد طلب عربوناً ؟

- نعم يا مولاتي .

- كم ؟ مئتا ألف ليرة ؟

- بل مئتان وخمسون الف ليرة .

- إنه المبلغ الذي خصَّصه لي الملك كمرتب عن كل فصل من فصول السنة ، وها إني قد تلقيت اليوم مرتبي الجديد مقدماً . أرجوك أيتها الكونتس ، إفتحي هذا الدرج .

- الأول يا مولاتي ؟

- لا ، الثاني .

ففعلت الكونتس ، وسألتها الملكة :

- هل رأيت محفظة ؟

- ها هي يا مولاتي .

- إنها تحتوي على مئتين وخمسين الف ليرة . عدّيها أيتها الكونتس .

فأطاعت جانّ وعدَّت ما فيها . ثم قالت لها ماري انطوانيت :

- خذي هذا المبلغ الى الكردينال واشكريه ، وقولي له بأني سوف أؤمن له مثل هذا المبلغ كل شهر ، ومع الفائدة . وبهذه

الطريقة سأحصل على العقد الذي أُعجبت به كثيراً، ولا بأس إن ضايقت نفسي، فالمهم أن لا أضايق الملك.

وبعد أن استغرقت في التأمل لمدة دقيقة واحدة، أكملت تقول:

- وبذلك أكون قد ربحت صديقاً رهيف الإحساس قدَّم لي خدمة جلّى...

وانتظرت جانّ نصيبها من الثناء... فتابعت الملكة تقول وهي تمدُّ يدها إلى الكونتس:

- وصديقة برهنت أنها تحبني حتى العبادة.

فطابت نفس جانّ وقبّلت يد الملكة وهمّت بالانصراف. إلا أن ماري انطوانيت استوقفتها وقالت لها واجفة وبصوت يشبه الهمس:

- بلّغي الأمير دي روهان بأن قصر فرساي يرحب به، وأني أريد أن أشكره شخصياً.

فانحنت جانّ وخرجت مترنحة، ولكن ليس من السكر، بل من الفرح والاعتزاز.

خرجت وهي تضغط على الأوراق النقدية كما يضغط النسر على فريسته من الطرائد.

محفظة الملكة

★

لم يكن الكردينال دي روهان قد خرج من قصره بعد عندما وصلت اليه السيدة دي لاموت فوجدته غاصاً برجاله وأنصاره ، لذا بُلِّغ عن وصولها بطريقة بروتوكولية لم تلق مثيلها لدى الملكة . وعندما مثلت بين يديه ، بادرها الكردينال بقوله :

- هل أنت آتية من فرساي أيتها الكونتس ؟

- نعم يا سيدي .

وكان منظرها لا ينبئ بشيء . فأخذ الكردينال يتفرسها ، فلاحظ عليها مسحة من الهلع والحزن وانحراف المزاج ، فقال لها :

- ما وراءك ؟

- ماذا تريد أن يكون ورائي ؟

- إن هيئتك محزنة !

- لا بأس . هل تريدني أن أقابل الملكة ؟

- نعم .

- لقد قابلتها .

- وعمّا حدثتك ؟

- لقد حدثتني عنك .

- وأنت ، هل حدثتها عني بما يرضيني ؟

- طبعاً .

- وهل أصغت الملكة ؟

- ذلك يستحق شرحاً مستفيضاً .

- لا تقولي لي أية كلمة أيتها الكونتس ، فأنا أعرف مقدار ما تكنّه لي من كره...

- لا ، ليس كثيراً ... فقد تجرأتُ وكلمتها على العقد .

- وهل تجرأت وقلت بأني فكرت...

- بشرائه لها ، نعم .

- أوه ! ذلك عظيم أيتها الكونتس ! وهل أصغت إليك ؟

- كل الإصغاء .

- هل قلت لها بأني سأقدم لها هذا العقد تقدمة ؟

- قلت ... ولكنها رفضت .

- يا لضيعة أمالي !..

- رفضت أن تقبل الهبة ، أما القرض...

- القرض ؟... وهل عرضت عليها ذلك بلباقة ؟

- بلباقة كبيرة ، وقد قبلت .

– قبلت الملكة أن أقرضها، أنا ... هل ذلك ممكن أيتها الكونتس؟

– إنه أكثر مما كنت تنتظر، أليس كذلك؟

– ألف مرة.

وتقدم الكردينال من جانّ وأمسك بيديها الاثنتين وجعل يقبلهما ويقول:

– لا تخدعيني أيتها الكونتس، واعلمي أن كلمة واحدة منك، باستطاعتها أن تجعلني في مؤخرة الرجال.

– أنا لا أتلاعب بالأهواء يا سيدي. فأنت رجل ذو مكانة، ولا تستحق أبداً أن تكون موضع هزء أحد.

– هذا صحيح. إذن إن ما قلته...

– هو الحقيقة بعينها.

– أأصبحت مؤتمناً على سرّ الملكة؟

– وهو سرٌّ ... قاتل!

فأسرع الكردينال الى جانّ وضغط على يدها بحنوّ، فقالت الكونتس:

– كم أُحب هذه المصافحة، إنها من رجل لرجل.

– إنها من رجل سعيد، الى ملاك حارس.

– لا تغالي يا سيدي.

فتنهد الكردينال وقال:

- أوه! إذا تمَّ لي ما أشتهي...

- سوف يتمّ، وما عليك إلا أن تقرض الملكة مليوناً ونصف المليون. فالملكة يسرها أن تراك في فرساي، وهذا ما أمرتني أن أبلغك إياه.

فما كادت جانّ تفوه بهذه الكلمات، حتى ارتعش الكردينال واحمرّ كأنه مراهق يقبل فتاة أحلامه لأول مرة، ثم ارتمى كالسكران على أول مقعد تلمّسه!

فقالت جانّ في نفسها:

«آه! آه! إن الأمر فيه من الجدية أكثر مما كنت أتصور. فقد كنت أحلم بدوقية إيرادها مئة ألف ليرة، ولكنني سوف أحصل على إقطاعية لا يقل ريعها عن نصف مليون، لأن السيد دي روهان لا يطمح بشيء سوى الحب!

وعاد دي روهان إلى روعه بسرعة، لأن الفرح ليس مرضاً كي يدوم طويلاً. ولما كان ذا روح قوية، رأى أنه من المناسب وصل ما انقطع مع جانّ، فطوقها بذراعيه وقال لها:

- ماذا تنوي الملكة أن تعمل بهذا القرض الذي اقترحته عليها يا صديقتي؟

- أتسألني هذا السؤال لأن صندوق الملكة فارغ؟

- تماماً.

- حسناً! إن الملكة ستدفع لك كما أنها تدفع لبوهمير.

مع فارق بسيط ، هو أنها لو اشترت العقد من بوهمير لعرفت كل باريس وأثار شراؤها للعقد ضجة ليست في مصلحتها . لذلك تريد أن تشتري هذا العقد بالتقسيط وأن تدفع ثمنه بالتقسيط ، وأنت ستكون لها كأمين صندوق كتوم وقادر على وفاء الدين إذا ما وجدت نفسها في ضيق . وبالإختصار ، إن الملكة سعيدة ودفِّيعة ، فلا حاجة للاستزادة .

- دفّيعة ، كيف ؟

- إن الملكة امرأة ذات نفس أبية يا سيدي ، وليست صديقة تتقبل الهدايا ... فعندما قلت لها بأنك دفعت مقدماً مئتين وخمسين الف ليرة...

- وهل قلت لها ذلك؟

- لِمَ لا ؟

- لأن هذا ما سيجعل المشروع يفشل .

- بالعكس ، هذا ما سيجعله مقبولاً من الملكة ، فلا شيء مقابل لا شيء ، هذا هو شعار الملكة .

- يا إلهي !

فمدَّت جانّ يدها باطمئنان الى جيبها وسحبت محفظة الملكة . فقال لها الأمير دي روهان :

- ما هذا ؟

- محفظة تحتوي على مئتين وخمسين الف ليرة، بعثت بها الملكة إليك مع الشكر الجزيل.

- أوه!

- ما لك؟ وبما أنت تحملق؟

- بهذه المحفظة.

- وهل أعجبتك؟

- نعم، ولا أعرف لماذا!

- إنك صاحب ذوق سلم.

- هل تسخرين مني؟ ما الذي دعاك لأن تقولي عني بأني صاحب ذوق سليم؟

- لأن ذوقك مطابق لذوق الملكة.

- هذه المحفظة...

- كانت للملكة يا سيدي...

- وهل أنت متمسكة بها؟

- أوه! كثيراً.

فتنهد الكردينال دي روهان وقال:

- يا لسوء حظي!

فقالت له الكونتس وهي تبتسم تلك الابتسامة التي تضعضع القديسين:

- ومع ذلك، إذا كانت مجلبة لسرورك...

- أنت لا تشكين بذلك أيتها الكونتس، ولكني لا أريد حرمانك منها.

- خذها.

فصاح الكردينال مدفوعاً بفرحه:

- كونتس! أنت الصديقة الأغلى، أنت الأكثر ذكاء ولطفاً، الأكثر...

- أجل، أجل...

- والصداقة فيما بيننا...

- مدى الحياة، حتى الموت! ولكن لا، فأنا لا أتمتع إلا بجدارة واحدة.

- ما هي!

- جدارة العمل على تحقيق مشاريعك بقليل من السعادة وكثير من الهمة.

- إن سعادتك مطلوبة مني أيتها الصديقة، وهي في رأس اهتماماتي. فبينما كنت أنت ذاهبة الى فرساي، كنت أنا أعمل من أجلك.

فنظرت جانّ الى الكردينال بدهشة، وتابع هو يقول:

- نعم، لقد جاء إلي صاحب المصرف الذي أتعامل معه، وعرض علي أسهماً تتعلق بمشروع تجفيف مستنقعات واستغلالها، فقبلت عرضه وخصصتك بخمسين سهماً، أي

بربع ما اشتريته. وبعد ساعتين، عاد صاحب المصرف ليخبرني، بأنه نتيجة للمضاربة في البورصة، قد ارتفعت قيمة الأسهم مئة بالمئة، فبعت ما اشتريته منها وربحت مئة الف ليرة.

- يا لها من مضاربة جميلة!

- وهذه حصتك من المئة الف ليرة أيتها الكونتس العزيزة،بل أيتها الصديقة العزيزة.

ولم يكتف الكردينال بما أعطاه لصديقته، فدسَّ أيضاً في يدها خمساً وعشرين ألف ليرة من المبلغ الذي أرسلته إليه الملكة، فصاحت الكونتس:

- يا لك من سخيّ يهب بلا حساب يا سيدي! إن كرمك قد جعلني أثق بأنك سوف تفكر بي دائماً.

فأجابها الكردينال وهو يقبل يدها:

- هكذا سأكون دائماً معك.

فقالت جانّ:

- وأنا سأبادلك بالمثل يا سيدي، أي عطاء بعطاء. أما الآن، فإلى اللقاء في فرساي.

وتركت جانّ دي لاموت الكردينال وذهبت، بعد أن أعطته لائحة بالاستحقاقات التي عيَّنت الملكة مواعيدها،

وكان موعد الاستحقاق الأول وقدره خمسماية الف ليرة، بعد مضيّ شهر واحد.

الطبيب لويس

★

لا شك أن القراء يتذكرون الحالة الصعبة التي تركنا فيها السيد دي شارني في غرفة الاستقبال في تلك الشقة الصغيرة في قصر فرساي، بعد أن هرب خوفاً من أن يُغمى عليه أمام ثلاث نساء، هن: الملكة، واندريه، والسيدة دي لاموت.

فعندما وصل دي شارني الى منتصف تلك الغرفة شعر بأن قواه قد خارت، ثم ترنح وسقط باسطاً يديه، فأسرع من شاهده على هذه الحالة إلى نجدته.

بعد هذه السقطة فقد الضابط الشاب وعيه. ولكن ما أن انقضت عدة لحظات حتى عاد الى رشده دون أن يساوره أي شك بأن الملكة قد رأته، وربما أسرعت إليه قلقة، إن لم تكن أندريه قد أوقفتها بدافع الغيرة الحادة أكثر مما هو بدافع الحرص على مكانة الملكة.

وفضلاً عن ذلك، قد تكون أندريه أمسكت بالملكة وأشارت عليها بالدخول الى غرفتها، مهما كان الشعور الذي

أملى عليها هذا الرأي . لأنه ما كاد الباب ينغلق على الملكة ، حتى تعالى صوت الحاجب يقول :

– الملك !

وفعلاً كان الملك في طريقه من أجنحته الخاصة الى شرفة القصر ليعاين ألبسته الخاصة بالصيد الذي أهمله منذ بعض الوقت ، قبل أن يجتمع بوزرائه للتشاور .

وكان الحارسان ، وهما يسندان السيد دي شارني ، يصيحان :

– سيدي ! سيدي ! ماذا دهاك ؟

لكن صوت المريض خانه ، وعصى عليه الجواب .

فعندما عرف الملك حقيقة الأمر ، حثّ خطاه باتجاه المريض وهو يقول :

– إيه ! إيه ! إنه رجل مغمى عليه .

فلما سمع الحارسان صوت الملك استدارا ، ومن فرط ذعرهما تراخت أيديهما فسقط دي شارني ، أو بالأحرى هما تركاه يسقط على البلاط ، فصاح بهما الملك :

– أوه ! ماذا عملتما أيها الحارسان ؟!

فأسرع الحارسان ورفعا دي شارني بتؤدة عن البلاط بعد أن فقد وعيه بصورة كاملة ، ومدداه على مقعد مريح .

وفجأة صاح الملك عندما عرف أن المغمى عليه هو الضابط الشاب دي شارني :

- أوه ! أوه ! مسيو دي شارني !

وصاح المسعفان أيضاً : مسيو دي شارني !

فقال الملك :

- نعم ، إنه ابن شقيقة السيد دي سيفران .

وكان لهذه الكلمات وقع السحر . فما هي إلا لحظة حتى كان دي شارني قد تبلل بالعطورات واستدعي على الفور طبيب قام بفحصه متأثراً ، وبحضور الملك الذي لم يشأ أن يفارقه قبل أن يطمئن إلى صحته ، ثم أسرع فنزع عنه سترته وقميصه كي يلامس الهواء صدره . ولكن ما أن فعل حتى عثر على ما لم يكن في حسبانه...

فصاح الملك بعد أن ضاعف اهتمامه واقترب من المريض أكثر لتتثبت عيناه :

- جرح !...

فدمدم دي شارني وهو يحاول أن ينهض :

- نعم ، جرح يا سيدي ، وهو جرح قديم لا أهمية له .

ثم ضغط يده على أصابع الطبيب بشكل خفي ، ففهم الطبيب معنى هذه الحركة ، إذ لم يكن طبيباً للبلاط بل جراح للعامة في فرساي ، فقال ولم يشأ إلا أن يعطي الأمر أهميته :

- أوه! قديم ... هذا ما يروق لك أن تقول يا سيدي، لكن الجرح ما زال دامياً، والدم ما زال قرمزي اللون. إنه جرح لم يمضِ عليه أربع وعشرون ساعة.

فأعادت هذه المناقضة إلى شارني قواه، فوقف على رجليه وقال:

- أكرر عليك القول يا سيدي بأنه جرح قديم، وأعتقد بأني أعلم الناس متى حدث لي هذا الجرح.

ثم لاحظ دي شارني وجود الملك الى جانبه، فوقف وقفة احترام، واعتراه الخجل لأن جلالته أيضاً قد اكتشف ضعفه، فصاح قائلاً:

- الملك!

فقال الملك:

- نعم يا سيد دي شارني، أنا بذاته. وإني أشكر السماء التي أرسلتني الى هنا كي أخفف قليلاً مما كنت عليه.

فتمتم شارني متلجلجاً:

- إنه خدش يا مولاي، جرح قديم يا مولاي، هذا كل شيء.

فقال لويس السادس عشر:

- قديم أو جديد، فالجرح قد أتاح لي مشاهدة دمك، وهو دم ثمين لبطل نبيل.

فحاول شارني أن ينهض ليثبت للملك بأن جرحه ليس بذي بال، إلا أن قواه خانته، فعاد وسقط على مقعده مضعضع الحواس.

فالتفت الملك عندئذ الى الطبيب وقال له:

- يبدو أنه جدٌّ مريض أيها الطبيب!

فقال الطبيب بأسلوب الدبلوماسي الذي يعرف مقدماً ما سيطلب منه:

- نعم يا مولاي، لكنني سوف أنقذه.

ورغم أن لويس السادس عشر قد عرف أن هناك سراً وراء هذا الجرح، فلم يشأ، لما عرف عنه من تهذيب وتصرف مشكور، إلا أن يبقى هذا السر دفيناً في أعماق صاحبه، فقال للطبيب:

- لا أريد أن يتعرض السيد دي شارني لأي خطر بالرجوع الى منزله. بل يجب أن تعتني به مشكوراً هنا في فرساي، وسوف نستدعي خاله السيد دي سيفران على جناح السرعة، كما أنني سأستدعي جرّاحي الخاص الدكتور لويس.

وللحال أسرع ضابط لينفذ أوامر الملك باستدعاء الطبيب المذكور، كما أسرع آخران بنقل دي شارني الى غرفة الحرس في طرف الرواق.

ولم يمض طويل وقت حتى كان الطبيب الجراح لويس قرب المريض ، كذلك خاله السيد دي سيفران الذي أبلغه النبأ أحد السعاة .

وعندما أمسك دي سيفران بيد شارني وتفرّس في عينيه الذابلتين ، قال للطبيب :

– عجيب !... هذه أول مرة يمرض فيها ابن أختي أيها الطبيب !

فأجابه الطبيب :

– هذا القول يعوزه الدليل يا سيدي .

– الدليل هو أن «أوليفيا» بقي عشر سنوات يخوض غمار البحر قوياً نشيطاً ، ومستقيماً كالصاري . ومما لا شك فيه ، أن سبب مرضه هو مناخ فرساي الثقيل جداً والذي لم يتعوده .

فقال أحد الضباط الحاضرين :

– إن سبب مرضه هو جرحه...

فصاح الأميرال دي سيفران:

– تقول جرحه !.. إن أوليفيا لم يُجرح في حياته قط .

فأجاب الضابط المذكور وهو يريه جرح ابن أخته :

– أوه ! عفوك يا سيدي ، فقد كنت أعتقد ...

فقال الطبيب بعد أن رأى دي سيفران الدم ، وبعد أن شعر هو أن نبض المريض قد عاد الى الخفقان :

- لا تجادلا في منشأ مرضه يا سيديَّ، فالأهم من ذلك هو العمل على شفاء المريض إذا أمكن.

فسأل دي سيفران الطبيب وقد حاول إخفاء تأثره.

- هل حالته خطرة أيها الطبيب؟

- إن جرحه شبيه بالجرح الذي تحدثه الموسى في الذقن.

- حسناً. تفضلوا بتقديم شكري إلى جلالة الملك أيها السادة. أما أنت يا أوليفيا، فسوف أعود لرؤيتك ثانية.

فحرَّك أوليفيا عينيه وأصابعه كأنه يشكر، في آنٍ واحد، خاله الذي سيتركه، والطبيب الذي سمح له بأن يذهب...

وشعر دي شارني بالإرتياح والاطمئنان بعد أن أصبح ممدداً فوق سرير، وفي عهدة طبيب هو في غاية النباهة واللطف، فأظهر رغبته في الرقاد.

وعندذاك صرف الطبيب كل الحضور.

ولم تمض عدة دقائق حتى اشتدت الحمَّى عليه، فأُخذ «يهمدر» ويهذي بما حصل له مع فيليب، وبما حصل له مع الملكة، وبما حصل له مع الملك.

ثم تعالى صوته حتى وصل الى مسامع بعض الحراس الذين كانوا يتمشون في الرواق، فتنبَّه الطبيب واستدعى خادمه وأمره بلف الجريح بالبطانية وحمله. لكن أوليفيا مانع وأطلق

عدة صرخات تذمرية ، مما جعل الخادم يرتد إلى الوراء ويقول للطبيب :

- كيف العمل يا سيدي ؟ إنه ثقيل جداً ويقاوم بشدة . سوف أذهب وأستدعي واحداً من هؤلاء السادة الحراس كي يعاونني عليه .

فقال له الطبيب :

- أنت لست سوى دجاجة مبتلّة ، طالما أنك خائف من مريض .

- سيدي...

- وبما أنك وجدته ثقيلاً ، فهذا يعني أنك لست قوياً كما كنت أعتقد ، لذلك سأعيدك إلى مقاطعة أوفارنيا .

ويظهر أن تهديد الطبيب قد فعل فعله في نفس خادمه ، فاستجمع قواه وحمل شارني على مرأى من رجال الحرس وكأنه يحمل ريشة ، فيما كان شارني يصرخ ويقوم بحركات كثيرة .

فالتفّ رجال الحرس حول الطبيب وأخذوا يطرحون عليه الأسئلة المتعلقة بنقل الجريح ، فأجابهم الطبيب بصوت يشبه الصراخ كي يغطي صراخ شارني :

- تعلمون جيداً أيها السادة بأن رواقكم بعيد عن شقتي ،

وليس باستطاعتي المجيء كل ساعة كي أعود هذا المريض الذي عهد إلي جلالة الملك أمر العناية به .

– إذن ، إلى أين ستنقله ؟

– إلى شقتي ، حيث سأفرد له أحدى غرفتيَّ الاثنتين وأحتفظ لنفسي بالثانية .

فقال ضابط الحرس :

– ولكني أؤكد لك أيها الطبيب بأن المريض سيلقى هنا كل العناية ، فنحن كلنا نحب السيد دي سيفران ، و...

– طبعاً ، طبعاً . إني أعرف عناية الرفاق برفيقهم . فعندما يكون الجريح عطشاناً ، يقدمون له الماء ليشرب ، وهكذا تكون محبتهم له سبباً لموته ، كما حصل لعشرة جرحى حتى الآن !

وبعد أن أمر الطبيب خادمه بنقل شارني بسرعة إلى إحدى غرفتيه ، قال في نفسه :

«لا مفرّ من نقله ، ولكن ماذا إذا شاء الملك أن يراه ؟... يا للشيطان ! إنه إن فعل سيسمع كل شيء ... وهنا الطامة الكبرى . لذلك بات لزاماً علي أن أخطر الملكة وأن أعمل بنصيحتها .»

وهكذا بعد أن تمَّ نقل شارني ومدَّده الطبيب على سرير في إحدى غرفتي منزله ، وأقفل باب الغرفة جيداً عليه وعلى

خادمه الذي أوصاه به خيراً ووضع المفتاح في جيبه ، توجّه إلى جناح الملكة بعد أن تأكد بأن صراخ شارني لن يُفهم إن هو اخترق جدران الغرفة .

ولكنه ما أن خرج من تلك الغرفة حتى التقى أمام بابها السيدة ميزاري التي كانت موفدة من قبل الملكة للإطلاع على حالة الجريح . فقال لها الطبيب بعد أن ألحّت بالدخول عليه :

- تعالي ، تعالي يا سيدتي ، فأنا خارج ولا أستطيع التكلم معك .

- ولكن الملكة تنتظر أيها الطبيب !

- إني ذاهب إليها يا سيدتي .

- الملكة ترغب ...

- إن كل ما تريد معرفته ، سوف أقوله لها بنفسي ، فهيَّا يا سيدتي وعودي من حيث أتيت .

وهكذا أقنع الطبيب لويس السيدة دي ميزاري بالعودة الى جناح ماري انطوانيت ، فوصلته في ذات الوقت الذي وصل إليه الطبيب .

الرؤيا الأليمة

★

فيما كانت ماري انطوانيت تنتظر جواب السيدة دي ميزاري ، ولم تكن أبداً تنتظر الطبيب ، دخل هذا الأخير على الملكة بالدالة التي تعودها وقال لها بصوت مرتفع :

– إن المريض يا مولاتي ، الذي اهتمَّ الملك بأمره كما اهتمت جلالتك ، أخذت حالته تتحسن رغم الحمّى...

وكانت الملكة تعرف الطبيب جيداً ، وتعلم مقدار اشمئزازه من الذين يطلقون الصرخات بحرية تامة عندما يشعرون بشيء من المعاناة ، فسألته كامرأة قوية ومهيأة لأن تستخف بالرجال الأقوياء ، وذلك بعد أن تصورت أن حالة دي شارني قد ساءت قليلاً :

– إن جرح الجريح يثير الضحك...

فقال الطبيب مندهشاً :

– إيه ! إيه !

– إنه مجرد خدش...

– لا يا مولاتي ، لا . على كلٍ ، سواء أكان خدشاً أو جرحاً ، فالحاصل أن المريض تنتابه الحمّى .

– يا له من مسكين! وهل هي حمَّى قوية؟

– إنها حمَّى مخيفة!

فقالت الملكة مرتعبة:

– يا للعجب! لم أكن أعتقد أنه هكذا ... على الفور ... الحمَّى ... فابتسم الطبيب وأجاب:

– هناك حمَّى، وحمَّى...

– إنك تخيفني يا عزيزي لويس! فأنت الذي اعتدت أن تكون مطمئناً ومشجعاً، لا أدري في الحقيقة ما الذي دهاك هذا المساء!

– لا شيء غير مألوف.

– كيف! وأنت مثلاً تتلفت يميناً وشمالاً، وهيئتك تدل على أنك تود البوح لي بسرّ خطير.

– ربما...

– وهل للحمَّى علاقة بهذا السر؟

– نعم يا مولاتي.

– الحمَّى التي تنتاب السيد دي شارني؟

– نعم يا مولاتي.

– وقد جئتني بخصوص هذا السر؟

– نعم يا مولاتي.

– إذن ، عجّل وافصح عما تريد قوله ، فأنا فضولية كما تعهدني .

– أرجو مولاتي أن تطرح علي ما تشاء من الأسئلة ، وأنا على استعداد للإجابة بدون أي تحفظ .

– حسناً ، وإليك السؤال الاول : كيف تتطور حمّى السيد دي شارني ؟

– لا ، إن المنطلق في طرح الأسئلة مغلوط . فمن الأفضل أن تسأليني أولاً ، لماذا نقلت السيد دي شارني إلى شقتي المكونة من غرفتين صغيرتين ، ولم أُبقه في الرواق أو في مركز الحراسة .

– ليكن . فما هو السبب ؟

– لم أشأ يا مولاتي أن أترك السيد دي شارني في الرواق أو مركز الحراسة كما شئت أنت ، لأن السيد دي شارني ليس محموماً عادياً .

فقامت الملكة بحركة تدل على دهشتها ، وقالت :

– ما الذي تريد قوله ؟

– أريد أن أقول ، بأن السيد دي شارني ما أن انتابته الحمّى ، حتى أخذ يهذي ...

فضمت الملكة يديها وقالت :

– أوه !

فاقترب الدكتور لويس من ماري انطوانيت، وتابع يقول:

- وعندما أخذ يهذي ذلك الشاب المسكين، فاه بأمور هي في غاية الخطورة، ولا يجوز أبداً أن يسمعها حراس الملك أو أي شخص آخر.

- ماذا تقول أيها الطبيب!

- أرجو مولاتي أن لا تطرح عليَّ الأسئلة، إذا لم تكن تريدني أن أجاوبها بصراحة.

- لا أيها الطبيب العزيز، قل ما تشاء.

ثم أخذت الملكة بيد العالم الطيب القلب وقالت له:

- إن دي شارني هو شاب ملحد، فربما يكون قد جدَّف أثناء هذيانه.

- لا أبداً، أبداً. بالعكس، إنه جدٌّ متعلق بمبادئ الدين.

- هل هناك إثارة في تصوراته الذهنية؟

- إن كلمة إثارة مطابقة للواقع.

فتجهم وجه الملكة وسيطرت على رباطة جأشها بشكل رائع كما اعتاد أن يفعل الأمراء دائماً ليحتفظوا باحترام الغير لهم وتقديرهم، وهي خاصة من خصائص الكبار على هذه الأرض كي تستمر هيمنتهم ولا يفتضحوا، ثم قالت:

- إن للسيد دي شارني معزَّة خاصة لدي، فهو عدا كونه ابن شقيقة بطلنا السيد دي سيفران، قد أدَّى لي بعض

الخدمات. لذا أودُّ أن أكون بالنسبة إليه كقرينة وصديقة. فقل لي إذن الحقيقة، إني أتوق لسماعها.

فأجاب الدكتور لويس:

- لكني أنا، لا أستطيع أن أقول لك هذه الحقيقة. أما وأن جلالتك يهمها كثيراً أن تقف عليها، فلا أرى لتحقيق ذلك سوى وسيلة واحدة، هي أن تسمع جلالتك بنفسها... وبهذه الطريقة، إذا فاه السيد دي شارني بشيء معيب، فالملكة لن تحقد لا على الذي باح بالسر، ولا على الذي كتمه ولم يدعه يتفشى.

فصاحت الملكة:

- إني أحرص على صداقتك أيها الطبيب العزيز، وأعتقد منذ الآن بأن السيد دي شارني قد تلفظ بأمور غريبة في هذيانه...

فقال الطبيب:

- أمور من الضروري أن تسمعها جلالتك لتقدر أهميتها.

قال هذا وأخذ برفق يد الملكة المرتعشة، فصاحت تقول:

- ولكن حذار! فلن أسير خطوة من هنا إلا إذا ثبت لي أني غير متبوعة بأحد الجواسيس.

- ثقي يا مولاتي بأنه لن يرافقك سواي. والممشى الذي سنجتازه كي نصل الى شقتي المتواضعة، يبدأ بباب، وينتهي

بباب آخر، وسوف أغلق الباب الذي سندخل منه بحيث لا يكون أحد بالقرب منّا.

فقالت الملكة:

- إني أسلم نفسي إليك يا طبيبي العزيز.

وأمسكت ماري أنطوانيت بيد الطبيب لويس وانزلقت خارج الأجنحة خافقة القلب واجفة...

وقد برَّ الطبيب بوعده، فأغلق الباب الأول الذي دخلا منه وتقدم من الثاني وألصق عليه أذنه، فسألته الملكة:

- ماذا؟ أفي هذه الغرفة مريضك؟

- لا يا مولاتي، إنه في الغرفة الثانية. أوه! لو كان في هذه الغرفة لسمعت صوته من أول الممشى. ومع ذلك، استرقي السمع من هذا الباب.

فأصغت الملكة، فسمعت همهمة وأنيناً غير واضحين، فقالت:

- إنه يئن، إنه يتألم يا دكتور.

- لا، لا، إنه لا يئن أبداً. إنه يتكلم جيداً ... استعدي، سوف أفتح هذا الباب.

فصاحت الملكة وهي ترتدُّ الى الوراء:

- ولكني لا أريد الدخول إلى قربه.

فقال لها الطبيب:

- لن أقترح عليك ذلك يا مولاتي، فقط ستلجين الغرفة الاولى، ومنها ستسمعين كل ما يقوله الجريح من دون خوف، ومن دون أن يراك أو ترينه.

فدمدمت الملكة قائلة:

- إن كل هذه الألغاز، وكل هذه التمهيدات، تخيفني!

فأجابها الطبيب:

- ماذا ستقولين إذن، عندما تسمعين!

ودخل الى غرفة شارني وحده، فوجده مبسوط اليدين كأنه جثة هامدة، وما زال يرتدي سرواله العسكري الذي كان الطبيب قد فكَّ زرداته، كما أن ساقيه الدقيقتين العصبيتين كانتا مكسوتين بجوربين من الحرير. فما أن شاهد الطبيب مقبلاً نحوه، حتى أخذ يحاول رفع رأسه الثقيل كالرصاص على المخدة، وأخذ العرق البارد يتصبب من جبهته ويبلل خصلات شعره المحلول على صدغيه.

لقد كان شارني في تلك الساعة مجرد فكرة وعاطفة، مجرد مشعل يشعّ نوره من عقله لينعكس على جسده المنهوك.

ولم نشبه شارني عبثاً بالمشعل. فهذا المشعل هو الوحيد الذي بقي يعمل فيه بشكل مدهش، ويلقي الضوء على أدق

التفاصيل التي لا تستطيع المخيلة وحدها أن تترجمها الى قصائد طويلة كما ترجمها مشعل عقله.

لقد كان شارني يروي على نفسه قصة لقائه في العربة بتلك « السيدة الألمانية » التي رافقها من باريس إلى فرساي... وكان يردد بصورة دائمة:

- ألمانية !.. ألمانية !..

فقال الطبيب:

- نعم ألمانية وعلى طريق فرساي، نحن نعرف ذلك.

فصاح شارني فجأة:

- إنها ملكة فرنسا !...

فقال الطبيب لويس وهو ينظر الى غرفة الملكة:

- إيه ! لا شيء سوى ذلك. فماذا تقولين يا مولاتي؟

ثم دمدم شارني قائلاً:

- إنه لفظيع أن يحب الانسان امرأة ملاكاً ! أن يحبها بجنون، أن يهبها حياته بدون أي مقابل، وأن لا يرى فيها إذا ما اقترب منها، سوى ملكة ترفل بالمخمل وتتحلى بالذهب والماس، سوى قطعة معدن أو قماش لا قلب لها !

فقال الطبيب وهو يطلق ضحكة مغتصبة:

- أوه !

لكن شارني أكمل وكأن أحداً لم يقاطعه:

«سأبقى أحبها تلك المرأة المتزوجة، سأبقى أحبها حباً وحشياً ينسيها كل شيء. سأبقى أحبها وأقول لها: لم يبق لدينا سوى بعض الأيام الجميلة على هذه البسيطة، فتعالي، تعالي يا معبودتي كي نرشف كؤوس الحب قبل أن يداهمنا الموت. هيّا! هيّا لنستفيد من بركات الحب».

بعد أن قال شارني هذا القول بهدوء وكأنه يتلو قصيدة غزلية، اهتاجت نفسه فجأة وصاح يقول:

«ولكن اولادها... إنها لن تترك ولديها!»

فقال الدكتور لويس وهو يمسح العرق عن جبهة الضابط الشاب... وبلهجة هي خليط من السخرية والشفقة:

– هنا تكمن العقبة الكأداء...

وأكمل شارني يقول وهو فاقد الشعور:

«الاولاد... الأولاد... يمكن خطفهم بسهولة بذيل معطف السفر. هيّا يا شارني، طالما أنك ستحمل الأم ذاتها بين ذراعيك وكأنها ريشة دُخَّلة. طالما أنك سترفعها دون أن تشعر بسوى رعشة حب، باستطاعتك أيضاً أَن تحمل اولاد ماري... آه!...»

وأطلق صرخة مرعبة وتابع يقول:

«أولاد الملك... إن نصف الكرة الأرضية ستهتز!..»

عند ذاك ترك الطبيب مريضه وعاد الى الملكة، فوجدها

واقفة ترتعش، وتلفها برودة شبيهة ببرودة الموت ... فأمسك بيدها المرتعشة كذلك، ولم ينبس ببنت شفة ... إلى أن قالت له هي :

- أنت على حق أيها الطبيب العزيز، فما سمعته هو أكثر من هذيان، هو خطر حقيقي ...

فقال لها الطبيب :

- أصغي ! أصغي يا مولاتي ...

- لا، لا أريد أن أسمع كلمة واحدة، زيادة على ما سمعته .

- لقد هدأت ثورة نفسه، ها هو يتهيأ للصلاة .

وبالفعل كان شارني قد جلس في سريره وضمَّ يديه إلى بعضهما وحدَّق بعينيه الواسعتين الحائرين في الفراغ، وأخذ يقول بصوت رخيم ومرتجّ :

« ماري، ماري، لقد شعرت جيداً بأنك أحببتني . أوه ! لن أقول ذلك أبداً . رجلك يا ماري، قد لامست رجلي في العربة، وشعرت بأنني سأموت . يدك انزلقت على يدي ... هناك ... هناك ... لن أقول ذلك أبداً . إنه سرّ حياتي ! إن دمي يسيل من جرحي يا ماري، لكن السرّ لن يخرج منه . لقد بلَّل عدوي سيفه بدمي، لكنه لم يعرف إلا القليل من سري، أنا . أما سرك أنت، فلم يعرف عنه شيئاً . إذن، لا

تخافي يا ماري، ولا تصارحيني حتى بحبك لي، لأنه لا جدوى من ذلك. فأنت ستحمرين خجلاً، وليس لديك ما تقولينه لي.»

فقال الطبيب:

- أوه! أوه! إذن لم يعد ذلك مجرد حمًّى وحسب. انظري كم هو هادئ وساكن... ذلك...

فقالت الملكة بقلق:

- ذلك ماذا؟

- ذلك انجذاب روحي يا مولاتي، انجذاب تمليه ذاكرة النفس عندما تتذكر السماء.

فدمدت الملكة وهي تحاول الهرب جدٌّ مضطربة:

- لقد سمعت كفاية...

فأمسك الطبيب بيدها وأوقفها بعنف وقال لها:

- مولاتي، مولاتي، ماذا تريدين أن تفعلي؟

- لا شيء... لا شيء أيها الطبيب.

- ولكن ماذا لو شاء الملك أن يرى المريض الذي يشمله برعايته؟

- آه! نعم... أوه! هنا المصيبة...

- ماذا تريديني أن أقول له؟

- لا أدري أيها الطبيب، ليست لدي أية فكرة. فهذا المشهد المريع قد أدمى فؤادي.

فقال الطبيب بصوت منخفض:

«وجعل قلبك يخفق خفقاناً شديداً ...»

فلم تجاوب الملكة، بل سحبت يدها من يد الطبيب وتوارت ...

حيث اكتشف الدكتور لويس بأن تشريح القلب أصعب من تشريح الجسد

★

أخذ الدكتور لويس ينظر الى الملكة صامتاً وهي تبتعد عنه، ثم قال في نفسه:

«في هذا العصر أسرار ليس اكتشافها من اختصاص العلم. فمن أجل البعض، عليَّ أن أتسلح بالمبضع كي أشفيه من دائه. أما البعض الآخر، أما مرضى القلوب، فهل سأستطيع شفاءَهم يا ترى؟»

ثم التفت الى شارني فرأى أن سورة الغضب قد زالت عنه. فتقدم منه وأطبق عينيه المفتوحتين الزائغتين، وأخذ

يرطب صدغيه بالماء والخل، ثم رتَّب كل ما في الغرفة ترتيباً يساعد على تغيير الجو وإشاعة البهجة في نفس المريض.

وما هي دقائق، حتى لاحظ الطبيب لويس بأن الهدوء قد أخذ يرتسم على قسمات الجريح، ثم استحالت دموعه الى تنهدات متباطئة، وكلامه الساخط الذي يتفلت من بين شفتيه الى مقاطع مبهمة، فقال في نفسه:

«نعم، نعم، ليس هناك تعاطف وحسب، بل تأثيرات نفسية مكبوتة في أعماق قلبه، وقد انفجرت دفعة واحدة.»

وفجأة ارتعش الدكتور لويس واستدار نصف استدارة وأصغى بكل جوارحه، ثم دمدم قائلاً:

- إيه! من هناك ؟!

فالواقع أنه سمع حركة وحفيف ثوب في طرف الممشى، فقال مخاطباً نفسه:

«من غير المعقول أن تكون الملكة قد عادت...»

ثم قام ومشى ببطء وفتح باباً ثانياً يفضي أيضاً إلى الممشى، وتطاول برأسه دون أن تصدر عنه أية نأمة، فرأى على بعد عشر خطوات منه، امرأة ترتدي الثياب الطويلة وتقف جامدة كأنها تمثال يجسد اليأس والغم الشديد.

وكان الوقت ليلاً، والضوء الخافت الموجود في الممشى ليس بمقدوره أن يضيء طرفيه. إلا أنه كانت هناك نافذة

يتسرب نور القمر منها كلما انفرجت الغيوم، فيجعل رؤية هذه المرأة ممكنة.

لذا دخل الطبيب بهدوء واجتاز الفسحة الفاصلة ما بين البابين، ثم بسرعة ومن دون ضجة، فتح الباب الذي كانت تلك المرأة تختبئ وراءه... فأطلقت المرأة لحظتذاك صرخة مخنوقة وبسطت يديها لتلتقي يدي الدكتور لويس، الذي صاح بصوت فيه من الشفقة أكثر مما فيه من التهديد، ذلك لأنه تيقَّن بأن هذا الشبح الجامد، كان يصيخ بقلبه أكثر مما كان يصيخ بأذنيه:

- من هنا؟

فأجابه صوت ناعم حزين:

- أنا يا دكتور، أنا! أندريه دي تافرني!

فصاح الطبيب:

- آه! يا إلهي! هل هي مريضة؟

فقالت أندريه:

- هي!.. من هي؟

فأجابها الطبيب، وقد شعر بأنه ارتكب حماقة:

- عفواً... ولكني رأيت الساعة امرأة تبتعد، فهل كنت أنت هذه المرأة؟

فقالت أندريه:

- آه! نعم، لقد جاءت امرأة قبلي إلى هنا، أليس كذلك؟

وقد تلفظت أندريه بهذه الكلمات بفضول حارّ، أثبت للطبيب بما لا يقبل الشك، أن عواطفها الملتهبة هي التي أملت عليها هذا السؤال، فقال لها:

- يبدو لي يا ابنتي العزيزة، أنك تخشين الإفصاح. فعن من تتكلمين؟ وماذا تريدين مني؟ صارحيني!

فأجابته أندريه بلهجة حزينة اخترقت أعماق قلبه:

- لا تحاول أن تخدعني ايها الطبيب الطيب، يا من اعتاد أن يصارحني بالحقيقة. اعترف بأن امرأة كانت هنا الساعة. اعترف لي، خصوصاً وإني قد رأيتها.

- إيه! ومن قال لك بأنه لم يأت أي شخص؟

- نعم، ولكن هذا الشخص هو امرأة، امرأة يا دكتور.

- بدون شك، امرأة. إلا إذا كنت من أصحاب النظرية التي تقول بأن المرأة لا تعود مرأة بعد الأربعين.

فتنشقت أندريه الهواء ملياً لأول مرة، وقالت:

- آه! إن المرأة التي جاءت إذن، كانت في الأربعين من عمرها.

- عندما أقول أربعين سنة، فهذا يعني أني قد اسقطت من أصل الحساب خمس أو ست سنوات على الأقل. فعلى المرء

أن يكون ظريفاً مع صديقاته ، والسيدة دي ميزاري هي إحدى صديقاتي المفضلات .

– السيدة دي ميزاري ؟

– بدون شك .

– وهل هي التي جاءت ؟

– يا للشيطان ! ولماذا لا أقول لك إن كانت امرأة أخرى ؟

– أوه ! لأن ...

– في الواقع ، إن النساء كلهنَّ غامضات ! ومع ذلك ، وبالنسبة اليك شخصياً ، كنت أعتقد بأني قد خبرتك . ولكن تبين لي ، ويا للأسف ، بأني لا أعرف عنك سوى ما أعرفه عن غيرك من النساء .

– أيها الطبيب العزيز !

– كفى ، ولنكن واقعيين .

فتطلعت أندريه إليه بقلق ، فسألها الطبيب :

– هل وجدت صحتها قد ساءت ؟

– من تعني ؟

– بالتأكيد ، الملكة !

– الملكة !

– نعم ، الملكة . ومن أجلها جاءت السيدة دي ميزاري تبحث عني منذ قليل . الملكة التي تعاني من الاختناق وخفقان

القلب... إنه مرض مؤسف أيتها الآنسة، لأنه غير قابل للشفاء. فهات وحدثيني عنها، إن كنت آتية من قبلها، ولنسرع إلى قربها.

وقام الطبيب لويس بحركة تدل على عزمه ترك المكان. لكن أندريه أوقفته برفق، وقالت له بعد أن تنفست الصعداء:

- لا أيها الطبيب العزيز. أنا لست أبداً آتية من قبل الملكة، حتى أني أجهل ما تعانيه. مسكينة الملكة! فلو أني عرفتها تتألم... عفوك أيها الطبيب، فلم أعد أعي ما أقول.

- لقد تبينت ذلك ملياً.

- لست فقط لم أعد أعي ما أقول، بل أيضاً لم أعد أعي ما أفعل!

- هدئي من روعك يا ابنتي، فأنت منحرفة الصحة.

والواقع أن أندريه قد تركت يد الطبيب، وسقطت يدها الباردة على طول جسدها، ثم سقطت هي على الأرض.

فأنهضها الطبيب، وأخذ ينشطها ويشجعها. وكانت أندريه ذات روح قوية لم تضعفها الآلام الجسدية ولا الآلام المعنوية، لذلك قامت بمجهود جبار مكّنها من السيطرة على نفسها، ثم قالت للطبيب:

- أنت تعلم أيها الطبيب بأني عصبية، وبأن الظلمة تسبب

لي هلعاً شديداً؟ لقد أضلتني الظلمة، وكانت السبب فيما أنا عليه.

- ولكن لماذا عرَّضت نفسك لهذه الظلمة؟ ومن أجبرك على ولوجها، طالما أن أحداً لم يبعث بك إلى هنا، وطالما أن لا شيء دفع بك؟

- أنا لم أقل «لا شيء» أيها الطبيب، بل قلت ما من أحد...

- آه! آه! يظهر أن لديك حججاً دقيقة أيتها المريضة العزيزة. ولكن المكان هنا غير صالح لإبرازها. فلنذهب الى موضع آخر، خصوصاً إذا كان سردك لهذه الحجج سيطول.

- عشر دقائق أيها الطبيب، هذا كل ما أطلبه منك.

- لا بأس، ولكن ليس وقوفاً، فإن ساقيَّ لم تعد تقويان على حملي. لنذهب ونقعد.

- أين تريد؟

- على المقعد الخشبي في الممشى، إذا شئت.

فسألته أندريه بخوف:

- وهل تعتقد بأن ما من أحد سيسمعنا هناك، أيها الطبيب؟

- أبداً.

فأكملت أندريه بذات اللهجة، بعد أن أشارت الى الغرفة المضاءة بضوء خافت أزرق، وعليها تسمَّر بصرها :

– حتى الجريح الذي هناك ؟

فقال الطبيب :

– حتى ذلك الفتى المسكين. وأضيف فأقول بأنه إذا تمكن أحد من سماعنا، فبالتأكيد لن يكون ذلك الجريح .

فضمت أندريه يديها وقالت :

– يا إلهي ! إن مرضه إذن ما زال جدياً .

فقال لها الطبيب :

– الحقيقة أنه ليس كما يرام . ولكن لنتكلم عن الواقع الذي جاء بك إلى هنا . عجلي يا ابنتي، عجلي . فأنت تعلمين بأن الملكة بانتظاري .

فأطلقت أندريه تنهدة وقالت :

– حسناً أيها الطبيب، سأتكلم . إن الواقع هو ...

– من؟ مسيو دي شارني ؟

– نعم أيها الطبيب . وقد جئت استطلع أخباره منك .

فقابل الطبيب لويس كلام أندريه بالصمت والجمود، وأخذ يقارن بين موقف الملكة وموقفها، فثبت لديه بأن كلتا المرأتين تسيرهما عاطفة واحدة، هي عاطفة الحب العاصف .

واندريه التي كانت تجهل زيارة الملكة ولا تستطيع قراءة

أفكار الطبيب ، والوقوف على ما اعتراه من حزن شفوق ، فسرت صمته باللوم الصارم عليها ، فانتصبت كما اعتادت أن تفعل في مثل هكذا موقف ، وقطعت حبل الصمت بقولها :

- إن لتصرفي هذا مبرراً أيها الطبيب ، لأن مرض السيد دي شارني سببه جرح أصابه أثناء مبارزة ، والذي جرحه هو شقيقي .

فصاح الدكتور لويس :

- أخوك ! إنه السيد فيليب دي تافرني من جرح السيد دي شارني ؟

- بدون شك .

- أوه ! ولكني كنت أجهل ذلك .

- أما الآن وقد علمت ، فهلاً عذرتني لأني جئت استعلم عن حالته ؟

فأجابها الطبيب الطيب القلب ، وقد سرّه أن يجد فرصة لإظهار حلمه وتسامحه :

- أوه ! بالواقع يا ابنتي ، كنت أجهل ، ولم يكن بإمكاني أن أتنبأ عن السبب الحقيقي .

وشدد على الكلمات الأخيرة بشكل أثبت فيه لأندريه ، بأنه لم يوافق على تبريرها إلا مع التحفظ .

فقالت أندريه وهي تضغط بيديها الاثنتين على يد مخاطبها، وتنظر اليه وجهاً لوجه:

- هيّا، هيّا، أوضح أفكارك كلها.

- ولكني أوضحتها، إذ ما الداعي للتحفظات الذهنية؟

- إن مبارزة بين نبيلين، لهو أمر عادي قد يقع مثله كل يوم.

- بالطبع. والشيء الوحيد الذي ربما يعطي أهمية لهذه المبارزة، هو الدافع اليها، إذ إن أخاك ودي شارني قد تبارزا من اجل امرأة...

- من أجل امرأة أيها الطبيب؟

- نعم. من أجلك مثلاً.

فتنهدت أندريه من أعماق قلبها وقالت:

- لا أيها الطبيب، ليس من أجلي جرح السيد دي شارني.

- فبدا على الطبيب أنه ارتاح لهذا الجواب. ولكنه شاء، بشكل أو بآخر، أن يجد تفسيراً لتنهدة أندريه، فقال لها:

- إذن فهمت. فهو أخوك الذي أرسلك للإطلاع اطلاعاً وافياً على صحة الجريح.

فصاحت اندريه:

- نعم أيها الطبيب، إنه أخي!

فنظر اليها الطبيب متفرساً، وهمهم قائلاً:

« يا لك من امرأة لا يُسبر غورها ! ولكني سأكتشف خفايا قلبك .» ثم قال بصوت مرتفع :

– حسناً إذن ، سوف أقول لك كل الحقيقة ، كما يتوجب أن أقولها لكل شخص يهمه معرفتها . فانقليها إلى أخيك ، وليتخذ التدابير اللازمة... هل تفهمين ؟

– لا أيها الطبيب . فعبارتك « ليتخذ التدابير اللازمة » ، لم أفهم المقصود منها .

– المقصود ... أن المبارزة ليست أمراً مرغوباً فيه لدى الملك . وعندما ينتج عن مبارزة وفاة شخص من الاشخاص ، فلا يعود للشفقة مكان في قلب الملك . لذلك أنصحك بأن تقنعي أخاك بالتخفي احترازاً ...

فصاحت أندريه :

– دكتور ، دكتور ، هل هذا يعني بأن مسيو دي شارني في خطر ؟

– استمعي إليّ أيتها الآنسة العزيزة . فقد وعدتك بقول الحقيقة ، وها هي : أترين هذا الفتى المسكين النائم هناك ، أو بالأحرى الذي يحشرج في هذه الغرفة ؟

فأجابت أندريه بصوت مختنق :

– نعم أيها الطبيب ، وبعد ؟...

- وبعد! إذا لم تفارقه غداً صباحاً الحمّى التي تنهشه، فإن السيد دي شارني سيصبح في عداد الأموات.

فضغطت أندريه على حنجرتها لتخنق الصرخة التي أوشكت أن تتفلت منها، وغرزت أظافرها في لحمها لتخفف، بالألم الجسدي، قليلاً من ذلك اليأس الذي كان يمزق قلبها. وقالت للطبيب كإحدى نساء اسبرطة البطلات، ومن دون أن تتيح له رؤية نتيجة صراعها الداخلي على قسمات وجهها:

- إن أخي لن يهرب. فهو قد بارز السيد دي شارني كرجل شجاع ونبيل. فإذا ناله منه بعض الأذى، فذلك في معرض الدفاع عن النفس. أما إذا مات، فالله هو الذي سيقاضيه.

فقال الطبيب في نفسه:

« يبدو أنها لم تأت من أجل نفسها، بل من أجل الملكة. إذن، لنرى إن كانت الملكة قد بلغت هذه الخفة.»

ثم سألها:

- كيف علمت الملكة بهذه المبارزة؟

فأجابت أندريه:

- الملكة؟ لا أعلم. وما همُّ الملكة من هذه المبارزة؟

- ربما كان السيد دي تافرني يروق لها.

- إني أستغرب ذلك ! فأخي رجل عنيف ، وإذا وجهت التهمة إليه ، فأنا على ثقة بأن الملكة ستدافع عنه بنفسها .

فأنحى الدكتور لويس باللائمة على نفسه لتدخله فيما لا يعنيه ، وقال مخاطباً نفسه :

«أنا لست عالماً فيزيولوجياً ، أنا لست سوى جرّاح . فما الداعي لتدخلي في نزوات النساء وأهوائهن ؟»

ثم قال مخاطباً أندريه :

- لقد عرفت أيتها الآنسة ما ترغبين معرفته ، وبات هرب السيد دي تافرني أو عدم هربه شأن يعنيك وحدك . أما بالنسبة لي ، فواجبي ينحصر في محاولة إنقاذ الجريح ... هذه الليلة . وإلا ، فخلال أربع وعشرين ساعة سينتزعه الموت من بين يديَّ . وداعاً !

ثم أمسك بالباب وأخذ يغلقه بتؤدة ، ولكن بتصميم . فخرجت أندريه وهي تفرك جبهتها بأصابع يدها المتشنجة ...

خرجت لتجد نفسها وحيدة أمام الحقيقة المرعبة ، فتراءى لها شبح الموت المخيم على تلك الغرفة ، والذي حدثها عنه ببرودة الدكتور لويس ، تراءى لها يسير في ذلك الممشى المظلم مرتدياً كفناً أبيض ... فأسرعت بالهرب الى غرفتها وأقفلت بابها بالمفتاح جيداً . ثم ارتمت راكعة على السجادة

قرب سريرها، وصرخت من أعماق قلبها فيما كانت الدموع المحرقة تكرج على خديها:

«يا إلهي! إنك لست ظالماً ولا قاسياً. يا إلهي! باستطاعتك عمل كل شيء، فلا تدعه يموت هذا الشاب الذي أحب في هذه الدنيا ولم يصنع الشر. نحن البشر المساكين يا إلهي، لا نؤمن إيماناً حقيقياً بمراحمك، إلا في المناسبات التي نتعرض فيها لسخطك. ولكن أنا، أنا... التي تتوسل اليك، لقد عانيت ما فيه الكفاية على هذه البسيطة. لقد تعذبت ما فيه الكفاية من دون سبب ارتكبته. ومع ذلك، ما اشتكيت مرة، حتى لك، ولا شككت بك مرة. فإذا تضرعت إليك اليوم، إذا التمست منك اليوم، إذا طلبت منك إنقاذ حياة شاب... ورفضت طلبي، سوف أقول يا إلهي، سوف أقول بأنك قد أسرفت في استعمال قوتك ضدي، وبأنك إله الغضب والانتقام غير المحق! سوف أقول... أوه! عفوك يا إلهي! إني أجدِّف، إني أجدّف... عفوك! عفوك! إنك لا تظلمني ولا تتحامل عليَّ، بل أنت إله الرحمة والرأفة.»

وهنا شعرت أندريه بأن بصرها قد زاغ، وبأن عضلاتها قد تراخت... ثم انقلبت على الأرض مشعثة الشعر، وغدت كأنها جثة بلا حياة!

وعندما استفاقت من غيبوبتها، واستعادت مخيلتها استعراض الآلام والأشباح، دمدمت بلهجة كئيبة:

«يا إلهي! لقد عاقبتني ولم تكن رؤوفاً. إني أحبه... أوه! نعم، إني أحبه، وهذا يكفي، أليس كذلك؟ والآن، هل ستحرمني منه؟»

هذيان

★

لا شك بأن الله قد سمع توسلات أندريه، فنوبة الحمّى لم تقضِ على السيد دي شارني.

ففي اليوم التالي، وبينما كانت أندريه تستطلع بنهم أخبار الجريح، كان شارني، بفضل العناية التي وفّرها له الدكتور لويس، يقطع مرحلة الخطر ويبدأ مرحلة الشفاء.

وبعد انقضاء ثمانية أيام، اطمأنت خلالها أندريه كل الاطمئنان، رأى الدكتور لويس الواقف على كل كلمة فاه بها مريضه أثناء نوبات الحمّى، رأى من الأنسب نقله الى مكان بعيد، خشية أن يعاوده الهذيان، وكي يقضي فترة نقاهة ضرورية تعيد إليه نشاطه.

لكن شارني ثار على المحاولات الأولى التي جرت لنقله، إذ رفع عينيه الملتمعتين بالغضب نحو الطبيب، وقال له: «إنني لدى الملك، وليس لأحد الحق بأن يطرد إنساناً منحه الملك ملاذاً.»

ولم يكن الدكتور جلوداً مع مرضاه في هكذا حالات، لذا أدخل بلا قيد ولا شرط، أربعة من الخدم وأمرهم بحمل الجريح. لكن شارني تشبَّث بخشب السرير، وضرب بقساوة أحد هؤلاء الخدم وهدَّد الآخرين.

فحاول الدكتور لويس إقناعه بالمنطق والحسنى، فلقي منه بعض التجاوب في بادئ الأمر. ولكنه عاد فقاوم بشدة عندما ألحَّ الخدم على حمله، فنكأ جرحه، وأفقده سيلان الدم منه مجدداً صوابه، وعاودته نوبة الهذيان بشكل أشدّ وأعنف من الأول، فأخذ يصرخ ويقول:

«يريدون إبعادي كي يحرموني من رؤيا أحلامي، ولكن عبثاً يحاولون، فهذه الرؤيا تبسم لي دائماً... إنها تحبني، وستعود إلي رغم أنف الطبيب، فتلك التي تحبني ذات منزلة رفيعة لا تخشى ممانعة أي شخص.»

أمام هذه الكلمات، وقف الطبيب مرتعشاً، ثم أسرع فصرف الخدم وانبرى للعناية بالجرح النازف، وقد قرر الاهتمام بالعقل بعد الاهتمام بالجسد. ولكنه بعد أن استنفد

علمه ولم يتمكن من إيقاف الهذيان ، بدأ يرتعب ، لعلمه بأن هذا الخلل العقلي سيودي بمريضه الى الجنون .

وهكذا تفاقم الوضع في يوم واحد ، مما جعل الدكتور لويس يفكر بالعقاقير الفعالة والناجعة ، لأن المريض لن يفقد صوابه وحده ، بل سيُفقد صواب الملكة أيضاً .

ولما أعيته الوسيلة واشتد جنون شارني ، وقع في حيرة ما بعدها حيرة ، فالدكتور لويس لا يمكنه الاستناد الى سلطة الملك ، لأن المريض أيضاً يستند الى هذه السلطة . لذا قرر الذهاب الى الملكة ومكاشفتها في كل شيء . وهكذا اغتنم فرصة رقاد شارني ، بعد أن أعياه الصراخ والتصورات التي كان يرويها ، ومناداته لحبيبته الموهومة ، وخرج قاصداً جناح الملكة .

فوجد ماري انطوانيت مشرقة الوجه وساهمة في آن معاً ... لأنها كانت تنتظر حضور الطبيب ليقدم لها تقريراً مطمئناً عن صحة مريضه .

إلا أن جواب الطبيب عن سؤالها الأول ، قد فاجأها وأذهلها ... إذ إنه صارحها بدون لفّ ولا دوران ، بأن المريض قد ساءت حالته جداً . فصاحت تقول :

- كيف ؟! البارحة كانت حالته آخذة بالتحسن !

- لا يا مولاتي ، إن حالته تتدهور .

– ولكني أرسلت السيدة دي ميزاري اليك ، وعادت إلي بنشرة طبية جيدة !

– لقد كنت أخدع نفسي وأخدعك .

– طالما أن حالته كما تقول ، فلماذا حجبت الحقيقة عني أيها الطبيب ؟

– مولاتي ...

– وإن كان يتحسن ، فلماذا تجعلني أقلق قلقاً طبيعياً جداً ، بما أن الأمر يتعلق بأحد خدم الملك المخلصين ؟! أجبني بنعم أو بلا ، وبكل وضوح : ماذا عن مرضه ؟ ماذا عن المريض ؟ هل هناك خطر على حياته ؟

– الخطر عليه ، أقلّ من الخطر على غيره يا مولاتي !

فقالت الملكة وقد نفد صبرها :

– إنك تحدثني بالألغاز أيها الطبيب ! أوضح ما تريد قوله .

– إنه أمر عويص يا مولاتي ، ويكفي أن تعلمي بأن مرض الكونت دي شارني ، هو مرض معنويّ صرف . فجرحه ليس سوى ملحق في عذاباته . إنه حجة للهذيان ليس إلا !..

– مرض معنوي ! مرض دي شارني !

– نعم يا مولاتي ، وإني أدعو معنوياً ، كل مرض لا يتحلل بواسطة المبضع . واعفني من قول أكثر من ذلك يا صاحبة الجلالة .

فقالت الملكة ملحة :

- هل تريد القول بأن الكونت ...

فقال لها الطبيب :

- هل تريدين أن أوضح أكثر ؟

- بدون شك ، أوضح !

- حسناً ! إن الكونت عاشق يا مولاتي ، وهذا كل ما أريد قوله . لقد طلبت جلالتك أن أوضح ، وها أنا قد أوضحت .

فحركت الملكة كتفيها قليلاً ، مما يعني : شيء جميل !

وتابع الطبيب يقول :

- فهل تعتقدين بأنه يمكنني شفاء هكذا جرح يا مولاتي ؟ لا ، فمرضه وهذيانه سيوصلانه الى تسلط الفكرة القاتلة ، وعندئذ ...

- عندئذ ماذا أيها الطبيب ؟

- عندئذ ستقضين على هذا الشاب يا مولاتي .

- سأقضي على هذا الشاب !... عجيب أمرك أيها الطبيب ! فهل أنا سبب جنونه ؟

- بدون شك .

- إنك تثيرني أيها الطبيب .

فهز الطبيب الصلب الإرادة كتفيه ، وتابع يقول :

- إذا لم تكوني سبب جنونه في الوقت الحاضر، فستكونين هذا السبب فيما بعد.

فقالت الملكة وقد سكنت قليلاً:

- طالما أن هذا هو اعتقادك، فانصحني إذن بما يجب عمله.

- أتعنين بأن أعطيك وصفة؟

- إذا شئت.

- هاكها يا مولاتي: إن هذا الشاب، سواء شفي بواسطة البلسم أو السيف، فالمرأة التي يتلفظ باسمها كل لحظة، هي القادرة على قتله أو شفائه...

فقاطعته الملكة وقد استعادت صبرها:

- إنك تطنب في المغالاة. قتل... شفاء... كلمتان كبيرتان! فهل تستطيع القساوة أن تقتل رجلاً؟ وهل تستطيع الابتسامة شفاء مجنون مسكين؟

فقال الطبيب:

- إن كنت أنت أيضاً، تشكّين في ذلك، فلا يعود لي من عمل سوى أن أقدم فائق احتراماتي لجلالتك.

- ولكن، هيّا وقل، هل الأمر يتعلق بي أولاً؟

- لست أعلم، ولا أريد أن أعلم... فالمطلوب مني فقط أن أكرر على مسمعك بأن السيد دي شارني هو مجنون

مدرك ، وأن بالإمكان شفاءه ورده إلى جادة الصواب . فإذا شئت أن تريحي هذا القصر من الصراخ ، ومن التصورات والفضائح ، فما عليك إلا أن تتخذي قراراً .

- أي قرار ؟

- آه ! أي قرار ؟ إن عملي مقصور على إعطاء الوصفات . أما النصائح ، فليست من اختصاصي .

- افترض بأنني فهمتك أيها الطبيب . فما هي الطريقة الفضلى لمعالجة الموقف بما يضمن شفاء السيد دي شارني ، ويجنب القصر الصراخ والتصورات والفضائح ؟

- هناك طريقة واحدة لا إثنتين أمام ماري انطوانيت ، أمام ملكة فرنسا ... هي معالجة داء السيد دي شارني بالدواء الذي بات معروفاً لديها .

- لقد تكلمت بصراحة أيها الطبيب ، وفهمتك جيداً ... فأنت تريد من المرأة التي أفقدت دي شارني صوابه ، أن ترد إليه هذا الصواب ، إما بالتراضي وإما بالقوة .

- تماماً يا مولاتي .

- ويجب عليها أن تتحلى بالشجاعة ، فتذهب اليه وتقتلع تصوراته ، أي الأفعى القاضمة التي تعيش متلوية في أعماق نفسه .

– نعم يا صاحبة الجلاله . فهيّا يا مولاتي ، هيّا !
فتنهدت الملكة ولحقت بالطبيب الشيخ ...

★

سارت الملكة في الممشى الذي يوصل الى غرفة شارني ، وهي مرتدية ثياب الصباح ومتزينة بأناقة . وكان الطبيب قد طلب اليها ألا تتراجع أو تحاول التراجع ، بل أن تنفذ القرار الذي اتخذته بشجاعة وبدون تردد .

لذا عندما وصلت الى باب الغرفة الاولى التي تفضي الى غرفة الجريح ، لم تتردد في فتحها. ولكن ما أن فتحتها ، حتى تسمرت في مكانها ... فلقد وقع بصرها على امرأة تقف أمام باب غرفة شارني وقد التفت بعباءتها ... فعندما أبصرت الملكة ، انتصبت في محاولة لإخفاء ما اعتراها . لكن مظهرها المضطرب ، ويديها المرتعشتين ، قد فضحا حقيقة موقفها . فصاحت بها الملكة فجأة !

– أندريه !!

فأجابت أندريه وقد شحب لونها وتضاعف اضطرابها :

– أنا !.. أنا !... نعم ، يا صاحبة الجلالة .

فقالت لها الملكة :

– لقد بحثت عنك في كل مكان ، فأين كنت ؟

وكانت لهجة الملكة لا تعكس طيبة قلبها المعروفة هذه المرة، بل كان كلامها وكأنه استهلالة استجواب، كأنه الدليل على الشك بمن كانت موضع ثقتها.

فارتابت أندريه، وزادها ارتياباً كون مسعاها الطائش لم يحقق لها الحصول على مفتاح عواطفها الملتهبة. ومع ذلك، قررت بأنفة أن تكذب للمرة الثانية. فأجابت ملكتها قائلة:

- كنت هنا، كما ترين.

- ولكن، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأجابت أندريه قائلة:

- مولاتي، لقد قالوا لي بأن جلالتك تبحث عني، فجئت إليك.

فقالت الملكة:

- وكيف اكتشفت مكاني؟

- الأمر بسيط يا مولاتي. فقد شاهدتك تجتازين المساكن الصغيرة برفقة الدكتور لويس، فلم يعد هناك مجال للإعتقاد إلا بأنكما قاصدان هذا المكان.

فبقيت الملكة مرتابة، ولكنها قالت بدون قساوة:

- تنبؤ موفق! تنبؤ موفق!

فقامت أندريه بآخر مجهود، وقالت وهي تبتسم:

- كان من المفترض فيك يا مولاتي، إن كان في نيتك

التخفي، أن لا تظهري في الأروقة المكشوفة كما فعلت الساعة لتأتي الى هنا. فعندما تجتاز الملكة الشرفة، ستراها الآنسة دي تافرني من شقتها، ولا يعود صعباً عليها أن تلحق بها أو تسبقها.

فقالت الملكة في نفسها:

«إنها على حق، بل مئة مرة على حق. فعدم تبصري في الأمور، هي عادة سيئة اعتدتها.»

كانت الملكة وهي تقول هذا القول، تشعر بأنها بحاجة الى الرأفة والتسامح، ربما لأنها بحاجة الى من تأتمنها على أسرارها.

لذا نسيت ماري انطوانيت بسرعة الانطباع الذي تكون لديها من جراء مشاهدتها الآنسة دي تافرني أمام باب غرفة شارني، فأمسكت بيدها وأدارت مفتاح قفل الباب، وولجت وحدها غرفة المريض بسرعة متناهية، بينما بقي الطبيب واندريه في الخارج.

وما كادت الملكة تتوارى عن عيني أندريه، حتى رفعت هذه الأخيرة رأسها نحو السماء، وبسطت يديها مفعمة بالألم والغضب، فكانت في حركتها هذه كأنها تعبر عن لعنتها الخانقة.

فتأبط الطبيب الطيب القلب ذراعها، وسار وإياها في الممشى وهو يسألها:

- هل تعتقدين بأنها ستنجح؟

فقالت أندريه: يا إلهي!.. تنجح بماذا؟

- بنقل هذا المجنون المسكين إلى مكان آخر. لأنه إن بقي هنا سيموت حتماً، مهما قصرت ملازمة الحمّى له.

فصاحت أندريه:

- إذن، سيشفى إن هو نقل إلى مكان آخر؟

فنظر إليها الطبيب مندهشاً وقلقاً، وأجابها:

- أعتقد ذلك.

فقالت تلك الفتاة المسكينة:

- أوه! أي نجاح سيكون إذن!

نقاهة

★

فيما كانت الملكة تسير منتصبة القامة باتجاه المقعد المريح النائم عليه شارني بكامل ثيابه بعد ليلة من التهيج المرعب، كان هو يرفع رأسه بدافع الضجة التي أثارتها البغال في زرائبها، وإذ به يدمدم وهو يحاول أن ينهض:

– الملكة !...

فأسرعت ماري انطوانيت إلى الإجابة :

– نعم ، الملكة يا سيدي ، الملكة الواقفة على ما تعمله لتفقد صوابك وحياتك . الملكة التي تسيء إليها في تصوراتك وأحلامك . الملكة التي تهينها وأنت يقظ . الملكة الحريصة على شرفها وعلى سلامتك ، وقد جاءت اليك من أجل ذلك يا سيدي ، فيتوجب عليك أن تستقبلها غير هذا الاستقبال .

فنهض شارني إذ ذاك مرتعشاً ، ولِهاً . ثم انزلق ساجداً على ركبتيه ، مسحوقاً من الألم الجسدي والألم المعنوي ، وانحنى كالمجرم امام ماري انطوانيت ، ولم يعد يريد ، ولا بمقدوره ، أن ينهض ...

فأكملت الملكة تقول ، وقد تأثرت من هذا الاحترام الصامت :

– أمن المعقول ، أن يكون هناك نبيل اشتهر فيما مضى بأنه من أوفى الأوفياء ، ومع ذلك تصرَّف كعدو بسمعة امرأة ؟! أقول هذا ، لأنه عند لقائنا الأول يا مسيو دي شارني ، لم تكن الملكة التي رأيتها وتعاطفت معها ، بل كانت امرأة ، وكان عليك ان لا تنسى ذلك أبداً .

فحاول شارني ، وقد أسره هذا الكلام النابع من قلب

مخاطبته، أن يتلفظ بكلمة يدافع بها عن نفسه، لكن ماري انطوانيت ضيّعت عليه الوقت بقولها:

- ماذا سيقول أعدائي، إذا كنت لهم المثل في الخيانة؟

فتمتم شارني قائلاً:

- الخيانة!...

- هل تريد أن تختار يا سيدي؟ فأنت إما أنك أحمق، وفي هذه الحال سأنزع منك وسيلة الشر. وإما أنك خائن تتوجب علي معاقبتك.

فصاح شارني:

- مولاتي، لا تقولي بأني خائن. فهذه التهمة على شفاه الملوك تسبق حكم الإعدام، وفي فم المرأة عار وشنار. فاقتليني أيتها الملكة، واعفي عني أيتها المرأة.

فقالت الملكة بصوت لا يعبر عن حقيقة مشاعرها:

- هل أنت في كامل إحساسك يا مسيو دي شارني؟

- نعم يا مولاتي.

- هل أنت مرتاح الضمير في تجنيك علي، وفي الجريمة التي ارتكبتها... بحق الملك؟

فدمدم ذلك المنكود الحظ:

- يا إلهي! يا إلهي!

- لأنكم نسيتم بسهولة، أنتم معشر النبلاء، أن الملك هو

زوج تلك المرأة التي تهينونها كلما رفعتم أعينكم صوبها، وأنه والد ولدي البكر الذي سيكون سيدكم في المستقبل، كما نسيتم أن الملك هو رجل أكبر وأفضل منكم كلكم، رجل أُجلُّه وأحبه.

فتأوه شارني ودمدم قائلاً «آه!» ثم اضطر كي يقف على قدميه، أن يستند بإحدى يديه على أرضية الغرفة.

فاخترقت صرخته الصماء قلب الملكة، وقرأت في نظرات الشاب الخامدة بأنه سيقضى عليه، إن هي لم تسحب بسرعة الحربة التي أغمدتها في جرحه.

فأخذتها الشفقة عليه، وارتابت من شحوبه ووهنه، وأوشكت أن تطلب النجدة.

لكنها فكرت بأن الطبيب وأندريه، سيفسران تفسيراً خاطئاً غشيان المريض هذا، فعادت وأنهضته بيديها، وقالت له:

– لنتكلم، أنا بصفتي ملكة، وأنت بصفتك رجل. إن الدكتور لويس قد حاول شفاءك، إلا أن جرحك الذي ليس شيئاً يذكر، قد زاد سوءاً بسبب شططك وشذوذ عقلك. فمتى سيشفى هذا الجرح؟ متى ستتخلى عن التمثيل الجنوني المشين الذي أقلق هذا الطبيب الطيب؟ متى ستخرج من هذا القصر؟

فقال شارني بصوت متلجلج :

– مولاتي ، إن جلالتك تطردني ... فها أنا ذاهب ، أنا ذاهب !

وقام بحركة جدّ عنيفة قصد الخروج ، لكن التوازن خانه ، فترنح ... وسقط بين ذراعي الملكة التي سدت عليه الطريق ...

وما كاد يشعر باحتكاك جسمه بصدرها الملتهب الذي سنده ... ما كاد ينثني تحت ذراعها الذي احتضنه بلا تعمُّد ... حتى فقد صوابه تماماً ، وفتح فمه ليطلق منه نفثة مضنية ، لم تكن أبداً كلاماً ، ولا تجرأ أن يجعلها قبلة ...

والملكة ذاتها ، التي ألهبها هذا الاحتكاك ، وأثار هذا الغشيان شفقتها ، لم يبق لديها متسع من الوقت لدفع الجسد الجامد الى مقعده . فقد شاءت الهرب ، لكن رأس شارني الذي كان متدلياً إلى الوراء ، قد ارتطم بخشب المقعد العالي ، فأخذت خيوط حمراء تلوّن شفتيه ، وسقطت من جبهته نقطة وردية اللون فاترة على يد ماري انطوانيت ... فدمدم شارني قائلاً :

– أوه ! لا بأس ، لا بأس ، سوف أموت قتيل هواك !

فنسيت الملكة كل شيء ، وعادت فاحتضنت شارني بذراعيها ، وشدَّت رأسه الميت الى صدرها ، ووضعت يدها

الباردة على قلبه ... فحقق الحب أعجوبة الانتصار على الموت ، وفتح شارني عينيه ، وزالت الرؤيا ... وارتعبت ماري انطوانيت المرأة ، من الذكرى التي ستخلّفها في ذلك المكان الذي اعتقدت بأن كلمتها الأخيرة فيه ستكون ، كلمة وداع وحسب . فخطت ثلاث خطوات باتجاه الباب ، وبسرعة بالكاد استطاع معها شارني ان يمسك بطرف ثوبها ويصيح :

– مولاتي ، باسم الإجلال الذي أكنّه لك ، والذي يفوق إجلالي للخالق ...

فقالت الملكة :

– الوداع ! الوداع !

– مولاتي ! أوه ! عفوك .

– لقد عفوت عنك يا مسيو دي شارني .

– مولاتي ، نظرة أخيرة !

فقالت الملكة وهي ترتعش من التأثر والغضب :

– مسو دي شارني ، إذا لم تكن أسوأ الرجال ، هذا المساء ، فستكون غداً ميتاً أو خارج هذا القصر .

وعندما تأمر الملكة بهذه الصورة ، تكون وكأنها تتوسل . لذا ضمّ شارني يديه بنشوة ، وزحف على ركبتيه حتى قدمي ماري انطوانيت . لكن ماري انطوانيت كانت قد فتحت الباب وهربت مسرعة تحاشياً للخطر .

فرأت أندريه، التي كانت عيناها تنظران بشهوة شديدة الى هذا الباب منذ بدء المقابلة، رأت شارني ساجداً، تشع عيناه ببريق الأمل والخيلاء، والملكة خائرة القوى، مطرقة الرأس، خامدة النظرات. فلم تحن رأسها امام الملكة العائدة، لأنها كانت يائسة مطعونة القلب، ومنتفخة بالحقد والاحتقار. فقد شعرت بأن الله قد وهب هذه المرأة المزاحمة لقلبها كثيراً، العرش والجمال، ووهبها هذه النصف ساعة من الحب مع شارني.

أما الدكتور لويس، الذي كان همه الأكبر أن تنجح المفاوضات بين الملكة ومريضه، فقد بادرها قائلاً:

– ماذا يا مولاتي؟

لكن الملكة لم تجاوب. لأنها كانت بحاجة الى دقيقة، على الأقل، كي تستعيد روعها وصوتها الذي خنقته ضربات قلبها. فعاد الطبيب وكرر سؤاله قائلاً:

– ماذا سيفعل يا مولاتي؟

فقالت له الملكة: سوف يذهب.

ومن دون أن تلاحظ اندريه التي كانت متجهمة، ولويس الذي كان يفرك يديه، اجتازت الملكة الممشى إلى الرواق بخطوات سريعة، والتفت آلياً بمعطفها الغنيّ بالدانتيلا، وعادت إلى جناحها.

وبدورها أندريه، صافحت الطبيب الذي أسرع إلى مريضه، وعادت الى مسكنها بخطوات بطيئة، خافضة الرأس، شاردة الفكر، ساهمة النظرات.

وما اهتمت ولا فكرت حتى بتلقي أوامر الملكة، لأن الملكة بالنسبة اليها، لم تعد سوى مزاحمة.

أما شارني، فقد بدا للدكتور لويس وكأنه لم يعد ذلك الانسان الذي كانه في العشية. لقد بدا في غاية النشاط والقوة والجسارة، وأخذ يطرح عليه الأسئلة الملحة والحازمة حول موضوع نقاهته، وحول النظام الذي سيتمشى عليه، وحول وسائل النقل، مما جعل الدكتور لويس يعتقد بأنه قد أُصيب بانتكاسة خطيرة ناتجة عن نوع آخر من الهوس العقلي.

لكن مخاوف الطبيب تبددت بسرعة عندما رأى شارني يستعيد هدوءه، وينبري يشرح له التغير المفاجئ الذي طرأ على ما كان عازماً عليه. وهذا ما قاله لطبيبه:

«إن الملكة، بتأنيبها لي، قد شفتني أكثر من علمك وعقاقيرك أيها الطبيب العزيز. فقد جعلتني أحسُّ بكرامتي، أي أنها روضتني كما يروضون الجواد بالشكيمة.»

فدمدم الطبيب:

- نعمّا حدث، نعمّا حدث.

– نعم ، فقد تذكّرت إسبانياً – والأسبان متباهون بما فيه الكفاية – قال لي يوماً كي يبرهن عن قوة إرادته ، بأنه عندما جُرح في إحدى المبارزات ، لم يحتج لأكثر من إرادته ، حتى يمنع سيلان الدم من جرحه ، وهكذا خيّب آمال خصمه بأن ترى عيناه دمه . وأراني اليوم شبيهاً بذلك الاسباني الذي هزئت منه في الماضي . فإن عاودتني الحمى والهذيان اللذين أنبتني عليهما ، سوف أطردهما وأقول معاهداً نفسي : «أيتها الحمى ، أيها الهذيان ، إنكما ستتواريان إلى الأبد .»

فقال الطبيب بوقار :

– لدينا أمثلة على هذه الظاهرة . مع ذلك ، إسمح لي أن أهنئك ، فها أنت قد شفيت معنوياً ، أليس كذلك ؟

– أوه ! نعم .

– حسناً ، ولن تتأخر حتى تتضح لك الصلة ما بين المادة والروح . فهي نظرية علمية جميلة سوف أضعها في كتاب إذا سمح لي الوقت . سليم الروح أصبحت ، إذن ستصبح سليم الجسم في خلال ثمانية أيام .

– شكراً يا طبيبي العزيز .

– والآن ، متى ستذهب لتبدأ حياتك الجديدة ؟

– عندما تشاء ، فأنا مستعد للذهاب فوراً .

– لننتظر حتى المساء ، ففي العجلة الندامة . هل ستذهب بعيداً ؟

– إلى أقاصي الدنيا ، إذا لزم الأمر .

– دفعة واحدة ! لا ، ذلك بعيد جداً . لنكتف بفرساي في بادئ الأمر ، ألا توافقني ؟ فليس من الصواب ان تهجر فرساي قبل ان يشفى جرحك .

فقال دي شارني وكأن كلام الطبيب وأسلوبه قد أيقظاه من غفلته :

– هذا صحيح أيها الطبيب ، فأنا لي مسكن في فرساي ، لكن نفسي تتوق إلى القيام بجولة في أراضيّ .

– ولكن أراضيك ليست في طرف الدنيا .

– إنها على تخوم «بيكاردي» ، على بعد خمسة عشر أو ثمانية عشر فرسخاً من هنا .

– حسناً ، فسوف تذهب إليها بعد أن تتعافى تماماً .

فضغط شارني على يد الطبيب مصافحاً وشاكراً له حسن عنايته به .

وفي المساء ، حمل الخدم الأربعة الذين سبق لشارني أن رفضهم وقاومهم ، حملوا شارني الى العربة التي كانت بانتظاره في المكان المخصص لعامة الشعب .

وكان الملك في تلك الساعة يتناول عشاءه استعداداً للنوم ،

بعد أن أمضى النهار بطوله في الصيد ، لذلك قلق شارني قليلاً لاضطراره الى ترك القصر من دون استئذانه ، إلا أن الدكتور لويس طيب خاطره ووعده بايجاد عذر يقدمه للملك عن رحيله المفاجئ والاضطراري .

وفيما كان شارني في طريقه الى العربة ، ألقى على نوافذ جناح الملكة نظرة فيها من الألم بقدر ما فيها من الرضى . وبقيت هذه النظرة محجوبة عن أعين الخدم ، لأن المشعل الذي كان يحمله أحدهم لم يكن باستطاعة نوره الشحيح أن يضيء سوى الطريق .

ولم يلتق شارني وهو في الطريق الى العربة التي ستقله بعيداً عن المرأة التي أحبها حتى الجنون ، سوى بعض الضباط من أصدقائه ، الذين جاؤوا في الوقت المناسب ليستدركوا إضفاء طابع الهرب على سفره .

أما نوافذ غرفة الملكة التي تعلقت عينا شارني بها في تلك الليلة المظلمة ، فقد كانت تتألق بالأنوار ، لأن ماري انطوانيت كانت تتألم قليلاً في تلك الليلة ، لذلك استقبلت سيدات البلاط في غرفة نومها .

هكذا كانت نوافذ غرفة الملكة . أما نوافذ غرفة أندريه ، فقد كانت مظلمة كئيبة ، تخفي وراء ستائرها الدمقسية امرأة

مهمومة قلقة، تلاحق بعينيها الحزينتين كل حركة من حركات المريض وحرسه.

وأخيراً انطلقت العربة، ولكن بتؤدة أتاحت لأندريه أن تسمع وقع كل حافر من حوافر جيادها على البلاط المرنّ، فهمهمت قائلة:

«إذا لم يكن لي، فهو لن يكون لأحد على الأقل.»

أما ما قاله الطبيب لويس وهو يهمّ بالدخول إلى شقته:

«إذا رغب مرة جديدة أن يموت، فعلى الأقل لن يموت عندي ولا بين يديّ. لتذهب إلى الشيطان أمراض الروح! فأنا لست طبيب انطيوشوس وستراتونيس[1] كي أشفي هكذا أمراض.»

وصل شارني سالماً معافى الى منزله، وقد عاده في اليوم التالي الطبيب لويس، وكانت هذه الزيارة هي الاخيرة اليه، فوجده في أحسن حال. وفي ذات اليوم، استقبل شارني خاله السيد دي سيفران، والسيد دي لافاييت. كذلك زاره

---

(١) انطيوشوس هو ابن سيليكوس ملك سوريا وزوج الاميرة اليونانية ستراتونيس، وقد هام هيامًا جنونيًا بزوجة أبيه، فانتابه مرض خطير بسبب هذا الهيام. وعندما اكتشف الطبيب أرازيسترات سر مرضه، صارح والده بأن الوسيلة الوحيدة لشفائه، هي جمعه بـ «ستراتونيس». فرضي الملك سيليكوس أن يفسح زواجه لإنقاذ ولده!

موفد من قبل الملك . وبعد ذلك لم يعد بحاجة الى اهتمام أحد به .

فقد أخذ يسير متنزهاً في حديقة منزله ، وبعد مضيّ ثمانية أيام أصبح بإمكانه اعتلاء صهوة جواده بمظهر هادئ وساكن ، بعد ان استعاد كامل قواه .

فذهب واستأذن الملك ، وحزم حقائبه واستقل عربة وسافر الى مدينة «فيلّا - كوتّريه»، حيث استقر في قصر بورسون الواقع على بعد فرسخ واحد من تلك المدينة الصغيرة .

أما الملكة التي لم يستطع أن يسأذنها لأنها كانت مريضة عشية سفره ولا تستقبل أحداً ، فقد كلَّف خاله السيد دي سيفران بأن يقدم لها ، بالنيابة عنه ، وافر احتراماته ...

قلبان داميان

★

في صباح اليوم التالي لليوم الذي فاجأت فيه أندريه الملكة فيما كانت عليه ، وشارني راكعاً أمامها ، دخلت الآنسة دي تافرني حسب عادتها إلى غرفة ماري انطوانيت ساعة زينتها المتواضعة ، أي قبل القداس بقليل وقبل أن تستقبل الملكة أحداً

سواها، فوجدتها تقرأ بطاقة من السيدة دي لاموت وهي مشرقة الوجه باسمة.

ورغم أن أندريه كانت شاحبة الوجه أكثر من العشية، وفي مشيتها ومظهرها ما يدل دلالة واضحة على الألم الذي يعتمل في نفسها، فإن الملكة، التي كانت ساهمة شاردة، لم تنتبه لمشيتها البطيئة، وعينيها المحمرتين، وبياض عينيها وصدغيها الكامد، وحتى لم تلتفت نحوها إلا بمقدار ما يكفي للرد على تحيتها بقولها:

«صباح الخير يا صغيرتي!»

وانتظرت أندريه أن تتيح لها الملكة الفرصة لتتكلم. انتظرت وهي واثقة بأن صمتها وسكينتها سيلفتان نظر ماري انطوانيت. إلا أن ما حدث، هو أن الملكة عندما استدارت ولمحت وجه أندريه وما يعبّر عنه من ألم وكآبة، سألتها وكأنها قد تفاجأت بأمر تجهله:

– يا إلهي! ما بك يا أندريه؟ هل أصابتك مصيبة؟

فأجابت المرأة الشابة:

– نعم يا مولاتي، ومصيبة كبيرة.

– ما هي هذه المصيبة؟

– سوف أترك جلالتك.

– تتركينني!.. هل سترحلين؟

- نعم يا مولاتي.

- إلى أين؟ وما هو الداعي لرحيلك المفاجئ؟

فأجابت أندريه وقد احمرَّ وجهها:

- إنني يا مولاتي، لم أعد سعيدة في مهمتي!

فاحمرت الملكة بدورها، والتقت نظراتهما البارقة كبرق السيفين المتشابكين... ثم قالت الملكة:

- إني لم أفهمك جيداً. فالبارحة كنت سعيدة كما تراءى لي.

فأجابت أندريه بحزم:

- لا يا مولاتي، فالبارحة كان أسوأ يوم في حياتي.

فقالت الملكة حالمة:

- آه!.. أوضحي!

- لا أريد إزعاج جلالتك بتفاصيل لا طائل فيها. فأنا أشعر بوحدة بعيداً عن أهلي، لذلك جئت استأذن جلالتك كي تطلق سراحي.

فنهضت الملكة وقد بدا عليها أن هذا الطلب قد مسَّ كبرياءها، ثم تقدمت من أندريه وأمسكت بيدها وقالت لها:

- ماذا يعني هذا القرار الذي يدل على طبعك السيء؟ ألم يكن لك البارحة أخ وأب كما لك اليوم؟

فأخذت أندريه ترتجف كالمجرم في قفص الاتهام، ثم انحنت أمام الملكة وأجابت :

- إن رفقك بي يا مولاتي قد أثّر بي تأثيراً عميقاً، لكنه لن يثنيني عن عزمي . فأنا قد قررت ترك البلاط لشعوري بالحاجة الى العزلة، فلا تعرّضيني لخيانة واجباتي تجاهك بالتخلي عن الدعوة التي أشعر بها .

فسألتها الملكة : منذ الأمس إذن ؟

فأجابت أندريه :

- أرجو جلالتك أن تعفيني من الكلام على هذا الموضوع .

فقالت الملكة بمرارة :

- لك ملء الخيار . مع ان الثقة التي وضعتها فيك كافية لأن تبادليني بمثلها . ولكني مجنونة أكون إن طلبت منك الكلام طالما أنك ترفضينه . فاحتفظي بأسرارك أيتها الآنسة، ولتكن حياتك حيث ستذهبين، أكثر سعادة من هنا . ولكن تذكري شيئاً واحداً، وهو أن محبتي لا تتخلى عن الناس رغم نزواتهم، وأنك ستبقين صديقة لي . والآن، اذهبي يا أندريه، فأنت حرة .

فانحنت أندريه أمام ماري انطوانيت كما جرت العادة في البلاط الفرنسي، تعبيراً عن الاحترام والاجلال، وخرجت .

ولكن ما أن وصلت عند الباب، حتى استرجعتها الملكة وسألتها:

- إلى أين ستذهبين يا أندريه؟

فأجابت الآنسة دي تافرني:

- إلى دير سان دينيس يا مولاتي.

فصاحت الملكة:

- إلى الدير!.. أوه! نعمَ الاختيار أيتها الآنسة، فقد لا يكون لديك ما يبكت ضميرك. ولكن لا يغرب عن بالك أن نكران الجميل ونسيانه يستوجبان هذا التبكيت، ويجعلانك مدينة تجاهي بما فيه الكفاية. إذهبي أيتها الآنسة دي تافرني، إذهبي!

فلم تعطي أندريه أية تفسيرات لكلام الملكة الطيبة القلب، ولا أثَّر هذا الكلام في نفسها، بل استأذنت جلالتها وخرجت من الباب وتوارت.

فإلى أين ذهبت أندريه دي تافرني بعد أن تركت القصر الملكي بهذه السرعة؟

الواقع أن أندريه توجهت الى منزل والدها، حيث وجدت في حديقته شقيقها فيليب، الذي أخذته الدهشة عندما رأى أندريه أمام عينيه، في وقت هو دوام عملها في القصر. فتقدم

منها مرتعباً، خصوصاً وهو قد اعتاد أن يراها باشة مشرقة القسمات، فإذا بها عابسة قاتمة الوجه!

ولما سألها عمّا بها، أخبرته أندريه بأنها قد تركت الخدمة لدى الملكة وقررت دخول الدير.

فضرب فيليب، بشدة، كفاً بكف كما يفعل الرجل عندما يتلقى صدمة غير منتظرة، وقال:

- ماذا! أنت أيضاً يا شقيقتي؟

- أنا أيضاً!.. ماذا تريد أن تقول؟

فقال فيليب:

- إن يد الشيطان قد لامست عائلتنا يا أندريه. فما الذي دعاك لدخول الدير وأنت أقل النساء أهلاً لطاعة قوانين الزهد والتقشف؟! هيّا اخبريني، بماذا تعيبين الملكة؟

فأجابته شقيقته الشابة ببرودة:

- إني لا أعيبها بشيء يا أخي. ولكن أنت، أنت الذي أتكلت على حظوة البلاط أكثر من أي شخص آخر، لماذا لم تستطع البقاء فيه؟ فأنا بقيت فيه ثلاث سنوات، أما أنت، فلم تستطع البقاء ثلاثة أيام!

- إن الملكة متقلبة الأطوار بعض المرات.

- إن أطوار الملكة، باستطاعتك أنت، كونك رجلاً، أن

تتحملها. أما أنا، فكوني امرأة، لست ملزمة ولا أريد أن أتحمل. وبعد، إن للملكة خادماتها، فيلتدبروا نزواتها.

فقال فيليب دي تافرني:

- إن جوابك لم يكشف لي سرَّ نزاعك مع الملكة.

- ليس هناك من نزاع، إني أقسم لك. ثم، هل أنت تنازعت معها حتى تركتها؟ أوه! إنها عاقة هذه المرأة!

- يجب أن تسامحيها يا أندريه، فالإطراء قد أفسدها قليلاً، لكنها طيبة الجوهر.

- تذكّر ما فعلته بك يا فيليب.

- ما الذي فعلته بي؟

- هل نسيت؟ أوه! إن ذاكرتي أفضل من ذاكرتك. لذلك، في يوم واحد وبقرار واحد، دفعتُ ديونك وديوني يا فيليب.

- يبدو لي، أن ما دفعته هو غالٍ جداً يا أندريه. فمن كانت في مثل سنك وجمالك، لا يحق لها أن تزهد في الدنيا. خذي حذرك يا صديقتي العزيزة، فأنت ستتركين العالم في مرحلة الشباب، لتندمين عليه في مرحلة الشيخوخة، وبعد فوات الأوان. وعندئذ ستتذكرين كل أصدقائك، الذين انفصلت عنهم في نزوة جنون.

- إنك لا تتكلم بلغة العقل يا فيليب. فأنت ضابط بطل ممتلئ بالنبل والاحساس، ولكنك قليل الاهتمام بشهرتك وثروتك. فهناك مئة ضابط سواك قد حازوا على الألقاب الرفيعة وكدسوا الذهب والأموال، بينما أنت لم تحسن سوى تكديس الديون والتصرف بما يقلل من أهميتك. أنت لا تتكلم بلغة العقل عندما تقول لي: «إنها متقلبة الأطوار يا أندريه، إنها مغناجة، إنها غادرة، وأفضل أن لا أخدمها أبداً.» فمن الناحية التطبيقية لهذه النظرية، تكون أنت قد زهدت في الدنيا، ولو أنك لم تكن ورعاً. ويكون أقربنا الى النذورات التي لا رجعة عنها، هو أنت لا أنا، لأني أنا في الطريق اليها، بينما أنت قد حققتها.

- أنت على حق يا أختي، وبدون والدنا...

فقاطعته أندريه قائلة:

- والدنا! آه يا فيليب! لا تحدثني عنه. فالوالد لا يكون والداً بكل ما في الكلمة من معنى، إن لم يكن سنداً وعوناً لأولاده. فهل فكرت يوماً بأن تبوح له بمكنونات صدرك؟ وهل هو استدعاك يوماً ليطلعك على سرٍ من أسراره؟ لا، إن السيد دي تافرني خُلق ليعيش وحده في هذه الدنيا.

- أنا أوافقك الرأي يا أندريه، ولكن لا يجوز أن يموت وحده.

فذكَّرت هذه الكلمات التي قالها فيليب بشيء من القساوة، ذكَّرت أندريه بأنها قد تمادت في غضبها وحقدها ونقمتها العارمة، فقالت :

- لا أريد أن تعتبرني متحجرة القلب يا أخي . فأنت تعلم بأني شقيقة حنون، ولكن ما من أحد على هذه الارض، إلا وشاء أن يقتل فيَّ السليقة المؤنسة المحببة . فالله قد وهبني بالولادة، كما وهب كل مخلوق، روحاً وجسداً . وبهذه الروح وهذا الجسد، يستطيع كل مخلوق أن يتصرف ليحظى بالسعادة، في هذه الدنيا وفي الآخرة . فبالنسبة لي، هناك رجل لم أكن أعرفه قد استولى على روحي، وهذا الرجل هو بلسامو . وهناك رجل بالكاد عرفته، ولم يكن رجلاً عادياً بالنسبة لي، قد استولى على جسدي، وهذا الرجل هو جيلبير .

الخلاصة يا فيليب، بأنه لا ينقصني سوى أبٍ كي أكون ابنة تقية صالحة . أما الآن، فلنرجع اليك، ولنبحث فيما أصابك من خدمة الكبار على هذه البسيطة، هؤلاء الكبار الذين تكن لهم كل محبة .

فأخفض فيليب رأسه وقال :

- أعفني من هذا البحث يا أندريه . فكبار الأرض هم،

بالنسبة لي ، مخلوقات تشبهني ، وإن كنت أحببتهم ، فلأن الله أمرنا بأن يحب بعضنا بعضاً .

فقالت أندريه :

– أوه ! لم يحدث إطلاقاً على هذه الأرض يا فيليب ، أن بادل المحبوب ، مباشرة ، قلب المحب بالمثل . فالذين وقع اختيارنا عليهم ، قد اختاروا سوانا .

فرفع فيليب جبهته الشاحبة ، ونظر ملياً إلى شقيقته ، ثم سألها معبراً عن ذهوله واستغرابه :

– لماذا تتكلمين هكذا ؟ وما هو قصدك ؟

فأجابته أندريه بشجاعة ، وقد تراجعت أمام فكرة الغوص في العلاقات والأسرار :

– إني جدُّ متأثرة يا أخي ، وأعتقد بأني مضعضعة الحواس ، لذا لا تعِر كلامي أي اهتمام .

– ومع ذلك ...

– كفاية في هذا الموضوع يا أخي الحبيب . فأنا جئت أرجوك أن تقودني إلى أحد الأديرة ، وقد اخترت دير سان دينيس . وكن مطمئناً ، فأنا لا أريد أن أنذر على نفسي ، ذاك سيأتي فيما بعد إذا اقتضت الضرورة ، ولكني اخترت الدير لأني نسيت الرب كثيراً ، كما يبدو لي ، وهو الملك الأوحد ، والسيد الأوحد ، والتعزية الوحيدة ، والمؤاسي الحقيقي .

فبتقربي منه ستتوفر لي السعادة التي لم يوفرها لي كل ما في هذا العالم من غنى وقوة وملذات. بالعزلة يا أخي نجد الغبطة الدائمة، وبالعزلة يكلم الله قلب الانسان، ويكلم الانسان قلب الله ...

– تذكري بأني اعترضت أدبياً على هذا التصميم اليائس. فأنت لم تقدمي لي الحجة التي حملتك على هذا اليأس.

فقالت أندريه باحتقار كلي:

– اليأس! تقول اليأس! آه! شكراً يا إلهي، فأنا لست نادمة ولا يائسة في ذهابي إليك.

وبحركة فيها كل الاعتزاز والفخر، ألقت على كتفيها عباءة الحرير التي كانت على المقعد قربها، فقال لها فيليب:

– إن هذا الافراط في الازدراء يعبّر عن حالة فيك لا يمكن أن تدوم. فإذا كنت ترفضين كلمة يأس يا أندريه، فاقبلي كلمة غيظ.

فأجابت المرأة الشابة وقد استبدلت ابتسامتها التهكمية بابتسامة ملأى بالأنفة والإباء:

– غيظ!.. إن الآنسة دي تافرني يا أخي، هي أكبر من أن يحملها الغيظ على التخلي عن مركزها في هذا العالم. فالغيظ هو نقطة الضعف لدى النساء المغناجات الحمقاوات، وأنا لست منهنّ. ثمّ بات من حقي أن أسألك يا فيليب،

فأجبني : إذا غداً انسحبت أنت إلى دير «لاتراب» ، إذا عملت راهباً شارترياً ، فكيف ستفسر الدافع الذي حملك على هذا القرار؟

فقال فيليب بتهيب :

- سأفسره بالغم العضال يا شقيقتي .

- لقد نطقت يا فيليب بالعبارة التي توافقني والتي أتبناها ، فالذي دفعني إلى العزلة ، هو فعلاً «الغم العضال .»

فصمت فيليب قليلاً ، ثم قال :

- حسناً يا أندريه ، متى ستذهبين إلى الدير؟

- غداً . وإذا كان مستطاعاً ، اليوم بالذات .

- ألا ترغبين في القيام معي بنزهة أخيرة في الحديقة ؟

فشبكت أندريه يديها بحركة ضاغطة ، وقالت :

- لا !..

ففهم فيليب من هذه الحركة التي رافقت الرفض ، بأن شقيقته لا ترفض النزهة بحد ذاتها ، بل ترفض محاولة التأثير عليها وحملها على اللين والرجوع عن قرارها ، فقال لها :

- أنا مستعد ساعة تشائين .

وقبّل يدها دون أن يضيف كلمة أخرى ، وخرج مفعم القلب بالغم والكآبة .

وبعد أن قامت أندريه ببعض الاستعدادات الأولية، انسحبت الى غرفتها حيث تلقت بطاقة من فيليب، جاء فيها:

«باستطاعتك رؤية والدنا في الساعة الخامسة من هذا المساء. فالوداع لا بدَّ منه.»

فأجابته أندريه بالكلمات التالية:

«في الساعة الخامسة سأكون عند السيد دي تافرني بثياب السفر. وفي الساعة السابعة يمكننا التوجه إلى دير سان دينيس.»

وكان ردُّ فيليب الوحيد على شقيقته، أن صاح من نافذته القريبة من غرفة أندريه:

«في الساعة الخامسة، ستكون الجياد مشدودة إلى العربة!»

وزير المالية

★

رأينا بأن الملكة كانت مشرقة الوجه باسمة عندما استقبلت أندريه، وأنها كانت تقرأ بطاقة وردتها من السيدة دي لاموت. وهذا ما جاء في تلك البطاقة بعد عبارات الاحترام والاجلال:

«... باستطاعة جلالتك أن تكون واثقة من تأمين المال، ومن أن البضاعة ستسلم بلا حذر.»

وبعد أن تجهمت الملكة قليلاً أثناء اجتماعها بأندريه، دخلت عليها السيدة دي ميزاري لتنبئها بأن وزير المالية، السيد دي كالون، ينتظر الحصول على شرف المثول بين يديها.

وكان السيد دي كالون رجلاً كبير القامة، وسيم الخلقة، نبيل المظهر، صاحب حجة قوية، وفي غاية النباهة والذكاء.

ولما كانت ماري انطوانيت هي التي استدعته، فقد كان واثقاً بأنها ما استدعته إلا لحاجة ملحة. لذا دخل عليها والبسمة على شفتيه، عكس الآخرين الذين كانوا يأتون لمقابلتها مقطبين عابسين كي يستدروا عطفها ورضاها.

والملكة أيضاً كانت ظريفة ولطيفة. فدعت الوزير الى الجلوس وأخذت تحدثه بأمور لا أهمية لها، إلى أن قالت له أخيراً:

- قل لي أيها السيد العزيز كالون، هل لدينا مال؟

فصاح دي كالون متظاهراً بالدهشة:

- مال؟ ولكن طبعاً يا مولاتي، إن المال متوفر بصورة دائمة.

– يا لك من وزير قدير ! فأنا لم أعرف سواك استطاع أن يجيب هكذا عن سؤال يتعلق بالمال . إنك رجل مالٍ لا مثيل له .

فأجاب كالون :

– ما هو المبلغ الذي تحتاجه جلالتك ؟

– أرجوك أن تشرح لي أولاً ، كيف عملت حتى وجدت المال ، لأن سلفك ، السيد نيكير ، كان يقول دائماً : «لا مال في الخزينة .»

– إن السيد نيكير على حق يا مولاتي ، فصناديق المملكة كانت خاوية . وأذكر يوم تسلمت منصبي الوزاري في الخامس من شهر كانون الاول عام ١٧٨٣، أني أجريت كشفاً على الخزينة ، فلم أجد فيها سوى كيسين يحتوي كل منهما على الف ومئتي ليرة لا ينقصان درهماً واحداً .

فأخذت الملكة تضحك ، ثم قالت :

– وبعد ؟

– وبعد يا مولاتي ، لو أن السيد نيكير عوضاً عن أن يقول : «لا مال في الخزينة» ، تصرف مثلي فاقترض مئة مليون في السنة الاولى ، ومئة وخمسة وعشرين مليوناً في السنة الثانية ، ولو كان واثقاً مثلي من الحصول على قرض جديد للسنة الثالثة بمبلغ قدره ثمانون مليوناً ، لكان السيد نيكير رجل

مال حقيقي . فكل إنسان باستطاعته أن يقول : «لا مال في الخزينة» ، ولكن ليس باستطاعة كل إنسان أن يقول : «إن المال متوفر» .

- إني أودُّ أن أهنئك يا مسيو كالون ، ولكن ، كيف سيتأمن التسديد ؟ هنا تكمن الصعوبة .

فابتسم كالون ابتسامة ذات مغزى لا يُسبر ، وأجاب :

- كوني على ثقة يا مولاتي ، بأن التسديد مؤمن .

فقالت الملكة :

- إني أفوض هذا الأمر اليك . ولكن لنتحدث دائماً بالأمور المالية ، فهي علم كله إفادة ، وإن كان عند الغير عوسج ، فهو عندك شجرة مثمرة .

فأحنى كالون هامته تعبيراً عن شكره ، فسألته الملكة :

- هل لديك أفكار جديدة ؟ أرجوك أن تطلعني على مبتكرات أفكارك .

- لدي فكرة يا مولاتي ، باستطاعتها أن تضع عشرين مليوناً في جيوب الفرنسيين ، وسبعة أو ثمانية ملايين في جيبك ، عفوا ، في صندوق جلالتك .

- عظيم ! ولكن كيف الحصول على هذه الملايين ؟

- إن جلالتك لا تجهل بأن العملة الذهبية ليس لها نفس القيمة في كل الدول الأوروبية .

– فعلاً، فإن الذهب في أسبانيا، أغلى مما هو عليه في فرنسا.

– لقد أصابت جلالتك كبد الحقيقة، وهذا ما يجعلني أُسَرُّ في التحدث إليها بالأمور المالية. فقيمة المارك في اسبانيا، منذ خمس أو ست سنوات، تزيد على قيمته في فرنسا ثماني عشرة أونسة. بمعنى أن المصدرين من فرنسا الى اسبانيا، يربحون بالمارك الذهبي أربع عشرة أونسة من الفضة تقريباً.

فقالت الملكة: يا لها من فكرة ثاقبة!

فأكمل الوزير يقول:

– بحيث أنه في خلال سنة، إذا علم الرأسماليون ما أعلمه، لن تبقى ذهبية واحدة في فرنسا.

– هل ستحول دون ذلك؟

– حالاً وسريعاً يا مولاتي. فسأرفع قيمة الليرة الذهبية إلى خمسة عشر ماركاً وأربع أونسات. أي بما يؤمن ربحاً لحاملي الليرات الذهبية يعادل خمسة عشر بالمئة. وبهذه الطريقة، يصبح الذهب كله في بيت المال. عندئذ نعمد الى إعادة صكه من جديد، فتصبح قيمة المارك الذهبي إثنتين وثلاثين «لويسيّة» عوضاً عن ثلاثين «لويسيّة» كما هي الآن.

– يا لها من فكرة رائعة سوف تؤمن تسديد ديوننا كلها.

– أعتقد ذلك يا مولاتي. ويسرني أن تكون الفكرة قد

نالت استحسانك وموافقتك. أما الآن، فلنرجع إذا شاءت جلالتك، إلى الغاية من استدعائي إليها.

فقالت الملكة بشيء من التردد:

- هل بالإمكان يا سيدي، الحصول في هذا الوقت...

- على أي مبلغ؟

- أوه! قد يكون مبلغاً كبيراً جداً...

ثم أكملت الملكة تقول بعد أن ابتسم لها كالون ابتسامة مشجعة: «خمسماية الف ليرة!»

فصاح كالون:

- آه! كم أرعبتني جلالتك يا مولاتي! فلقد اعتقدت أن الموضوع يتعلق بمبلغ يستحق الذكر...

- بإمكانك إذن؟

- بكل تأكيد.

- بدون أن يعلم...

- هذا غير ممكن يا مولاتي. فحساباتي كلها تعرض على الملك في نهاية كل شهر. ولكن ليس هناك أي دليل بأن الملك يراجعها أو يدقق بها، وهذا شيء يشرفني.

- متى بإمكاني الاعتماد على هذا المبلغ؟

- أي يوم ستكون جلالتك بحاجة إليه؟

- في الخامس من الشهر القادم.

- إن أمر الصرف سيكون جاهزاً في الثاني من الشهر، وفي الثالث منه سيكون المبلغ لدى جلالتك.

- شكراً يا مسيو كالون.

- إن سعادتي لا تكتمل إلا بإرضاء جلالتك، لذا أرجو مولاتي أن لا توفرني في طلب أي مبلغ تحتاجه.

ثم نهض وزير المالية مستأذناً، فقدمت له الملكة يدها ليقبلها، ثم قالت له:

- ما زالت لديّ كلمة أقولها.

- تفضلي يا مولاتي، تفضلي.

- إن هذا المبلغ سيبكت ضميري...

- سيبكت ضميرك يا مولاتي!..

- نعم، فهو من أجل إرضاء نزوة!

- هذا أفضل، هذا أفضل... فالمبلغ عندئذ سيكون وسيلة لتأمين أرباح حقيقية لصناعتنا، أو تجارتنا.

فدمدمت الملكة تقول:

- في الواقع، هذا صحيح. إن لديك أسلوباً ظريفاً في تعزيتي يا سيدي.

- ليتمجد اسم الرب! فنحن بفضل ضمير جلالتك المطمئن، سوف نذهب إلى الجنة رأساً.

- ومع ذلك يا مسيو كالون، أرى أنه من الظلم بمكان، أن أُدفِّع الشعب الفقير ثمن نزواتي.

فقال الوزير معززاً كل كلمة من كلماته بابتسامة شؤم:

- إن وساوسك ليست في محلها يا مولاتي. لأنه باستطاعتي أن أقسم لك، بأن هذا المبلغ لن يدفعه الشعب الفقير.

فقالت الملكة مندهشة:

- كيف ذلك؟

فأجاب الوزير برباطة جأش:

- ذلك لأن الشعب الفقير لم يعد يملك شيئاً. وحيث لا يوجد شيء، يفقد الملك حقوقه.

ثم حيّا وخرج...

المفاجأة غير السارة

★

ما أن اجتاز السيد دي كالون الرواق راجعاً إلى مكتبه، حتى نقر ظفر يد مستعجلة باب قاعة الاستقبال الصغيرة الخاصة بالملكة، وظهرت على أثر هذا النقر جانّ دي لاموت وبادرت الملكة بقولها:

- مولاتي، إنه هنا!

فارتعشت الملكة قليلاً من كلمة «إنه» التي تعني أشياء كثيرة عندما تفوه بها امرأة، وقالت مستفهمة:

- الكردينال؟

وما كادت تلفظ هذه الكلمة حتى أدخلت جانّ الكردينال دي روهان واستأذنت، بعد أن ضغطت خلسة على يد عشيقها وعائلها.

فوجد الأمير نفسه وحيداً على بعد ثلاث خطوات من الملكة، التي انحنى وقدّم لها وافر احتراماته باحتشام وذوق، فتأثرت الملكة ومدت يدها إلى الكردينال الذي لم يكن بعد قد رفع نظره صوبها، وقالت له:

- لقد علمت بمأثرتك التي محت كل ذنوبك.

فقال الامير وهو يرتعش من تأثره غير المتصنّع:

- إسمحي لي مولاتي، بأن أؤكد لك أن الذنوب التي تتكلم عليها جلالتك، سوف تصبح جدّ مخفّفة وملطّفة، بمجرد توضيح بسيط.

فأجابته الملكة بهدوء ووقار:

- أنا لا أمنعك أبداً من تبرير نفسك. لكن ما ستقوله، سيلقي ظلالاً على الحب والاحترام اللذين أكنهما لوطني وعائلتي، لأنه لا يمكنك أن تبرئ نفسك من دون أن تجرحني

يا سيدي الكردينال . لذلك من الأفضل عدم لمس النار التي لم تنطفئ كما يجب ، لأنها قد تحرق أصابعك أو أصابعي . والحرص على أن أراك من وجهة نظر جديدة ، أوحت لي بأنك مفضال ، محترم ، ووفيٌّ ...فقاطعها الكردينال قائلاً :

- وفيّ حتى الموت .

فقالت ماري انطوانيت وهي تبتسم :

- الحمد لله ! ولكن الأمر حتى الآن ، لا يتعلق بسوى الإفلاس . فهل ستبقى وفياً لي حتى الإفلاس يا سيدي الكردينال ؟

- مولاتي ...

- هذا ما أنت مقبل عليه . وأنا كصديقة ، لأننا أصبحنا الآن صديقين ، أنصحك بأن تكون مقتصداً ، لأن الاقتصاد هو خاصّة رعوية ، عدا أن الملك يفضلك اقتصادياً لا مسرفاً .

- سوف أصبح شحيحاً كي أرضي جلالتك .

فقالت الملكة بتعبير رقيق تفردت به :

- والملك كذلك ، لا يحب البخلاء ...

فقاطعها الكردينال بشغف مفضوح :

- سوف أصبح كما تشاء جلالتك .

عندئذ حسمت الملكة الموقف بقولها :

– كن مطمئناً، فلقد وضعت ترتيباً لن يدعك تفلس بسببي. إني أشكرك لما تعهدت به من أجلي، وأؤكد لك بأني سأبرّ بتعهداني فلا تهتم بهذه الاستحاقات بعد الآن، لأني ابتداء من الدفعة الأولى، سأكون المسؤولة الوحيدة عنها.

فقال الكردينال وهو ينحني:

– إذن، يبقى علي يا مولاتي، أن أقدم العقد لجلالتك.

وفي ذات الوقت، سحب علبة المجوهرات من جيبه، وقدمها إلى الملكة.

فأخذتها الملكة وهي ترتعش من الفرح، ووضعتها على خزانة البياض تحت متناول يدها، من دون أن تلقي عليها نظرة، مع أنها كانت تتحرق شوقاً لرؤيتها!

وأرفق الكردينال تقدمته بعبارات المجاملة التي ردَّت عليها الملكة بما يرضيه. ثم عاد إلى حديث المصالحة الذي كانت الملكة قد بدأته.

إلا أن الملكة التي وعدت نفسها بعدم رؤية العقد أمامه، وفي الوقت نفسه كانت تتحرق لرؤيته، لم تصغ إليه إلا بشرود فكر.

وبشرود فكر أيضاً سلَّمته يدها، التي قبَّلها بنهم واهتياج... ثم استأذن بالانصراف.

هكذا جرت تلك المقابلة التي لأمت جراح قلب الكردينال، فخرج من لدن الملكة مملوءاً بالفرح والأمل، ومستعداً لأن يبرهن للسيدة دي لاموت عن عميق امتنانه لمسعاها الذي تكلل بالنجاح.

وقد كانت جانّ بانتظاره في عربته، على بعد مئة خطوة من باب القصر، فشكرها بحرارة على مفاوضاتها الناجحة وأكّد لها صدق محبته وإخلاصه، فسألته جانّ قائلة:

- وبعد هذا الإقرار بالفضل، هل ستكون ريشيليو أم مازاران؟ هل منحتك شفة النمساوية الشجاعة على الطموح أم على التودد والحنوّ؟ هل اقتحمت ميدان السياسية أم ميدان المغامرات الغرامية؟

فقال الأمير دي روهان:

- لا تهزئي أيتها الكونتس العزيزة، فأنا مجنون من السعادة!

- إلى هذه الدرجة؟!

- آزريني، وبعد ثلاثة أسابيع سأكون وزيراً.

- يا للطاعون! كم هو طويل الوقت بعد ثلاثة أسابيع! فالاستحقاق الأول قد حُدّد موعده بعد خمسة عشر يوماً من الآن.

– أوه ! إن السعد قد أقبل دفعة واحدة . فالمال متوفر لدى الملكة ، وهي ستدفع، ولن يكون لي الفضل إلا في القصد والنية. إن ثمن سعادتي لم يكن شيئاً يذكر على الاطلاق أيتها الكونتس ، والله شاهدي بأني قد دفعت بملء اختياري مبلغ خمسماية الف ليرة ثمناً لهذه المصالحة .

فقالت الكونتس وهي تبتسم :

– كن مطمئناً ، فسوف تقبض كل قرش دفعته أو تعهدت بدفعه . فهل يهمك ذلك كثيراً ؟

– اعترف لك ، بأني أفضل أن تبقى الملكة مديونة لي .

– قلبي ينبئني يا سيدي ، بأنك ستتمتع كثيراً بهذا الرضى ، فهل أعددت العدة له ؟

– لقد بعت ما تبقّى من غلالي ، ورهنت محاصيلي وأرباحي للسنة المقبلة .

– إذن ، إن مبلغ الخمسماية الف ليرة متوفر لديك ؟

– نعم ، لكنني بعد هذه الدفعة ، لا أدري ماذا سأعمل .

فقالت له جانّ :

– إن دفع هذا المبلغ سيوفر لنا فترة اطمئنان مدتها ثلاثة اشهر . وفي خلال ثلاثة أشهر ، يخلق الله ما لا تعلمون .

– هذا صحيح ، لكن الملك لا يريد أن تزداد ديوني .

- لا تهتمّ ، فمكوثك شهرين في الوزارة ، سيمكنك من إيفاء ديونك حتى آخر قرش .

- أنت دائماً على صواب أيتها الكونتس العزيزة .

ثم استعدت جانّ للذهاب ، فسألها الكردينال :

- إلى أين أنت ذاهبة ؟

- إلى مقابلة الملكة لمعرفة مدى التأثير الذي أحدثه حضورك .

- عظيم ! وأنا سأعود الى باريس .

- لماذا ؟ إن الخطة تقضي بأن لا تبرح المكان ، لأنك ستستأنف اللعبة هذا المساء .

- إني جدُّ متأسف . فقد ارتبطت بموعد هذا الصباح قبل سفري ، وعلي أن أكون حاضراً في الساعة المحددة لهذا الموعد .

- موعد ؟

- نعم ، وموعد رزين كما اتضح لي من محتوى البطاقة التي تلقيتها . انظري ...

فمالت الكونتس وقالت: إنه خط رجل .

ثم قرأت :

«صاحب النيافة ،

هناك شخص يريد أن يحادثك بشأن استيفاء مبلغ هامّ ،

وهذا الشخص سيحضر الى مقرك في باريس، هذا المساء، ليكون له شرف مقابلتك.»

وقالت: رسالة مغفلة ... إنها من متسول.

– لا أيتها الكونتس، فلا يمكن لصاحبها، كي يستخف بي، أن يعرّض نفسه، بطيبة خاطر، إلى ضربات العصا من قبل رجالي.

– هل تعتقد ذلك؟

– يبدو، ولا أعرف لماذا، أني أعرف هذا الخط.

– إذن، إذهب يا سيدي. فالمجازفة لن تكون كبيرة مع الذين يعدون بالمال، وسيقتصر ضررها على عدم الدفع. إلى اللقاء يا سيدي.

– يسعدني أن أراك دائماً أيتها الكونتس.

– بالمناسبة يا سيدي ...

– تكلمي!

– إذا فوجئت بالحصول على مبلغ طائل من المال ...

– مبلغ طائل أيتها الكونتس؟!

– شيء مفقود مثلاً، لُقية! كنز!..

– لقد فهمت عليك أيتها الكيّسة الخبيثة. تريدين أن نتقاسمه؟

– هذا هو الواقع يا سيدي ...

- وسيكون لك ما تريدين ، إذ من غير المعقول أن لا أبالي بك وأنت قد حملت لي السعادة .

- إذن ، أرجوك يا سيدي أن لا تقدم على مسّ الخمسماية ألف ليرة .

- أوه ! لا تخافي أبداً .

ثم افترقا ، وقفل الكردينال عائداً إلى باريس في جو من الغبطة السماوية .

فالواقع أن الحياة قد تغيرت بالنسبة إليه منذ ساعتين . فهو كعاشق ، قد منحته الملكة أكثر مما كان سيجرؤ عليه . وكطموح ، قد جعلته يأمل بتحقيق مطامحه .

لقد شعر الأمير لويس بالأفكار تزدحم في رأسه . فنبوغه السياسي لا يضاهى ، والملك الذي تسيره زوجته بمهارة ، سيكون مصدر ثروته الدائمة . لذا سيتبنى قضية الاصلاح ، ويضم رجال الدين الى الشعب ، فتكون له أكثرية متماسكة قوية تمكنه من أن يحكم بالقوة وبالحق لمدة طويلة ، وسيضع الملكة التي يعبدها على رأس هذه الحركة الاصلاحية .

هذا ما كان يحلم به الكردينال دي روهان . وكلمة حنونة واحدة من ماري انطوانيت ، باستطاعتها أن تجعل هذا الحلم حقيقة ملموسة .

إذ ذاك تخلّى ذلك النزق عن انتصاراته السهلة، وأصبح فيلسوفاً بعد أن كان دنيوياً، ومكباً على العمل الدؤوب بعد أن كان بطّالاً، واستبدل بسهولة شحوب العهر والمجون بعناء البحث والدرس.

ففور عودته الى باريس أحرق الصندوقة التي كانت ملأى بالرسائل الغرامية، واستدعى مدير أعماله وانبرى يكتب مذكراته عن السياسة البريطانية التي كان أكثر السياسيين إلماماً بها. وعندما بدأ يهيمن على ذاته بعد ساعة من العمل، نبَّهه قرع الجرس في غرفته الى قدوم زائر هامّ. فالتفت الحبر وسأل الحاجب الذي ظهر في الباب:

- من القادم؟

- الشخص الذي كتب هذا الصباح الى سيدي الكردينال.

- بدون توقيع؟

- نعم يا سيدي.

- ولكنّ لهذا الشخص إسماً يدعى به. اسأله عن اسمه.

فذهب الحاجب ليعود بعد لحظة ويقول لسيده:

«حضرة الكونت دي كاغليوسترو.»

فارتعش الأمير دي روهان وقال:

- ليدخل.

فما أن دخل الكونت وأُغلقت الأبواب وراءه، حتى صاح الكردينال:

- يا إلهي العظيم! ماذا أرى؟

فقال كاغليوسترو مبتسماً:

- إني لم أتغير أبداً، أليس كذلك يا سيدي؟

فدمدم الامير دي روهان قائلاً:

- هل هذا ممكن... جوزف بلسامو [1] الذي قالوا عنه بأنه مات في ذلك الحريق، حيّ يرزق! جوزف بلسامو...

- نعم يا سيدي. إن الكونت دي فونيكس حيّ، وحيّ أكثر من أي وقت مضى.

---

(١) جوزف بلسامو الشهير بـ «الكونت دي كاغليوسترو»، ولد في باليرمو - ايطاليا عام ١٧٤٣ من والدين فقيرين. دخل رهبنة أخوة الرحمة، وعمل ممرضًا ثم صار طبيباً، وتعلم بعض مبادئ الكيمياء وأخذ يدعي بأنه يستطيع تكثير النقود الذهبية، وهكذا استطاع أن يحتال على كثيرين ويجمع ثروة طائلة. وبسبب ذلك طُرِد من الرهبنة ومن البلاد. سافر الى بلاد المشرق حيث اتقن العلوم الخفية، كمناجاة الأرواح والسحر، ومنها إلى لندن حيث خالط الأوساط الماسونية. وبعد لندن سافر الى المانيا وانضم الى الجمعيات السرية الباطنية وأصبح من أقطابها المشهورين، وقابل الملك فريدريك الثاني. ومن لندن انتقل الى فرنسا تتقدمه شهرة واسعة وحاشية كبيرة من المرافقين والخدم؛ وهناك بلغ قمة المجد والشهرة وادّعى بأنه عاصر السيد المسيح وتعرف اليه. اما علاقته بالكردينال دي روهان ودوره في عقد الملكة، فستكشف عنهما للقراء الفصول المقبلة لهذه الرواية.

- ولكن بأي اسم تقدم نفسك يا سيدي؟! ولماذا لم تحتفظ باسمك القديم؟

- بالضبط لأنه قديم يا سيدي، عدا أنه يذكرني ويذكر الآخرين بأشياء كثيرة حزينة أو مزعجة. ولا أريد التحدث عن سواك يا سيدي، فقل لي: ألم تقفل الباب في وجه جوزف بلسامو؟

- أنا!.. أبداً، أبداً يا سيدي.

وكان الكردينال لم يزل مذهولاً، فلم يقدم حتى مقعداً الى كاغليوسترو، فقال هذا الأخير:

- مع أن نيافتك تتحلى بالصدق والذاكرة القوية!

- سيدي، كنت فيما مضى قد أديت لي خدمة...

فقاطعه كاغليوسترو قائلاً:

- أليس أني لم أزل في نفس السن يا سيدي، وأني خير نموذج لما حققته قطراتي الحياتية؟

- إني أعترف بذلك يا سيدي. فأنت فوق البشر، أنت توزع بسخاء الذهب والصحة على الجميع.

- الصحة، لا أعترض عليها يا سيدي. أما الذهب...

- ألم تعد تصنع ذهباً؟

- لا يا سيدي.

- لماذا؟

– لأني فقدت آخر نقطة من المركَّب الذي لا بدَّ منه لصنعه، والذي كان معلمي، الحكيم ألتوتاس، قد أعطاني إياه بعد خروجه من مصر. وهذا المركب هو الوحيد الذي لا أملك سرَّه شخصياً.

– لقد احتفظ به لنفسه؟

– احتفظ به، أو دُفن معه في القبر، كما تشاء.

– هل مات؟

– لقد فقدته.

– لماذا لم تطل حياة هذا الرجل الضروري طالما أنه يستأثر بهذا المركَّب، أنت الذي حفظت نفسك حياً وفتياً منذ قرون؟

– لأني أستطيع عمل كل شيء ضدَّ الأمراض والجراح، ولكني لا أستطيع عمل شيء ضد الحوادث التي تسبب القتل من دون استدعائي.

– إذن، لقد قضى ألتوتاس بحادث!

– ويجب أن تعرف هذا الحادث، طالما أنك تعرف قصة موتي أنا.

– لقد أختفيت بعد ذلك الحريق الذي شبَّ في شارع سان كلود.

– هذا الحريق قد قضى على ألتوتاس وحده ، أو بالأحرى لقد شاء الحكيم أن يموت بعد أن تعب من الحياة .

– أمر غريب !

– لا ، ليس بغريب بل هو طبيعي . فأنا بدوري ، قد فكرت مئة مرة بأن أُنهي حياتي .

– ومع ذلك ، فها أنت ما زلت على قيد الحياة .

– ذلك لأني اخترت حالة الشباب ، فجعلتني الصحة الجيدة ، والأهواء ، وملذات الجسد ، في حيرة من أمري . بينما ألتوتاس اختار حالة الشيخوخة .

– كان على ألتوتاس أن يختار ما اخترته أنت .

– لا ، فألتوتاس كان رجلاً عميقاً ومتفوقاً ، ولا يطمح من هذه الدنيا إلا بالعلم ، وقد مات شهيد وفائه لهذا العلم . فلو أنه اختار الشباب مثلي ، لكانت الأهواء والملذات قد صرفته عن تحقيق هدفه . فأنا أعيش كدنيويّ يهدر وقته سدى . إني نبتة ... ولا أجرؤ أن أقول زهرة . إني لا أعيش ، بل أتنفس !

فدمدم الكردينال قائلاً :

– إن كلامك السحري يا سيدي ، قد أعادني بالذاكرة الى حلمين في عهد شبابي . فقد تصرمت عشر سنوات كما لا يخفاك ، على اليوم الذي تعرفت فيه إليك .

– إني أعرف ذلك ، ولقد طرأت تغيرات على كلٍ منّا

خلال هذه المدة. فأنا يا سيدي لم أعد حكيماً، بل عالماً. وأنت لم تعد شاباً وسيماً، بل أميراً جميلاً. هل يتذكر سيدي ذلك اليوم الذي بشرتك فيه، في غرفتي، بحبّ امرأة شعرها أشقر؟

فاصفرّ الكردينال، ثم احمرَّ فجأة... وتناوب الخوف والفرح على التلاعب بنبضات قلبه. ثم قال بحيرة وارتباك:

- إني أتذكر...

فقال كاغليوسترو مبتسماً:

- لا أدري، لا أدري إذا كنت لم أزل أستطيع تقمص شخصية الساحر. على كلٍ، سوف أحاول التركيز على هذه الفكرة.

وبعد فترة صمت فكَّر في خلالها ملياً، قال:

- هذه الصبية الشقراء التي هي محطّ أحلامك الغرامية، أين هي يا ترى؟ وماذا تعمل؟ آه! قسماً بشرفي إني أراها... نعم... وأنت أيضاً قد رأيتها اليوم. وأكثر من ذلك، فأنت خارج لتوّك من لدنها...

فسند الكردينال قلبه الخافق بيده الباردة، وقال بصوت خافت بالكاد سمعه كاغليوسترو:

- سيدي، بحق...

فقال العرّاف برقة:

– هل تريد أن نغيّر الحديث ؟ أنا رهن أوامرك يا سيدي ، فأرجوك أن تتصرف بي على هواك .

ثم استلقى كاغليوسترو بحرية على «صوفا» ، كان الكردينال قد نسي أن يدعوه للجلوس عليها منذ بدء هذا الحديث المثير !

المدين والدائن

★

أخذ الكردينال يتطلع الى ضيفه كالأبله تقريباً ... إلى أن قال له هذا الأخير :

– أما وقد جددنا المعرفة يا سيدي ، فلنتحدث إذا شئت :

فأجابه الحبر وقد بدأ يتمالك روعه :

– نعم ... نعم ، لنتحدث عن ذلك الاستيفاء الذي ... الذي ...

– الذي أشرت اليه في بطاقتي إليك ، أليس كذلك ؟

– أوه ! لقد كان ذلك ذريعة ، أليس كذلك ؟ هذا ما أفترضه على الأقل .

– لا يا سيدي ، ليس ذريعة على الاطلاق . بل حقيقة تتعلق باستيفاء خمسماية الف ليرة ، وهو مبلغ محترم .

فصاح الكردينال وقد بدأ الاصفرار يصبغ وجهه :

- ولكنك قد وهبتني هذا المبلغ بكل طيبة خاطر .

- أيقبل الهبة ، أمير عظيم مثلك يا سيدي ؟! الواقع أني قد قرضتك هذا المبلغ لقاء إيصال .

فشعر الكردينال كأن خنجراً قد انغرز في قلبه ، وأخذ العرق البارد يتصبب من جبهته على خديه . ثم قال وهو يحاول أن يبتسم :

- كنت اعتقدت لفترة من الوقت ، أن جوزف بلسامو ، الرجل الفوْطبيعي ، قد ذهب بدينه الى القبر ، كما رمى بإيصالي في النار .

فأجاب الكونت كاغليوسترو برصانة :

- إن حياة جوزف بلسامو يا سيدي ، هي حياة أبدية كما هي تلك الورقة التي اعتقدت بأنها قد زالت من الوجود . فالموت يبقى عاجزاً أمام إكسير الحياة ، والنار كذلك أمام ورق الأمْينت .

فقال الكردينال وقد شعر بغشاوة أمام عينيه :

- إني لم أفهم .

فقال كاغليوسترو :

- أنا أكيد يا سيدي ، بأنك سوف تفهم .

- كيف ذلك ؟

- عندما تتعرف إلى توقيعك ...

ثم قدم إلى الامير ورقة مطوية، فصاح الأمير قبل ان يفضّها:

- إيصالي !..

فابتسم كاغليوسترو ابتسامة خفيفة وأجاب:

- نعم يا سيدي، إيصالك.

- ولكنك قد أحرقته ... ورأيت اللهب بنفسي!

فقال الكونت:

- هذا صحيح، فأنا قد ألقيت هذه الورقة في النار. ولكن كما قلت لك يا سيدي، قد شاءت الصدف أن تكون قد كتبت على ورقة من الأمْينت، وليس على ورقة عادية، بحيث أني وجدت الايصال صاغاً سليماً على بقايا الفحم.

فقال الكردينال بشيء من العجرفة، وقد أخذته الريبة من إبراز هذا الايصال:

- لقد أخطأت في خداعك لي يا سيدي. فأنا ما كنت لأنكر ديني بدون هذا الايصال. ولكن مع هذا الايصال، سوف أنكره.

- أنا خدعت نيافتك! إني أقسم لك بأني لم أفكر في خداعك لحظة واحدة.

- لقد جعلتني أعتقد بأن الضمانة قد أُتلفت.

فحرك بلسامو كتفيه قليلاً وأجاب :

– ذلك كي أُدخل السرور الى قلبك ، ولا أدعك تشغل بالك بالخمسماية ألف ليرة .

– ولكن مبلغاً كهذا ، كيف تركته عشر سنوات بدون تسديد ؟!

– لأني كنت أعرف أنه في مكان أمين . وبما أني تعرضت لأحداث كثيرة ، تعاقب اللصوص في خلالها على نهب كل ما أملك ، فقد صبرت حتى اللحظة الأخيرة كي أطالبك بهذا الدين .

– وقد حانت هذه اللحظة الأخيرة ؟

– نعم يا سيدي ، وبكل أسف !

– بحيث لم يعد بأمكانك الصبر والانتظار ؟

فقال كاغليوسترو :

– هذا هو الواقع يا سيدي .

– ولهذا جئت تطالبني بمالك ؟

– نعم يا سيدي .

– وتسديده في هذا اليوم بالذات ؟

– إذا شئت .

فصمت الكردينال قليلاً ، ثم قال بصوت يائس :

– إن الأمراء التعساء على هذه الأرض يا سيدي الكونت ،

لا يستحضرون الثروات ارتجالاً كما تفعلون أنتم معشر السحرة، إذ تستحضرونها بواسطة الأرواح الشريرة.

فقال كاغليوسترو:

- أوه! تأكد يا سيدي بأني ما كنت لأقدم على مطالبتك بهذا المبلغ، لو لم أكن واثقاً بأنه موجود في حوزتك.

فصاح الكردينال:

- أنا لدي خمسماية ألف ليرة!

- نعم، وهي مفصلة كما يلي: ثلاثون ألفاً ذهباً، عشرة آلاف فضة، والباقي عملة متداولة.

فشحب لون الكردينال، وأكمل كاغليوسترو يقول:

«وهذا المبلغ موجود في هذه الخزانة!»

- أوه! أنت تعرف ذلك يا سيدي؟!

- نعم يا صاحب النيافة. وأعرف أيضاً كل ما قمت به من تضحيات في سبيل الحصول على هذا المبلغ. وقد سمعت الناس يقولون ايضاً، بأن هذا المبلغ قد كلّفك ضعف قيمته.

- نعم، هذا صحيح.

- أما...

فصاح الكردينال التعيس:

- أما ماذا؟

فأكمل كاغليوسترو يقول:

– أما أنا يا سيدي، ففي خلال عشر سنوات، كدت عشرين مرة أموت من الفاقة والجوع، إلى جانب هذه الورقة التي تمثل بالنسبة لي نصف مليون. ومع ذلك، وكي لا أعكر صفوك، فقد انتظرت طوال هذه المدة. لذا أعتقد بأننا قد أصبحنا متعادلين يا سيدي.

فصاح الأمير:

– متعادلان يا سيدي! أوه! لا تقل بأننا متعادلان، لأنه تبقى لك ميزة السخاء بقرضك إياي هذا المبلغ الضخم من المال. متعادلان! أوه! لا، لا، فأنا سأبقى أسير فضلك إلى الأبد. ولكن إسمح لي أن أسألك يا حضرة الكونت: لماذا، طالما أن باستطاعتك مطالبتي بهذا المبلغ منذ عشر سنوات، قد احتفظت بالصمت طوال هذه المدة؟ ففي خلال السنوات العشر هذه، قد واتتني عشرون فرصة كان بإمكاني أن أردَّ لك هذا المبلغ في خلالها دون أن يلحقني أي إزعاج.

فسأل كاغليوسترو:

– بينما اليوم؟..

فصاح الأمير يقول:

– أوه! لا أخفي عليك يا سيدي، بأن مطالبتك لي اليوم بهذا المبلغ، تزعجني غاية الإزعاج.

فهزَّ كاغليوسترو رأسه وكتفيه بما معناه:

«ماذا تريد يا سيدي؟ فهذا حقي، وقد جئت أطالب به.»

فقال الأمير:

- ولكني أعجب منك، أنت الذي يحزر كل شيء، والذي يقرأ ما في أعماق القلوب، وحتى ما في الخزائن، كيف أنك لم تعرف لماذا احتفظت بهذا المبلغ من المال، ولأية غاية مقدسة قد خصَّصته!

فقال كاغليوسترو ببرودة:

- إنك مخدوع يا سيدي، فأنا أعرف كل الأسرار ولكني لا أهتمّ إلا بما يعنيني منها. والذي كان يهمني، هو معرفة ما إذا كان لديك مال أو لا، بما أن لي مالاً في ذمتك والحاجة الماسة تضطرني إلى مطالبتك به. أما لأية غاية قد خصصت مالك، فهذا أمر قلما يهمني. زد على ذلك، بأني لو كنت عالماً في هذه اللحظة سبب حيرتك، وكان هذا السبب وجيهاً وذا أهمية، لربما كنت وهنت وأجّلت مطالبتك، والتأجيل في هذه الظروف سيلحق بي أذى وضرراً كبيرين، لذلك أفضّل أن أجهل هذا السبب.

فصاح الكردينال وقد أيقظت كلمات الكونت الأخيرة كبرياءه:

- أوه! لا تعتقد يا سيدي بأني أريد استدرار عطفك. إن

لك حقاً عليَّ، وهذا الحق تجسده وتضمنه هذه الورقة الحاملة توقيعي، وهي خير ضمانة لاسترداد الخمسماية ألف ليرة.

فانحنى الكونت قليلاً، وأكمل الكردينال يقول وقد آلمه جداً أن يفقد في دقائق معدودة هذا المبلغ الذي جمعه بشقّ النفس:

– إعلم يا سيدي، بأن هذه الورقة ليست سوى إقرار بالدين، وهي لا تحدد أي وقت لاستيفائه.

فأجابه الكونت:

– لتعذرني نيافتك إذا ما ذكَّرتها بالعكس، وهذا ما جاء في إيصالك يا سيدي الكردينال، فتفضَّل واقرأ:

فقرأ الكردينال ما كتبه بخط يده، وهذا نصّه:

«أعترف بأني قد قبضت من السيد جوزف بلسامو مبلغاً قدره خمسماية ألف ليرة، وإني أتعهد بتسديد هذا المبلغ عند أول طلب منه».

التوقيع

«لويس دي روهان»

فارتعش الكردينال من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، لأنه لم يكن قد نسي الدين فقط، بل أيضاً شروط استحقاقه.

وأكمل بلسامو يقول:

– وهكذا ترى يا سيدي، بأني لم أطلب المستحيل. وإني

لآسف أن تكون نيافتك قد تناست بأن المبلغ قد نقدها إياه جوزف بلسامو بصورة عفوية، وساعة موته. ولمن؟ للأمير دي روهان الذي لم يكن يعرفه، وهو سيد من كبار الأسياد. وبما أن مطالبتي لك قد أزعجتك الى هذا الحد يا سيدي، فأرجو المعذرة، وليسامحك الله.

قال الكونت هذا القول ثمَّ طوى الورقة وهمَّ بوضعها في جيبه، فاستوقفه الكردينال وقال له:

- إن شدّ ما يؤلم الروهانيَّ يا سيدي الكونت، هو أن يعطيه أحد دروساً في الكرم والسخاء، فكيف إذا كان هذا الدرس يتعلق بالصدق والاستقامة. فأرجوك ان تعطيني هذا السند، لأني قررت أن أدفعه لك.

وهنا جاء دور كاغليوسترو في التردد... فالواقع أن وجه الكردينال الشاحب، وعينيه المنتفختين، ويده المرتعشة، قد أثارت شفقته.

والكردينال الفخور بما أقدم عليه، أدرك ما يعتمل في نفس كاغليوسترو، فاعتقد للحظة، بأن تردده ستستتبعه نتيجة حسنة.

ولكن فجأة، تحجر قلب الكونت، ومدّ يده بالسند الى الكردينال...

فلم يُضع الامير دي روهان، المطعون في قلبه، برهة من

الوقت ، بل استدار فوراً نحو الخزانة التي كان كاغليوسترو قد أشار إليها ، واستخرج منها كدسة من الأوراق النقدية ، ثم أشار بإصبعه إلى عدة أكياس من الفضة ، وسحب درجاً مليئاً بالذهب ، وقال :

– هذا هو مالك يا سيدي الكونت ، وسأبقى مديوناً لك بفائدة ، حتى هذه الساعة ، مقدارها مئتان وخمسون ألف ليرة ، بالإضافة إلى الفائدة المركبة التي تشكل مبلغاً محترماً هي الأخرى . سوف أجري الحساب بواسطة مدير أعمالي ، وأقدم لك كل التعهدات بالدفع ، مع الرجاء بأن تستمهلني وقتاً كافياً لدفع هذه الفوائد .

فأجابه كاغليوسترو قائلاً :

– أنا يا سيدي قد أقرضت الأمير دي روهان خمسماية ألف ليرة . فالأمير دي روهان إذن ، مديون لي بهذا المبلغ من دون زيادة ولا نقصان . فلو شئتُ قبض فوائد ، لاشترطت أن يدوَّن ذلك في الإيصال . فبصفتي وكيلاً أو وريثاً لجوزف بلسامو ، كما يروق لك أن تعتبرني طالما أن جوزف بلسامو قد مات وشبع موتاً ، يتوجب عليَّ أن لا أقبض سوى المبلغ المدون في الايصال ، وذلك مع الشكر وتقديم فائق الاحترام .

وبما إني بحاجة ماسة إلى كامل هذا المبلغ اليوم بالذات ،

فسآخذ الآن الأوراق النقدية ، وأبعث لتوّي من يأخذ الذهب والفضة ، فأرجوك أن تبقيها لي جاهزة .

ثم دسّ كاغليوسترو الأوراق المالية في جيبه ، وصافح الأمير باحترام ، تاركاً إيصاله بين يديه ، وخرج دون أن يجد الكردينال ما يقوله !

وبعد خروج كاغليوسترو ، تنهد الأمير دي روهان وقال :

– إن الشقاء قد أصابني وحدي ، لأن الملكة بمقدورها أن تدفع ، وهي على الأقل ، لن يأتيها جوزف بلسامو غير منتظر ، ليطالبها بمبلغ خمسماية ألف ليرة .

الحسابات العائلية

★

قبل عشية اليوم المحدد لتأمين الدفعة الأولى للملكة ، لم يكن بعد السيد دي كالون قد استطاع البرّ بوعده . لأن الملك لم يكن بعد قد وقّع على حساباته .

وصادف أن الوزير كان جدَّ مشغول ، فنسي الملكة قليلاً . والملكة ، من جهتها ، لم تسمح لها كرامتها بأن تذكر وزير المالية . فقد وعدها ، وعليها أن تنتظر وعده .

ولكن القلق ابتدأ يساور الملكة ، فأخذت تبحث عن أفضل الوسائل لتكلم السيد دي كالون دون أن تعرّض نفسها لما لا تحمد عقباه. وفيما هي كذلك ، تلقت من الوزير المذكور بطاقة ، هذا ما جاء فيها :

«هذا المساء سيوقع في مجلس الوزارة على القضية التي شرفتني بالتكليف بها جلالتك، والمال سيكون عند الملكة غداً صباحاً .»

فعادت البسمة مشرقة عريضة إلى شفتي ماري انطوانيت ، ولم تعد تفكر بشيء ، حتى بذلك الغد المنتظر.

وكانت قد شوهدت في نزهاتها ، تقصد الممرات السرية كي تتجنب التفكير بكل ما هو مادي ودنيوي.

وبعض المرات كانت تتنزه برفقة السيدة دي لامبال والكونت دارتوا . وهذا الأخير كان ينضم إليهما عندما يدخل الملك الى مجلسه بعد العشاء.

لقد كان الملك ذا مزاج صعب . وزاد مزاجه صعوبة ، الأخبار السيئة الواردة من روسيا ، بالإضافة الى فقدان مركب في خليج الأسد ، والى رفض بعض المقاطعات تأدية الضريبة .

وزاد الطين بلة ، كرة أرضية جميلة كان الملك قد صقلها وطلاها بالبرنيق بنفسه. فقد انفجرت هذه الكرة من شدة الحرارة ، وبدت أوروبا عليها منشطرة الى شطرين عند ملتقى

الدرجة الثلاثين من خط العرض، بالدرجة الخامسة والخمسين من خط الطول، مما جعل جلالته يحرد على كل الناس، بمن فيهم وزير ماليته السيد دي كالون.

وعبثاً حاول دي كالون، بمظهره الباش الضاحك، أن يقدم له حقيبته الجميلة والمعطرة. فقد بقي الملك صامتاً مقطباً، يخربش على قطعة من الورق الابيض المصقول خطوطاً اصطلاحية في الخارطات تعني: «عاصفة»، كما تعني الجياد والأشخاص المصنوعين من الثلج: «طقس جميل».

إن الرسم أثناء انعقاد مجلس الوزراء كان عادة مستهجنة في الملك، لكن هذه العادة مردها أن لويس السادس عشر كان رجلاً خجولاً يتحاشى النظر الى الناس وجهاً لوجه، وكان القلم في يده يحفظ له وقاره ويقوي ثقته بنفسه. فإذا ما تكلم أحد باسطاً حججه وبراهينه، يشغل الملك نفسه بهكذا خربشات، ويسترق النظر إلى هذا وذاك من الحضور، بقدر لا ينسيه الرجل المتكلم، ويمكّنه في الوقت نفسه من الحكم على آرائه.

إذن تناول الملك القلم على عادته وأخذ يخربش به فيما كان الوزراء يناقشون المشاريع ويتلون التقارير الدبلوماسية.

وقد ترك المراسلات الخارجية تمرّ دون أن ينبس ببنت شفة، كأنه لم يفهم كلمة مما جاء فيها.

ولكن عندما بدأ مجلس الوزراء يبحث في تفاصيل الحسابات الشهرية، رفع لويس السادس عشر رأسه... فاغتنم دي كالون الفرصة وكاشفه بمذكرة تتعلق بقرض مقترح من أجل السنة المقبلة، فانبرى الملك يخربش وقال:

«دائماً قروض من دون أن نعرف كيف نسددها؟ إن هذا الأمر لمن الخطورة بمكان يا سيد كالون.»

فأجابه دي كالون قائلاً:

- إن القرض يا مولاي، هو بمثابة قناة للمياه، تختفي فيها المياه هنا لتظهر غزيرة هناك. وأكثر من ذلك، فإن هذه المياه ستتضاعف بفضل الامتصاصات الجوفية. لذا عوضاً عن أن نقول: كيف سندفع؟ يتوجب علينا أن نقول: كيف وممن سنقترض؟ لأن السؤال المطروح يا صاحب الجلالة، هو التالي: هل سنجد دائنين؟

فضاعف الملك رسم الخطوط بحركة عصبية دون أن يزيد كلمة واحدة، لأن قسمات وجهه كانت تتكلم...

وبعد أن انتهى السيد دي كالون من عرض مشروعه ونال موافقة زملائه، تناوله الملك ووقّع عليه وهو يتنهد.

وبعد أن تمت المصادقة، قال دي كالون وهو يضحك:

«أما وقد أصبح لدينا مال الآن، فلنصرف!»

فتطلع الملك إلى وزيره مكشراً، وكوَّن من الخطوط التي رسمها على عجل، لطخة حبر كبيرة...

ورغم هذه التكشيرة، قدم له دي كالون جدولاً يتعلق بمعاشات، ومنح، وتشجيعات، وهبات، ورواتب عسكريين.

فأخذ الملك يقلب صفحات هذا الجدول على مهل. وعندما وصل إلى آخره، قال بعد أن تهيأ ليوقع على مبلغ مليون ومئة الف ليرة: كيف بلغت النفقات هذا المبلغ؟!

فأسرع وزير المالية إلى الإجابة بقوله:

- إقرأ يا مولاي، إقرأ! وتفضل ولاحظ بأنه على المليون والمئة الف ليرة، هناك نفدة وحيدة بلغت خمسماية الف ليرة.

فسأل الملك متعجباً:

- أية نفدة أيها الوزير؟

- إنها السلفة المعطاة إلى صاحبة الجلالة يا مولاي.

فصاح لويس السادس عشر:

- إلى الملكة!.. خمسماية ألف ليرة إلى الملكة! هذا مستحيل، مستحيل يا سيد دي كالون.

- عفواً يا مولاي، فالرقم مضبوط!

فعاد الملك يقول :

– خمسماية ألف ليرة للملكة ! يجب أن يكون هناك غلط . فالاسبوع الماضي ... لا ، منذ خمسة عشر يوماً ، دفعت مخصصات الأشهر الثلاثة إلى جلالتها .

– لا داعي للعجب يا مولاي . فالملكة بحاجة إلى مال ، والكل يعرف كيف تتصرف بالمال جلالتها .

فصاح الملك من جديد :

– لا ، أبداً . الملكة لا تريد هذا المبلغ يا سيد دي كالون . فالملكة قالت لي : «إن شراء سفينة أفضل من شراء جواهر .» والملكة تعتقد بأن على الأغنياء أن يقرضوا فرنسا ، طالما أن فرنسا تقترض لإطعام فقرائها . إذن ، لو كانت الملكة بحاجة لهذا المال ، ففضلها سيكون أكبر إن هي صبرت للحصول عليه . وأنا أضمن لك ، بأنها ستصبر .

فصفّق الوزراء طويلاً لهذا الحماس الوطني الذي أظهره الملك ، باستثناء السيد دي كالون الذي أصرّ على طلبه ، لأنه كان يدرك فاقة الملكة .

عند ذاك قال له الملك :

– رويدك أيها السيد دي كالون ، ولا تكن ملكياً أكثر من الملك !

فقال دي كالون :

- مولاي ، ان الملكة ستتهمني بعدم الغيرة على مصلحتها .

- سوف أدافع عنك ، وأجد لموقفك مسوِّغاً شرعياً لديها .

- مولاي ، إن الملكة لا تطلب مالاً إلا عند الضرورة القصوى .

- إن حاجة الملكة ، إذا كانت بحاجة ، هي أقلُّ إلحاحاً من حاجات الفقراء كما أعتقد ، وهي ستكون أولى الموافقين على هذا الرأي .

- مولاي ...

فقال الملك بعزم وتصميم : «هذه مسألة مفروغ منها .»

وأمسك بالقلم وهمَّ بتحريك ريشته على الجدول المذكور ، فصاح دي كالون مذهولاً :

- هل ستلغي المبلغ يا مولاي ؟!

فأجابه لويس السادس عشر بعظمة وجلال :

- نعم سألغيه . ويتراءى لي بأني أسمع من هنا ، صوت الملكة السمح ، يشكرني لأني عرفت جيداً ما في قلبها .

فأخذ دي كالون يعضض شفتيه ، فيما كان الملك ، المغتبط بهذه التضحية الشخصية البطولية ، يوقع على ما تبقى من الحسابات ، وذلك بحسن نية مطلقة .

ثم عاد الى كتابة الخطوط، فرسم بها حماراً وحشياً جميلاً محاطاً بأصفار، وقال:

- لقد ربحت هذا المساء خمسماية الف ليرة! إنه يوم جميل في حياة الملك يا كالون، وعليك أن تنقل هذا الخبر إلى الملكة.

فدمدم الوزير قائلاً:

- أرجو أن تعفيني من هذه المهمة يا مولاي، لأنها مهمة شاقة بالنسبة لي.

- حسناً. لترفع الجلسة على كل حال، فقد كفانا ما عملنا، وما عملناه مشكور وجيد. آه! ها هي الملكة مقبلة، لنذهب إلى استقبالها يا كالون.

- مولاي، عفو جلالتك، فهناك توقيعي...

ثم انسحب بأسرع ما يمكن عبر الممشى.

أما الملك، فقد ذهب متهلل الوجه إلى استقبال ماري انطوانيت، التي كانت تغني في الرواق وهي تسير متأبطة ذراع الكونت دارتوا.

فعندما أصبح لويس السادس عشر على مسافة قصيرة منها، بادرها بقوله:

- لقد قمت بنزهة جميلة يا سيدتي، أليس كذلك؟

- نزهة ممتعة يا مولاي. وأنت، هل عملت عملاً حسناً؟

- هذا يرجع إلى تقديرك ، فأنا قد أكسبتك خمسماية ألف ليرة ! فقالت الملكة في نفسها : «يبدو أن كالون قد أبرَّ بوعده .»

وأضاف الملك قائلاً :

- تصوري بأن كالون ، قد خصَّصك بمبلغ نصف مليون ليرة .

فصاحت ماري انطوانيت وهي تبتسم :

- أوه !..

- وأنا ... قد ألغيت المبلغ . فأكون قد ربحت خمسماية ألف ليرة بشطحة قلم !

فقالت الملكة وقد شحب لونها :

- كيف ألغيته ؟!

- بكل صراحة ، ذلك سيعود عليك بمنفعة طائلة . ليلة سعيدة يا سيدتي ، ليلة سعيدة .

- مولاي ! مولاي !

- إن الجوع ينهشني يا سيدتي ... لم أعد أقوى عليه ، فإلى الغد ، إلى الغد ...

- مولاي ، استمع إلي .

لكن لويس السادس عشر الذي راقت له تلك الدعابة ، كان قد نطنط هارباً ... تاركاً الملكة مبهوتة ، صامتة ،

ومروَّعة . وبعد صمت دام ما يقرب الدقيقة ، قالت للكونت دارتوا :

– إبحث لي يا أخي عن السيد دي كالون ، فهناك خطر يتهددني ...

وبنفس الوقت ، جاء من يحمل الى الملكة بطاقة وزير المالية التالي نصها :

«علمت جلالتك ، ولا شك ، بأن الملك قد رفض المبلغ . إن هذا العمل لا يُدرك كنهه يا مولاتي ، لذا انسحبت من مجلس الوزراء ، وقد برَّحني الألم والمرض .»

فقالت الملكة وهي تمرر البطاقة إلى الكونت دارتوا :

– إقرأ !..

فصاح الكونت بعد أن قرأ :

– وهناك أناس يقولون بأننا نبذر ونبدد الأموال يا أختي ! إنه لعمري تصرف ...

فهمهمت الملكة تقول :

– وقد قام به زوجي !.. وداعاً يا أخي .

– تقبلي مؤاساتي أيتها الأخت العزيزة . فها أنا قد أخذت علماً بما جرى ، وسوف أبحث الأمر غداً .

فقالت الملكة إلى السيدة دي ميزاري ، بعد أن فكرت ملياً :

- ليذهبوا ويأتوني بالسيدة دي لاموت، أينما تكون، وعلى جناح السرعة.

ماري انطوانيت ملكة
جانّ دي لاموت امرأة

★

إن الساعي الذي أرسلوه للبحث عن السيدة دي لاموت في باريس، قد وجد الكونتس، أو على الأصح لم يجدها لدى الكردينال دي روهان.

فالكونتس كانت قد ذهبت للقيام بزيارة نيافته، فاستبقاها عنده على الغداء، ثم على العشاء. وقد كانت تتباحث مع الكردينال بذلك الإلغاء المكدر للمنحة التي اقترحها دي كالون للملكة، عندما جاء الساعي يسأل عما إذا كانت السيدة دي لاموت لدى الأمير دي روهان، فأجابه الحاجب الفطن بأن صاحب النيافة قد خرج، وبأن السيدة دي لاموت ليست في القصر، ولكن لا شيء يفرّحها أكثر من أن أبلغها إرادة الملكة التي كلّفتك بنقلها إليها. إذ من المحتمل أن تأتي إلى القصر هذا المساء.

فأبلغه الرسول بأن الملكة تريدها أن تذهب إلى فرساي في أسرع وقت ممكن. وذهب فوضع نفس الخبر في كل المنازل التي كانت تتردد إليها الكونتس.

وما أن ذهب الرسول، حتى أرسل الحاجب زوجته فأبلغت الكونتس رغبة الملكة، فيما كان الشريكان، أي الكونتس والكردينال، يناقشان على مهل تقلبات أسعار الفضة.

فعندما تبلغت الكونتس إرادة الملكة، أدركت بأنه يتوجب عليها الإسراع في السفر إليها. لذا استقلت اول عربة تأمنت لها، وبعد ساعة كانت أمام القصر الملكي.

وقد كان من ينتظرها أمام القصر، فأدخلها رأساً على ماري انطوانيت.

في تلك الساعة، كانت ماري انطوانيت قد احتجبت في غرفتها بعد أن قُدمتْ لها كل خدمات الليل، ولم يبق في شقتها سوى السيدة دي ميزاري التي كانت تقرأ في الصالون الصغير.

أما ماري انطوانيت، فقد كانت تطرز، أو تتظاهر بأنها تطرز، وتصيخ السمع، قلقة، إلى كل حركة في الخارج، عندما أسرعت جانّ إلى الوقوف أمامها. فصاحت الملكة:

- آه! لقد أتيت؟ حسناً فعلت، فهناك خبر... أيتها الكونتس.

– سارّ يا مولاتي ؟

– احكمي عليه . لقد رفض الملك الخمسماية ألف ليرة .

– رغم اقتراح السيد دي كالون ؟!

– رغم اقتراح العالم . فالملك لا يريد أن أُعطى أي مبلغ من المال زيادة عمَّا هو مخصَّص لي .

فهمهمت الكونتس قائلة :

– يا إلهي !...

– شيء لا يصدق . أليس كذلك أيتها الكونتس ؟ رفض ، وشطب أمر الدفع المعدّ ! على كلٍ ، لنكفَّ عن الكلام على الميت ، يجب أن ترجعي بسرعة إلى باريس ...

– بكل طيبة خاطر يا مولاتي .

– وتقولي للكردينال ، طالما أنه قدم الدليل على تفانيه في سبيل إسعادي ، بأني أقبل منه الخمسماية الف ليرة حتى موعد مخصصاتي الفصلية المقبلة . إني أُفرط في الأنانية أيتها الكونتس ، ولكنها أنانية لا بدَّ منها ...

فتنهدت جانّ من أعماق قلبها ، ودمدمت قائلة :

– يا لحظنا التعيس يا مولاتي !.. فالكردينال لم يبق لديه مال !!

فقفزت الملكة من مكانها كأن حية لسعتها ... وقالت بصوت متلجلج :

- لم يعد ... لديه ... مال!

- بكل أسف يا مولاتي. فهناك دين لم يكن الأمير دي روهان يحسب له أي حساب، وإذ بالدائن يأتي فجأة ويطالبه به بإلحاح. وبما أن الدين هو دين ممتاز، فقد اضطرَّ إلى دفعه.

- خمسماية ألف ليرة!!

- نعم يا مولاتي.

- ولكن ...

- إنه ماله الأخير ... ولم يعد لديه موارد!

فوقفت الملكة وقد طاش رأسها من هول المصيبة. ثم قالت بعد صمت قليل:

- كيف عرفت أيتها الكونتس، بأن السيد دي روهان لم يبق لديه مال؟

- لقد أطلعني على هذه الكارثة منذ ساعة ونصف يا مولاتي، وهي كارثة لا يمكن تداركها، لأن الخمسماية ألف ليرة هي كما يقولون: قعر الصندوق!

فأسندت الملكة جبهتها بكلتا يديها، وقالت: «يجب أن أتّخذ قراراً.»

فكرت جانّ في نفسها قائلة: «ماذا ستعمل الملكة يا ترى؟»

ثم أعلنت الملكة قرارها بقولها :

– إنها أمثولة رهيبة أيتها الكونتس، استحقيت معها القصاص، لأني قمت بعمل في هذه الأهمية دون علم الملك، بالإضافة إلى أنه عمل طائش لا مبرر له، لأنني لم أكن بحاجة الى هذا العقد. ألا تقرينني على ذلك؟

– هذا صحيح يا مولاتي. ولكن إذا لم تستشر الملكة سوى حاجاتها وذوقها...

– أريد أن استشير طمأنينتي قبل كل شيء، وطمأنينتي في سعادتي المنزلية. لم يكن يلزمني أكثر من هذه السقطة أيتها الكونتس، لأتيقن كم كنت سأعرّض نفسي للقلق، وكم كانت الطريق التي اخترتها محفوفة بالمصائب والنكبات. لذا تخليت عنها، واخترت طريق الصراحة، والحرية، والبساطة.

– مولاتي!

– وكي أبدأ هذه الطريق، علي كما قال دورات [1]، أن أضحي بمباهاتي على مذبح الواجب.

ثم تنهدت الملكة ودمدمت قائلة :

– مع أن هذا العقد، كان رائعاً!..

– فضلاً عن أنه رائع يا مولاتي، إنه قيمة مادية دائمة.

---

(١) شاعر وإنساني فرنسي.

– من الآن فصاعداً ، لم يعد بالنسبة لي ، سوى كومة من الحجارة ، كتلك الحجارة التي يلهو بها الأولاد ، ثم يرمونها بعد اللعب وينسونها .

– ماذا تريد أن تقول جلالة الملكة ؟

– الملكة تريد أن تقول أيتها الكونتس العزيزة ، بأنك سوف تحملين علبة المجوهرات ... التي جاءني بها السيد دي روهان ، وتأخذينها إلى الصائغين ، بوهمير وبوسانج .

– عليَّ أن أردَّها لهما ؟!

– بالضبط !

– ولكن جلالتك يا مولاتي ، قد دفعت مئتين وخمسين الف ليرة كعربون ، وقد يمتنع الصائغان عن ردّها . فهل تخسرين هكذا مئتين وخمسين ألف ليرة ؟!

– إني مستعدة للتخلي عن هذا العربون ، شرط أن تُفسخ الصفقة . فمنذ استقرَّ هذا العقد في خزانتي ، استقرت معه الهموم ، والمخاوف ، والشكوك . فهذه الحبات من الماس ، لن تكون دافئة بما فيه الكفاية ، لتجفف الدموع التي أشعر بأنها ستتدفق كالأمواج من عينيَّ ! فاذهبي بهذه العلبة عني فوراً أيتها الكونتس . وبالنسبة للصائغين ، إنهما سيربحان مئتي ألف ليرة مقابل لا شيء . ومما لا شك فيه ، أنهما سيكونان مسرورين جداً .

أما بالنسبة للكردينال، فأرجوك أن تبلغيه، بأن سعادتي هي في عدم رؤيتي لهذا العقد. فإذا كان رجل فكر، سوف يفهمني. وإذا كان رجل دين صالح، سوف يقرّ تصرفي ويقدر تضحيتي.

وبعد أن قالت الملكة هذا القول، مدَّت يدها بالعلبة المغلقة صوب جانّ، فدفعتها هذه برفق وقالت:

- مولاتي، لماذا لا تحاولين الحصول على مهلة أخرى؟

- طلب مهلة!.. لا، لا!

- أنا لم أقل طلب مهلة، بل قلت الحصول على مهلة.

- إن الطلب فيه مذلة، والحصول فيه مهانة. وإذا كان التذلل مشكوراً من أجل شخص محبوب، أو من أجل إنقاذ حياة، فإنه غير مشكور من أجل أحجار تحرق كالفحم المتوهج من دون أن يكون لها نور. فاذهبي بهذه العلبة أيتها الكونتس، إذهبي بها، فلن تجدي أية وسيلة في عدولي عمَّا عزمت عليه.

- ولكن فكّري يا مولاتي بالضجة التي قد يحدثها هذان الصائغان، وتأكدي بأن رفضك سيكون معرضاً للشبهات كما كان قبولك، لأن الشعب سيعلم بأن العقد كان في حوزتك.

– لن يستطيع الصائغان أن يقولا شيئاً، لأني لم أعد مديونة لهما بشيء. فالمئتان والخمسون الف ليرة التي ربحاها، هي ثمن صمتهما. وأعدائي عوضاً عن أن يقولوا بأني اشتريت عقداً من الماس بمليون ونصف المليون من الليرات، سوف يقتصرون على القول بأني بذرت مالي في التجارة، والكلام الأخير أقلّ إزعاجاً. فاذهبي أيتها الكونتس، إذهبي وقدمي شكري الجزيل الى السيد دي روهان، على ما أظهره نحوي من لطف وحسن استعداد.

وبحركة آمرة، سلمت الملكة علبة المجوهرات الى السيدة دي لاموت، وقالت لها:

– أسرعي ولا تدعي أحداً يشاهد العلبة. إذهبي بها الى منزلك أولاً، لأن زيارتك الى السيد بوهمير في مثل هذه الساعة قد تثير شكوك رجال الشرطة المهتمين ولا شك بما يجري عندي. وعندما يأتي الليل وتأمنين شرّ الجواسيس، توجهي إلى مكتب الصائغين وأتني بإيصال منهما.

فقالت جانّ وقد تأثرت بعض الشيء عندما شعرت بثقل العلبة بين يديها:

– أمراً وطاعة يا مولاتي، طالما أنك هكذا تريدين.

ثم خرجت وهي تضغط على علبة المجوهرات تحت دثارها بعناية، كي تخفي حجمها عن أعين الفضوليين، وصعدت

إلى عربتها بالحمية والمهابة اللتين يتطلبهما عملها كشريك متواطئ .

وعملاً بإرادة الملكة ، توجهت جانّ إلى منزلها أولاً ، ثم أعادت العربة إلى الكردينال دي روهان كي لا يكتشف أحد السر من الحوذي الذي أَقلَّها مع العقد من القصر الملكي . ونزعت ثيابها لترتدي ثياباً أقلَّ أناقة ، وأكثر ملاءمة لهذه الجولة الليلية .

وقد لاحظت وصيفتها وهي تلبسها ثيابها بسرعة ، بأن الكونتس كانت ساهمة شاردة الفكر طيلة المدة التي اقتضتها عملية إلباسها .

والواقع أن جان لم تكن تفكر بزينتها في تلك الساعة ، بل بما أوحتها لها المناسبة .

فقد كانت تتساءل عما إذا كان الكردينال سيرتكب غلطته الكبرى بترك الملكة تردّ هذه الحلية ، وعما إذا كانت هذه الغلطة ، إن هو ارتكبها ، ستقلل من إمكانية الحصول على الثروة التي يحلم بها الكردينال ، بمشاطرته الملكة أسرارها الدقيقة .

وتساءلت أيضاً : إذا تصرفتُ وفق أوامر ماري انطوانيت ، دون أن أستشير الكردينال ، ألا أكون قد أخلفت بأولى واجبات الشراكة ؟ ألن يفضل الأمير دي روهان ، رغم فقدانه

كل موارده ، أن يبيع نفسه من أن يترك الملكة محرومة من الشيء الذي تشتهيه وتتمناه ؟ لا ، لا ، لا يجوز أن أقدم على هكذا عمل دون استشارته .

وأضافت تقول في نفسها :

«مليون وأربعماية ألف ليرة !.. من المستحيل أن يتمكن من الحصول على هكذا مبلغ !»

ثم استدارت فجأة نحو وصيفتها ، وقالت لها :

- اخرجي يا روز !

فأطاعت الوصيفة ، وأكملت السيدة دي لاموت مناجاة نفسها بقولها :

«أي مبلغ ! أية ثروة ! أية حياة متألقة ، توفرها هذه الحلية الماسية المتوهجة داخل هذه العلبة الماثلة أمام عينيَّ !»

ثم فتحت العلبة وسحبت العقد الذي بهر بريقه عينيها ... وقالت بعد أن مرّرته على أصابعها واحتوته يداها الصغيرتان :

«إني أضمّ بين يديَّ مليوناً وأربعماية ألف ليرة ! وإنه لقدر غريب ذلك القدر ، الذي أتاح لجانّ دي فالوا المتسولة ، أن تلمس بيدها يد ملكة فرنسا العظيمة ماري انطوانيت ، وأن تمتلك يداها أيضاً ، ولو لمدة ساعة واحدة ، مليوناً ونصف المليون من الليرات ، وهو مبلغ لا ينتقل إطلاقاً من مكان إلى

آخر، إلا إذا كان مخفوراً بالحراس المسلحين، أو بضمانة من هم في فرنسا بمنزلة كردينال أو ملكة.

ثم عادت جانّ إلى مناجاة نفسها، فقالت:

«هذا الماس النادر كله بين يديَّ!.. إذا ما استبدلته بأوراق نقدية، استلزمني جوادان لنقل هذه الأوراق... ولكن لا، فالأوراق النقدية تبقى ورقاً، وعرضة للتلف إذا ما تعرضت للنار أو للماء. عدا أنها مع مرور الزمن، تفقد بعض قيمتها، وقد تفقد كامل قيمتها. بينما الذهب، ذلك المعدن النادر الثمين، يحتفظ بقيمته كاملة في كل مكان وزمان...»

إلى أن قالت فجأة:

«ما لي وهذا التفكير! لأتّخذ قراراً من إثنين: إما زيارة الكردينال، وإما ردّ العقد إلى بوهمير كما كلفتني الملكة.»

ثم نهضت والعقد دائماً بين يديها، وتابعت تقول:

«هذه الماسات التي أحسّ بأن وهجها يكاد يحرق أصابعي، والتي كانت على وشك أن تتألق على جيد ماري انطوانيت، عليَّ أن أعيدها إلى بوهمير الذي سيحتج في بادئ الأمر، لكنه بعد إمعان الفكر، سيثبت له أن العملية ليست خاسرة، إذ إنه سيحتفظ بالبضاعة والعربون معاً.

«ولكن الايصال... آه! كدت أنسى الإيصال... فبأية صورة يجب ان يحرر هذا الايصال؟ ذاك أمر مهمّ. نعم،

فالنص يجب أن يكون في غاية اللباقة كي لا يتورط بوهمير، ولا الملكة، ولا الكردينال، ولا أنا.»

«لا، لن أتحمل مسؤولية كلمات هذا الايصال وحدي، فأنا بحاجة إلى الكردينال.

«الكردينال ... أوه! حبذا لو كان الكردينال يحبني أكثر، أو غنياً أكثر، واشترى لي هذا العقد...»

ثم جلست على «صوفا» وأخذت تتأمل الماس الدالق على يدها... أخذت تتخايل هذا العقد الساحر في روعته وهو يلامس عنقها ويتألق عليه... وكانت الدقائق تمرّ بسرعة دون أن تشعر، إلى أن مضت ساعة بكاملها وهي في سكرة التأمل والتمني...

وأخيراً نهضت ببطء شاحبة اللون كأنها إحدى الكاهنات وقد نزل عليها الوحي... وقرعت الجرس تستدعي وصيفتها، وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل!

ولما أقبلت الوصيفة، قالت لها:

– إبحثي لي عن عربة، أو نقالة إذا لم يعد هناك عربات خيل.

فوجدت الوصيفة عربة جياد كان صاحبها قد أوقفها في شارع التامبل القديم ونام على مقعدها، فاستقلتها السيدة دي لاموت وصرفت الوصيفة.

وبعد عشر دقائق، توقفت العربة أمام بوابة الصحافي الهجّاء ريتو...

إيصال بوهمير وشكران الملكة

★

هذه الزيارة الليلية التي قامت بها الكونتس إلى الصحافي الهجّاء ريتو، لم تظهر نتائجها إلا في اليوم التالي، وإلى القارئ ما حدث:

في الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم، حملت السيدة دي لاموت إلى الملكة رسالة تتضمن إيصال الصائغين، وهذا هو نصّ تلك الرسالة الخطيرة:

«نحن الموقعين في ذيله، نعترف بأننا قد تسلّمنا العقد الماسي الذي بيع أصلاً إلى الملكة بمبلغ قدره مليون وستماية ألف ليرة. فالماسات لم تنل إعجاب الملكة، لذا عوضت عن مصاريفنا وأتعابنا بأن تخلت لنا عن العربون البالغ مئتين وخمسين الف ليرة، كنا قد قبضناها نقداً وعداً.»

التوقيع

«بوهمير وبوسانج»

بعد أن قرأت الملكة تلك الرسالة، وارتاح بالها من تلك الصفقة التي عذبتها طويلاً، خبأت الإيصال في خزانتها وأسقطته من تفكيرها.

ولكن، من غرائب التناقضات التي رافقت هذه العجالة، هي الزيارة التي قام بها الكردينال دي روهان إلى الصائغين بوهمير وبوساخ بعد يومين من إرسالها إلى الملكة، وقد كان الكردينال على شيء من القلق فيما يتعلق بالدفعة الأولى التي تمَّ الاتفاق عليها بين التاجرين والملكة.

ولكن قلق الأمير دي روهان ما عتَّم أن زال وتنفس الكردينال الصعداء، عندما دخل إلى منزل بوهمير واستقبل هذا الأخير زبونه الشهير بالرضى الفائت، فبادره الكردينال سائلاً:

– اليوم، هو اليوم المحدد للدفع، فهل دفعت الملكة؟

فأجاب بوهمير:

– لا يا مولاي، فالملكة لم تتمكن من الدفع، لأن الملك كما لا يخفاك، قد رفض اقتراح الوزير دي كالون، وهذا الرفض غدا حديث الناس كلهم.

– نعم، كل الناس يتحدثون عن ذلك، وهذا الرفض بالذات، هو الذي قادني إليك.

فتابع الصائغ يقول:

- لكن جلالتها رهيفة الذوق، ولديها استعداد طيب. فبما أنها لم تتمكن أن تدفع، قد ضمنت لنا الدين، ونحن لا نطلب سوى ذلك.

فصاح الكردينال:

- ضمنت الدين؟ آه! هذا شيء عظيم! ولكن... كيف؟

فأجاب الصائغ:

- بطريقة لا أبسط ولا أليق. بطريقة ملكية خالصة.

- قد يكون بواسطة تلك الكونتس الراجحة العقل؟

- لا يا مولاي، فالسيدة دي لاموت لم تظهر. وهذا ما جعلنا نُطنب في المدح، أنا وبوسانج.

- الكونتس لم تظهر؟! ولكن ثق بأن لها وزنها في هكذا عمل. وإذا قلت بأن الكونتس هي مصدر وحي وإلهام، فلا أكون قد انتقصت شيئاً من قيمة جلالتها.

- سوف يحكم مولاي، عما إذا كانت جلالتها لطيفة وطيبة معنا. فعلى أثر الضجة التي انتشرت حول رفض الملك لأمر الصرف القاضي بمنح الملكة خمسماية الف ليرة، كتبنا نحن إلى السيدة دي لاموت.

- متى كان ذلك؟

- البارحة يا مولاي.

– وبما أجابت ؟

فقال بوهمير بلهجة فيها من الاحترام بقدر ما فيها من الدالة :

– أليست نيافتكم على علم ؟

فأجاب الأمير محتفظاً بوقار مركزه :

– لا ، فمنذ ثلاثة أيام ، لم يحصل لي الشرف بمقابلة الكونتس أو رؤيتها .

– حسناً يا مولاي . إن السيدة دي لاموت أجابت بهذه الكلمة الوحيدة : «انتظرا !»

– خطياً ؟

– لا يا مولاي ، مشافهة . وقد رجونا السيدة دي لاموت في رسالتنا بأن تطلب منك مقابلة . وأن تلفت نظر الملكة إلى أن موعد الدفع قد اقترب .

فقال الكردينال :

– إن كلمة «انتظرا !» هي طبيعية تماماً .

– ولهذا انتظرنا يا مولاي . والبارحة مساءً ، تلقينا بالبريد السري جداً ، رسالة من الملكة .

– رسالة ؟ لك يا سيد بوهمير ؟

– أو بالأحرى شكران ، طبقاً للأصول . ولو أننا لم نقسم

يميناً، أنا وشريكي، بأننا لن نطلع أحداً على هذه الرسالة، لأطلعناك عليها يا مولاي.

– ولماذا أقسمتما اليمين؟

– لأن هذا التحفظ قد فُرض علينا من قبل الملكة ذاتها يا مولاي.

– آه! هذا شيء آخر. ويحق لكما أن تكونا جدًّ سعيدين، لأنكما حصلتما على رسالة من الملكة.

فقال بوهمير وهو يضحك هازئاً:

– إن مليون وثلاثماية وخمسون ألف ليرة يا مولاي، تستأهل رسالة...

فقال الكردينال بقساوة:

– إن عشرة ملايين، بل مئة مليون، لا تستأهل مثل هذه الرسالة ولا هذه الطريقة في الدفع. على كل، لقد نلتما الضمانة الكافية؟

– بقدر الإمكان يا مولاي.

– ألم تعترف الملكة بالدين؟

– بكل تأكيد.

– وتعهدت بالدفع...

– خمسماية الف ليرة خلال ثلاثة أشهر، والباقي بعد نصف سنة.

– و ... الفوائد ؟

– أوه ! إن كلمة من جلالتها تضمنها يا مولاي . فقد جاء في رسالتها الينا : «إن هذا الأمر سنتدبره فيما بعد» ، وأضافت تقول قبل أن توقع : «ولن أدع لكما مجالاً للندم .» فالقضية إذن يا مولاي ، هي منذ اليوم ، وبالنسبة لي ولشريكي ، قضية شرف .

فقال الكردينال الجذلان :

– وهكذا أكون قد أصبحت بريء الذمة تجاهك يا سيد بوهمير . فإلى اللقاء في صفقة ثانية .

– نرجو أن نحظى دائماً بثقة نيافتكم يا مولاي .

– ولكن لا تنسَ فضل تلك الكونتس اللطيفة في صفقة العقد هذه ...

– إن عرفان الجميل للسيدة دي لاموت ، هو واجب علينا . ونحن متفقان ، أنا وبوساج ، على تقدير أتعابها عندما نستوفي كامل ثمن العقد .

فصاح الكردينال :

– صه ! صه ! فأنت لم تفهمني .

وعاد إلى عربته مشيعاً باحترام أهل المنزل كافة .

★

أصبح بإمكاننا الآن أن نُسقط القناع، بعد أن رُفعت الستارة عن التمثال وبدا ظاهراً لكل العيان. فما عملته جانّ دي لاموت ضدّ المحسنة إليها بات معروفاً، بعد أن رأيناها تستعين في تآمرها بقلم الكاتب الهجّاء ريتو.

فبعد أن انتفى كل قلق لدى الصائغين، وكل وسواس وحيرة لدى الملكة، وكل شك لدى الكردينال. وبعد أن تأمن لاقتراف جريمة السرقة ثلاثة أشهر، وهي مدة كافية لأن تنضج ثمار الشؤم وتقطفها اليد الأثيمة، توجهت جانّ الى قصر الأمير دي روهان، الذي بادرها بقوله:

- على أي نحوٍ تصرفت الملكة حتى تمكنت من تلطيف مطالب الصائغين؟

فأجابته السيدة دي لاموت:

- لقد باحت الملكة إلى الصائغين بسر، وهذا السر يقضي على الملكة بأن تحتاط لنفسها كثيراً عندما تدفع، كما يقضي عليها بأن تحتاط أكثر عندما تطلب اعتماداً.

فوافق الكردينال بأنها على حق، وفي ذات الوقت سأل عما إذا كانت الملكة لم تزل تتذكر نواياه الطيبة.

فقدمت له جانّ وصفاً دقيقاً لعرفان جميل الملكة، مما أثار حماس الكردينال وجعل قلبه يرقص فرحاً، كأنه عاشق متيَّم يسمع ثناء حبيبته عليه.

وعندما ثبت لجانّ بأنها حققت هدفها في وصفها هذا، قررت الرجوع الى منزلها، كما قررت التفاوض مع بائع مجوهرات كي تبيعه ماساً بما قيمته مئة الف ريال، ثم تسافر إلى انكلترا أو روسيا، على اعتبارهما بلدين مستقلين يمكنها العيش في أحدهما بهذا المبلغ عيشة ميسورة لمدة خمس سنوات أو ست. وفي نهاية هذه السنوات، تستأنف بيع ما تبقى لديها من حبات الماس، بالمفرق، ومن دون أن يساورها أي قلق.

ولكن حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر. فقد أُصيبت بخيبة أمل كبيرة عندما عرضت بعض هذه الماسات على خبيرين من خبراء الماس، إذ دفع الأول بها مبلغاً زهيداً، فيما انذهل الآخر وصارحها بأنه لم يرَ في حياته مثل هذه الماسات إلا في عقد بوهمير الشهير...

فتوقفت جانّ عن البيع، إذ إنها لو خطت خطوة ثانية لافتضح أمرها. وأدركت بأن عدم التبصر في هكذا أمر، يعني الهلاك، والهلاك يعني عمود التشهير[١]، ثم السجن المؤبد. وذهبت فخبأت الماسات في قعر مخبأ أمين، وقررت التسلح بسلاح دفاعي قوي، وبسلاح هجومي أقوى، حتى

---

(١) عمود كان يربط به المتهم أو المحكوم لعرضه على الناس.

إذا ما خاضت عمار الحرب، تكون واثقة من النصر بهذين السلاحين على من سينازلها.

فالموازبة بين رغبات الكردينال الذي يريد أن يعرف كل شيء، وبين تطفلات الملكة المتباهية بالرفض دائماً، يكمن الخطر الرهيب. لأن كلمة واحدة تتبادلها الملكة مع الكردينال، سوف تفضح كل شيء. ولما كان الكردينال هائماً بالملكة، فقد شدد هذا الهيام من عزيمة جانّ، نظراً لمعرفتها التامة بأن المغروم هو شبه أَعمى، أو بالأحرى بعير معصوب العينين، وبالتالي لا مفرَّ له من الوقوع في أي شرك تنصبه له الحيلة في ظل الحب والغرام، خصوصاً إذا كانت المعشوقة ملكة كماري انطوانيت.

لكن هذا الشرك تلزمه يد ماهرة لنصبه بشكل يؤمن سقوط الملكة والكردينال معاً فيه. حتى إذا ما اكتشفت الملكة السرقة، لا تجرؤ على التشكي أو التذمر، وإذا ما اكتشف الكردينال خداعها يشعر بأنه مغلول اليدين.

إن جانّ دي لاموت لم تتعود الرجوع عما تكون قد صممت عليه، ذلك لأنها طُبعت على الجرأة والاقدام. فهي تدفع بالشر حتى البطولة، وبالخير حتى الشر. لذا كان همها الأول وشغلها الشاغل، أن تمنع لقاء الكردينال بالملكة. ولهذه

الغاية وضعت خطة، ثم قالت بعد ان اختمرت هذه الخطة في رأسها :

«لن أدعهما يلتقيان أبداً.»

إلا أنها استدركت قائلة :

- لكن الكردينال يرغب في رؤية الملكة، وهو سيحاول ذلك بإصرار.

ثم فكرت قليلاً، وتابعت تقول :

- يجب أن أنتظر كي يحاول، بل عليَّ أن أوحي له بهذه الفكرة. ليراها، وليسألها، وليعرّض نفسه للخطر والشبهة في طرح الأسئلة عليها. ولكن... هل سيكون هو المتهم الوحيد ؟

لقد أوقعتها هذه الفكرة في حيرة موجعة. فالملكة ستلجأ إلى كل السبل، وسترفع صوتها عالياً، وهي تعرف جيداً كيف تفضح المحتالين المخادعين وتعرّيهم.

فما العمل إذن لكمّ فم الملكة ومنعها من التشكي ؟.. هناك وسيلة واحدة لكمّ هذا الفم النبيل الشجاع، وهي أن تتخذ جانّ المبادرة في اتهام الكردينال.

فبهذه الطريقة لن تستطيع الملكة أن تتّهم أمير الكنيسة بالسرقة، لأنها إن فعلت، سيوجه إليها الأمير دي روهان، المتهم بعلاقته بها، إتهاماً أشدَّ خزياً وعاراً من السرقة.

إنها الوسيلة الوحيدة، شرط أن لا تجمع المصادفة بين هذين المعنيين بكشف السرّ.

ترددت جانّ بادئ ذي بدء أمام ضخامة الصخرة التي ستنطحها برأسها، لأنها سوف تعيش في رعب دائم من أن تسقط هذه الصخرة عليها فتسحقها. نعم، ولكن كيف العمل للتخلص من هذا القلق والضيق النفسي المبرّح؟ أبالهرب إلى بلد غريب مع ماسات عقد الملكة؟

الهرب! إنه أمر ميسور. فمحفة جيدة يمكنها أن تقطع في عشر ساعات، المسافة التي يستغرقها رقاد ماري انطوانيت الهنيء، وهي المدة التي يستغرقها أيضاً، عشاء الكردينال مع شلَّةٍ من أصحابه ونهوضه في اليوم التالي.

ولكن أية فضيحة! وأي عار! فاختفاؤها ولو بملء حريتها، ولو في مكان أمين ومحرَّم، لن تبقى جانّ معه امرأة ذات منزلة رفيعة، بل ستصبح سارقة ومتهمة غيابياً. وإن لم تتمكن يد العدالة من الوصول إليها، فهي ستدلّ عليها. وان لم يطلها سيف الجلاد، فإن الرأي العام سوف يطالها وينفّذ حكمه بها، وحكم الرأي العام أرهب من حكم السيف.

لا، لن تهرب. فقمة الجرأة وقمة المهارة هما كقمتي الأطلس اللتين يصحّ تشبيههما بتوأمي الأرض. فالأولى

توصل إلى الثانية، والثانية تتساوى مع الاولى. ومن يرى الأولى، يرى الثانية.

وهكذا قررت جانّ أن تدفع ثمن جرأتها وتبقى... قررت ذلك بنوع خاص، عندما ثبت لديها بأن هناك مجالاً لخلق ترابط مرعب بين الكردينال والملكة، حتى يأتي اليوم الذي يكتشف فيه أحدهما بأن هناك سرقة قد ارتكبت في ظل حياتهما المتوادَّة.

وسنرى كيف هذه المرأة العميقة القرار، ستشق الطريق الملتوي المتعرج الذي سيوصلها هي، إلى الخزي والعار، ويوصل الآخرين إلى اليأس والغمّ الشديدين.

خلصت الكونتس إلى القول بأن بقاءها في باريس يحتّم عليها مشاهدة كل الأدوار التي يقوم بها الممثلان، أي الكردينال والملكة، كما يحتّم عليها أن لا تدعهما يقومان إلا بالأدوار التي تعود بالنفع عليها، وأن تختار من بين الفرص المناسبة أفضلها للهرب، إما بإذن يعطى لها من الملكة، وإما اضطراراً بعد فقدان الحظوة فقداناً حقيقياً.

ويترتب على الكونتس قبل كل شيء أن تمنع الكردينال منعاً باتاً من الاتصال بماري انطوانيت، وهنا الصعوبة بنوع خاص، لأن دي روهان مغرم متيَّم، وفوق ذلك فهو أمير يحق له بأن يدخل على جلالتها عدة مرات في السنة، دون

أن تعلم الملكة المغناجة والشغوفة بتقبُّل الاحترامات، والمقدِّرة لفضل الكردينال، بأنها هي الضالة المنشودة.

إن وسيلة الفصل بين هاتين الشخصيتين الجليلتين، تبقى مرهونة بالأحداث التي ستسعى جانٌّ إلى توجيهها الوجهة الملائمة.

وفي ظنها، أن لا شيء سيكون أفضل لتحقيق ذلك، من استعمال براعتها في إثارة روح الكبرياء لدى الملكة، هذه الكبرياء التي تتوج رأسها بتاج العفة والفضيلة. ومما لا ريب فيه أن سلفة لا تعمِّر طويلاً من الكردينال، لن تجرح تلك المرأة الرهيفة الحسّ. فالنساء ذوات الطبائع المشابهة لطبيعة الملكة، يستهويهنّ تقبُّل التحيات والولاء، ولكنهنّ يصمدن أمام التجارب ويدفعن الهجمات.

نعم، إن الوسيلة مؤكدة النجاح. فبنصح الأمير دي روهان بأن يظهر عواطفه نحو الملكة بحرية، يتولد النفور والكراهية في نفس ماري انطوانيت، ويبتعد إلى الأبد ليس الأمير عن الملكة، بل الرجل عن المرأة، والذكر عن الأنثى. في الوقت نفسه يصبح بيد الكونتس سلاح يمكنها أن تشهره في وجه الكردينال، فتشلّ به كل تحركاته في يوم العداء العظيم.

ولكن إذا جعلت الكردينال ممقوتاً من الملكة ، فذلك لا يطال سوى الكردينال وحده ، بينما يبقى شعاع الفضيلة يشع من الملكة ، أي تكون جانّ قد أنقذت الملكة وأعطتها حرية التكلم التي تقوّي سلطتها وتسهل معها كل تهمة .

فالذي يجب عمله إذن ، هو إثبات ضدّ الملكة والكردينال معاً ، يكون بمثابة سيف ذي حدين يجرح على الشمال وعلى اليمين ، ويجرح فيما هو خارج من غمده ، كما يجرح إذا ما بُتر الغمد ذاته .

إن ما يجب عمله هو اتّهام يجعل ماري انطوانيت شاحبة اللون ، ويصبغ وجه الكردينال بالاحمرار . إتّهام يبعد كل شبهة عن جانّ ويبقيها موضع ثقة المذنبين الرئيسيين . إن ما يجب عمله هو خطة تعتصم الكونتس وراءها وتمكّنها من أن تقول : لا تتهماني وإلا اتهمتكما . لا تفضحاني وإلا فضحتكما . اتركا لي ثروتي ، أترك لكما شرفكما ...

هذا ما أخذت تفكر به تلك الكونتس القادرة ، عندما اقتربت لتوّها من نافذتها المغمورة بأشعة الشمس الحارقة ، وفي اعتقادها أن الوقت بات ثميناً جداً ويجب عليها أن لا تضيّع ثانية واحدة منه .

الأسـيرة

★

فيما كانت الكونتس ترسم خطوط المؤامرة على الملكة والكردينال معاً، كان هناك مشهد آخر يمثل في شارع سان كلود، تجاه المنزل الذي تقطنه جانّ. فالكونت دي كاغليوسترو، كما يذكر القراء، كان قد أقام في منزل بلسامو القديم، الهاربة أوليفا، الملاحقة من قبل شرطة السيد دي كروسن.

والآنسة أوليفا، القلقة جداً، والتي شكرت المناسبة التي أتاحت لها الهرب من الشرطة ومن بوزير، كانت تعيش، واجفة محجوبة عن الأنظار، في ذلك المسكن الغامض الذي عرف الكثير من المآسي الرهيبة التي فاقت مأساة الآنسة نيكول ليغي الهزلية.

فكاغليوسترو كان قد أحاطها برعايته وغمرها بلطفه، فطابت نفس هذه المرأة الشابة، إذ وجدت نفسها بحماية سيد قدير لا يريد منها شيئاً إلا أنه، كما يبدو، يأمل بالكثير.

ولكن ما الذي يأمله؟؟ هذا ما كانت تسائل نفسها عنه من دون جدوى، تلك المخلوقة المنزوية.

فبالنسبة للآنسة أوليفا، كان كاغليوسترو، ذلك الرجل الذي قهر بوزير وانتصر على رجال الشرطة، إلهاً منقذاً. وكان أيضاً عاشقاً متدلهاً، لأنه كان يحترمها.

فحب الذات لدى أوليفا، لم يسمح لها بأن تعتقد بأن كاغليوسترو يريد منها، سوى أن تصبح عشيقته في يوم من الأيام.

لذا أخذت تعلل النفس داخل جدران ذلك المنزل المهجور في شارع سان كلود، وتبني القصور والعلالي القائمة على الوهم والخيال، وكلها أمل بأن بوزير المسكين سوف يقرها على تصرفها، وأنه سيجد له مكاناً في مملكة سعادتها المقبلة.

وكان كاغليوسترو قد أثَّث غرفة الزينة التي خصَّص بها أوليفا بالأثاث الفخم والألبسة الأنيقة وكل أدوات الزينة والتجميل. فكانت تهب أوليفا كل صباح إلى غرفة زينتها فتتجمل وتتحلى وترتدي أجمل الثياب، لأن ساعات الصباح كانت حلمها الذهبي، إذ اعتاد كاغليوسترو أن يزور أوليفا في مثل هذا الوقت مرتين كل أسبوع، وذلك ليستعلم عما إذا كانت أسيرته تتحمل حياة العزلة بسهولة.

إذن، في صالونها الجميل ووسط مظاهر الترف، جلست تلك المخلوقة المعجبة بنفسها تعترف لذاتها بأن كل ما في حياتها الماضية كان مخيباً للآمال وضلالاً بضلال، وأنه

عكس قول الأخلاقيين بأن الفضيلة تصنع السعادة، فالواقع أن السعادة هي التي تصنع الفضيلة.

وبكل أسف، كان ينقص أوليفا في عزلتها عنصر هامّ وضروري كي تستمرّ سعادتها. فأوليفا كانت سعيدة، لكنها كانت سئمة ضجرة...

فالكتب، واللوحات، والآلات الموسيقية، لم تكن كافية لتسليتها. فالكتب لم تكن حرة في اختيارها، وما توفر لها منها قد قرأته قراءة سريعة. واللوحات هي إياها دائماً لا تتغير ولا تتبدل. والآلات الموسيقية لا ينبعث منها سوى صراخ، لم يكن أبداً صوتاً حياً يسترعي الإنتباه.

لذا لم يطل الوقت بأوليفا حتى شعرت بالضجر من سعادتها، وكثيراً ما ذرفت الدموع السخينة متحسرة على تلك الصبيحات القصيرة الجميلة التي كانت تقضيها أمام نافذتها المطلة على شارع دوفين، حين كانت تمغنط الشارع بنظراتها، وترفع الأنظار إليها بقوة سحرها وجاذبيتها.

ويا لها من نزهات جميلة تلك التي كانت تقوم بها في منطقة سان جيرمان، وهي منتعلة ذلك البابوج المغناج الرافع على كعبيه قدميها النحيفتين، والتي كانت كل خطوة تخطوها به أوليفا الفاتنة تحقق نصراً لها، وتنتزع صياح

المعجبين، إما خوفاً عليها عندما تزلق، وإما بدافع الشهوة الجنسية عندما كانت تتكشف ساقاها قليلاً...

هذا ما كانت تفكر به نيكول، أو أوليفا، وهي محتجزة حبيسة. وإنه لصحيح بأن رجال الشرطة أناس مرعبون، وصحيح أيضاً بأن السجن المخصص للنساء هو سجن رهيب يفنين فيه ببطء، ويبقى السجن الوقتي الكبير في شارع سان كلود أرحم منه بكثير، ولكن ما الجدوى أن تكون امرأة لها الحق بأن تعيش نزواتها، إذا لم تتمرد بعض المرات ضدّ الخير لتستبدله بالشر، ولو بالحلم على الأقل؟

ثم اسودّ كل شيء في عينيها الضجرتين، وأخذت نيكول تتأسف على بوزير، بعد أن تأسفت على حريتها. ولنعترف هنا، بأن شيئاً لم يتغير في عالم النساء، منذ الزمن الذي ذهبت فيه بنات يهودا، عشية زواج حب، يبكين بكارتهن على قمة الجبل.

وجاء يوم نفد فيه صبر أوليفا بعد أن طال ضجرها وحرمانها. فأقعدها الحزن في غرفتها لا تقوى على الخروج منها ولا حتى على الوقوف أمام نافذتها. وبدأت تفقد شهية المعدة من دون أن تفقد شهية التخيل التي، بالعكس، كانت تزداد كلما قلّت شهية الاولى.

في هذه البرهة من الضيق النفسي والانحطاط المعنوي، تلقت أوليفا زيارة كاغليوسترو غير المنتظرة في ذلك اليوم.

دخل الكونت على عادته من الباب الواطئ للقصر، واجتاز الحديقة الصغيرة للوصول إلى الشقة التي تشغلها أوليفا، حيث طرق بابها أربع طرقات متباعدة، وهي الإشارة المتفق عليها كي تسحب المرأة الشابة المغلاق، الذي كان بمثابة صمّام الأمان بينها وبين الزائر الذي يحمل مفاتيح سجنها.

وعندما ثبت لأوليفا من الطارق، فتحت الباب بسرعة تنمّ عن رغبة ملحة في قول ما يجب قوله.

وبروح الشابة الفرنسية المرحة، اندفعت إليه وأخذت تلاطفه وتداعبه، ثم قالت له بصوت مثير، أبحّ ومرتج:

- إعلم يا سيدي، بأني ضجرة!

فتطلع إليها كاغليوسترو مع حركة خفيفة من رأسه، وقال لها وهو يغلق الباب:

- ضجرة يا صغيرتي العزيزة؟ إنه لأمر مؤسف!

- إني مغتمة هنا، وأكاد أموت.

- صحيح!

- نعم، ولديَّ أفكار سيئة.

فقال لها الكونت مسكّناً، وكأنه يسكّن كلباً صغيراً:

- رويدك ! إذا كنت على غير ما يرام عندي ، فاحتفظي بغضبك لمدير الشرطة ، الذي هو لا أنا عدوك .

فقالت أوليفا :

- إنك تثير سخطي برباطة جأشك يا سيدي ! فأنا أفضل الغضب على مثل هذه الرقة . إذ إن الطريقة التي تستعملها لتهدئتي ، تجعلني كالمجنونة من فرط غيظي .

فأجابها كاغليوسترو وهو يجلس بعيداً عنها :

- اعترفي أيتها الآنسة ، بأنك غير عادلة .

فقالت له :

- أنت تتكلم يا سيدي ، وتذهب ، وتأتي ، وتتنفس ، كما يحلو لك . وحياتك هي مجموعة ملذات اخترتها بنفسك . أما أنا ، فإني أعيش خاملة في المسافة التي حددتها لي ، والتي تكاد تخنقني . وبصراحة ، أنت تدفعني إلى الموت !

فقال الكونت مبتسماً :

- أدفعك إلى الموت ! ما هذا الكلام !

- أريد القول بأنك تتصرف تجاهي تصرفاً مسيئاً للغاية . فقد نسيت بأني أحب واحداً بكل جوارحي .

- السيد بوزير ؟

- نعم ، بوزير . إني أحبه ، وأعتقد بأني لم أُخفِ عليك

هذا الحب إطلاقاً. ألم تظن بأني سوف أنسى في عزلتي عزيزي بوزير؟

- قلما افترضت ذلك أيتها الآنسة. فقد بذلت قصارى جهدي كي أقف على أخباره وأنقلها إليك.

فصاحت أوليفا مندهشة:

- آه!..

وأكمل كاغليوسترو يقول:

- إن السيد دي بوزير، هو شاب ظريف.

فقالت أوليفا:

- قسماً بالله، إنه هكذا!

- فتيّ ولطيف.

- أليس كذلك؟

- وذو مخيلة واسعة.

- إنه ناريّ... فظ بعض المرات عليّ، لكن... الذي يحب كثيراً، يعاقب كثيراً.

- إن كلامك من ذهب. فأنت لديك قلب يوازي روحك، وروح توازي جمالك. وأنا الذي يعرف ذلك، أنا الذي يهتم بكل حب في العالم - وهي عادة مستهجنة - قد فكرت بأن أجمعك بالسيد دي بوزير.

فقالت أوليفا وهي تبتسم مكرهة:

- لم تكن هذه فكرتك، منذ شهر.

- أصغي إلي يا ابنتي العزيزة. كل امرئٍ رقيق الحاشية يرى شخصاً جميلاً، يسعى لأن يرضيه عندما يكون حراً طليقاً كما أنا. مع ذلك، فأنت تعرفين بأني لو عملت لك المستحيل في مغازلتك، لما دام ذلك طويلاً، أليس كذلك؟

فأجابته أوليفا وقد شحب لونها:

- هذا صحيح.

- لذا من الطبيعي أن انسحب، بعد أن رأيت كم تحبين بوزير.

- أوه! إنك تهزأ مني.

- لا، بالشرف! حتى أنك قاومتني جيداً.

فصاحت أوليفا فرحة:

- أوه! نعم، اعترف بأني قاومتك.

فقال كاغليوسترو ببرودة:

- وذاك كان تكملة لحبك.

فأجابت أوليفا بحدة:

- لكن حبكَ أنت، يومئذ، لم يكن أبداً حباً عنيداً.

- أنا لست مسناً، ولا بشعاً كثيراً، ولا أحمق كثيراً، ولا فقيراً كثيراً، كي أتحمل الرفض أو الهزيمة. لقد شعرت بأنك فضّلت علي بوزير بصورة دائمة، فأذعنت للأمر الواقع.

فقالت تلك المغناجة :

أوه ! لكن أبداً ، أبداً ! فتلك الشراكة الشهيرة التي اقترحتها علي ، كما لا يخفاك ، وذلك الحق بأن تقصدني وان تتصرف معي كعشيق ، أليس ذلك بقية أمل صغيرة ؟

قالت تلك المخاتلة هذا القول ، وأخذت تكوي بنار عينيها المشتعلتين بالشهوة ، الزائر الذي وقع في شباكها . فأجاب كاغليوسترو :

- إني أعترف بذلك ، فأنت ذات نفوذ لا يقاوم !

وأخفض عينيه مداجاة ، كي يتحاشى نظرات أوليفا النارية ، فقالت له هذه الأخيرة :

- لنرجع إلى بوزير ، فماذا يعمل ، وأين هو هذا الصديق العزيز ؟

فنظر اليها كاغليوسترو بشيء من الحياء ، وأجابها :

- قلت لك بأني أودّ أن أجمعك به .

فدمدت أوليفا قائلة :

- طالما أنك تقول هذا القول ، فلماذا لم تأتِ به ؟

فقال كاغليوسترو :

- لأن السيد بوزير ، هو مثلك أيضاً ، ملاحق من قبل الشرطة .

فصاحت أوليفا وقد شحب لونها :

– ملاحق !! ولكن ما الذي عمله ؟

– شيطنة تستهوي القلوب ، ليست بنظري سوى دعابة . لكن رجال السيد دي كروسن السمجاء ، بل دي كروسن السمج ذاته ، اعتبر هذه الدعابة سرقة .

فصاحت أوليفا مرتعبة :

– سرقة !.. يا إلهي !

– إنها سرقة ظريفة ، تثبت كم هو ذوّاقة هذا المسكين بوزير .

– سيدي ... سيدي ... هل أُوقفَ ؟

– لا ، ولكنه ملاحق وأوصافه معممة .

– هل تقسم لي بأنهم لم يلقوا القبض عليه ، وبأنه ليس في خطر ؟

– أستطيع أن أقسم لك بأنه غير موقوف . أما بالنسبة للنقطة الثانية ، فلا أستطيع أن أتعهد لك بشيء . فأنت تعلمين جيداً يا صغيرتي ، بأن من تُعمَّم أوصافه ، ليس سوى شخص مستهدف للملاحقة وإلقاء القبض عليه ، ولن يصعب على الجواسيس أن يكتشفوا مكان بوزير إن عاجلاً أم أجلاً . ففكري قليلاً بهذه الشبكة التي طرحها السيد دي كروسن لتعلقي أنت بها بواسطة بوزير ، وليعلق بها بوزير بواسطتك .

– أوه ! نعم ، نعم ، يجب أن يتخفّى ذلك المسكين ! وأنا

أيضاً عليَّ أن أتخفّى. فهرّبني إلى خارج فرنسا يا سيدي. حاول أن تسدي إلي هذه الخدمة. لأني هنا، كما ترى، أكاد أختنق في عزلتي، وسيأتي يوم لن أستطيع أن أقاوم فيه التصرف الطائش.

– ماذا تقصدين بالتصرف الطائش يا آنستي العزيزة؟

– ولكن... دعني أظهر، دعني أتنشق الهواء قليلاً.

– إلزمي حدك أيها الصديقة الطيبة. فأنت شاحبة اللون، وسيقضي بك الأمر إلى فقدان صحتك الجيدة. إن السيد دي بوزير لم يعد يحبك. أما الهواء فيمكنك أن تتنشقي منه بقدر ما تشائين، كما يمكنك ان تتسلي بقدر ما تشائين برؤية الوجوه البشرية تمرُّ من أمامك.

فقالت أوليفا:

– يبدو لي أنك غاضب عليَّ، وأنك تريد التخلي عني. فهل أصبح وجودي يزعجك؟

– يزعجني أنا؟ هل أنت مجنونة؟ ولماذا يزعجني؟

– لأن رجلاً ذا ذوق بالنسبة للمرأة، رجلاً مهماً مثلك، وسيداً وسيماً كما أنت، له الحق بأن يغضب، وأن يتقزز أيضاً، إذا ما رفضته امرأة مجنونة مثلي. أوه! بربك لا تتركني، لا تغضب عليَّ يا سيدي، فيقضى عليَّ!

كانت تلك المرأة الصبية مغتاجة بقدر ما كانت مرتاعة في

تلك الساعة، فطوقت بذراعيها عنق كاغليوسترو الذي قال لها بعد أن طبع قبلة بريئة على جبينها:

– كم أنت خائفة أيتها المسكينة الصغيرة! لا تسيئي الظن بي يا ابنتي، فقد قمت بخدمتك عندما كنت تمرين بمرحلة خطرة. كانت لدي أفكار بخصوصك، وقد عدت عنها، هذا كل شيء. وليس في نفسي أية ضغينة عليك لأنك لم تقدري جميلي. فما عملته قد عملته من أجل نفسي، كذلك فعلت أنت. لذا أصبحنا بريئي الذمة.

– آه كم أنت طيب يا سيدي، وكم أنت كريم!

قالت أوليفا هذا ثم ألقت ذراعيها الاثنتين على كتفي كاغليوسترو، الذي نظر اليها بطمأنينته المعتادة وقال لها:

– أراك تعرضين عليَّ حبك الآن، أما أنا...

فقالت متعجبة وقد صبغ الإحمرار وجهها:

– إيه!

– أنت تعرضين علي شخصك المستحق العبادة، وأنا أرفضه، لأني لا أرغب بسوى العواطف الحقيقية المجردة عن كل غاية ومصلحة. فلنبق كما نحن إذن، وثقي بأني سوف أحقق رغباتك وأعمل كل ما يريحك.

فسقطت ذراعا أوليفا الجميلتان وابتعدت خجلة، ممتهنة، مخيَّبة الآمال، لا تدرك الغاية من سخاء كاغليوسترو عليها.

عندئذ قال لها كاغليوسترو:

- وهكذا يا عزيزتي أوليفا، نكون قد اتفقنا على ان تحتفظي بي كصديق لك تمحضينه ثقتك، وأنا سوف أضع تحت تصرفك قصري، ومالي، و...

- وأنا سوف أقول لك، بأن هناك رجلاً في هذا العالم، يفوق كل الرجال الذين تعرفت إليهم.

تلفظت أوليفا بهذه الكلمات بروعة وعظمة كان لهما التأثير الفعال في تلك النفس القاسية التي كانت تتلبس، فيما مضى، جسد من كان يدعى بلسامو، فقال كاغليوسترو في نفسه:

«كل امرأة تصبح صالحة، بمجرد أن يلمس المرء أوتار قلبها.»

ثم تقدم من نيكول وقال لها:

- ابتداء من هذا المساء، سوف تقطنين في الطابق العلوي من قصري وتتمتعين بحرارة الشمس. إنها شقة مؤلفة من ثلاث غرف تشرف على البوليفار وعلى شارع سان كلود، ونوافذها تطل على منيلمونتان وبالّوفيل. في هذه الشقة، سيتمكن بعض الاشخاص من رؤيتك، فلا تخافي منهم لأنهم جيران دمثو الأخلاق وديعون. ولكن إياك أن تدعي

المارة في شارع سان كلود يرونك، إذ قد يكون رجال السيد دي كروسن بين هؤلاء المارة.

ثم أكمل كاغليوسترو يقول بعد أن ضربت أوليفا، فرحة، كفاً بكف:

- هل تريدين أن أقودك إلى الطابق العلوي؟

- هذا المساء؟

- بدون أي شك هذا المساء. هل الأمر يزعجك؟

فنظرت أوليفا ملياً إلى كاغليوسترو، فشعرت أن قبساً من الأمل قد أنار ظلمات قلبها، ثم قالت له:

- هيَّا!

- فجاء الكونت بمصباح من غرفة الانتظار، وأشار إلى أوليفا بأن تتبعه. ثمَّ فتح بنفسه عدة أبواب، وتسلق درجاً، وأخيراً وصل إلى الشقة التي عينها إلى أسيرته في الطابق الثالث، فإذا بها شقة مفروشة كلها، وزاهرة كلها، وكلها صالحة للسكن. فصاحت أوليفا مشدوهة:

- هل من أجلي أعدت هذه الشقة؟

- لا، بل من أجلي أنا. فكثيراً ما يطيب لي الرقاد هنا، حيث المنظر يستهويني.

وما أن حركت أوليفا شفتيها، حتى قاطعها كاغليوسترو بهذا الكلام:

- لن ينقصك شيء هنا . فوصيفتك ستكون قربك بعد ربع ساعة . عمي مساءً يا آنستي .

وتوارى ، بعد أن انحنى باحترام والابتسامة اللطيفة على شفتيه .

فترامت الأسيرة المسكينة ، واجمة متلاشية ، على السرير الذي كان بانتظارها في تلك الغرفة ، ودمدمت تقول وهي تلاحق بعينيها ذلك الرجل الغامض :

- لا أدري ، ما الذي يخبأ لي !..

المرصد

★

ما أن ترامت أوليفا على السرير ، حتى حضرت الوصيفة كما وعدها كاغليوسترو . لكن أوليفا صرفتها ونامت قليلاً . نامت وهي تفكر فيما جرى بينها وبين كاغليوسترو ، لذا لم تحلم سوى أحلام متقطعة وقلقة . فالمرء لا يستطيع أن يسعد كثيراً عندما يصبح غنياً ، إذا ما كان قبلاً شديد الفقر ، أو كثير الاهتياج .

لقد تشكّت أوليفا من بوزير، وأظهرت إعجابها بالكونت الذي لم تكن تفهمه، إذ لم تكن تعتقد أنه هيّاب إلى هذه الدرجة، عدا أنها كانت تتصوره شخصاً فاقد الإحساس.

وفي ساعة مبكرة، نهضت من فراشها وأخذت تطوّف في أقسام مسكنها الجديد، وقد أدهشها ما يحتويه من غنى يتّسم بالبساطة والجمال. فقد وجدت فيه كل ما يحببها بالحياة، بعد أن تنعمت بضحى النهار والهواء الطلق اللذين حُرمت منهما طيلة المدة التي مكثتها في سجنها الأول.

لقد شعرت أوليفا بالفرحة الكاملة فأخذت تنطُّ من مكان إلى آخر كما الأولاد، ثم أسرعت إلى السطيحة ونامت على بلاطها وسط الأزهار والحشائش كأنها الحنش الخارج من وكره.

وبعد أن نامت هكذا، أخذت، تداركاً من أن يراها أحد من الخارج، تنظر من خلال القضبان الحديدية للشرفة، إلى القمم والأشجار، وإلى البولفارات، وإلى المنازل والمداخن في حيّ بوبنكور.

وهكذا، مغمورة بأشعة الشمس، ممطوطة الأذن إلى جلبة العربات الدارجة على البوليفار، استمرت نائمة، وهي في أوج سعادتها، لمدة ساعتين. حتى أنها، بقدر ما كانت مستنعمة، اكتفت من غدائها بالشوكولاته التي جاءتها بها

وصيفتها، وقرأت صحيفة بكاملها قبل أن تفكر بالنظر إلى الشارع تحتها!

لقد كانت أوليفا في بهجة ساعتذاك، لكنها بهجة محفوفة بالخطر...

فجواسيس السيد دي كرونس، تلك الكلاب البشرية التي تصطاد وأنفها في الهواء، باستطاعتها أن تراها. وإذا ما رأتها، فأية يقظة مرعبة ستكون يقظتها، بعد نعاس هو في غاية العذوبة؟

ولما كانت أوليفا في وضع أفقي لا يمكنه أن يدوم، رفعت نفسها واستندت الى كوعها. وعندئذ شاهدت أشجار الجوز في «منيلومونتان»، وعشرات الآلاف من المنازل المتعددة الألوان التي تتصاعد ابتداءً من «شارون» حتى تلالها الصغيرة، وذلك بين فسحات من الاخضرار، أو على قطع جبسية من الأراضي الصخرية العالية والمكسوة بالخلنج وشوك الجمال.

وهنا وهناك على الطرقات. كانت تشاهد أوشحة دقيقة تتموج في شعاب هذه الجبال الصغيرة، وفي الطرقات الضيقة بين كروم العنب، فتبدو وكأنها كوائن حيّة تشبه فلاحين تخبّ على ظهور حميرها، أو اولاداً يحنون على الحقول لينزعوا العشب منها. أو كرَّامين يعرضّون عناقيد العنب لأشعة الشمس.

هذه المناظر الريفية البديعة خلبت لبَّ نيكول، التي كانت دائماً تتنهد كلما عادت بالمخيلة إلى الحقول الريفية في تافرني، بعد أن تركت هذه الحقول قاصدة باريس وفي قلبها شوق كبير إليها.

ومع ذلك، انتهت بإشباع غليلها من منظر هذا الريف الخلاب. وبما أنها كانت قد اتخذت لها وضعاً مريحاً وآمناً على الزهور، بشكل يتيح لها أن ترى ولا تُرى، فقد أخفضت بصرها من الجبل إلى الوادي، ومن الأفق البعيد إلى المنازل المقابلة لها.

فوجدت أوليفا في الفسحة التي تشتمل على ثلاثة منازل، كل النوافذ مغلقة، ونوعاً ما متشابهة. فهنا منزل من ثلاث طبقات يقطنها بعض أصحاب المداخيل المسنين، وهناك منزل من أربع طبقات ليس فيها سوى رجل من سكان مقاطعة أوفارن، أما بقية المستأجرين فيبدو أنهم غائبون. وأخيراً على الشمال قليلاً، في المنزل ذي الستائر الحريرية الصفراء والمغمور بالزهور، والذي كل ما فيه يدل على اليسر ورفاهية العيش، تنتظر تكأة وثيرة قرب إحدى نوافذه، من يحلم أو من تحلم بالجلوس عليها.

وتصورت أوليفا بأنها لمحت في هذه الغرفة المغمورة بنور الشمس، ظلاً متجولاً ذا حركات متناسقة. فاختبأت أفضل

مما كانت عليه، واستدعت إليها وصيفتها وشرعت في مدّ حديث معها علها تستدرجها إلى كشف سرّ هذا الظل الذي تراءى لها. لكن الوصيفة بقيت متحفظة. فقد حدثتها عن كل شيء يقع البصر عليه، حتى عن كنائس سان امبرواز وسان لوران. ولكن عندما أصبح السؤال المطروح متعلقاً بالجيران، لم تجد الوصيفة ما تقوله، لأنها لم تكن تعرف عن الجيران أكثر مما تعرف سيدتها.

إذن لم تعرف أوليفا شيئاً عن الظل المتجول في الشقة ذات الستائر المخملية، ولا عن التكأة الوثيرة.

واذا كان الحظ لم يسعدها بمعرفة جارتها مقدماً، فبإمكانها أن تعد نفسها بالتعرف إليها من دون واسطة أحد. لذا صرفت الوصيفة الكتومة وأكبت هي، بدون شاهد، على سبر سرّها.

ولم تطل السانحة كثيراً حتى حضرت. فالجيران بدأوا يفتحون أبوابهم، بعضهم للقيلولة بعد الغداء، والبعض الآخر ليرتدي ثيابه استعداداً للنزهة في الساحة الملكية أو على الطريق الخضراء.

لقد عدتهم أوليفا واحداً واحداً، فإذا بهم ستة، ومظهرهم يتوافق مع مظهر أناسٍ قد اختاروا شارع سان كلود مكاناً لسكناهم.

فأمضت أوليفا قسماً من النهار تراقب حركاتهم وتدرس عوائدهم. ثم استعرضتهم كلهم، باستثناء ذلك الظل المضطرب الذي، بدون أن ترى وجهه، جاء فاستكنَّ في التكأة، قرب النافذة، وسبح في أحلامه من دون حراك.

ولقد كان هذا الظل امرأة...

امرأة تشبه آلهات الهند المثبتة على مقاعدهن. وقد لاحظت أوليفا كم هي جميلة هذه المرأة وأنيقة، وكم هي نحيفة وبديعة قدمها الميادة في بابوج صغير من الساتان الوردي اللون، عندما وضعتها على حافة النافذة. وقد أدهشتها استدارة ذراعها، واستدارة عنقها المرمري!

لكن الذي أدهشها أكثر من كل ذلك، هو شرود فكرها، وعيونها الشاخصة دوماً نحو هدف مبهم وغير منظور...

وهذه المرأة، التي عرفها القراء ولم تعرف أوليفا، لم تخشَ مرة أن يتمكن الناس من رؤيتها، لأنه لم تُفتح تجاه نوافذها أية نافذة على الإطلاق. فقصر السيد دي كاغليوسترو لم يكتشف أسراره إنسان، بالرغم من الزهور التي رأتها نيكول فيه، والعصافير التي شاهدتها تطير في أرجائه. فباستثناء الفنيين الذين رمَّموه، لم يُشاهَد فيه أي مخلوق حيّ.

أما لماذا أُعدَّ هذا الجناح بهذا الشكل ولم يكن يسكنه

أحد ، فالواقع أن كاغليوسترو كان قد أعدَّه لأوليفا خلال السهرة ، وكأنه يعدُّه لنفسه .

إذن بقيت المرأة الفاتنة ساهمة شاردة الفكر ، فخُيّل لأوليفا بأن هذه الجميلة الحالمة ، تستعيد ذكريات حبها الغابر ، وشعرت بروابط تشدها الى هذه المرأة التي كل ما فيها جذّاب : جذابة في جمالها ، جذابة في عزلتها ، جذابة في عمرها ، جذابة في ضجرها ... كما شعرت أن هناك مصيراً مشتركاً يشد روحيهما الى بعضهما البعض ، بفضل ما يكتنف حياتيهما من أسرار وما يحدق بهما من أخطار ، لذلك لم يعد بإمكانها ان تحوّل بصرها عن هذه المعتزلة المشغولة البال .

فهاتان المرأتان المسكينتان المطرودتان من الفردوس الروحي ، كانتا تتأسفان وتتحسران على كل ما احتجب عن أعينهما من جمالات ذلك الفردوس ، وكل ما لحق بهما من حرمان .

وقد اعتقدت أوليفا بأنها وجدت في السجينة الرائعة الحسن شقيقة لروحها ، وتصورت بأن لشقيقة الروح هذه قصة شبيهة بقصتها هي ، لأنه لا يعقل أن تعيش امرأة جميلة وأنيقة مثلها ، هكذا مهملة في شارع سان كلود ، دون أن يكون في

أعماق قلبها ما يقلقها ويهمّها. لذا تمنت لو كان لها جناحان لتطير بهما إليها.

لكن السيدة الأخرى، الجالسة كالنصب على مقعدها، لم تتحرك إطلاقاً! بل بدت وكأن النعاس يلفّها وتكاد تسترسل إلى الرقاد، وقد بقيت هكذا ساعتين دون أن تهتزّ أو تتحرك أدنى حركة!

فأخذت أوليفا تقوم بحركات علّها تلفت نظر تلك السيدة وتحرك الجماد المهيمن عليها. فقد فتحت وأغلقت نافذتها عشر مرات. وعشر مرات حفّلت العصافير الخارقة بين أوراق الشجر. كما قامت بحركات متنوعة لو شاهدها أغبى رجال السيد دي كروسن فيما هو يمرّ على البوليفار أو في طرف شارع سان كلود، لكانت لفتت نظره وأسرع للقبض عليها.

وأخيراً توصلت نيكول إلى قناعة مفادها بأن السيدة ذات الضفيرتين الجميلتين، قد لاحظت كل حركاتها، وفهمت كل إشاراتها، لكنها قابلتها بالاحتقار والإزدراء، لذا فهي إما متعجرفة، وإما حمقاء!

وخلصت إلى القول: ولكن من غير المعقول أن تكون حمقاء، ولها تلك العينان الدالتان على الذكاء والحذاقة. أما متعجرفة؟ فقد تكون كذلك، فالعجرفة هي سيمة نساء الطبقة الأثيلة في النبل، تجاه البورجوازيات في هذا العصر.

لقد استقصت أوليفا في هيئة المرأة الشابة كل الطباع الأرستقراطية ، فاستدلت على أنها متعجرفة فعلاً ، ومن العبث إثارتها . فأدارت لها ظهرها باستياء واحتقار ، وأخذت تلامس الأزهار تحت أشعة الشمس المشرفة على الغروب ، تلك الأزهار الهاشة الباشة ، والنبيلة أيضاً ، والأنيقة أيضاً ، والمغناجة أيضاً كأعظم السيدات ، ومع ذلك فهي تسمح بمسّها ، وشمّها ، وتهب الشذا بسخاء ، وترتعش كلما لامستها شفاه صديق ، أو شفاه عاشق متيّم ...

ولم يدر في خلد نيكول بأن هذه المزعومة متعجرفة ، هي جانّ دي فالوا ، كونتس دي لاموت ، التي تبحث عن فكرة منذ العشية ، فكرة هدفها الحؤول دون تلاقي ماري انطوانيت والكردينال دي روهان ، وأن البحث عن هكذا فكرة تحقق هكذا هدفاً ، لأمر من الصعوبة بمكان ، وهو كافٍ ليكون لتلك المرأة الشابة عذرها الشرعي بأن لا تحرك رأسها طيلة ساعتين مفرطتين في الملل والضجر .

فلو عرفت نيكول هذا الواقع ، لما أثار غضبها عدم اكتراث تلك المعتزلة الجميلة بها ، وجعلها تنصرف عنها كما انصرفت إلى أزهارها . ولما كانت دفعت إلى خارج الشرفة ، وهي تأخذ مكانها بين تلك الأزهار ، بإناء من الخشب النادر ، فسقط في الشارع المقفر وكان لسقوطه صوت رهيب ، أرعب أوليفا

وحملها على التطلع بسرعة إلى أسفل، لترى ما يمكن أن يكون قد أحدثه من أضرار.

واستيقظت السيدة المشغولة البال من غفوتها على دويّ الصوت، وتطلعت بدورها، فرأت الإناء على البلاط، ثم انتقلت ببصرها من السبب إلى المسبب، أي من بلاط الشارع الى سطيحة قصر كاغليوسترو... فرأت أوليفا!

وما أن وقع بصرها عليها، حتى أطلقت صرخة غريبة، صرخة مرعبة، اهتزَّ معها كل جسدها الذي كان منذ هنيهة في غاية التصلب والجمهود!

والتقت أخيراً نظرات أوليفا بنظرات تلك السيدة... وتساءلت عيونهما، وسبرت غور بعضها البعض، ثم صرخت جان أولاً:

«الملكة!...»

وفجأة، ضمت يديها وقطبت حاجبيها، دون أن تجرؤ على التحرك... وذلك خشية أن تنفر تلك الرؤية الغريبة وتحملها على الهرب. ودمدمت قائلة: «أوه! لقد كنت أفتش عن وسيلة، وها هي قد حضرت!» في تلك البرهة، سمعت أوليفا حركة وراءها، فاستدارت بسرعة لترى الكونت

كاغليوسترو في غرفتها... وكان قد لاحظ تبادل النظرات بين المرأتين، فقال في نفسه: «لقد تمت المشاهدة بينهما!»

وعند ذاك، تركت أوليفا الشرفة بسرعة.

الجارتان

★

منذ تلك البرهة التي لمحت فيها المرأتان بعضهما البعض، غدت أوليفا مفتونة بكياسة ولطافة جارتها، ولم تعد تتكلف احتقارها، بل أخذت تطوف باحتراز وسط أزهارها، وتجيب على ابتسامات جارتها بابتسامات مماثلة.

وعندما عاد كاغليوسترو لزيارتها، لم يفته أن يأمرها بألاّ تتعدى الحدود المرسومة لها. وأضاف قائلاً:

«خصوصاً معاشرة الجيران!»

فكان لهذه العبارة وقع الشؤم على رأس أوليفا، التي كانت قد توطدت علاقتها بجارتها، بواسطة تبادل الحركات والتحيات.

فعدم معاشرة الجيران، تعني إدارة الظهر إلى هذه المرأة الفاتنة ذات العينين المشعتين حلاوة وعذوبة، كما تعني قطع

كل علاقة بهذه الصديقة التي وجدت فيها أوليفا خير ما ترجوه وتتمناه.

فأجابت المرائية مجيرها بأنها ستحرص جيداً على طاعته، وأنها لن تقدم على أية معاشرة مع الجيران. لكنه ما كاد يخرج من غرفتها، حتى خرجت فوقفت على الشرفة منتصبة بشكل يلفت كل انتباه جارتها.

ويمكننا الاعتقاد، بأن جارة أوليفا لم تكن تطلب اكثر من ذلك، لأنها ما أن تلقت إشارة أوليفا الأولى، حتى أخذت تحييها وترسل إليها القبلات عبر الأثير.

وقد لاحظت أوليفا التي ردت على تحيات وقبلات جارتها بمثلها، أن تلك المجهولة لم تكن لتتخلى أبداً عن نافذتها، وأنها كانت تحرص دائماً على القول لها، بالإشارة، «إلى اللقاء» عندما تترك هي الشرفة، «وصباح الخير» عندما تعود إليها، فبدت وكأنها قد حصرت كل اهتماماتها بشرفة أوليفا!

ولما كانت الحالة هذه، توجّب أن تتبعها محاولة تقارب، والى القراء ما حدث:

عندما جاء كاغليوسترو لرؤية أوليفا بعد يومين، أخذ يتشكى من زيارة قام بها شخص مجهول إلى القصر. فقالت أوليفا وقد احمرت قليلاً:

– كيف ذلك!

فأجاب الكونت:

– نعم، إنها امرأة جميلة جداً، وشابة، وأنيقة، وقد حضرت وسألت أحد الخدم بعد أن قرعت الجرس بإلحاح: من تكون تلك الصبية التي تقطن أحد أجنحة الطابق الثالث؟ أي شقتك يا عزيزتي. ومما لا شك فيه أن سؤالها يستهدفك، وأنها كانت تودّ رؤيتك، وبالتالي فهي تعرفك وقد شاهدتك عدة مرات، واكتشفت مخبأك، أليس كذلك؟ خذي حذرك يا عزيزتي، فالشرطة لديها جواسيس من النساء كما لديها عملاء من الرجال، ولن يكون بإمكاني أن أرفض تسليمك إذا ما طلبك مني السيد دي كروسن.

وعوضاً عن أن ترتعب أوليفا، أبدت رضاها المتناهي على تحذير الكونت وشكرته، معتمدة المداهنة وإخفاء حقيقة ما في نفسها، فسألها كاغليوسترو:

– أراك غير خائفة؟

فأجابته نيكول:

– ولما الخوف طالما أن أحداً لم يرني؟!

– إذن، لست أنت من كانت تريد رؤيتها تلك المرأة؟

– لا أعتقد.

– مع ذلك، بمجرد أن يكتشفوا بأن هناك امرأة في هذا الجناح... آه! خذي حذرك، خذي حذرك!

فقالت أوليفا:

– كيف يمكنني أن أخاف يا سيدي الكونت؟ إذا كان هناك أحد قد رآني، وهذا ما لا أظنه، فهو لن يراني ثانية، اللهمّ إلا من بعيد، لأن القصر لا يُخترق، أليس كذلك؟

فأجاب الكونت:

– لا يُخترق، هذا صحيح، ما لم يتسلق المرء السور، وذلك ليس هيناً، أو يفتح الباب الصغير للمدخل، وذلك من الصعوبة بمكان، لأني لن أتخلّى عن هذا المفتاح...

وبعد هذا الكلام، أبرز الكونت كاغليوسترو المفتاح الذي كان يستخدمه للولوج من الباب الواطئ، وأكمل يقول:

– بما أنه ليس لي أية مصلحة في فقدانك، لن أقرض المفتاح أحداً. وبما أنه لن يكون لك أية منفعة في الوقوع بين يدي انسيد دي كروسن، لن تدعي أحداً يتسلق السور... وهكذا تكونين على حذر مسبق أيتها الإبنة العزيزة، فرتبي أمورك كما يحلو لك.

فاحتجت أوليفا بشدة، واستعجلت صرف الكونت بشيء من الخشونة، فلم يلُحَّ هذا الأخير في البقاء.

وعند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، كانت أوليفا على شرفتها تتنشق الهواء النقي المنساب إليها من التلال الصغيرة المجاورة ، وترشق بنظرات فضولية نوافذ صديقتها البشوشة .

وكانت هذه الصديقة ، حسب عادتها ، قد استفاقت لتوّها من رقادها ، فأبانت ذاتها لأوليفا منذ أن ظهرت هذه الأخيرة ، فبدت ، والحالة هذه ، كأنها كانت تتربص وراء الستائر بانتظار المناسبة لكي تظهر نفسها هي الأخرى .

فتبادلت المرأتان التحيات ، وتقدمت جانّ بأعلى هامتها إلى خارج النافذة ، وتطلعت في كل مكان لترى عما إذا كان باستطاعة أحد أن يسمعها ، فلم تقع عيناها على أحد ، إذ لم يكن الشارع وحده مقفراً ، بل أيضاً نوافذ المنازل .

عندئذ رفعت يديها الإثنتين الى فمها واستعاضت بهما عن البوق . وعبر بوق يديها ، أطلقت جانّ صوتها باتجاه صديقتها قائلة لها :

«أريد أن أقوم بزيارتك يا سيدتي .»

فقالت أوليفا وهي تتراجع منذعرة :

– أسكتي !

فعادت جانّ تسألها:

– ألا يمكنني أن أراك إذن ؟

فأجابتها أوليفا بحركة مؤداها :

- واحسرتاه !

فسألتها جانّ :

- هل يمكنني أن أبعث أليك برسائل ؟

فصاحت أوليفا مرتعبة :

- أوه ! كلا .

عندئذ انصرفت جانّ الى التفكير...

وكي تعبر لها أوليفا عن شكرها لما أظهرته من عطف نحوها ، أرسلت إليها عبر الأثير قبلة حارة ، ردّت عليها جانّ بقبلة مضاعفة ، ثم أطبقت نافذتها وخرجت .

فاستنتجت أوليفا بأن صديقتها قد وجدت حيلة جديدة ، وهذا ما أوحته لها نظرتها الأخيرة .

وبالفعل ، عادت جانّ بعد ساعتين ، أي بعد أن أصبحت أشعة الشمس في أوج وهجها ، وغدا بلاط الشارع محرقاً كرمال الشواطئ الاسبانية .

وما هي إلا دقائق ، حتى رأت أوليفا جارتها تظهر وراء النافذة ومعها قوس فولاذية ، ثم تبتسم وتشير لها بأن تبتعد . فأطاعت أوليفا ولاذت بمصراع نافذتها .

عندئذ صوّبت جانّ بعناية ، وأطلقت بواسطة القوس كرة

رصاصية صغيرة ، فأصابت لسوء الحظ أحد القضبان الحديدية للنافذة ، وسقطت في الشارع عوضاً عن أن تجتاز الشرفة .

فأطلقت أوليفا صرخة مفعمة بخيبة الأمل . أما جانّ ، فبعد أن هزّت كتفيها بغضب ، أخذت عيناها تبحث عن قذيفتها في عرض الشارع ، ثم اختفت لعدة دقائق .

وبدورها أوليفا انحنت من الشرفة باتجاه الشارع ، فرأت ما يشبه شخصاً يلتقط الخِراق ورثّ الثياب ، فارتدت إلى الوراء بسرعة خشية أن يراها أحد ، دون أن تدري ما إذا كان من رأته قد التقط كرة صديقتها أم لا .

وكررت جانّ المحاولة بنجاح هذه المرة . فقوسها قد أوصلت بأمانة الى غرفة نيكول كرتها الثانية ، التي لفت حولها رسالة هذا نصها :

«إني أشعر بالميل نحوك يا سيدتي الجميلة . فقد وجدتك فاتنة وأحببتك بمجرد النظر إليك . فهل أنت أسيرة ؟ هل تعلمين بأني حاولت عبثاً زيارتك ؟ ألن يدعني أبداً ، الساحر الذي يراقبك ويعدّ أنفاسك ويمنع عليك الظهور ، أتقرب منك لأعبّر لك عما يخالجني من عطف تجاه ضحية مسكينة من ضحايا طغيان الرجال وظلمهم ؟

«أتصور أنه بمقدوري خدمة صديقاتي ، فهل تودين ان تكوني صديقة لي ؟ يبدو أنك لا تستطيعين الخروج ، لكنك ،

بدون شك، تستطيعين الكتابة. ولما كنت أنا أستطيع الخروج ساعة أشاء، فانتظري مروري تحت شرفتك، وارمي لي بجوابك.

«وإذا رأيت أن طريقة المراسلة بواسطة القوس خطرة وقد تكتشف، فلنعتمد وسيلة أكثر سهولة. دلّي بواسطة خيط من أعلى الشرفة، بعد زوال النهار، كبّة بعد أن تربطي بها رسالتك، وأنا بدوري سأربط بهذه الكبّة رسالتي، فترفعينها دون أن يراك أحد.

«وثقي، إن لم تكن عيناك كاذبتين، بأني بالاعتماد على القليل من هذه الصداقة التي أوحيتها لي، سوف أتغلب وإياك على العالم.

«صديقتك ...»

«ملاحظة: هل رأيت أحداً يلتقط رسالتي الاولى؟»

ارتعشت أوليفا فرحاً عند تلقيها هذه الرسالة التي لم تشأ جانّ أن توقعها، حتى أنها تعمدت التغيير الكامل في خطها، وأجابت عليها بالأسطر التالية:

«إني أحبك كما تحبينني، وأنا في الواقع ضحية خباثة الرجال. لكن ذاك الذي يحتجزني هنا، هو مجير وليس طاغية. فهو يزورني خفية مرة في كل يوم، وسوف أشرح

لك كل ذلك فيما بعد. فيما يتعلق بالمراسلة، أفضل الكبة والخيط على القوس.

«واحسرتاه! لا، لا أستطيع الخروج. فأنا محبوسة، لكن حبسي لخيري. أوه! كم سيكون لدي من أشياء أقولها لك إذا ما أسعدني الحظ في التحدث إليك. فهناك تفاصيل كثيرة لا يمكننا كتابتها.

«إن رسالتك الأولى لم يلتقطها أحد، إذا لم يكن قد التقطها لقّاط خِرَق دميم، لكن الناس الذين على شاكلة هذا اللقاط لا يعرفون الكتابة، والرصاص بالنسبة إليهم هو رصاص لا أكثر ولا أقل.

«صديقتك: أوليفا ليغي.»

لقد ذيلت أوليفا رسالتها الجوابية من دون وجل ولا خوف، وأشارت الى الكونتس بأنها ستدلي كبة الخيطان عندما يحين المساء. وفي الوقت المتفق عليه، دلّت الكبة الى الشارع حيث كانت جان بانتظارها، فانتزعت الرسالة وحركت الخيط بشكل يجعل مراسلتها تدرك بالحواس ان العملية قد تمت، وعادت إلى شقتها لتقرأ ما جاء فيها.

وبعد نصف ساعة، عادت الكونتس فربطت بالخيط السعيد جوابها التالي نصّه:

«يمكننا أن نعمل كل ما نريده . فأنت لست خاضعة للرقابة البصرية ، طالما أني أراك دائماً وحدك . إذن ، يجب أن يكون لك ملء الحرية كي تستقبلي الناس ، أو بالأحرى كي تخرجي للناس بذاتك . كيف المنزل مغلق عليك؟ أبواسطة المفتاح؟ من يملك هذا المفتاح؟ والرجل ، هل يحتفظ بهذا المفتاح بعناد ، وبشكل لا تستطيعين معه أن تختلسيه أو أن تختلسي طابعه؟ إن مثل هذا العمل السليم ، وهو يستهدف تمتعك بالحرية لعدة ساعات وقيامك بنزهات ممتعة وأنت تتأبطين ذراع صديقة ، سوف يسليك كل شقاءاتك ويعوض عما فاتك . واذا شئت ، إنه يستهدف منحك الحرية التامة . وسنبحث هذا الموضوع بالتفاصيل عند أول لقاء يتمّ بيننا .»

ما أن قرأت أوليفا رسالة صديقتها الثانية ، حتى شعرت بحمّى الاستقلال تلهب خديها ، وبلذة الثمرة المحرمة تلهب قلبها ...

وكانت قد لاحظت بأن الكونت ، في كل مرة يزورها ، كان يحمل إليها إما كتاباً وإما حلية ، وكان يضع مصباحه الصغير الذي يرى به ولا يُرى على خزانة صغيرة ذات أدراج ، ويضع مفتاحة على المصباح .

فحضَّرت أوليفا مسبقاً قطعة من الشمع العسلي العَجِن ، وطبعت عليها رسم مفتاح كاغليوسترو عند أول زيارة

جديدة، فيما كان هو ينظر إلى الأزهار المتفتحة حديثاً ولا يلتفت يمنة ولا يسرة.

وعندما تركها الكونت وخرج، دلت أوليفا رسم المفتاح المذكور مع عجالة صغيرة ضمن علبة، فتلقته جانّ التي كانت بانتظاره في الشارع بسرور وفرح.

وفي اليوم التالي، حوالى الظهر، بعثت جانّ بواسطة قوسها هذه المرة، لأن الوقت لم يكن يسمح باستعمال الخيط والكبة، بالرسالة التالية إلى صديقتها أوليفا:

«صديقتي العزيزة،

«عند الساعة الحادية عشرة من هذا المساء، وبعد أن يكون غيورك قد ذهب، تهبطين وتسحبين المزاليج، فتجدين نفسك بين ذراعي من تعتبر نفسها صديقتك الحنون.»

فشعرت أوليفا عند قراءتها هذه الأسطر برعشة من الفرح، لم تُشعرها بمثلها أكثر رسائل جيلبير حنواً، خلال ربيع حبهما الأول ولقاءاتهما الأولى.

وفي الساعة الحادية عشرة هبطت إلى الطابق الأرضي وسحبت المزاليج، فأسرعت جانّ التي كانت بانتظارها إلى معانقتها بحرارة وحنوّ، ثم أصعدتها الى عربة كانت تقف في الشارع بانتظارهما، وقامت الاثنتان بنزهة ممتعة دامت

ساعتين، تبادلت في خلالها الرفيقتان الأسرار والقبل، وتداولتا في المشاريع المستقبلية ...

وبعد الساعتين، نصحت جانّ صديقتها بالعودة، كي لا تثير أي شك لدى مجيرها، بعد أن عرفت أن هذا المجير هو كاغليوسترو الذي تتهيب عبقريته ولا ترى الأمان في مشاريعه الغامضة.

وكانت أوليفا قد استسلمت بدون تحفظ، فاعترفت بكل شيء عن بوزير والشرطة. بينما تحاشت ذلك جانّ كامرأة ذات مقام، تعيش مع عشيق بدون معرفة عائلته.

فإذا بهما، واحدة تعرف كل شيء، وأخرى تجهل كل شيء. هكذا كانت الصداقة المحلّفة بين تلك المرأتين.

وابتداءً من ذلك اليوم، لم تعودا بحاجة الى القوس أو الكبة والخيط، بعد ان غدت جانّ تمتلك مفتاحاً، وأصبح بإمكانها إخراج أوليفا من سجنها وفق هواها. وكان العشاء الفاخر، والنزهة السرية، هما الطعم الذي استهوى أوليفا وخدعها بصورة دائمة.

وبعض المرات، كانت جانّ تسأل رفيقتها بقلق: «ألم يكتشف شيئاً السيد دي كاغليوسترو؟»

فتجيبها أوليفا:

- هو! في الحقيقة، حتى لو أخبرته يأبى أن يصدقني.

وهكذا استمرَّ الحال ثمانية أيام متواصلة ، حتى غدا الهرب في الليل بالنسبة إلى أوليفا أكثر من حاجة إلى الحرية ، لقد غدا فرحاً ولذة . لذلك بعد ثمانية أيام ، غدت شفتاها ترددان اسم جانّ ، أكثر مما كانتا ترددان إسمي عشيقيها ، جيلبير وبوزير !

الموعد

★

ما كاد دي شارني يصل إلى أراضيه وينطوي على نفسه في منزله بعد أن قام بعدة زيارات ، حتى أمره الطبيب بأن يلزم شقته وأن لا يستقبل أحداً . فنفَّذ الأمر بمشقة ، وهكذا حرم كل المواطنين في القضاء من رؤية بطل تلك المعركة البحرية الشهيرة التي ذاع صيتها في كل فرنسا . وكم حاولت الفتيات أن تراه ، بعد أن بلغت مسامعهن أنه ليس بطلاً وحسب ، بل هو جميل أيضاً ...

بيد أن شارني لم يكن مريضاً كما كانوا يرددون ، فهو لا يشكو من شيء سوى ألم قلبه ورأسه ... ولكن أي ألم هو هذا الألم !! إنه ألم حادّ ، متواصل ، وغير شفوق . ألم الذكرى التي تحرق ، والحسرة التي تمزق ...

والحب ليس سوى حنين دائم يفوق حنين المرء إلى وطنه ؛ ويمكننا أيضاً التسليم بإدعاء الشعراء القائل : إن المرأة المحبوبة هي جنة أكثر مادية بقليل من جنة الملائكة .

لذا لم يستطع شارني أن يتقيد بأوامر الطبيب أكثر من ثلاثة أيام . فقد أغضبه أن يرى كل أحلامه تتبخر وتحول دونها المسافة ، فأذاع في كل القضاء أمر الطبيب الذي ورد ذكره ، وعهد إلى خادم مجرب بحراسة منزله ، وامتطى أثناء الليل جواداً جميلاً سريع الجري ، وسار قاصداً فرساي ، فوصلها بعد ثماني ساعات . وهناك استأجر بواسطة خادم غرفته ، بيتاً صغيراً يقع وراء حدائق القصر الملكي .

وكان هذا البيت مهجوراً منذ أن مات صاحبه النبيل موتاً مأسوياً ، فلاءم شارني كل الملاءمة ، لأنه كان يود أن يحتجب فيه ، أفضل من احتجابه في أراضيه .

وقد كان هذا البيت مؤثثاً كما ينبغي ، وله بابان ، واحد يشرف على شارع مقفر ، وآخر على ممرّ مستديرة الحدائق الملكية . كما كان له نوافذ باتجاه هذه الحدائق ، تتيح لشارني أن يتسلل إلى الممرات التي يظللها شجر النير ، لأن النوافذ المحاطة مصاريعها بالدوالي واللبلاب ، لم تكن سوى أبواب بعلوٌ طابق أرضي قليل الارتفاع، باستطاعة أي كان أن يقفز منها ، إذا ما شاء ، إلى الحدائق الملكية .

فراقت لشارني العزلة في هذا البيت كثيراً، وقد يكون مردُّ ذلك حبّه للمناظر القروية التي ألفها وعايشها منذ نعومة أظافره.

وفي أقل من خمسة عشر يوماً، تعرّف إلى كل عادات القصر بما فيها عادات الحرس الملكي. فقد بات يعرف الساعات التي تأتي فيها العصافير لتشرب من المستنقعات الصغيرة، وتلك التي يمرّ في خلالها الأيل الأسمر ماطاً رأسه المدلَّه. كما عرف الهنيهات الهادئة التي تقوم الملكة في خلالها بنزهاتها مصحوبة بسيدات الشرف. وبالاختصار، لقد عاش شارني من بعيد مع أولئك العائشين في ذلك «التريانون [1]»، هيكل عباداته المغايرة للصواب.

ولما كان الفصل جميلاً، فقد وهبت شارني لياليه الناعمة والمعطرة مزيداً من الحرية لعينيه، ومزيداً من الأحلام لنفسه. كان يقضي قسماً من هذه الليالي تحت شجرة الياسمين المظللة لنافذته، يرصد الضوضاء البعيدة الآتية من القصر، ويلاحق من خلال أغصان الأشجار تراقص الأنوار التي لم تكن لتخبو قبل أن ينام كل من فيه.

---

(١) اسم لقصرين شيِّدا في «بارك» فرساي، وفي أحدهما وقِّعت في الرابع من تموز عام ١٩٢٠، المعاهدة التي وضعت حداً للعداء بين الحلفاء والمجر.

ولكنه ما عتّم أن شعر بأن الترصد من النافذة لم يعد يشفي غليله من تلك الضوضاء والأنوار البعيدة. فقفز ذات ليلة من منزله إلى الأرض، وجلس على الأعشاب المخضوضرة وهو واثق بأنه في تلك الساعة لن يلتقي كلاباً ولا حراساً. ثم سار وراء اللذة المحفوفة بالخطر غير عابئ، حتى وصل إلى طرف الغابة، إلى الحد الفاصل بين الظلمة الكثيفة وضوء القمر ذي الأبهة. وهناك وقف يستنطق تلك الأشباح التي كانت تمرّ، سوداء وصفراء، وراء ستائر الملكة البيضاء...

وبهذه الطريقة، كان يرى كل يوم ماري انطوانيت، دون أن تدري هي به.

كان يراها من مسافة لا تزيد على ربع فرسخ، سائرة مع سيدات الشرف أو مع أحد النبلاء من أصدقائها، وهي تداعب المظلة الصينية التي تقي قبعتها العريضة المزينة بالأزهار.

ولم يكن باستطاعة أية مشية أو أي وضع أن يخدعاه، فهو يعرف عن ظهر قلبه كل فساتين الملكة. كما كان يحزر، من خلال أوراق الأشجار، ثوبها الأخضر البديع ذا الأهداب الذي كان يتموج مع حركات جسدها المغرية بعفة وطهارة.

وعندما كان يحين المساء وتتوارى الرؤية الساحرة عن عينيه بتواري المتنزهين، كان شارني يرجع إلى نافذته لينظر من

بعيد، ومن خلال فرجة عرف كيف يستحدثها في تلك الغابة، إلى الضوء الساطع على زجاج نوافذ غرفة الملكة. حتى إذا ما اختفى هذا الضوء، عاش على ذكراه معللاً نفسه بالآمال، بعد أن عاش في ذهول مراقبته.

وفيما كان في منزله ذات مساء وقد انقضى على وداعه الأخير للخيال الفاتن ما يقرب الساعتين، وأخذ الندى المتساقط من القبة الزرقاء يتقطر كحبات اللؤلؤ البيضاء على أوراق اللبلاب، ترك شارني نافذته وأوى إلى سريره. وما هي إلا لحظات، حتى بلغ مسمعه صرير قفل، فعاد إلى مرصده وأخذ يتنصت.

وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل، فارتاب شارني من هذه الحركة التي لم يعتد سماعها. فذلك القفل المتمرد، كان لباب صغير في «البارك [1]» لا يفتح إطلاقاً، إلا في أيام الصيد الكبير.

وقد لاحظ شارني ان الذين يفتحون هذا الباب صامتون لا يتكلمون، وقد أغلقوا وراءهم المزاليج وساروا في الطريق

---

(١) «البارك» في قصر فرساي، كناية عن مساحة واسعة من الأرض مشجرة ومعدة للنزهة والصيد.

الضيق المارّ تحت نوافذ منزله ، فحجبتهم عن الأعين أغصان الأشجار المتدلية .

فضلاً عن ذلك ، فإن هؤلاء الذين كانوا يسيرون في ذلك الطريق كانوا يخفضون رؤوسهم ويسرعون الخطى ، فلم يستطع شارني في الظلمة أن يميزهم بوضوح . إلا أن حفيف التنانير المسترسلة ، قد أتاح له التحقق من وجود سيدتين .

وفيما كانت هاتان السيدتان تجوبان الطريق الضيق الواقع باتجاه نافذة شارني ، غمرهما نور القمر فكشفهما ، وكاد شارني يطلق صيحة فرح مفاجئة عندما تعرّف إلى هيئة وتسريحة ماري انطوانيت ... كذلك إلى وجهها المضاء بالأشعة الفضية ، رغم الانعكاس القاتم الذي عكسته عليه قبعتها الكبيرة .

فخفق قلبه خفقاناً شديداً ... وبدون وعي ، انزلق إلى «البارك» من أعلى نافذته ، وأخذ يعدو على العشب تحاشياً للضجة . ثم اختبأ وراء أكبر شجرة ليلاحق ببصره المرأتين اللتين كانتا تتمهلان في مشيتهما بين الدقيقة والأخرى .

فماذا يتوجب على شارني أن يعمل ؟ إن الملكة برفقة صديقة ، وهي لو كانت وحدها لأسرع فجثا على قدميها وصارحها بقوله : «إني أحبك وأفتديك بحياتي !»

وفيما هو يفكر بما يتوجب عليه أن يعمل وقلبه يكاد يقفز من صدره ، توقفت المتنزهتان فجأة ، وهمست الرفيقة في أذن ماري انطوانيت بضع كلمات تركتها على أثرها وحدها وأسرعت باتجاه هدف لم يتميزه شارني ، فيما أخذت الملكة تضرب الرمل بقدمها الصغيرة إلى أن بلغت جذع شجرة فأسندت ظهرها إليه ، والتفت بمعطفها بشكل أتاح لها أن تغطي حتى رأسها بـ «الكابيشون» .

فعندما رآها شارني وحدها وهكذا حالمة ، قفز وبوده الذهاب اليها والجثوّ على قدميها . لكنه عاد ففكر أن هناك ثلاثين خطوة على الأقل تفصلها عنه ، وأنها لا بدّ أن تراه قبل أن يجتاز هذه المسافة وتصرخ مرتعبة ، لأنها لن تعرفه ، فيجتذب صراخها رفيقتها أولاً ، ثم بعض الحراس المتواجدين في «البارك» ، فيكتشفون أمره المغاير للرصانة والفطنة وواجب كتم السر في هكذا حالة ، وتكون العاقبة وخيمة عليه .

لذا عرف كيف يتوقف ، وحسناً فعل ، لأنه ما كاد يكبح هذا الاندفاع الذي لا يقاوم ، حتى ظهرت رفيقة الملكة ولم تكن عائدة بمفردها .

فقد رأى شارني على بعد خطوتين وراءها ، رجلاً يسير بقامته الممشوقة وقد غطّى رأسه بقبعة عريضة والتفّ بمعطف فضفاض .

وهذا الرجل، الذي جعل شارني يرتعش حنقاً وأثار غيرته، لم يكن يتقدم كالمنتصر، بل بتردد وترنح. وكان يتلمَّس طريقه في ذلك الليل كأن رفيقة الملكة ليست دليلاً له، ولا الملكة المنتصبة تحت الشجرة هدفه.

وزاد الارتعاش الذي اعترى شارني منذ أن لمح ماري انطوانيت، عندما رأى هذا المجهول يرفع قبعته، ويكمل طريقه، ثم يدخل الظلمة ويحيي باحترام عميق عدة مرات.

عند ذاك تحولت المفاجأة المحيرة عند شارني إلى ذهول. وهذا الذهول ذاته ما عتَّم ان تحوَّل إلى شعور آخر، هو الشعور بالألم... وأخذ يتساءل: ماذا جاءت تعمل الملكة في «البارك» في هذه الساعة المتقدمة من الليل؟ ماذا جاء يعمل هذا الرجل؟ لماذا انتظر هذا الرجل متخفياً؟ لماذا بعثت الملكة تستدعيه بواسطة رفيقتها عوضاً عن أن تذهب إليه هي بنفسها؟

وكاد شارني يفقد صوابه. لكنه تذكر بأن الملكة تتعاطى السياسة السرية. فهي كثيراً ما كانت تحيك الدسائس مع البلاط الالماني، وكانت علاقتها برجال البلاط المذكور موضع غيرة الملك وانتقاداته القاسية.

فقد يكون هذا الفارس ساعياً من قبل شوونبرن أو برلين،

أو نبيلاً من تلك الوجوه الألمانية التي لم يعد يريد لويس السادس عشر أن يراها في فرساي، منذ أن سُمح للامبراطور جوزف الثاني[1] بالمجيء الى فرنسا كي يتلقى دروساً في الفلسفة والسياسة الانتقادية ويوظفها ضدّ صهره الملك المسيحي جداً.

هذه الفكرة كانت بالنسبة إلى شارني، أشبه بعصابة ماء الثلج التي يضعها الطبيب على جبين المحموم. فقد ردَّت له صوابه، وهدَّأت من ثورة غضبه. فضلاً عن ذلك، فإن الملكة كانت تحتفظ بوضع يتَّسم بالوقار والأدب والحشمة التامة.

أما رفيقتها، فقد كانت تقف على بعد ثلاث خطوات، وعليها مظاهر القلق والانتباه. ولم يطل الوقت، حتى تركت التابعة مكانها فقطعت المحادثة. وعلى الأثر قام الفارس بحركة انحناء كمن يريد أن يسجد. ومما لا شك فيه أنه نال الأذن بالانصراف بعد المقابلة.

عند ذاك اختبأ شارني وراء شجرته الكبيرة، وهو واثق بأن الجماعة سيمرون أمامه فرادى، لذا مسك أنفاسه وتمنى لو يُخنق كل صدى، سواء كان مصدره السماء أو الأرض.

---

(١) الامبراطور جوزف الثاني هو شقيق ماري انطوانيت وامبراطور المانيا من العام ١٧٦٥ الى العام ١٧٩٠.

وفيما هو كذلك، رأى الرجل النبيل قد انحنى حتى كاد يلامس الأرض، ثم استقام بحركة فيها كل الاحترام، وانطلق بسرعة لا يمكن وصفها إلا بالهرب.

لكنه توقف أثناء جريه بعد أن دعته لذلك رفيقة الملكة بصرخة صغيرة، وقالت له بصوت خافت: «انتظر!»

وقد كان فارساً مطيعاً، لأنه فور صدور الأمر إليه، توقف ينتظر.

عندئذ رأى شارني المرأتين تمران على بعد خطوتين من مخبأه، وقد تأبطت الواحدة ذراع الأخرى، وتموَّج العشب المخضوضر الذي كان تحت متناول يده تقريباً، بفضل الهواء الذي أحدثه فستان الملكة.

وتضوع عطر الملكة الذي اعتاد شارني استنشاقه، فشعر بنشوة ما بعدها نشوة، أعادت أطيب الذكريات إلى قلبه الخافق بالحب كقلب كيوبيد[١].

وبعد عدة دقائق من مرور المرأتين واختفائهما، رأى شارني الرجل المجهول الذي انشغل عنه طوال المدة التي استغرقتها وصول الملكة الى الباب الصغير، رآه يقبّل بشغف مجنون، وردة ندية معطرة، هي ولا شك، تلك التي لاحظ شارني

---

(١) إله الحب عند الأقدمين.

رونقها عندما دخلت الملكة الى «البارك» والتي شاهدها لساعته تسقط من يد جلالتها .

فهل الأمر مع هذه الوردة ، ومع القبلة الشغوفة عليها ، يتعلق بسفارة وأسرار دولة ؟

لقد كاد شارني يفقد صوابه ، وعلى وشك الوثوب على ذلك الرجل وانتزاع الزهرة منه ، عندما ظهرت رفيقة الملكة وصاحت به :

«تعال يا مولاي !»

فاعتقد شارني لحظتذاك أنه في حضرة أمير من العائلة المالكة ، واستند الى الشجرة يتحاشى السقوط على الأعشاب وهو بين الموت والحياة ...

في هذه الأثناء ، انطلق الرجل المجهول باتجاه الصوت الذي ناداه ، وتوارى مع تلك السيدة .

يد الملكة

★

عندما عاد شارني الى منزله ، شعر بانهيار في قواه بعد الصدمة التي تلقاها ولم يقوَ على احتمالها .

فقد شاءت العناية الإلهية أن تقوده إلى فرساي، وأن توفر له هذا المخبأ الثمين، خصّيصاً كي يستخدم غيرته للوقوف على جريمة ترتكبها الملكة،ضاربة عرض الحائط بالأمانة الزوجية، والكرامة الملكية، والوفاء في الحب!

ولم يكن لديه شك، بان الرجل الذي استقبل هكذا استقبال في «بارك» القصر الملكي، هو عاشق جديد. فقد حاول شارني عبثاً أن يقنع نفسه بأن الرجل الذي تلقّى الوردة هو سفير، وبأن الوردة ليست سوى رمز لعهد يُقطع بالمحافظة على السرية في نقل رسالة هي في غاية الأهمية والخطورة.

ولم يبق أمام ذلك التعيس، عندما لم يتمكن من الانتصار على شكوكه، إلا أن يتفحص سلوكه ويتساءل لماذا، أمام هكذا موقف مشؤوم، بقي سلبياً إلى هذه الدرجة!

ولكنه مع قليل من التفكير، لم يصعب عليه أن يدرك الغريزة التي أملت عليه هذه السلبية. ففي أعنف أزمات الحياة، ينبجس الفعل وقتياً من أعماق الطبيعة البشرية. ولما كانت تصرفات الملكة لا تعنيه قط، فهو لو أظهر غيرته لأحرج مركز الملكة ، وخان حبه، وفضح نفسه.

هذا عدا أنه لو تصدّى لرجل مشرّف بالثقة الملكية، لتوجب عليه الوقوع في نزاع مقيت وخالٍ من الذوق، لن تغفره له الملكة إطلاقاً.

ثم إن كلمة «مولاي» التي فاهت بها رفيقة الملكة، كانت كتحذير مفيد أنقذ شارني وأزال غروره وأخمد ثورة غضبه في الوقت المناسب. إذ أي موقف كان سيكون موقفه، لو أنه كان شاهراً سيفه ضدَّ ذلك الرجل عندما سمع تابعة الملكة تناديه بقولها: «تعال يا مولاي»، وأية غلطة فظيعة يكون قد ارتكبها؟

هذه الأفكار شغلت شارني طوال ذلك الليل وحتى منتصف النهار الذي تلاه. وكم رأى النهار التالي طويلاً ومملاً! فهو بانتظار الليل المقبل على مثل الجمر، علَّه يكون أفضل من الليل السابق، فيكشف له الأسرار ويفضحها.

فبأي قلق سيقف هذا المسكين شارني أمام نافذته التي غدت الإطار الوحيد الذي لا يمكن تجاوزه لحياته المعذبة، ووراء الفرجات المثقوبة في مصراع النافذة تحاشياً من أن يلاحظ أحد بأن منزله مسكون؟

ولكنه الحب الأقوى من القلق، هو الذي أعانه إلى أن حان الليل حاملاً إليه الأمنيات القاتمة والأفكار المجنونة.

فالضوضاء العادية التي سمعها هذه المرة بدت له وكأنها تحمل معانٍ جديدة. فقد لمح الملكة في البعيد تجتاز أحد الأدراج وقد تقدمتها بعض المشاعل، وهيئتها تدل على أنها مشغولة البال ومرتابة.

وروويداً رويداً، انطفأت كل المشاعل وغمر الصمت الحدائق الملكية، فتفقد شارني ساعته، وإذا بعقاربها تشير الى انتصاف الليل، وهو موعد الملكة... فكاد قلبه ينسحق في صدره.

وكي يخفّف من شدة ضربات قلبه المتزايدة، استند إلى درابزين النافذة، وأخذ ينتظر فتح الباب المعهود وصرير المزاليج.

ولكن شيئاً لم يعكر صفو الغابة!

فارتعش شارني إذ فكّر للمرة الاولى بأن ما حدث البارحة، لا يمكن أن يحدث في يومين متتاليين وفي نفس المكان والزمان، وأنه في الحب لا يوجد شيء إلزامي إلا الحب نفسه.

ولكن فجأة، سمع صرير المزاليج وفُتح الباب الصغير...

واعترى الشحوب وجنتي شارني، عندما لمح المرأتين في لباس الليلة الفائتة، فدمدم قائلاً:

«يجب أن تكون عاشقة!»

وقامت السيدتان بنفس المناورة التي قامتا بها في الليلة السابقة، ومرّتا تحت نافذة شارني مسرعتي الخطى.

وهو كذلك، فعل كما فعل في الليلة السابقة، أي قفز من النافذة إلى الأرض عندما ابتعدت المرأتان، وأخذ يمشي متلطياً

وراء الأشجار الكبيرة، معاهداً نفسه بأن يكون فطيناً، رابط الجأش، ثبت الجنان، وأن لا ينسى أبداً بأنه تابع، وأنها الملكة، أنه رجل ملزم بالاحترام، وأنها امرأة لها الحق في طلب الاكرام والمراعاة.

وحذراً من مزاجه الشديد التأثر والقابل للإنفجار، ألقى بسيفه وراء الأزهار المحيطة بشجرة كستناء.

في أثناء ذلك، كانت المرأتان قد وصلتا إلى نفس المكان الذي وصلتا إليه في العشية، فتعرَّف شارني إلى الملكة كما تعرَّف إليها في الليلة السابقة، وقد أخفت جبهتها بواسطة مظلتها، فيما ذهبت صديقتها تبحث في مخبأها عن الرجل المجهول الذي أطلقت عليه لقب «مولاي».

فأين يكون هذا المخبأ؟ هذا ما ساءل نفسه عنه شارني. فهناك في الاتجاه الذي ذهبت إليه رفيقة الملكة، قاعة حمامات أبولون. ولكن كيف يستطيع الغريب الاختباء بها؟ ومن أين الدخول إليها؟

وتذكر شارني بأن هناك باباً صغيراً للقاعة المذكورة من جهة الحدائق، شبيهاً بالباب الذي تفتحه السيدتان للمجيء الى الموعد. ومما لا شك فيه، أن الرجل المجهول يمتلك مفتاح هذا الباب، ومنه ينسلّ إلى تحت الأشجار الباسقة، بانتظار

من يأخذه إلى الموعد المضروب، ثم يعود «مولاي» إلى الهرب من نفس الباب بعد محادثته مع الملكة.

وبعد مضيّ عدة دقائق، لمح شارني المعطف والقبعة اللذين تميزهما في العشية. لكن الرجل المجهول هذه المرة، لم يكن يسير نحو الملكة بذات التحفظ والاحتشام، بل كان يسير بخطوات واسعة، هي أقرب إلى الجري منها إلى السير الطبيعي.

أما الملكة، فقد جلست، مستندة إلى شجرتها الكبيرة، على المعطف الذي بسطه لها «رالي» الجديد[1]. وفيما اتخذت الصديقة المحترسة وضعية المترصدة كالليلة الفائتة، جثا السيد العاشق على الطحلب، وابتدأ الحديث بسرعة وشغف.

وكانت الملكة تخفض رأسها وقد تسلطت عليها مسحة الحب الحزين، فلم يسمع شارني كلام الفارس، لكن جو الحديث كان مطبوعاً بالطابع الشعري والغرامي، وكل استهلالة منه كانت بمثابة تصريح حارّ ومضطرم، دون أن يلقى من الملكة أي جواب.

---

(١) السير ولتر رالي محظيّ وعشيق ملكة انكلترا، أليزابيت الأولى، وقد حكم عليه بالاعدام بعد اعتقال دام إثنتي عشرة سنة.

مع ذلك، كان الرجل يضاعف من إظهار محبته، وكان يبدو لشارني المسكين أحياناً، بأن كلام الرجل المخادع سوف ينفجر واضحاً، فيشعر بالاهتياج المميت والغيرة القاتلة. ولكن ذلك لم يحدث أبداً. ففيما كان الصوت يتوضح، صدرت عن الرفيقة التي كانت تسترق السمع حركة، أرغمت الخطيب الهائم على إخفاض صوته.

وبقيت الملكة ملازمة الصمت المطبق.

ولكن بعد التوسلات المتوالية، والزفرات الحارة التي صدرت عن العاشق المتيَّم، تفلتت فجأة من بين شفتي الملكة عدة كلمات مخنوقة، استطاع الرجل المجهول وحده سماعها. ولكنه ما كاد يسمعها، حتى صرخ هو بشكل سُمع واضحاً:

«أوه! شكراً، شكراً يا جلالة مليكتي المعبودة! هكذا إذن، إلى الغد».

فخبأت الملكة، إثر هذا الكلام، وجهها بشكل تام.

وشعر شارني بالعرق البارد كعرق المحتضر، يتصبب من صدغيه قطرات ثقيلة محرقة، خاصة عندما رأى الملكة تمدُّ يديها باتجاه الرجل المجهول، وهذا الأخير يمسك بهما بيديه ويطبع عليهما قبلة طويلة حنونة، عرف شارني خلال لحظة

طبعها كل أنواع الألم والعذاب الروحيين.

وبعد هذه القبلة، نهضت الملكة مسرعة وتأبطت ذراع رفيقتها، وولّى الثلاثة هاربين كالعشية من قرب شارني الذي سمَّره العذاب في مكانه، وبات في حالة من البؤس والشقاء يعجز القلم عن وصفها.

ويكفي القول، بأنه قضى معظم ذلك الليل تائهاً في «البارك» وممراته كمن فقد رشده، ولم يعد إلى صوابه إلا بعد أن اصطدم، وهو في جريه الأعمى، بسيفه الذي كان قد ألقاه وراء شجرة الكستناء استدراكاً للشر الذي خاف أن ينجرَّ إليه.

ونصل هذا السيف الذي ارتطم برجليه وسبَّب سقوطه، أعاد إليه فجأة الشعور بقوته وكرامته. فالرجل الذي تمتلك قبضة يده سيفاً، لا يستطيع إذا ما كان في حالة من الجنون كما كان عليه شارني، إلا أن يغرز هذا النصل في صدره، أو في صدر من أهانه وأساء إليه. إذ لا يحق له أن يتردد أو يخاف.

لقد عاد شارني، كما كان دائماً، روحاً صلبة وجسداً قوياً. فأقلع عن العدو المخالف للصواب الذي كان في خلاله يرتطم بالأشجار، ومشى مستقيماً وصامتاً في الممر الذي كان لم يزل مخدداً بأقدام المرأتين والرجل المجهول.

ثم ذهب فعاين المكان الذي كانت الملكة جالسة فيه،

شارني عوضاً عن أن يزفر ويتلهف ، عوضاً عن أن يترك فورة غضبه تصعد من جديد إلى رأسه ، أخذ يمعن الفكر في طبيعة هذا الحب الخفي ، وفي صفة الشخص الذي حظي بهذا الحب .

وانبرى يسبر خطوات هذا العاشق بكل انتباه وكأنه يتفحص خطوات وحش مفترس . فاكتشف الباب الواقع وراء حمامات أبولون ، ورأى وهو يتسلق مَطلاًّ الجدار ، أثراً لأقدام جواد وكثيراً من العشب . فقال في نفسه :

«من هنا يأتي !.. من فرساي وليس من باريس . إنه يأتي وحده ، وغداً سيعود ، طالما قالت له : إلى الغد !»

«فلتكفَّ عيناي عن الدموع ، وليهدأ الدم الفائر في قلبي . فغداً سيكون آخر يوم من حياتي ، وإلا كنت جباناً وغير صادق في حبي .»

ثم ضرب على قلبه برفق ، كما يضرب الفارس على عنق جواده المجمجم ، وتابع يقول :

«هيّا ، هيّا ، فمزيد من الهدوء والقوة ، لأن التجربة لم تنته بعد .»

قال هذا وألقى حوله نظرة أخيرة ، تجاوز بها القصر الملكي ، إذ خشي أن يرى فيه نافذة الملكة الخائنة مضاءة ، لأن هذا الضوء في اعتقاده كان تمويهاً ، ونقيصة إضافية .

فهل في الواقع، لم تكن النافذة المضاءة تعني بأن الغرفة مسكونة ؟

على هذا السؤال أجاب شارني بصوت مرتج وسخرية مرّة :

«إن النور المنبعث من نافذة غرفة الملكة، كان المقصود به الاعتقاد بأن الملكة في غرفتها، بينما هي تجري في «البارك» برفقة عاشق ! حقاً، إنها ليست على شيء من العفة ! وما تسترها الشديد في مجال العشق والغرام، إلا لأنها تخشى أن تغيظ الملك.»

وهنا غرز شارني أظافره في لحمه، وسار في الطريق إلى منزله بخطوات موزونة، وهو يقول :

«إلى الغد !.. إلى الغد كلنا، لأننا سنكون على الموعد أربعة يا سيدتي !»

امرأة وملكة

★

لقد تمخّض اليوم التالي عن نفس الرواية. فالباب قد فُتح عند انتصاف الليل، لتظهر بعد ذلك المرأتان.

فاتخذ شارني مقرراته وعزم عزمه. إنه هذا المساء، يريد معرفة الشخص السعيد المحظيّ من الملكة.

فذهب كالعادة وكمن وراء الأشجار. لكنه عند وصوله الى المكان الذي تكرر فيه لقاء العاشقين ليومين تاليين، لم يجد أحداً.

فرفيقة الملكة قد ذهبت بها باتجاه حمامات أبولون.

وهذا ما ضاعف في قلق شارني وعذابه. فهو في طهارة نيته، لم يتصور بأن الجريمة يمكن أن تتمادى إلى هذا الحد.

لقد سارت الملكة، مبتسمه وهامسة، نحو الملجأ الذي كان ينتظرها عند عتبته، باسط اليدين، النبيل المجهول.

فدخلت، وهي تبسط يديها بدورها، ثم أُقفل وراءها حاجز القضبان المشبكة.

أما الشريكة المتواطئة، فقد بقيت في الخارج مستندة إلى عمود تكدست عليه أوراق الأشجار فبات ليّن الملمس.

فقدَّر شارني قواه تقديراً سيئاً، فتبين له بأنها لا تستطيع مقاومة هكذا صدمة. ففي اللحظة التي كان من المفروض فيه أن تدفعه سورة غضبه الشديد إلى الانقضاض على نجيَّة الملكة وكشف شخصيتها، وربما خنقها، غلى الدم وتصاعد بغزارة إلى صدغيه وحنجرته فخنقه، وسقط على الطحلب يزفر

زفرات واهية، عكرت لعدة ثوان سكينة الحارس الواقف على أبواب حمامات أبولون.

فسبَّبت له السقطة، في جرحه الذي انفتح من جديد، نزيفاً داخلياً ضيَّق عليه أنفاسه وأفقده وعيه. لكن نداوة المكان ورطوبته، قد أعاداه بعد مدة إلى الحياة تحت تأثير ألمه.

وما لبث أن عرف المكان الذي هو فيه، وتذكر ما حدث له، فتلمَّس نفسه ونهض وهو يتعثر.

في هذه الأثناء كان الحارس قد اختفى ولم تعد تسمع أية نأمة. سوى أن إحدى ساعات فرساي كانت تدق معلنة الثانية بعد منتصف الليل، فعلم شارني من دقاتها أنه قد غاب عن الوعي لمدة طويلة.

وعادت الرواية المرعبة تتراقص أمام عينيه: ملكة، وعاشق، وتابعة، توفر لهم الوقت للفرار. لقد استطاع شارني أن يقنع نفسه بذلك، عندما شاهد آثار انطلاق فارس ما زالت حديثة.

هذه الآثار، وبعض الأغصان المنكسرة في جوار الحاجز المشبك لحمامات أبولون، شكلت البرهان المقنع لشارني المسكين.

فعاد إلى منزله ليقضي بقية الليل في هذيان دائم. وعندما

أصبح الصباح ونهض من فراشه، كان لم يزل متوتر الأعصاب غير هادىء.

لقد كان شاحب اللون كالميت، وبدا مظهره كأنه قد كبر عشر سنوات دفعة واحدة! فنادى خادمه، ولبس بمساعدته لباساً من المخمل الأسود، ظهر فيه كأنه من تلك الطبقة التي امتازت في فرنسا يومذاك، بأنها ليست من رجال الاكليروس ولا من النبلاء.

وسار قاتم الوجه، صامتاً، ممتصاً كل آلامه، باتجاه قصر «تريبانون»، في الوقت المحدد لتبديل الحرس، أي حوالى الساعة العاشرة.

في تلك الساعة، كانت الملكة خارجة من كنيسة القصر، بعد استماعها إلى القداس، فانحنت لها باحترام عند مرورها، كل الرؤوس والسيوف.

ووقف شارني مبهوتاً أمام جمالها!..

لقد كانت حقاً رائعة... بشعرها المرفوع فوق صدغيها، ووجهها ذي الحياكة الناعمة، وفمها الباسم، وعينيها المشعتين بالضياء العذب رغم التعب البادي عليهما.

وفجأة لمحت شارني عند نهاية صفّ من الأشجار، فاحمرت وأطلقت صرخة اندهاش!

فلم يخفض شارني رأسه . بل استمرَّ ينظر إلى هذه الملكة التي قرأت في نظرته شقاءً جديداً ، فجاءت إليه وقالت له بقساوة :

«كنت أعتقدك في أراضيك يا مسيو دي شارني .»

فأجاب شارني بايجاز وبلهجة خالية من الأدب تقريباً :

«لقد عدت يا مولاتي .»

فقابلت الملكة المندهشة كلامه العدائي تقريباً بنظرات غاضبة ، ثم استدارت نحو نسائها وقالت للسيدة دي لاموت بمودة :

«صباح الخير أيتها الكونتس .»

ثم غمزتها بعينيها غمزة أليفة ذات دالة ، فارتعش شارني وتطلّع بانتباه زائد ، وإذا بجانّ التي شغل بالها هذا التكلف ، تشيح برأسها عنه .

فتبعها شارني وكأنه قد أصيب بمسّ . وبقي يلاحقها حتى أبانت له وجهها . ثم استدار حولها يدرس مشيتها .

أما الملكة ، فمع أنها كانت تحيي على الشمال وعلى اليمين ، فقد استمرت تلاحق احتيال هذين المترصدين ، وهي تقول في نفسها :

«مسكين هذا الفتى ! هل اختلَّ عقله يا ترى ؟»

وعادت إليه لتقول له بصوت عذب :

«كيف تجد نفسك يا مسيو دي شارني ؟»

فأجابها دي شارني :

– على أحسن ما يكون يا مولاتي . ولكن ، شكراً لله ! تبقين أفضل مني .

ثم حيًّا بشكل أرعب الملكة . فقالت جانّ المتيقظة : هل هناك شيء ؟

واستأنفت الملكة الكلام فسألته :

– أين تقطن في الوقت الحاضر إذن ؟

فأجاب شارني :

– في فرساي يا مولاتي .

– منذ كم من الوقت ؟

فأجاب شارني داعماً كلماته بالنظر ونبرة الصوت :

– منذ ثلاث ليالٍ ...

فارتعشت جانّ ، وأكملت الملكة تسأله بعذوبة ملائكية ، ومن دون أن يبدو عليها أي اضطراب :

– هل لديك شيء تودُّ قوله لي ؟

فأجاب شارني :

– أوه ! نعم يا مولاتي ، لدي أشياء كثيرة أودُّ قولها لجلالتك .

فقالت الملكة بخشونة : تعال !

ومشت ماري انطوانيت بخطوات واسعة نحو أجنحتها، بعد أن دعت حاشيتها للحاق بها كي تتجنب الظهور منفردة مع شارني، وقد اندست جانّ وسط هذه الحاشية.

وعندما وصلت إلى جناحها، صرفت السيدة ميزاري وكل القائمين على خدمتها.

وكان الطقس جميلاً والشمس مشرقة من خلال الغيوم. ففتحت الملكة النافذة المطلة على سطيحة صغيرة، وجلست أمام خزانة واطئة تكدست فوقها الرسائل، فعرف الذين رافقوها بأنها تودّ الانفراد بنفسها، فابتعدوا.

وبقي شارني وحده فريسة الغضب، نافد الصبر، يدعك قبعته بيديه بعصبية ظاهرة، فقالت له الملكة:

– تكلم! تكلم! يبدو عليك أنك منزعج جداً يا سيدي.

فقال شارني الذي كان شديد التبصر:

– من أين عليّ أن أبدأ؟ وكيف أجرؤ على اتهام الشرف، واتهام الوفاء، واتهام الجلالة؟

فصاحت ماري انطوانيت وهي تنتفض بسرعة ونار الغضب في عينيها: ماذا تقول؟!

فأكمل شارني قائلاً:

– ومع ذلك، لن أصرح عما شاهدت.

فنهضت الملكة وقالت ببرودة:

– إنه الصباح يا سيدي، ولا يمكن أن تكون ثملاً في مثل هذا الوقت. ومع ذلك، فقد تصرفت تصرفاً سيئاً لا يليق بنبيل ما زال على الريق.

وانتظرت الملكة أن تسحق مهينها بهذا الكلام المحقِّر، لكن شارني بقي غير مبالٍ، وأردف قائلاً:

– في الواقع، ما الذي تعنيه كلمة ملكة، سوى امرأة؟ وأنا، من أكون؟ أنا رجل قبل أن أكون تابعاً.

– سيدي!..

– يجب أن لا يغضبك ما سأقوله لك يا مولاتي. فأنا قد برهنت لك عن احترامي للجلالة الملكية، وأخشى أن أبرهن لك عن حبي المغاير للصواب لشخص الملكة بالذات. يبقى عليك أن تختاري بين الملكة والمرأة... فأيهما من الاثنتين، تريدين أن يتّهم هذا العابد بالخيانة المشينة؟

فصاحت الملكة وهي تسير نحو شارني شاحبة اللون:

– إعلم يا سيد دي شارني، بأنك إن لم تخرج من هنا، سوف أطردك بواسطة حراسي.

فصاح شارني وقد أسكره الغضب:

– إذن، سوف أقول لك قبل أن تطرديني، لماذا أنت ملكة غير جديرة وامرأة بدون شرف!.. منذ ثلاث ليال، وأنا ألاحقك في حدائقك.

وعوضاً عن أن تثب الملكة غاضبةً نتيجة لهذه الإهانة الهائلة، كما كان يتوقع شارني، رآها ترفع رأسها وتقترب لتمسك بيده وتقول له:

- إنك في حالة تثير شفقتي يا سيد دي شارني. فاحترس لنفسك، لأن الشرر يتطاير من عينيك، ويديك ترتعشان، والشحوب يعلو وجنتيك، والدم يزدحم في قلبك. إنك تتألم، فهل تريد أن أستدعي لك؟..

فقاطعها شارني قائلاً:

- لقد رأيتك!.. لقد رأيتك! رأيتك مع ذلك الرجل عندما أعطيته الوردة. ورأيتك عندما قبّل يديك، ورأيتك عندما دخلت وإياه إلى حمامات أبولون...

فمررت الملكة يدها على جبينها، لتتأكد بأنها في اليقظة وليست في المنام، وقالت:

- هيّا واجلس، لأنك سوف تسقط إن لم أمسك بك. اجلس، قلت لك.

فارتمى شارني على تكأة، وجلست الملكة بالقرب منه على إسكملة، ثم أمسكت بيديه الاثنتين وأخذت تتأمله حتى أعماق نفسه، وقالت له:

- هدّئ من روعك، وسكّن قلبك ورأسك، وأعد عليّ ما قلته لي.

فدمدم التعيس قائلاً :
- أوه ! إنك تريدين قتلي .
- دعني أسألك ، منذ متى عدت من أراضيك ؟
- منذ خمسة عشر يوماً .
- أين تقطن ؟
- في منزل «لوفاتييه» ، الذي استأجرته عمداً .
- آه ! نعم ، منزل الانتحار ، على حدود «البارك» .
فأكد شارني ذلك بإشارة من رأسه ، وتابعت الملكة تسأل :
- تكلمت على رجل رأيته معي ، أليس كذلك ؟
- أودُّ التكلم أولاً عليك أنت ، التي رأيتك .
- أين كان ذلك ؟
- في «البارك» .
- أية ساعة ؟ وأي يوم ؟
- المرة الاولى ، في منتصف ليل الاربعاء .
- أنت متأكد بأنك رأيتني ؟
- كما أراك الآن ، ورأيت أيضاً تلك التي كانت برفقتك .
- أكان هناك من يرافقني ؟ وهل تعرف هذه الرفيقة ؟
- لقد تراءى لي هذه الساعة ، بأني رأيتها هنا ، ولكني لا أستطيع التأكيد . فهيئتها هي إياها ، أما وجهها ، فقد كان مستتراً عند ارتكاب الجريمة .

فقالت الملكة بسكينة :

- حسناً ! لم تتحقق من رفيقتي ، أما أنا ...

- أما أنت ، فإن كنت تشكين بأني أراك الآن ، أشك بأني رأيتك .

فخبطت الملكة الأرض برجلها باضطراب ، وقالت :

- وذلك الرفيق الذي أعطيته وردة ... طالما أنك رأيتني أعطيه وردة .

- نعم ، هذا الفارس ، لم أستطع أبداً إدراكه .

- مع ذلك ، أنت تعرفه ؟

- كل ما أعرفه عنه ، هو أنهم يدعونه «مولاي» .

فضربت الملكة جبهتها بغضب مكظوم ، وقالت :

- تابع ... الثلثاء ، أعطيت وردة ... والاربعاء ؟

- الاربعاء ، أعطيت يديك للتقبيل ...

فدمدت وهي تعضّ يديها :

- أوه ! والخميس ، البارحة ؟

- البارحة ، أمضيت مع ذلك الرجل ساعة ونصف الساعة في حمامات أبولون ، حيث تركتكما رفيقتك وحدكما ...

فنهضت الملكة مهتاجة ، وقالت مشددة على كل مقطع :

- و ... أنت ... هل رأيتني ؟

فرفع شارني يده نحو السماء يريد أن يقسم ، إلا أن الملكة زمجرت قائلة :

– يا للهول ! يودّ أن يقسم أيضاً !..

فكرر شارني حركته وكأنه يكرر اتهامه ، فقالت الملكة وهي تقرع صدرها :

– أنا ؟ أنا ؟ أنا ، رأيتني ؟

فقال شارني :

– نعم ، أنت . فالثلثاء ، كنت ترتدين فستانك الأخضر المتموج بالخطوط الذهبية . والاربعاء ، فستانك المشجر باللونين الأزرق والزنجاري . والبارحة ، فستان الحرير الذي كنت ترتدينه عندما قبّلت يدك لأول مرة ! أنت بذاتك من شاهدت يا مولاتي ، وإني أقسم على ذلك بحياتي ، وشرفي ، وإلهي . أقسم وأكاد أموت ألماً وخجلاً !..

فأخذت الملكة تذرع السطيحة بخطوات واسعة ، غير مكترثة لأن يلاحظ غضبها الشديد ، المشاهدون الذين يفترسونها بأعينهم من الأسفل . ثم قالت :

«لو أقسمت ... لو أقسمت بولدي ، بإلهي !.. وأنا لي إله مثلك !.. ولكن لا ، لن يصدقني !.. لن يصدقني !»

فأخفض شارني رأسه ، وأضافت الملكة قائلة وهي تهزهز يده : «مجنون ! مجنون !»

ثم جذبته من السطيحة إلى غرفتها، وقالت له:

- إني لأعجب من هذه اللذة التي تدفعك لاتهام امرأة بريئة! ومن الشرف الذي ستناله من هذه التهمة الشائنة بحق ملكتك... ألا تصدقني بأني لست أنا التي رأيتها؟ إني أقسم لك بالمسيح، بأني منذ ثلاثة أيام، لم أخرج بعد الساعة الرابعة مساءً. فهل تريد أن أثبت لك ذلك بواسطة نسائي، بواسطة الملك الذي رآني هنا، وأنه لم يكن بإمكاني أن أكون في موضع آخر؟ لا... لا... إنه لن يصدقني! إنه لن يصدقني.

فأجاب شارني ببرودة:

- ولكني رأيتك!..

فصاحت الملكة فجأة:

- أوه! إني أعلم، إني أعلم! فهذا الافتراء الفظيع ما زال يلاحقني بلا شفقة ولا رحمة! ألم يروني في حفلة الاوبرا؟ ألم يروني عند ميسمار؟ أنت تعرف ذلك جيداً، لأنك كنت من الذين ظلموني بقساوة، وبدون رادع من ضمير.

- في ذلك الوقت يا مولاتي، لم يكن بإمكاني أن أصدق عينيَّ. أما اليوم، فلا يسعني إلا أن أصدق!

فرفعت الملكة نحو السماء ذراعيها المتوترتين من فرط اليأس، وقالت بعد أن تدحرجت من خديها إلى صدرها دمعتان محرقتان:

– يا إلهي ! ألهمني فكرة تنقذني ، فلم تعد نفسي تتحمل الاحتقار والظلم . لا تتخلَّ عني يا إلهي !

فحركت هذه الصلاة الحازمة على بساطتها شعور شارني حتى أعماق قلبه ، فخبأ عينيه بيديه ...

أما الملكة ، فقد لزمت الصمت لحظة ، ثم قالت بعد تفكير :

– سيدي ، يتوجب عليك التكفير نحوي . فإليك ما أريده منك : لقد رأيتني في «البارك» أثناء الليل ، وعلى ثلاث ليالٍ متلاحقة ، برفقة رجل . ومع أنك عالم بأن هناك امرأة تشبهني وقد انخدع بها الكثيرون ، إذ لها بكل أسف نفس وجهي ونفس مشيتي ، فأنت لا تريد إلا أن تصدق بأني أنا من كانت في «البارك». فبما أنك مصرّ على اعتقادك ، وبما أنك رأيتني بنفسك ، إرجع إلى حدائق «البارك» في نفس الساعة ، إرجع إليها برفقتي . فإذا كنت أنا من رأيتها أمس ، حتماً لن تراني اليوم ، لأنني سأكون قربك . واذا كانت امرأة أخرى ، فلماذا لا نراها سوية نحن الاثنين ؟ وإذا رأيناها ... هل ستندم يا سيدي على كل ما سبَّبته لي من عذاب ؟

فضغط شارني بيديه الاثنتين على قلبه ، ودمدم قائلاً :

– آهٍ مولاتي ، إني استحق الموت ، فلا تسحقي هذا القلب بطيبتك .

فقالت الملكة :

- كن مطمئن البال ، فأنا لا أريد الانتصار إلا بالبراهين . فانتظرني هذا المساء وحدك عند البوابة المخصصة لصيد الذئاب [1]. إذهب يا سيدي ، ولا تدع شيئاً يظهر عليك في الخارج .

فجثا شارني وخرج من دون أن يفوه بكلمة .

وعندما اجتاز القاعة الثانية ، رمقته جانّ بنظراتها الحادة ، وأسرعت مع من كان معها ، في الدخول على جلالتها عند أول نداءٍ منها .

امرأة وشيطان

★

كانت جانّ قد لاحظت مظاهر القلق والاضطراب على وجه شارني ، كما لاحظت الهم وانشغال البال على وجه الملكة ، وذلك نتيجة لحرارة الحديث الذي جرى بينهما . فامرأة في مقدرة جانّ لا تحتاج الى الكثير من الجهد لفهم الامور كما هي .

---

(١) من هذه البوابة كان الملك وحاشيته ينطلقون لصيد الذئاب داخل «البارك».

والواقع أنه بعد اللقاء الذي جرى بين السيدة دي لاموت وأوليفا، والذي دبره كاغليسترو بمهارة كلية، أصبح بامكان مسرحية الليالي الثلاث الاخيرة أن تتجاوز التفسيرات والتعليقات.

فقد شاءت جانّ بدخولها على الملكة والاستماع الى كل شيء بدقة وانتباه، أن تكتشف في وجه ماري انطوانيت الأدلة على ما يريبها ويساورها من شكوك وظنون.

لكن الملكة كانت قد اعتادت منذ بعض الوقت ان تحذر كل الناس، لذا لم تدع شيئاً يظهر عليها. فعمدت عندئذ جانّ الى الحدس والتخمين، ولتوها أمرت احد خدمها بأن يلحق بالسيد دي شارني، ففعل وعاد بعد قليل ليعلمها بأن الكونت قد دخل منزلاً يقع في طرف الحدائق الملكية، بالقرب من شجرات النير، ففكرت في نفسها قائلة:

«لا شك ان هذا الرجل الذي رأى كل شيء، هو عاشق!»

ثم سمعت الملكة تقول للسيدة دي ميزاري:

«إني أشعر بتعب أيتها العزيزة ميزاري، لذا سأنام هذا المساء في الساعة الثامنة.»

وأضافت تقول فيما كانت سيدة الشرف تلح على ذلك:

«لن أستقبل أحداً.»

فقالت جانّ في نفسها: «الأمر واضح بما فيه الكفاية، ومجنونة تكون من لا تفهم.»

ولم تتوان الملكة، التي كانت فريسة التأثيرات، من أن تأذن بالانصراف لكل أفراد حاشيتها. فغمر الفرح قلب جانّ لأول مرة منذ دخولها البلاط، وقالت في نفسها:

«لقد حان الوقت كي أتخلص مما فعلت، فالأوراق أصبحت مخلوطة في باريس!»

وللحال، خرجت من فرساي وعادت الى منزلها في شارع سان كلود، حيث وجدت في انتظارها هدية فضية ثمينة كان الكردينال قد بعث بها إليها صباح ذلك اليوم.

وبعد أن ألقت على هذه الهدية نظرة غير مبالية، رغم قيمتها، انتقلت بنظرها إلى شقة أوليفا فرأت، من خلال ستائر نافذتها المسدلة، أوليفا نائمة، إذ كانت بدون شك تعبة بسبب ارتفاع الحرارة في ذلك اليوم.

ثم توجهت الى قصر الكردينال فوجدت نيافته مشرق الوجه، شامخ الأنف من الفرح والكبرياء. وقد كان جالساً وراء مكتبه الفخم يمزق رسالة، ثم يعود فيبدأ بكتابتها بنفس العبارات ومن دون ملل، لكنها لم تنته اطلاقاً...

فانتفض واقفاً وصاح عندما أبلغه الخادم بقدومها:

«أيتها الكونتس العزيزة!»

واندفع الحبر نحوها يغمر ذراعيها ويديها بقبلاته الحارة ...
ثم جلست جانّ في مقعد مريح استعداداً لحديث طويل.

فبدأ الحديث نيافته بعبارات الشكر وعرفان الجميل، وذلك ببلاغة لا تخلو من صدق الطوية، فقاطعته جانّ قائلة:

- هل تعلم يا مولاي أنك عاشق لطيف، وأنه لا يسعني إلا أن أشكرك على لطفك المتناهي؟

- ولِمَ الشكر؟

- ليس من أجل الهدية الرائعة التي بعثت بها إليَّ هذا الصباح، بل من اجل الحذر الذي احتطت له فلم ترسل هذه الهدية إلى المنزل الصغير. فعلاً، إنه تصرف لطيف، وإن قلبك ملكي وليس ملك شهوتك.

فأجاب الكردينال:

- إن لم أكن لطيفاً معك، فمع من تريدين أن أكون لطيفاً؟

فقالت جانّ:

- إنك لست رجلاً سعيداً وحسب، بل أنت إله منتصر!

- أنا أعترف بذلك، والسعادة تخيفني ... إنها تزعجني، وتجعلني غير قادر على تحمل رؤية الرجال الآخرين ...

ثم تابع يقول بعد ان ابتسمت جانّ:

- هل أنت آتية من فرساي؟

– نعم .

– وهل ... رأيتها ؟

– لقد تركتها لتوي .

– وهي ... ألم تقل شيئاً ؟

– ماذا تريدها أن تقول ؟

– عفواً ، ليس ذلك بدافع الفضول ، بل بدافع الكلف والولع .

– لا تسألني شيئاً .

– أوه ! أرجوك أيتها الكونتس .

– قلت لك لا تسألني .

– إن موقفك هذا ، يجعلني أعتقد بأنك تحملين خبراً سيئاً .

– لا تجبرني على الكلام يا مولاي .

– كونتس ! كونتس !

وأكمل يقول بعد ان شحب لونه :

– صارحيني إن كان لديك خبر شؤم ... ولكن لا ... فأنا لا أريد أن يعكر سعادتي أي شيء ... أليس كذلك ؟

فأجابت جانّ :

– بالعكس ، إني اعتبر ذلك سعادة كبيرة يا مولاي .

– ذلك ... أي ذلك ؟ ماذا تريدين أن تقولي ؟

فقالت جانّ بجفاء:

- أن لا تكون قد اكتُشفت.

- فابتسم الكردينال وقال:

- أوه... رغم الاحتياطات، ورغم ذكاء قلبين وروح...

- إن روحاً وقلبين يا مولاي، لا تحجب الرؤية عن العيون من خلال الاغصان.

فصاح الامير دي روهان مرتعباً: وهل شاهدونا؟!

- هذا ما أعتقده.

- إذن... إن كانوا قد شاهدونا، فهل يعني أنهم عرفونا؟

- أوه! بخصوص ذلك يا مولاي، لا تشغل بالك. فلو أنهم عرفونا، لو أن واحداً وقف على هذا السر، لكانت جانّ دي فالوا قد أصبحت الآن في أطراف الدنيا، ولكنت أنت الآن ميتاً...

- هذا صحيح، فكل ما شاهدوه، أناساً يتنزهون في حدائق «البارك»، وذلك ليس ممنوعاً. أليس كذلك أيتها الكونتس؟

- إسأل الملك.

- أعَرف الملك؟

- لو عرف الملك، لكنا نحن الاثنين في سجن الباستيل الآن. فكي نتحاشى الباستيل، جئت أرجوك ان لا تطلب المستحيل مرة جديدة.

فصاح الكردينال:

- ماذا تقولين؟ ما الذي يعنيه كلامك أيتها الكونتس؟

- ألم تفهم ما يعنيه؟

- إني خائف.

- أما أنا، فسوف أخاف إن لم تسكِّن روعي.

- ماذا عليَّ أن أعمل من أجل ذلك؟

- عليك أن لا تذهب بعد الآن إلى فرساي.

فقفز الكردينال كالمجنون وصاح:

- هذا مستحيل!

- ولماذا مستحيل؟

- لأن في قلبي حباً لن ينتهي إلا بانتهاء حياتي...

فقاطعته جانّ قائلة بسخرية:

- أعرف ذلك جيداً. ولكنك إن أصريت على الرجوع إلى «البارك»، فأنت وحبك ستنتهيان سوية وبضربة واحدة.

- عجباً من هذا الخوف أيتها الكونتس! فالبارحة كنت في غاية الجرأة!

- أنا لا أخاف إطلاقاً، عندما لا يكون الخطر ماثلاً.

- أما أنا، فلا أشعر بالسعادة، إلا إذا كانت محفوفة بالمخاطر.

- حسناً، ولكن إسمح لي أن أقول لك والحالة هذه...

فصاح الحبر المتيَّم:

- لا شيء، لا شيء أيتها الكونتس. سوف أعود الى فرساي، ولو كلفني الحب حياتي!

فسألته الكونتس:

- أتذهب وحدك؟

فقال دي روهان بلهجة عاتية:

- هل ستتخلين عني؟

- أنا، أولاً...

- ولكن هي، ستأتي.

- أنت مخدوع، إنها لن تأتي.

فقال الكردينال وهو يرتعش:

- وهل جئت تنبئينني بذلك من قبلها؟

- إنها الصدمة التي أحاول منذ نصف ساعة أن أخفف من وقعها عليك.

- ألا تريد أن تراني بعد الآن؟

- أبداً، وأنا التي نصحتها بذلك.

فقال الحبر بلهجة مؤثرة:

– حرام عليك يا سيدتي ، ان تغمدي الخنجر في قلب تعلمين كم هو رقيق .

– ذلك أقل شراً ، بالنسبة لي يا مولاي ، من أن أدع مخلوقين مجنونين يضربان عرض الحائط بنصيحة مخلصة ، من المفروض أن يستفيدا منها .

– ولكن الموت أفضل لي من ذلك أيتها الكونتس !

– هذا تجديف يا قداسة الحبر ! فلا تنسَ أنك أحد رعايا الملكة ، وأنه عليك أن تضحي بحبك في سبيل عرشها .

فأمسك الكردينال بيد الكونتس وصاح بها وكأنه يهذي :

– اعترفي بأنها لم تقل لك بأنها تخلت عني ، وأنها طلبت مهلة فقط ...

– لك أن تقدر ما تشاء ، ولكن عليك أن تتقيد بأوامرها .

– ليست الحدائق المكان الوحيد الذي باستطاعتنا أن نرى بعضنا البعض فيه ، فهناك الف مكان أمين ، ألا تأتي إلى شقتك ؟

– لن أزيد كلمة على ما قلت يا مولاي . فسرك الذي أحمله ، أشعر بأنه سوف يقتلني إن أنا حملته مدة طويلة . وأعترف لك صادقة ، ولو اعتبرتني مجرمة ، بأنه إن لم تفضح المفاجآت او سوء الاحتراز هذا السر ، ربما حملني ضميري يوماً من الايام ، وفي ساعة يأس ، على الاعتراف به للملك .

فصاح دي روهان قائلاً :

– يا إلهي ! أمعقول ان تفعلي ذلك ؟

– إنك لو رأيتها ، لأثارت شفقتك .

فنهض الكردينال بسرعة وقال :

– ما العمل إذن ؟

– العمل الوحيد المطلوب منك ، هو أن تصمت !

– ولكن صمتي يجعلها تعتقد بأني نسيتها .

فهزت جانّ كتفيها ، وأكمل الكردينال يقول :

«سوف تتهمني بالخيانة .»

– إن من ينقذ ملكته ، لا يتهم أبداً بالخيانة .

– ثم هل هناك امرأة ، تغفر لمن لا تظهر عليه الغبطة في حضورها ، خاصة اذا كانت هذه المرأة ملكة كماري انطوانيت ؟ بربك دعيني أراها مرة أخيرة ، دعيني أكلمها . وأنا أعاهدك على التقيد بأوامرها ، كأنها نذر عليَّ ، بعد أن تستمع إلي .

فنهضت جانّ وقالت له :

– إفعل ما يروق لك . إذهب اليها إذا شئت ، ولكن إذهب وحدك . فأنا قد رميت مفتاح الحدائق في نهر السين أثناء عودتي اليوم . إذهب إلى فرساي واتبع هوى نفسك ، أما

أنا، فسوف أسافر الى سويسرا، أو إلى هولندا، كي أكون بعيدة عن القنبلة التي أخشى انفجارها.

- يا إلهي! أتتركينني أيتها الكونتس! أتتخلين عني! ولكن، مع من سأتحدث عنها؟

فقالت له جانّ بدهاء ومراوغة:

- ألن تبقى لك الحدائق الملكية واصداؤها؟

فقال الحبر بلهجة حزينة:

- إشفقي عليَّ أيتها الكونتس، فنفسي حزينة حتى الموت!

فأجابته جانّ بفظاظة الجراح الذي يقرر بتر أحد أعضاء المريض:

- إن كنت حزيناً حتى الموت، عليك ان لا تتصرف كالاولاد، فتعرّض نفسك لما هو أشدُّ خطراً من البارود، ومن الطاعون، بل من الموت نفسه! إن كنت هائماً الى هذه الدرجة بهذه المرأة، فينبغي عليك ان تحافظ عليها، عوضاً عن ان تفقدها. وإن كان لم يزل لك قلب وذاكرة، لا تجازف بمن خدمك بمحبة. أنا لا أريد أن ألعب بالنار، فهلاَّ أقسمت لي بأنك، من الآن وحتى خمسة عشر يوماً، لا تسير خطوة واحدة لرؤية الملكة؟ قلت لرؤية الملكة ولم أقل للتحدث إليها، هل سمعت؟ وهل تقسم على ذلك؟

فدمدم الكردينال قائلاً :

– آه ! ان انسحاق القلب والسقوط من أوج السعادة، لأمر رهيب سوف يقتلني !

فقرّبت جانّ وجهها منه وهمست في إذنه قائلة :

– هيا بنا ، فأنت لا تحب إلا من أجل إشباع رغباتك .

– ولكني اليوم أحب من أجل الحب .

فقالت جانّ :

– تعذب إذن اليوم ، فالعذاب من شروط الحب . هيا وقرر يا مولاي ، أتريد لي أن أبقى هنا ؟

– إبقي أيتها الكونتس ، ولكن جديلي مسكّناً لآلامي ، فالجرح جدُّ أليم !

– هل تقسم على طاعتي ؟

– أقسم بشرف آل روهان !

– حسناً ، إن مسكّنك موجود . فأنا أمنعك من ملاقاتها ، ولكني لا أمنعك من مراسلتها ...

فصاح وقد أنعشه الأمل :

– أحقيقة ما تقولين ؟ أباستطاعتي أن أكتب إليها ؟

– حاول .

– وهل سترد عليّ ؟

– سأحاول إقناعها بأن ترد .

فأمسك الكردينال بيد جانّ وأخذ يقبلها بنهم ويناديها :
«يا ملاكي وشفيعي !»

فرقص قلب الكونتس فرحاً ، ورقص الشيطان الساكن في أعماق الكردينال !

الليل

★

في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم ، توقف فارس جميل بجواده على تخوم «بارك» فرساي ، وراء حمامات أبولون ، اي في نفس المكان الذي سبق للكردينال دي روهان ان توقف فيه منذ ثلاثة أيام ، ثم قام بنزهة صغيرة ممتعه كان جواده خلالها يتنقل به خطوة خطوة ، وكان هو مشغول البال شارد الفكر .

ثم ربط جواده بجذع سنديانة والتفت الى ما حوله وقال :
«إنه مكان خرب جداً» .

ثم تقدم من سور الحدائق وتابع يقول :
«ها هي آثار تسلق ، وها هي البوابة التي فتحت مؤخراً ، فقد تحقق لي ما كنت قد فكرت به» .

وكان هذا الفارس المسيو دي شارني، وكانت هذه البوابة هي التي اختارها للدخول منها الى فرساي.

وقف دي شارني امام تلك البوابة وتنهد تنهداً عميقاً شعر معه بأن روحه قد انسلخت عن جسده. ثم همهم قائلاً:

«ان ما يهبه الله للبعض، يحرم منه البعض الآخر، فلتتبارك مشيئة الله التي جعلت بعض الناس سعداء، وبعضهم الآخر تعساء!

«ومع ذلك، يلزمني البرهان على ذلك. فبأي ثمن، وبأية وسيلة، يمكنني الحصول على هذا البرهان؟

«آه! ليس أهون من ذلك. ففي الدغل، واثناء الليل، باستطاعة الانسان ان يرى كل آتٍ من دون ان يراه أحد. لذا، هذا المساء، سوف أكمن في الدغل.

قال هذا وأمسك زمام جواده، وبتمهل اعتلى صهوته، وما هي لحظات حتى اختفى عند زاوية السور.

ولما كان شارني يريد التقيد بأوامر الملكة، فقد التزم منزله بانتظار إشارة من جلالتها.

وعوضاً عن أن يراقب من نافذة الشرفة التي تطل على «البارك»، جلس يراقب من نافذة أخرى في نفس الغرفة تطل على الشارع الصغير. فالملكة قد قالت: «عند البوابة المخصصة لصيد الذئاب». لكن نافذة وبوابة في هذا المنزل الصغير، هما

واحد في الطابق الارضي. فالمهم ان يتمكن شارني من رؤية كل شيء.

وعندما هبط الليل ولم يظهر أحد. أخذ شارني يناجي الليل الشديد السواد، وكله أمل بأنه سيسمع بين دقيقة وأخرى وقع جواد، أو وقع خطوات ناقل بريد مسرعة.

ولكن الساعة قد دقت معلنة العاشرة والنصف، دون ان يبدو لناظريه شيء. فهل خدعت الملكة شارني؟ وهل وعدته مضطرة كي تتخلص من إحراجه على ان لا تفي بوعدها؟

لقد ساورت شارني مثل هذه الافكار المريعة. وكمثل أي شاب عنيف في غرامه، تسرب الشك إلى قلبه بسرعة وسهولة، فصاح قائلاً:

«كيف انطلت عليَّ هذه الاكذوبة، أنا الذي رأيت بأم عيني، فضحيت بيقيني وإثباتي من أجل أمل سخيف؟»

وفيما هو على هذه الحالة من التفكير المشؤوم، إذا بقبضة من الرمل ترشق على زجاج النافذة الأخرى من تلك الغرفة، فيلفت صوت ارتطامها انتباهه ويسرع الى جهة الحدائق فيرى، من خلال عباءة فضفاضة سوداء، وتحت خميلة الحدائق، وجه امرأة يرتفع باتجاهه شاحباً قلقاً.

فلم يستطع كبت صرخة فرح ممزوجة بالندم على ظنه غير المحق، إذ كانت المرأة التي استدعته بهذه الاشارة، هي الملكة التي كانت بانتظاره.

فرمى بنفسه من النافذة بدون وعي، وبقفزة واحدة كان جاثياً امام ماري انطوانيت، التي قالت له بصوت خفيض وهي ترتعش:

«آه! أهذا أنت يا سيدي؟ أنا سعيدة بلقياك!

فأجابها شارني وهو لم يزل ساجداً:

– أنت! أنت! أنت بذاتك... يا مولاتي! أمعقول هذا؟

– ألم تكن تترقب وصولي؟

– كنت أترقبه من جهة الشارع يا مولاتي.

– هل يعقل ان أجيء من الشارع، طالما باستطاعتي المجيء من «البارك» بسهولة كبيرة؟

فقال شارني بلهجة العاشق الشاكر:

– لم أكن لأجرؤ على وعد نفسي برؤيتك.

فقاطعته الملكة قائلة:

– علينا أن لا نبقى هنا، فالمكان مضيء. هل لديك سيفك؟

– نعم.

– حسناً... من أين دخل أولئك الذين قلت بأنك رأيتهم ؟

– من هذه البوابة .

– وفي أية ساعة .

– عند انتصاف الليل ، كل مرة .

– هل تحدثت عن ذلك لأحد ؟

– أبداً .

– إذن ليس ما يمنع مجيئهم هذه الليلة ايضاً . لندخل في الحَرْجة وننتظر .

ودخلت الملكة اولاً ، وبخطوات سريعة سارت في اتجاه عكسي ، ثم قالت فجأة وكأنها تريد الذهاب الى أبعد من تفكير شارني :

– أنت تعلم جيداً ، بأني لم أشأ اطلاع مدير الشرطة على هذه القضية ، مع العلم ، بأنه يتوجب على السيد دي كروسن إنصافي عندما أتشكى إليه ، واذا لم يكشف النقاب عن هذا السر ، سر المخلوق الذي اغتصب اسمي بعد أن كان قد اغتصب شبهي ، فهذا يعني ان هناك سببين : إما عدم جدارة السيد دي كروسن – وهذا ليس بالأمر الهام – وإما تواطؤه مع أعدائي . لأنه يبدو لي من الصعب جداً ، ان تمثل في حدائقي وضمن حرمة قصري ، مثل هذه المهزلة التي أطلعتني

عليها ، من دون دعم مباشر أو تواطؤ ضمني . لذا أجد الأمر من الخطورة بمكان ، إن أنا لم أعمل المستحيل لكشف المجرمين . فماذا تعتقد أنت ؟

- أتوسل الى جلالتك بأن تعفيني من فتح فمي ، فأنا في يأس وغم شديدين ، عدا مخاوفي ، وعدا أنه قد زال كل شك لدي .

فقالت الملكة بحيوية :

- أنت ، على الأقل ، رجل شريف يقول الاشياء بصراحة ووجهاً لوجه ، وهذه مزية قد تجرح البريء ، عندما يساء الظن به ، إلا أن جرحها قابل للشفاء .

- آه مولاتي ! إني أرتعش ، فها هي الساعة الحادية عشرة .

فقالت الملكة :

- تأكد بأنه ليس هناك من أحد هنا .

فأطاع شارني واجتاز الحَرْجة حتى وصل الى السور ، ثم قفل عائداً وهو يقول : «لا يوجد أحد» .

- أين جرى المشهد الذي كلمتني عليه ؟

- في ذات اللحظة التي كنت راجعاً فيها من استكشافي يا مولاتي ، تلقيت طعنة هائلة في قلبي ، إذ لمحتك في ذات المكان الذي رأيت فيه في الليالي الاخيرة... ملكة فرنسا المزيفة .

فصاحت الملكة وهي تبتعد باشمئزاز عن الموضع الذي كانت تقف فيه :

– هنا ؟!

– نعم يا مولاتي ، تحت شجرة الكستناء هذه .

فقالت ماري انطوانيت :

– إذن علينا ألا نقف هنا يا سيدي ، لأنهم إن جاؤوا ، سوف يعودون الى نفس المكان .

فلحق شارني بالملكة الى ممر آخر ، فيما كان قلبه يخفق بشدة ، خوفاً من ان لا يسمع حركة البوابة إذا ما فتحت .

أما الملكة ، فقد كانت صامتة مزهوة ، لأنها كانت تنتظر ظهور براءتها بالبرهان الحسي .

فها هي الساعة تعلن منتصف الليل ، دون ان يظهر أحد . ثم مضت ساعة أيضاً ، سألت ماري انطوانيت شارني في خلالها أكثر من عشر مرات ، عما إذا مواعيد المحتالين كانت دقيقة في كل مرة .

وعندما دقت ساعة سان لويس في فرساي معلنة الواحدة إلا ربعاً بعد منتصف الليل ، نفد صبر الملكة ، فضربت الأرض برجلها وقالت :

– إنهم لن يأتوا اليوم ، وسيبقى الشقاء ملازماً لي !

قالت هذه الكلمات وتطلعت الى شارني وفي نيتها التحدي والخصام، إذا ما استشفت في عينيه بريق الانتصار أو السخرية.

أما شارني فلم ينبس ببنت شفة، وقد بدا رزيناً حزيناً ومهيباً كالملائكة في تلك الساعة. فأمسكت ماري انطوانيت بذراعه وقادته الى تحت شجرة الكستناء حيث كانت محطتهما الاولى، ثم قالت له همهمة:

- قلت بأنك هنا رأيتهم؟

- هنا بالذات يا مولاتي.

- هنا أعطت المرأة وردة للرجل؟

- نعم يا صاحبة الجلالة.

وكانت الملكة وهنة ومتعبة من طول المكوث في تلك الحدائق الرطبة، فاسندت ظهرها الى جذع شجرة وأحنت رأسها الى صدرها، وبلا شعور تراخت ساقاها وانثنتا... فلم يعطها شارني ذراعه، فسقطت سقطاً، على العشب الأخضر، بدلاً من ان تجلس.

وفيما شارني بقي جامداً قاتماً، سندت الملكة وجهها بيديها الاثنتين، وانزلقت من بين أصابعها دمعة حزينة لم يستطع شارني تحمل رؤيتها...

وفجأة، رفعت الملكة صوتها وقالت:

- أنت على حق يا سيدي، وأنا مدانة. فقد وعدت بأن أثبت اليوم افتراءك عليَّ، ولكن الله لم يشأ، فإني أطأطئ رأسي.

فدمدم شارني: مولاتي...

وأكملت الملكة تقول:

- لقد عملت ما لا تعمله أية امرأة لو كانت مكاني. أقول امرأة ولا أقول ملكة، إذ ما قيمة ملكة يا سيدي، لا تستطيع ان تحكم على قلبها؟! ما قيمة ملكة، يصعب عليها الحصول على تقدير رجل شريف؟! هيا يا سيدي، وساعدني على الأقل كي أنهض وأذهب، ولا تحتقرني إلى درجة التمنع عن إعطائي يدك.

فارتمى شارني على قدميها كالمجنون، وقال لها وهو يضرب جبهته بالأرض:

- مولاتي، أغفري لهذا التعيس الذي يحبك...

فضحكت الملكة بمرارة وصاحت قائلة:

- أنت!.. أنت تحبني، وتعتقد بأني سافلة!..

- أوه!.. مولاتي!

- أنت!.. أنت الذي تعوزك الذاكرة، تتهمني بأني هنا أعطيت زهرة، وهناك أعطيت قبلة، وهنالك أعطيت حبي لرجل آخر... كفى كذباً يا سيدي، فأنت لا تحبني!

- مولاتي، ذاك الطيف كان هنا، طيف الملكة العاشقة. وهنا ايضاً، حيث أنا، كان طيف العاشق. فاقتلعي قلبي، لأن هاتين الصورتين الجهنميتين تعيشان في قلبي وتلتهمانه...

فأمسكت الملكة بيده وجذبته إليها بحركة انفعالية، وقالت له بصوت مخنوق:

- لقد رأيت!.. وسمعت!.. وكنت أنا بذاتي، أليس كذلك؟ نعم، أنا بذاتي، فلا تبحث عن شخص آخر. حسناً! إذن في هذا المكان بالذات، وتحت شجرة الكستناء هذه، وكما كنت جالسة جلست، وأنت على قدميّ كما كان ذلك الرجل. وإذا ضغطت على يديك، وقربتك من صدري، وأخذتك بين ذراعي... واذا قلت لك: أنا التي عملت كل هذا مع ذلك الآخر، أفهمت؟ أنا التي قلت نفس الشيء للآخر، أفهمت؟ إذا قلت لك: «ما أحببت يا مسيو دي شارني، ولا أحب، ولن أحب سوى كائن واحد في هذه الدنيا... وهذا الكائن هو أنت... يا إلهي! يا إلهي! أيكفي هذا كي أقنعك، بأن المرأة التي يضم قلبها، إلى جانب الدم الامبراطوري، نار الحب الالهية، ليست امرأة سافلة؟

فتأوه شارني وأنَّ أنيناً شبيهاً بأنين المحتضر... فأشعرها بأنه يتكلم، وقد حرق كتفها بيده، كما حرق صدرها بنفسه، والتهم شفتيها بلهاثه، ثم دمدم قائلاً:

- دعيني أشكر الله . أوه ! إن لم أكن أفكر بالله ، فسوف أفكر بك كثيراً !

فوقفت الملكة بتمهل ، وشخصت اليه بعينيها المشعتين بضياء بلَّله الدمع ... فقال شارني مضعضع الحواس :

- أتريدين حياتي ؟

فصمتت برهة دون ان تكف عن النظر اليه ، ثم قالت له :

- أعطني ذراعك ، واذهب بي في كل مكان ذهب الآخرون فيه . وابدأ اولاً من هنا ، من الموضع الذي أعطيت فيه الوردة ...

ثم سحبت من جيبها وردة ما زالت دافئة بالنار التي حرقت صدرها ، وقالت :

- خذ !

فتنشق شارني رائحة الوردة الشذية ، وضمها الى صدره ، وتابعت الملكة تقول :

- هنا ، أعطت يدها ليقبلها ...

فقال شارني وهو نشوان مترنح ، فيما كان وجهه مدفوناً بين يدي الملكة الملتهبتين:

- ... يديها الاثنتين !

فابتسمت الملكة ابتسامة فاتنة وقالت :

- ألم يذهبوا الى حمامات أبولون ؟

فشعر شارني بأن السماء قد أطبقت على رأسه ... ووقف مشدوها كنصف ميت ، فقالت الملكة بفرح :

– هيا لنرى سوية الباب الذي كان يهرب منه عاشق الملكة ذاك .

وسارت الملكة فرحة رشيقة ، وهي تتأبط ذراع شارني الذي كان يشعر في تلك الساعة أنه أسعد إنسان على وجه الارض ، فاجتازا المرجات الخضراء بخطوات سريعة حتى وصلا الى بوابة بدت وراءها ، ومن خلال قضبانها الحديدية ، آثار أقدام جياد ، فقال شارني :

– إنه هنا ذلك الباب ، في الخارج .

فأجابت الملكة :

– لدي كل المفاتيح ، خذ يا مسيو دي شارني وافتح ، لنتقصّ !

ففتح شارني ، وعبرا البوابة ثم انحنيا يتفحصان الارض . وفي تلك اللحظة، برز القمر من بين الغيوم وكأنه شاء مساعدتهما في استقصائهما ... وارتمت أشعته برفق على وجه الملكة التي كانت تستند الى ذراع شارني وهي تنظر صاغية الى الاشجار حولها ...

وعندما أصبحت واثقة ومقتنعة ، جذبت رفيقها النبيل بحنان اليها ودخلا ، ثم انغلق الباب وراءهما ...

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل... عندما قالت الملكة لشارني :

«إرجع الى منزلك ، الى الغد ...»

ثم ضغطت على يده دون أن تضيف أية كلمة ، وسارت مسرعة تحت شجرات النير باتجاه القصر .

وبعد ان أُعيدت البوابة الى ما كانت عليه ، نهض رجل من بين الاشجار واختفى في الغابة التي تزنر الطريق .

وقد حمل هذا الرجل معه سرَّ الملكة !

الإجازة

★

خرجت الملكة من القصر في اليوم التالي وذهبت لحضور القداس والابتسامة لا تفارق وجهها ، وقد أعطت الأوامر لحراسها بأن لا يعترضوا أحداً يشاء التحدث إليها .

في ذلك اليوم ، وكان يوم أحد ، قالت جلالتها عندما استيقظت :

«إنه ليوم جميل هذا اليوم ، ويجب ان نتمتع فيه كما يجب» .

لذا شوهدت تتنشق أزهارها المفضلة بسرور فاق المعتاد، كما بدت أكثر بهاء في الهبات التي منحتها، وأكثر ورعاً أثناء القداس، مع أنها لم تكن قبل ذلك اليوم قد أحنت رأسها المهيب إطلاقاً.

وفيما كانت تصلي بحرارة، كان جمهور المصلين محتشداً في صحن الكنيسة، وحتى درجات السلالم كانت غاصة بالنبلاء والسيدات، وبينهن كانت تتألق بتواضع، ولكن بأناقة مميزة، السيدة دي لاموت.

وفي الصف المزدوج المكون من النبلاء، كان دي شارني يجلس الى اليمين، وقد أقبل العديد من أصدقائه يهنئونه على شفائه، وعلى عودته، وخصوصاً على إشراقة وجهه.

فالحظوة هي عطر لطيف يتضوع شذاه في الهواء بسرعة، فيلامس الأنوف قبل ان تفتح مجمرة العطور... ومع ان شارني لم يكن صديق الملكة ومحظيها الا منذ ست ساعات، فالجميع أخذوا يدعون بأنهم أصدقاء أوليفيا دي شارني.

ففيما كان يتقبل التهاني وعليه مظاهر الرجل السعيد فعلاً، أقبل كل الجالسين على الشمال الى جهة اليمين، زيادة في إظهار الود والاحترام، فاضطر شارني ان يستعرض بناظريه الجمهور المنتشر حوله، فلمح في اتجاهه وعلى انفراد، وجهاً شاحباً وجامداً عكر عليه نشوة النصر التي كان يعيشها.

فقد عرف في هذا الوجه فيليب دي تافرني ، مشدوداً في بزته ويده على قبضة سيفه .

وكانت العلاقة بين الاثنين مقطوعة منذ ان زار تافرني خصمه زيارة مجاملة بعد برازهما ، وبعد ان وضع الدكتور لويس شارني تحت المراقبة .

فعندما رأى شارني فيليب الذي كان ينظر اليه بسكينة واطمئنان ، حيّاه ، فرد عليه تافرني التحية بمثلها من البعيد .

ثم أبعد أوليفيا دي شارني بيده الجمهور الذي كان يحيق به قائلاً :

«عفواً أيها السادة ، دعوني أقوم بواجب يفرضه علي الأدب واللياقة .»

واجتاز الفسحة التي تفصل بين الصف الذي إلى اليمين ، وذاك الذي إلى اليسار ، واتجه مباشرة الى فيليب الذي بقي جامداً في مكانه ، وقال له بعد أن حيّاه هذه المرة تحية أكثر كياسة من الأولى :

«كان من الواجب علي يا سيدي أن اشكرك قبل الآن على ما أبديته من اهتمام في صحتي ، لكني وصلت البارحة بالضبط .»

فاحمرّ فيليب وغضّ الطرف ، وأكمل شارني يقول :

– سيكون لي الشرف يا سيدي بأن أردَّ لك زيارتك غداً ، وكلي أمل بأنك لا تكنُّ لي أية ضغينة .

فأجاب فيليب : إطلاقاً .

عند ذاك مدَّ له شارني يده قصد المصافحة ، إلا أنه في تلك اللحظة بالذات ، دوى صوت الطبل معلناً خروج الملكة ، فقال له فيليب ببرودة ودون ان يرد على بادرة شارني الودية :

«ها هي الملكة يا سيدي .»

وقد أضفى على عبارته هذه ، مسحة من الحزن فاقت برودتها ، أسرع بعدها شارني ، وقد فوجئ بعض الشيء ، للحاق بأصدقائه في الصف الواقع إلى اليمين .

أما فيليب ، فقد بقي جامداً في مكانه كأنه في نوبة حراسة !

وفيما كانت الملكة تتقدم ، كانت توزع الابتسامات وتتسلم عرائض الاسترحام ، لأنها من البعيد قد لمحت شارني ، ولم تكفّ عن النظر اليه بتلك الجسارة التي كانت تعبر فيها عن صداقاتها ، والتي كان أعداؤها يسمونها وقاحة ، وقد فاهت بهذه الكلمات :

«اطلبوا اليوم أيها السادة ، اطلبوا ، فلن أخيب لكم طلباً .»

فتأثر شارني حتى أعماق قلبه بمعنى ولهجة هذه الكلمات السحرية ، فكان إحساسه هذا بمثابة شكر للملكة .

وفجأة أفاقت من حلمها الجميل والخطِر في آن معاً، على وقع قدم، وعلى رنة صوت غريب.

وكانت القدم تضرب «محتجة» على البلاط، والصوت يقول بوقار رغم ارتعاشه:

«مولاتي ...»

ولمحت الملكة فيليب ... فلم تستطع إخفاء دهشتها عندما وجدت نفسها امام هذين الرجلين اللذين قاسمتهما الحب، فصاحت قائلة:

– أوه! هذا أنت يا مسيو دي تافرني! هل تريد مني شيئاً؟ تكلم!

فقال فيليب وهو ينحني:

– مقابلة مدتها عشر دقائق، عندما يسمح وقت جلالتك.

فأجابت الملكة وهي تلقي نظرة عابرة على شارني، وقد ارتاعت بلا تعمد من رؤيته قرب خصمه القديم:

– في هذه اللحظة بالذات يا سيدي، اتبعني!

وقد حثت الخطى عندما سمعت وقع أقدام فيليب وراءها، تاركة شارني مكانه.

ومع ذلك، تابعت استلام الرسائل وعرائض الاسترحام والتوسل من رعاياها، ثمَّ أعطت بعض الأوامر وعادت الى أجنحتها.

وبعد ربع ساعة، أُدخل فيليب إلى مكتبتها، حيث اعتادت جلالتها ان تستقبل يوم الأحد، فاستقبلته باشة وقالت له:

- آه! مسيو دي تافرني، ادخل وكن بشير خير. فاني أعترف لك، بأنه كلما شاء واحد من آل تافرني ان يتحدث إلي، شعرت بالقلق. فعجل وأكد لي بأنك لا تحمل إليَّ نبأ سيئاً.

فزاد شحوب فيليب بعد هذا الاستهلال عما كان عليه عندما لمحه شارني، وراق له الجواب بعدما لمس في كلام الملكة انعدام المحبة تقريباً، فقال:

- لي الشرف يا مولاتي أن أؤكد لجلالتك بأني لا أحمل اليها هذه المرة إلا نبأ ساراً.

فقالت الملكة: آه! إنه نبأ سار؟

- نعم، واحسرتاه يا صاحبة الجلالة!

- تقول واحسرتاه يا مسيو دي تافرني! يا لي من تعيسة!

فأجاب فيليب برصانة:

- كلمتان فقط وتطمئن جلالتك تماماً، إلى أنه ليس فقط لن يحتجب جبينها النبيل بمناسبة قدوم واحد من آل تافرني، بل إن هذا الجبين لن يحتجب إطلاقاً بغلطة يرتكبها شخص من عائلة تافرني. ابتداء من اليوم يا مولاتي، سوف يتوارى

نهائياً عن بلاط فرنسا، آخر فرد من هذه العائلة التي منحتها جلالتك بعض الحظوة.

فصاحت الملكة وقد تأثرت من هذا الكلام:

- هل ستذهب؟!

- نعم يا صاحبة الجلالة.

- أنت... أنت أيضاً!!

فانحنى فيليب وقال:

- إن شقيقتي يا مولاتي، اضطرت آسفة الى ترك جلالتك. وأنا، أجد نفسي ولا نفع مني للملكة، لذا سوف أذهب.

فتذكرت الملكة بعد إمعان الفكر وهي جالسة مرتبكة، بأن أندريه كانت قد طلبت مثل هذه الاجازة الأبدية في اليوم التالي للمقابلة التي جرت عند الدكتور لويس، حيث حظي شارني بأول دليل على تعاطفها معه، فدمدت قائلة:

«غريب!...»

أما فيليب فقد بقي منتصباً كتمثال من المرمر، بانتظار إشارة من الملكة تجيز له الاذن بالسفر.

وبعد صمت دام عدة دقائق، قالت الملكة:

- إلى أين تود الذهاب؟

فقال فيليب :

- أود الالتحاق بالسيد دي لاباروس .

- إن السيد دي لاباروس موجود حالياً في جزيرة «الارض الجديدة» .

- لقد اتخذت كل الترتيبات للانضمام إليه .

- ألا تعلم بأن الناس يتكهنون له ميتة مريعة ؟

- ميتة مريعة ، لا اعلم ، ولكن ميتة عاجلة ، أعلم .

- ومع ذلك تود الالتحاق به ؟!

فابتسم تافرني ابتسامة تجلى معها جماله ونبله وحلاوته ، وقال :

- من أجل ذلك ، أريد الالتحاق بالسيد لاباروس .

فعادت الملكة الى صمتها وقلقها ...

وفيما كان تافرني ينتظر الجواب باحترام ، بدت له ماري انطوانيت اكثر نبلاً وشجاعة من اي وقت آخر .

ثم نهضت وتقدمت من تافرني وقالت له ، بعد أن شبكت ذراعيها البضتين فوق صدرها :

- لماذا ستسافر ؟

فأجاب الشاب بصوت خافت :

- لأني أتوق كثيراً الى السفر .

فقالت الملكة وقد خدعتها لحظة تلك السكينة البطولية :

- ولكنك قمت بدورة حول العالم.

- نعم يا مولاتي، ولكنها دورة حول العالم الجديد، وليس حول الجديد والقديم معاً.

فقامت الملكة بحركة عبرت فيها عن غيظها، وقالت:

- غريب أمرك وأمر أختك! فلقد ابتدأتما محبين وانتهيتما كارهين! إن سفرك ليس للذة السفر، فأنت متعب، ولكنك تريد التخلي عني. فأختك من قبلك، لجأت إلى الدير كحجة، وتخلت عني، مع أن النار في قلبها كانت تحت الرماد، فليسعدها الله. وأنت، أنت الذي باستطاعتك ان تكون سعيداً بقربي، جئت تطلب السماح بالسفر. حقاً، إن التافرنيين لا يوفرون لي سوى الشقاء!

- عفواً يا مولاتي، إن جلالتك إذا ما تنازلت وفتشت في أعماق قلوبنا، لن تجد فيها سوى الاخلاص الذي لا حدَّ له.

فصاحت الملكة بغضب:

- اسمع! أنت وأختك لستما سوى مخلوقين غريبين! فاختك تتصور العالم وكأنه جنة لا يستطيع أن يلجها إلا من كان قديساً، وانت تتصور العالم وكأنه جحيم لا يدخله سوى الشياطين. وكلاكما هربتما من هذا العالم، هي لأنها وجدت فيه ما لا تبحث عنه، وأنت لأنك لم تجد فيه ما تبحث عنه. ألست على حق؟ دع البشر وشأنهم إذا كانوا

غير كاملين أيها العزيز تافرني ، ولا تطلب من العائلة المالكة إلا أن تكون أقل كمالاً من الاجناس البشرية الأخرى. كن سموحاً يا مسيو تافرني ، أو بالأحرى لا تكن أنانياً .

قالت الملكة هذا القول وقد شددت على الكلمات الاخيرة ، فاغتنمها دي تافرني مناسبة ليقول :

- إن الانانية فضيلة يا مولاتي ، إذا ما استعملها الانسان لرفع مستوى من يعبد ويحب .

فاحمرت الملكة وقالت :

- كل ما أعلمه ، هو أني كنت أحب أندريه ، فتخلت عني . وأني كنت متمسكة بك ، فتخليت عني أيضاً . وعندما يتخلى عني شخصان كاملان ، أقول «كاملان» ولا أمزح يا سيدي ، فهذا معناه احتقار وإهانة لي .

فقال تافرني ببرودة :

- لا يستطيع أحد أن يحتقر أو يهين شخصاً جليلاً مثلك يا مولاتي ، لأن العار يبقى أبداً قاصراً عن الوصول الى الجباه المرفوعة كجبهتك .

وتابعت الملكة تقول :

- إني أبحث باهتمام عن الشيء الذي جرحك .

فأجاب فيليب بحيوية :

- لم يجرحني شيء يا مولاتي .

- إن مركزك مرموق، وثروتك قد تأمنت، وكنت أميزك ...

فقاطعها تافرني قائلاً:

- أكرر على جلالتك بأن لا شيء يزعجني في البلاط.

- واذا طلبت منك ان تبقى ... إذا أمرتك؟..

- سأضطر آسفاً الى رفض أمرك يا صاحبة الجلالة!

فاستغرقت الملكة في التفكير، ثم قالت بعد ان صبت نظراتها الصافية على فيليب:

- ربما كان هناك شخص يغيظك؟

- لا يوجد أي شخص يغيظني.

فقالت الملكة وقد أخذت تنتعش:

- كنت أظنك متخاصماً ... مع نبيل ... مع السيد دي شارني ... الذي جرحته أثناء مبارزة ... لأنك ما أن رأيت دي شارني عاد، حتى قررت ترك البلاط!

فبقي فيليب صامتاً ولم يجب!

والملكة التي أساءت فهم هذا الرجل الشجاع والمخلص جداً، اعتقدت بأنه ليس سوى غيور عادي، فلاحقته بصراحة قاسية وأكملت تقول:

- أنت تعلم بأنه في هذا اليوم بالذات، قد عاد السيد دي

شارني. أقول اليوم، وفي هذا اليوم جئت تطلب مني إجازتك !!

هذا الهجوم والازدراء من الملكة، جعل فيليب أدكن اللون بعد أن كان شاحباً، فنهض بانفعال وقال بقساوة:

– صحيح يا مولاتي أني اليوم فقط علمت بعودة السيد دي شارني، لكني في وقت أبعد مما تعتقد جلالتك، التقيت السيد دي شارني حوالى الثانية بعد منتصف الليل، امام بوابة الحديقة التي تفضي إلى حمامات أبولون...

فاصفرت الملكة بدورها... وبعد ان عاينت بإعجاب ممزوج بالخوف، الأدب المتناهي الذي احتفظ به ذلك الشاب النبيل رغم غضبه، دمدمت قائلة بصوت مخنوق:

– حسناً! إذهب يا سيدي، فلن أمنعك أبداً.

فحيا فيليب للمرة الأخيرة، وخرج بخطوات بطيئة.

وبعد خروجه، سقطت الملكة مصعوقة على مقعدها المريح وهي تقول:

«إيه فرنسا! يا بلد القلوب النبيلة!»

غيرة الكردينال

★

قضى الكردينال ثلاث ليالٍ متتالية، تختلف كل الاختلاف عن تلك التي كان خياله خلالها يتجدد بلا انقطاع.

فلا أخبار من أحد، ولا أمل بزيارة! والصمت القاتل الذي لفَّه بعد الشهوة العارمة، شبيه بالظلمة التي تغمر الكهف بعد أن تنحسر عنه أشعة الشمس.

فالكردينال كان يحدوه الأمل بأن يرى الملكة، التي هي امرأة قبل أن تكون ملكة، تسعى لمعرفة طبيعة الحب الذي أظهره تجاهها، وأن يراها مسرورة بعد التجربة كما كانت قبلها.

لكن آماله خابت وبات فريسة اليأس والقلق، فأخذ يبعث بالرسول تلو الرسول الى منزل السيدة دي لاموت وإلى فرساي، إلى أن جاءه الرسول العاشر بالكونتس التي كانت ترصد حركات شارني والملكة وتضحك فيما بينها وتُسرُّ لنفاد صبر الكردينال وتلهفه، لأن هذا التلهف سيحقق النجاح لمشروعها.

فما أن وقع نظر الكردينال على جانّ ، حتى صاح قائلاً :

– كيف تعيشين هكذا مطمئنة ، كيف ؟! تعلمين أني أتعذب ، وتتركيني أموت في عذابي ، رغم أنك صديقتي كما تدعين !

فأجابته جانّ :

– صبراً يا مولاي ، صبراً . فما كنت أقوم به في فرساي ، بعيداً عنك ، أجلُّ فائدة مما كنت تقوم به أنت هنا ، يحدوك الشوق إلي .

فقال سيادته وقد لطَّف من لهجته بأمل الحصول على أخبار جديدة :

– إن حكمي عليك ليس بقاسٍ من هذه الناحية . فهيا وقولي ، ما الذي كنت تفعلينه في فرساي ؟

– إن الفراق أليم يا مولاي ، سواء كان في باريس ، أم في فرساي .

– يا للكلام الساحر الجميل ! إني أشكرك عليه ، ولكن ...

– ماذا ؟

– البراهين !

فصاحت جانّ :

– ماذا تقول يا مولاي ؟ البراهين !.. هل أنت في كامل وعيك ؟ أيطلب من امرأة أن تقدم البراهين على أخطائها ؟!

– إني لا أطلب مستنداً للمحاكمة أيتها الكونتس . إن ما أطلبه ، هو عربون حب .

فأجابت الكونتس بعد أن رشقت سيادته بنظرة ذات مغزى :

– يبدو لي ، أنك أصبحت متطلباً جداً ، إن لم تكن عديم الذاكرة .

– أوه ! إني أعلم ما تودين قوله لي . إني أعلم بأنه يتوجب عليَّ أن أكون قنوعاً . لكن ضعي نفسك مكاني أيتها الكونتس واحكمي . أيُعقل أن أُرمى هكذا جانباً ، بعد أن لمست كل مظاهر الحظوة ؟

فقالت جانّ : قلت «مظاهر» كما أعتقد ؟

– أوه ! من الثابت أنك تستطيعين التغلب علي بلا عقاب أيتها الكونتس . من الثابت أن لا شيء يجيز لي بأن أتشكى ، ومع ذلك فأنا أتشكى ...

– على كلٍ لست مسؤولة عن سخطك عندما يكون هناك أسباب تافهة لهذا السخط ، أو عندما لا يكون هناك أسباب على الاطلاق .

– إنك تسيئين معاملتي أيتها الكونتس !

– هكذا تظن بعد كل الخدمات التي قدمتها إليك ؟!

- لا تلوميني على نزوات نفسي ، بل ساعديني على الخلاص من عذابي .

- لا أستطيع مساعدتك حيث لا أرى شيئاً يستوجب المساعدة .

فقال الكردينال مشدداً على كل كلمة :

- لا ترين شيئاً يستوجب المساعدة ؟!

- أبداً .

فقال دي روهان بحدة :

- حسناً يا سيدتي ! لكن ما تقولينه هو عكس الحقيقة .

- بكل أسف يا مولاي ، لقد وصلنا الى مرحلة من الغضب ، لم يعد معها واحدنا يفهم على الآخر . فلتسامحني سيادتك على حرصي عليها .

- إن ما يحملني على الغضب أيتها الكونتس ، هو سوء نيتك .

- ألا تعتقد بأن حكمك غير عادل ؟

- لا ، فأنت ، كما أرى جيداً ، قد توقفت عن خدمتي ، لأنك لا تستطيعين أن تفعلي غير ذلك .

- ان حكمك علي لعادل ، إذن لماذا تتهمني ؟

- لأنه يتوجب عليك أن تصارحيني بالحقيقة كلها يا سيدتي .

- بالحقيقة كلها! لقد قلت لك كل ما أعلمه.

- لم تقولي لي بأن الملكة مخادعة، وبأنها مغناجة، وبأنها تدفع الناس الى عبادتها، ثم تتركهم فريسة اليأس والعذاب.

فقالت الكونتس وهي ترتعش، لا من الخوف، بل من الفرح:

- أوضح عما تقصد بكلامك.

فاكمل الكردينال يقول دون ان يحسب أي حساب لغرامه:

- اعترفي لي، اعترفي، إني أتوسل اليك، بأن الملكة ترفض أن تراني.

- لن أقول هذا يا مولاي.

- اعترفي إذا كانت لا ترفضني بملء رضاها، وهذا ما زلت آمله، وبأنها لن تستبدلني بعشيق آخر.

فصاحت جانّ دي لاموت بلهجة هي في غاية النفاق والدهاء، جعلت الكردينال يزداد شكاً بأنها تريد إخفاء شيء عنه:

- آه! مولاي...

فقال الكردينال:

- اصغي إلي. المرة الأخيرة التى رأيت فيها الملكة، تخايلت أني سمعت وقع خطوات في الغابة.

- هذا جنون!

- ومع ذلك سأقول كل ما أشك به.

- لا تضف إلى ما قلته أية كلمة يا مولاي، فأنت تهين الملكة. فضلاً عن ذلك، هل من العدل أن تحاسبها على الماضي، وقد ضحت بهذا الماضي من أجلك؟

- الماضي! الماضي! يا لها من كلمة رهيبة! إن ما أخشاه، هو أن يبقى الماضي ماثلاً في الحاضر، وفي المستقبل.

- أفٍ! أنت تكلمني يا مولاي وكأني سمسار قد تسبب في عمل شنيع. إن شكوكك الجارحة بالملكة، قد أصبحت جارحة بالنسبة لي أيضاً.

- إذن، أكدي لي... بأنها ما زالت تحبني، ولو قليلاً!

فأجابت جانّ، وقد أشارت بإصبعها الى مكتب الكردينال وإلى ما عليه من أدوات الكتابة:

- الأمر في غاية البساطة يا مولاي، فاجلس هناك، واطرح هذا السؤال عليها بالذات.

فأمسك الكردينال بفرح يد جانّ، وقال لها:

- وهل ستسلمينها رسالتي؟

- إذا لم أسلمها إليها أنا، من إذن ستكلف بتسليمها؟

- و... هل ستحملين إليَّ جوابها؟

- إذا لم تتلق الجواب، ما جدوى هيامك بها؟

- أوه! لا تقدّري كم أحبك أيتها الكونتس!

فابتسمت جانّ ابتسامة رقيقة، وقالت: «أليس كذلك؟»

وجلس الكردينال وراء مكتبه، وتناول القلم وبدأ يكتب...

ومع أن قلم الكردينال سيَّال ومطواع، فقد مزق عشر أوراق قبل أن ينتهي إلى الرسالة التي ترضيه. فقالت جانّ:

- إن استمريت على هذا المنوال، فلن تصل إلى أهدافك.

- إني أحاول لجم عواطفي أيتها الكونتس، إلا أنها تفيض غصباً عني، وربما أزعج الملكة هذا الأمر.

فقالت جانّ بتهكم:

- إذا كتبت إليها كرجل سياسي، فسيكون جوابها سياسياً. وهذا أمر يعنيك وحدك.

- أنت على حق، وإنك لامرأة حقيقية، قلباً وروحاً. اقتربي أيتها الكونتس، فلماذا أخبئ عليك سراً، أنت مطلعة عليه؟

فابتسمت الكونتس وقالت:

- الحقيقة، أنه ليس لديك ما تخفيه علي، سوى القليل.

- إقرئي من فوق كتفي، إقرئي أسرع مما أكتب إن استطعت، لأن قلبي يكاد يحترق، وقلمي يلتهم الورق التهاماً.

وفي الواقع، كتب رسالة ملتهبة بالعواطف المجنونة، ومليئة بالعتاب واللوم المحبين شأن العشاق والمتيمين، كذلك بالاحتجاجات الشديدة اللهجة. فما أن انتهى منها، حتى قالت جانّ في نفسها، وقد رافقت أفكاره حتى توقيعه:

«لقد كتب ما لا أجرؤ أنا على نصِّه عليه.»

وبعد أن راجع الكردينال ما كتبه، سأل جانّ قائلاً:

- هل أعجبتك؟

فأجابته تلك المخادعة:

- إذا كانت تحبك فعلاً، فسوف تتلقى جوابها غداً. وما عليك الآن إلا أن تركن إلى الراحة.

- إن كان الانتظار حتى الغد فقط، فلا بأس.

- لا أطلب منك مهلة أطول يا مولاي.

ثم أخذت الرسالة المختومة، مزودة بقبلة من الكردينال في عينها، وعادت إلى منزلها حوالى المساء، حيث نزعت عنها ثيابها، وجلست تفكر في نداوة الليل، أي من الاثنين أفضل أن تختار درعاً لها: الملكة أم الكردينال؟

فلقد أصبح الوضع تماماً كما اشتهت أن يكون منذ البدء، وبات الهدف على بعد خطوتين منها.

فالكردينال، بعد رسالته هذه، لم يعد باستطاعته أن يتهم

السيدة دي لاموت، يوم ستلزمه بأن يدفع المبالغ المستحقة ثمناً للعقد.

ولو سلمنا بأن الكردينال والملكة التقيا كي يتفاهما، كيف سيجرآن على التخلي عن السيدة دي لاموت، وهي مؤتمنة على سرّ مشين إلى هذه الدرجة؟

فالملكة لن تثير فضيحة، وستعتقد بأن الكردينال حاقد عليها. والكردينال بدوره سيعتقد بأن الملكة تتغنج عليه. لكن المشادة، إذا وقعت بينهما، فستكون ضمن أبواب مقفلة، والسيدة دي لاموت المرتابة، ستتخذها ذريعة لتهاجر ومعها ثروة قيمتها مليون ونصف المليون.

ولنفترض بأن الكردينال عرف بأن جانّ قد أخذت معها هذه الماسات، وأن الملكة قد اكتشفت ذلك أيضاً، فكيف يمكنهما إفشاء هذا السر وملاحقتها، وهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بما جرى في الحدائق والغابات الملكية وحمامات أبولون؟

إلا أن رسالة واحدة ليست بكافية كي تحصّن جانّ خط الدفاع عن نفسها، فالكردينال كاتب لبق وذو قلم سيّال كما ذكرنا، وعليه ان يستتبع رسالته الغرامية الى الملكة بسبع أو ثماني رسائل مماثلة.

وهكذا تكون جانّ قد رسمت الخطة التي يجب أن تتمشى عليها خطوة خطوة. لأن التطورات قد تفاجئها، خصوصاً عندما يستحق المبلغ الأول للصائغين ويبلغان الملكة بهذا الاستحقاق. فالملكة عند ذاك ستتوجه مباشرة إلى الكردينال.

ولكن كيف؟

لا مفرّ هنا من واسطة جانّ. فجانّ هي التي ستخطر الكردينال وتدعوه الى الدفع. وإذا رفض، فستهدده بنشر رسائله الغرامية إلى الملكة. عند ذاك سيدفع، والدفع سيزيد الأمر خطورة، ويكون لهذه الفضيحة دويّ في الرأي العام يجرف الملكة والكردينال معاً.

بعد أن فكرت الكونتس طويلاً وحسبت حساباً لكل التطورات كي تحقق الهدف المنشود من مؤامرتها، وهو الهرب بالماسات الى بلد آمن تنفق فيه ثروتها المسروقة من دون محاسب وتنعم بالعيش الرغيد على هواها، تقدمت من نافذة غرفتها وتطلعت منها فرأت جارتها أوليفا جالسة على الشرفة يتآكلها القلق والفضول، فحيت شريكتها المتواطئة معها برقة، وأشارت اليها الإشارة المتفق عليها فيما بينهما للتلاقي في المساء.

فتلقت أوليفا هذه المخابرة ودخلت الى غرفتها يغمرها الفرح .

أما جان فقد عادت إلى تأملاتها التي خرجت منها بالنتيجة التالية :

إن تحطيم الوسيلة عندما لا يعود بالامكان استعمالها ، هي الطريقة التي درج عليها كل أصحاب المؤامرات والدسائس . إلا أن معظمهم فشلوا ، سواء في تحطيم هذه الوسيلة ، أو في تحطيمها بشكل لا يتيح لها أن تطلق أنيناً وتأوهات تفضح السر .

وأوليفا التي تحب الحياة كثيراً، لن تسمح لأحد بأن يحطمها بسهولة ، ومن دون أنين وتأوه وشكوى . لذا رأت جانّ من الضرورة بمكان أن تلفق لها أكذوبة تحملها على الهرب بكل طيبة خاطرٍ، وأن تذلل كل الصعوبات التي قد تعترض تحقيق هذه الفكرة .

فأوليفا التي جعلتها علاقتها بصديقتها الجديدة جدَّ مسرورة ، لم يكن سرورها إلا نسبياً . فهي قد صارحت صديقتها بأن النزهات الليلية و «صاحبة الجلالة» الوهمية ، لا تشفي غليلها . بل هي تتوق إلى رأد الضحى ، وإلى النزهات تحت أشعة الشمس ، والى أن تعيش الحياة على حقيقتها وكما يجب أن تعيشها صبية ساحرة الجمال مثلها .

وحقيقة الحياة بالنسبة إلى أوليفا، هي المال وبوزير.

وجانّ التي درست في العمق هذا المذهب الحياتي الذي تؤمن به أوليفا، عولت على تطبيقه عند أول فرصة.

وبالاختصار، قررت التركيز في لقائها المقبل مع نيكول على ضرورة إبراز الخطر الداهم الذي سببته الخداعات المجرمة التي ارتكبت في حدائق وغابات فرساي.

وعندما أقبل الليل وهبطت أوليفا من شقتها، كانت جانّ في انتظارها عند البوابة.

فسارت الاثنتان صعوداً في شارع سان كلود حتى بلغتا جادّة مقفرة، حيث استقلتا عربة سارت بهما خطوة خطوة كي يتمكنا من التحدث ملياً وهما في طريقهما الى فنسان.

وكانت نيكول متنكرة بثوب بسيط وجان مرتدية فستاناً رمادياً، وكلتاهما في عربة ذات غطاء وتحمل شعارات آل فالوا، فلا مجال للاشتباه بها ولا يجرؤ أي شرطي على إيقافها.

وبعد ان استقرتا داخل العربة وتبادلتا القبلات، استهلت الحديث أوليفا بقولها:

- آه كم أنا ضجرة يا صديقي، فقد طال غيابك عني!

فأجابتها جانّ:

– لم يكن بالإمكان أن أراك، فقد عرَّضت نفسي كثيراً للخطر، كذلك أنت!...

فسألت نيكول مرتعبة: كيف ذلك؟

– إنه خطر رهيب أيتها العزيزة، خطر يقضّ مضجعي ويحرمني الرقاد!

– يا إلهي! أسرعي وأخبريني!

– تعلمين كم أنت ضجرة هنا.

– نعم، واحسرتاه!

– وكي تروِّحي عن نفسك، تمنيت أن تخرجي من سجنك.

– نعم، ومن اجل ذلك ساعدتني بمحبة فائقة.

– وتعلمين أيضاً بأني كنت قد كلمتك على ذلك الضابط المقرب من الملك، والمجنون قليلاً لكنه لطيف جداً، وكيف أنه هائم بالملكة التي تشبهك بعض الشيء.

فتنهدت أوليفا وقالت: واحسرتاه!

وتابعت جانّ تقول:

– لن أذكرك بالنزهتين الاولين اللتين قمتما بهما ليلاً في حدائق فرساي، وبرفقة ذلك الضابط المسكين.

فعادت أوليفا وتنهدت من جديد، وأكملت جانّ تقول:

- لقد لعبت دورك على أفضل وجه في تلك الليلتين، وعاشقنا أخذ الأمر بجدية...

فقالت أوليفا بصوت كالهمس:

- قد نكون أسأنا التصرف معه، لأننا في الواقع خدعناه، وهو فارس ظريف لا يستحق هكذا خداع.

- فعلاً إنه لا يستحق، ولكن الشر ليس هنا. فهو قد أعطاك وردة، وأنت سمحت له بأن يدعوك بصاحبة الجلالة، وأعطيته يديك ليقبلهما، وهذه ليست سوى تصرفات ماكرة... ولكن هذا ليس كل شيء يا صغيرتي!

فقالت نيكول بصوت متلجلج:

- كيف... ليس كل شيء؟

- ليس كل شيء، لأن هناك لقاءً ثالثاً...

فقالت أوليفا مترددة:

- أجل، وأنت تعرفين ذلك، طالما أنك كنت حاضرة.

- عفواً يا صديقتي العزيزة، فقد كنت كالمرتين السابقتين، أراقب على مسافة منكما، أو أتظاهر بالمراقبة كي أضفي على دورك الطابع الحقيقي. إذن، أنا لا رأيت ولا سمعت ما جرى في ذلك الكهف. وبالتالي لست واقفة على ما قصصته عليّ، لأنك عندما عدت، أخبرتني بأنكما تنزهتما، وتحدثتما، وبأن لعبة الوردة وتقبيل اليدين استمرت،

فظننت أيتها العزيزة بأن ما أخبرتني إياه هو كل ما جرى. ولكن... يبدو أن ذلك العاشق المجنون، قد ادعى بأنك منحته أكثر بكثير مما صرحت به الملكة المزعومة...

- ما الذي ادعاه؟

- يبدو أنه قد زعم متباهياً، بأنه حصل من الملكة على الدليل القاطع بأنها تقاسمه الحب... إنه حتماً مجنون هذا الرجل المسكين.

فتمتمت أوليفا: يا إلهي! يا إلهي!

فقالت جانّ:

- إنه مجنون وكذاب، أليس كذلك؟

فقالت أوليفا متلعثمة:

- طبعاً...

- كان عليك أيتها الصديقة العزيزة، ان لا تعرضّي نفسك لهكذا خطر رهيب، دون ان تقولي لي.

فارتعشت أوليفا من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وأكملت تلك «الصديقة» المرعبة تقول:

- كيف، أنت التي تحبين بوزير، والتي كنت معي كرفيقة، والتي رفضت رعاية الكونت دي كاغليسترو رغم تودده إليك، كيف استسلمت إلى نزواتك، وأعطيت هذا المجنون الحق بأن يقول... لا، إنه حتماً فقد صوابه.

فصاحت أوليفيا تقول وقد نفد صبرها :

– هيا وصارحيني ، أين الخطر في الموضوع ؟

– الخطر في كوننا مرتبطين برجل مجنون ، أي برجل لا يخاف شيئاً ، ولا يرعى حرمة لشيء ، ولو كانت القضية موقوفة على وردة أُعطيت ، ويد قُبِّلت ، لهان الأمر . إذ إن للملكة وروداً في حدائقها ، ولها يدان بتصرف كل رعاياها . لكن ، إذا كان صحيحاً أنه في اللقاء الثالث ... آهِ أيتها العزيزة ، لقد حُرمت البسمة منذ أن تبادرت هذه الفكرة إلى ذهني .

فشعرت أوليفا بأن أسنانها تصطك من الخوف ، وقالت سائلة :

– إذن ، ماذا سيحدث أيتها الصديقة الطيبة ؟

– ان ما سيحدث أولاً ، هو أنك لست الملكة ...

– لا .

– ولأنك لست الملكة ، وقد انتحلت صفة جلالتها كي ترتكبي ... خفة من هذا النوع ...

– وبعد ؟

– وبعد ! هذا يسمونه تحقير في الذات الملكية ، وهذه التهمة تذهب بالمتهم إلى البعيد البعيد ...

فخبأت أوليفا وجهها بيديها ، وأكملت جانّ تقول :

- على كل حال، بما أنك لم ترتكبي ما يتبجح به، ويمكنك أن تثبتي براءتك من هذه الناحية، تبقى الحماقتان السابقتان اللتان ارتكبتا باسم صاحبة الجلالة ... والقصاص الذي تستوجبه هاتان الحماقتان، هو السجن من سنتين إلى أربع سنوات، ثم النفي ...

فصاحت أوليفا وقد جُنَّ جنونها:

- السجن! النفي!...

- ليس ذلك بمتعذر تحاشيه. ففيما يخصني أنا، أود أن أحترز لنفسي، واتخذ كل الاحتياطات.

- وأنت أيضاً قلقة؟

- كيف لا، وهل سيعفُّ عن الوشاية بي، هذا الأحمق؟ آهٍ أيتها العزيزة أوليفا، إنها خديعة ستكلفنا غالياً.

ففاضت الدموع من عيني أوليفا، وصاحت تقول:

- يا لي من تعيسة! يا لي من شقية!

- لا تيأسي يا عزيزتي، فقط حاولي ان تتجنبي الفضيحة.

- آه! كم أفضل أن أبقى سجينة لدى حاميَّ.

وأكملت تقول بعد أن صمتت قليلاً:

- ما رأيك اذا اعترفت له بكل ما حدث؟

- فكرة جميلة ... فرجل لم يكن ينتظر منك سوى كلمة كي يعبدك، ومع ذلك تودين مصارحته بأنك ارتكبت هذه

الحماقة مع غيره ، أقول الحماقة كي لا أقول كلمة أفظع ... إن رجلاً كهذا ، سوف يسلخ جلدك !

- يا إلهي ! معك حق .

- وأكثر من ذلك ، فالضجة عند ذاك ستعم كل مكان ، والقضاء سيلاحقك. ومن يدري ؟ فقد يعمد عائلك وحاميك إلى تسليمك ، كي يثبّت أقدامه في البلاط .

- أوه !

- ولنفترض بأنه سيكتفي بطردك ، فماذا سيحل بك ؟

- سوف أصبح شريدة طريدة .

فقالت جانّ بتمهل ، وهي تدرس تأثير كلماتها الأخيرة على أوليفا :

- والسيد بوزير ، ماذا لو عرف بذلك ؟

فدمدمت أوليفا :

- أوه ! لقتلني . ولكن لا ، سوف أقتل نفسي !

ثم استدارت نحو جانّ ، وقالت بيأس :

- ألا يمكنك أن تنقذيني من هذه الورطة ؟

فأجابتها جانّ :

- لدي في عمق مقاطعة بيكاردي مزرعة صغيرة ، فلا أدري إذا كان الحظ سيحالفك ، إن أنا حاولت تهريبك الى هذه المزرعة .

– ولكن تبقين أنت، وهذا المجنون يعرفك جيداً، وباستطاعته العثور عليك بسهولة.

– أوه! عندما تصبحين أنت مختبئة في بيكاردي، ويصبح العثور عليك متعذراً، ينتفي خوفي من ذلك المجنون. فسوف أقول له بصوت مرتفع: أنت مجنون فيما تدعيه، وإلا أثبته! وعندما يعجز عن الإثبات، لأن ذلك مستحيل، سأقول له أيضاً وبصوت منخفض: أنت نذل خسيس!

فقالت أوليفا:

– إني على استعداد للسفر متى تشائين.

فأجابتها جانّ:

– أعتقد أن الحكمة تقضي بذلك.

– هل يمكن أن أسافر فوراً.

– لا، بل انتظري حتى أؤمن كل عناصر النجاح. ولكن كوني متنكرة، حتى لو ظهرت أمام المرآة.

– نعم، نعم، يمكنك أن تعتمدي عليَّ أيتها الصديقة العزيزة.

– إذن، لنبدأ بأن تذهب كلٌّ منا في حال سبيلها، إذ لم يعد لدينا ما نقوله.

– وهو كذلك. كم يلزمك من الوقت كي تؤمني كل شيء؟

- لا أعلم. ولكن من الآن وحتى يوم سفرك، لن أظهر أمام نافذتي. واليوم الذي سأظهر فيه، سيكون اليوم المقرر للسفر، فكوني دوماً مستعدة.

- سأكون، وشكراً يا صديقتي الطيبة.

وقفلتا راجعتين على مهل باتجاه شارع سان كلود. وأثناء العودة، لم تجرؤ أوليفا على متابعة التحدث مع جانّ، فيما كانت هذه الأخيرة، تفكر بعمق في كل كلمة تود أن تقولها إلى أوليفا.

وعندما وصلتا الى نقطة الافتراق، تبادلتا القبل، وطلبت أوليفا العفو من صديقتها عن كل ما سببته لها من بؤس وشقاء بسبب طيشها...

فردت السيدة دي لاموت قائلة:

«إني امرأة، وكل ضعف في المرأة، هو مألوف بالنسبة لي!»

الهرب

★

تقيدت أوليفا بكل ما وعدت به ، فاحتجبت كلياً عن الناس ، ولم يعد باستطاعة أحد أن يشتبه بأنها ما زالت تقطن ذلك المنزل الواقع في شارع سان كلود .

فدائماً كانت مستترة وراء ستارة أو وراء حاجز واقٍ ، وحتى أشعة الشمس التي كانت تتسرب من شقوق نافذتها ، قد حرمت نفسها منها بسدّ شقوق النافذة باللباد .

وجان من جهتها ، كانت تحضّر كل شيء ، وتأخذ كل الاحتياطات استعداداً لاستحقاق المبلغ الاول للصائغين وقيمته خمسماية ألف ليرة ، وقد اقترب جداً ، وهذه اللحظة الرهيبة التي ستنفجر فيها القنبلة ، هي الهدف الأخير لترصداتها .

لذلك حسبت بتعقل كل الحسابات ، فوجدت ان قضية هربها سهلة ، لكن الهرب سيثبت عليها التهمة بسرقة العقد . وبعد إمعان الفكر ، توصلت الى القرار التالي :

«إن ثباتها كثبات المبارز أمام طعنات خصمه ، مع احتمال السقوط أرضاً ، أفضل من الهرب ، لأن هناك احتمالاً أيضاً بقتل هذا الخصم .»

وهذا هو السبب الذي جعل جانّ في اليوم التالي للقائها مع اوليفا، تظهر وراء نافذتها عند الساعة الثانية، وتطلب اليها بالاشارة، أن تكون مستعدة للهرب في المساء.

فاختلط السرور بالخوف لدى أوليفا. فالهرب الذي لا مفرَّ منه محفوف بالخطر، لكنه إذا تيسر، يعني السلام بالنسبة إليها.

لذا بعثت بقبلة في الهواء الى جانّ، وانبرت تهيء حاجاتها للسفر، وقد وضعت بعض الاشياء الثمينة ضمن صرة صغيرة.

أما جانّ، فبعد أن أشارت إشارتها، تركت منزلها وذهبت تبحث عن عربة تقل «الآنسة العزيزة» أوليفا الى مصيرها المحتوم.

وهكذا أُغلقت النوافذ، وأُسدلت الستائر، وخيَّم الصمت على شقتي الجارتين بانتظار ساعة الصفر.

وعندما دقت ساعة سان بول معلنة الحادية عشرة ليلاً، كانت جانّ قد وصلت الى شارع سان كلود مع عربة تجرها ثلاثة جياد، وقد التف حوذيها بمعطف.

وهناك توقفت العربة، وجرّت جانّ ذلك الرجل من معطفه، وأوقفته في زاوية الشارع لتقول له:

- يجب ان تبقى هذه العربة هنا يا عزيزي ريتو. فبعد نصف ساعة، سآتيك بسيدة تركبها، ثم تنقلها الى منزلي الصغير في أميان، بعد أن أنقدك الأجرة مضاعفة.

- بكل رضى يا سيدتي الكونتس.

- وهناك، تسلم هذه السيدة الى وكيلي فونتين، وهو يعرف بقية ما يجب أن يعمله.

- بكل طيبة خاطر يا سيدتي.

- نسيت ان أسألك... هل أنت مسلح يا عزيزي ريتو؟

- نعم يا سيدتي.

- حسناً، فهذه السيدة مهددة من قبل مجنون... وربما استوقفوك في الطريق...

- ماذا علي ان أعمل؟

- تطلق النار على كل من يعترض سبيلك.

- إني على استعداد يا سيدتي.

- لقد كنت طلبت مني عشرين ليرة ذهبية كمكافأة عما تعلمه، فاعلم بأني سأعطيك مئة عوضاً عن العشرين... وسأدفع لك نفقات سفرك الى لندن حيث سأوافيك بعد أقل من ثلاثة أشهر.

- شكراً يا سيدتي.

- هاك المئة ذهبية. وحتماً لن أراك بعد الآن، لأنه يتوجب عليك ان تسافر الى سان ڤاليري، ومن هناك تبحر على جناح السرعة الى انكلترا.

- اتكلي عليَّ يا سيدتي.

- هذا من أجل مصلحتك.

فقال السيد ريتو وهو يقبل يد الكونتس:

- من أجل مصلحتنا نحن الاثنين... أنا بالانتظار.

- وأنا سأبعث اليك بالسيدة.

ثم صعد ريتو الى العربة، وأسرعت جان إلى منزلها عبر شارع سان كلود.

في تلك الساعة، كان كل شيء ساكناً والكل نياماً في تلك المنطقة، فأضاءت الكونتس الشمعة، التي رفْعها فوق الشرفة، سيكون العلامة لأوليفا كي تهبط الى الشارع. وقالت في نفسها عندما رأت نافذة صديقتها مظلمة:

«إنها ابنة حذرة وايم الحق.»

ثم رفعت الشمعة وأخفضتها ثلاث مرات، دون أن يظهر أحد. لكنها تصورت بأنها سمعت ما يشبه التنهد تحت النافذة، أو كلمة «نعم» انطلقت خافتة في الهواء، فقالت جانّ في نفسها:

«لقد نزلت دون إضاءة، وحسناً فعلت.»

ثم نزلت الكونتس بدورها إلى الشارع ، فوجدت البوابة ما زالت مقفلة ، فظنت أن أوليفا منهمكة ببعض الصرر الثقيلة أو المزعجة ، فقالت متذمرة :

«يا لها من حمقاء تضيع الوقت في جمع الخرق !»

ثم اقتربت من البوابة وألصقت أذنها عليها وأخذت تصغي . وبقيت هكذا ربع ساعة دون جدوى ، حتى دقت الساعة معلنة الحادية عشرة والنصف .

عند ذاك ابتعدت عن المكان قليلاً ، لترى من البعيد عما إذا كانت النوافذ مضاءة ، فتراءى لها بصيص ضوء يتراقص وراء الستائر ، فقالت تخاطب ذاتها :

«ماذا تعمل تلك المخلوقة ؟ ماذا تعمل تلك الشقية الصغيرة ؟»

ثم استدركت تقول : «ربما لم تلاحظ الاشارة .»

وعادت الى شقتها لتكرر نفس الاشارة اللاسلكية بواسطة الشمعة ، غير أن إشارتها بقيت دون جواب . فقالت في نفسها وقد استشاطت غيظاً :

«يجب أن تكون تلك المضحكة مريضة لا تستطيع أن تتحرك . ولكن مهما كان وضعها ، وسواء كانت حية أو ميتة ، عليها أن تسافر هذا المساء .»

ثم هبطت درجها مسرعة كأنها لبوة مطاردة، ويدها قابضة على المفتاح الذي بواسطته، حصلت أوليفا عدة مرات على الحرية الليلية.

وفي البرهة التي أولجت فيها ذلك المفتاح في قفل بوابة المنزل المسجونة فيه أوليفا، طرأت على بالها فكرة، فتوقفت وقالت:

«ماذا إذا كان هناك شخص قربها؟ ولكن ذلك غير معقول. على كلٍ، إذا كان لديها شخص سوف أسمع صوته، ويبقى لدي متسع من الوقت كي أهبط الدرج وأتوارى. ولكن... ماذا لو التقيت هذا الشخص على الدرج؟...

ارتعشت جانّ أمام هذه الفكرة ووقفت مترددة. ثم سمعت مراوحة دعسات جيادها على البلاط وكأنها تحثها على الأقدام، فقالت تخاطب نفسها:

«بدون خطر لا تتحقق المطامح الكبيرة. ومع الجرأة ليس من خطر على الاطلاق.»

ثم أدارت المفتاح في القفل، ففتحت البوابة، وصعدت الدرج متلمسة طريقها دون أن ترى أي شخص، أو تسمع أية نأمة، أو ترى أي نور.

وهكذا وصلت إلى قرص الدرج ووقفت أمام باب شقة أوليفا. وهنا رأت شعاعاً متسرباً من تحت الباب، وسمعت وقع أقدام مضطربة وراءه. فأصغت لاهثة، لكنها استطاعت أن تخنق هذا اللهاث.

ولما لم تسمع أي حديث، تأكدت بأن أوليفا وحدها، وأنها ليست مريضة، وان خطواتها المسموعة دليل تحركها. فهي إذن تستكمل ترتيب بعض الحاجات، وليس الأمر سوى مجرد تأخير.

فنقرت الباب نقراً خفيفاً، ونادت: أوليفا! أوليفا!

فسمعت وقع الاقدام يقترب على السجادة، فتابعت تقول: إفتحي يا صديقتي العزيزة، إفتحي!

وعندما فتح الباب، غمر النور جانّ، ووجدت نفسها وجهاً لوجه امام رجل يحمل مشعلاً، فأطلقت صرخة مرعبة وهي تخبئ وجهها...

فرفع ذلك الرجل بلطف عباءة الكونتس وصاح بدوره، وبلهجة ظاهرها الدهشة الطبيعية جداً:

- سيدتي الكونتس دي لاموت!

فترنحت جانّ ودمدمت وهي تكاد تفقد وعيها:

- سيدي الكونت دي كاغليوسترو!

ومن بين الأخطار التي اعترضت سبيل جانّ، كان ذلك الخطر أشدها. فكاغليوسترو لم يبدُ لها مرعباً لأول وهلة. ولكن عندما فكرت قليلاً، وعندما لاحظت مظهره القاتم، وعمق رياء ذلك الرجل الخطير، بدا لها الخطر الرهيب!

فتراجعت طائشة الرأس، تحدوها الرغبة لأن تلقي بنفسها من أعلى الدرج إلى أسفله.

فمدَّ لها كاغليوسترو يده بأدب، ودعاها إلى ولوج الباب والجلوس.

فقالت تلك المتآمرة بصوت متلجلج، ومن دون أن تتمكن من الكف عن النظر إلى عيني الكونت:

- سيدي... جئت أبحث...

- اسمحي لي يا سيدتي بأن أقرع الجرس كي أعاقب خدمي على إهمالهم الفظيع، بتركهم سيدة مرموقة مثلك تقدم نفسها.

فارتعشت جانّ وأوقفت يد الكونت الذي كان يهمُّ بقرع الجرس، وأكمل هذا الأخير يقول برباطة جأش:

- يجب أن تكوني قد التقيت بذلك الالماني المضحك، الذي هو حاجبي، وأنه لم يعرفك لفرط سكره، لذا فتح لك البوابة دون أن يفوه بكلمة، أو أن يقوم بما يتطلبه منه الواجب. ومما لا شك فيه، بأنه استسلم للرقاد بعد أن فتح لك.

فقالت جانّ وقد استعادت بعض أنفاسها، ودون أن تدرك الفخ الذي ينصب لها:

- لا تؤنبه يا سيدي، أرجوك.

- إنه هو من فتح لك، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك... ولكنك قد وعدتني بأن لا تؤنبه.

فقال الكونت وهو يبتسم:

- سأفي بوعدي. والآن، أفصحي يا سيدتي عن الغاية من زيارتك.

فأجابت جانّ بسرعة، متعمدة أن تضفي على كذبها هالة الجد والصدق:

- جئت يا سيدي الكونت، أستشيرك بشأن بعض الشائعات الجارية.

- أية شائعات يا سيدي؟

فقالت الكونتس بغنج:

- أرجوك أن لا تستعجلني، فوضعي دقيق...

- خذي راحتك يا سيدتي، فلن استعجلك إطلاقاً.

فقالت جانّ بعد أن غنجت ما فيه الكفاية:

- أنت صديق لنيافة مولاي الكردينال دي روهان...

فأجاب كاغليوسترو:

- أوه! أوه! علاقتي به ممتازة. أكملي ولا تخافي.

فأكملت جانّ تقول :

- وقد جئت استعلم منك عن ...

فقال كاغليوسترو بشيء من السخرية :

- عن !..

لقد قلت لك بأن وضعي دقيق يا سيدي ... فالواقع الذي لا يخفاك ، هو أن الكردينال دي روهان يكن لي بعض المودة ، وأريد أن أعرف إلى أي حدٍ يمكنني أن أعتمد على هذه المودة ... وبما أنك يا سيدي ، كما يقولون ، تقرأ ما في أعماق النفوس والقلوب ، تراني لجأت إليك .

فقال الكونت :

- قليل من الصراحة أيضاً يا سيدتي ، كي أتمكن ، على الوجه الأفضل ، من قراءة ما في غياهب قلبك وروحك .

- يقولون يا سيدي ، بأن نيافة الكردينال يحب سواي ، وأن من يحبها ذات مكانة سامية ... ويقولون أيضاً ...

وهنا حدَّق كاغليوسترو في وجه جانّ بعينيه الوامضتين ، حتى كادت تقع مصعوقة ، وقال لها :

- لقد قرأت فعلاً في الغياهب ، ولكن كي أقرأ جيداً ، أنا بحاجة إلى مساعدتك . فتفضلي وأجيبي عن هذه الأسئلة :

- كيف جئت تبحثين عني هنا ، وأنا لا أقطن هنا ؟

فارتعشت جانّ ، وأكمل كاغليوسترو طرح الأسئلة :

- وكيف دخلت إلى هنا، وليس في هذا المنزل أي حاجب ثمل، ولا أي خادم؟ وإذا كنت لست أنا من جئت تبحثين عنه، فعن من جئت تبحثين؟

فازدادت الكونتس ارتعاشاً، وتابع كاغليوسترو يقول:

- ألا تجاوبين؟ إذاً سوف أسعف ذاكرتك.

«أنت دخلت بواسطة مفتاح، أعتقد أنه في جيبك... ها هو. وقد جئت إلى هنا تبحثين عن امرأة شابة، كنت بدافع الرأفة المجردة قد خبأتها في منزلي.»

فترنحت جانّ كالشجرة التي قطعت جذورها، وقالت بصوت كالهمس:

- وإذا... كان ذلك؟ فأي جريمة قد ارتكبتها؟ أليس مسموحاً لامرأة أن تأتي وترى امرأة مثلها؟ استدعها لتقول لك، عما إذا كانت الصداقة التي تشدني إليها، ليست صداقة مخلصة...

فقاطعها كاغليوسترو قائلاً:

- أنت تقولين هذا القول يا سيدتي، لأنك تعلمين جيداً بأنها لم تعد هنا!

فصاحت جانّ مرتعبة:

- لم تعد هنا! أوليفا لم تعد هنا؟

فقال كاغليوسترو ببرودة:

- أوتجهلين بأنها ذهبت ، وأنت التي ساعدت في خطفها ؟

فصاحت جانّ :

- أنا !.. أنا ساعدت في خطفها ! لقد خطفوها وجئت تتهمني ؟

فقال كاغليوسترو :

- أكثر من ذلك ، إني أفحمك ...

فقالت الكونتس بوقاحة :

- أثبت !

فتناول كاغليوسترو ورقة عن الطاولة التي كانت بقربه ، وأبرزها لها . وهذا ما جاء في تلك الورقة الموجهة الى كاغليوسترو :

«سيدي وعائلي الكريم ،

«سامحني على تركي إياك . فأنا ، قبل كل شيء ، أحب السيد دي بوزير ، الذي جاء واصطحبني ، وإني له بكليتي . فالوداع ، وتفضل بقبول احترامي وتقديري .»

فقالت جانّ مذهولة :

- بوزير !.. بوزير !.. هو الذي لا يعرف عنوان أوليفا !

فأجابها كاغليوسترو وهو يسحب ورقة ثانية من جيبه :

– أوه ! الأمر واضح جداً يا سيدتي . تفضلي واقرئي ، فقد وجدت هذه الورقة على الدرج ، فيما كنت آتياً إلى هنا ، في زيارتي اليومية . وهذه الورقة يجب أن تكون وقعت من جيوب السيد دي بوزير .

فقرأت الكونتس وهي ترتعش :

«بإمكان السيد دي بوزير أن يجد الآنسة أوليفا في شارع سان كلود ، عند زاوية البوليفار . وبإمكانه أن يصطحبها معه فوراً ، فقد حان الوقت ، ومن تكتب له هذه الأسطر هي صديقة مخلصة لها .»

فقالت الكونتس وهي تدعك الورقة بأصابعها :

– ولكن من كتب هذه الورقة ؟

– يبدو أنك أنت ، فأنت الصديقة المخلصة لأوليفا .

فصاحت جانّ وهي تنظر بغضب إلى محاورها الهادئ الأعصاب :

– ولكن كيف دخل إلى هنا ؟

فقال كاغليوسترو :

– ألا يمكن أن يدخل بمفتاحك ؟

– طالما أن المفتاح معي ، فهذا يعني أنه ليس في حوزة بوزير مفتاح .

فأجاب كاغليوسترو وهو ينظر اليها وجهاً لوجه :

- عندما يكون باليد مفتاح، من السهل الحصول على مفتاح آخر.

فأجابت الكونتس بتمهل:

- من هذه الناحية، لديك أدلة مفحمة. بينما أنا، ليس لدي سوى الشكوك.

- أوه! لدي أيضاً أدلة أقوى بكثير من مبرراتك يا سيدتي.

قال كاغليوسترو هذه الكلمات، وأشار إليها بأن تنصرف.

فأخذت جانّ تهبط الدرج. لكنها وجدت على طول هذا الدرج الذي صعدته، وهو مقفر مظلم، عشرين شمعة وعشرين خادماً على مسافات متساوية... وعلى مسمع من هؤلاء الخدم، ناداها كاغليوسترو عشر مرات، وبصوت مرتفع: «سيدتي الكونتس دي لاموت.»

وعندما خرجت، كانت تنفث الغضب والانتقام، كما تنفث «البازيليك» النار والسم[1]!

---

(١) البازيليك حية أسطورية نسب إليها القدامى قوة خارقة في نظرها، وشهروها بالملك لسطوتها

الرسالة والايصال

★

كان اليوم الذي تلا ذلك اليوم، آخر مهلة حددتها الملكة بنفسها، لدفع المبلغ المستحق الى الصائغين بوهمير وبوسانج.

ولما كانت رسالة جلالتها توصيهما بالحذر والتيقظ، فقد انتظرا أن يصلهما مبلغ الخمسماية الف ليرة في اليوم المحدد.

وكمثل سائر التجار الذين لا يهمهم إلا تكديس الأموال، كان قبض مبلغ بهذه الضخامة شيء مهم في حياتهما. لذا حضَّر الشريكان، باسم محلهما، إيصالاً كتب بخط لا أجمل ولا أبدع.

لكن الايصال بقي بدون فائدة. إذ لم يأت أحد لاستلامه مقابل الخمسماية ألف ليرة!

وقد انقضى على الصائغين ليل شديد الوطأة، وهما بانتظار رسول الملكة، كانا خلاله يعللان النفس بالقول: «ان الملكة ذكية وبعيدة النظر، فكي لا يُكتشف سرها، لن تبعث بالرسول المنتظر إلا بعد انتصاف الليل.»

لكن الفجر عندما انبلج، كشف لبوهمير وبوسانج كم كانا على ضلال في اعتقادهما. فاتخذ ساعتذاك بوهمير

قراره وتوجه إلى فرساي في عربة ، جلس شريكه في مقعدها الخلفي .

وهناك ترك شريكه بانتظاره وذهب يطلب مقابلة الملكة ، فقيل له بأنه إن لم يكن لديه إذن خطي بالمقابلة ، فلن يسمح له .

فساوره القلق والرعب وأخذ يلح في المقابلة . ولما كان يعرف تماماً من أين تؤكل الكتف في ذلك القصر ، فقد وزع بعض الأحجار الصغيرة من العقيق على من في يدهم الحل والربط ، فسمحوا له بأن يقف حيث ستمرّ الملكة أثناء عودتها من النزهة في قصر تريبانون .

وفي الواقع ، إن ماري انطوانيت التي كانت رعشة الحب ما زالت تسري في جسدها بعد مغامراتها مع شارني التي جعلت منها عاشقة ولم تجعلها عشيقة ، ماري انطوانيت هذه بعد ان قامت بنزهتها المعتادة ، رجعت مشرقة الوجه فرحة . وما أن وقع نظرها على وجه بوهمير العابس حتى ابتسمت له ابتسامة دلت على سعادتها ، فأسرع بوهمير والتمس منها مقابلة وجيزة ، فوعدته بتحقيقها بعد ساعتين ، أي بعد الغداء .

فذهب بوهمير وزفّ هذا النبأ السار إلى بوسانج الذي كان

ينتظره في العربة ، والذي بسبب ما كان يعانيه من تورم ، لم يشأ أن يظهر وجهه الشنيع للملكة .

وفسَّر الشريكان بأن حركات وكلمات الملكة القليلة ، تدل بأن جلالتها ، من دون شك ، تملك في درجها المبلغ الذي لم يكن متوفراً لها البارحة ، ومن أجل ذلك عيَّنت الموعد لبوهمير في الساعة الثانية ، لأنها في مثل هذا الوقت ستكون وحدها .

وأخذا يتساءلان كرفاق في أسطورة ، عما إذا كانت ستدفع لهما المبلغ أوراقاً نقدية ، أم ذهباً ، أم فضة .

وعندما دقت الساعة الثانية ، أُدخل بوهمير الى صالون الملكة الصغير ، حيث استقبلته ماري انطوانيت بقولها ، فور أن لمحته من البعيد :

- ماذا يا سيد بوهمير ، هل تريد أن تكلمني على مجوهرات ؟ إن التعاسة بادية عليك ، فهل تعلم ؟

فاعتقد بوهمير أن هناك شخصاً مختبئاً ، وتخشى الملكة أن يسمعها ، فاستعمل ذكاءه في الجواب ، وقال وهو يلتفت حواليه :

- نعم يا مولاتي .

فقالت الملكة مندهشة :

- عما تبحث ؟ إن لديك سراً ، أليس كذلك ؟

فلم يجاوب بوهمير، وقد جعلته هذه المواربة على شيء من الحنق.

وأكملت الملكة تقول:

– السر هو إياه: حلية برسم البيع، وبعض الماسات النادرة؟ أوه! لا تكن خائفاً هكذا، فليس من أحد هنا كي يسمعنا.

فدمدم بوهمير قائلاً:

– إذن...

– إذن، ماذا؟

– إذن، يمكنني أن أقول لصاحبة الجلالة...

– ولكن قل بسرعة يا عزيزي بوهمير.

فتقدم الصائغ وهو يبتسم بلطف، وقال وقد انفرجت شفتاه عن أسنان صفراء:

– أريد أن أقول، بأن جلالة الملكة قد نسيتنا البارحة.

فقالت الملكة مندهشة:

– نسيتكما! بماذا؟

– بأن البارحة... كان الاستحقاق...

– الاستحقاق!.. أي استحقاق؟

– عفوك يا مولاتي، إذا سمحت لنفسي... إني أعلم

جيداً بأن هناك إفشاء سر... ربما تكون جلالتك غير مستعدة... سينجم عن ذلك شرّ كبير... ولكن، أخيراً...

فصاحت الملكة:

- ما الذي تقصده يا سيد بوهمير؟! أوضح، فإني لم أفهم كلمة من كل ما قلته!

- لا عجب أن تكون مشاغل الملكة الكثيرة، قد جعلت الذاكرة تخونها...

- الذاكرة عن أي شيء؟ قلت لك أوضح!

فقال بوهمير بخجل:

- لقد كان البارحة يا مولاتي، يوم استحقاق الدفعة الاولى من ثمن العقد.

فسألته الملكة:

- إذن، لقد بعت العقد؟

فقال بوهمير وهو ينظر الى الملكة بدهشة واستغراب:

- لكن... لكن يبدو لي أن نعم.

فقالت الملكة:

- والذين بعتهم هذا العقد، لم يدفعوا لك أيها المسكين بوهمير. شيء مؤسف! ولكن على هؤلاء الناس ان يعملوا كما عملت أنا، إذا لم يكن باستطاعتهم الدفع، أي أن يردوا لك العقد ويتركوا لك العربون.

فترنح ذلك الصائغ كأن ضربة عصا قوية قد سقطت على رأسه ... وتمتم قائلاً :

– العفو ... ماذا شرفتني جلالتك بقولها ؟!

– قلت يا عزيزي بوهمير ، بأنه لو اشترى عقدك عشرة أشخاص ، ثم ردوه لك وتخلى كل واحد منهم عن مئتي الف ليرة كما فعلت أنا ، لربحت مليونين من الليرات ، وبقي العقد لك .

فصاح بوهمير وقد بلّله العرق :

– جلالتك ... تقول بأنها ردت لي العقد !!

فأجابته الملكة بسكينة واطمئنان :

– نعم ، أقول ذلك . ما الذي أصابك ؟

فقال بوهمير :

– ماذا أسمع !... جلالتك تنكر بأنها اشترت العقد مني ؟!

فقالت الملكة بقساوة :

– أية مهزلة تمثل ؟ هل مرصود هذا العقد اللعين كي يجعل كل من يلمسه يفقد عقله ؟!

فأجاب بوهمير وكل جارحة فيه ترتعش :

– يبدو لي ، بأني سمعت من فم جلالتك بالذات ... أنها ردت لي عقد الماس ... فهل قالت جلالتك هذا القول ؟

فأخذت الملكة تنظر إلى بوهمير وقد شبكت ذراعيها، ثم قالت له:

- من حسن الحظ أن يكون لدي ما ينعش الذاكرة، لأنك أنت يا سيد بوهمير، رجل عديم الذاكرة، كي لا أقول أكثر من ذلك...

وتوجهت رأساً إلى خزانتها الصغيرة، وسحبت منها ورقة. وبعد أن فتحتها وتصفحتها بسرعة، مدت يدها بتمهل إلى ذلك الشقي بوهمير، وقالت له:

- تفضل واقرأ، فالنص واضح لا إبهام فيه، كما أعتقد.

وجلست كي تراقب الصائغ أفضل، وهو يقرأ تلك الورقة.

فعبَّر وجه بوهمير، في بادئ الأمر، عن الشك والريبة. ثم ما عتَّم أن تحول هذا التعبير، إلى الخوف والرعب الشديدين. فقالت الملكة:

- وبعد! هل في هذا الايصال أي شك بأنك استعدت العقد، وبأن التوقيع الذي يحمله هو توقيعك أيها السيد بوهمير؟

فصاح بوهمير وهو يكاد يختنق من الغيظ والخوف في آن واحد:

- لكن يا مولاتي، لست أنا من وقع على هذا الايصال!

فتراجعت الملكة وهي تصعق ذلك الرجل بعينيها المتوقدتين، ثم قالت له :

- أتنكر ؟!

- حتماً ... ولو كلفني ذلك حريتي، لو كلفني حياتي ! فأنا لم أستلم العقد إطلاقاً، ولا أمضيت إطلاقاً هذا الايصال. ولو أُحضرت لي خشبة النطع، وأُحضر معها الجلاد، لبقيت أقول لجلالتك : لا يا صاحبة الجلالة، هذا الايصال ليس مني !

فقالت الملكة، وقد بدت عليها مسحة من الشحوب :

- إذن، أنا سرقتك يا سيدي، وعقدك في حوزتي ؟!

ففتش بوهمير في حقيبته، وسحب بدوره رسالة وقدمها إلى الملكة، وقال لها باحترام، ولكن بصوت متأثر :

- أعتقد بأن جلالتك، لو شاءت أن ترد لي العقد، لما كانت كتبت هذا الاقرار.

- ولكن، ما هذه القصاصة ؟ أنا لم أكتب هذه الورقة إطلاقاً. هل هو خطي هذا الخط ؟

فقال بوهمير بلهجة المنتصر :

- إنها تحمل توقيع : «ماري انطوانيت دي فرانس...»

- ماري انطوانيت دي فرانس... إنك مجنون ! هل أنا من فرنسا، أنا ! ألست أنا أرشيدوقة النمسا ؟ أليس من غير

المعقول أن أكون أنا من كتب هذا ؟! هيا إذن يا سيد بوهمير، واذهب الى مزوريك وقل لهم هذا القول، فالفخ كبير جداً !

فكاد الصائغ أن يفقد وعيه بعد سماعه هذا الكلام، وتمتم قائلاً :

– مزوريَّ ... جلالتك تشك بي، أنا، بوهمير ؟!

فقالت الملكة بصوت مرتفع :

– وأنت تشك بي، أنا، ماري انطوانيت ؟!

فقال بوهمير وهو يشير إلى الورقة التي يحملها :

– وهذه الرسالة !

فأجابته الملكة وهي تشير الى الايصال الذي لم يتركه بوهمير :

– وهذا الايصال !

فتداعى بوهمير على أحد المقاعد، بعد أن انهارت قواه. وأخذت أنفاسه تتسارع، والعرق البارد يتصبب من وجهه الشاحب.

فقالت له الملكة :

– ردَّ لي الايصال، وخذ رسالتك الحاملة توقيع «ماري انطوانيت دي فرانس»، فالنائب العام سيقول لك ما قيمتها.

ورمت له برسالته، بعد أن انتزعت الايصال من بين يديه،

ثم أدارت ظهرها ومشت إلى جناح آخر، تاركة ذلك التعيس وحده، مضعضع الحواس لا يجد ما يقوله!

وبعد عدة دقائق، عاد الى بوهمير روعه، فخرج من جناح الملكة طائش الرأس، وذهب فقص على بوسانج ما حدث له مع الملكة.

فشكك بوسانج في بادئ الامر بشريكه، لكنه بعد أن تأكد من صدق قوله، أخذ هو ينتف شعر رأسه المستعار، وبوهمير ينتف شعر رأسه الطبيعي... فكان مشهدهما في عيون المارة، مشهداً محزناً ومضحكاً في آنٍ معاً.

وبعد ان قضيا ردحاً من الوقت في العربة، وبعد أن اقتلعا شعور رأسيهما المستعارة وغير المستعارة، جلسا يفكران فيما يجب عمله، فاتفقا على فكرة طرق باب الملكة من جديد، إذا كان ذلك ممكناً، ومجتمعين هذه المرة لا منفردين، علهما يحصلان على ما يشبه التوضيح.

فسارا باتجاه قصر فرساي، وهما على حالة تثير الشفقة. وهناك، التقيا أحد ضباط الملكة، فأدخلهما على جلالتها من دون إبطاء، بعد أن استدرا عطفه.

أين العقد يا مولاي؟

★

ما أن وقع بصر الملكة على الصائغين اللذين كانت تنتظرهما نافذة الصبر، حتى قالت بحيوية:

- آه! هوذا السيد بوسانج أيضاً، حسناً فعل بوهمير في الاستنجاد بك.

أما بوهمير الذي كان يفكر وليس لديه ما يقوله، فقد وجد أن الحركة التمثيلية، هي أفضل من الكلمة في مثل هذا الموقف. لذا ارتمى على قدمي مار انطوانيت، فكانت حركته بليغة التعبير.

واقتدى بوسانج بشريكه، فقالت الملكة:

- أنا الآن هادئة الاعصاب يا سيديَّ، وسوف أحتفظ بهدوئي. فضلاً عن ذلك، لقد وردت على خاطري فكرة ستعدل عواطفي بالنسبة اليكما. فمما لا شك فيه، ان هناك سراً في القضية، لم يعد خافياً عليَّ، وأن كلانا، أنا وأنتما، مخدوعان.

فصاح بوهمير، وقد طيَّب نفسه كلام الملكة هذا:

– آه مولاتي! إذن لن تشكي بي بعد الآن، وبأني ... آه! يا للكلمة الفظيعة التي لا أستطيع لفظها، كلمة مزوِّر!

– لا غرو إن لم تتمكن من لفظها، فهي بالنسبة لي أيضاً كلمة معيبة لا أستطيع سماعها. وقد برأتك منها.

– إذن، هل تعتقد جلالتك بأن هناك شخصاً قام بهذا العمل الشائن؟

– أجب أولاً على هذا السؤال: هل الماسات، كما قلت، لم تعد موجودة لديكما؟

فأجاب الصائغان سوية:

– بحق السماء، ليس لدينا أية ماسة يا مولاتي.

– اذن، يهمكما أن تعلما، إلى من عهدت بردّ هذه الماسات إليكما. ألم تريا ... الكونتس دي لاموت؟

فأجاب بوهمير:

– عفواً يا مولاتي، لقد رأيناها ...

– أوَلم تعطكما شيئاً ... من قبلي؟

– لا يا مولاتي، فكل ما قالته لنا الكونتس: «انتظرا».

– والرسالة التي حمَّلتها إليكما؟

– الرسالة التي أطلعنا جلالتك عليها؟ إن هذه الرسالة قد حملها إلينا رسول مجهول خلال الليل.

قال بوهمير هذا وسحب الرسالة المزورة من جيبه، فقالت له الملكة:

- هذه الرسالة ليست تلك التي كتبتها، ولا يمكن أن تصدر عني، كما قلت لك.

ثم قرعت الجرس، وقالت بهدوء وسكينة للخادم الذي حضر:

- ليستدعوا لي الكونتس دي لاموت.

وأكملت تقول بنفس الهدوء:

- ألم تريا أحداً؟ ألم تريا السيد دي روهان؟

- السيد دي روهان؟ بلى يا مولاتي، لقد جاء يرد لنا الزيارة، ويستعلم...

فقالت الملكة:

- حسناً للغاية! وعلينا ألا نذهب بعيداً. فاذا ثبت ان الكردينال دي روهان له ضلع بالقضية، لا يبقى هناك داع ليأسكما. فأنا أتنبأ بأن السيدة دي لاموت عندما قالت لكما «انتظرا»، شاءت بهذه الكلمة... ولكن لا، لا أريد أن أتنبأ بشيء... فقط إذهبا وفتشا عن الكردينال ولا تضيعا الوقت، وقصّا عليه كل ما قلتماه لي، وأضيفا بأني أعلم كل شيء.

فانعش هذا القبس من الأمل الصائغين، وتبادلا النظرات المتفائلة.

وشاء بوسانج أن يكون له كلمته في الموضوع، فقال للملكة:

- في هذه الاثناء، بين يدي جلالتك إيصال مزور، والتزوير هو جريمة في نظر القانون.

- هذا صحيح، إذا كنتما فعلاً لم تستلما العقد. ولكن للتأكد من التزوير، لا بدَّ من أن أقابلكما بالشخص الذي كلفته بأن يعيد إليكما الماسات.

فصاح بوسانج:

- نحن على استعداد لهذه المقابلة ساعة تريد جلالتك، لأننا تاجران شريفان، ولا نخشى النور إطلاقاً.

- إذن إذهبا وفتشا عن النور لدى الكردينال. فهو وحده، باستطاعته أن يبدد الظلام الذي يكتنف هذه القضية.

فسأل بوهمير:

- وهل تسمح لنا جلالتك، بأن ننقل إليها جواب الكردينال؟

فقالت الملكة:

- بالطبع، فالأمر يهمني أكثر مما يهمكما، إذهبا ولا تتباطآ!

وبعد أن صرفت الملكة الصائغين، استسلمت هي، بعد

خروجهما، إلى القلق الشديد، فبعثت بالرسول تلو الرسول في طلب السيدة دي لاموت.

ولكن لنترك الملكة تبحث عن الكونتس، وهي على ما هي عليه من قلق وشكوك، كي نتابع الصائغين وهما يفتشان عن الحقيقة التي آل اليها عقدهما الماسي، وما رافق هذه القضية من غموض وتزوير.

في ذلك الوقت، كان الكردينال في قصره يقرأ في تأثر لا يمكن وصفه رسالة قصيرة كانت السيدة دي لاموت قد بعثت بها إليه من فرساي، كما تقول.

فالرسالة كانت قاسية بالنسبة للكردينال، لأنها قضت على كل آماله وأحلامه، إذ كانت بمثابة إنذار له «كي يمتنع عن الظهور غير المتكلف في فرساي، وكي لا يحاول إحياء علاقاته بالملكة التي أصبحت مستحيلة».

فما أن قرأ الكردينال هذه الكلمات، حتى استشاط غضباً، وأخذ يعدد مساوئ الملكة ويصرخ بيأس:

· «مغناجة، نَزْوية، مخادعة ... أوه! سوف أنتقم لنفسي، أربع رسائل كتبتها لي، وكل واحدة منها أكثر ظلماً وأكثر عتواً من الأخرى. لقد أذلتني بسبب نزواتي، وبات من الصعب علي أن أغفر لها، إن لم تشبع نهم نفسي مرة جديدة ...»

وفيما هو على هذه الحالة ، وصل الصائغان الى قصره وطلبا مقابلته .

وعندما أبلغه الخادم طلبهما ، طرده من فرط غضبه . فكرر الخادم تبليغه رغبة الصائغين ثلاث مرات نزولاً عند إلحاحهما الشديد ، وكرر هو طرده ثلاث مرات . ولما دخل عليه الخادم في المرة الرابعة وأبلغه بان بوهمير وبوسانج قد صرحا بأنهما لن ينسحبا من قاعة الانتظار إلا بالقوة ، فكر متسائلاً : «ماذا يريد هذان اللجوجان ؟»

ثم قال للخادم : ليدخلا !

وما ان دخلا بوجهيهما الكالحين ، حتى صاح بهما الكردينال قائلاً :

– ما هذه الفظاظة أيها الصائغان ! هل لكما أي حق علي ؟

فجمّدت هذه اللهجة الشريكين رعباً ، وقال بوهمير بيأس ، مرفقاً كل مقطع بتنهدة تستصرخ العدل والرأفة :

– عفوك يا مولاي عما نحن عليه من غضب وحنق ، ولا تجبرنا على التصرف بخلاف ما يفرضه علينا الواجب من تقديم الاحترام ، نحو أمير للكنيسة جليل مثلك !

فقال الكردينال :

– إما لستما مجنونين ، وعندئذ يجب رميكما من النافذة ، وإما أنكما مجنونان ، وعندئذ يجب طردكما لا أكثر ولا أقل ، فأي من الاثنين تفضلان ؟

فأجاب بوهمير :

– نحن لسنا مجنونين يا مولاي ، نحن مسروقين !

– وما علاقتي بالأمر ! هل أنا مدير الشرطة ؟

فقال بوهمير وهو يشهق :

– ولكنك استلمت العقد بيديك يا مولاي ... سوف تذهب وتدلي بشهادتك أمام القضاء ، سوف تذهب ...

فقال الأمير دي روهان :

– لقد استلمت العقد !.. إذن ، المسروق هو العقد ؟!

– نعم يا مولاي .

فصاح الكردينال باهتمام :

– عجباً ! وماذا قالت الملكة ؟

– الملكة أرسلتنا إليك يا مولاي .

– إن جلالتها في غاية اللطف والذوق . ولكن ، ما الذي أستطيع عمله بهذا الخصوص أيها التعيسان ؟

– يمكنك عمل كل شيء يا مولاي ، يمكنك إنصافنا وإعادة الحق إلى أصحابه .

– أنا ؟!

- بدون شك .

- هذا الكلام يا عزيزي بوهمير، باستطاعتك أن تقوله لي، لو كنت واحداً من عصابة اللصوص التي استولت على عقد الملكة .

- ولكن العقد لم تستلمه الملكة .

- ماذا تقول!! من استلمه إذن ؟

- إن الملكة تنكر وجوده في حوزتها .

فقال الكردينال :

- كيف يمكنها أن تنكر، طالما أن لديكما إيصالاً منها ؟!

- إن الملكة تقول بأن الايصال مزور .

فصاح الكردينال :

- أنتما مجنونان فيما تقولانه! فالملكة قد أنكرت، لأنه كان لديها بعض الأشخاص عندما كلمتماها في الموضوع .

فقال بوهمير :

- لم يكن لديها أحد يا مولاي، وهذا ليس كل شيء...

- ماذا أيضاً ؟

- لم تكتف الملكة بأن أنكرت، وبأن الاقرار باستلام العقد مزور، بل أيضاً أطلعتنا على إيصال منا، يثبت بأننا استعدنا العقد !

- إيصال منكما ؟ وهذا الايصال ؟

- إنه مزور يا صاحب النيافة ، مثله مثل الاقرار الذي بين يدينا ، وأنت تعلم ذلك جيداً .

فصاح الكردينال غاضباً :

- مزور ... إيصال وإقرار مزوران ... وتقولان بأني أعلم ذلك جيداً ؟!

- بكل تأكيد ، طالما أنت الذي جاء وأكّد لنا ما كانت قد قالته لنا الكونتس دي لاموت . وطالما أنك تعلم جيداً بأننا قد بعنا العقد فعلاً ، وبأن هذا العقد كان في حوزة الملكة .

فقال الكردينال وهو يمسح جبهته بيده :

- إن الأمر رهيب كما يبدو لي . فلنستعرض سوية ما قمت به معكم من إجراءات تتعلق بهذا العقد .

- نعم يا مولاي .

- أولاً ، إن شراء العقد قد تمّ بواسطتي لحساب جلالتها ، وقد دفعت لكما مئتين وخمسين الف ليرة .

- هذا صحيح يا مولاي .

- ثم اعترفت الملكة خطياً بهذا الشراء ، كما قلتما لي ، وحددت جلالتها مواعيد الدفع على مسؤولية توقيعها .

- لقد قلت يا مولاي ... على مسؤولية توقيعها ... أي أن الملكة وقعت ، أليس كذلك ؟

- أرني رسالة جلالتها لأتأكد .

فسحب بوهمير الرسالة من حقيبته، وقال:

- هاكها يا مولاي.

فألقى الكردينال عليها نظرة، وصاح قائلاً:

- ما هذا!! إنكما ولدان... «ماري انطوانيت دي فرانس؟» أليست الملكة ابنة العائلة النمساوية الحاكمة؟ إنكما ضحية اللصوص... فالخط والتوقيع كلاهما مزوران!

فصاح الصائغان وقد بلغت بهما المصيبة أوجها:

- يا للمصيبة!! يا للمصيبة!! لكن السيدة دي لاموت يجب أن تعرف المزور والسارق...

فقال الكردينال وقد آلمته الحقيقة وجعلته جدَّ مرتبك:

- سوف أستدعي السيدة دي لاموت.

وقرع الجرس كما سبق أن فعلت الملكة، وطلب إلى خدمه أن يسرعوا في التفتيش عن الكونتس واستدعائها إليه.

في هذه الأثناء، تكور بوهمير وبوسانج كما تتكور الأرانب في مأواها، وأخذا يلطمان وجهيهما ويصيحان:

«أين العقد؟! أين العقد؟!»

فقال الكردينال متبرماً:

لقد أصميتما أذنيَّ! هل أعرف أنا أين عقدكما؟ كل ما أعلمه، أني بنفسي سلمته إلى الملكة.

فتابع التاجران صياحهما:

«نريد العقد أو المال! نريد العقد أو المال!»

فقال لهما الكردينال، وقد كاد يرمي بهذين المخلوقين خارجاً من شدة غضبه:

- كفاكما صياحاً أيها الشقيان، فالأمر لا يعنيني إطلاقاً!

فتابع بوهمير وبوسانج صياحهما، وقد بحَّ صوتاهما:

«السيدة دي لاموت! السيدة دي لاموت! إنها هي سبب بلائنا...»

فقال الكردينال:

- إن السيدة دي لاموت امرأة شريفة ومستقيمة. لذا أحظركما من اتهامها، تحت طائلة التعذيب على الدولاب في قصري.

فقال بوهمير بلهجة محزنة:

- الحاصل، أن هناك مجرماً، وأن هناك شخصاً قام بعملية تزوير الرسالة والايصال.

فقال دي روهان بعجرفة:

- هل هو أنا هذا الشخص؟

- إننا لا نريد ان نتهمك يا مولاي.

- ما الذي تريدانه إذن؟

- نريد توضيحاً لما جرى على حسابنا يا مولاي.

- علينا أن ننتظر، فسوف أحصل على هذا التوضيح.

- ولكن، ماذا تريدنا أن نقول للملكة يا مولاي، التي بعثتنا إليك بعد ان ارتفع صوتها عالياً علينا.

- ماذا قالت الملكة؟

- الملكة قالت بأن العقد ليس لديها، وبأنه يجب أن يكون، إما عندك، وإما عند السيدة دي لاموت.

فقال الكردينال وقد احمرّ من الخجل والغضب:

- عجباً!.. إذهبا وقولا للملكة بأن... لا، لا تقولا لها شيئاً. كفاها فضائح متشابهة. ولكن غداً... سوف أحتفل بالقداس في كنيسة فرساي، فكونا هناك بالقرب مني، واستمعا إلى جواب الملكة، فسوف أسألها عما إذا كان العقد لديها. فإذا أنكرت، بوجودي... عندئذ سأعمل بأصلي كأمير من آل روهان، وأدفع المبلغ.

وبعد أن لفظ الكردينال دي روهان هذه الكلمات بعظمة، صرف الصائغين. فخرجا متقهقرين منحنيين، وقد قال بوهمير بصوت متلجلج:

- إذن، إلى الغد يا مولاي، أليس كذلك؟

فأجاب الكردينال:

- إلى الغد، عند الساعة الحادية عشرة، وفي كنيسة فرساي.

مبارزة ودبلوماسية

★

عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، دخلت إلى باحة قصر فرساي عربة عليها شعار السلاح الخاص بالسيد دي بريتاي .

وكان السيد دي بريتاي ، وهو مزاحم وعدو شخصي للكردينال دي روهان ، يتحين الفرص منذ أمد طويل ، كي يضرب عدوه الضربة القاضية .

في تلك الساعة ، كان الملك يلبس ثيابه استعداداً لحضور القداس ، وكان دي بريتاي ، وهو أحد وزرائه ، على موعد معه . فما أن دخل عليه ، حتى قال له لويس السادس عشر ومظاهر الفرح بادية على وجهه :

- الطقس رائع هذا اليوم يا بريتاي ، فالسماء خالية من أية غيمة .

فأجاب الوزير :

- يؤسفني جداً يا مولاي ، أن أعكر طمأنينتكم بغيمة أنقلها إليكم .

فصاح الملك وقد تبدلت سيماء وجهه :

- ها إن نهارنا قد بدأ بالسوء. ما وراءك ؟

- إنني في حيرة من أمري يا مولاي، لا أعلم كيف أقصُّ عليك الخبر. فالأمر لا يتعلق بشؤون وزارتي، بل بمدير الشرطة، لأنه نوع من السرقة.

فقال الملك :

- سرقة ! إذن تكلم، فأنت وزير العدل، واللصوص ينتهي أمرهم دائماً أمام العدالة.

- حسناً. لا شك يا مولاي، أن جلالتكم قد سمعت بذلك العقد الماسي.

- عقد السيد دي بوهمير ؟

- نعم يا مولاي.

- ذلك الذي رفضته الملكة ؟

- بالضبط.

فقال الملك وهو يفرك يديه :

- إن رفضَ الملكة، قد أكسبنا سفينة جميلة : «السيفران».

فقال البارون دي بريتاي، غير حاسب أي حساب للشر الذي سينتج عن كلامه :

- ولكن الغريب يا مولاي، أن هذا العقد قد سرق !

فقال الملك :

- شيء مؤسف ! شيء مؤسف ! فهو عقد ثمين . لكن حبات الماس يصعب إخفاؤها ، لذا سيكتشفها رجال الشرطة ولن يقطف اللصوص ثمرة سرقتهم .

فقاطعه البارون دي بريتاي قائلاً :

- لكن السرقة يا مولاي ، ليست سرقة عادية ، فالضجة كبيرة حولها .

- الضجة ! ماذا تريد أن تقول ؟

- يزعمون يا مولاي ، بأن الملكة قد احتفظت بالعقد .

- ماذا تقول ! احتفظت بالعقد ؟ إن رفضها قد حصل بوجودي أيها البارون ، ولا يمكن أن تكون قد احتفظت به ، لأنها رفضت حتى أن تنظر إليه . إنه لمن الجنون المطبق أيها البارون ، القول بأن الملكة قد احتفظت بالعقد .

- إني يا مولاي لم أستعمل الكلمة الحرفية ، لأن النميمة ليست من شيمي ، ولأن وقعها جارح على آذان الملوك . لذلك لن أقولها ...

فقال الملك مبتسماً :

- أفهم من كلامك يا سيد بريتاي ، بأن الملكة قد سرقت العقد .

فقال دي بريتاي بحيوية :

- يقولون يا مولاي ، بأن الملكة ، رغم إلغاء الصفقة الذي تمَّ بحضورك - وهنا أجدني لست بحاجة لأن أكرر أمام جلالتكم كم أكن من تقدير واحترام للملكة يزدريان بمثل هذه الافتراضات السافلة - يقولون بأن الصائغين، بوهمير وبوسانج ، لديهما إيصال من جلالة الملكة ، يثبت بأنها قد احتفظت بالعقد...

فاصفرّ الملك وردد بقلق :

-يقولون !.. يقولون ! إن الأمر يرعبني !..

ثم صاح بصوت مرتفع وحازم :

«مع ذلك ، فالملكة لها الحق بأن تشتري حلية راقت لها ، وأنا لا ألومها، فهي امرأة، والعقد قطعة مدهشة ونادرة الوجود . شكراً لله ! فالملكة باستطاعتها أن تنفق على زينتها مليوناً ونصف المليون إذا شاءت ، وعلى الملك ان لا يتدخل في شؤونها الخاصة ، وأن لا يسمح لأي إنسان بأن يتدخل بها ، ولو اغتياباً .

فانحنى البارون أمام كلام الملك هذا ، والتزم الصمت !

لكن حزم لويس السادس عشر ، لم يكن جدياً . فبعد برهة من تظاهره به ، عاوده القلق والحيرة ، فقال :

- ثمَّ لنكن منطقيين . لقد حدثتني عن سرقة ، كما

أعتقد ؟ لقد قلت سرقة ... فكيف يكون هناك سرقة ، والعقد في حوزة الملكة ؟!

فقال البارون :

- إن غضب جلالتك يا مولاي ، قد عقل لساني ، فلم أكمل .

- أوه ! غضبي !.. أنا في حالة غضب بسبب ما ذكرت أيها البارون !

وأخذ الملك الطيب يضحك ، ثم قال :

- لا بأس . أكمل وقل لي كل شيء . قل لي حتى بأن الملكة قد باعت العقد الى جماعة من اليهود . يا لها من امرأة مسكينة ! فهي غالباً ما تكون بحاجة الى دراهم ، وأنا لا أفي حاجتها دائماً .

- هذا بالضبط ما كنت أريد أن أتشرف بقوله إلى جلالتك . فالملكة كانت قد طلبت منذ شهرين ، خمسماية الف ليرة بواسطة السيد دي كالون ، وجلالتك رفضت ان توقع ...

- هذا صحيح .

- وهذا المبلغ ، كما يقولون يا مولاي ، كان من المقرر أن تدفعه الملكة كقسط أول من ثمن العقد ، فلما لم تحصل عليه ، رفضت أن تدفع ...

فقال الملك ، وقد بدأ يهتم باكتشاف الحقيقة :

– وبعد ؟

– هنا يا مولاي ، تبدأ القصة التي تدفعني غيرتي إلى قصِّها على جلالتكم .

فصاح الملك :

– تقول هنا تبدأ القصة ! ما الذي جرى إذن ؟

– يقولون يا مولاي ، بأن الملكة قد توجهت إلى أحدهم ، للحصول على الدراهم المطلوبة .

– إلى من ؟ إلى يهودي ، أليس كذلك ؟

– لا يا مولاي ، ليس إلى يهودي .

– هيَّا إذن وقل ؟ لقد حزرت ، هناك مؤامرة خارجية . فالملكة قد طلبت المال من شقيقها ، من عائلتها ، أي أن للنمسا دخلاً في القضية !

فأجابه دي بريتاي ، وهو يعلم كم هو الملك حساس بالنسبة للبلاط في ڤيينا :

– حبذا ، لكان ذلك أفضل !

– تقول لكان ذلك أفضل ! إذن ، ممن استطاعت الملكة ان تطلب المال ؟

– مولاي ، لا أجرؤ ...

فقال الملك وهو يرفع رأسه ويتخذ لنفسه عظمة الملوك :

- بل يجب ان تجرؤ! قل بسرعة إذا أردت، وسمِّ لي مقرض المال هذا.

- إنه السيد دي روهان يا مولاي.

- عجبا! ألا تخجل من أن تسمي لي السيد دي روهان، وهو أكبر مفلس في هذه المملكة!

فقال دي بريتاي وهو يغضّ الطرف:

- مولاي ...

وأضاف الملك يقول:

- إن مظهرك لا يروق لي، وعليك الآن أن تشرح مكنونات صدرك يا حضرة وزير العدل.

- أرجوك يا مولاي، فليس من أحد في العالم، باستطاعته أن يجبرني على التلفظ بكلمة تلوّث شرف مليكي، أو شرف مليكتي ...

فقطب الملك حاجبيه وقال:

- لقد قلت بأن السيد دي روهان، هو من أقرض الملكة المال، وعليك أن تشرح ذلك بالتفصيل.

- لتكن مشيئتك يا مولاي، ولسوف تقتنع جلالتك، بأن السيد دي روهان كان قد دخل في مفاوضات مع الصائغين بوهمير وبوسانج، وبأن صفقة بيع العقد هو الذي رتبها، وبأنه هو الذي وضع شروط الدفع.

فصاح الملك وقد عصف به الغضب والغيرة :

- أصحيح ما تقول ؟!

- هذا هو الواقع الذي باستطاعة استجواب بسيط أن يثبته ، وقد تطوعت بنقله إلى جلالتكم .

- تقول بأنك تطوعت بنقله ؟!

- بدون تحفظ ، وعلى مسؤوليتي يا مولاي .

- إنها لأمور رهيبة !.. نعم رهيبة ، ولكني حتى الآن لم أرَ تلك السرقة .

- يقول الصائغان يا مولاي ، بأن لديهما إيصالاً موقعاً من الملكة ، وأن العقد يجب أن يكون لدى جلالتها .

فصاح الملك غاضباً :

- وهي تنكر ! هكذا هي في نظرك يا بريتاي ؟

- عفوك يا مولاي . هل صدر مني ما يدل على أن الملكة ليست بريئة ؟ يشهد الله بأني لا أكن لجلالتها إلا كل احترام وتقدير ، وبأن قلبي مفعم بالحب نحو مليكتي ، التي هي أشرف النساء طراً !

- إذن ، أنت لا تتهم إلا السيد دي روهان ؟

- لكن الظواهر يا مولاي ، تنصح ...

- إنه اتهام خطير أيها البارون !

- اتهام قد يسقط امام التحقيق ، لكن التحقيق ضرورة لا

بدَّ منها . فتأمل يا مولاي بأن الملكة تدعي بأن العقد ليس لديها ، وبأن الصائغين يزعمان بأنهما باعا العقد للملكة ، وبأن العقد غير موجود ، وبأن كلمة «سرقة» قد أصبحت على كل شفة ولسان ، وبأن الشعب يلفظها مقرونة باسم السيد دي روهان تارة ، وطوراً باسم الملكة المقدس .

فقال الملك وقد ظهر القلق جلياً على وجهه :

– هذا صحيح ، هذا صحيح ، وإنك على حق يا بريتاي ، فيجب ان تتوضح هذه القضية برمتها .

– حتماً يا مولاي .

– الله !.. ما الذي يجري هناك في الرواق ؟ أليس السيد دي روهان من يتوجه إلى الكنيسة ؟

– لا يمكن أن يكون السيد دي روهان يا مولاي . فالساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد . ثم إن السيد دي روهان الذي سيحتفل بالقداس هذا اليوم ، سوف يرتدي ثيابه الحبرية . لا ، ليس هو ذلك المارّ ، وامام جلالتك أيضاً نصف ساعة من التفكير والاستعداد .

– ماذا علي أن أعمل؟ هل أكلمه ؟ هل أستدعيه ؟

– لا يا مولاي ، واسمح لي أن أقدم نصيحة لجلالتك : لا تدع القضية تتناولها ألسن أهل البلاط ، قبل أن تتحدث إلى الملكة .

فقال الملك :

- هذا عين الصواب ، فالملكة ستقول لي الحقيقة .

- علينا أن لا نشك لحظة في ذلك يا مولاي .

- هيا واجلس هناك يا بارون ، وقل لي كل ما تعلمه ، وما سمعته من تعليق وتفسير ، بدون تحفظ ولا تلطيف .

- كل شيء مفصَّل في هذه الحقيبة يا مولاي ، بما فيه المستندات الثبوتية .

- إلى العمل إذن . ولكن انتظر قليلاً ، فقد بقي لدي مقابلتان هذا الصباح ، أودّ أن أرجئهما .

وبعد أن أعطى الملك أوامره بغلق باب غرفته ، ألقى نظرة من خلال النافذة وصاح :

«إنه الكردينال هذه المرة ، انظر !»

فنهض بريتاي وتقدم من النافذة ، فرأى من خلال الستارة الشفافة ، الكردينال دي روهان مرتدياً بزته الحبرية ، ومتوجهاً الى الشقة المخصصة لاستراحته ، في كل مرة يأتي إلى فرساي للاحتفال بالقداس الإلهي .

وتابع الملك يقول :

«ها هو أخيراً قد وصل .»

فقال دي بريتاي :

- هذا أفضل ، فالتوضيح لا يقبل أي تأخير .

وأخذ بحمية الرجل الذي يريد القضاء على خصمه ، يطلع الملك على ما لديه من معلومات ، وعلى المستندات والوثائق التي رتبها ونسقها بفن في حقيبته ، وكلها تدين الكردينال دي روهان .

وكان الملك يدقق بهذه الاوراق الثبوتية ويضعها الواحدة فوق الاخرى . وعندما انقضى ربع ساعة ولم يقدم اليه وزيره الدليل على براءة الملكة ، دب اليأس إلى قلبه وأخذ يتبرم ...

وفجأة ، سُمعت صيحة في الرواق المجاور . فأصاخ الملك السمع ، وتوقف دي بريتاي عن القراءة ، وأقدم ضابط وقرع باب الغرفة ودخل بعد السماح ، فسأله الملك وقد وترت أعصابه وثائق السيد دي بريتاي :

- ما وراءك ؟

فعرّف الضابط بنفسه ، وقال :

- مولاي ، صاحبة الجلالة الملكة ، ترجو جلالتك بأن تذهب إليها .

فقال الملك وقد شحب لونه :

- يجب أن يكون هناك من جديد .

فقال دي بريتاي : ربما .

فصاح الملك :

- أنا ذاهب الى الملكة . انتظرني هنا يا سيد دي بريتاي .

فدمدم وزير العدل :

- حسناً ، لقد أدركنا حلَّ العقدة .

شارني والكردينال والملكة

★

في الساعة التي دخل فيها السيد دي بريتاي على الملك ، كان السيد دي شارني يطلب مقابلة الملكة ، وهو شاحب اللون مضطرب البال .

وكانت الملكة ترتدي ثيابها ، فرأت من نافذة صالونها الصغير المشرف على السطيحة ، كيف كان شارني يلح في طلب مقابلتها ، فأصدرت أمرها كي يدخلوه إليها فوراً .

وهي بذلك قد استسلمت الى نداء قلبها ، وقالت في نفسها بأنفة نبيلة : «إن حباً طاهراً ومجرداً كحبه ، له الحق بأن يدخل كل ساعة إلى قصور الملكات» .

فدخل شارني ، وقال بصوت مخنوق ، عندما لامست يده المرتعشة يد الملكة التي قدمتها إليه :

- آه يا مولاتي ، أية مصيبة حلَّت عليَّ !

فصاحت الملكة ، وقد شحب لونها هي الأخرى عندما لاحظت الشحوب على وجه شارني :

– ماذا دهاك ! ما الذي أصابك ؟

– مولاتي ، هل تعلمين ما الذي علمته ؟ هل تعلمين ما الذي يقولونه ؟ هل تعلمين ما قد يكون الملك يعلمه ، أو ما سوف يعلمه غداً ؟

فارتعشت الملكة ، إذ فكرت رأساً بتلك الليلة العفيفة الملذات ، التي قضتها مع شارني في حدائق وغابات فرساي ، وظنت بأنه ربما كانت هناك عين غيورة وعدوة قد شاهدتها ، فأجابته بعد أن سندت قلبها بإحدى يديها :

– قل كل شيء ، فأنا على استعداد لكل مفاجأة .

– يقولون يا مولاتي ، بأنك اشتريت عقداً من بوهمير وبوسانج .

فأجابته الملكة بحدة :

– ولكني أرجعته .

– استمعي إلي . يقولون بأنك تظاهرت بإرجاعه ، وبأنك كنت على وشك أن تدفعي ثمنه ، وبأن الملك قد منعك بعد أن رفض التوقيع على قرار الصرف الذي قدَّمه إليه السيد دي كالون ، وبأنك ، عند ذاك ، توجهت إلى أحدهم كي يمدك بالمال ، وكان هذا الشخص ... عشيقك !

فصاحت الملكة مع حركة مهيبة :

– أنت ! أنت يا سيدي ! دعهم يقولون ما يقولون هؤلاء ، فكلمة عاشق ليست بالنسبة اليهم سوى شتيمة ، أما بالنسبة الينا ، أنا وأنت ، فهي كلمة مقدسة لا يقدر قدرها إلا من تذوق مثلنا طعم الحب الحقيقي .

فتوقف شارني مرتبكاً أمام هذه البلاغة الوقورة والمتضوعة من الحب المجرد ، كما يتضوع روح العطر من قلب كل امرأة نبيلة ، وأكملت الملكة تقول :

– عن من تريد أن تتكلم يا شارني ؟ إن للنميمة لغة لا أفهمها إطلاقاً ، فهل فهمتها أنت ؟

فقال شارني :

– تفضلي يا مولاتي وأعيريني سمعك جيداً ، فالأمر خطير جداً . البارحة ذهبت مع خالي ، السيد دي سيفران ، إلى مكتب صائغي البلاط ، بوهمير وبوسانغ ، كي يقدرا لخالي قيمة بعض الماسات التي جاء بها من الهند ، فجرى الحديث عن كل شي ، وعلى كل شي . لقد روى الصائغان قصة مريعة يتداولها أعداء جلالتك بالتعليق والتفسير . أنا في غم شديد يا مولاتي . فإذا كنت قد اشتريت العقد ، قولي لي . وإذا كنت لم تدفعي ثمنه ، قولي لي أيضاً . ولكن لا تدعيني أصدق بأن السيد دي روهان قد دفع لك ثمن هذا العقد .

فصاحت الملكة :

– السيد دي روهان !

– نعم ، السيد دي روهان ! ذاك المعروف بأنه عشيق الملكة ، ذاك الذي قرض الملكة مالاً ، ذاك الذي رآه شقي تعيس يدعى دي شارني ، يبتسم للملكة في حدائق وغابات فرساي ، ويركع أمام الملكة ، ويقبل يدي الملكة ، ذاك ...

فصاحت الملكة مقاطعة :

– إذا كنت ستصدق بأني كنت هناك عندما لم أكن ، فهذا يعني بأنك لم تكن تحبني عندما كنت .

– أوه ! إن الخطر مداهم يا مولاتي ، وأنا ما جئت لأطلب منك صراحة أو شجاعة ، بل جئت أتوسل اليك كي تؤدي لي خدمة .

فقالت الملكة :

– أولاً ، أين الخطر ، إذا شئت ؟

– إن الأحمق وحده لا يرى هذا الخطر يا مولاتي ! فالكردينال كفل الملكة ، والكردينال وقَّع عن الملكة ، والكردينال أفسد الملكة . لن أكلمك إطلاقاً هنا ، على الغم القاتل الذي قد تسببه للسيد دي شارني ثقة شبيهة بتلك التي يوحيها اليك السيد دي روهان . لا ، فمثل هذا الغم قد يقتلني ، ولكنه لن يحملني على التشكي .

فقالت ماري انطوانيت بغضب :

- أنت مجنون !

- لست مجنوناً يا مولاتي ، بل أنت شقية ، أنت فاسدة ... فأنا بذاتي قد رأيتك في «البارك» ... ولم أكن مخدوعاً . واليوم ، قد ظهرت الحقيقة الشنيعة القاتلة ... وربما كان السيد دي روهان ، يتباهى بها ويعتدّ !

فأمسكت الملكة بيد شارني ، ورددت بيأس لا يوصف .

- مجنون ! مجنون ! صدِّقْ الحقد ، وصدِّق الأوهام ، وصدِّق المستحيل ، ولكن بحق السماء ، وبعد الذي قلته لك ، لا تصدق بأني أثيمة ... أثيمة ! ومع ... أنا التي لم تفكر بك مرة إلا واستغفرت ربها ، لأنها اعتبرت هذا التفكير بمثابة جريمة ارتكبتها ! آه يا سيد دي شارني ، إذا كنت لا تريد أن أكون اليوم هالكة ، وغداً مائتة ، لا تقل أبداً بأنك تشك بي ، أو بالأحرى ، إذهب بعيداً كي لا تسمع حتى شائعة زلتي ، ساعة موتي .

فأخذ شارني يلوي يديه بيأس ، وقال :

- استمعي إلي ، إذا كنت تريدين أن اؤدي لك خدمة فعَّالة .

فصاحت الملكة :

- خدمة منك ! منك ، وأنت أشد قساوة من أعدائي ...

لأن أعدائي كل ما فعلوه ، أنهم اتهموني ، بينما أنت تشك بي ! خدمة من قبل رجل يحتقرني ؟! أبداً ... أبداً يا سيدي !

فتقدم أوليفيا وأمسك يد الملكة بيديه ، وقال :

- لقد ثبت لك جيداً ، بأني لست الرجل الذي يتأوه ويبكي . إن اللحظات ثمينة ، وهذا المساء ، سيكون قد فات الأوان كي نعمل ما يجب أن نعمله . فهل تريدين إنقاذي من اليأس ، بإنقاذ نفسك من الخزي والعار ؟

- سيدي ...

- آه ! لن أوجز كلامي أمام الموت . فإذا لم تصغي إلي ، كلانا سيكون ميتاً هذا المساء . أنت من الخجل ، وأنا من رؤيتك مائتة . لذا ، اعتبريني يا مولاتي ، أخاً لك ... هل أنت بحاجة الى مال كي تدفعي ثمن العقد ؟

- أنا ؟!

- لا تنكري .

- قلت لك ...

- لا تقولي بأن العقد ليس لديك .

- إني أقسم لك .

- لا تقسمي إن شئت أن استمرَّ في حبك .

- أوليفيا !

– ما زال هناك وسيلة كي تنقذي، في آنٍ معاً، شرفك وحبك. إن قيمة العقد مليون وستماية الف... خذي، هذا مليون ونصف المليون...

– ما هذا ؟!

– خذي وادفعي، ولا تتطلعي!

– ممتلكاتك بعتها! أراضيك وضعتها تحت تصرفي! جرّدت نفسك من كل شي لأجلي! إنك صاحب قلب نبيل يا شارني، ولن أساوم على هكذا حب. أوليفيا، إني أحبك!

– إقبلي.

– لا، ولكني أحبك.

– إذن، سيدفع السيد دي روهان؟ فكري بالأمر يا مولاتي، فرفضك لن يكون مأثرة، بل قساوة تذلني... أوَتقبلين من الكردينال؟

– أنا!.. ما هذا القول! أنا الملكة، فاذا منحت رعاياي الحب أو الثروة، لن أقبل إطلاقاً...

– ماذا ستعملين إذن؟

– أنت من سيملي عليَّ تصرفي. بماذا تعتقد أن السيد دي روهان يفكر؟

– يفكر بأنك عشيقته.

– إنك ظالم، يا أوليفيا...

– أنا أتكلم كما يتكلمون أمام الميت .

– بماذا تعتقد أن الصائغين يفكران ؟

– يفكران بأن الملكة لا تستطيع أن تدفع ، وبأن السيد دي روهان سيدفع عنها .

والشعب ، ما هو اعتقاد الشعب فيما يتعلق بالعقد ؟

– الشعب يعتقد بأن العقد لديك ، وبأنك قد أخفيته ، وبأنك ستصرحين به عندما يُدفع ثمنه ، سواء بواسطة الكردينال ، بدافع حبه لك ، أو بواسطة الملك ، بدافع خوفه من الفضيحة .

– حسناً . وأنت بدورك يا شارني ، إني أنظر إليك مواجهة وأسألك : ما هو اعتقادك بالمشاهد التي رأيتها في «بارك» فرساي ؟

فأجاب شارني بحزم :

– أعتقد يا مولاتي ، أنك بحاجة إلى إثبات براءتك .

فمسحت الملكة العرق المنساب من جبهتها ... وفي ذات اللحظة ، صرخ صوت الحاجب في الرواق :

«الأمير لويس ، كردينال دي روهان ، ومرشد ملك فرنسا !»

فدمدم شارني :

– هو !..

فقالت الملكة :

– لقد جاء وفق المراد .

– هل ستستقبلينه ؟

– بل سأستدعيه .

– ولكن ، أنا ...

– ادخل إلى بهوي ، ودع الباب مشقوقاً ، كي تسمع جيداً .

– مولاتي !

– أسرع واذهب ، فها هو الكردينال .

ودفعت شارني إلى القاعة التي عينتها له ، وأغلقت الباب بالشكل الموافق ، ثم أدخلت الكردينال .

وعندما ظهر الأمير دي روهان على عتبة الغرفة ، بدا بالبزة الكهنوتية التي كان يلبسها ، مشعاً متألقاً . وقد وقف على مسافة منه ، عدد من أتباعه ، كانت ثيابهم تلتمع كبزة سيدهم . وكان بوهمير وبوسانج في عداد حاشية الكردينال هذه ، وقد ارتديا ثيابهما الاحتفالية .

فتقدمت الملكة من الكردينال وهي تتصنع الابتسام ، وأشارت إلى مقعد لا ظهر له . لكن لويس دي روهان ، بقي واقفاً ، وقد بدا حزيناً رزيناً ، متحلياً بسكينة الرجل الشجاع

المقبل على معركة، وبالنذير غير المحسوس للكاهن الذي باستطاعته أن يغفر الذنوب.

وبعد أن انحنى وهو يرتعش بشكل ظاهر، قال:

- مولاتي، لديَّ عدة أمور هامة يجب أن أطلع جلالتك عليها، برغم أن جلالتك قد أخذت على عاتقها تجنب حضوري.

فقالت الملكة:

- أتقول بأني أتجنب حضورك يا سيادة الكردينال، وأنا من بعث يستدعيك!

فألقى الكردينال نظرة على بهو الملكة، وقال بصوت منخفض:

- هل أنا وحدي مع جلالتك؟ وهل لي الحق بأن أتكلم بصراحة كلية؟

- لك مطلق الحرية يا سيادة الكردينال، فلا تخف، نحن وحدنا.

وبدت الملكة في صوتها الحازم، وفي كل كلمة لفظتها بشجاعة وعظمة وثقة، كأنها تتعمد إيصال كلامها إلى النبيل المختبئ في القاعة المجاورة. ومما لا شك فيه، أن شارني كان يصيخ السمع جيداً.

فاتخذ الكردينال قراره. وقرَّب المقعد الذي أشارت إليه الملكة من مقعدها هي، بشكل جعله بعيداً، بقدر المستطاع، عن الباب ذي المصراعين. فقالت الملكة متظاهرة بالبشاشة:

– إنها استهلالة لا بأس بها.

فقال الكردينال:

– ذلك أن...

فرددت الملكة كلامه مستفهمة:

– ذلك أن؟...

فسأل دي روهان:

– ألن يأتي الملك؟

فأجابت ماري انطوانيت بحيوية:

– قل، ولا تخف الملك، ولا أي شخص آخر.

فقال الكردينال بصوت متأثر:

– الواقع، أن من أخافه، هو أنت!

– أكثر فأكثر لا مبرر للخوف، لأني لست مخيفة، عدا أني أخت الصراحة أنا. فتكلم بايجاز، وبصوت مرتفع وجليّ. وإذا راعيت جانبي، اعتقدت بأنك لست رجلاً شريفاً. أوه! يكفي حركات، فلقد قالوا لي بأن لك عليَّ مأخذاً، فتكلم وقل، ما الذي تأخذه عليَّ؟ إني أحب الحرب، والدم الذي يجري في عروقي هو دم لا يعرف الخوف!

فأطلق الكردينال تنهدة ، ونهض كأنه يريد أن يتنشق هواء الغرفة بشكل أفضل .

وعندما تمالك نفسه ، بدأ الكلام ...

إيضاحات

★

تركنا الملكة والكردينال وجهاً لوجه ، وشارني مختبئاً في بهو الملكة ، باستطاعته أن يسمع كل كلمة يتلفظ بها المتخاطبان ، اللذان نفد صبرهما ، وبات كل واحد منهما على توق شديد لمعرفة مكنونات صدر الآخر .

فانحنى الكردينال احتراماً ، وقال :

– أتعلمين يا مولاتي ، ما الذي يجري بخصوص عقدنا ؟

– لا يا سيدي ، لا أعلم . ولكن يسرني أن أعلم ذلك منك .

– لماذا منذ وقت طويل ، امتنعت جلالتك عن السماح لي بالاتصال بها ، إلا بواسطة وسيط ؟ لماذا ، إذا كان لديها سبب يدعوها لأن تكرهني ، لا تصارحني بهذا السبب مباشرة ؟

– لا أعلم ما تقوله يا سيدي الكردينال. فأنا ليس لدي سبب يحملني على كرهك. ولكن هذا، ليس الغاية من اجتماعنا كما أظن. فتفضل إذن، واعطني عن هذا العقد التعيس، إيضاحاً إيجابياً. وقل لي أولاً، أين السيدة دي لاموت؟

– أود أن أسأل جلالتك عنها.

– عفواً، إذا كان هناك شخص باستطاعته معرفة مقرّ السيدة دي لاموت، فهذا الشخص هو أنت، كما أعتقد.

– أنا يا مولاتي! بأية صفة؟

– أوه! أنا لست هنا كي أعرّفك يا سيدي الكردينال. فقد احتجت للتكلم مع السيدة دي لاموت، وبعثت استدعيها، لكن رسلي الذين طرقوا بابها عشر مرات، رجعوا بدون جواب، واختفاؤها أمر غريب!

– وأنا ايضاً يا مولاتي، قد أرعبني هذا الاختفاء. لأني بعثت برسول اليها يرجوها بأن تأتي وتراني، فحدث لرسولي كما حدث لرسل جلالتك، أي أنه عاد بدون جواب!

– إذن، لندع الكونتس جانباً، ونتحدث فيما يعنينا نحن الاثنين.

– أوه! لا يا مولاتي، لنتحدث عنها قبل كل شيء، لأن بعضاً من كلام جلالتك، قد أوقعني في شك أليم. إذ يبدو

لي ، أن جلالتك قد تلفظت بكلام أمام الكونتس ، فيه عتاب عليَّ .

– صبراً يا سيدي ، فحتى الآن لم أعتب عليك بشيء .

– إن مثل هذا الشك يا مولاتي ، يبين لي كم هي نفسك عرضة للتأثرات ، ويجعلني أفهم بيأس ، القسوة التي بدرت منك تجاهي ، والتي ما زالت بدون تفسير !

فقالت الملكة :

– كن واقعياً وتكلم في لبِّ الموضوع يا سيدي . فأنا لم أطلب منك إيضاحات ، كي تكلمني باسلوب غامض يزيدني تشويشاً .

فشبك الكردينال يديه ، واقترب من الملكة وصاح قائلاً :

– أتوسل إلى مولاتي أن لا تغير الحديث . فكلمتان أيضاً في نفس الموضوع الذي نعالجه الساعة ، كفيلتان بتفاهمنا ...

– في الحقيقة ، إنك تكلمني بلغة لا أفهمها يا سيدي ! فأرجوك ان تجيبني بوضوح عن سؤالي : أين هو ذلك العقد الذي رددته إلى الصائغين ؟

فصاح دي.روهان متعجباً :

– العقد الذي رددته !

– نعم ، ما الذي عملت به ؟

– أنا ! ولكني لا أعلم عنه شيئاً يا مولاتي .

– هيا واسمع : هناك أمر في منتهى البساطة . فالسيدة دي لاموت قد أخذت العقد وردته باسمي إلى الصائغين ، ولدي إيصال يثبت ذلك . لكن الصائغين يزعمان بأنهما لم يستلما العقد ، وبأن الإيصال مزور . فبكلمة واحدة ، تستطيع السيدة دي لاموت ان توضح كل شيء ...

وبما أن السيدة دي لاموت قد اختفت ، دعني افترض ما قد حصل . لقد شاءت السيدة دي لاموت أن ترد العقد كما أمرتها . لكنك أنت الذي كنت على حماسة شديدة ، وعطوفة دون شك ، كي تشتري لي هذا العقد ، أنت الذي حملته إلي مع عرض بأن تدفع ثمنه نيابة عني ، عرض ...

فقال الكردينال متنهداً :

– عرض رفضته جلالتك بقسوة .

– نعم ، واستمريت أنت على تلك الفكرة المتسلطة عليك ، والهادفة بأن أمتلك العقد . لذا لم تشأ أن ترده إلى الصائغين ، بل احتفظت به كي تقدمه إلي في مناسبة ما . والسيدة دي لاموت التي كانت على علم باشمئزازي ، وبعدم مقدرتي على الدفع ، وبالقرار الثابت الذي اتخذته والقاضي بأن لا أمتلك العقد طالما أني لا أمتلك ثمنه ، قد ضعفت وتواطأت معك ، بدافع الحماس من أجلي ، وهي اليوم خائفة من غضبي ، لذا توارت عن الانظار . أليس كذلك ؟ أليست

هذه هي الحقيقة؟ قل نعم، ودعني أؤنبك على هذه الخفة، وهذا التمرد على أوامري القطعية، فنصبح بذلك متعادلين، وينتهي كل شيء.

وأكثر من ذلك، إني أعدك بالصفح عن السيدة دي لاموت، إذا ثبت لي أنها نادمة على ما فعلت. ولكن بحق السماء، أوضح؟ أوضح يا سيدي، فلا أريد في هذه الآونة، أن تحف الظلمات بحياتي. لا أريد، لا أريد، أسمعت؟

تلفظت الملكة بهذه الكلمات بنزق، مشددة على كل مقطع منها، مما جعل الكردينال لا يجرؤ على مقاطعتها. ولكن ما أن توقفت، حتى قال مع تنهدة اختنقت في صدره:

- سوف أرد يا مولاتي، على كل الافتراضات التي عرضتها. لا، أنا لم تلزمني الفكرة الهادفة الى ضرورة امتلاكك العقد، لأني كنت واثقاً بأن العقد موجود لديك. لا، أنا لم أتواطأ مع السيدة دي لاموت بشأن هذا العقد. لا، أنا لا أحتفظ بالعقد، ولا هو موجود لدى الصائغين!

فصاحت الملكة بذهول:

- غير ممكن! العقد ليس لديك؟

- لا يا مولاتي.

- ألم تنصح السيدة دي لاموت بأن تبقى خارج هذه اللعبة كلها؟

– لا يا مولاتي ..

– ألست أنت من يخبئها ؟

– لا يا مولاتي .

– ألا تعلم عنها شيئاً ؟

– لا أعلم أكثر مما تعلمه مولاتي .

– إذن ، كيف تفسر ما حدث ؟

– أنا مجبر بأن أعترف يا مولاتي ، بأني لم أفهم هذا الذي حدث . فضلاً عن ذلك ، ليست هذه هي المرة الاولى التي أتشكى فيها للملكة ، بأنها لم تفهمني .

– متى جرى ذلك يا سيدي ؟ إني لا أتذكر .

فقال الكردينال :

– كوني عطوفة يا مولاتي ، وتفضلي بإعادة قراءة رسائلي بإمعان .

فقالت الملكة مندهشة :

– رسائلك ! وهل كتبت إلي ، أنت ؟

– عدة رسائل ، وقد ضمَّنتها كل ما في قلبي ...

فنهضت الملكة وقالت :

– يبدو لي ، بأن واحدنا يخدع الآخر . فلْننه هذه المهزلة بسرعة. عن أية رسائل تتكلم ؟ وما الموجود في قلبك ، أو على قلبك ؟ إني لم أفهم ما قلته !

– أعتقد يا مولاتي، بأني جاهرت عالياً بسرّ قلبي!
– أي سرّ! هل أنت بكامل وعيك يا سيدي الكردينال؟
– مولاتي!
– كفى مواربة! إنك تتكلم كرجل يريد أن ينصب لي شركاً، أو يريد أن يربكني أمام شهود.
– أقسم لك يا مولاتي، بأني لم أقل شيئاً... أصحيح أن هناك من يسمعنا؟
– لا يا سيدي، والف مرة لا، ما من أحد هنا. أوضح كل ما عندك، وأقم الدليل عليه، إذا كان ذلك يسرك.
– آه يا مولاتي، لو أن صديقتنا السيدة دي لاموت هنا، لأسعفتني، إن لم يكن على إيقاظ الحب، فعلى الأقل على إيقاظ ذاكرة جلالتك.
– صديقتنا؟ حبي؟ ذاكرتي؟ إني أكاد أجن!..
فقال الكردينال وقد أثار العنف في لهجة الملكة غضبه:
– مهلاً يا مولاتي، ولا تغضبي، أرجوك. فأنت حرة بأن لا تحبي بعد الآن.
فصاحت الملكة شاحبة اللون:
– يا إلهي! يا إلهي!... ماذا يقول هذا الرجل؟!
وأكمل الكردينال دي روهان يقول، بعد أن بلغ الغضب من الملكة أشده:

– حسناً يا مولاتي. أعتقد بأني كنت حذراً ومتحفظاً ما فيه الكفاية كي لا تعامليني بهذه القساوة. لكن ما صدر منك، جعلني أؤمن بأن الملكة عندما تقول: «لا أريد بعد»، تكون غير المرأة التي قالت: «أريد»، لأن قول الملكة هو قانون إجباري!

فأطلقت الملكة صيحة شرسة، وأمسكت بالكردينال من «دنتيلا» كمه، وقالت بصوت مرتعش:

«قل بسرعة يا سيدي. لقد قلت أنا: «لا أريد بعد»، وكنت قد قلت: «أريد». فلمن قلت الكلام الاول، ولمن قلت الكلام الثاني؟

– كلا الكلامين، قلتهما لي!

– لك؟

– نعم، لي!

– يا لك من شقيّ! يا لك من كذاب!

– أنا!

– إنك جبان، تنمُّ بحق امرأة.

– أنا!

– إنك خائن، تهين الملكة!

– وأنت، أنت امرأة بلا قلب، وملكة بلا وفاء!

– يا للشقي!

– لقد تدرجت في إغوائي، حتى عصف بي جنون الحب، وبتُّ أعلل النفس برجاء الارتواء...

– رجاء الارتواء! يا إلهي! هل أنا مجنونة؟ هل هو أثيم فاسق؟

– هل أنا الذي تجرأ بطلب اللقاءات الليلية التي حققتها لي؟

فأطلقت الملكة من فرط غضبها، صيحة معولة، قوبلت في البهو بتنهد طويل. وتابع دي روهان يقول:

– هل أنا الذي تجرأ وجاء وحده الى حدائق فرساي، لو لم تبعثي لي بالسيدة دي لاموت؟

– يا إلهي!

– هل أنا الذي تجرأ وسرق المفتاح الذي يفتح بوابة صيد الذئاب في «البارك»؟

– يا إلهي!

– هل أنا الذي تجرأ وطلب تلك الوردة المعبودة! تلك الوردة الملعونة! التي جفت واحترقت من فرط ما قبّلتها شفتاي!..

– يا إلهي!

– هل أنا الذي أجبرك على النزول في اليوم التالي، وعلى

إعطائي يديك اللذين يفوح العطر منهما فأسكرني، وجعلني كالمجنون؟

- أوه! كفى! كفى!

- وأخيراً، هل بغير ملء رضاك، عرفت في اليوم الثالث، تحت السماء الصافية، وفي سكون الليل، متعة الحب الغادر؟

فصاحت الملكة وهي تتراجع أمام الكردينال:

- سيدي! سيدي! إنك تجدف!

فرفع الكردينال عينيه إلى السماء، وقال:

- يا إلهي، أنت تعلم بأني لو استمريت محبوباً من هذه المرأة المخادعة، لكنت فقدت ممتلكاتي، وحريتي، وحياتي!

فقالت الملكة:

- إذا شئت يا سيد دي روهان، أن تحتفظ بكل ذلك، عليك أن تقول هنا بالذات، بأنك تسعى إلى هلاكي، وبأنك قد اختلقت كل هذه القبائح، وبأنك لم تأت الى فرساي ليلاً...

فأجاب الكردينال بجرأة وحزم:

- بلى، لقد جئت.

- إذا استمريت تقول هذا القول، فأنت مائت!

- إن روهان لا يكذب، لقد جئت.

– باسم السماء يا سيد دي روهان ، قل بأنك لم ترني في «بارك» فرساي ...

– إني مستعد لأن أموت ، كما كنت تهددينني الآن ، ولكني لم أرَ سواك في «بارك» فرساي ، حيث قادتني السيدة دي لاموت .

فصاحت الملكة ، دكناء اللون مرتعشة :

– مرة أخرى أقول لك : استدرك نفسك !

– لن أستدرك .

– مرة ثانية أدعوك لأن تقول ، بأن هذه الفضيحة التي سقتها ضدي ، هي من نسج خيالك .

– لن أقول .

– مرة أخيرة أدعوك لأن تعترف ، بأنك أنت ذاتك قد تكون مخدوعاً ، وبأن ما قلته ليس سوى نميمة ، سوى حلم من المستحيل أن يصبح حقيقة ، وبأني بريئة ، بريئة !

– لن أعترف .

فانتصبت الملكة مرعبة وقورة ، وقالت :

– بما أنك ترفض عدالة الله ، سوف ترضخ لعدالة الملك .

فانحنى الكردينال دون ان ينبس ببنت شفة .

وقرعت الملكة الجرس بعنف ، فأقبل اليها ، معاً ، عدد من نسائها ، فقالت لهنَّ وهي تمسح شفتيها :

- ليبلغوا صاحب الجلالة، بأن الملكة ترجوه بأن يشرفها بحضوره.

فانطلق أحد الضباط لينفذ هذا الأمر، فيما قرر الكردينال بسالة، أن يبقى في زاوية الغرفة.

واتجهت ماري انطوانيت عشر مرات نحو باب البهو، دون أن تدخل إليه. وكانت في كل مرة كأنها فقدت صوابها، ثم وجدته أمام ذلك الباب.

ولم تمضِ عشر دقائق على هذا المشهد المسرحي المخيف، حتى ظهر الملك في عتبة الباب، واضعاً يده في صدرته المصنوعة من الدنتيلا.

وبين الجمهور المحتشد في قاعة الانتظار، كان بوهمير وبوسانج دائماً حاضرين، بهيئتهما المرعبة، التي تنذر بهبوب العاصفة.

التوقيف

★

ما كاد الملك يظهر في عتبة الغرفة، حتى قالت له الملكة بذلاقة لسان خارقة:

«إن الكردينال دي روهان يا صاحب الجلالة، يقول أشياء من الصعب تصديقها. فتفضل واطلب إليه أن يرددها على مسامعك.»

فشحب لون الكردينال أمام هذا الكلام غير المنتظر، وهذا التأنيب المفاجئ.

وفي الواقع، كان الموقف حرجاً للغاية، فقد الحبر معه معرفة ما إذا كان باستطاعته كعشيق للملكة، أن يردد على مسمع مليكه وزوج عشيقته، كل ما قاله لماري انطوانيت، وأن يفصل له المشاهد التي عاشها معها كامرأة، كما يتصور، في حدائق قصر فرساي.

وفيما هو في حيرة من أمره، استدار الملك نحو الكردينال المستغرق في تفكيره، وقال له:

«بصدد العقد، أليس كذلك يا سيدي؟ أنت لديك أشياء لا تصدق، تود أن تقولها لي، وأنا أيضاً لدي أشياء لا تصدق، أودُّ أن أقولها لك. فتكلم إذن، أنا صاغ.»

فاتخذ دي روهان قراره في الحال. أي أنه اختار أهون الشرين تحاشياً لما يمسُّ شرف الملكة والملك، ودمدم قائلاً كفارس ورجل شجاع:

- نعم يا مولاي، بصدد العقد.

- العقد الذي كنت قد اشتريته؟

– مولاي ...

– نعم، أم لا ؟

فتطلع الكردينال الى الملكة ولم يجاوب . فرددت الملكة قول زوجها :

«نعم، أم لا ؟ الحقيقة يا سيدي، الحقيقة . إننا لا نطلب منك سوى الحقيقة .»

فأدار الكردينال رأسه ولم يجاوب . فقال الملك موجهاً كلامه إلى الملكة :

وبما أن السيد دي روهان لا يريد أن يجاوب، جاوبي أنت يا سيدتي، فلا بدَّ أنك تعرفين الموضوع . هل اشتريت هذا العقد ؟ نعم، أم لا ؟

فقالت الملكة بقوة :

– لا .

فارتعد الكردينال، وصاح الملك بوقار :

– هذا كلام ملكة ! فحذار يا حضرة الكردينال .

فابتسم الكردينال ابتسامة احتقار، ولم يجاوب . فقال له الملك :

– ألا تقول شيئاً ؟

– بماذا يتهمني مولاي ؟

- يقول الصائغان بأنهما قد باعا عقداً، لك أو للملكة، وقد أبرزا إيصالاً من جلالتها.

فقالت الملكة:

- إنه إيصال مزور!

وتابع الملك يقول:

- ويقول الصائغان، بأنك عوضاً عن الملكة يا حضرة الكردينال، قد كفلت لهما المبلغ أنت!

فقال دي روهان:

- بما أن الملكة قد سمحت بهذا القول، فيجب أن يكون صحيحاً، وأنا لا أتمنع عن الدفع.

وبنظرة ثانية أكثر احتقاراً من الأولى، انهى عبارته الأخيرة.

فارتعشت الملكة وارتعبت، لأن احتقار الكردينال لها، لم يكن بالنسبة اليها إهانة، وهي لا تستحقها، بل انتقاماً من رجل شريف.

واستأنف الملك يقول:

- ما من شك، بأن في القضية عملية تزوير، تناولت إمضاء ملكة فرنسا.

فصاحت الملكة:

– وهناك تزوير آخر، قد يكون وراءه أحد النبلاء، وهو التزوير الذي يزعم بأن الصائغين قد استردا العقد.

فقال دي روهان:

– للملكة الخيار بأن تنسب لي كلا التزويرين. فأي فرق إن زوَّر الانسان مرة، أو زوَّر مرتين؟

فكادت نقمة الملكة أن تنفجر، لو لم يتداركها الملك بحركة منه، ثم قال موجهاً كلامه إلى الكردينال:

– حذار يا سيدي، فأنت تعرِّض بمركزك. وإني أقول لك: برِّئ نفسك، بعد أن أصبحت موضع اتهام.

ففكر الكردينال برهة، ثم قال وكأنه رزح تحت عبء هذه الفِرية الغامضة التي تمسُّ شرفه:

– أبرئ نفسي؟ هذا مستحيل!

– هناك صائغان سُرق لهما عقد. وبما أنك أبديت استعدادك لدفع ثمنه، فهذا يعني إقراراً منك بأنك مذنب.

فأجاب الكردينال بازدراء:

– من يعتقد ذلك؟

– إذا كنت تفترض بأن الناس لا يعتقدون ذلك، فهم إذن يعتقدون...

وارتعش الملك وظهر الغضب جلياً على وجهه، فقال الكردينال:

- لا أعلم شيئاً مما يقال يا مولاي، كما أني لا أعلم شيئاً مما جرى. فكل ما أستطيع تأكيده، هو أن العقد ليس في حوزتي، وأن الماسات هي تحت سلطة شخص يجب أن يسمي هو نفسه، ولكنه لا يريد، وهو بذلك يجبرني على أن أقول له القول المأثور: «إن الشر يقع على من يرتكبه».

عند هذا الكلام، قامت الملكة بحركة استنجاد بالملك، الذي قال لها:

- الجدل بينك وبينه يا سيدي، وإني أسألك للمرة الأخيرة: هل العقد لديك؟

فأجابت الملكة بحزم:

- لا، وشرف أمي! لا، وحياة ولدي!

بعد هذا التصريح امتلأ الملك فرحاً، فاستدار نحو الكردينال وقال له:

- إذن، القضية بينك وبين العدالة يا سيدي. إلا إذا كنت تفضل تفويض الأمر لرأفتي.

فأجاب الكردينال:

- إن رأفة الملوك مقصورة على المذنبين يا مولاي، لذا أفضل عدالة البشر.

- ألا تريد أبداً أن تعترف؟

- ليس لديَّ ما أقوله.

فصاحت الملكة :

- لكن صمتك يا سيدي، يعرِّض بشرفي !

فلم يجب الكردينال . وتابعت الملكة تقول :

- حسناً ! أنا لن أصمت ، ولن أعتبر صمتك أريحية منك .

ثم استدارت نحو الملك وقالت :

- ليكن معلوماً لديك يا مولاي ، بأن جريمة الكردينال ليست مقصورة على شراء وسرقة العقد وحسب !

فرفع دي روهان رأسه وشحب لونه . فسأله الملك :

- ماذا تقول ؟

فهمهم الكردينال مرتعباً :

- مولاتي !...

فقالت الملكة :

- لا شيء على الإطلاق ، ولا أحد على الاطلاق ، باستطاعته أن يكمَّ فمي . فلديَّ هنا في قلبي ، أسباب تدعوني لأن أعلن براءتي في ساحة عامة .

فقال الملك :

- براءتك يا سيدتي !.. يا للعجب ! أي مخلوق يجسر على إجبار جلالتك بأن تفوه بهذه الكلمة ؟!

وقال الكردينال :

- أتوسل إليك يا مولاتي ...

- آه ! لقد ابتدأت ترتعش . إذن ، لقد حزرت تماماً أن مؤامرتك تعشق الظلام . أما أنا ، فلا أعشق إلا وضح النهار ! مولاي ، مرْ إذا شئت الكردينال ، بأن يقول لك ما قاله لي الساعة ، هنا في هذا المكان .

فقال دي روهان :

- مولاتي ! مولاتي ! احذري ، فقد تجاوزت الحدود .

فقال الملك بصوت مرتفع :

- ماذا قلت ؟! أيجسر غير الملك بأن يقول هذا القول للملكة ؟

وقالت ماري انطوانيت :

- عفوك يا مولاي . فحضرة الكردينال قد قال هذا القول للملكة ، لأنه يزعم بأن له عليَّ الحق في ذلك .

فدمدم الملك وقد غدا أدكن اللون :

- أنت يا سيدي !

وصاحت الملكة باحتقار :

- نعم ، هو ! هو !

فخطا الملك خطوة نحو الأمير دي روهان ، وسأله :

- ألدى الكردينال براهين ؟

فقالت الملكة :

– لدى السيد دي روهان رسائل، على ما يقول!

فصاح الملك وقد عصف به الغضب:

– رسائل!... رسائل!

فقالت الملكة بحدة:

– نعم، رسائل يا مولاي، رسائل!

فمسح الكردينال بيده جبهته المبللة بالعرق البارد، وبدا كأنه يسأل الله كيف استطاع أن يكون في مخلوق، هكذا جرأة وهكذا فكر. وبقي صامتاً!

وتابعت الملكة تقول:

– وليس هذا كل ما تجود به أريحية الكردينال، فسيادته قد حصلت ايضاً على مواعيد...

فقال الملك:

– بحق الرحمة يا مولاتي!

وقال الكردينال:

– بحق الحشمة يا مولاتي!

واستأنفت الملكة كلامها:

– اخيراً، إن كانت لديك إثباتات على رسائلك ومواعيدك، تفضَّل وقدّمها يا حضرة الكردينال.

فرفع دي روهان رأسه ببطء، وقال:

– لا يا مولاتي، ليست لدي إثباتات.

– إذن ، باستطاعتك أن تقدم شاهدك على كل هذه الامور . فسمِّ هذا الشاهد ، أو بالأحرى سمِّها ...

فقال الملك : من هي ؟

– السيدة دي لاموت !

فقال الملك بلهجة المنتصر ، بعد أن وجد تبريراً لأحكامه المسبقة على جانّ :

– إذن ، السيدة دي لاموت ... حسناً ، علينا أن نستدعي هذه المرأة ، أين هي الآن ؟

– إسأل الكردينال عنها . فقد اختفت ، وليس لسواه مصلحة في اختفائها .

فأجاب الكردينال :

– ليسأل سواي عنها . فسواي له مصلحة أكثر مني باختفائها ، خاصة اذا كان لاختفائها صلة باختفاء العقد ، الذي أنا منه براء .

فقالت الملكة بغضب :

– طالما أنك بريء ، ساعدنا إذن على اكتشاف المذنبين .

فألقى الكردينال دي روهان نظرة أخيرة على الملكة ، وأدار ظهره وشبك ذراعيه دون أن يجاوب . فقال الملك المهان :

– سوف تذهب إلى الباستيل أيها الكردينال !

فانحنى الكردينال وقال بلهجة الواثق من نفسه :

- هكذا، بثيابي الحبرية؟ وأمام أهل البلاط كافة؟ تفضل وفكر بالأمر يا مولاي، فهو في غاية الخطورة، وفضيحة ما بعدها فضيحة!

فقال الملك باهتياج شديد:

- هكذا أنا أريد.

- إن التنكيل بحبر دون اتهام ولا محاكمة، هو تنكيل غير عادل ولا شرعي.

فأجاب الملك وهو يفتح باب الغرفة ليبحث بعينيه عن واحد ينفذ أمره:

- إن إرادتي يجب أن تنفذ كيفما كانت.

وكان السيد دي بريتاي حاضراً ناظراً، وقد تأكد من هلاك عدوه، بعد ان لاحظت عيناه المفترستان الاثارة والاهتياج على وجهي الملك والملكة، وموقف الكردينال الحرج.

فما أن أبلغه الملك رغبته بصوت منخفض، حتى ضرب عرض الحائط بصلاحيات قائد الحرس، وصاح بصوت ترددت أصداؤه في عمق الأروقة:

«أوقفوا الكردينال!»

فاختلج دي روهان وارتعد. والهمهمات التي سمعها هنا

وهناك، وتحريض الممالقين، والوصول المفاجئ للحرس، أضفى على المشهد طابع النذير المشؤوم.

ومرَّ الكردينال امام الملكة دون أن يحييها، مما جعل الدم يغلي في عروق ماري انطوانيت المتعجرفة. لكنه انحنى بخضوع كلي عندما مرَّ أمام الملك. أما عندما اقترب من السيد دي بريتاي، فقد عبَّر بمهارة عن إشفاقه عليه، مما جعل البارون يشعر بأن هذا الانتقام لم يشفِ غليله.

وتقدم أحد ضباط الحرس وسأل الكردينال بخجل، عما إذا كان هو المعنيّ بالأمر الذي سمعه، فأجابه دي روهان:

«نعم يا سيدي، نعم، أنا هو الموقوف.»

وقال الملك وسط ذلك الصمت الرهيب:

«خذوا الكردينال الى شقته، بانتظار ما سأقرره خلال القداس».

وبعد ان ابتعد الكردينال في الرواق، يتقدمه ضابط الحرس الملكي، ممسكاً بيده قبعته، وبقي الملك وحده في غرفة الملكة المشرعة الأبواب، قال لها وهو يلهث:

– سيدتي، بما أنه اتُّهم بصعوبة قصوى، فأنت تعلمين أن ذلك سيؤول الى محاكمة علنية، أي إلى فضيحة سيسقط معها شرف المذنبين...

فصاحت الملكة وهي تضغط باندفاق عاطفي على يدي الملك :

- شكراً يا مولاي ! فقد اخترت الوسيلة الوحيدة التي باستطاعتها أن تبرئني .

- أتشكرينني ؟

- من كل قلبي . وثق بأنك تصرفت كملك ، وأنا أيضاً تصرفت كملكة !

فأجاب الملك وقد غمره الفرح :

- حسناً . وكلي أمل ، بأننا عندما نقيم الدليل على كل هذه الدناءات ، وعندما نسحق مرة واحدة رأس الحية ، سوف نعيش مطمئنين ناعمي البال .

ثم قبّل الملكة في جبهتها ، وعاد إلى جناحه .

في هذه الاثناء ، التقى الكردينال دي روهان ، في آخر الرواق ، الصائغين بوهمير وبوسانج ، وكان الواحد منهما بين ذراعي الآخر ، وكلاهما في نصف إغماءة !

وبعد ان اجتازهما بعدة خطوات ، لمح ساعيه الخاص الذي أخذ يتطلع إلى سيده مشدوهاً من هول المصيبة . فقال الكردينال إلى الضابط الذي كان يقتاده :

- إذا ما قضيت النهار بكامله هنا يا سيدي ، فإن أتباعي

سيساورهم القلق عليَّ. فهل باستطاعتي أن أعلمهم بأني موقوف؟

فقال الضابط الشاب:

– لك ما تريد يا مولاي، شرط أن لا يراك أحد.

فشكره الكردينال، ووجه الكلام إلى ساعيه بالالمانية. ثم كتب عدة كلمات على إحدى صفحات الكتاب المقدس ونزعها. ووراء الضابط الذي كان يقف وقفة المراقب، دعكها حتى أصبحت كروية الشكل، ثم ألقى بها أرضاً، بعد أن تبادل النظرات مع ساعيه، وقال للضابط:

– أنا رهن إشارتك يا سيدي.

وانقضَّ ساعي الكردينال على تلك الورقة كما ينقضّ العقاب على فريسته، فالتقطها وخرج من القصر، فامتطى جواده وانطلق كالسهم باتجاه باريس.

واستطاع الكردينال أن يراه منطلقاً من خلال أحدى نوافذ الدرج الذي كان يهبطه برفقة دليله، فدمدم قائلاً:

«سأنقذها، رغم أنها شاءت هلاكي! وما ذلك إلا من أجلك يا مليكي. ومن أجلك يا إلهي، أنت الذي أمرت بالعفو عن المسيئين، سوف أغفر للآخرين... فاغفر لي!»

المحاضر الرسمية

★

ما أن دخل الملك مسروراً الى جناحه وباشر بكتابة الأمر القاضي بسوق الكردينال الى الباستيل، حتى ظهر شقيقه الكونت دي بروفانس ودخل الغرفة فوراً وهو يشير إشارات ظنها السيد دي بريتاي موجهة إليه، لكنه لم يستطع فهمها رغم إرادته الحسنة.

إلا ان هذه الاشارات لم تكن في الواقع موجهة الى وزير العدل، بل كان الكونت يقصد من ورائها لفت انتباه الملك، الذي كان يتطلع في مرآة أمامه كلما كتب كلمة من أمره.

ولم يفقد هذا التصنع هدفه. فالملك قد لمح هذه الاشارات، وقال لشقيقه بعد أن صرف دي بريتاي.

– لماذا كنت تشير إلى بريتاي؟

– أوه! مولاي...

– هذه الحيوية في الحركات، ومظهرك الذي يدل على انشغال بالك، ألا يعنيان شيئاً؟

– بدون شك، ولكن...

فقال الملك بهيئة عابسة:

– لك الخيار بأن تتكلم أو لا يا أخي .

– مولاي ، لقد عرفت لتوي بتوقيف الكردينال دي روهان .

– وأين العجب في الخبر حتى بدا عليك هذا الانفعال ؟ ألا يبدو لك السيد دي روهان مذنباً ؟ وهل يرتكب الملك خطيئة إن هو عاقب قادراً ذا نفوذ ؟

– خطيئة ؟ لا يا أخي ، لم ترتكب خطيئة ، ولا هذا ما أريد قوله .

– إن ما يدهشني ، هو أن أخي ، الكونت دي بروفانس ، يساند ضدَّ الملكة ، الشخص الذي سعى لتشويه سمعتها ! لقد قابلت الآن الملكة يا أخي ، وكلمة واحدة منها كفت ووفت ...

– معاذ الله يا اخي أن اتهم الملكة . فجلالتها ... أختي ، ليس لها من صديق أخلص مني . وكم من مرة دافعت عنها ، حتى ضدك أنت !

– ولكنك في الواقع ، كثيراً ما غمزت من قناتها ...

– يؤسفني يا مولاي ، أن يحمل كلامي على غير محمله . فالملكة ذاتها ، لا تصدق بأنه قد بدا مني أي شك في براءتها .

– أذن ، أنت تشاركني السرور على ما ألحقته من إذلال واحتقار بالكردينال ، وعلى إحالته على المحاكمة التي ستضع

حداً لكل التهم التي يجرؤون على إلصاقها بالملكة المنزهة عن كل عيب، ولا يجرؤون على إلصاقها بامرأة عادية في البلاط؟

- نعم يا مولاي، إني أوافق كل الموافقة على تصرف جلالتك، فيما يتعلق بجلاء قضية العقد.

- الأمر في غاية الوضوح يا أخي. فالكردينال الذي يتباهى بصداقته للملكة ودالته عليها، قد أبرم باسمها صفقة العقد الماسي الذي رفضته هي، وادعى بأن الماسات موجودة في حوزة الملكة، فمن يدري إن لم يكن دي روهان شريكاً متواطئاً في سرقة هذا العقد الثمين؟

- مولاي ...

- ثم، لا يخفاك يا أخي، بأن النميمة لا تتوقف إطلاقاً في منتصف الطريق، وأن خفة السيد دي روهان، قد تعرّض شرف الملكة وسمعتها للخطر!

- نعم يا أخي، نعم. ففيما يختص بقضية العقد بالذات، أكرر القول بأنك على حق.

فقال الملك مندهشاً:

- هل هناك من قضية أخرى؟

- ولكن يا مولاي ... لا شك أن الملكة قد قالت لك ...

- قالت لي ... ماذا؟

– مولاي ...

– آه ! ادعاءات السيد دي روهان وتكتمه ، ومراسلاته المزعومة ؟

– لا يا مولاي ، لا .

– ماذا إذن ؟ المقابلات التي منحتها الملكة للسيد دي روهان بخصوص قضية العقد التي نحن بصددها ؟

– لا يا مولاي ، ليس ذلك .

فاستأنف الملك يقول :

– على كلٍ ، إن لي ثقة مطلقة بالملكة ، وهذه الثقة قد استحقتها بنبل أخلاقها . إذ كان من السهل على جلالتها ان لا تقول كل ما جرى . وكان من السهل عليها أن تدفع ، أو أن تدع الآخرين يدفعون . فالملكة بوضعها حداً سريعاً لهذه الألغاز التي كادت تصبح فضائح ، أثبتت بالبرهان أنها تصارحني بالحقيقة قبل أي شخص آخر ، وانها اعتبرتني عرافاً وقاضياً ، فأفضت لي بكل شيء ، وبات عليَّ ان أنتقم لشرفها .

فأجاب الكونت دي بروفانس ، وقد شدَّد من عزيمته:

– مع هذا يا مولاي، أعتقد ان الملكة لم تطلعك إلا على جانب من الحقيقة ، وانا أفضل ان تطلع جلالتك على كل جوانبها كي تأتي براءة الملكة كاملة . من جهتي أنا ، أخشى

إن تكلمت ، ان أعتبر عدواً أو واشياً ، أو أن يساء الظن في محبتي واحترامي للملكة ، أختي !

فقال الملك منزعجاً :

– ذلك لأنك ... تبدأ دائماً حديثك بالتلميح لا بالتصريح ، فتجعلني لا أفهم عليك شيئاً ! فالاحتراس في المخاطبة ، عندما يكون الامر خطيراً ، هو اسلوب تعلمته من الخطيب الروماني الشهير ، شيشرون .

– لكن شيشرون لم يكن أبداً مبهماً ، إلا في دفاعه عن القضايا السيئة . فبحق السماء يا أخي ، كن واضحاً وقل لي : ما الذي تعلمه زيادة عما قالته لي الملكة ؟

– لنحدد بدقة أولاً ، ما قالته لك الملكة يا مولاي .

– الملكة قالت لي ، بأن العقد ليس لديها .

– حسناً !

– وقالت لي بأنها لم توقع على الايصال الموجود لدى الصائغين .

– حسناً !

– وقالت لي بأن كل ما قيل عن تنسيق بينها وبين السيد دي روهان ، هو محض كذب واختلاق من قبل أعدائها .

– حسناً جداً !

– وقالت لي أخيراً، بأنها لم تفسح في المجال للسيد دي روهان، في أي يوم من الأيام، لأن يعتبر نفسه اكثر من واحد من رعاياها الذين لا أهمية لهم.

– آه!... لقد قالت هذا القول؟

– وبلهجة لا تقبل أية مناقشة، لأن الكردينال لم يناقش.

– إذن يا مولاي، بما أن الكردينال لم يناقش أبداً، فهو يعترف بأنه كذاب. وبهذا الانكار، يعطي الحق للاشاعات الأخرى الجارية، عن بعض الافضليات التي منحتها الملكة إلى بعض الأشخاص.

فقال الملك بهمة فاترة:

– إيه! وماذا بعد؟

– شيء غير معقول إطلاقاً، كما سترى. ففي الوقت الذي ثبت فيه أن الكردينال دي روهان لم يقم بنزهة مع الملكة...

فصاح الملك:

– كيف!.. يقولون بأن السيد دي روهان قد قام بنزهة مع الملكة؟

– هذه النزهة كذَّبتها الملكة بذاتها يا مولاي، وأنكرها السيد دي روهان. لكن خبث الناس استمرَّ يا مولاي، إذ

أخذوا يتساءلون : كيف حدث أن قامت الملكة بنزهة ليلية في حدائق «البارك» ؟!

– نزهة ليلية في حدائق «البارك» ! الملكة !..

فأكمل الكونت دي بروفانس ببرودة :

– ومع من كانت تتنزه ...

فدمدم الملك : مع من؟

– لا شك أن بعض الأعين لا تخفاها شاردة أو واردة مما تقوم به الملكة ، وأن هذه الأعين ، هي أحدُّ بصراً في الليل ، منها في النهار ، خصوصاً إذا كانت الملكة هي محطُّ هذا البصر ...

– حذار يا أخي ، فأنت تقول أشياء خطيرة !

– ومع ذلك ، سأستمر أقول ، ولو أثرت نقمة جلالتك ، لأن الحقيقة يجب أن تقال .

– أيعقل يا سيدي ، ان تكون الملكة قد قامت بنزهة ليلية في حدائق «البارك» ، وبصحبة ...

– ليس بصحبة يا مولاي ، بل وجهاً لوجه ... أوه ! لو أن الناس لا يقولون الا «بصحبة» ، لهان الأمر ...

فانفجر الملك صارخاً :

– عليك أن تثبت ما تقوله . أن تثبت ما يقوله الناس .

فأجاب الكونت دي بروفانس :

- أوه ! الأمر في غاية البساطة . فهناك أربعة شهود .

- من هم ؟

- الاول ، هو رئيس حاشيتي للصيد ، الذي رأى الملكة في يومين متتاليين ، أو بالأحرى في ليلتين متتاليتين ، تخرج من بوابة «اللوفيتري» في «بارك» فرساي . وهذا هو المستند ، تفضل واقرأه ، إنه يحمل توقيعه .

فتناول الملك الورقة بيد مرتعشة وقرأها ، ثم أعادها إلى أخيه الذي أكمل يقول :

- وهناك شخص أكثر فضولاً منه ، هو أحد الحراس الليليين الذين يقومون بحراسة قصر التريانون . فقد صرح هذا الحارس ، بأنه سمع في إحدى الليالي ، وفيما كان كل شيء ساكناً ، طلقاً نارياً في غابة ساتوري ، ثم شاهد فيما بعد الملكة تتنزه مع نبيل في الحدائق الملكية ، وأنها قد أعطته ذراعها . وهذا هو محضر ذلك الحارس ، وهو محضر واضح وجليّ .

فقرأ الملك أيضاً وارتعش ، ثم تراخت يداه على جانبيه . وأكمل شقيقه يقول برباطة جأش :

- أما الثالث ، فهو حاجب البوابة الشرقية . فهذا الحاجب قد رأى الملكة وعرفها ، في اللحظة التي كانت تخرج فيها من بوابة «اللوفيتري» ، وهو يذكر في محضره ما كانت تلبسه الملكة . انظر يا مولاي . ويذكر ايضاً بأنه لم يتمكن ، نظراً

للبعد ، من معرفة النبيل الذي بارحته الملكة ، لكنه عرف من هيئته أنه ضابط . وأن الملكة لم تكن موضع شك وارتياب ، لأن جلالتها كانت مصحوبة بالسيدة دي لاموت ، صديقة الملكة .

فصاح الملك غاضباً :

- صديقة الملكة !... هذه المرأة ، صديقة الملكة !

- لا تنوِ الشر لهذه الخادمة الشريفة يا مولاي ، إذ لا يجوز أن تعتبرها مذنبة بسبب غيرتها الزائدة . فقد كُلفت بالحراسة ، فحرست . وكلفت بالمراقبة ، فراقبت .

وأكمل الكونت دي بروفانس تعداد الشهود ، فقال :

- وآخر الشهود يا مولاي ، بدا لي أكثرهم صراحة . إنه رئيس القفالين ، المكلف بالتثبت عما إذا كانت كل البوابات مقفلة ، بعد انصراف الكل . فهذا الرجل الذي تعرفه جلالتك ، يشهد بأنه رأى الملكة تدخل الى حمامات أبولون ، بصحبة أحد النبلاء ...

فاصفرَّ الملك وكاد يختنق من شدة غيظه . واختطف الورقة التي كانت بين يدي الكونت ، وأخذ يقرأها .

وخلال هذه القراءة ، أكمل الكونت دي بروفانس يقول :

- صحيح أن السيدة دي لاموت كانت في الخارج ، على

بعد عشرين خطوة ، وان الملكة لم تمكث في قاعة الحمامات المذكورة سوى ما يقارب الساعة ...

فصاح الملك :

– ولكن ، ما هو اسم هذا النبيل ؟

– اسم هذا النبيل يا مولاي ، غير مذكور في التقرير . ومن أجل معرفته ، ينبغي على الملكة ان تطالع هذه الشهادة الأخيرة ، وهي من احد حراس الغابات الذي كان يكمن في المكمن الواقع وراء حائط السور ، بالقرب من حمامات أبولون .

فقال الملك بعد أن ألقى نظرة عليها :

– إنها بتاريخ البارحة .

– نعم يا مولاي . وقد رأى هذا الحارس الملكة فيما كانت تخرج من «البارك» بواسطة البوابة الصغيرة ، وهي متأبطة ذراع السيد دي شارني !

فصاح الملك كالمجنون من فرط غضبه وخجله :

– السيد دي شارني ... حسناً ... حسناً ... انتظرني هنا ايها الكونت ، فسوف نعرف الحقيقة أخيراً .

وانطلق الملك خارج غرفته .

إتهام أخير

★

في اللحظة التي ترك فيها الملك غرفة الملكة، أسرعت ماري انطوانيت إلى البهو الصغير حيث كان السيد دي شارني مختبئاً، وقد استطاع أن يسمع كل شيء، ففتحت له الباب، وعادت فأغلقت بنفسها باب غرفتها، ثم ارتمت على مقعد وثير وكأنها قد وهنت ولم يعد باستطاعتها مقاومة هكذا صدمات، وانتظرت بصمت ما سوف يقرره بشأنها قاضيها الرهيب، السيد دي شارني.

لكنها لم تنتظر طويلاً. فقد خرج الكونت من البهو الصغير وولج باب غرفتها، وهو أشد اصفراراً وأكثر حزناً مما كان عليه، فقالت له:

– وبعد؟

فأجاب شارني:

– مولاتي، أنت ترين بأن الكل يعترضون على ان نكون صديقين. واذا لم يكن اعتقادي الراسخ هو الذي يجرحك، فسوف تجرحك، من الآن فصاعداً، الضجة الشعبية. ومع الفضيحة التي حدثت اليوم، يلزمني مزيداً من الراحة، كما

يلزمك مزيداً من المهادنة . فالاعداء ، وقد ازدادوا ضراوة بعد هذا الجرح الذي أصابك ، سوف ينقضون عليك لامتصاص الدم ، كما تنقض الذئاب على الغزال المجروح ...

فقالت الملكة بحزن :

- إنك منذ زمن طويل ، تبحث عن الكلام الذي لا تصنّع فيه ، فلا تجده .

- أعتقد بأني لم أتح الفرصة إطلاقاً لجلالتك ، كي تريها صراحتي ، واذا كانت هذه الصراحة ، قد تفجرت بكثير من القساوة بعض المرات ، فإني أستمحيك عذراً .

فقالت الملكة بتأثر بالغ :

- اذن ، لم تكفك هذه الضجة ، وهذا الاعتداء المحفوف بالمخاطر على واحد من أكبر أسياد هذه المملكة ، وعداوتي المعلنة مع الكنيسة ، وسمعتي التي باتت عرضة لأهواء أعضاء البرلمان !.. ولن أحدثك عن ثقة الملك التي تزعزعت ، فقد لا يكون الأمر يهمك ، أليس كذلك ، إذ من يكون الملك ... سوى زوجي !

قالت هذا وابتسمت بمرارة وألم ، انفجرت معها الدموع من عينيها ، فصاح شارني قائلاً :

- أوه ! إنك أنبل واكرم امرأة على الاطلاق . وإذا كنت لا أجيبك في الحال ، كما يدعوني قلبي ، فلأني أشعر بأني أقل

الناس ، ولأني لا أجرؤ على تدنيس قلبك السامي بطلبي مكاناً فيه .

– مسيو دي شارني ، هل تعتبرني مذنبة ؟

– مولاتي !...

– مسيو دي شارني ، هل وثقت بكلام الكردينال ؟

– مولاتي !...

– مسيو دي شارني ، إني أدعوك لأن تقول لي : أي انطباع أوحاه لك موقف السيد دي روهان ؟

– يتوجب علي أن أقول يا مولاتي ، بأن السيد دي روهان لم يكن أحمق فاستوجب تأنيبك ، ولا ضعيفاً كما يعتقد البعض . بل هو رجل واثق من نفسه ، رجل كان يحبك ولم يزل ، وهو الآن ضحية ضلال سوف يؤدي به ، هو إلى الهلاك ، وأنت ...

– أنا ؟

– نعم أنت يا مولاتي ، إلى عارٍ محتوم .

– يا إلهي !

– إن شبحاً مهدداً ينتصب أمامي ، هو شبح تلك المرأة المقيتة ، السيدة دي لاموت ، التي اختفت عندما أصبح باستطاعة شهادتها أن تريحنا وتجعلنا في أمان ومطمئنين الى المستقبل . هذه المرأة هي القدوة السيئة لشخصك . إنها بلية

المملكة . إنها المرأة التي ارتضيت بتهور أن تقاسميها أسرارك . وربما ، واسفاه ! صداقتك الحميمة !..

فصاحت الملكة :

- أسراري وصداقتي الحميمة !.. أرجوك يا سيدي .

- إن الكردينال يا مولاتي ، قد قال بوضوح كافٍ ، وأثبت بوضوح كافٍ ، أنك بالاشتراك معه ، قد دبرت شراء العقد .

فاحمرت الملكة وقالت :

- آه !.. لقد عدت الى هذه القصة يا سيد دي شارني !

- عفواً يا مولاتي ، ثم عفواً . فأنا لا أملك قلباً نبيلاً كقلبك ، كما أني لست أهلاً لأن أعرف أفكارك . وقد سعيت كي ألطِّف من لهجتي ، فلم أفلح .

فقالت الملكة ، وقد استعادت غطرستها المشوبة بالغضب :

- باستطاعة الناس أن يصدقوا كل ما يصدقه الملك . وأنا لن أكون اكثر سهولة مع أصدقائي ، مما أنا مع زوجي . ويبدو لي ، أن الرجل لا يمكنه امتلاك امرأة ، إن لم يكن يكنُّ لهذه المرأة كل احترام وتقدير .

ثم استدركت تقول بحدة :

- أنا لا أقصدك بكلامي هذا يا سيدي ، فأنا لست امرأة ، بل ملكة . وأنت لست رجلاً ، بل قاضٍ يقاضيني .

فانحنى شارني حتى كاد يلامس الأرض ، مما جعل الملكة

تكتفي بهذا القدر من الاذلال لذلك التابع الامين، ثم قالت له فجأة :

- كنت قد نصحتك بالبقاء في أراضيك، ولخيرك قدمت هذه النصيحة، لأنك بعيداً عن البلاط، باستطاعتك ان تقدر بشكل أفضل، الاشخاص الذين يلعبون دورهم على هذا المسرح. بالاضافة الى أنه يجب مراعاة الهيبة الملكية ومظهر الابهة والعظمة لها أمام الجمهور. فأنا كوني ملكة سريعة التنازل، قد أهملت المحافظة على هيبة الملكة البراقة لدى الذين يحبونني. عدا أن الواحدة عندما تكون ملكة يا سيدي، اي صاحبة السلطان والسيادة، ما الجدوى من أن تُحب؟

فأجاب شارني وهو يرتعش بشدة :

- لا أستطيع أن أقول لك، كم عانيت من قسوتك يا مولاتي. فقد استطعت أن أنسى بأنك مليكتي، ولكن اسمحي لي بأن أقول، بأني لم أستطع أن أنسى اطلاقاً، بأنك المرأة الوحيدة بين النساء، التي استحقت احترامي، و...

فقاطعته الملكة قائلة :

- لا تكمل، فأنا لا أستجدي إطلاقاً. وأكرر قولي بأن غيابك ضروري، لأني أسمع هاتفاً يَنبئني، بأنك إن لم تذهب الى أراضيك، ستكون العاقبة وخيمة عليك.

- مولاتي، هذا مستحيل!

– قبل ان تقول مستحيل، فكِّر بقدرة أولئك الذين منذ ستة أشهر، يتلاعبون بسمعتي، فهم من القوة بمكان ايها الكونت، بحيث يسهل عليهم إقامة الدليل على أنك تابع غادر بالنسبة للملك، وصديق مخجل بالنسبة لي. فبربك لا تضع الوقت، بل انسحب فوراً إلى أراضيك، واهرب من الفضيحة التي ستنتج عن المحاكمة التي ستنالني، فأنا لا أريد أن أربط مصيرك بمصيري. لا أريد أن أغيِّر مجرى حياتك. فيما يتعلق بي، إني بريئة وقوية، ولا يوجد أية لطخة عار في حياتي، لذا قررت أن أصمد، وأن أفتح صدري إلى أعْدائي، إذا اقتضى الأمر، كي أظهر لهم طهارة قلبي. أما أنت، فلا ينتظرك سوى الهلاك، وربما السجن أيضاً...

فعدْ بهذا المال الذي قدمته لي بنبل، عدْ به وكن على ثقة، بأنه لم تفتني أية حركة صدرت عن نفسك الأبية، وأنه لم يجرحني أي شك تسرب الى فؤادك، وأنه قد هزني كل ألم تألمته.

إذهب، إني أقول لك، وابحث في غير هذا المكان، عما لم تستطع ملكة فرنسا أن تمنحك إياه: الوفاء، والأمل، والسعادة. فإلى أن تعلم باريس بتوقيف الكردينال، وإلى أن يلتئم البرلمان، وإلى أن يدلي الشهود بشهاداتهم، هناك خمسة عشر يوماً كما أعتقد. إذهب! إن خالك يمتلك

سفينتين جاهزتين في شيربورغ ونانت، فاختر واحدة منهما، وابتعد عني... ابتعد عني، لأني سبب شقائك سأكون! أما أنا، فلم أكن أحرص إلا على شيء واحد في هذه الدنيا، وبما أن هذا الشيء قد فقدته، فإني أشعر بالضياع...

تلفظت الملكة بهذه الكلمات ونهضت فجأة، وبدت كأنها تشير الى شارني بأن المقابلة قد انتهت. فتقدم شارني منها، وأجابها باحترام فائق وبلهجة مؤثرة:

- إن جلالتك تملي علي واجبي. ولكن واجبي ليس في أراضيَّ، ولا خارج باريس، بل في باريس بالذات حيث يكمن الخطر، وفي فرساي بنوع خاص حيث سيحاكمونك. فينبغي ان يزول كل شك يا مولاتي، وان يبرر كل توقيف. وبما أنك لن تتمكني من الحصول على شاهد أخلص مني، وعلى سند أشد عزيمة مني، فسوف أبقى في باريس ولن أبرحها.

إن الذين يعلمون أشياء كثيرة، سيقولونها يا مولاتي. لكننا على الأقل، سنشعر بالسعادة التي لا يقدرها إلا أصحاب القلوب الكبيرة، إذا ما قابلنا أعداءنا سوية، ووجهاً لوجه. وسندع هؤلاء الناس يرتعدون امام جلالة ملكة بريئة، وامام شجاعة رجل هو أفضل منهم. نعم، سوف أبقى يا مولاتي، وثقي جيداً بأن جلالتكِ ليست بحاجة إلى أن تخفي عني

افكارها اكثر مما أخفتها. فالناس كلهم يعرفون بأني لا أهرب، وجلالتك تعلم جيداً بأني لا أخاف، كما أنها تعلم جيداً، بأنها ليست بحاجة الى نفيي كي لا تراني إطلاقاً. ثم إن خفقات القلوب تُسمع من البعيد يا مولاتي، والتنهدات من البعيد أشد اضطراماً! تريدينني أن أرحل من أجلك، لا من أجلي. فلا تخافي، سوف أكون عوناً لك. سوف أدافع عنك، ولن أسيء إليك أو أساعد على هلاكك. فأنت لم تشاهديني طيلة ثمانية أيام أقمت خلالها على مسافة مئة قامة منك، أرقب كل حركة من حركاتك، وأعدّ كل خطوة من خطواتك، وأعيش معك لحظة فلحظة. وثقي بأني هكذا سأفعل أيضاً هذه المرة، لأني لا أستطيع أن أنفذ رغبتك بالرحيل!

فقالت الملكة بعد أن قامت بحركة أبعدتها قليلاً عن شارني:

– إفعل ما يحلو لك. لكن... أعتقد بأنك فهمتني، إذ يجب أن لا تنخدع أبداً بكلامي. فأنا لست مغناجة يا سيد دي شارني، بل إني أقول ما أفكر به، وأفكر بما أقوله، وهذه هي مزيَّة الملكة الحقيقية. فذات يوم يا سيدي، قد اخترتك من بين الجميع، ولا أعلم ما الجاذب الذي جذب قلبي اليك. كنت متعطشة إلى صداقة قوية طاهرة، فكشفت لك عن

مكنونات صدري، أليس كذلك؟ أما اليوم، فقد اختلف الأمر، إذ لم أعدْ أفكر بما كنت أفكر به، وروحك لم تعد شقيقة لروحي. إني أصارحك القول: يجب أن يراعي واحدنا الآخر.

فقاطعها شارني قائلاً:

- حسناً يا مولاتي. فأنا لم أصدق إطلاقاً بأنك كنت قد اخترتني. لم أصدق إطلاقاً... آهِ مولاتي! لا أحتمل فكرة فقدانك. إني نشوان من الغيرة والخوف يا مولاتي. مولاتي، لن أتحمل انتزاع قلبك مني. فهو لي، لقد منحتني إياه، وليس باستطاعة أحد أن يأخذه مني إلا مع حياتي... فكوني امرأة، كوني عطوفة ولا تستغلي ضعفي، وبما أنك منذ قليل عبت علي ظنوني، فلا تسحقيني هذه اللحظة بظنونك.

فقالت ماري انطوانيت:

- إن قلب المرأة كقلب الطفل. تريدني أن أعتمد عليك!.. يا لنا من مدافعين جميلين عن بعضنا البعض! ضعيف! نعم، أنت ضعيف. وأنا، واأسفاه! لست أقوى منك!

فدمدم شارني قائلاً:

- سوف أكفُّ عن حبك، إذا ما صرت امرأة أخرى!

فقالت الملكة بنبرة مفعمة بالعاطفة:

– ماذا أسمع !.. هذه الملكة الملعونة ، هذه الملكة الهالكة ، هذه المرأة التي سيقاضيها البرلمان ، وسيحكم عليها الرأي العام ، وربما طردها زوجها ومليكها... هذه المرأة تجد قلباً يحبها !

– إنه قلب خادم يجلّها وعلى استعداد لأن يقدم لها كل دم قلبه ، مقابل دمعة تذرفها الآن عيناها !

فصاحت الملكة :

«هذه المرأة هي مباركة ، هي فخورة ، هي الاولى بين النساء ، وأكثرهن سعادة !

«هذه المرأة سعيدة جداً يا مسيو دي شارني ، ولا أدري كيف سمحت لنفسها بأن تتشكى ، فاغفر لها !»

فخرَّ شارني جاثياً على قدمي ماري انطوانيت ، وأخذ يقبلهما بحب المتعبد...

وفي هذه اللحظة ، فتح باب الرواق السري ، ووقف الملك مرتعشاً وكالمصعوق على عتبته...

لقد فوجئ بالرجل الذي اشتكاه له الكونت دي بروفانس ، راكعاً أمام قدمي ماري انطوانيت !!

طلب الزواج

★

أمام هذه المفاجأة غير المنتظرة، تبادلت الملكة وشارني النظرات برعب، لو وقف عليها في تلك اللحظة اشد الاعداء لهما لأشفق عليهما. ثم نهض شارني بتمهل وحيًا الملك باحترام فائق.

فقال لويس السادس عشر بصوت بهيم، فيما كانت خفقات قلبه الشديدة تلاحظ بأم العين من فوق صدرته المصنوعة من الدنتيلا:

«مسيو دي شارني !..»

فكان جواب دي شارني الوحيد، أن جدد التحية للملك. أما الملكة، فقد انعقل لسانها وطاش رأسها...

وأكمل الملك يقول، وقد تعاظم غيظه:

- ليس من الشرف بشيء يا سيد دي شارني، أن يضبط نبيل مثلك متلبساً بجريمة السرقة!

فدمدم شارني:

- السرقة!

وتابع الملك يقول:

– نعم ، السرقة ! فمن يركع أمام امرأة ليست زوجته ، يعد ذلك سرقة . وعندما تكون هذه المرأة ملكة ، تكون هذه الجريمة قدحاً في الذات الملكية. وسأجعلك تعترف بذلك يا سيد دي شارني، بواسطة وزير عدلي .

فشاء الكونت دي شارني أن يتكلم كي يؤكد براءته . إلا أن مروءة الملكة ، أبت عليها أن ترى الرجل الذي تحبه يتهم بالدناءة ، فهبت إلى نجدته وقالت بحدة :

«مولاي ، أنت كما يتراءى لي ، تسلك طريق الشكوك الخاطئة والافتراضات غير المحققة . إني ألفت انتباهك إلى أن هذه الشكوك والظنون ليست في محلها . وان كان الاحترام الذي يكنه للك الكونت قد عقل لسانه ، فأنا التي أعرف أعماق قلبه ، لن أدعه عرضة للاتهام من دون دفاع .

وتوقفت بعد هذا الكلام الذي استنفد تأثرها ، مرتعبة من الاكذوبة التي كانت تبحث عنها مرغمة ، وقد اضطربت أخيراً لأنها لم تجدها .

لكن هذا التوقف الذي بدا لها مقيتاً ، وهي الملكة الأبية النفس ، وفَّر لها السلامة كامرأة بسهولة كلية . ففي الاتفاقات الكريهة كهذا الاتفاق ، التي كثيراً ما تستخف بشرف وبحياة المرأة التي تفاجأ ، كشب دقيقة واحدة تكفي لإنقاذها ، كما أن ضياع ثانية واحدة تكفي لضياعها .

فالملكة بدافع الغريزة دون سواها، انتهزت فرصة التوقف هذه، كي تفكر في وسيلة تنقذها من هذا المأزق الحرج، وكي تستلهم من شيطان حواء أكذوبة تنطلي على زوجها الملك، وتحد قليلاً من شكوكه، إن لم تقضِ عليها نهائياً.

وفيما هي تفكر، أجابها الملك كزوج، متخلياً عن دوره كملك قلق:

- تريدين القول بأني لم أرَ السيد دي شارني، هنا، راكعاً امام قدميك يا سيدتي؟ والحال أن من يركع ولا ينهض، يجب...

فقالت له الملكة بقساوة:

- يجب أن يكون تابعاً لملكة فرنسا، وقد جاء يطلب منها منّة... وهذا شيء مألوف جداً في البلاط كما أعتقد.

فصاح الملك:

- يطلب منك منّة!

فتابعت الملكة تقول:

- ومنّة حبذا لو أستطيع تحقيقها لنبيل كالسيد دي شارني، أكن له كل احترام وتقدير. أقول حبذا، لأن مطلبه مستحيل!

فتنفس شارني الصعداء، وبدت الحيرة على وجه الملك،

وأخذ غضبه يهدأ شيئاً فشيئاً، ويؤاخذ نفسه على ما بدا منه من تهديد ووعيد.

في هذه الأثناء، كانت ماري انطوانيت في أزمة ضميرية مع نفسها. فهي مضطرة لأن تكذب على زوجها الذي وقف إلى جانبها ضدّ كل أعدائها والمتآمرين عليها، وفي الوقت نفسه تريد إنقاذ الرجل الذي تحبه وإنقاذ شرفها في آن معاً.

وبعد أن ران الصمت قليلاً، انفرجت شفتا الملك عن السؤال الذي انفجر أخيراً:

«هيا وقولي يا سيدتي، ما هي هذه المنّة التي يتوسلها عبثاً السيد دي شارني، والتي حملته على أن يركع أمامك!»

وكي يلطف الملك من قساوة هذا السؤال، أضاف يقول:

«ربما كان تحقيق هذه المنّة يسعدني أكثر منك يا سيدتي، دون أن يضطر السيد دي شارني إلى الركوع أمامي.»

فقالت الملكة:

- قلت لك يا مولاي: بأن ما يطلبه السيد دي شارني، هو شيء مستحيل!

- ما هو هذا الشيء على الأقل؟

فأخذت الملكة تفكر في الشيء الذي يستدعي طلبه الركوع على قدميها، ولا تستطيع تحقيقه!.. ولحظة اهتدت إلى هذا الشيء، بادرها الملك قائلاً:

«هيا! هيا! أنا بالانتظار.»

فأجابته قائلة:

- إن ما يطلبه السيد دي شارني يا مولاي، هو سرّ عائلي!

فقال لويس السادس عشر بوقار ومهابة:

- ليس على الملك من أسرار. فهو سيد المملكة، ورب العائلة المهتم بشرف وأمن رعاياه، الذين هم بمثابة أولاده، حتى ولو أساء هؤلاء الاولاد العاقون إلى شرف وأمن والدهم!

بعد هذا التهديد الخطر والمبطن، قفزت الملكة مضطربة، وصاحت وهي ترتعش:

- إن السيد دي شارني يريد الحصول مني...

- على ماذا يا سيدتي؟

- على إذن بالزواج.

فصاح الملك في بادئ الأمر:

- أصحيح!

ثم ما لبث أن عاوده القلق الغيور، فقال من دون أن يلاحظ كم كانت زوجته المسكينة تتألم عندما تلفظت بهذه الكلمات، وكم كان شارني شاحب اللون بسبب ألم الملكة:

- وأين المستحيل في زواج السيد دي شارني؟ ألا ينتمي إلى أرومة عريقة في النبل؟ ألا يمتلك الثروة الطائلة؟ أليس

باسلاً ووسيماً؟ بلى، إنه نبيل زثريّ وباسل ووسيم، لذا لا أرى إلا سببين إثنين كي ترفضه المرأة التي يريدها: إما أنها أميرة يجري في عروقها الدم الملكي، وإما أنها متزوجة. فتفوهي يا سيدتي باسم هذه المرأة التي يريد أن يتزوجها السيد دي شارني، حتى إذا لم يكن السببان اللذان ذكرتهما متوفرين فيها، ذللت كل الصعوبات... إرضاءً لك!

فأجابت الملكة، والخطر المتزايد يجتذبها، تماماً كما كان شعورها عند أول كذبة:

– لا يا مولاي، لا. فهناك صعوبات لا تستطيع تذليلها!

فقاطعها لويس السادس عشر غاضباً:

– أصبحت الآن اكثر توقاً لمعرفة هذا الشيء المستحيل على الملك! فتفضلي وتلفظي باسم تلك المرأة!

عند ذاك تطلّع شارني إلى الملكة، فرآها تترنح وتكاد تسقط. فخطا خطوة نحوها... لكن جمود الملك أوقفه! فبأي حق يريد أن يقدم يد المساعدة إلى امرأة لا يمت إليها بصلة، فيما زوجها الملك يراها تترنح ولا يبالي؟!.

أما الملكة، فأخذت تتساءل: أية قوة قد يقف الملك عاجزاً أمامها؟ واستنجدت بربها ليعينها مرة ثانية ويهديها إلى الفكرة المنقذة.

وفجأة، ومض بريق في بالها، فدمدمت قائلة:

«آه ! إن الله نفسه قد هبّ لنجدتي . فاللواتي يخصنّ الله ، لا يستطيع أن يسقطهنّ في الشرك ، حتى الملك ذاته .»

ثم رفعت رأسها وقالت للملك :

- إن المرأة التي يريد أن يتزوجها شارني يا سيدي ، موجودة في الدير ...

فصاح الملك :

- آه ! إنك على حق . فالواقع أنه من الصعوبة بمكان ان ننزع من الله ما يخصه لنعطيه للناس . لكن هذا الحب الغريب ، قد فاجأني به السيد دي شارني ! إذ لم يطلعني عليه أحد ، حتى عمه الذي باستطاعته الحصول على كل شيء مني . فمن تكون هذه المرأة التي تحبها يا دي شارني ؟ أرجوك أن تسمّها لي .

فشعرت الملكة بألم حادّ ... إذ انتظرت أن تسمع اسماً يخرج من فم أوليفيا ، يجعلها تتحمل عذاب هذه الكذبة . ومن يدري عما إذا كان شارني لن يبوح باسم يكون صدمة رهيبة لها . فكي تتجنب ماري انطوانيت مثل هذه الصدمة ، صاحت تقول قبل شارني :

- ولكنك تعرف جيداً يا مولاي ، تلك التي اختارها السيد دي شارني كي تكون زوجة له . إنها ... الآنسة أندريه دي تافرني !

فأطلق شارني صيحة موجعة ، وخبأ وجهه بين يديه ...

وبدورها الملكة ، سندت قلبها بيدها ، وأوشكت أن تسقط على مقعدها فاقدة الوعي !

وردد الملك بعدها :

«الآنسة دي تافرني ! الآنسة دي تافرني التي تركت البلاط وانسحبت الى دير سان دينيس ؟

فقالت الملكة بصوت خافت :

- نعم يا مولاي .

- إنها ، كما أعتقد ، لم تقدم نذوراتها بعد ؟

- هذا صحيح يا مولاي ، ولكنها ستقدمها .

فقال الملك :

- سنضع شروطاً لذلك .

وأضاف يقول :

- ومع ذلك ، لماذا تريد أن تقدم نذوراتها ؟

فأجابت ماري انطوانيت :

- لأنها فقيرة ، وأنت لم تغدق المال إلا على والدها .

فقال الملك :

- هذا خطأ ارتكبته يا سيدتي ، وأنا مستعد لإصلاحه ، إذا كان السيد دي شارني يحبها ...

فارتعشت الملكة وألقت نظرة نهمة على الشاب، كأنها تتوسله كي لا ينكر هذا الحب.

فأنعم شارني النظر في ماري انطوانيت، ولم يجب!

فقال الملك الذي اعتبر هذا الصمت بمثابة اعتراف خجول، موجهاً كلامه إلى الملكة:

– حسناً! ومما لا شك فيه، أن الآنسة دي تافرني تبادل شارني مثل هذا الحب. لذا سوف أنقدها كمهر، الخمسماية الف ليرة التي حجبتها عنك، عندما رجاني السيد دي كالون أن أوافق على صرفها.

ثم استدار نحو شارني، وأكمل يقول:

– عليك أن تشكر الملكة يا سيد دي شارني، لأنها شاءت بإطلاعي على هذا الحب، أن تؤمن لك السعادة مدى الحياة!

فتقدم شارني خطوة إلى الامام، وانحنى كأنه تمثال أصفرَ اللون، منحه الله الحياة بأعجوبة منه!

فقال الملك بتلك الخفة الفريدة في التهكم المبتذل، التي كثيراً ما كانت تلطف فيه النبالة التقليدية لأجداده:

– أوه! إن الموضوع يستأهل بأن يُركع له مرة ثانية...

فارتعشت الملكة، ومدت إلى الشاب، بحركة عفوية، يديها الاثنتين. فركع شارني أمامها، وطبع قبلة على يديها الجميلتين، تمنى لو يستودعها حياته!..

وبعد تلك القبلة، قال له الملك:

- هيّا الآن واتبعني يا سيدي، ولندع الملكة تهتمّ بقضيتك.

ومشى الملك أمامه مسرعاً، بشكل أتاح لشارني أن يستدير وهو على عتبة الباب، ويرى الألم الذي لا يوصف لذلك الوداع الأبدي، الذي ارتسم في عيني ماري انطوانيت!

ثم انغلق الباب بينهما، وغدا حاجزاً متعذر العبور، في وجه حب بريء...

سان دينيس

★

بقيت الملكة وحدها يائسة، تشعر بالضربات تنهال عليها من كل الجهات، ولا تعلم من أية جهة تأتيها الضربة الأشد وجعاً.

وبعد مضي ساعة وهي على هذه الحالة من الحيرة والوهن، اقتنعت بأنه قد حان الوقت كي تبحث عن مخرج لما تعانيه. فالخطر يتفاقم، والملك الفخور بالنصر على المظاهر، سوف يسرع إلى التشييع له، ومن المحتمل أن تستقبل إشاعة النصر المزعوم، بشكل تضيع معه كل فائدة للغش الذي ارتكب.

وكم كانت الملكة تؤنب نفسها على هذا الغش، وتود لو تستعيد ذلك الكلام الذي مرَّ سريعاً على لسانها، وان تنتزع، حتى من أندريه، تلك السعادة الوهمية التي قد ترفضها!

وفي الواقع، هنا كانت تبرز صعوبة أخرى. فاسم اندريه الذي أنقذ كل شيء تجاه الملك، من يستطيع أن يضمن بأن صاحبته ذات المزاج النزْوي، المستقل والحر، التي يسمونها الآنسة دي تافرني، سوف تتنازل عن حريتها، وترهن مستقبلها لمصلحة الملكة، التي تركتها كعدوة منذ أيام قليلة، وهي المرأة الأبية النفس؟

إذن، ما الذي سيحدث؟ فاندريه، على الأرجح، سترفض العرض الذي سيقدم لها، وبرفضها ستنهار صقالة الكذب والخداع، وتغدو الملكة متآمرة محدودة العقل، وشارني مجرد فارس لا أهمية له، وشخص يتقن الكذب. أما التهمة العالقة بالملكة، فستأخذ ساعتذاك حجماً ووزناً لا يعود الشك معهما مقبولاً.

بعد هذه التصورات، شعرت ماري انطوانيت بأنها قد ضلَّت الصواب. وكادت تستسلم الى هذا الاحتمال، فوضعت رأسها المحموم بين يديها، وأخذت تفكر:

على من عليها أن تعتمد؟ من هي صديقة الملكة الوفية؟ السيدة دي لامبال؟ ولكن سيدات الشرف كلهنَّ قد

اختبرتهنَّ ، فهنَّ يتزلفن إليها خوفاً من زوال الحظوة ، وبقصد العيش المرفَّة ليس إلا ! زدْ على ذلك ، أنهنَّ على استعداد لأن يلقنَّ ملكتهن درساً في الاخلاق ، إذا ما احتاجت إلى مساعدتهن !

بعد أن استعرضت ماري انطوانيت نساء الشرف كلهنّ ، واستبعدتهنَّ الواحدة تلو الأخرى ، لم يبق في اعتقادها سوى الآنسة دي تافرني ، الكاملة الصفات ، وصاحبة القلب الطاهر ، التي وحدها ، رغم إيمانها الراسخ في الطريق الذي اختطته لنفسها ، قد تتعاطف مع آلامها الكبيرة .

إذن على ماري انطوانيت أن تسعى وراء اندريه ، وان تطلعها على شقائها ، وان تتوسل إليها بأن تضحي بأغلى أمانيها من أجلها . مما لا شك فيه ، أن أندريه سوف ترفض مثل هذه التضحية في البدء ، لأنها من طينة فريدة ، وذات شخصية فذة لا يغريها مال ولا يرهبها سلطان . إلا أنها رويداً رويداً ، وبفضل صلواتها ، سوف تلين وتقبل . وعندما تهدأ ثائرة الملك ويطمئنُ باله مظهر الرضى المتبادل على وجهي الخطيبين ، سيتدبر كل شيء بمجرد تدبير سفرة إلى أندريه وشارني ، تبعدهما حتى تخمد نار النميمة . وبهذه الطريقة ، يُقضى على كل همس يتناول الملكة في سمعتها ، ويعتقد

الناس بأن الود بين الخطيبين، على أتمه، ولن يعرف أحد بأن مشروع الزواج ليس سوى تمثيلية.

وبالتالي لن تكون حرية الآنسة دي تافرني موضع شبهة، كذلك لن يكون شارني، في نظر الناس، قد تنازل عن حريته. ولا يبقى ضمير الملكة يؤنبها على أنانيتها التي جعلتها تضحي بشخصين في سبيل إنقاذ شرفها، خصوصاً وإن شرفها هو شرف زوجها وشرف أولادها الذي يجب أن ينتقل سليماً وغير ملطخ الى ملكة فرنسا المقبلة.

ذاك ما كانت تفكر به ماري انطوانيت.

وبما أن تحقيق هذه الأفكار، حسب اعتقادها، يؤمن مصالح الجميع وفيه منفعة للجميع، فقد رأت من الواجب عليها أن تكون متشددة في ما تراه منطقياً لمجابهة الخطر الرهيب، كما رأت لزاماً عليها أن تتسلح بكل ما ملكت يداها ضد خصم صعب المراس كالآنسة دي تافرني، إذا ما أصغت هذه الأخيرة إلى نداء كبريائها وتجاهلت نداء قلبها.

وبعد أن أصبحت مستعدة للقيام بما عزمت عليه، قررت المباشرة بالعمل. وشاءت أن تحذر شارني من القيام بأي مسعى باطل، لكن اعتقادها بأن الجواسيس يتربصون بها، وأن كل تصرف من قبلها سيساء تفسيره في هذه الآونة، منعها عن ذلك. خصوصاً وان خبرتها الكافية باخلاص

أوليفيا وحزمه، وحسه العادل، جعلها تكون واثقة بأنه سيقرها على ما ترتئيه مناسباً بأن يفعله.

وعندما حان وقت الغداء في ذلك اليوم وتوافد كبار الشخصيات على الوليمة الملكية الفخمة، استقبلت الملكة زوارها بوجه بشوش ولطف متناهٍ، متخلية عن كبريائها التي عُرفت بها. حتى أنها أظهرت أمام من كانت تعتبرهم أعداء لها، ثقة بالنفس ليست مألوفة بالنسبة للمذنبين.

ويمكننا القول إن الحشد الذي شهده البلاط في تلك الوليمة لم يعرف مثله من قبل، كما أنه لم يعرف فضولاً كالفضول الذي ساده، والذي كان يغوص بحثاً في كل قسمة من قسمات وجه ماري انطوانيت، التي كانت تصبُّ نظراتها مواجهة، في كل شخص، فتصعق أعداءَها وتثمل أصدقاءها. وقد أحالت اللامبالين إلى متحمسين، والمتحمسين الى مفعمين بالحماسة وهائمين، وبدت في غاية الجمال والعظمة، مما جعل الملك يوجه إليها تهانيه جهاراً.

وما أن انتهت الوليمة، حتى تخلت عن ابتسامتها المتكلفة وعادت إلى ذكرياتها، أي إلى آلامها. ووحدها من دون أي مخلوق آخر، بدَّلت زينتها، واعتمرت قبعة رمادية ذات شرائط وزهرات زرقاء، ثم ارتدت فستاناً من الحرير الرمادي

أيضاً، واستقلت عربتها من دون حراس، واتجهت بصحبة سيدة واحدة فقط الى دير سان دينيس.

فوصلت الى الدير المذكور ساعة كانت الراهبات قد دخلن الى صوامعهن، وخلدن إلى الصمت والتأمل اللذين يسبقان صلاة الغروب.

وعندما استدعت الملكة الى غرفة الاستقبال الآنسة أندريه دي تافرني، كانت هذه راكعة بثوبها الصوفيّ الأبيض أمام النافذة وشاخصة الى القمر فيما هو يرتفع وراء شجرات الزيزفون الكبيرة. وفي هذا الجو الشعري مع ابتداء الليل، كانت أندريه تبتهل إلى الله بصلواتها الحارة، كي يخفف من آلام نفسها المعذبة.

لقد كانت تشرب بجرعات كبيرة، ألم الفراق الطوعي الذي لا يشفى. ومثل هذا التوسل لم تعرفه سوى النفوس القوية. فهو عذاب وفرح في آن واحد. وقد توصلت أندريه مع هذا النوع من العذاب، إلى الشعور بلذة، وحدهم الذين يعرفون كيف يضحون بالسعادة في سبيل كرامتهم، يمكنهم أن يشعروا بمثلها.

فاندريه من تلقاء نفسها قد تركت البلاط، ومن تلقاء نفسها قد قطعت علاقاتها بكل ما يمت إلى حبها بصلة. فكونها أنوفة ككليوباتره، لم تستطع حتى أن تتحمل

التصور، بأن السيد دي شارني قد فكّر بامرأة سواها، وأن هذه المرأة هي الملكة.

فلما جاءت إحدى الراهبات تقول لها بأن الملكة في الدير، وبأن مجلس الكهنة يستقبلها الآن في البهو الكبير، وبأن جلالتها بعد المجاملات الأولى قد سألت عما إذا كان باستطاعتها أن تتكلم مع الآنسة دي تافرني، تمتمت اندريه:

«الملكة!.. الملكة في سان دينيس! الملكة من يستدعيني!»

فأجابتها الراهبة:

- نعم الملكة، وعليك أن تسرعي.

فأسرعت أندريه فعلاً، وارتدت ثوب الرهبنة الطويل والفضفاض، ثم تمنطقت بزنار الصوف، ولحقت بالراهبة البوابة التي جاءت تبحث عنها، دون أن تلقي ولو نظرة خاطفة على مرآتها الصغيرة.

لكنها ما أن خطت بضع خطوات، حتى شعرت بالخجل يعتريها، لأنها شعرت بقدر كبير من الفرح... فأخذت تخاطب نفسها قائلة:

«لماذا ارتعش قلبي هكذا؟ وما همُّ اندريه دي تافرني، من زيارة ملكة فرنسا لدير سان دينيس؟ هل هو الزهو ما أحسه؟ ولكن الملكة ليست هنا من أجلي. هل هي السعادة؟ ولكنني لم أعد أحب الملكة.

«هيا واحتفظي برباطة جأشك أيتها الراهبة السيئة، فالتي لا تخص الله ولا العالم، لتحاول على الأقل أن تخصَّ نفسها».

هكذا كانت أندريه تؤنب نفسها فيما هي تهبط الدرج الكبير. وبما أنها سيدة إرادتها، فقد أخمدت احمرار خديها العابر الذي سبَّبه تسرعها، وعدلت في سرعة مشيئها. فكي تصل الى حيث هي مدعوة، أمضت في اجتياز الدرجات الست الأخيرة، وقتاً أطول من الوقت الذي أمضته في اجتياز الدرجات الثلاثين الأولى.

وعندما وصلت الى ما وراء الخورس في قاعة الاحتفالات، حيث كان نور الثريات والشموع في أيدي بعض الراهبات العاملات يزداد تألقاً، شحب لون اندريه وندت جبهتها بالعرق البارد...

وعندما سمعت اسمها يُلفظ بواسطة الراهبة البوابة التي جاءت بها، وعندما لمحت ماري انطوانيت جالسة في المقعد الوثير المخصص لرئيسة الدير، فيما كانت رقاب أعضاء مجلس الكهنة على جانبيها تنحني احتراماً وإجلالاً، أخذ قلب اندريه يخفق بشدة، وتوقفت لعدة ثوانٍ عن متابعة سيرها، فقالت لها الملكة وهي تبتسم نصف ابتسامة:

– آه! لقد جئت: تقدمي يا آنستي كي نتكلم.

فتقدمت أندريه وأحنت رأسها، فاستدارت الملكة نحو رئيسة الدير وقالت لها:

- هل تسمحين يا سيدتي؟

فأجابت الأم الرئيسة بانحناءة معبرة عن احترامها، وخرجت من القاعة متبوعة بكل الراهبات.

فبقيت الملكة وحدها مع أندريه التي كانت دقات قلبها، في تلك اللحظة، أسرع وأشد من دقات رقاص الساعة الجدارية القديمة، التي كانت تتصدر تلك القاعة!

قلب ميت

★

ابتسمت الملكة ابتسامة رقيقة، وافتتحت المحادثة بقولها:

«إنك هنا يا آنستي، وبثوبك الورع، تخلقين في نفسي انطباعاً غريباً.»

فبقيت أندريه صامتة ولم تجاوب. وتابعت الملكة تقول:

«إن رؤيتي لرفيقة قديمة، اعتزلت العالم الذي ما زلنا نحن الآخرون نعيش فيه، لهو بمثابة نصيحة قاسية تُعطى لنا. ألست من رأيي يا آنستي؟

فأجابت أندريه :

– من يسمح لنفسه يا مولاتي ، أن يقدم نصائح لجلالتك ؟ فالموت نفسه ، لن ينذر الملكة الا في آخر يوم من حياتها .

– لماذا ذلك ؟

– لأن الملكة يا مولاتي ، أتاحت لها طبيعة نشأتها ، أن لا تعرف العذاب والألم ، إلا عند الضرورة التي لا مفرَّ منها . فيداها تملكان كل ما تشتهيه وتتمناه . وإن كان لدى الغير شيء يمكنه ان يجعل حياتها أكثر سعادة ، فباستطاعة الملكة سلب هذا الشيء من الغير...

واستدركت اندريه تقول ، عندما قامت الملكة بحركة دلت على دهشتها :

– وهذا حق من حقوقها ، فالغير بالنسبة للملكة ، هم رعاياها ، ورعايا الملكات وما يملكون ، بما فيه حياتهم وشرفهم ، هم ملك الملكات .

فقالت ماري انطوانيت بتمهل :

– إن مثل هذه المعتقدات تذهلني . فأنت تجعلين من الملكة في هذا البلد ، غولة تلتهم ثروة وسعادة المواطنين البسطاء ، فهل أنا هكذا يا أندريه ؟ هل فعلاً كنتِ تشعرين بما يستوجب الشكوى مني ، عندما كنت في البلاط ؟

فأجابت أندريه :

– إن جلالتك قد تلطفت وطرحت عليَّ مثل هذا السؤال عندما قررت تركها، فكان جوابي كما هو الآن: لا يا مولاتي.

فقالت الملكة:

– ولكن التشكي، وإن لم يكن تعبيراً شخصياً، كثيراً ما يجرحني. فهل ألحقت الأذى بأحد خاصتك، فاستحقيت هذا الكلام توجهينه إليَّ؟ إن العزلة التي اخترتها يا أندريه، هي الملاذ ضدَّ كل شهوات العالم السيئة. فالمسيح قد علمنا التسامح، والغفران، ونسيان الاهانات، هذه الفضائل التي كان المثال الأعلى لها. فهل فُرض عليَّ، أنا التي جئت لأرى أختاً للمسيح هنا، أن لا ألقى إلا وجهاً عابساً، وكلاماً مملوءاً بالضغينة؟ هل فُرض عليَّ، أنا التي سعت وراء صديقة، أن لا ألقى إلا التأنيب، أو الحقد المبطن من عدوة ترفض المصالحة؟

فرفعت أندريه عينيها، مشدوهة من هذه الدعة التي لم تألفها في ماري انطوانيت، إذ كانت متعالية وفظة مع خدمها، وقالت بصوت منخفض:

– جلالتك تعلم جيداً، بأن آل تافرني لا يمكنهم أن يكونوا أعداء لها.

فأجابت الملكة بكل هدوء وسكينة:

- وأعلم بأنك لم تغفري لي برودتي تجاه أخيك. وهو نفسه، قد يكون اتّهمني بالخفة، وربما بالتصرف الكيفي.

فقالت أندريه، وقد أجهدت نفسها كي تحتفظ بصلابتها:

- حاشا لأخي أن يتّهم الملكة، وهو التابع الذي يكنُّ لها كل احترام.

فرأت الملكة أنها ستثير الظنون حولها، إن هي زادت جرعة العسل اللازمة لتطويع المعتزلة، فتوقفت عند هذا الحد، وقالت:

- لقد جئت الى سان دينيس لأتكلم مع رئيسة الدير، فاغتنمتها فرصة كي أراك وأؤكد لك، بأني سأبقى صديقتك، سواء كنت بعيدة عني أم قريبة مني.

فشعرت أندريه بهذا الفارق في اللهجة، وخشيت بدورها إن هي استمرت في مجافاة من تلاطفها، أن تنكأ جراح قلبها أمام امرأة ذكية وبصيرة، فقالت بحزن:

- إن جلالتك قد شرّفتني وأفعمت قلبي بالفرح.

فأجابت الملكة وهي تضغط على يد أندريه:

- لا تتكلمي هكذا يا أندريه، فأنت تدمين قلبي بما يرتسم على وجهك من حزن. وثقي بأن ماري انطوانيت، هي ملكة شقية، عكس ما تتصورين، وقد استخلصتك من بين كل الصديقات، كي تريح عينيها المتعبتين في عينيك الساحرتين.

وان كانت الملكات يا أندريه، يملكن الذهب، ويملكن وفاء شعوبهن، إلا أن القلب لا!.. القلب ليس باستطاعتهنَّ امتلاكه، بل يجب أن يُعطى لهنَّ.

فقالت أندريه، وقد هزَّ كيانها كلام الملكة هذا:

- أؤكد لك يا مولاتي، بأني أحببت جلالتك أكثر من أي شخص آخر في العالم.

وما أن تلفظت بهذه الكلمات، حتى احمرت وأطرقت برأسها... فانتهزت الملكة الفرصة، وصاحت قائلة:

«لقد... أحببتني! أما اليوم، فما عدت تحبينني؟»

- أوه! مولاتي!

- أنا لا أطلب منك شيئاً. أندريه... ملعون هو الدير الذي يطفئ الذكريات بهذه السرعة في بعض القلوب.

فقالت أندريه بحدة:

- لا تتهمي قلبي، فانه مات!

- قلبك مات! أنت، أندريه الصبية، الجميلة، تقولين بأن قلبك قد مات! آه! لا تتلاعبي بهذه الكلمات الكئيبة. فالقلب عند من تحتفظ بمثل هذه البسمة وهذا الجمال، ليس بمائت. فكفي عن هذا الكلام يا أندريه.

- إني أردد عليك ما قلته يا مولاتي. فكل ما في البلاط، وكل ما في العالم، لم يعد يعنيني. فأنا أعيش هنا كالعشب

والنبتة، لدي مباهج لا يحسها سواي. وكراهبة كرست نفسها للرب، أصبحت سعادتي الوحيدة في عزلتي.

فقالت الملكة:

- عجباً! أأنت مسرورة في الدير؟

- أنا جدُّ سعيدة في حياة العزلة هذه.

- لم يعد في نفسك أي دافع يحثك على التمتع بما في الدنيا من مسرات وملذات؟

- أبداً.

ففكرت الملكة قلقة، وقالت في نفسها: «يا إلهي! هل سأفشل؟».

وتابعت تخاطب نفسها، وقد سرت القشعريرة في كل جارحة من جسدها:

«علي أن أحاول، أن أقوم بتجربة، فإذا فشلت... لا يبقى أمامي إلا الترجي! أوه! أأترجاها من أجل أن تقبل بالزواج من شارني ؟! رحماك أيتها السماء، أإلى هذه الدرجة كُتب عليَّ أن أكون شقية!

ثم سيطرت ماري انطوانيت على مشاعرها، وقالت:

- لقد عبرت عن رضاك يا أندريه، بعبارات قضت على الأمل الذي حملته إليك.

- أي أمل يا مولاتي؟

- لم يعد الكلام عليه ذو فائدة، طالما أنك قد اتخذت قرارك بالشكل الذي عرضته... واأسفاه! لقد كان حلماً... لكنه تبخر ولم يعد هناك مجال للتفكير فيه.

- ولكن، أوضحي يا مولاتي، فلا بأس من الايضاح.

- لِمَ الايضاح وقد اعتزلت العالم، أليس كذلك؟

- نعم يا مولاتي.

- بطيبة خاطر؟

- أوه! بملء حريتي.

- وما زلت فخورة بما أقدمت عليه؟

- أكثر من أي وقت مضى.

- أرأيت بأنه من غير المجدي حملي على الكلام؟ يشهد الله عليَّ، أني كنت مقتنعة بأني سأجعلك سعيدة فيما جئت أقترحه عليك...

- أنا، سعيدة؟

- نعم، أنت، الكافرة بالنعمة، والتي كنت تتهمينني. لكنك اليوم تستشفين مسرات أخرى، وأنت أدرى مني بما يناسب ذوقك وبما هو دعوتك. لذا سأصرف النظر...

- عن ماذا ستصرفين النظر يا مولاتي؟ شرفيني بالتفاصيل إن شئت.

– أوه! الامر في غاية البساطة، كنت أريد إرجاعك إلى البلاط.

فابتسمت أندريه بمرارة، وصاحت قائلة:

– أنا أعود إلى البلاط؟ يا إلهي! لا، لا، أبداً يا مولاتي!.. ولو اضطررت إلى التمرد على أوامر جلالتك.

فارتعشت الملكة، إذ شعرت بالفشل، ودمدمت وقد امتلأ قلبها بحزن لا يمكن وصفه:

– أترفضين؟!

وكي تخفي ما اعتراها من اضطراب، أخفت وجهها بيديها.

فاعتقدت اندريه بأن الملكة قد أُرهقت، فاقتربت منها وركعت أمامها، وكأنها شاءت باحترامها العميق هذا، أن تبلسم الجرح الذي سبَّبه لها كبرياؤها. ثم قالت لها:

– ماذا سيفيدك وجودي في البلاط يا مولاتي، أنا الحزينة، أنا العديمة القيمة، أنا الفقيرة، أنا الملعونة، أنا التي هرب الكل مني، ومن فرط شقائي لم أعرف حتى أن أوحي للنساء بأني أشكل عليهن أية مزاحمة مألوفة تقلقهن، وللرجال أي شعور بالاستلطاف كأنثى أتميز عنهم جنسياً...

آه! دعي يا مولاتي وسيدتي هذه الراهبة وشأنها، فهي ليست مقبولة حتى من الله الذي وجد فيها الكثير من

العيوب، الله الذي يستقبل أصحاب العاهات الجسدية والقلبية. دعيني في شقائي، ودعيني في عزلتي، أرجوك!

فقالت الملكة وهي ترفع عينيها:

– آه! إن ما جئت أقترحه عليك، كفيل بأن يسفِّه كل ما تشكين منه. فالزواج الذي اخترته لك، سيجعل منك واحدة من أعظم سيدات فرنسا.

فتمتمت أندريه مذهولة:

– زواج!...

فسألتها الملكة وقد ازدادت وهناً:

– أترفضين؟

– أوه! نعم، أرفض، أرفض!

– أندريه...

– أرفض يا مولاتي، أرفض!

عندئذ شعرت الملكة بانقباض في صدرها، فكفت عن التوسل وتهيأت للإنصراف. إلا أن أندريه، لحظة وقفت الملكة مرتعشة، مضعضعة، ارتمت في طريقها وأمسكت بطرف ثوبها، وقالت لها:

– على الأقل يا مولاتي، منِّي عليَّ قبل أن ترحلي، بتسمية الرجل الذي يرضى بي رفيقة لحياته. فقد تألمت كثيراً في حياتي، بحيث يتوجب على هذا الرجل الكريم...

وابتسمت بتهكم موجع، ثم أكملت تقول:

«أن يكون البلسم الذي سأضعه على كل جروحاتي.»

فترددت الملكة في التسمية. لكنها كانت بحاجة إلى أن تبلغ غايتها، لذا عادت فقالت بلهجة حزينة:

- إنه السيد دي شارني...

فصاحت أندريه من أعماق قلبها:

- دي شارني!.. أوليفيا دي شارني!

فقالت الملكة وهي تنظر إلى الفتاة بذهول:

- نعم، أوليفيا دي شارني.

- ابن شقيقة السيد دي سيفران؟ صاحب الوجنتين الموردتين، والعينين المتألقتين كنجمتين في القبة الزرقاء؟

فأجابت ماري انطوانيت، وقد لاحظت التبدل الذي طرأ على قسمات وجه أندريه:

- إنه بذاته، ابن شقيقة السيد دي سيفران.

- بربك قولي يا مولاتي، هل من السيد أوليفيا تودين تزويجي؟

- منه بالذات.

- و... هل يرضى؟

- إنه يدعوك الى الزواج.

فقالت أندريه وقد عصف بها جنون الفرح:

– أوه ! أقبل ، أقبل ... إذن هي أنا من يحبها !.. أنا التي تعبده !

فتراجعت الملكة مرتعشة، وقد دكن لونها وتأوهت بصمت... ثم ارتمت متهالكة على أحد المقاعد ، فيما أخذت أندريه تقبل ، بلا وعي ، ركبتيها وثوبها ، وتبلل يديها بالدموع المنهمرة من عينيها ...

وأخيراً قالت بصوت تخنقه التنهدات المتلاحقة :

– متى سنذهب يا مولاتي ؟

فدمدمت الملكة التي شعرت بأن روحها ستزهق ، والتي كانت تريد إنقاذ شرفها قبل أن تموت :

– تعالي !

ثم نهضت واستندت على أندريه ، التي كانت شفتاها المحرقتان تبحثان عن خدي الملكة المثلجين. وفيما كانت الفتاة تتهيأ للإنطلاق ، قالت الملكة المنكودة الحظ وهي تشهق بمرارة ، رغم أنها كانت تملك حق التصرف بحياة وشرف ثلاثين مليوناً من رعاياها :

«هل كفى قلبي عذاباً يا إلهي ؟»

ثم أضافت تقول :

«ومع ذلك ، شكراً لك يا إلهي ، لأنك أنقذت أولادي من الخزي والعار ، ويسرت لي أن أموت في مهابتي الملكية !»

سرّ السمنة لدى البارون

★

بينما كانت الملكة تعمل بفرح على إخراج الآنسة دي تافرني من دير سان دينيس، كان فيليب دي تافرني، شقيق أندريه المفتَّت القلب بسبب ما علمه وما اكتشفه، يستعد للرحيل عن فرساي.

فجندي مثله اعتاد أن يطوِّف في العالم، لا يحتاج إلى طويل وقت كي يعدَّ حقائبه ويلبس معطف السفر. لكن فيليب كانت لديه، هذه المرة، دوافع أقوى بكثير من دوافع السفر التي ألفها كي يبتعد عن فرساي بسرعة. فهو لا يريد أن يكون شاهداً على العار المحتمل والوشيك أن يلحق بالملكة، وهو مبتغاه الوحيد.

لذلك شوهد أكثر حمية من أي وقت مضى، وهو يسرج جياده، ويُلقم سلاحه، ويضع في حقائبه أعزَّ الاشياء لديه كي يعيش في ترحاله حسبما اعتاد أن يعيش. وعندما انتهى من كل هذا، أبلغ والده بأنه بحاجة إلى التحدث إليه.

وكان البارون دي تافرني الشيخ، قد عاد لتوِّه من فرساي، وكرشه الذي ازداد سمنة منذ عدة أشهر، يهزهز

ويرتج أمامه كأنه أليَّة خروف معلوف. عاد مشروح الصدر بعد أن قام بنزهة في القصر الملكي، ابتسم خلالها للسيد دي بريتاي ضدَّ السيد دي روهان، وللسيدين دي سوبيز ودي غامينه ضدَّ السيد دي بروفانس، ولمئة شخص غيرهم ضدَّ مئة شخص آخرين. الخلاصة أنه مارس هوايته في الدس والنميمة والخبث، ورجع الى قصره مفعم القلب بالسرور.

وعندما أبلغه الخادم بأن ولده يريد التحدث إليه، عوضاً عن أن ينتظر زيارة فيليب، ذهب هو بنفسه إلى غرفته، فوجد أشياءها مبعثرة ككل غرفة قبل سفر ساكنها.

لم يكن فيليب يتوقع من والده أن يبلغ به التأثر حداً كبيراً عندما يعلمه بقراره. كما أنه لم يكن يتوقع منه أن يكون غير مبالٍ. ففي الواقع، عندما تركت أندريه المنزل الوالدي إلى الدير، شعر البارون بفراغ. فإذا ما بلغ هذا الفراغ أشده بغياب آخر ضحية، سيكون البارون شبيه الولد الذي يفقد كلبه أو عصفوره، فيبكي، لكن بكاءه سيكون بدافع الانانية وحب الذات.

لكن فيليب دُهش، عندما رأى البارون يضحك بابتهاج ويصرخ قائلاً:

«آه! يا للعجب! سيسافر، سيسافر...»

وتابع يقول وابنه ينظر إليه مذهولاً:

«كنت واثقاً من ذلك، لقد أجدت التمثيل يا فيليب، لقد أجدت التمثيل.»

فقال الشاب:

- ماذا قلت يا سيدي؟ من الذي أجاد التمثيل، أرجوك؟

فأخذ الشيخ يغني وينطنط على رجل واحدة، داعماً مقدمة كرشه بيديه الاثنتين. كما أخذ في الوقت نفسه يشير إلى فيليب بعينيه غمزاً كي يصرف خادم غرفته.

ففهم فيليب المقصود ووافق على مشيئة والده، الذي أسرع ودفع «شامبانيون» خارج الباب وأغلقه وراءه. ثم عاد الى قرب ابنه وقال له بصوت منخفض:

- رائع!.. رائع!

فأجاب فيليب ببرودة:

- إنك تكيل لي المديح يا سيدي، دون أن أعلم لما استحقيت هذا المديح!

فقال الشيخ مترنحاً: «آه! آه! آه!»

وأكمل فيليب يقول:

- إلا إذا كان مرحك هذا يا سيدي، سببه رحيلي الذي سيريحك مني.

فضحك البارون الشيخ وقال بنغمة مختلفة:

- أوه! أوه! أوه!.. رويدك، فلا حاجة لأن تخفي عليّ

ما في نفسك ، فأنا لست مغفلاً الى هذه الدرجة ... آه ! آه ! آه !

فشبك فيليب ذراعيه وتساءل عما إذا كان والده قد أُصيب بمسٍّ ، ثم سأله :

– مغفل عن ماذا ؟

– بالتأكيد عن رحيلك . هل تتوهم بأني مقتنع بهذا الرحيل ؟

– لست مقتنعاً ؟!

– شامبانيو لم يعد هنا . لذا أردد عليك قولي : لا حاجة لأن تخفي عليَّ ما في نفسك . مع ذلك ، أعترف بأنه ليس أمامك سوى هذا الخيار ، ولقد اتخذت قرارك ، فحسناً فعلت .

– أنت تدهشني فيما تقول يا سيدي ، إلى درجة ...

– نعم ، إنه لمدهش فعلاً أن أحزر ذلك . ولكن ماذا تنتظر غير ذلك يا فيليب ، فأنا أكثر الناس فضولاً ، وبما أني فضوليّ ، يطيب لي أن أفتش وأبحث ، وهكذا اكتشفت بأنك تتظاهر بالسفر . إني أهنئك على تظاهرك هذا .

فصاح فيليب قلقاً :

– أنا أتظاهر ؟

فتقدم الشيخ ولمس صدر الشاب بأصابعه العظمية ، وقال باسلوب أكثر غموضاً :

– كلام شرف أقوله لك . أنا أكيد بأن كل شيء قد اكتشف . إنك تتدبر الأمور في الوقت المناسب. فاذهب حالاً يا ولدي ، إذهب حالاً ، لأن غداً سيكون متأخراً جداً .

فقال فيليب بلهجة باردة :

– أؤكد لك يا سيدي ، بأني لم أفهم كلمة واحدة من كل ما شرفتني بقوله !

فلم يجاوب الشيخ مباشرة ، بل أكمل يقول :

– أين ستخبئ جيادك ؟ لديك فرس معروفة جداً ، فخذ حذرك من أن يرونها هنا ، عندما يعتقدون بأنك في... بالمناسبة ، إلى أين ستتظاهر بأنك ذهبت ؟

– أنا ذاهب إلى «تافرني – مازون – روج» ، يا سيدي .

– حسناً ... حسناً جداً ... فاذا ما تظاهرت بأنك ذاهب الى «مازون – روج» ، لن يستفهم أحد عن السبب ... ومع ذلك ، كن محترساً ، فهناك عيون كثيرة تلاحقكما ، أنتما الإثنان .

– نحن الإثنان ؟!

فتابع البارون الشيخ يقول :

– خذ حذرك وكن أكثر تعقلاً منها ... فهي طائشة ومتهورة ، وبسبب ما هي عليه ، قد يضيع كل شيء .

فصاح فيليب بغضب :

– ما هذا الكلام يا أبي ! في الحقيقة ، أتصور بأنك تتلهى على حسابي ، وهذا تصرف غير محق . إني أقسم لك ، بأنك فيما تقوله لي ، وأنا على ما أنا عليه من غمٍّ وسخط ، تحملني على أن أفقد احترامي لك .

– فيما يخص احترامك لي ، أعترف بأنك كنت دائماً توحي إلي بهذا الاحترام ، ولا بأس إن تزعزعت ثقتي بك اليوم . على كل ، أعطني عنوانك حيث ستستقر ، حتى إذا ما حدث شيء عاجل ، تمكنت من إعلامك .

فقال فيليب ، معتقداً بأن والده الشيخ قد عاد أخيراً الى جادة الصواب :

– في «تافرني» يا سيدي .

– ايه ! في «تافرني» ، على بعد ثمانين فرسخاً ! أتعتقد بأنه لو كان لدي نصيحة هامة ومستعجلة أود أن أنفذها اليك ، سألهو بقتل عدة رسل على طريق تافرني دون العثور عليك ؟ هيا وكن واقعياً ، فأنا لا أطلب منك عنوان منزلك قرب «البارك» ، حيث يستطيعون تتبع رسلي ، أو معرفة كسوة خدمي ، ولكن إختر عنواناً ثالثاً لا يبعد أكثر من ربع ساعة .

إن لك مخيلة شيطانية ! فالذي يعمل من أجل غرامياته ، كما تعمل أنت الآن ، تباً له من رجل داهية !

– منزلي قرب البارك ، غراميات ، مخيلة شيطانية ! إننا نلعب لعبة الألغاز يا سيدي ، فاحتفظ بهذه الكلمات لنفسك .

فصاح الأب مغتاظاً :

– أنا لم أعرف حيواناً أكثر كتماناً منك ! كما أني لا أرى في تحفظاتك إلا ما يسيء إلي . ألن يقول الناس بأنك خشيت أن أخونك ؟ إن أمرك لغريب حقاً !

فقال فيليب ساخطاً :

– سيدي !..

– حسناً ! حسناً ! احتفظ بأسرارك لنفسك . احتفظ بسر منزلك الذي استأجرته وكان قديماً مخصصاً لصيد الذئاب .

– أنا استأجرت منزل صيد الذئاب ؟!

– احتفظ بسرٍّ النزهات الليلية التي قمت بها برفقة صديقتين معبودتين ...

فشحب لون فيليب ودمدم قائلاً :

– أنا !... قمت بنزهة !

– احتفظ بسرٍّ تلك القبلات التي طعمها أشهى من طعم العسل ...

فزمجر فيليب غضباً وصاح قائلاً:

- سيدي! سيدي! هل تريد أن تصمت؟

- أوَلا تودُّ أن أقول لك كل ما أعرفه عنك؟ إني أعرف كل شيء، هل ما زال لديك شك؟ أنا عالم بما بينك وبين الملكة من صداقة حميمة، وبمشاريعك المفضلة، وبنزهاتك في حمامات أبولون... فلا تخفِ عني يا فيليب، بل ضع ثقتك بي، طالما أن مصلحتنا مشتركة.

فصاح فيليب وهو يخبئ وجهه بيديه:

- إنك ترعبني يا سيدي!

وما كان يعانيه فيليب، كان في الحقيقة مرعباً. فلم يكفه ما هو عليه من شقاء وعذاب، حتى جاء والده ينسب إليه السعادة التي ينعم بها سواه. فكان مثله في ذلك، مثل من يعتقد بأنه يدلل ولده، فيما هو يجلده بسوط مزاحمه على قلب حبيبته!

فكل ما علمه الأب، وكل ما تنبأ به، وكل ما نسبه سيئو النية الى الكردينال دي روهان، بالإضافة الى الأخبار الطيبة عن الكونت دي شارني، نسبه البارون الشيخ إلى ولده. فبالنسبة إليه، هو فيليب من تحبُّ الملكة وتدفعه في السر شيئاً فشيئاً إلى أعلى مراتب المحسوبية، وهذا هو سبب الانشراح

التام الذي جعل كرش البارون دي تافرني يتضخم باستمرار منذ عدة أسابيع.

فعندما اكتشف فيليب هذا المستنقع الجديد من العار، ارتعش إذ رأى نفسه غائصاً فيه بواسطة الكائن الوحيد الذي يتوجب عليه ان يشاركه مصالحه حفاظاً على الشرف. لكن الصدمة كانت من العنف بحيث سمَّرته في مكانه طائش الرأس صامتاً، فيما كان البارون يثرثر ويقول بوحي مخيلته الخصبة:

«لقد قمت هناك بعمل رائع، ضلّلت به كل الناس. فهذا المساء، خمسون شخصاً قالوا لي: إنه روهان. وخمسون آخرون قالوا: إنه شارني. ومئتان قالوا: إنهما روهان وشارني. لكن واحداً لم يقل: إنه تافرني. لذا أكرر عليك بأنك قمت بعمل رائع، وهذا أقل كلام أجاملك به... فضلاً عن ذلك، هذا شيء يشرفك كما يشرفها يا عزيزي. يشرفها لأنها أسقطتك في شركها، ويشرفك لأنك ملكتها.

في تلك اللحظة، وفيما كان فيليب يرمق والده بنظرة صاعقة تنذر بهبوب العاصفة، بعد أن أثار هذا الأخير ثائرة غضبه، سُمعت ضجة عربة في فناء القصر، وحدثت حركة ذهاب وإياب غريبة، حملت فيليب على الإصغاء إلى ما يجري خارجاً، فسمع الخادم شامبانيو يصيح:

«الآنسة ! هذه هي الآنسة !»

ورددت بعده عدة أصوات : «الآنسة ! الآنسة !»

فقال تافرني الأب :

– الآنسة !... أية آنسة ؟

فدمدم فيليب مندهشاً ، إذ رأى أندريه تهبط من العربة ، والحاجب ينير لها الطريق بمشعله :

– إنها شقيقتي !...

فصاح الشيخ :

– شقيقتك !... أندريه ؟ هل هذا ممكن ؟

وجاء شامبانيو ليؤكد الخبر بقوله إلى فيليب :

– سيدي ، إن الآنسة شقيقتك في البهو الصغير قرب قاعة الاستقبال ، وهي تنتظر سيدي كي تتحدث إليه .

ثم همهم البارون منذهلاً :

– إيه ! من جاء أيضاً ؟

وصرخ الحاجب منبهاً الخدم المختصين بالضيوف :

– حضرة الكونت أوليفيا دي شارني !

فقال فيليب إلى شامبانيو :

– اذهب بالكونت إلى قاعة الاستقبال ، حيث سيستقبله البارون. أما أنا ، فإني ذاهب إلى البهو الصغير للتحدث مع شقيقتي .

وفيما كان الرجلان يهبطان الدرج بتمهل، كان فيليب يتساءل: «ماذا جاء يعمل الكونت هنا؟» والبارون يتساءل: «ماذا جاءت تعمل أندريه هنا؟»

الأب والخطيبة

★

كانت قاعة الاستقبال الكبرى في قصر البارون دي تافرني، تقع في الطابق الأول، وإلى شمالها الصالون الصغير، ومنه درج يفضي إلى شقة أندريه. وإلى يمين القاعة الكبرى، كانت هناك قاعة صغيرة منها يدخلون إلى الاولى.

فما أن وصل فيليب إلى الصالون الصغير حيث تنتظره أندريه وفتح بابه، حتى ارتمت شقيقته عليه وطوقت عنقه بذراعيها وأخذت تقبله بسرور ما اعتاد هذا الأخ الشقيّ والعاشق الحزين أن يراه على وجه أخته منذ زمن طويل، فسألها قائلاً:

- بحق السماء! ما الذي جرى لك؟

- أوه! شيء سعيد... سعيد جداً يا أخي!

- ورجعت كي تطلعيني عليه؟

فصاحت أندريه بفرح طاغٍ:

– رجعت بصورة نهائية !..

فقال فيليب :

– اخفضي صوتك، اخفضي صوتك أيتها الشقية الصغيرة، فزخارف هذا القصر غير متعودة على الفرح. عدا أن هناك شخصاً في القاعة المجاورة باستطاعته أن يسمعك.

فقالت أندريه :

– شخص !.. ومن يكون هذا الشخص ؟

فأَجاب فيليب :

– اسمعي !..

وأعلن صوت أحد الخدم فيما هو يُدخل أوليفيا من القاعة الصغيرة إلى القاعة الكبيرة :

– حضرة الكونت دي شارني !

فصاحت أندريه وهي تضاعف من تحببها لأخيها :

– هو ! هو ! أوه ! إني أعرف جيداً ماذا جاء يفعل هنا ...

– أوتعرفينه ؟

– كيف لا ! أعرفه كما أعرف نفسي، وأني أتوقع الفرصة التي يتوجب عليَّ فيها أن أدخل بدوري الى القاعة الكبيرة كي أسمع بأذنيَّ ما جاء يقوله الكونت دي شارني ...

– أأنت جادة فيما تقولين أيتها العزيزة أندريه؟

– أصغ، أصغ يا فيليب، ودعني أصعد إلى شقتي. فالملكة

أرجعتني بسرعة ، لذا أريد أن أستبدل ثوب الدير بآخر ، وأن أتزين بما يليق ... بخطيبة !!

لفظت أندريه كلمة «خطيبة» بصوت منخفض ، وأتبعتها بقبلة مرحة على وجنة شقيقها . ثم توارت وراء الدرج المؤدي إلى شقتها ، بعد أن صعدت الدرج المذكور بخفة ورشاقة الغزال !

أما فيليب الذي بقي وحده ، فقد ألصق خده بالباب الذي يفضي من الصالون الصغير الى قاعة الاستقبال ، وأخذ يتنصت .

وكان الكونت دي شارني قد دخل القاعة وأخذ يذرع صحنها الواسع بتمهل ، وبدا أنه يتفكر أكثر مما ينتظر .

وبدوره السيد دي تافرني الأب ، دخل وحيَّا الكونت بأدب متكلّف ، أكثر مما هو واجب اجتماعي ، وقال له بعد أن جلس الاثنان :

– ما وراء هذه الزيارة غير المرتقبة التي شرفني بها حضرة الكونت ؟ على كل ، ثق بأنها أفعمت قلبي فرحاً .

– لقد جئت يا سيدي بالثياب الاحتفالية ، كما ترى ، وأرجو المعذرة منك لأني لم أصطحب معي خالي ، القاضي الملكي دي سيفران ، كما كان يتوجب عليَّ أن أفعل .

فقال البارون :

- ولِمَ لم تفعل؟ على كل، إني أعذرك يا عزيزي دي شارني.

- في الحقيقة، كان من اللّائق حضوره، بالنسبة للطلب الذي أتهيأ لطلبه منك.

فسأله البارون:

- أي طلب؟

فقال شارني بصوت غلب عليه التأثر:

- لي الشرف بأن أطلب يد ابنتك، الآنسة أندريه دي تافرني...

فانتفض البارون في مقعده، وفتح عينيه كأنه يريد أن يلتهم كل كلمة من الكلمات التي تلفظ بها الكونت دي شارني، ثم دمدم قائلاً:

- ابنتي!... تطلب مني أندريه للزواج؟!

- نعم يا سيدي البارون.

ففكر الشيخ في نفسه قائلاً:

«هل من صالح فيليب يا ترى، أن يتزوج شقيقته من كان مزاحماً له في الأمس؟ في اعتقادي أنها صفقة رابحة مع السيد دي شارني».

ثم ابتسم وقال بصوت مرتفع:

- إن هذا الطلب يشرف أسرتنا أيها الكونت، لذا لا

يسعني ، فيما يخصني ، إلا أن أوافق عليه بسرور . ولكن كي تكون الموافقة تامة ، علي أن أُخطر ابنتي ، وأن أقف على رأيها ...

فقاطعه الكونت ببرودة :

- لا حاجة إلى إزعاج نفسك يا سيدي ، فالملكة قد استوضحت الآنسة دي تافرني بهذا الموضوع ، وكان جوابها مطابقاً لرغبتي .

فقال البارون وقد ازدادت دهشته :

- أوه ! إنها الملكة ...

- التي تحملت مشاقّ السفر الى سان دينيس . نعم يا سيدي .

فنهض البارون وقال :

- لم يبق عليَّ يا سيدي الكونت ، إلا أن أطلعك على وضع الآنسة دي تافرني . لدي في الطابق العلوي السندات المتعلقة بثروة أمها ، وأنت حتماً ، لن تتزوج من فتاة غنية قبل أن تتثبت ...

فقال شارني بجفاء :

- لا جدوى من ذلك يا سيدي البارون ، فلدي من الثروة ما يكفيني ويكفيها . والآنسة دي تافرني ليست من النساء

اللواتي يساومون عليهنَّ. لكن هذا الموضوع الذي تريد بحثه من أجل حساباتك، لا بدَّ من بحثه أيضاً من أجل حساباتي.

وما كاد شارني يفوه بهذه الكلمات، حتى فُتح باب الصالون الصغير، وبدا فيليب في إطاره شاحب اللون مهزوماً، واضعاً إحدى يديه في سترته، والأخرى مطبقة بتشنج.

فحياه شارني إحتفالياً، فرد عليه فيليب التحية بمثلها، ثم قال له:

– إن والدي على حق بأن يعرض عليك نفقة على حساب العائلة، وكلانا لديه ما يوضحه لك. ففي الوقت الذي يستغرقه صعود والدي إلى مكتبه ليبحث عن الأوراق التي كلمك عليها، سيكون لي الشرف بأن أبحث الموضوع معك بتفاصيل أوفى.

وبعد أن رمق فيليب والده بنظرة آمرة لا مجال للاعتراض عليها، خرج البارون متضايقاً، ومتوقعاً بعض العقبات.

وقد اصطحب فيليب والده حتى الباب الخارجي للقاعة الصغيرة، كي يكون واثقاً من أن هذا المكان سيكون خالياً. ثم ذهب فتأكد من الشيء نفسه في الصالون الصغير الذي قابل فيه شقيقته. ولما اطمأن إلى أن أحداً لن يسمعه، عاد الى الكونت دي شارني، فوقف أمامه شابكاً ذراعيه، وقال له:

- كيف تجرأت يا سيد دي شارني ، وجئت تطلب الزواج من شقيقتي ؟

فاحمرَّ أوليفيا ورجع إلى الوراء ، وأكمل فيليب يقول :

- ألكي تخفي بصورة أفضل علاقاتك الغرامية بتلك المرأة التي تلاحقها ، تلك المرأة التي تحبك ؟ ألكي لا يبقى هناك مجال للقول بأن لك عشيقة ، بعد أن تصبح في نظر الناس رجلاً متزوجاً ؟

فقال شارني وهو يترنح :

- في الواقع يا سيدي ...

وأضاف فيليب يقول :

- أتريد أن تتزوج من امرأة يتحتم عليها أن تكون بصورة دائمة قريبة من عشيقتك ، كي يصبح من السهل عليك اكثر ، رؤية هذه العشيقة المعبودة ؟

- سيدي ، لقد تجاوزت الحدود !

فاقترب فيليب من شارني وأكمل يقول :

- وربما كان هدفك من أن تصبح صهري ، وهذا ما أرجحه ، هو أن لا أفضح ما أعرفه عن غرامياتك السابقة .

فصاح شارني مرتعباً :

- ما تعرفه !... حذار ، حذار !

فقال فيليب بانتعاش :

– نعم، منزل «لوفاتييه» الذي استأجرته ... نزهاتك السرية والليلية في بارك «فرساي» ... يداك المضغوطتان ... تنهداتك ... وبالأخص تلك النظرات الحنونة عند بوابة «البارك» الصغيرة ...

سيدي، سيدي، بحق السماء! أنت لا تعرف شيئاً، قل بأنك لا تعرف شيئاً ...

فصاح فيليب بتهكم جارح :

– لا أعرف شيئاً !.. كيف لا أعرف شيئاً، أنا الذي كنت مختبئاً في العليقة وراء بوابة حمامات أبولون، عندما خرجت والملكة متأبطة ذراعك ؟

فمشى شارني خطوتين، كان خلالهما كمن ضُرب على رأسه ضربة قاتلة، فأخذ يبحث عن متكأ حوله ...

فنظر إليه فيليب بصمت وتركه يتألم. تركه يكفِّر بهذا العذاب العابر عن ساعات الملذات الفائقة الوصف التي نسبها إليه وكان يؤنبه عليها.

لكن شارني استعاد حيويته وقال لفيليب :

– بالرغم مما قلته لي، فأنا ما زلت مصراً على طلب يد شقيقتك الآنسة دي تافرني. فإذا لم أكن سوى مخطط خسيس، كما افترضت منذ برهة، ولو تزوجت من أجل نفسي، سأبقى مع ذلك تعيساً وخائفاً من الرجل الواقف على

سري وسرّ الملكة . لكن يجب إنقاذ الملكة يا سيدي ، يجب إنقاذها من الهلاك !

فقال فيليب :

- وما الذي جعل الملكة هالكة تستوجب الإنقاذ ؟ هل لأن السيد دي تافرني قد شاهدها تتأبط ذراع السيد دي شارني ، وهي تنظر إلى السماء بعينين تفيضان بالسعادة ؟ أم هي هالكة لأني علمت بأنها تحبك ؟ أوه ! إن هذا لا يستأهل تضحية شقيقتي يا سيدي ، ولن أدعها تضحي بنفسها .

فأجاب شارني :

- هل تعلم يا سيدي لماذا ستكون الملكة هالكة إن لم يتمّ هذا الزواج ؟ السبب هو أنه في هذا الصباح بالذات ، وفيما كانوا يوقفون الكردينال دي روهان ، فاجأني الملك راكعاً على قدمي الملكة ...

- يا إلهي !

- وإن الملكة عندما سألها الملك الغيور عن سبب ما كنت عليه ، أجابته بأني جئت أطلب موافقتها على زواجي من شقيقتك . لهذا يا سيدي ، إن لم أتزوج شقيقتك ، ستكون الملكة هالكة ، هل فهمت الآن ؟

هنا قطعت عبارة أوليفيا الأخيرة صرخة وتنهدة ، انطلقتا من الصالون الصغير وقاعة الاستقبال الصغيرة .

فأسرع أوليفيا إلى مصدر التنهدة ، فرأى في الصالون الصغير أندريه دي تافرني مرتدية ثوب الخطبة الأبيض ، وقد أُغمي عليها بعد أن سمعت كل شيء ...

وبدوره فيليب أسرع الى مصدر الصرخة في قاعة الاستقبال الصغيرة ، فرأى البارون دي تافرني جثة بلا حياة ... فقد صرعه القهر بعد أن تبخرت كل آماله باكتشافه أن من تحبه الملكة هو دي شارني وليس ولده فيليب ...

لقد أُصيب البارون بسكتة قلبية مفاجئة ، وتحققت بموته نبوءة كاغليوسترو !

وفيليب المطلع على كل شيء والمدرك لمقدار الخجل من هذه الميتة ، ترك جثة والده وذهب الى الصالون الصغير ، حيث كان شارني يتأمل مرتعشاً تلك الصبية الجميلة الباردة والفاقدة الوعي ، دون أن يجرؤ على لمسها ...

ورغم قلبه الفائر وعينيه المنتفختين ، كان له الجرأة لأن يقول لشارني :

«لقد مات البارون دي تافرني ، وبموته أصبحت أنا رب أسرتي . لذا أقول لك : إذا نجت الآنسة دي تافرني من الموت ، سوف أوافق على زواجها منك .»

وكان بابا الصالون وقاعة الاستقبال قد تركا مشرعين ، مما يتيح للناظر رؤية الجسدين المطروحين أرضاً بتناسق وبشكل

موازٍ، فنظر شارني إلى جثة البارون برعب، وإلى جسد أندريه بيأس... وفيليب الذي كان ينتف شعر رأسه بيديه الاثنتين، أطلق إلى السماء نداءً من الاعماق استهدف بواسطته إثارة الشفقة في قلب الله الجالس على عرشه السرمدي. ثم قال بعد أن هدأت العاصفة في نفسه:

باسم شقيقتي التي لا تسمع، أقطع عهداً على نفسي أيها الكونت دي شارني، بأنها ستهب السعادة للملكة. وأنا أيضاً، ربما جاء يوم كنت فيه سعيداً بأن أهبها حياتي. والآن، وداعاً يا سيد دي شارني... وداعاً يا صهري!

قال فيليب هذا وحيّا أوليفيا، الذي وقف محتاراً لا يدري من أين يخرج كي يتحاشى المرور بالقرب من إحدى الضحيتين... فرفع فيليب شقيقته عن الأرض وأدفأها بين ذراعيه، وهكذا أتاح للكونت المرور، فتوارى عبر الصالون الصغير.

الأفعى، بعد التنين

★

والآن، حان الوقت كي نرجع إلى أشخاص روايتنا الذين قضت الضرورة والحبكة، بالإضافة الى الحقيقة التاريخية، بتنحيتهم قليلاً عن مسرح الاحداث.

لقد تركنا أوليفا، أو نيكول، تستعد للهرب لحساب جانّ. لكن عشيقها بوزير الذي نُبِّه للأمر بصورة مغفلة، أسرع وأنقذها من المنزل الذي سجنها فيه كاغليوسترو، فيما كان الصحافي ريتو ينتظر عبثاً في طرف شارع «روا دوريه».

ولما كان أمر العثور على العاشقين السعيدين يهم كثيراً مدير الشرطة السيد دي غروسن، فقد وضعت السيدة دي لاموت التي شعرت بأنها قد خُدعت، كل ثقلها في القضية، وجنَّدت لها جواسيسها وكل الاشخاص الذين تأتمنهم. رغم أنها كانت تفضل أن تحتفظ لنفسها بسرّ هذه المرأة الشبيهة بالملكة، عوضاً عن أن تشرك الآخرين في هذا السر.

وبعد التنظيم الجيد لعملية البحث الذي أعدَّته جانّ، كان لا بدَّ من العثور على نيكول. ولكن عندما عاد أحد

جواسيسها وأخبرها بأن البحث لم يسفر عن أية نتيجة، اعتراها يأس لا يمكن وصفه...

في تلك البرهة بالذات، بلغتها وهي متخفية، أوامر الملكة المتكررة بوجوب مثولها أمام جلالتها لتبرير سلوكها في قضية العقد.

فسافرت تحت ستار الليل الى بلدة «بار-سير-أوب» حيث كان لها استراحة هناك، فوصلتها دون أن يعرفها أحد، رغم الصعوبات التي اعترضت طريقها. وفي هذه الاستراحة كان لديها متّسع من الوقت كي تتبصر ملياً في وضعها، إذ أمضت فيها يومين وجهاً لوجه مع نفسها، استمدت في خلالهما القوة لتوطيد صرح النميمة والخداع في ذاتها.

فيومان من العزلة بالنسبة لهكذا امرأة غامضة ورهيبة، يعنيان الصراع الذي سينتهي بترويض الجسد والروح، فلا يبقى بعد هذا الترويض مجال ليقظة ضميرية تكون أداة خطرة عليها، وفي الوقت نفسه يعتاد الدم ان يدور دورته في القلب من دون أن يصعد إلى الوجه تعبيراً عن الخجل أو نتيجة للمفاجأة.

ولم يعلم الملك والملكة اللذان كانا يبحثان عن جانّ، بأنها موجودة في «بار-سير-أوب»، إلا في الوقت الذي كانت قد

استعدت هذه الأخيرة لشهر الحرب ، فبعثا برسول خاص لجلبها على وجه السرعة .

وكانت جانّ قد علمت بتوقيف الكردينال وزجّه في السجن ، وبانفجار الغضب لدى ماري انطوانيت ، فقدرت بأن الملكة قد صممت على عدم التراجع ، وأن العودة الى الماضي أصبحت مستحيلة ، بعد ان غامرت الملكة بكل شيء ، برفضها التراضي مع الكردينال ودفع المال الى الصائغين ، لذا أعدت لحربها أسلحة جديدة تتناسب مع التطورات الجديدة .

وفيما هي تعدُّ الخطة لحربها المقبلة ، وقف فجأة أمامها رجل ، نصفه يدل على أنه ضابط شرطة ونصفه الآخر يدل على أنه رسول ، وقف وأبلغها بأنه كلف باقتيادها إلى البلاط .

وعندما يُكلف رسول باقتياد شخص إلى البلاط ، فهذا يعني بأنه سيذهب به مباشرة إلى الملك . لذا قالت له جان بذلك الدهاء المعروف عنها :

- سيدي ، إنك ولا شك تحب الملكة ، أليس كذلك ؟

فأجابها الرسول :

- وهل تشكين في ذلك يا سيدتي الكونتس ؟

- إذن ، باسم هذا الحب الملكي والاحترام الذي تكنُّه للملكة ، أستحلفك بأن تقودني إليها أولاً .

ولما شاء الضابط الرسول أن يعترض، استأنفت الكونتس كلامها قائلة:

- أنت تعلم بالتأكيد، وأفضل مني، ما هو الأنسب. لذلك لا يخفاك أن لقاءً سرياً بين الملكة وبيني، هو ضرورة لا بدَّ منها.

ونظراً لجوِّ فرساي الذي كان مشحوناً بالدسائس والمؤامرات في ذلك العهد، فقد اعتقد الرسول صادقاً بأنه سيؤدي خدمة للملكة إن هو قاد السيدة دي لاموت اليها قبل أن يذهب بها إلى الملك، وهكذا صار.

ولنتصور الآن ماري انطوانيت الشديدة الحزن على حبها الذي حرمت منه والذي تحوَّل إلى فضيحة. ماري انطوانيت المسحوقة بالاتهامات التي لا تستطيع دحضها. لنتصورها بعدما عانت الكثير من العذابات، وهي تتأهب لأن تدوس بقدمها رأس الأفعى التي عضتها!

فالاحتقار البالغ الذروة، والحقد المتفجر، وكره المرأة للمرأة، والشعور بالرفعة التي لا تضاهى في المقام، هذه الامور كلها كانت تشكل سلاح الملكة ضدَّ عدوتها...

وقد بدأت ماري انطوانيت بأن أدخلت إثنتين من نسائها كشاهدتين، ما أن لمحتهما السيدة دي لاموت، حتى قالت في نفسها:

«حسناً! هاهما شاهدتان ستطردان بعد قليل.»

وبعد أن كانت قد انحنت احتراماً للملكة من دون ان تكلمها هذه الأخيرة، صاحت بها ماري انطوانيت بعد دخول الشاهدتين:

«آه! ها أنت! لقد وجدوك أخيراً!»

فانحنت جانّ مرة ثانية، وأكملت الملكة تقول بنفاد صبر:

– إذن، كنت متخفية؟

فأجابت جان بصوت رخيم، بالكاد سُمعت رنته:

– متخفية! لا يا مولاتي، لو كنت متخفية لما عثروا علي.

– إذن، هربت؟

– إذا كان المقصود بهربي أني تركت باريس، فهذا صحيح يا مولاتي.

– وبدون إذن مني؟!

– خفت أن لا تمنحني جلالتك الفرصة الصغيرة التي كنت بحاجة إليها كي أتدبر أموري في «بار – سير – أوب»، حيث كنت منذ ستة أيام، وقد بلغني خلالها الأمر بواجب المثول أمام جلالتك. من جهة أخرى، لم أكن أعتقد أنه من الضرورة بمكان أن أكون ملزمة باستئذان جلالتك من أجل غياب مدته ثمانية أيام.

- قد تكونين على حق يا سيدني . ولكن لمَ الخوف من أن أرفض فرصتك ؟ بل أية فرصة لك كي تطلبيها مني ؟ وأية فرصة عليَّ أن أمنحك إياها ؟ هل أنت تشغلين وظيفة في البلاط ؟

فحملت هذه الكلمات الكثير من الاحتقار إلى جانّ ، وشعرت بأنها قد جرحت في الصميم . إلا أنها بقيت محافظة على رباطة جأشها كالنمرة التي تصاب بسهم ، وقالت بخضوع :

- لا يا مولاتي ، الصحيح أني لا أشغل وظيفة معينة في البلاط ، لكن جلالتك شرفتني بثقتها الغالية جداً ، مما جعلني مرهونة بها بدافع عرفان الجميل ، أكثر من ارتهان الآخرين بها بدافع الواجب .

فأجابت الملكة ، وقد ضاعفت كلمة «ثقة» ما كانت عليه من احتقار في بداية تأنيبها :

- هذه الثقة ، سوف نصفي حسابها . هل رأيت الملك ؟

- لا يا مولاتي .

- سوف ترينه .

فحيَّت جان وقالت :

- سيكون ذلك شرفاً كبيراً لي .

وهنا حاولت الملكة أن تستعيد قليلاً من سكينتها، كي تبدأ بطرح أسئلتها بشموخ وغلبة.

فاغتنمت جان هذا التوقف كي تقول:

- ولكن، عجباً يا مولاتي! إنك تبدين قاسية جداً بالنسبة لي، فتجعلينني أرتعش كلياً!

فقالت الملكة بخشونة:

- ما زلت في الرقراق... هل بلغك أن السيد دي روهان هو الآن نزيل الباستيل؟

- لقد سمعت ذلك يا مولاتي.

- وهل تعرفين لماذا؟

فأنعمت جانّ النظر في الملكة، ثم استدارت نحو المرأتين اللتين كان حضورهما يزعجها، كما يبدو، وقالت:

- لا يا مولاتي، لا أعرف.

- أنت تعرفين، مع ذلك، بأنك كنت قد كلمتني على عقد... أليس كذلك؟

- عقد من الماس، نعم يا مولاتي.

- وأنك اقترحت علي، من قبل الكردينال، ترتيباً لدفع ثمنه؟

- هذا صحيح يا مولاتي.

- هل قبلتُ أم رفضتُ هذا الترتيب؟

- لقد رفضته جلالتك .

وبعد أن قالت الملكة برضى ممزوج بالدهشة : آه ! أضافت جانّ :

- وأيضاً وهبت جلالتك عربوناً قدره مئتا ألف ليرة .

- حسناً ... وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك ، لم تتمكن جلالتك من الدفع لأن السيد دي كالون لم يؤمن لها المبلغ المطلوب ، فردت علبة المجوهرات الى الصائغين بوهمير وبوسانج .

- بواسطة من رددتها ؟

- بواسطتي .

- وأنت ، ماذا عملت بها ؟

فقالت جانّ بتوان ، شاعرة بتبعة كل كلمة ستتلفظ بها :

- أنا ، سلمت الماسات إلى الكردينال .

فصاحت الملكة .

- إلى الكردينال !.. ولماذا إلى الكردينال وليس إلى الصائغين؟

- لأن السيد دي روهان يا مولاتي ، معنيٌّ بهذه الصفقة التي كانت جلالتك جدُّ مرتاحة لها ، فان لم أُتح له الفرصة كي ينهيها هو كما يشاء ، أكون قد طعنت كرامته .

- ولكن كيف حدث أن جئتني بايصال من الصائغين ؟

- لأن السيد دي روهان قد سلمني هذا الايصال .

- والرسالة التي سُلمت إلى الصائغين ، على أنها صادرة عني ؟

- لقد رجاني السيد دي روهان أن أسلمها إليهما .

فصاحت الملكة .

- إذن ، هو دائماً السيد دي روهان الذي اهتمّ بذلك !

فأجابت جانّ وهي شاردة الذهن :

- لا أعلم ما الذي تريد قوله جلالتك ، ولا بما اهتمَّ به السيد دي روهان .

- أريد القول بأن إيصال الصائغين المبعوث بواسطتك ، هو مزور !

فقالت جانّ متظاهرة بالبراءة :

- مزور ! أوه ! مولاتي !

- أريد القول بأن الرسالة المزعومة بالموافقة على شراء العقد ، والموقعة مني ، كما ظن الصائغان ، هي مزورة أيضاً !

فصاحت جانّ وقد تظاهرت بالدهشة :

- آه !

وتابعت الملكة تقول :

- وأخيراً ، أريد القول بأن مواجهتك بالسيد دي روهان ، هي أكثر من ضرورية لتوضيح هذه القضية .

فقالت جانّ :

– مواجهة !.. ولكن أية حاجة تستوجب مواجهتي بالكردينال يا مولاتي ؟

– هو نفسه يطلب هذه المواجهة .

– هو ؟

– وقد بحث عنك في كل مكان .

– ولكن ، هذا مستحيل يا مولاتي .

– يريد أن يثبت لك ، كما كان يقول ، بأنك قد خدعته .

– أوه ! إذا كان الأمر كذلك ، فأنا أطلب مواجهته .

– ثقي بأن طلبك سيتحقق . إذن ، أنت تنكرين معرفتك أين هو العقد ؟

– كيف يمكنني أن أعرف أين هو ؟

– أوتنكرين بأنك اشتركت مع الكردينال في بعض الدسائس ؟

– لجلالتك ملء الحق بأن تسقط الحظوة عني ، ولكن ليس لها أي حق بأن تهينني . فأنا من عائلة فالوا يا مولاتي .

– إن الكردينال قد أصرَّ أمام الملك على فضائح ، ظنَّ بأنها تستند إلى أُسس جدية .

– لم أفهم يا مولاتي .

– صرَّح الكردينال بأنه كان يراسلني !

فنظرت جانّ إلى الملكة مواجهة ولم تجاوب . فقالت لها الملكة :

- ألم تسمعيني ؟

- بلى ، أسمعك يا مولاتي .

- وما هو جوابك ؟

- سأجيب عندما أتواجه مع الكردينال .

- حتى ذاك الوقت ، إذا كنت تعرفين الحقيقة ، ساعدينا !

- الحقيقة يا مولاتي ، هو أن جلالتك تهينني بدون سبب ، وتسيء معاملتي بدون حق .

- هذا ليس جواباً !

- مع ذلك يا مولاتي ، لن أقول هنا إلا الذي قلته .

وتطلعت جان إلى المرأتين مرة أخرى ، ففهمت الملكة قصدها ، لكنها أبت إلا الامعان في إذلالها ، فقالت :

- السيد دي روهان أُودع في الباستيل لأنه شاء أن يتكلم كثيراً ، فخذي حذرك يا سيدتي من أن تستحقي نفس المصير ، لأنك شئت أن تصمتي !

فغرزت جانّ أظافرها في لحم يديها ، لكنها ابتسمت وقالت :

- وهل بإمكان الباستيل أن يرغمني على الاعتراف بجريمة لم أرتكبها ؟

فألقت ماري انطوانيت على جانّ نظرة غضب ، وسألتها :

- ألن تتكلمي ؟

- ليس لدي ما أقوله يا مولاتي ، إن لم يكن لك .

- لي ؟ عجباً ! ألست معي أنت الآن تتكلمين ؟

- ليس معك وحدك .

فصاحت الملكة قائلة :

- آه ! أنت تريدين الأبواب مغلقة . أنت تخشين الفضيحة العلنية ، بعد أن سببت لي فضيحة الشك العلني !

- أرجو عدم التحدث بهذا الموضوع يا مولاتي ، فما عملته أنا ، كان من أجلك أنت .

- يا للوقاحة !

فقالت جانّ دون أن يتغير لونها :

- لقد تحملت باحترام إهانات ملكتي .

فردت عليها الملكة قائلة :

- سوف تباتين في الباستيل هذا المساء ، يا سيدة دي لاموت !

فأجابت المتهمة :

- ليكن يا مولاتي . ولكن قبل أن أبات ، وكما هي عادتي ، أسأل الله ان يديم العزة والبهجة لجلالتك .

فنهضت الملكة غاضبة ، وتوجهت الى الغرفة المجاورة وهي تصفق الأبواب بعنف ، ثم قالت في نفسها :

«بعد أن تغلبت على التنين ، سوف أسحق رأس الافعى ؟ فقد بتُّ أعرف ألاعيبها عن ظهر قلب ، وأعتقد بأني ربحت الجولة .»

قصد الصيد ... فاصطادوه!

★

وهكذا تم اعتقال السيدة دي لاموت كما شاءت الملكة ، وكانت فرحة الملك لا تضاهى ، لأنه كان يكره هذه المرأة كرهاً شديداً وبصورة فطرية .

وجرت المحاكمة بقضية العقد بكل الحماس الذي يمكن أن يثيره تاجران على وشك الافلاس أملاً بالتخلص من الورطة التي وقعا فيها ، ومتهمون يريدون أن يدفعوا التهمة عنهم ، وقضاة وُضع شرف رحياة الملكة بين أيديهم ، بالإضافة إلى التحزب لصالح هذا الفريق أو ذاك .

لقد كانت هذه المحاكمة بمثابة صرخة مدوية في كل فرنسا ، استطاعت معها الملكة أن تتعرف إلى أنصارها وأعدائها ، وأن تقوم بعملية إحصاء لهم .

واستمرّ الكردينال دي روهان منذ أن اعتقل، يطالب بمقابلة مع السيدة دي لاموت، إلى أن تحققت رغبته. وقد كان الأمير يعيش في الباستيل كسيد كبير. فخلا الحرية، كانت تتأمن له كل طلباته.

والمحاكمة منذ البدء، قد قوبلت باشمئزاز كبير، مراعاة لنوعية الاشخاص المتهمين. فالناس قد اندهشوا واستفظعوا ان يتهم أمير من آل روهان بالسرقة. كذلك كان الضباط وحاكم الباستيل يظهرون كل احترام للكردينال السيء الحظ. فبالنسبة إليهم، لم يكن متهماً، بل رجلاً زالت الحظوة عنه.

وعندما انتشرت الشائعات في الأوساط الشعبية بأن الأمير دي روهان هو ضحية الدسائس في البلاط، انقلب عطف الشعب عليه إلى حماس له.

والامير دي روهان الذي هو واحد من أنبل نبلاء المملكة الفرنسية، لم يكن يعلم بأن حب الشعب له سببه الظلم الذي لحقه ممن هو أنبل منه. فالكردينال الذي كان آخر ضحايا الطغيان، كان في الواقع من أوائل الثائرين في فرنسا.

ومقابلته مع السيدة دي لاموت تميزت بحدث جدير بالملاحظة. فالكونتس التي سمحوا لها بأن تتكلم بصوت منخفض كلما كان الموضوع يتعلق بالملكة، تمكنت من ان تقول للكردينال:

«أبعد كل الناس، وأنا مستعدة لإعطائك كل الايضاحات التي تطلبها.»

عندئذ أبدى الكردينال رغبته بأن يبقى وحده معها، فرفض طلبه. لكنهم سمحوا لمستشاره بأن يطرح ما يشاء من الاسئلة على الكونتس، ففعل. وقد أجابته عن سؤال يتعلق بالعقد:

«إني أجهل مصيره، ولكن كان من الحق أن يُعطى لي!»

وفيما كان المستشار يصيح غاضباً، وقد أذهلته جرأة هذه المرأة، سألته عما إذا كانت الخدمة التي أدتها الى الملكة والكردينال لا تساوي مليوناً...

فكرر المحامي هذا القول على الكردينال، مما جعله يشحب ويخفض رأسه، إذ ثبت له أنه قد سقط في فخ هذا القناص الجهنمي الذي يدعى الكونتس دي لاموت!

وعمد الى التفكير في طريقة يخنق معها الضجة التي ستؤدي بالملكة إلى الهلاك، إلا أن أصدقاءه أخذوا يحرضونه كي لا يقطع حبل الضغينة.

ودعموا اعتراضهم بأن شرفه معرض للخطر، لأن الموضوع يتعلق بشرفه، وبدون قرار يتخذه البرلمان ستبقى براءته غير ثابتة.

فكي تثبت براءة الكردينال ، يجب والحالة هذه أن تثبت علاقته بالملكة ، وبالتالي أن تثبت جريمة هذه الأخيرة .

عند هذا التروي ، أجابت جانّ بأنها لا تتهم الملكة ابداً ، كما أنها لا تتهم الكردينال . ولكن إذا أصرّا على اتهامها بأنها هي المسؤولة عن العقد ، فستضطر إلى قول ما لا تريد أن تقوله . أي أنها ستثبت بأن للملكة والكردينال مصلحة في اتهامها بالكذب .

فعندما أُبلغت هذه الخلاصة إلى الكردينال ، أظهر الأمير كل احتقاره لتلك المرأة التي تود التضحية به بهذه الطريقة . وأضاف بأنه يفهم إلى حد ما سلوك جانّ ، لكنه لا يفهم إطلاقاً سلوك الملكة !

هذه الكلمات التي نقلت إلى الملكة وفُسِّرت ، جعلتها تنتفض وتقفز من مكانها مهتاجة ، وتطلب إجراء استنطاق خاص لاستجلاء الجوانب الغامضة لهذه المحاكمة .

وعندئذ قامت القيامة في طول البلاد وعرضها على اللقاءات الليلية ، وقد غذّى الضجة حولها النمامون ومختلقو الأخبار ، فوجدت الملكة نفسها مهددة بخطر جسيم !

أما جانّ ، فأمام خاصة الملكة كانت تقول بأنها لا تعرف شيئاً عما يتحدث به الناس . ولكنها لم تكن هكذا متكتمة امام خاصة الكردينال ، بل كانت تردد دائماً :

«ليتركوني وشأني، وإلا سأتكلم !..»

هذا التكتم، وهذا التواضع، جعلا منها بطلة، وعرقلا مسيرة العدالة. حتى أن أجرأ المدققين في الملفات، كانوا يرتعشون وهم يراجعون الاضبارات الخاصة بهذه الدعوى. ولم يجرؤ أي محقق على متابعة استجواب الكونتس !

فهل ازداد الكردينال وهناً، فازداد صراحة؟ هل اعترف لأحد أصدقائه بما كان يعتبره سرَّ حبه؟ لا أحد يعلم، ولا يجوز لأحد أن يصدق ذلك، لأن الكردينال كان وفياً وذا قلب نبيل يليق بأمير من آل روهان. ولكن بقدر ما كان ملكياً في صمته، بقدر ما عمت الضجة حول محاورته للملكة. فكل ما كان قد قاله الكونت دي بروفانس، وكل ما كان قد عرفه أو شاهده شارني وفيليب، وكل هذه الألغاز المبهمة لأكثر من طامع في العرش، كشقيق الملك، وكل سرّ هذه الغراميات العفيفة التي لحقها الكثير من الافتراء، كل هذا قد تبخر كما العطر، وشاع في كل مكان، وأصبح على كل شفة ولسان !

وأخذ الناس يفكرون عما إذا كانت الملكة قد وجدت مدافعين عنها متحمسين، وعما إذا كان الكردينال قد وجد هو الآخر مدافعين عنه عيورين.

والسؤال لم يكن : «هل الملكة سرقت العقد أم لا ؟» فمع أنه سؤال مخزٍ في حدِّ ذاته ، إلا أنه لم يكن كافياً . لذا السؤال المطروح كان :

«هل اضطرت الملكة أن تسمح لواحد اكتشف سرّ غرامياتها الخيانية ، بأن يسرق العقد ؟»

وهكذا استطاعت جان أن تتجنب الحرج ، وأن تؤلب الرأي العام ضدَّ الملكة، فوجدت ماري انطوانيت نفسها تسير في طريق لا يوصل إلا إلى الخزي والعار . مع ذلك ، ما انهارت ولا وهنت عزيمتها ، بل قررت أن تناضل ، وقد دعمها الملك في نضالها ، كذلك دعمها الوزراء بكل قواهم .

وتذكرت ماري انطوانيت بأن الامير دي روهان كان رجلاً شريفاً ، وان تصرفاته لا تنم عن استعداده لأن يودي بامرأة الى الهلاك ، وهذا ما أثبته في كل مرة زار بها قصر فرساي .

وانتهت الى الاعتقاد بأن الكردينال ليس عدوها المباشر ، وأنه مثلها يهمه قبل كل شيء أن يخرج من هذه القضية وشرفه مصان .

فانصبَّ عندئذ جهدها في هذه الدعوى على الكونتس ، وتضاعف النشاط في البحث عن العقد من خلال استنطاقها وحملها على قول الحقيقة .

والملكة التي قبلت الجدل في اتهامها السخيف بالخيانة الزوجية، قد ألقت على جانّ بالتهمة المرعبة في سرقة العقد بالطرق الاحتيالية.

وغدا حديث الناس كلهم ضدَّ مصلحة الكونتس. فسوابقها، وحياة البؤس التي سبق أن عاشتها، ورفعة مقامها المستهجنة، والنبالة التي لا يمكنها أن تقبل فجأة هكذا أميرة، كل هذه الأمور كانت موضع شك من قبل الشعب. لكن الشعب الذي يكره المغامرين بالغريزة، ولا يغفر لهم حتى نجاحاتهم، لم يكن باستطاعته أن يطالب الكونتس.

وتبين لجانّ بأنها سارت في طريق الضلال، وبأن الملكة، بتحملها للتهمة وعدم استسلامها للخوف من الضجة، تدعو الكردينال للاقتداء بها، وبأنه لا بدّ لها في النهاية من أن تلقى آذاناً صاغية وتبصر النور. وحتى إن سقطت، فهي ستسقط في هوة رهيبة تنسحق معها تلك الاميرة «الفالوازية» المسكينة، ساعة لا يبقى لديها من المليون الذي سرقته، حتى ما يكفي لرشوة قضاتها.

وفيما كان الوضع هكذا، جرت واقعة غيرت مجرى الأمور. فبوزير الذي كان يعيش مع أوليفا عيشة سعيدة في منزل ريفي، عنَّ له يوماً أن يذهب لاصطياد الأرانب البرية. ولكن ما أن ترك أوليفا وحدها في المنزل وخرج، حتى سار

في إثره إثنان من عملاء السيد دي غروسن، مدير الشرطة، الذي كان قد زرع جواسيسه في كل أنحاء فرنسا، كي يصل الى خاتمة لهذه المؤامرة على الملكة بإلقاء القبض على المرأة التي تشبهها وتجيِّر لها كل تصرفاتها.

وكان العاشقان يجهلان كل ما يجري في باريس، ولا يفكران إلا بنفسيهما. فالآنسة أوليفا قد سمنت حتى أصبحت كالشرعوب العائش في مخزن الغلال، وبوزير غمرته السعادة وزايله كل قلق.

وفيما كان بوزير يبحث عن الأرانب البرية، طار على مسافة منه رفٌّ حجال، فاجتاز إحدى الطرق ليلحق به. وهكذا فيما هو يسعى وراء الشيء الذي كان يقصده، التقى ما لم يكن يقصده... فرجلا الشرطة اللذان كانا يبحثان عن أوليفا، وجدا أمامهما بوزير.

وكان أحد هذين الجاسوسين رجلاً نبيهاً، فعندما عرف بوزير جيداً، عوضاً عن أن يلقي القبض عليه بعنف، وهذه طريقة غير مجدية، وضع الخطة التالية التي عرضها على رفيقه بقوله:

«طالما أن بوزير يصطاد، فهذا يعني أنه حرٌّ وأنه ثريّ. قد يكون في جيبه الآن خمس أو ست ليرات ذهبية، ولكن من المحتمل أن يكون لديه في منزله مئتان او ثلاث مئة ذهبية.

فلندعه يعود الى منزله ، ثم نلجه ونعرض عليه فدية . لأننا إذا عدنا به إلى باريس ، لن نحصل سوى على مكافأة عادية قدرها مئة ذهبية . وفوق ذلك سينالنا التأنيب لأننا تسببنا في زجِّ شخص في السجن له بعض الاعتبار .»

وأخذا يصطادان الحجال والأرانب كما كان يفعل السيد بوزير .فعندما يكون هناك أرنب يطلقون الكلاب في إثره ، وعندما يكون هناك حجل يحوشانه خلال نبات الفصَّة والبرسيم .

فعندما رأى بوزير هذين الغريبين يتدخلان في شؤونه ويزاحمانه على الصيد ، أدهشه ذلك كثيراً بادئ الأمر ، ثم استشاط غضباً فيما بعد .

ولكنه عوضاً عن أن يسأل هو نفسه هذين «الرفيقين» عن الدافع الذي جعلهما يزاحمانه في صيده ، اندفع مباشرة باتجاه حارس لحه في السهل ، وكلفه بأن يذهب ويسأل هذين السيدين لماذا يصطادان في هذه البقعة من الأرض . فذهب اليهما الحارس وفي نيته أن يمنعهما من الصيد ، على اعتبار أنهما من غير سكان المنطقة . لكن الغريبين قالا له بأنهما يصطادان بمعية صديق لهما ، وأشارا إلى بوزير على أنه ذلك الصديق !

عندئذ ذهب بهما الحارس إلى بوزير، وقال له:

«إن هذين السيدين يزعمان بأنهما يصطادان برفقتك يا سيد دي لانفيل.»

فصاح بوزير غاضباً:

- برفقتي... أنا!

وقال له أحد الجاسوسين بصوت منخفض:

- عجباً يا عزيزي بوزير! إذن أنت تدعى أيضاً السيد دي لانفيل؟

فارتعش بوزير، لأنه كان دائماً يخفي اسمه الحقيقي في ذلك الريف. ثم نظر إلى أحد الجاسوسين، وانتقل بالفطرة إلى الآخر، فارتعب إذ تخيل له بصورة غير أكيدة أنه يعرف هذين الوجهين... وكي لا تتفاقم الامور، صرف بوزير الحارس آخذاً على عاتقه مسؤولية هذين السيدين. فقال له الحارس:

- إذن، أنت تعرفهما؟

فأجابه أحد الجاسوسين:

- نعم، تعرفنا إلى بعضنا البعض.

عندئذ وجد بوزير نفسه بحضور هذين السيدين، مرتبكاً في التحدث إليهما من دون أن يعرّض نفسه للخطر. فقال له من كان أكثر لباقة وظرفاً من الجاسوسين:

- يسرنا أن تدعونا إلى الغداء على مائدتك يا سيد بوزير!

فصاح بوزير:

- على مائدتي! ولكن...

- ونرجو المعذرة عن هذه الوقاحة يا سيد بوزير.

فطاش رأس بوزير وانقاد إلى ما لا يريده، وتوجه الثلاثة الى منزله. وما أن لمح رجلا الشرطة البيت الصغير الذي يقطنه عشيق أوليفا، حتى أخذا يمتدحان أناقته، وموقعه، وفنه الهندسي، والأشجار التي تحيط به، وذوق من اختاره ليكون مكاناً لإقامته.

وفعلاً كان بوزير قد اختار مكاناً فتاناً ليكون عشاً لغرامياته، هو كناية عن وادٍ صغير مشجَّر يتوسطه نهر صغير، وقد شُيِّد المنزل على منحدر منه الى الشرق. وكان لهذا المنزل مرقب، هو نوع من القبة الصغيرة بدون جرس، كان بوزير يستعمله كمرصد يشرف منه على الريف أيام السأم، عندما تخبو أفكاره الجميلة ويصبح في نظره، كل فلاح يحنو على محراثه مفوضاً للشرطة!

وكان هذا المسكن يبدو ضاحكاً للأعين من جهة واحدة. أما الجهات الباقية منه، فكانت مغمورة بالأشجار والثنيات الأرضية. فقال أحد الجاسوسين بإعجاب:

«يا للمخبأ الجميل في هذا المكان!»

فارتعش بوزير من هذه الدعابة، ودخل الأول إلى منزله على نباح الكلاب في الفناء.

ثم لحق به الشرطيان، بعد أن تبادلا المجاملات في من يجب أن يدخل أولاً...

العاشقان يقعان في الفخ

★

بعد أن دخل بوزير من بوابة الفناء، تعمد الضجة الكافية كي يلفت نظر أوليفا إلى واجب الاحتراس، دون أن يكون على علم بشيء من قضية العقد، إلا أنه كان يعرف أشياء عما جرى في حفلة الاوبرا الراقصة، وعما جرى أيضاً في عيادة الدكتور ميسمار، وهذا كافٍ لأن يجعله يخاف على أوليفا من الظهور أمام شخصين غريبين.

وكان تصرفه محقاً، لأن أوليفا كانت تقرأ إحدى الروايات الخلاعية وهي مسترخية على أريكة في صالونها الصغير، فما أن سمعت نباح الكلاب ونظرت إلى الفناء، حتى رأت بوزير برفقة شخصين، مما جعلها تمتنع عن ملاقاته كما تعودت أن تفعل.

ولسوء الحظ، لم يكن هذان العاشقان خارج مخالب النسر. فعندما طلب بوزير من أحد الخدم أن يهيئ الغداء، سأله هذا الخادم الساذج مرتين أو ثلاث، عما إذا كان يتوجب عليه أن يأخذ أوامر سيدته. مما جعل الجاسوسين يصيخان السمع، ويسخران من بوزير بتحبب على هذه الزوجة المتخفية. لكن بوزير فضَّل هذه السخرية على أن يظهر زوجته.

وأثناء المأدبة السخية التي مُدَّت على شرف الجاسوسين، شرب هذان عدة مرات نخب السيدة الغائبة!

وبعد أن أفرغا في جوفيهما عدة زجاجات من الخمر، ارتأى رجلا الشرطة بأنه من غير الجائز «انسانياً» أن يطيلا عذاب مضيفهما، فدخلا معه مباشرة في حديث مؤاده: كم يسرّ أصحاب القلوب الطيبة، بأن يلتقوا أصدقاءهم القدماء...

عند ذاك، سأل بوزير المجهولين فيما هو ينزع سدادة قنينة خمر معتقة:

– في أي مكان، وفي أية مناسبة، كان لي شرف التعرف إليكما؟

فأجابه أحدهما:

– لقد كنا صديقين لأحد شركائك، أثناء صفقة صغيرة قمت بها معهم... صفقة السفارة البرتغالية!

فشحب لون بوزير، وشعر كأن حبلاً يلتف حول عنقه... ثم قال في حيرة وهو يرتعش:

– آه! صحيح، لقد جئتما تطالباني بالنيابة عن صديقكما...

فقال احد الجاسوسين لرفيقه همساً:

– في الواقع، إنها فكرة، ومدخل يتسم بالشرف. فالمطالبة بحق صديق لنا غائب، هو عمل أخلاقي!

فأجاب رفيق ذلك الأخلاقي، مع ابتسامة مبطَّنة جعلت بوزير يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه:

– وفوق ذلك، تبقى جميع حقوقنا الباقية محفوظة.

ثم استدار الشرطي الاخلاقي نحو بوزير، وقال له:

– إذن، يسرنا يا عزيزي بوزير أن ترد لأحدنا حصة صديقنا، وهي عشرة آلاف ليرة، كما أعتقد.

وأكمل الرفيق الايجابي:

– على الأقل، مع العلم بأننا لن نطالب بالفوائد المستحقة!

فأجاب بوزير وقد ضيَّق أنفاسه هذا المطلب:

- ولكن في الريف يا سيديَّ ، ما من أحد يملك في منزله عشرة آلاف ليرة .

- ذلك أمر مفهوم يا عزيزي ، ونحن لن نطلب المستحيل . كم باستطاعتك أن تدفع الآن ؟

- لدي خمسون أو ستون ذهبية ، لا أكثر ولا أقل .

- حسناً ، سنأخذ المتيسر الآن ، مع شكرنا على اللطف الذي بدر منك .

فقال بوزير في نفسه :

«يبدو أن معاشرتهما سهلة . ومما لا شك فيه أنهما سيكونان راضيين كل الرضى ، ويلوذان بالصمت المطلق .»

ومن فرط ثقته فيما اعتقد ، ندم لأنه لم يعرض عليهما ثلاثين ذهبية بدلاً من ستين . لكنه أمَّل بأن يتخلص منهما بسرعة بواسطة هذا المبلغ ، فقال لهما وقد خشي أن يسترسلا في شرب الخمرة فتزداد دالتهما عليه :

- سأجيئكم بهذا المبلغ فوراً ...

فصاح الاثنان سوية :

- لسنا مستعجلين ! لسنا مستعجلين !

فقال بوزير :

- مع ذلك ، أفضل الدفع الآن ، لأن ضميري لن يرتاح إلا بعد الدفع !

وشاء ان يتركهما ويصعد الى الطابق العلوي لجلب المال . لكن رجلي الشرطة اللذين اعتادا ، عملا بمقتضيات الوظيفة ، ان لا ينفصلا عن الغريم عندما يصبح تحت رحمتهما ، تماماً كما يفعل كلب الصيد مع الحجل المجروح ، إذ إنه لا يتركه إلا بعد ان يسلّمه الى الصياد ، أسرعا إلى الإمساك بأهداب ثوبه الجوخي الأخضر ، وصاحا قائلين :

- أيها العزيز بوزير ! أيها العزيز بوزير !

فسألهما بوزير :

- ما بكما ؟

فقالا وهما يرغمانه بلطف على الجلوس :

- من فضلك ، لا تتركنا !

- ولكن كيف تريدان ان أعطيكما مالكما ، إذا لم تتركاني أصعد ؟

فأجابه الشرطي الايجابي برقة مخيفة :

- سوف نصعد معك !

فقال بوزير باستغراب :

- ولكنها ... غرفة زوجتي !

وهذه العبارة التي كانت حجة قوية في نظر بوزير لمنعهما من اصطحابه ، كانت بالنسبة للجاسوسين كالشرارة النارية التي تلهب البارود ، إذ صاح أحدهما قائلاً :

- ولماذا تخبئ زوجتك ؟

وأكمل رفيقه :

- نعم ، لماذا تخبئها ؟ ألسنا لائقين لأن تقدمنا إليها ؟

ثم عاد الاول ليقول :

- لو كنت تعلم ما نقوم به من أجلك ، لكنت أكثر لياقة معنا .

وأضاف الثاني :

- ولما ضننت علينا بشي مما نطلبه منك .

فقال بوزير :

- آه ! بخصوص ما تطلبانه ، سوف تنالانه بكل طيبة خاطر .

فأجاب الشرطي الايجابي :

- لقد قررنا أن نرى زوجتك أولاً !

فصاح بوزير وقد فقد صوابه :

- وأنا قررت أن أضعكما خارجاً !

فردّ عليه الشرطيان بضحكة مدوية لم تعده إلى صوابه ، بل زادته تصلباً ، فقال :

- والمال الذي وعدتكما به لن تحصلا عليه ، وسوف ترحلان من منزلي .

فضاعف الشرطيان ضحكهما، مما جعل بوزير يرتعش من شدة الغضب ويقول بصوت مخنوق:

- حذار من التمادي في الهزء والسخرية، وإلا ...

لكن الشرطيين استمرا يضحكان، إذ طابت لهما السخرية فكانت جوابهما الوحيد.

وظن بوزير أنه سيرعبهما إذا ما تظاهر بالبأس والقوة. فأسرع متجهاً نحو الدرج، لا بهيئة الرجل الذي يود جلب الليرات الذهبية، بل كغاضب يود استحضار سلاحه.

عندئذ نهض الشرطيان عن الطاولة، وجريا وراء بوزير، وأطبقا بقبضات أيديهما عليه.

وفيما كان ذلك المسكين يصيح ويصرخ، فُتح أحد الأبواب وظهرت في إطاره امرأة مضطربة، ما أن رآها الشرطيان حتى تركا بوزير وشأنه وأطلقا صيحة فرح وانتصار ودهشة ... لقد عرفا فيها المرأة التي تشبه شبهاً كبيراً ملكة فرنسا!

فاعتقد بوزير لحظة أن الغريبين قد رميا سلاحهما أمام أوليفا، لكن ظنه ما لبث أن خاب.

إذ تقدم الشرطي الايجابي من الآنسة أوليفا، وألقى على شبيهة الملكة نظرة، ثم قال بلهجة خالية من التهذيب تقريباً:

- آه! آه! إني ألقي القبض عليك!

فصاح بوزير :

– تلقي القبض عليها ! ولماذا ؟

فأجاب الشرطي الآخر :

– لأن السيد دي غروسن قد أمرنا ، ونحن في خدمة السيد دي غروسن .

ولو أن الصاعقة قد انقضت بين العاشقين ، لما أرعبتهما بقدر ما أرعبهما هذا التصريح ...

ثم قال الشرطي الايجابي إلى بوزير :

– لهذا السبب ، لم نتمكن أن نكون لطيفين معك ، كما كنت معنا .

فاستدرك رفيقه قائلاً :

– أنت غلطان يا لوغرينييه ، فلو أن السيد بوزير كان لطيفاً معنا ، لما حجب عنا زوجته . مهما يكن من أمر ، فإننا سنقبض على السيدة .

وكان بوزير قد أسند رأسه المحموم بكلتا يديه وأخذ يفكر ، وإذ بفكرة تلتمع في رأسه ، فيبتسم لها بشيء من الاطمئنان ويسأل الشرطيين :

– لقد جئتما لإلقاء القبض عليّ أنا ، أليس كذلك ؟

فأجاب الاثنان بسذاجة :

– لا ، إنها الصدفة فقط !

- لا بأس ، يمكنكما توقيفي ، طالما أنكما قد وافقتما على إطلاق سراحي بستين ذهبية .

فقال له أحد الشرطيين :

- أوه ! لا ، كان في نيتنا أن نطلب ستين ذهبية أخرى .

وأكمل الثاني يقول :

- ونحن عند كلامنا . فمقابل مئة وعشرين ذهبية ، سوف نطلق سراحك .

فقال بوزير مرتعشاً :

- لكن ... السيدة ؟

فأجاب الشرطي الايجابي :

- أوه ! فيما يتعلق بالسيدة الأمر يختلف !

فأسرع بوزير الى القول :

- لقد فهمت . إن إطلاق حرية السيدة ، يكلف مئتي ذهبية ، أليس كذلك ؟

فأخذ الشرطيان يضحكان ضحكاً مرعباً ، مما جعل بوزير يدرك الحقيقة المرة ... فقال والحسرة تتآكله :

- ثلاث مئة ... أربع مئة ... ألف ليرة ذهبية ! فقط اتركاها حرة .

فبقي الشرطيان صامتين ، وأكمل بوزير يقول والشرر يتطاير من عينيه :

– ألا تجيبان !.. أنتما تعلمان بأني ثريّ ، وتريدان أن أدفع لكما ، ومطلبكما عادل جداً . لذا سأعطيكما ألفي ذهبية ، وهذا المبلغ يؤمن ثروة لكل منكما ، فقط اتركاها حرة !

فسأله الشرطي الايجابي :

– ألهذه الدرجة ، تحب هذه المرأة ؟!

فجاء هذه المرة دور بوزير بالضحك ، لكنه كان ضحكاً مرعباً يعكس الحب البائس الذي يفترس قلبه ، مما أخاف الشرطيين وجعلهما يحذران من انفجار اليأس الذي كانا يقرآنه في عيني بوزير التائهتين .

فسحب كل منهما مسدسه من جيبه ووضع فوّهته على صدر بوزير ، وقال له أحدهما :

– لو دفعت لنا مئة ألف ريال ، لما تخلينا عن هذه المرأة . فالأمير دي روهان سيدفع لنا خمسماية الف ليرة ، والملكة مليوناً .

فرفع بوزير عينيه إلى السماء ، وتعابير الألم المرتسمة على وجهه تثير شفقة الوحش المفترس ، إلا أنها لم تثر شفقة رجلي الشرطة ، بل قال له الايجابي منهما :

– هيا ، وسر أمامنا ! يتوجب عليك تدبير عربة للسيدة !

وقال له الآخر :

– وبما أننا لسنا سوى شيطانين طيبين ، سنترفق بك . أي أننا سنصطحبك معنا شكلياً ، وفي الطريق نغضّ الطرف ، فتقفز أنت من العربة إلى الأرض ، ولا نلتفت نحن إليك إلا بعد أن تكون قد ابتعدت مئة خطوة . وهذه معاملة حسنة ، أليس كذلك ؟

فأجاب بوزير :

– أينما تذهب ، سأذهب . فلن أتركها إطلاقاً في هذه الحياة .

وأضافت أوليفا وقد جمّدها الرعب :

– ولا في الحياة الآخرة .

فقاطعها الشرطي الايجابي قائلاً :

– حسناً ، وذلك أفضل . فعوضاً عن أن نسوق أسيراً واحداً إلى السيد دي غروسن ، نسوق أسيرين ، فنفرّح قلبه أكثر !

وبعد ربع ساعة ، انطلقت عربة بوزير من باحة عشِّ غرامه ، تقل العاشقين الأسيرين وحارسيهما .

في مكتبة الملكة

★

لنستعرض الآن نتائج هذه العملية ، بالنسبة للشرطيين وللسيد دي غروسن . فبالنسبة للشرطيين ، من المحتمل أن لا يكونا قد قبضا مليون ليرة ، كما كانا يأملان ، ولكن مما لا شك فيه ، أنهما قد حصلا على ترضية .

اما بالنسبة للسيد دي غروسن ، فإنه بعد أن فرك يديه دلالة على انشراح صدره ، استقل عربة وانطلق بها إلى فرساي ، وقد لحقت به عربة أخرى مغلقة بإحكام ومقفلة .

وكان ذلك في اليوم التالي لتسلمه نيكول أو أوليفا ، من الشرطي «الايجابي» ورفيقه .

أدخل مدير الشرطة العربتين الى باحة قصر التريبانون ، وهبط هو من تلك التي كان يستقلها ، وترك الثانية بحراسة كبير أمنائه .

وكان قد طلب مقابلة الملكة في القصر المذكور ، فأدخل عليها فوراً . وما أن لاحظت الملكة إشراقة وجهه ، حتى استنتجت بأنه يحمل إليها أخباراً سارة .

مسكينة هذه المرأة! فإنها منذ مدة طويلة لم ترَ حولها إلا وجوهاً كالحة ومتحفظة، لذا خفق قلبها بالفرح لأول مرة، بعد أن قاسى العذاب طيلة ثلاثين يوماً.

وبعد أن قبّل السيد دي غروسن يد الملكة، سألها قائلاً:

- مولاتي، هل لدى جلالتك قاعة باستطاعتك أن تنظري منها كل ما يجري، دون أن يراك أحد؟

فأجابت الملكة:

- لدي مكتبتي. فوراء خزائنها الجدارية، أمضيت أياماً في قاعتي المخصصة للوجبات الخفيفة، كنت في خلالها بعض المرات، وأثناء تناولي الطعام، ألهو مع السيدة دي لامبال أو الآنسة دي تافرني، عندما كانت هذه الأخيرة في خدمتي، بالنظر إلى تكشيرة الأب فيرمون[1] المضحكة، عندما يقع بصره على مقالة هجائية تتعلق به.

فقال السيد دي غروسن:

- حسناً جداً يا مولاتي. لدي عربة أريد إدخالها إلى القصر دون أن يرى أحد ما في داخلها، إلا جلالتك.

فأجابت الملكة:

- الأمر في منتهى السهولة. أين هي عربتك؟

---

(١) الأب فيرمون كان مؤدب ماري انطوانيت في فيينا.

- في الفناء الاول يا مولاتي.

فقرعت الملكة جرساً، وقالت لمن جاء يتلقى أوامرها:

- أدخل العربة التي يدلك عليها السيد دي غروسن إلى الرواق الكبير، وأغلق البابين كي تعمَّ الظلمة، وكي لا يرى أحد قبلي المفاجأة التي يحملها إلي السيد دي غروسن.

فنُفِّذ أمر الملكة بكل دقة. وبعد أن دخلت العربة تحت القبة قرب مركز الحرس، وأفرغت حمولتها في الدهليز المظلم، قال السيد دي غروسن:

- أما الآن يا مولاتي، فتفضلي معي إلى قاعة الوجبات الخفيفة، واعطي الأمر كي يدخل كبير أمنائي إلى المكتبة، مع ما سينقله إليها.

وبعد أن مضى على الملكة عشر دقائق وهي تراقب خافقة القلب، رأت شكلاً مغطى يدخلونه إلى المكتبة. وما أن رفع كبير أمناء مدير الشرطة الغطاء عن الشكل، وعرفت الملكة ما تحته، حتى أطلقت صيحة رعب... فهذا الشكل كان أوليفا، وقد كانت ترتدي ثوباً من أحب الأثواب على قلب ماري انطوانيت!

لقد كان ثوبها أخضر اللون ذا أشرطة سوداء عريضة ومتموجة، وشعرها مرفوعاً إلى أعلى كما كانت تسرح الملكة شعرها، وفي أصابعها خواتم شبيهة بخواتمها، وتنتعل مثلها

بابوجاً من الساتان الأخضر ذا كعب ضخم. إنها ماري انطوانيت بذاتها !!

فاعتقدت الملكة بأنها ترى نفسها في مرآة قبالتها، فأخذت تحملق في هذا الخيال ...

عندئذ قال لها السيد دي غروسن، وهو فخور بهذا الانتصار:

– ماذا تقول جلالتك بهذا التشابه.

فتمتمت الملكة بتأثر بالغ:

– أقول ... أقول ... سيدي ...

ثم أكملت في نفسها: آه شارني! لماذا لست هنا؟

– ماذا تريد جلالتك.

– لا شيء يا سيدي، لا شيء، سوى أن يعرف الملك جيداً ...

– وأن يرى الكونت دي بروفانس، أليس كذلك يا مولاتي؟

– أوه! شكراً يا سيد دي غروسن، شكراً. لكن ماذا ستفعلون بهذه المرأة؟

فسأل السيد دي غروسن:

– أليس لهذه المرأة، يُنسب كل الذي حدث؟

– أنت واثق بأنك أمسكت بخيوط المؤامرة؟

- تقريباً يا مولاتي.

- والكردينال دي روهان؟

- الكردينال دي روهان، لم يعلم شيئاً حتى الآن.

فقالت الملكة وهي تخبئ رأسها بيديها:

- هذه المرأة يا سيدي، هي كما أرى، سبب كل الضلال الذي وقع فيه الكردينال!

- ربما يا مولاتي. ولكن إذا كانت هي من أضلّ الكردينال، فغيرها من ارتكب الجريمة!

- إبحث جيداً يا سيدي، فإن شرف العائلة المالكة في فرنسا، هو بين يديك.

فأجاب مدير الشرطة:

- وثقي يا مولاتي، بأنه بين يدين أمينتين.

فقالت الملكة:

- ومتى المحاكمة؟

- إنها في الطريق. الكل ينكرون الآن، لكنني سأنتظر الفرصة المناسبة، كي أقدم هذه الوثائق الثبوتية الموجودة لديك، هنا في مكتبتك.

- والسيدة دي لاموت؟

- إنها تجهل بأني قد عثرت على هذه المرأة، وهي تتهم

السيد دي كاغليوسترو بأنه أثار الكردينال إلى درجة جعلته يفقد صوابه.

- والسيد دي كاغليوسترو؟

- السيد دي كاغليوسترو طرحت عليه بعض الأسئلة، وقد وعدني بأنه سيأتي إلى مكتبي هذا الصباح بالذات.

- إنه رجل خطير!

- سيكون رجلاً نافعاً. فالملسوع من أفعى كالسيدة دي لاموت، سوف يمتص السم ليرده لنا ترياقاً.

- هل تأمل باكتشافات؟

- بل أنا واثق.

- كيف ذلك يا سيدي؟ أوه! قل لي كل ما يمكنه أن يطمئنني.

- إليك براهيني يا مولاتي: إن السيدة دي لاموت كانت تقطن في شارع سان كلود...

فقالت الملكة وقد احمرت وجنتاها:

- أعلم، أعلم.

- نعم، وجلالتك شرَّفت هذه المرأة بالاحسان إليها.

- وقد ردت إلي هذا الاحسان، أليس كذلك؟ إذن، كانت تقطن شارع سان كلود.

- والسيد دي كاغليوسترو، يقطن بالضبط تجاهها.

- وهل تفترض؟..

- أنه إذا كان هناك سرّ يخص واحداً من هذين الجارين، فالسر يجب أن يكون مشتركاً بينهما. لكن، عفواً يا مولاتي، فقد حان وقت استقبالي لكاغليوسترو في باريس، ولا أريد تأخير هذه التوضيحات إطلاقاً.

- إذهب يا سيدي، إذهب. ومرة ثانية، ثق بأني قادرة لك فضلك.

وبعد أن ذهب السيد دي غروسن، صاحت ماري انطوانيت وهي تذرف الدموع:

«ها قد بدأت تظهر براءتي، ولسوف أقرأ انتصاري على كل الوجوه. لكن الصديق الوحيد الذي يهمني أن أثبت له براءتي، لن أراه!»

وهكذا انطلق مدير الشرطة مسرعاً إلى باريس، ودخل إلى مكتبه حيث كان السيد دي كاغليوسترو بانتظاره.

وكان كاغليوسترو واقفاً على كل شيء، منذ العشية. ففيما كان قاصداً منزل بوزير في الريف كي يحثه على مغادرة فرنسا، إذا به يراه في الطريق داخل العربة وبين الشرطيين، فيما كانت أوليفا مختبئة في قعرها من فرط خجلها، والدموع تنساب من عينيها.

فما أن رأى بوزير الكونت الذي اعترضهم بعربته، حتى

عرفه، وأوحى اليه هذا السيد الغامض والقدير بفكرة غيرت كل أفكاره التي كانت قائمة على عدم التخلي إطلاقاً عن أوليفا.

فجدد العرض الذي كان قد اقترحه على الشرطيين كي يتملص منهما، فقبل هذان بالمئتي ذهبية التي كانت في حوزته، وتركاه وشأنه رغم دموع أوليفا.

غير أن بوزير، وهو يقبّل عشيقته قبلة الوداع، همس في أذنها قائلاً:

«لا تيأسي، سوف أعمل على إنقاذك!»

وانطلق بخطى سريعة في الاتجاه ذاته الذي سار به كاغليوسترو.

وكان كاغليوسترو قد أوقف عربته بعد ان سار مسافة غير طويلة، إذ وجد من المناسب أن ينتظر بوزير مدة تكفي لأن يلحق به على قدميه، إن كان قد جرى وراءه.

وبعد نصف ساعة من الانتظار على منعطف الطريق، أقبل عاشق أوليفا المسكين، لاهثاً متقطع الأنفاس، شاحب اللون كالأموات!

فما أن رأى عربة كاغليوسترو واقفة، حتى أطلق صرخة فرح كأنه غريق لامس خشبة الإنقاذ.

فقال له الكونت، وهو يساعده على الصعود إلى قربه:

– ما بك يا بني ؟

فقصَّ عليه بوزير قصته المحزنة ، فيما كان كاغليوسترو يصغي إليه صامتاً . ثم قال له :

– لقد قضي الأمر !

فصاح بوزير :

– كيف ذلك ؟!

فأخبره كاغليوسترو بما لا يعرفه عن مغامرة شارع سان كلود ، ومغامرة فرساي ...

فانهار بوزير وكاد يغمى عليه . وركع في العربة على رجليه الاثنتين وأخذ يصيح :

– أنقذها ... أنقذها ، وسوف أعطيك إياها إذا كنت ما زلت تحبها .

فأجابه كاغليوسترو :

– أنت على ضلال يا صديقي ، فأنا عمري ما أحببت الآنسة أوليفا ، ولم يكن لي سوى هدف واحد ، هو أن أنقذها من عيشة الفسق التي كنت تقاسمها إياها .

فقال بوزير مندهشاً :

– لكن ...

– ذاك يرعبك ؟ فاعلم إذن بأني واحد من رواد الاصلاح الخلقي ، وهدفي هو أن انتزع من حمأة الرذيلة كل من

باستطاعتي أن أوفر له مجالات الحظ للشفاء. وقد شفيت أوليفا بانتزاعها منك، ولهذا السبب انتزعتها. ولتقل إذا كانت قد سمعت مرة من فمي كلمة غزل، أو إذا لم تكن كل خدماتي لها نزيهة ومترفعة!

– هذا دافع إضافي يا سيدي، كي تنقذها. أرجوك، أنقذها!

– سوف أحاول، لكن ذلك يتوقف عليك يا سيد بوزير.

– أطلب مني حياتي!

– لن أصل في طلبي إلى هذا الحد. إرجع معي إلى باريس، وإذا تقيدت بتعليماتي، من المحتمل أن نخلص عشيقتك. ولا أضع لذلك سوى شرط واحد.

– ما هو هذا الشرط يا سيدي؟

– سوف أطلعك عليه عندما نعود إلى منزلي في باريس.

– أوه! لقد وافقت على هذا الشرط مسبقاً، ولكنني أريد رؤيتها! أريد رؤيتها!

– هذا بالضبط ما أفكر به. قبل ساعتين، سوف تراها.

– وهل سأقبلها؟

– هذا ما أرجحه. بالإضافة إلى ذلك، ستقول لها ما سأقوله لك.

واتخذ كاغليوسترو وبوزير طريقهما إلى باريس.

وبعد مضي ساعتين، لحقا بالعربة التي تقل أوليفا وحارسها، وكان الوقت قد أصبح مساءً.

وبعد نصف ساعة أخرى، كان بوزير يشتري خمسين ذهبية للشرطيين، مقابل أن يسمحا له بتقبيل أوليفا، وأن يهمس لها بتوصيات الكونت دي كاغليوسترو.

والشرطيان اللذان أُعجبا بهذا الحب المشبوب العاطفة، وعدا نفسيهما بخمسين ذهبية كتلك التي قبضاها، عند كل محطة ثانية.

لكن بوزير لم يظهر عليهما ثانية، فقد نقلته عربة كاغليوسترو بسرعة إلى باريس، حيث كانت تهيأ أحداث كثيرة.

هذه الأمور كان من الضروري أن يعرفها القارئ، قبل أن نريه السيد كاغليوسترو وهو في حديث مع السيد دي غروسن عن القضايا الطارئة.

وأصبح بإمكاننا الآن، أن ندخل إلى غرفة مدير الشرطة.

في غرفة مدير الشرطة

★

كان السيد دي غروسن يعرف عن كاغليوسترو كل ما باستطاعة مدير فطن للشرطة أن يعرفه عن رجل يقطن باريس. لقد كان يعرف كل أسمائه الماضية وكل أسراره الكيمائية القديمة، والمغناطيسية، والتنجيمية، وكل ادعاءاته في استحضار الأرواح والاشخاص، وفي البعث والتجدد. وبالاختصار، كان ينظر إليه كسيد من اسياد الشعوذة.

لذلك كان من المستحيل على كاغليوسترو أن يخدع واحداً كالسيد دي غروسن، أو الكردينال دي روهان، بشعوذات كان معظم الناس في ذلك العصر يظنونها أعمالاً خارقة للطبيعة وحقائق لا غبار عليها.

ولهذا السبب، عوضاً عن أن ينتظر الكونت دي كاغليوسترو تطور الأحداث، رأى من الواجب أن يطلب مقابلة مدير الشرطة ويؤدي ما عليه من حساب.

وقد شعر دي غروسن بقوة مركزه، فعزم على ممارسة هذه القوة. بينما كاغليوسترو شعر بحيرة في نفسه، فأخذ يتهيأ للتخلص منها.

هذه المباراة المكشوفة في لعبة الشطرنج ، لم يكن أحد اللاعبين يشك بأنها موضع رهان ، ويجب الاعتراف بأن هذا اللاعب لم يكن السيد دي غروسن .

فمدير الشرطة كان ينتظر من كاغليوسترو أن يقدم له إيضاحات حول العقد ، وحول تجارة السيدة دي لاموت المشبوهة ، لذا ما أن دخل مكتبه ووجد كاغليوسترو بانتظاره ، حتى بادره بقوله :

– لقد طلبت مقابلتي يا سيدي ، وها أنا آتٍ خصيصاً من فرساي ، كي أمنحك هذه المقابلة .

فأجابه كاغليوسترو :

– اعتقدت يا سيدي بأنه من الفائدة لك أن تسألني عما يجري . وكرجل يعرف جدارتك حق المعرفة ، كما يعرف المهمة الملقاة على عاتقك ، جئت اليك كما ترى .

فقال مدير الشرطة مندهشاً :

– أن أسألك ؟! عن ماذا يا سيدي ؟ وبأية صفة ؟

فأجابه كاغليوسترو بصراحة :

– أنت مهتم جداً بأمر السيدة دي لاموت ، وبقضية اختفاء العقد ...

فسأله دي غروسن بما يشبه التهكم :

– هلاَّ وجدته ؟

فقال الكونت بوقار:

- لا، ولكني إن لم أجد العقد، فأنا على الأقل أعرف بأن السيدة دي لاموت تقطن في شارع سان كلود.

فأجابه دي غروسن:

- وأنا أعرف كذلك، فهي تقطن تجاه منزلك.

- إذن، لا شك يا سيدي، أنك واقف على ما تقوم به السيدة دي لاموت... فلا لزوم للكلام.

فأجابه مدير الشرطة متكلفاً اللامبالاة.

- بالعكس، علينا أن نتكلم.

فقال كاغليوسترو:

- أوه! الموضوع يتعلق بتلك الصغيرة أوليفا. ولكن بما أنك تعلم كل شيء عن السيدة دي لاموت، فلم يعد لدي ما أُطلعك عليه.

فارتعش دي غروسن عندما تلفظ كاغليوسترو باسم أوليفا، وسأله قائلاً:

- أوليفا؟ من تكون أوليفا هذه؟

- آه! ألا تعرفها يا سيدي؟ إنه لأمر غريب أن أُفاجأ بذلك! تصوَّر أنها فتاة رائعة الجمال... ذات قدٍّ مياس، وعينين زرقاوين، ووجه لا عيب في استدارته... وباختصار،

إن جمالها من النوع الذي يشابه جمال صاحبة الجلالة الملكة ...

فقال دي غروسن :

– آه ! آه ! وبعد ؟

– وبعد ! هذه الفتاة التي وصفتها لك ، كانت تعيش عيشة شقاء ، جعلتني أنغمّ عليها ، إذ كانت تقوم بخدمة صديق لي طاعن في السن ، هو السيد دي تافرني ...

– البارون الذي مات منذ عدة أيام ؟

– بالضبط ، هو إياه . وبعد موته ، انتقلت إلى خدمة آخر ، إلى خدمة رجل عالم لا يعرفه سيدي مدير الشرطة . وكان هذا العالم ... ولكني أرى نفسي ، وقد تشعبت في الحديث ، قد بدأت في إزعاجك .

– بالعكس ، أرجوك أن تكمل يا سيدي . إذن ، قلت إن هذه الأوليفا ؟..

– كانت تعيش عيشة شقاء ، كما تشرفت بأن ذكرت لك . وازدادت عذاباً نتيجة غرامها برجل غريب الأطوار ، كان يسلبها كل ما تملك ، ولا يتورع عن ضربها ... وهذا العشيق يا سيدي ، هو نصّاب ومحتال لا يليق بك التعرف إليه ...

فقال مدير الشرطة وقد سرّه أن يكون قد عرفه ، كما بدا له :

- إنه يدعى بوزير، كما أظن؟

فقال كاغليوسترو بإعجاب:

- آه! إنه لمدهش أن تكون تعرفه! إنك وايم الحق يا سيدي، باستطاعتك اكتشاف الغيب أفضل مني!.. إذن، بعد أن أمعن بوزير في سلب أوليفا وضربها، حسب عادته، لجأت هذه الفتاة المسكينة إليّ وطلبت حمايتي. وبما أني رجل طيب القلب، فقد وهبتها غرفة لم أعد أذكرها، في واحد من أجنحة قصوري...

فصاح مدير الشرطة مندهشاً:

- في أحد قصورك!.. لقد كانت عندك؟

فأجابه كاغليوسترو متعمداً الدهشة بدوره:

- بدون شك. ولماذا لا أقبل لجوءها إليّ، طالما أني رجل عازب؟

وأخذ يضحك بسذاجة بارعة، مما جعل السيد دي غروسن يقع في الشرك، ويقول له:

- في قصرك!.. إذن هذا هو السبب الذي جعل رجالي يكثرون البحث للعثور عليها.

فقال كاغليوسترو:

- تقول يكثرون البحث! هل كانوا يبحثون عن تلك الصغيرة؟ أي ذنب ارتكبته وأنا لست على علم به؟

– لا شيء، لا شيء يا سيدي . أكمل، أرجوك!

– ولكني أكملت . لقد أويتها عندي، وهذا كل شيء .

– لا، لا يا سيدي الكونت، أنت لم تكمل، طالما أنك الساعة أشركت اسم اوليفا باسم السيدة دي لاموت .

فقال كاغليوسترو :

– آه! كان ذلك بحكم الجوار .

– هناك أمر آخر يا حضرة الكونت ... فأنت لم تقل بأن السيدة دي لاموت وأوليفا كانتا جارتين، من أجل لا شيء .

– ولكني لا أعتقد أنه من المفيد عرض هكذا موضوع عليك . إذ لا يجوز أن نشغل وقت الحاكم الاول في المملكة بترهات لا قيمة لها .

– الموضوع يهمني أكثر مما تتصور يا سيدي، لأن هذه الأوليفا التي ذكرت بأنها كانت تقطن منزلك، قد عثرنا عليها في الريف .

– عثرتم عليها!..

– برفقة السيد دي بوزير ...

فصاح كاغليوسترو :

– عجباً!.. إني أشك في ذلك! كانت برفقة بوزير؟ عظيم! عظيم! إن في ذلك ترضية للسيدة دي لاموت .

– ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول يا سيدي، بأني بعد أن ظننت برهة بالسيدة دي لاموت، سوف أعوض عليها تعويضاً كاملاً.

- وما الذي جعلك تظن بها؟

- يبدو يا سيدي أنك تصغي بجلد إلى كل ثرثرة؟ حسناً! إعلم أنه في الوقت الذي كان الأمل يراودني بإصلاح أوليفا المذكورة، وبحملها على العمل المشرّف، إذ إني اهتمُّ كثيراً بالأخلاق يا سيدي، في هذا الوقت بالذات، جاء من اختطفها مني!

- اختطفها من منزلك؟

- نعم، من منزلي.

- غريب!

- أليس كذلك؟ وقد اعتقدت بما لا يقبل الشك، أن السيدة دي لاموت وراء هذا الاختطاف، لذا استحقت لعنتي ونقمتي.

فاقترب السيد دي غروسن من كاغليوسترو، وقال له:

- تفضل وأوضح إذا أردت.

- أوه! بعد أن وجدت أوليفا برفقة بوزير يا سيدي، لم يعد هناك ما يدفعني إلى التفكير بالسيدة دي لاموت، ولا في ملاطفاتها، ولا في إشاراتها، ولا في مراسلاتها...

- مع أوليفا؟

- نعم .

- السيدة دي لاموت وأوليفا ، كانتا تتفاهمان ؟

- كل التفاهم .

- وكانتا تلتقيان ؟

- لقد وجدت السيدة دي لاموت وسيلة ، كانت تُخرج بواسطتها أوليفا كل ليلة .

- كل ليلة ! وهل أنت أكيد ؟

- بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يكون أكيداً مما يراه ويسمعه .

- أوه ! إنك تفصح لي عن أمور هامة يا سيدي ، وأنا على استعداد لدفع ألف ليرة عن كل كلمة تقولها ، فكلامك من ذهب !

- هذا ثمن لا أستحقه يا سيدي .

- قل لي ، هل الكردينال دي روهان صديقك ؟

- أعتقد ذلك .

- إذن ، ينبغي عليك أن تعلم ، كم هو كبير دور هذه الدسَّاسة التي يدعونها السيدة دي لاموت ، في الفضيحة التي يتخبط بها صديقك .

- لا ، لا أريد أن أعلم .

- ولكنك ربما كنت تعلم، نتائج تلك النزهات التي تمت بواسطة أوليفا والسيدة دي لاموت؟

فقال كاغليوسترو باسلوب الرجل الحكيم:

- إن الانسان العاقل يا سيدي، ينبغي عليه ان يتجاهل معرفة هكذا أمور.

فقال دي غروسن:

- حسناً، سأختصر أسئلتي بواحد: هل لديك براهين بأن السيدة دي لاموت قد تبادلت الرسائل مع أوليفا؟

- مئة برهان.

- ما هي؟

- بطاقات من السيدة دي لاموت كانت تقذفها إلى أوليفا بواسطة قوس قديمة لا شك انها ما زالت في منزلها. وعدة بطاقات من هذه البطاقات الملفوفة حول قطعة من الرصاص، لم تصل إلى هدفها، فسقطت في الشارع، مما أتاح لخدمي، أو لي، أن نلتقط بعضها.

- وهل ستقدمها للعدالة يا سيدي؟

- لن أتردد يا سيدي، لأنها تشكل دليل براءة. وأعتقد بأني لن أستحق اللوم على ذلك من قبل السيدة دي لاموت.

- و... البراهين على التواطؤ، على المواعيد؟

- إنها ألف.

– برهان واحد يكفيني ، أرجوك !

– أفضل البراهين ، هو أن السيدة دي لاموت ، كما يبدو ، قد سهل عليها الدخول الى منزلي لمشاهدة أوليفا ، لأني شاهدتها فيه بنفسي ، في ذات اليوم الذي اختفت فيه المرأة الشابة .

– في ذات اليوم ؟

– كل خدمي رأوها كما رأيتها أنا .

– وماذا جاءت تفعل ، طالما أن أوليفا كانت قد اختفت ؟

– هذا ما سألت عنه نفسي في بادئ الأمر ، ولم أجد له تفسيراً . فقد رأيت السيدة دي لاموت تهبط من عربة في شارع «روا دوريه» ، وكان خدمي قد شاهدوا هذه العربة تقف طويلاً في الشارع المذكور ، فظننت بأن السيدة دي لاموت تود الانضمام إلى أوليفا .

– وهل تركتها تفعل ؟

– لمَ لا ؟ إن السيدة دي لاموت امرأة محسنة ومحظية . وطالما أنها قد استُقبلت على الرحب والسعة في البلاط ، لماذا تريدني أن أمنعها من انتزاع أوليفا مني ؟ فأنا لو فعلت ، لكنت ارتكبت خطأ ، كما ترى ، لأن آخراً اختطفها مني كي يهلكها .

ففكر السيد دي غروسن ملياً ، ثم قال :

– اذن ، الآنسة أوليفا كانت تقطن عندك ؟

– نعم يا سيدي .

– والسيدة دي لاموت ، شوهدت عندك يوم اختطاف أوليفا ؟

– نعم يا سيدي .

– هل خطر على بالك ان الكونتس كانت تود الارتباط بهذه الإبنة ؟

– أعليَّ أن أفكر بغير ذلك ؟

– ولكن ، ماذا قالت السيدة دي لاموت عندما لم تجد أوليفا في منزلك ؟

– لقد بدت لي مضطربة .

– هل تعتقد بأن بوزير هو الذي اختطفها ؟

– أعتقد ذلك فقط لأنك قلت لي بأنه هو في الواقع من اختطفها ، وإلا لما ظننت به إطلاقاً . فهذا الرجل لم يكن يعرف مكان إقامة أوليفا ، ولا أدري من هو الشخص الذي دلَّه عليه ؟

– أوليفا ذاتها .

– لا أعتقد . لأنه عوضاً عن أن يخطفها من منزلي ، هُرِّبت من منزلي إلى منزله . وأرجوك أن تتأكد ، بأنه ليس

باستطاعة بوزير أن يدخل منزلي ، إلا إذا أعطته مفتاحه السيدة دي لاموت .

- وهل لديها هذا المفتاح ؟

- لا شك في ذلك .

فقال دي غروسن وقد استنار فجأة بالمشعل الذي مدَّه به كاغليوسترو بمهارة :

- في أي يوم تمَّ اختطافها ؟

- أوه ! إن هذا اليوم يا سيدي لا يقبل الخطأ ، إذ كان ذلك عشية عيد القديس سان لويس .

فصاح مدير الشرطة :

- وهو كذلك ! وهو كذلك ! فقد أسديت الدولة خدمة لا تجازى يا سيدي .

- أنا سعيد بذلك يا سيدي .

- وسوف تُشكر كما يليق بك .

فقال الكونت :

- يكفيني أن يكون ضميري مطمئناً .

فحياه دي غروسن ، وقال له :

- هل باستطاعتي تزويد المحكمة بهذه الأدلة التي تكلمنا عليها ؟

- أنا يا سيدي بتصرف العدالة في كل شيء .

- حسناً ! سوف أحتفظ بكلامك يا سيدي ، حتى يكون لي شرف الاجتماع بك من جديد .

وأذن مدير الشرطة لكاغليوسترو بالانصراف ، فخرج هذا وهو يقول في نفسه :

«إيه أيتها الكونتس ! إيه أيتها الأفعى ! لقد شئتِ اتهامي ، وها أنت ، كما أعتقد ، قد عضضت على المبرد ... فحذارِ أسنانك !»

الاستجوابات

★

فيما كان السيد دي غروسن يجري هذا الحديث مع كاغليوسترو ، كان وزير العدل السيد دي بريتاي يتوجه إلى الباستيل ، من قبل الملك ، لاستجواب الكردينال دي روهان .

ومما لا شك فيه ، أن المقابلة بين هذين العدوين ستكون عاصفة . فالسيد دي بريتاي يعرف عنجهية دي روهان ، لذا قرر أن ينتقم منه انتقاماً رهيباً بإخضاعه الى تحقيقات بوليسية ! لكن هذا الاسلوب لم يجد نفعاً ، فالكردينال رفض أن يجيب عن اسئلة بريتاي ، وكان أكثر من مهذب !

وعندما ألحف وزير العدل في طرح الأسئلة ، صرح دي روهان بأنه على استعداد للقبول بأي تدبير يتخذه البرلمان وقضاته .

وأمام إرادة المتهم الحديدية هذه ، اضطر دي بريتاي ان ينسحب !

انسحب واستدعى الى مكتبه السيدة دي لاموت التي كانت منهمكة في كتابة مذكراتها ، فجاءته على جناح السرعة .

وبصراحة ، حدثها السيد دي بريتاي عن وضعها الحرج ، وقد كانت هي أكثر المطلعين عليه ، فأجابته بأن لديها من الدلائل ما يثبت براءتها ، وأنها ستقدم هذه الدلائل عندما تدعو الحاجة . فأفهمها دي بريتاي بأن الوقت ليس في مصلحتها ، وأنها الآن في أشد الحاجة الى تقديم هذه الدلائل .

فروت جانّ كل الحكاية التي لفقتها ، وحملت على الناس الذين طالوها بألسنتهم ، مؤكدة زور وبهتان اللوم والتأنيب الموجهين إليها !

وتابعت تقول :

– طالما أن البرلمان قد وضع يده على القضية ، فإني لست

مستعدة لقول شيء عن الحقيقة الا بحضور الكردينال ، وبعد أن أعرف منه مقدار المسؤولية التي يحملني إياها .

فقال لها السيد دي بريتاي :

- إن الكردينال يحملك كل المسؤولية !

فصاحت جانّ :

- كلها ؟! حتى السرقة ؟!

- حتى السرقة !

فقالت جان ببرودة :

- إذن ، تفضل وقل للكردينال بأني لم أعد مستعدة لأن أتحمل أكثر مما تحملت ، هذا الاسلوب السيء في الدفاع عن نفسي !

واكتفت جانّ بهذا القول الذي لم يرضِ السيد دي بريتاي ، إذ كان يطمح الى الحصول على بعض التفاصيل الحميمة ، وبخاصة تلك التي تكشف اللثام بوضوح عن الاسباب التي جعلت الكردينال يجازف في اندفاعه العاطفي نحو الملكة ، مع أن الملكة تضمر له حقداً كبيراً . كان بحاجة الى شرح مستوفٍ عن كل المحاضر التي جمعها الكونت دي بروفانس ، والتي وصل خبرها الى الدولة عبر الضجة العامة .

ووزير العدل الذي كان رجلاً ذكياً ، كان ملماً بنفسية المرأة ويعرف الطريقة الفضلى في التصرف معها ، لذا وعد

السيدة دي لاموت بكل شيء إن هي اتهمت شخصاً معيناً وبشكل صريح. ومما قاله لها كي يدفعها الى هذا التصرف:

– حذار يا سيدتي، حذار! فأنت بتمنعك عن قول أي شيء، تتهمين الملكة مباشرة!.. أي أنك باصرارك على الصمت، ستقدمين للمحاكمة بتهمة القدح والذم في الذات الملكية. ولن تكون النتيجة سوى العار الذي يجللك، وسوى حبل المشنقة الذي يلفُّ عنقك!

فصاحت جانّ:

– ولكنني لم أتَّهم الملكة، فلماذا تتهمونني؟!

فقال بريتاي بإصرار وعناد:

– كي لا تُتهمي، عليك ان تتهمي أحداً. فهذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسك!

مع هذا، التزمت جانّ الصمت المطلق، ولم تعطِ هذه المقابلة الاولى بينها وبين وزير العدل أية نتيجة.

في هذه الأثناء، انتشرت شائعة تقول بأن حبات الماس قد بيعت في انكلترا، حيث أُوقف السيد دي فييَّات من قبل عملاء السيد دي فارجان، الذي كان وزيراً للخارجية.

وكان الهجوم الاول المرعب على جانّ، عندما قوبلت بالسيد ريتو الذي اعتقدت بأنه سيكون حليفها حتى الموت، فإذا به يعترف أمامها بحقارة أنه كان مزوراً... لقد اعترف

بأنه هو من زوَّر إيصالاً بالعقد، وهو من زوَّر رسالة من الملكة، وفي الوقت نفسه هو من قلَّد توقيعي الصائغين وتوقيع الملكة !!

وعندما سُئل عن السبب الذي دعاه لارتكاب هذه الجرائم، أجاب بأنه فعل ما فعل نزولاً عند رغبة السيدة دي لاموت !

فثارت ثائرة دي لاموت وجُنَّ جنونها، وانكرت ادعاءه ودافعت عن نفسها كلبوة، زاعمة بأنها لم ترَ قط السيد ريتو ولا سبق لها أن تعرفت إليه !

ولكنها هنا أيضاً، تعرضت لخيبتين مريرتين، لشهادتين حطمتاها تحطيماً.

الشهادة الأولى قدمها حوذيّ اكتشفه السيد دي غروسن، وقد صرح بأنه أقل في عربته إلى شارع مونمارتر، وفي يوم وساعة حددهما السيد ريتو، سيدة ترتدي ثياباً شبيهة بثياب «هذه السيدة».

فهذه السيدة المحاطة بكثير من الألغاز، والتي جاء بها الحوذي من حيِ دي ماريه، من يمكنها أن تكون إن لم تكن السيدة دي لاموت التي تقطن شارع سان كلود ؟

ومن جهة الدالة التي كانت سائدة بين هذين الشريكين المتواطئين، كيف يمكن إنكارها بعد أن أكد شاهد آخر بأنه

رأى السيدة دي لاموت عشية عيد سان لويس ، تخرج من عربة كان يجلس على مقعدها السيد ريتو دي فييّات ، المميز بمظهره الشاحب والقلق!

وكان هذا الشاهد هو أحد الخدم الرئيسيين لدى السيد دي كاغليوسترو.

فعندما سمعت جانّ باسمه ، قفزت من مكانها وأطلقت صرخة مدوية ، وأخذت تكيل الشتائم لكاغليوسترو وتتهمه بأنه ، بسحره وشعوذته ، قد خلب لبَّ الكردينال دي روهان وأوحى إليه بأفكار شيطانية أثيمة ضدّ صاحبة الجلالة الملكة.

وهنا ابتدأت الحلقة الاولى من الاتهام بالخيانة والزنا...

فدافع الكردينال دي روهان عن نفسه بدفاعه عن كاغليوسترو ، منكراً التهمة بصلابة وعناد ، مما جعل جانّ الحانقة الساخطة ، تتكلم بوضوح ، ولأول مرة ، عن غرام الكردينال الأخرق بالملكة!!

وبدوره كاغليوسترو ، طلب أن يُعتقل كي يتاح له إظهار براءته أمام الناس ، فاستجيب إلى طلبه ، وأثار بما أقدم عليه الحماس والحمية في نفوس القضاة والمتهمين على السواء. وأخذ الرأي العام ، بعد أن تكشفت له خيوط الحقيقة ، كما تصور ، ينحاز بعاطفته نحو الكردينال وكاغليوسترو ضدَّ الملكة.

عندئذ، وكي تبرهن هذه الملكة العاثرة الحظ على انها ستبقى صامدة ومثابرة على ملاحقة المحاكمة، سمحت بنشر التقارير المقدمة إلى الملك عن النزهات الليلية، وطلبت الاذن للسيد دي غروسن كي يدلي بمعلوماته.

فكان لهذه الضربة الماهرة وقع الصاعقة على جانّ، مما جعلها تفقد نهائياً كل قدرة على المناورة والخداع.

وفي جلسة رسمية لهيئة المحققين، طلب المستنطق من الكردينال دي روهان أن يصرح بما يعلمه عن تلك النزهات التي شهدها «بارك» فرساي. فأجاب الكردينال بأنه شخصياً لا يعرف الكذب، لذا فهو يطلب شهادة السيدة دي لاموت بهذا الخصوص.

فأنكرت دي لاموت أن تكون على علم بأية نزهات تمت برضاها أو بمعرفتها، وكذّبت التقارير التي تقول بأنها شوهدت في الحدائق الملكية، تارة برفقة الملكة وطوراً برفقة الكردينال.

فكان باستطاعة هذا التصريح أن يبرئ ساحة الملكة، لو كان بالإمكان الوثوق بكلام امرأة متهمة بالتزوير والسرقة. ولكن بما ان مصدره لا يوحي بالثقة، فقد بدا التبرير وكأن المقصود منه المجاملة والمراعاة، وأبت الملكة أن تتبرأ بهذه الطريقة.

وفيما كانت جانّ تعلن بأعلى صوتها أنها لم تظهر إطلاقاً أثناء الليل في «بارك» فرساي، وأنها لم تلاحظ إطلاقاً أية علاقات خاصة بين الملكة والكردينال، ولا سمعت بهكذا علاقات، في تلك اللحظة بالذات، ظهرت أوليفا... الشاهد الحي الذي قلب الرأي العام وهدم صقالة الحجج والأكاذيب التي بنتها الكونتس!

ويا للهول الذي شعر به الكردينال عندما وقع نظره على أوليفا!! فقد ثبت له أنه كان ألعوبة دنيئة... فهذا الرجل ذو الرقة واللطف المتناهيين والأهواء النبيلة، قد اكتشف فجأة مغامِرة، هي شريكة محتالة ماكرة دفعته لأن يلعب دوراً دنيئاً ألحق العار والشنار بملكة فرنسا، تلك المرأة التي أحبها بكل جوارحه والتي لم تكن أبداً مذنبة أو مسؤولة عن هذا الحب!

ومما لا شك فيه، أن اكتشاف دي روهان لهذه الحقيقة، كان المشهد الأكثر مأسوية والأكثر أهمية في هذه القضية. فقد ذكّرته هذه الملكة المزيفة بالوردة الحمراء، وبيده التي كانت تضغط على يدها، وبحمامات أبولون... فشحب لونه، وتمنى لو تكون ماري انطوانيت في تلك اللحظة الى جانبها، كي يريق كل دمه على قدميها تكفيراً عن إساءته إليها...

وكم طلب العفو والمغفرة من ربه! وكم عذبه ضميره! وكم شاء لو يستطيع أن يحمل دموع عينيه ويذهب ليطهر بها آخر درجة من درجات ذلك العرش الذي دنّسه بحبه الحقير!

ولكن هذه الترضية لنفسه المعذبة، كانت ممنوعة عليه! فهو لا يستطيع الاقرار بشخصية أوليفا كما توهمها، من دون الاعتراف بأنه كان يحب الملكة الحقيقية. فالاعتراف بضلاله هو اتهام وعار في حدّ ذاته. لذلك لزم الصمت، وترك جانّ تنكر كل شيء.

وعندما شاء دي بريتاي، بالمشاركة مع دي غروسن، أن يجبرا جانّ على مزيد من التوضيح، قالت:

«إن أفضل وسيلة للاثبات بأن الملكة لم تقم بأية نزهة في «البارك» أثناء الليل، هو اكتشاف امرأة تشبه الملكة وتزعم بأنها كانت في «البارك». ومن حسن الحظ أن تكون هذه المرأة أمامنا الآن!»

فقوبل هذا التلميح الفاضح الذي كشفت به جانّ الحقيقة مرة ثانية، بالاستحسان والرضى.

وبما أن أوليفا، في قلقها الساذج، قد أعطت كل التفاصيل والبراهين دون أن تهمل شيئاً، وبما أن قولها قابل للتصديق أكثر من قول الكونتس، فقد لجأت جانّ إلى وسيلة يائسة... لقد اعترفت!

اعترفت بأنها قادت الكردينال إلى فرساي، وبأن الكردينال شاء رؤية الملكة بأي ثمن، كي يثبت لها عظيم حبه واحترامه. اعترفت لأنها شعرت بأن السلبية لن تجديها نفعاً، وبأن توجيه التهمة الى الملكة سيجعلها شريكة وعوناً لكل أعدائها، وكان عددهم كبيراً!

إذن، وللمرة العاشرة في هذه الدعوى الجهنمية، تبدَّلت الأدوار. فالكردينال لعب دور المغفَّل، وأوليفا دور البغيّ دون إدراك منها، وجانّ دور المتآمرة، إذ لم تستطع أن تختار دوراً أفضل.

وكي يتوفر النجاح لهذا المشروع الخسيس، كان على الملكة أن تلعب هي أيضاً دوراً، فأُعطيت الدور الأكثر سفالة وحقارة، والأكثر تعريضاً ومساساً بالكرامة الملكية. هو دور المغناج الطائشة، والشابة المرحة التي تحيك الخدع وتهوى المخاتلة.

لقد صرحت جانّ بأن النزهات التي شهدتها الحدائق في «بارك» فرساي، قد تمت برضى وموافقة ماري انطوانيت، التي كانت تختبئ وراء أشجار الخميلة، لتستمع وهي تضحك، إلى الأحاديث الولهى للعاشق المتيم الكردينال دي روهان!!

هذا ما اختارته، كخاتمة لهجومها، تلك اللعينة التي لم

تعرف أين تخبئ سرقتها، فاختارت لها المعطف الملكي الذي يمثل شرف ملكة فرنسا ماري انطوانيت.

فانهارت الملكة عند هذه التهمة الأخيرة، لأنها لم تستطع إثبات زيفها. لم تستطع، لأن الحنق أعمى بصيرتها، بعد أن صرحت جانّ بأنها ستنشر كل الرسائل الغرامية المكتوبة بخط الكردينال دي روهان، والموجهة إلى الملكة! وهي في الواقع، كانت تمتلك هذه الرسائل الملتهبة بالغرام الجنوني...

لم تستطع إثبات هذا الزيف، لأن الآنسة أوليفا التي أكدت بأن جانّ هي التي دفعتها الى «بارك» فرساي، لم يكن لديها البرهان بأن أحداً كان يسترق السمع وراء أشجار الخميلة، ولا البرهان المعاكس.

وأخيراً، لم تستطع الملكة إثبات براءتها، لأن كثيرين من الناس، كان يهمهم بأن تؤخذ هذه الأكاذيب السافلة على أنها حقائق!!

ضاع الأمل الأخير

★

بعد أن دفعت جانّ القضية بهذا الاتجاه، بات كشف الحقيقة مستحيلاً!

وهي ، بعد أن أفحمها عشرون شاهداً من أهل الثقة ، لم يعد بإمكانها التملص من اختلاس العقد الماسي ، وفي الوقت نفسه لا تريد أن تستسلم كسارقة عادية ، بل تريد أن يكون إلى جانبها شخص آخر ذو أهمية يقاسمها الفضيحة والعار .

فهي قد اقتنعت ، بأن فضيحة فرساي ستكشف جريمتها ، لكنها إذا ما أدينت ، فإن الادانة ستلحق بالملكة أيضاً ، مما يخفف من هول جريمتها .

لكنها أخطأت التقدير . فالملكة بقبولها المناقشة الصريحة حول القضية بشقيها ، والكردينال بتحمله الاستنطاق والفضيحة ، قد انتزعا هالة البراءة من عدوتهما التي استنفدت كل ما لديها من مكر ورياء كي تحيط بها نفسها .

لكن الغريب في الأمر ، أن الرأي العام لم يكن مستعداً أن يبرئ أحداً في هذه المحاكمة ، حتى أولئك الذين ستبرئهم العدالة !

وبقي موقف الرأي العام هو إياه من دون تبديل ولا تعديل ، كذلك موقف القضاة ، حتى بعد مقابلات. لا حصر لها ، استمر الكردينال خلالها محافظاً على هدوئه وتهذيبه ، كما استمر كذلك أثناء المقابلة التي جرت بينه وبين جانّ ، وبدت فيها هذه الأخيرة عنيفة وعازمة على إلحاق الأذية بالكل !

وبعد أن أُفشيت كل الأسرار، وغدا الطعن بالتزوير غير ممكن تقريباً. وبعد أن لمست جانّ عدم تأثيرها على القضاة، أطبق الصمت في زنزانتها على كل قواها وكل آمالها.

ومن كل المقربين الى السيد دي بريتاي، وكل القائمين على خدمته، جاءت النصيحة إلى جانّ كي تراعي جانب الملكة ولا تتعرض لها، وكي تتهم الكردينال من دون شفقة ولا رحمة.

ومن كل المتأثرين بالكردينال والغيارى عليه: من عائلته القوية النفوذ، ومن القضاة المنحازين إلى الرأي العام الحاقد على الملكة، ومن رجال الدين ذوي التأثير المتعدد الوسائل، جاءت النصيحة إلى السيدة دي لاموت كي تقول الحقيقة كلها، وكي تفضح مؤامرات البلاط، وكي تدفع بالضجة إلى النقطة التي تؤدي إلى إحداث ذهول قاتل في الرؤوس المتوجة.

وهذا الفريق، الذي كان يسعى إلى إرهاب جانّ، حذّرها مما كانت تعلمه جيداً، وهو أن القضاة بأكثريتهم يعطفون على الكردينال، وأنها ستسحق سحقاً ولن تنال أية فائدة في صراعها معه، وأنه من الأفضل لها أن تُدان بقضية العقد من أن تثير السخط عليها لارتكابها جرائم قدح وذمّ في الذات

الملكية ، خاصة وإن القانون صريح بهذه الأمور ، وهو لن يبقي رأسها سالماً .

وبدا لهذا الفريق أنه سيكون المنتصر حتماً ، وكان له ما توقع . فالشعب أظهر كل حماس معه لمصلحة الكردينال الذي نال إعجاب الرجال بصبره ، وإعجاب النساء برصانته . فالرجال اعتبروه ضحية خدعة دنيئة ، والنساء أبينَ تصديق التهمة الموجهة إليه .

فأخذت جانّ تفكر في كل ذلك ، بعد أن تخلى عنها محاموها ، ولم يُخف القضاة اشمئزازهم منها ، وحمل عليها آل روهان بقساوة ، واحتقرها الرأي العام . ثم قررت أن تضرب ضربتها الاخيرة في محاولة لإرباك القضاة ، وترهيب أصدقاء الكردينال ، وحقن الرأي العام بالحقد والكراهية ضدَّ ماري انطوانيت .

وكانت خطتها تقضي بحمل البلاط على الاعتقاد بأنها راعت جانب الملكة باستمرار ، وأنها ستضطر إلى كشف كل شيء ، إذا ما أخرجوها عن طورها ودفعوها إلى نفاد صبرها .

ومن جهة الكردينال ، قضت خطتها بحمله على الاعتقاد بأنها لم تلتزم الصمت حتى الآن ، إلا مراعاة له واقتداء بلياقته ولطفه . أما لحظة يتكلم هو ، فستصبح هي محررة من هذه

المثالية، وستتكلم مثله ايضاً، وستكشف الحقيقة التي تظهر براءتها.

وفي الواقع. لم يكن ما أعلنته سوى القليل مما ستقدمْ عليه خلال التحقيق في الدعوى. لكن ما يجب قوله، هو أن كل طعام معروف، باستطاعته ان يجدد الشباب بفضل التوابل الحديثة. وما رجته الكونتس مما استنبطته مخيلتها، هو إعطاء دفع جديد لمناورتها المزدوجة، والقائمة على المكر والخداع.

لذلك كتبت إلى الملكة هذه الرسالة، التي تكشف كلماتها وحدها، عن مغزاها ومضامينها:

«مولاتي،

«إن ما أنا عليه من شقاء وعناء، لم يحل دون تقديم هذه الشكوى الوحيدة. إن كل الأساليب الملتوية التي استعملوها كي ينتزعوا مني اعترافات محددة، لم تؤدِ إلا إلى تقوية إصراري على عدم تلويث شرف مليكتي.

«مع هذا، لدي بعض القناعة بأن تصبُّري ومثابرتي على الكتمان، سيوفران لي الوسائل الكفيلة بإنقاذي من الورطة التي أتخبط فيها. أعترف لك بأن المجهودات التي قامت بها عائلة «العبد»، (هكذا كانت الملكة تسمي الكردينال أيام الصلحة بينهما) جعلتني خائفة من أن أصبح ضحيته. فإطالة مكوثي في السجن، والمقابلات التي لا تنتهي، واليأس،

والخجل من أن أجد نفسي متهمة بجريمة لم ارتكبها، قد أضعف شجاعتي. وأخشى ما أخشاه أن تنهار مقاومتي تحت وابل من الضربات توجَّه إليَّ دفعة واحدة!

«إن كلمة واحدة يا مولاتي، باستطاعتها أن تضع حداً لهذه المأساة. وذلك بتدخل السيد دي بريتاي لدى الملك، واقتراحه عليه إخراجاً يمليه ذكاؤه ولا يطال مولاتي بأية شبهة.

«إن ضرورة القيام بهذا المسعى الذي أقترحه، يفرضها خوفي من أن أضطر للكشف عن كل شيء. وإني لمقتنعة بأن مولاتي ستقدر الأسباب التي أجبرتني على اللجوء إليها، وبأنها ستصدر أوامرها لإنقاذي من حالة البؤس والشقاء التي أعانيها.

«وسأبقى، مع عميق احترامي، الخادمة المطيعة لمشيئة مولاتي!

«الكونتس دي فالوا دي لاموت»

وكما نرى، فقد عملت جانّ كل الحسابات. قد تكون شاءت أن تصل رسالتها الى الملكة، فترغمها لهجتها والصلابة المتجلية فيها، وهي المتعبة من صراعها مع الذين يضمرون لها الشر، على الاستسلام والموافقة على إطلاق

سراحها ، على اعتبار أن سجنها ومحاكمتها لن يؤديا إلى أية نتيجة .

وقد تكون ، وهذا محتمل جداً وثابت في آخر الرسالة ، أنها لم تكن تهدف إلى ذلك إطلاقاً ، بل كان هدفها أن يتفشى مضمون الرسالة بين القضاة الذين يحاكمونها ، فلا يعود بإمكان الملكة أن تعمل لإخفائها دون أن تدين نفسها .

فجان كانت تعلم أن حراسها كلهم أوفياء لحاكم الباستيل ، أي للسيد دي بريتاي . وأن الفرنسيين بأجمعهم ينظرون إلى القضية نظرة بحث سياسية ، وهذا ما لم يحدث في فرنسا منذ أمدٍ طويل . وكانت متأكدة بأن الرسول الذي ستكلفه بنقل رسالتها ، إن لم يسلمها إلى الحاكم ، فهو سيحتفظ بها لنفسه ، أو أنه سيسلمها إلى القضاة الذين هم من رأيه .

وعلى افتراض أن الرسالة قد وقعت في يدي كائن من كان ، فهي قد تعمّدت نصّها بشكل يشحن النفوس بالحقد والكراهية والاحتقار ضدَّ الملكة !

وفي ذات الوقت الذي كتبت فيه جانّ هذه الرسالة إلى ماري انطوانيت ، كتبت رسالة أخرى إلى الكردينال ، هذا ما جاء فيها :

«لا أستطيع أن أتصور يا مولاي ، أنك ستبقى مصراً على

عدم التكلم بوضوح . ويبدو لي ، أن أطيب شيء إلى نفسك ، هو أن تمنح قضاتنا ثقة غير محدودة ، فيكون مصيرنا أسعد حظاً . أما من جهتي ، فأنا قد قررت الصمت إذا لم تشأ أن تساعدني . ولكن لماذا لا تتكلم ؟! اشرح كل الظروف التي رافقت هذه القضية الغامضة ، وأقسم لك بأني سأثبت كل ما تقوله . فكِّر جيداً يا سيدي الكردينال . فأنا إن بادرت الى التكلم قبلك ، وأنكرت أنت ما باستطاعتي قوله ، سأكون هالكة ، ولا يعود أمامي مجال للتفلت من انتقام «تلك» التي تريد التضحية بنا نحن الاثنين . أما أنت ، وقد خبرت إخلاصي ووفائي ، فليس لديك إطلاقاً مثل هذا الخوف من جهتي . وإذا استمرت «هي» في عنادها ، فإن قضيتك هي قضيتي ، ولن أوفر أية تضحية في سبيل إنقاذك من حقدها ، وإلا كانت مصيبتنا مشتركة .»

«ملاحظة : لقد كتبت «إليها» رسالة ، سترغمها كما أرجو ، إن لم يكن على قول الحقيقة ، فعلى الأقل على عدم تجنيها علينا ، نحن اللذين لم نرتكب جريمة نلام عليها ، سوى جريمة ضلالنا وصمتنا .»

هذه الرسالة الماكرة ، سلمتها جانّ بنفسها إلى الكردينال أثناء المقابلة الأخيرة التي جرت بينهما في ردهة الباستيل

الكبرى . مما جعله أمام هذه الوقاحة ، يحمرُّ ويصفرُّ ويرتعش ، ويخرج إلى الشرفة كي يستعيد أنفاسه !

أما رسالة الملكة ، فقد قدمتها الكونتس بنفسها أيضاً ، وفي ذات اللحظة ، إلى الأب لوكيل المعروف بغيرته على مصالح آل روهان ، ومرشد الباستيل الذي رافق الكردينال الى الردهة . قدمتها إليه قائلة له :

«بإمكانك يا سيدي ، إذا ما قمت بهذه المهمة ، أن تغير مصير الأمير دي روهان ومصيري . خذ علماً بما تتضمنه هذه الرسالة . فأنت رجل ملزم بالسر بحكم واجباتك ، وأنا قد قرعت الباب الوحيد الذي باستطاعتنا ، أنا والكردينال ، أن نلجأ إليه طالبين النجدة .»

فرفض مرشد الباستيل تسلمها ، قائلاً :

«ألم تجدي سواي ، أنا رجل الدين ! إن جلالتها ستظن بأنك كتبتها بعد أخذ نصائحي ، وأنك اعترفت لي بكل شيء . لذا ، لا يمكنني القبول بما سيوقعني في التهلكة .»

فقالت جانّ وقد يئست من نجاح حيلتها ، فلجأت إلى التهديد والوعيد :

– حسناً ! قل لنيافة الكردينال إذن ، بأنه لم يبق لدي سوى وسيلة واحدة لإثبات براءتي ، هي أن أفضح سرَّ الرسائل التي سبق له أن كتبها للملكة . إني أنفر من هذه الوسيلة ،

ولكن من أجل مصلحتنا المشتركة ، سوف أضطر إلى اللجوء إليها .

وهنا ، لاحظت أن المرشد قد أرعبته هذه التهديدات ، فحاولت للمرة الأخيرة ، أن تضع بين يديه رسالتها الرهيبة إلى الملكة ، وهي تقول في نفسها :

«إذا أخذ الرسالة ، فأنا ناجية . لأني عندئذ ، سأطلب منه بكل جرأة ، أن يفعل ما يهمني أن يفعله .»

لكن الأب لوكيل ، ما كادت الرسالة تلامس يديه ، حتى ردَّها وكأنها حرقت أصابعه .

فقالت جانّ وقد اصفرت غضباً :

- لا يفتك بأنك لا تجازف بشيء ، لأن نسخة عن رسالة الملكة هذه ، قد أودعتها ظرفاً يحمل عنوان السيدة دي ميزاري .

فصاح الأب لوكيل :

- هذه حجة إضافية . فإن شخصين يقفان على السر ، يشكلان سببين لغيظ الملكة . لا ، لا ، إني أرفض !

فقالت له الكونتس :

- انتبه ! فأنت تدفعني كي استخدم رسائل الكردينال !

فأجابها الأب المرشد :

- لا بأس ، استخدميها يا سيدتي !

فقالت جانّ وهي ترتعش من الغضب :

- ولكن ، لا تنس أن مراسلات سرية مع جلالتها ، ستجعل من رأس الكردينال طعماً للمقصلة ... والآن ، أنت حرّ بأن تقول «لا بأس» ، فأنا قد حذرتك !

وفي هذه اللحظة ، فُتح الباب وظهر الكردينال في إطاره ... فبدا على عتبته مهيب الطلعة عاصف الوجه من شدة الغضب ، وقال :

«إن تقديم رأس من آل روهان للمقصلة يا سيدتي ، هو مشهد ليس الأول في الباستيل . ولكن طالما أنك لهذا تعملين ، فثقي بأني لن أعتب على المقصلة التي ستفصل رأسي عن جسدي ، شرط أن أرى رأسك أولاً ، ذاوياً كلصة ومزورة ! تعال أيها الأب ، تعال !»

وبعد هذا الكلام الصاعق ، أدار ظهره الجانّ ، وخرج مع المرشد تاركاً تلك المخلوقة الشقية في يأس وغضب شديدين ، لم يعد بإمكانها معهما أن تقوم بأية حركة ، دون أن ترتسم أمام عينيها حمأة الفسق والفجور التي ستسقط فيها قريباً .

عمادة بوزير الصغير

★

كل الحسابات التي عملتها السيدة دي لاموت لم تؤدِ بها إلا إلى الضلال ، وكاغليوسترو لم يؤخذ بأي منها .

فهو ما كاد يدخل الباستيل ، حتى تبين له أن الحجة قد توفرت أخيراً كي يعمل جهاراً على تهديم النظام الملكي ، هذا النظام الذي ، منذ سنوات ، كان يقوّض أركانه سراً بالإشراقية [1] والأعمال السحرية .

ولما كان واثقاً بأن أي شيء لن يفحمه ، وأن الجريمة التي وقعت ستكون جدَّ ملائمة لنظرياته ، فقد برَّ بوعده الجازم للناس كلهم ، بأن هيأ الماديات الحسية الداعمة لذلك الكتاب الشهير الذي بعث به من لندن ، والذي يبدو ، أنه قبل شهر من ذلك الوقت الذي نحن فيه ، كان بمثابة طلقة المنجنيق الاولى على جدران الباستيل القديمة ، وأول انتفاضة للثورة ، واول اصطدام مادي سبق ثورة الرابع من تموز عام ١٧٨٩ .

---

(١) مذهب يقول بظهور الأنوار العقلية وفيضانها بالاشراقات على النفوس عند تجردها.

في هذه الرسالة، كان كاغليوسترو، بعد أن أهلك الملك والملكة، والكردينال، والمضاربين بالاسهم المالية، يود ان يهلك السيد دي بريتاي، الذي يجسد الاستبداد والطغيان الوزاري. وقد عبَّر هذا المقوض الهدام عن أفكاره بقوله:

«نعم، إني أردد هذا بحرية، بعد أن قلته وأنا أسير. ليس هناك من جريمة، إن لم يكفر عنها ستة أشهر في الباستيل. لقد سألني أحدهم عما إذا كنت سأعود يوماً ما إلى فرنسا، فكان جوابي: بالتأكيد، شرط أن يصبح الباستيل متنزهاً عمومياً. فليحفظكم الله أيها الفرنسيون. إن لديكم كل ما يلزم كي تكونوا سعداء: الأرض الخصبة، والمناخ الجيد، والقلب الطيب، والبشاشة، والظرافة، والعبقرية، والأناقة المميزة وسواها، مما يجعلني أقول لكم أيها الأصدقاء الطيبون، بأن لا شيء ينقصكم سوى أمر يسير، هو أن تكونوا واثقين من النوم على أسرتكم عندما لا يكون هناك مأخذ عليكم.»

وقد برّ كاغليوسترو بكلامه أيضاً تجاه أوليفا. وهذه من جهتها، كانت وفية لنصائحه. فلم تتلفظ بكلمة تثير الشبهة حول حمايته لها، ولم تعترف بواقعها المشؤوم سوى للسيدة دي لاموت، وكان اعترافها باشتراكها البريء في الخداع الموجه، حسب اعتقادها، ضدَّ نبيل مجهول يطلقون عليه اسم لويس، اعترافاً صريحاً لا يقبل الاعتراض.

وخلال الوقت الذي استغرقه وجود الموقوفين في السجن رهن التحقيق، لم ترَ أوليفا حبيبها بوزير، لكنها مع ذلك، لم تكن مهملة كلياً من قبله. فكما سنرى، كانت تحتفظ من عشيقها بذكرى كانت تتمناها ديدون [1] عندما كانت تقول حالمة: «آه! لو يتاح لي أن أرى اسكانيوس صغيراً يلهو على ركبتي!»

وفي شهر أيار من العام ١٧٨٦، كان هناك رجل وسط الفقراء الواقفين على الدرج امام بوابة كاتدرائية سان بول، في شارع سان انطوان، وكان هذا الرجل قلقاً لاهثاً ينظر دون انقطاع ناحية الباستيل.

ثم ما لبث أن جاء رجل ذو لحية طويلة ووقف بالقرب منه، وكان هذا الرجل المانياً ومن خدم كاغليوسترو، وقد سبق لهذا الاخير ان اتخذه حاجباً له في الاستقبالات المغمورة بالأسرار التي أجراها في منزله القديم في شارع سان كلود.

فتقدم هذا الرجل من بوزير الذي كان قد عيل صبره، وقال له بصوت منخفض:

---

(١) ديدون هي اميرة صور ومؤسسة مدينة قرطاجة. وقد جعلها الشاعر فيرجيل في عصر أفنوس، البطل الطروادي الذي شُغفت به. ولكن، واحسرتاه! كان أفنوس متزوجاً، وكان اسكانيوس ابنه.

- مهلاً، مهلاً، فإنهم سيأتون!

فصاح بوزير القلق:

- آه! هذا أنت!

ولما بدا للرجل الألماني، أن الرجل القلق لم ترضه عبارة «إنهم سيأتون»، همس في أذنه قائلاً:

- إن موقفك هذا يا سيد بوزير، قد يثير ضجة تلفت إلينا أنظار الشرطة... لقد وعدك سيدي بأخبار سارة، وها أنا قد جئتك بها.

- هات ما عندك! هات ما عندك يا صديقي!

- إخفض صوتك. إن الأم والطفل بصحة جيدة...

فصاح بوزير بفرح لا يمكن وصفه:

- أوه! أوه! لقد ولدت؟! لقد خلّصت بالسلامة؟!

- نعم يا سيدي. ولكن تنحّى جانباً، أرجوك!

- إنها إبنة؟

- لا يا سيدي، صبي!

- أوه! هذا أفضل يا صديقي. فكم أنا سعيد! أرجوك أن تقدم شكري لسيدك، وأن تقول له بأن حياتي، وكل ما أملك، رهن مشيئته...

- نعم يا سيد بوزير، نعم، سوف أقول له ذلك عندما أراه.

– ولكن لماذا منذ قليل، قلت لي يا صديقي ... خذ، خذ هاتين الذهبيتين.

– أرجوك، أنا لا أقبل شيئاً إلا من سيدي.

– عفواً، فأنا لم أقصد الإساءة إليك.

– هذا ما أعتقده يا سيدي. ولكن، ألم تقل لي ؟..

– أه ! لقد شئت أن أسألك، لماذا قلت لي منذ قليل، «إنهم سيأتون»، فمن هم الذين سيأتون ؟

– إنهم يا سيدي الجراح والقابلة القانونية السيدة شوبان، اللذين ولّدا الآنسة أوليفا.

– ولكن لماذا سيأتيان إلى هنا ؟

– كي يعمّدا الطفل.

فصاح بوزير وهو يقفز كالمجنون:

– ماذا قلت ؟ سأرى ولدي ! سأرى ابن أوليفا ! هنا بعد قليل ؟!

– نعم، هنا بعد قليل. ولكن أتوسل إليك أن تخفف من غلوائك. وإلا، فإن اثنين أو ثلاثة من عملاء السيد دي غروسن المتسترين بأسمال كأسمال هؤلاء المتسولين، سوف يكتشفونك ويعلمون بأنك على اتصال بسجين الباستيل. وعندئذ، ستهلك نفسك، وستعرّض سيدي للهلاك.

فصاح بوزير باحترام يمليه عرفان الجميل:

- أفضل الموت على أن أتلفظ بكلمة قد تسبب الأذى لمن أحسن إلي . سوف أخنق صوتي في حنجرتي إذا لزم الأمر، ولكن لن أقول أبداً ، إنهم لن يأتوا ...

- صبراً يا صديقي ، صبراً !

فسأله بوزير وهو يضمّ يديه :

- هل هي على شيء من السعادة هناك ؟

- إنها في منتهى السعادة . أوه ! ها هي عربة تقبل !

- نعم ، نعم !

- وها هي قد توقفت ...

- إني أرى بياضاً ، أرى دانتيلا !..

- إنه ثوب العماد.

- يا إلهي !

وهنا أضطرَّ بوزير أن يستند إلى أحد الأعمدة كي لا يتهادى ، وذلك عندما رأى القابلة والجراح وحامل مفاتيح الباستيل، يخرجون من العربة ليكونوا شهوداً في هذا اللقاء .

وما أن مرَّ هؤلاء الثلاثة ، حتى هرع إليهم المتسولون يستدرون عطفهم . وهنا حدث شيء غريب ! لقد مرَّ العراب والعرابة وهما يدفعان هؤلاء البؤساء بأكواعهم ، فيما أخذ غريب يوزع عليهم نقوده ودموع الفرح تتساقط من عينيه !

ثم دخل الموكب الصغير الكنيسة، ودخل وراءه بوزير وأخذ، مع الكهنة والمؤمنين الفضوليين، يبحث عن أفضل مكان في السكرستية، حيث سيتمّ سرّ العماد.

وبعد أن حيَّا الكاهن الجراح والقابلة تحية خاطفة مرفقة بابتسامة، إذ عرفهما لأنه سبق له أن استعان بهما في ظروف مماثلة، وحذا بوزير حذوه، أُغلق باب السكرستية وأمسك الكاهن بقلم وشرع يكتب في سجله العبارات التي تثبت حدوث العماد وفق المبادئ والتعاليم الكنسية. ولما وصل إلى السؤال: ما اسم المولود وما اسم والديه؟ أجابه الجراح:

– إنه صبي، وهذا كل ما أعلمه!

وأكدت هذا القول أربع ضحكات، مما أزعج بوزير وأغضبه. وأضاف الكاهن يقول:

– ولكن حتماً سيكون له اسم، فهل تريدون له اسم قديس؟

– نعم، الآنسة تريد أن تسميه «توسان» (جميع القديسين)

فقال الكاهن وهو يضحك:

– إذن، كل القديسين هنا!

فأعاد قول الكاهن جوَّ المرح والضحك إلى السكرستية، مما جعل صبر بوزير على وشك النفاد. إلا أن الالماني الذي كان يمسك به، حمله على أن يتمالك نفسه.

ثم أردف الكاهن يقول :

– حسناً ! مع هذا الاسم «توسان» يمكننا أن نضرب صفحاً عن اسم الأب .

وأكب على التسجيل ، فكتب : «اليوم ، قُدّم إلينا مولود ذكر ، ولد أمس في الباستيل . هو ابن نيكول – أوليفا ليغاي ، من ... أب مجهول !»

فوثب بوزير غاضباً جهة الكاهن ، وأمسك قبضة يده بقوة ، وصاح به :

– إن «توسان» له أب ، كما له أم ! له أب حنون لن ينكر أبداً صُلبه . أرجوك ، إن «توسان» الذي ولد البارحة من الآنسة نيكول – أوليفا ليغاي ، هو ابن جان بابتيست توسان دي بوزير ، الحاضر هنا !

فاستولت الدهشة على الكاهن ، وعلى العراب والعرابة ! فسقط القلم من يد الأول ، وكاد الصبي أن يسقط من يد القابلة ، لو لم يسرع بوزير ويتلقفه بذراعيه ، ويغمره بالقبلات الملتهبة ...

وتساقطت الدموع الأبوية على جبهة الطفل المسكين، فكانت عماده الاول والأكثر قدسية في العالم، بعد العماد الذي سيباركه الله ...

ورغم أن الحضور قد ألفوا المشاهد المأسوية والشكوكية

المتفشية لدى الفولتيريين[1] في ذلك العصر، فقد هزَّ هذا المشهد كيانهم وأثار عاطفتهم. وحده الكاهن حافظ على رباطة جأشه وشكك في هذه الأبوة. وربما كان السبب غيظه من اضطراره إلى إعادة الكتابة من جديد، وفي ذلك ما فيه من صعوبة بالنسبة للسجل.

لكن بوزير قدر هذه الصعوبة، فوضع ثلاث ليرات ذهبية في جرن العماد، ثبّتت حقه كأب صادق النية بشكل أفضل من دموعه التي تساقطت على جبهة ولده!! إذ إن الكاهن التقط الذهبيات بارتياح ظاهر، وشطب ما كان قد كتبه بسخرية على سجله، وقال لبوزير:

- فقط يا سيدي، بما أن تصريح جراح الباستيل والسيدة شوبان هو تصريح قاطع، اكتب، إذا شئت، وأكّد بنفسك أنك والد هذا الطفل.

فصاح بوزير بفرح طاغ:

- أنا!.. ولكني سأكتب بدم قلبي!

وأمسك القلم بغبطة وهمّ بأن يكتب، فقال له غيبون، حامل مفاتيح السجن، الذي لم ينسَ دوره كرجل مدقق:

- ولكن حذار يا سيدي! فأنا اعتقد بأن اسمك له صداه

---

(١) نسبة الى المفكر الفرنسي فولتير الذي أثارت فلسفته الشكوك الدينية.

المشؤوم في بعض الأماكن، لذلك من الخطر عليك أن يُدوَّن في السجلات العمومية، مع تاريخ يعطي الدليل في آن واحد على وجودك، وعلى مشاركتك التجارة امرأة متهمة.

فأجاب بوزير بأنفة:

- شكراً على نصيحتك يا صديقي. إنك رجل نبيل يستحق أن أقدم له هاتين الذهبيتين... أما أن أنكر زوجتي...

فصاح الجراح:

- وهل هي زوجتك؟

وصاح الكاهن:

- الشرعية!

فقال بوزير وهو يرتعش سروراً:

- أعاد الله إليها حريتها. فغداً ستحمل نيكول ليغاي اسم بوزير، الذي يحمله ولدها وزوجها!

فقال غيبون:

- ولكن إلى أن يتحقق ذلك، أنت تجازف بنفسك، إذ أعتقد بأنهم يبحثون عنك!

فقال الجراح:

- لن أكون أنا الذي سيغدر بك!

وقالت القابلة:

- ولا أنا!

وقال الكاهن :

- ولا أنا !

وأكمل بوزير بلهجة الشهيد امام حبل المشنقة :

- وعندما يغدرون بي ، كم سأتعذب إلى أن أحظى بالتعزية في إلقاء النظرة الأخيرة على ولدي !

فقال غيبون إلى القابلة هازئاً وبصوت منخفض :

- لا بأس إن عُذّب على الدولاب ، مقابل أن يقال عنه ، إنه والد «توسان» الصغير !

فابتسمت السيدة شوبان لهذا المزاح الذي نشأ عن الشكليات التي رافقت تسجيل بوزير الطفل في سجل المعمودية ، وانتهى بالتصريح الخطي الذي كتبه بوزير الأب بعبارات رائعة ، كأنه أديب يحرص على أن تكون كل كلمة في مؤلفه معبرة أصدق تعبير عن مشاعره وأحاسيسه !

وبعد أن أعاد قراءة ما كتبه ووضع علامات الوقْف حيث يجب أن تكون ، وقَّع على السجل ، كذلك فعل الاشخاص الاربعة الحاضرون .

ثم قبَّل ولده الذي أصبحت معموديته مكتملة الشروط ، ودسَّ تحت النسيج الذي قُدم عليه للمعمودية دزينة من الليرات الذهبية ، وألبسه طوقاً في عنقه كما هي العادة بالنسبة للمنذورين . وبفخر وزهو فتح باب السكرستية ، عازماً أن لا

يلجأ إلى أية حيلة للهرب من رجال الشرطة إذا ما استغلوا المناسبة للقبض عليه.

ولو أن بوزير استطاع أن يركز نظره في المتسولين الذين لم يبرحوا مكانهم أمام الكنيسة، لربما شاهد بينهم ذلك الشرطي «الايجابي» الذي كان سبب نكبته، مع أنه لم تبدر من أحد أية حركة سوى قولهم: «الله يحرسه!» بعد أن وزّع بوزير الحسنات على هؤلاء الفقراء بسخاء.

وهكذا غادر الأب السعيد كنيسة سان بول محفوفاً بمظاهر الرجل النبيل المحترم، وأدعية فقراء رعيته. أما شهداء العماد، فقد انسحبوا نحو عربتهم منذهلين من هذه الحادثة الغريبة.

وكان بوزير قد تربص في زاوية شارع القديسة كاترين، فلما رآهم يمرون بعربتهم، بعث في الهواء بعدة قبلات إلى ولده من قلبه الخافق... ولما توقف قلبه عن الخفقان بعد أن توارت العربة عن عينيه، قرر أن لا يمتحن الله ولا الشرطة، فلجأ الى ملاذٍ غير معروف إلا منه، ومن كاغليوسترو والسيد دي غروسن.

وهذا يعني أن السيد دي غروسن، هو أيضاً، قد برَّ بوعده لكاغليوسترو ولم يزعج بوزير.

ولما أُعيد الصبي إلى الباستيل وأُطلعت السيدة شوبان أوليفا

على ما حدث في الكنيسة، لامست هذه بإبهامها وسبابتها الطوق في عنق ولدها، وأخذت تقبّله وتبكي...

وعندما دار البحث عن وجوب تأمين مرضعة له، قالت هي:

«إن الأم الصالحة، كما قال جيلبار، تلميذ روسو، هي التي تُرضع طفلها. لذلك سوف أُرضع طفلي لأني أريد، على الأقل، أن أكون أماً صالحة!»

في قفص الاتهام

★

بعد نقاش مستفيض في محكمة البرلمان اختتم بمطالعة النائب العام، نُقل المتهمون، باستثناء الكردينال روهان، إلى سجن الكونسيارجيري في قصر العدل، كي يكونوا أقرب إلى قاعة المحكمة التي ستفتتح في الساعة السابعة من كل صباح.

وأمام هيئة القضاة التي ترأسها الرئيس الاول آليغر، استمرت سيماء المتهمين على ما كانت عليه أثناء التحقيق. فأوليفا بقيت صريحة وخائفة، والكردينال بقي مطمئناً وغير قلق، وبدت أحياناً على وجهه تلك الاشراقية الروحية التي كان يطيب له أن يتصنعها.

أما ريتو فييَّات، فاستمر يبكي بخجل وخساسة.

واستمرت جانّ على وقاحتها، تهدد وتتوعد ويقدح الشرر من عينيها كأنها أفعى سامة!

وعكس الكردينال الذي كان دائماً ساهماً شارد الفكر وقد بدا عليه الوهن والانحطاط، اعتادت جانّ بسرعة على اسلوب الحياة في سجن الكونسيارجيري، وأسرت بغنجها ودلالها المعسولين وما تنطوي عليه من أسرار زوجة حارس السجن، فحظيت برعايتها وعطفها، كما حظيت برعاية وعطف زوجها وولدها. وهكذا عاد إليها شيء من حلاوة الحياة، بعد أن توفر لها مزيد من الحرية للاتصال بالخارج.

أما المناقشات في فرنسا، فلم يطرأ عليها جديد، إذ بقيت كلها تدور حول قضية العقد الذي تمت سرقته بجرأة من قبل واحد من الاثنين اللذين يتهمها الشعب، ويلقي كلٌّ منهما التهمة على الآخر.

وكان همُّ القضاة في هذه الدعوى، معرفة أي منهما هو السارق الحقيقي.

وهذا ما شغل الفرنسيين أيضاً. فاكتشاف السارق الحقيقي كان يهمهم بنوع خاص، لمعرفة عما إذا كانت الملكة على حق في اعتقال الكردينال واتهامه بالتهور وقلة الأدب.

فكل من كان يهتم بالسياسة في فرنسا، كان يرى في

التهمة الشنيعة الموجهة الى الكردينال، المحور الأساسي لهذه الدعوى. وكان السؤال المطروح: هل كان دي روهان مقتنعاً بأن ما قاله للملكة يجوز له ان يقوله، وان يتصرف باسمها، كما فعل؟ وهل كان عميلاً سرياً لماري انطوانيت، عميلاً تنصَّل من ارتباطه بها بعد أن أُثيرت الضجة حول الصفقة؟

وبالاختصار، هل الكردينال المتهم في هذه القضية، قد تصرف بحسن نية كصديق حميم للملكة ومؤتمن على سرها؟

إذا كان تصرفه عن حسن نية، فالملكة تصبح عندئذ مذنبة بسبب هذه الصداقة الحميمة التي أشارت إليها السيدة دي لاموت وأنكرتها هي، حتى وإنْ كانت صداقة بريئة. ثم، هل معقول أن تكون هذه الصداقة الحميمة بريئة في نظر الرأي العام الذي لا يرحم، وقد أنكرتها الملكة على زوجها، وعلى وزرائها، وعلى رعاياها؟!

تلك هي النقطة الهامة التي عالجها النائب العام في مطالعته باسلوب يبعد الشبهة عن الملكة. فهو قد تكلم باسم البلاط وكغيور على الكرامة الملكية، فأخذ بمجموع الأدلة التي تطال الكردينال، ولم يشأ ان يسجل مأخذاً على الملكة إلا في قضية العقد -هذا إذا كان هناك من مأخذ وإذا اعترفت الملكة به- وإلا وقعت المسؤولية كلها على رأس الكردينال.

واختتم مطالعته مطالباً بإصرار، بما يلي:

اولاً: بسجن ريتو فيلّات مدى الحياة مع الاشغال الشاقة.

ثانياً: بالحكم على جانّ دي لاموت بالجلد، وبالسجن مدى الحياة مع الاشغال الشاقة في أحد المصحات.

ثالثاً: بردّ الدعوى ضدّ كاغليوسترو.

رابعاً: بتبرئه أوليفا دون قيد ولا شرط.

خامساً: بإلزام الكردينال على الاعتراف بأنه قام بعمل متهور أساء إلى صاحبة الجلالة، وبإبعاده عن كل مكان فيه وجود للملك أو الملكة، وبتجريده من ألقابه ورتبه الأسقفية.

فأوقع قرار الاتهام هذا البرلمان في حيرة، وأوقع الرعب في قلوب المتهمين! فالمشيئة الملكية التي برَّر سلوكها بهذه القوة كأنما العصر قد رجع ربع قرن الى الوراء، في الوقت الذي كان فيه البرلمان قد بدأ يخلع عنه نير الطاعة، أظهر النائب العام الملكي أكثر حماسة من القضاة للمبدأ الذي كان لم يزل محترماً، والقاضي بتجنب المسّ بالجلالة الملكية وبعصمة العرش.

لكن أربعة عشر نائباً فقط تبنوا رأي النائب العام بمجمله، فأوقع هذا التأييد الانقسام في البرلمان.

وكان العرف يقضي بأن يجلس المتهم امام القضاة على مقعد خشبي صغير وواطئ، كي يلامس بخجل ما لامسه

متهمون قبله ، جلسوا على ذات المقعد قبل أن تفصل المقصلة رؤوسهم عن أجسادهم .

وعلى هذا المقعد أجلسوا المزور ريتو فييّات الذي طلب العفو متوسلاً والدموع تتساقط من عينيه ، بعد أن اعترف بكل ما نسب إليه . لقد اعترف بذنبه كمزور ، واعترف بذنبه كمتواطئ مع جانّ دي لاموت ، وأعطى الدليل على ندمه وتبكيت ضميره وعذاب نفسه ، بدموعه السخية الخليقة بأن تجرد القضاة من سلاحهم !

لكن ، بما أن ريتو لم يكن سوى نذل منبوذ من قبل القضاة ، فقد أُعيد إلى زنزانته في الكونسيارجيري ، دون أن يكترث له أحد .

وظهرت بعده على مدخل القاعة السيدة دي لاموت ، التي جاءت مسوقة بكاتب المحكمة . وكانت ترتدي دثاراً بلا كمين وقميصاً من الشيت القطني ، وتعتمر طاقية بيضاء من دون أشرطة ، وتغطي معظم وجهها بنوع من ألشاش الابيض ، وقد تركت شعرها على سجيته ، فخلق منظرها إحساساً قوياً في نفوس أعضاء مجلس النواب .

لقد جاءت تتحمل أول إهانة من الإهانات التي كانت تنتظرها ، إذ إنهم أدخلوها الى قاعة المحكمة عبر الدرج الصغير كأنها مجرمة من عامة الشعب لا من آل فالوا !

وتكدرت جانّ قليلاً من حرارة القاعة، وهمهمات الحضور، وحركة الرؤوس التي كانت تتلفت اليها من كل جهة، فزاغ بصرها لحظة وتوقفت لكنها ما لبثت أن اعتادت على التطلع إلى هكذا جمهور.

عندئذ، ذات الكاتب الذي كان يمسك بها من يدها، قادها تواً الى حيث المقعد الخشبي الصغير وسط دائرة نصفية كأنه خشبة النطع... فما أن وقع نظرها على هذا المقعد المشؤوم الذي خصصوها به، وهي الفخورة بأنها من آل فالوا وبأن مصير الملكة بين يديها، حتى اصفرت وألقت نظرة حانقة على من حولها، كأنها تريد أن ترهب القضاة الذين أجازوا لأنفسهم هذه الاهانة!

لكن الارادة الحازمة التي قوبلت بها من قبلهم، كبحت ثورة غضبها، فجلست كي لا يبدو عليها بأنها سقطت سقطاً على المقعد الخشبي.

ولاحظ الحضور بأنها، خلال الاستنطاق، قد أضفت على أجوبتها طابع الغموض الذي يسمح لأعداء الملكة بأن يستخلصوا من هذه الأجوبة ما يعزز رأيهم. فهي لم تحرص إلا على التأكيد بأنها بريئة، وقد ألزمت الرئيس بدهاء ما بعده دهاء، على أن يطرح عليها سؤالاً حول الرسائل الغرامية المتبادلة بين الكردينال والملكة ـ أما جوابها عن هذا السؤال،

فقد نفثت معه كل سمها، كأنها صلٌّ لم يجد إلا هذه الوسيلة للدفاع عن نفسه!..

فقد بدأت جانّ جوابها بالاعتراض عليه وإظهار رغبتها بعدم التعرض للملكة! وأضافت بأن ليس هناك من يستطيع الإجابة عن هذا السؤال أفضل من الكردينال...

وأردفت تقول:

«حثُّوه كي يبرز هذه الرسائل أو نسخاً عنها، لتقرأ على مسامعكم وترضي فضولكم... أما أنا، فلا أستطيع التأكيد عما اذا كانت هذه الرسائل موجهة من الكردينال الى الملكة، أو من الملكة الى الكردينال. فقد وجدت في بعضها كثيراً من المصارحة والدالة بالنسبة الى ملكة تكتب الى تابع... ووجدت في البعض الآخر كثيراً من الوقاحة وعدم الاحترام بالنسبة إلى تابع يكتب الى ملكة...»

فخيَّم على قاعة المحكمة صمت مطبق مخيف، أثبت لجانّ بأنها أوقعت الرعب في قلوب أعدائها، وخلقت ذعراً لدى أنصارها، وحذراً لدى قضاتها المتجردين. ولم تترك المقعد الخشبي الصغير، إلا مع الأمل بأن الكردينال سيجلس عليه كما جلست هي، وذلك يكفيها ويرضيها تقريباً.

لكنها بعد أن استدارت لتلقي نظرة أخيرة على ذلك المقعد المشين الذي ستجبر واحداً من آل روهان على أن يجلس عليه

بعدها ، تساءلت عما سيحدث . فهل يا ترى ، ستأمر المحكمة الحجاب بإخفائه واستبداله بمقعد لائق ومريح ، فلا تعود تراه مرة ثانية ؟

أمام هذا التصور ، عصف الغضب الشديد في صدرها ، فقفزت خارج القاعة وأخذت تعضض يديها وقد اهتاجت كالمجانين !!

وهنا ابتدأ عذابها ... إذ رأت الكردينال وقد جاء الى المحكمة في عربة ، ورأته يهبط منها ليدخل من الباب الكبير الذي فُتح له ... ثم رأت حاجبين وكاتبين يرافقانه ، وقد مشى إلى جانبه حاكم الباستيل !

وعند دخوله ، انطلقت من مقاعد القاعة تمتمات التعاطف والاحترام ، تبعها هتاف قوي في الخارج. إنه هتاف الشعب ، وقد كان يحيي المتهم ويوصي به قضاته .

لقد كان الأمير لويس دي روهان ، اصفر اللون شديد التأثر . وكان يرتدي بدلته الكهنوتية المخصصة للاحتفالات الرسمية . وقد تقدم للوقوف امام القضاة بالاحترام المفروض في هكذا مكان ، وبكل ثقة بعدل القضاء وحكمه .

فقدموا إليه مقعداً لائقاً ومريحاً ، بعد أن اشرأبت الاعناق واجفة من أن يوضع في قفص الاتهام . وبعد أن حيَّاه رئيس

المحكمة ووجه إليه كلاماً مشجعاً، رجته هيئة المحكمة كلها بأن يتفضل ويجلس، فضاعف هذا الرجاء اصفراره وتأثره...

وعندما بدأ الكلام بصوته المرتعش، وتنهداته المتقطعة، وعينيه القلقتين، ومظهره المتواضع، حرك الحنوّ والشفقة في أعماق قلوب المستمعين. فقد برر الكردينال سلوكه بتؤدة، وقدم اعتذارات اكثر مما قدم براهين، وابتهالات اكثر من حجج. وتوقف فجأة، وهو الرجل البليغ والفصيح اللسان، فكان لشلل فكره وشجاعته هذا، تأثير أقوى من كل المرافعات، وكل الحجج والبراهين!

وعندئذ ظهرت أوليفا، فسيقت تلك الابنة المسكينة الى المقعد الخشبي الصغير. وعندما رأى الحضور تلك الصورة الحية للملكة تجلس على مقعد الخزي والعار، ارتعش الكثيرون منهم واهتزت كياناتهم! فطيف ماري انطوانيت، ملكة فرنسا، على مقعد السارقات والمزورات، قد أرعب أشد الناقمين على النظام الملكي. والمشهد نفسه ايضاً، أثار شهية الانتقام لدى البعض، كما يثير الدم الشهية لدى النمر إذا ما أذاقوه إياه!

الا أن الكل في قرارة أنفسهم، أجمعوا على القول بأن هذه المسكينة أوليفا، قد اضطرت في مثولها أمام المحكمة،

إلى ترك طفلها الذي ترضعه ثدييها . وعندما فُتح باب القاعة ، انبثق منه صراخ ابن بوزير بألم ، فكان أروع مرافعة عن أمه !

وبعد أوليفا ، جاء دور كاغليوسترو ، الأقل ذنباً من الجميع . فلم يُفرض عليه الجلوس ، مع أن المقعد الذي جلس عليه الكردينال ، كان لم يزل محفوظاً قرب المقعد الخشبي الصغير . فهيئة المحكمة خشيت دفاع كاغليوسترو . واستنطاقه الذي قطعه الرئيس أليغر بقوله : «حسناً !...» كان كافياً لما تتطلبه الشكليات ، فأعلنت هيئة المحكمة اختتام المرافعات والبدء بالمذاكرة .

وعلى الأثر خرج الحضور ليسيروا ببطء في الشوارع وعلى الأرصفة ، عازمين على العودة في الليل ، ليستمعوا إلى الحكم الذي قدروا ، بأن لفظه لن يتأخر !

سهلوا هربها .. فلم تقع في الفخ !

★

بعد انتهاء المرافعة وزوال تأثيراتها من قاعة المحكمة ، ذهبوا بالمساجين كلهم الى الكونسيارجيري ليباتوا ليلتهم في هذا السجن الصغير بانتظار صدور الحكم عليهم .

أما الجمهور، فكما وعد نفسه وقلنا، عاد في المساء ليتوزع جماعات صامتة في ساحة قصر العدل، ولكنها على مثل الجمر لمعرفة ما ستقرره المحكمة.

والغريب في الأمر، أن باريس كلها كانت تترقب ما كان يترقبه الجمهور المنتظر من نتائج لهذه المحاكمة، فيما كان يتلذذ بشراب عرق السوس المعطر بالأنسون، الذي كان الباعة المتجولون في ذلك الطقس الحار يحضرونه ويبيعونه تحت القنطرة الاولى من جسر القصابين.

وفيما كان الكردينال دي روهان، وقد منح حق التنزه على السطيحات التي تتصل بالأبراج الرئيسية في ذلك القصر، يتحادث مع كاغليوسترو في النجاح المرجح لدفاعهما المتبادل، كانت اوليفا في حجرتها الضيقة تداعب طفلها وتهدهده بين ذراعيها. وكان ريتو في حجرته المماثلة وقد فقدت عيناه الضياء، يعدُّ في مخيلته وهو يقضم أظافر يديه بأسنانه، الريالات التي وعده بها السيد دي غروسن مدير الشرطة، ويقارن بينها وبين سنوات الحبس التي تنتظره.

أما جانّ دي لاموت، فقد كانت في ذلك الوقت، وبعد أن انزوت في غرفة السيدة إيبار، زوجة حارس الكونسيارجيري، تحاول أن تسلو واقعها المؤلم بقليل من الضجة وقليل من الحركة.

تلك الغرفة كانت عالية السقف وواسعة ومبلطة كأنها رواق، ومضاءة بنافذة كبيرة تطل على الرصيف. لكن مربعات الزجاج الصغيرة فيها، كانت تحجب نور النهار ولا تسمح إلا للقليل منه بأن ينساب اليها. ومع ان هذه الغرفة بالذات، كان يقطنها أناس أحرار، فقد كانت الحرية محرمة عليهم، إذ كانت القضبان الحديدية المتشابكة خارج النافذة، تضاعف الظلمة داخل الغرفة.

فضلاً عن ذلك، فالنور الضئيل الذي كان يتسلل كاللص في نظر السجناء، لم يكن فيه أي أثر لأشعة الشمس. وهو والحالة هذه، لم يكن إهانة توجه إلى المحرومين منه، بقدر ما كان إهانة توجه الى الله الذي جعل النور واسطة بينه وبين الانسان، وفاصلاً دقيقاً بين الألم والبسمة.

في هذه الغرفة، كانت السيدة دي لاموت منذ عزلتها في الكونسيارجيري، تعيش مع حارس السجن وزوجته وابنهما. ولقد سبق وقلنا، بأنها باسلوبها المغري، قد جعلت هؤلاء الناس يحبونها ويعطفون عليها. فاستغلت هذين العطف والمحبة وأقنعتهم بأن الملكة مذنبة كبيرة.

وكانت السيدة دي لاموت، كما صرحت هي بنفسها، قد أنساها العيش مع هذه العائلة الطيبة أَفكارها الحزينة، وأخذت تستلطف مزاحهم وتطيب نفسها لمجاملاتهم. لكنها

عندما عادت في ذلك اليوم، يوم اختتام الجلسات، الى غرفة أولئك الناس الطيبين، وجدتهم مهمومين وقلقين!

فحاولت هذه المرأة المحتالة، التي كان باستطاعتها أن تبكي مع الباكين وتضحك مع الضاحكين، أن تنتزع الحقيقة من قلب السيدة إيبار، لكنها هي وزوجها وولدها، التزموا الصمت المطبق!

وفي ذلك اليوم، لمحت جان في ركن المدخنة راهباً، اعتاد على زيارة البيت ومشاركة ساكنيه مأكلهم ومشربهم، وقد كان سابقاً كاتباً لدى مؤدب الكونت دي بروفنس. وكان هذا الراهب رجلاً بسيط المظهر، هجّاءً لاذع الكلام، ابتعد مدة طويلة عن منزل السيدة إيبار، ثم عاد يواظب على زيارته منذ وصول السيدة دي لاموت إلى الكونسيارجيري.

وكان هناك إثنان أو ثلاثة من كبار الموظفين في قصر العدل، يتطلعون كثيراً الى السيدة دي لاموت ويتكلمون قليلاً، فبادرتهم هي بقولها:

«أنا أكيدة بأنهم فوق، يتكلمون بحرارة أشد مما نتكلم نحن هنا.»

فصدرت عن حارس السجن وزوجته همهمة خفيفة تدل على موافقتهما على هذا الكلام. وقال الراهب متظاهراً بالجهل:

«فوق ؟ أين تقصدين يا سيدتي الكونتس ؟»

فأجابت جانّ :

- في القاعة ، حيث قضاتي يتذاكرون .

فقال الراهب :

- أوه ! نعم ، نعم !

وبعد ان ساد الصمت قليلاً ، قالت جانّ دي لاموت :

- اعتقد أن موقفي اليوم قد أعطى نتيجة حسنة ، وأن ما قلته ، كان من الواجب أن تعرفوه . أليس كذلك ؟

فقال الحارس بتهيب :

- نعم يا سيدتي .

ونهض كأنه يريد تغيير الحديث ، فقالت جانّ :

- ما هو رأيك يا سيدي الكاهن ؟ أولم تتوضح مشكلتي جيداً ؟ تصور إذا لم يُفصِّل الواقع كما هو !

فقال الكاهن :

- هذا صحيح يا سيدتي ، فأنت ما زال لديك الكثير من الأمل والرجاء .

فصاحت جانّ : أليس كذلك ؟

وتابع الكاهن يقول :

- ومع ذلك ، افترضي أن الملك ...

فقالت جانّ بحدة :

– الملك !.. ماذا سيعمل الملك ؟

– إن الملك يا سيدتي ، باستطاعته أن يرفض تكذيب أحد له !

– اذن ، فهو سيحكم على الكردينال ، وهذا مستحيل !

فجاءها الجواب من كل الجهات :

– فعلاً ، هذا صعب !

فأسرعت جان الى القول :

– لأن في هذه القضية ، ما يقوله الأمير دي روهان ، أقوله أنا !

فقال الكاهن :

– لا ، لا ، أنت واهمة يا سيدتي ! في القضية متهم بريء... وأنا أعتقد بأن هذا المتهم هو أنت ، كما أرجو وآمل . لكن حتماً ، هناك واحد مذنب ومسيء للملك ، وإلا ماذا سيحل بالملكة ؟

فقالت جانّ وقد ألمها ان تلقى معارضة ، حتى في الأمل الذي كانت تتصنعه :

– هذا صحيح ، يجب أن يكون هناك مذنب بحق الملك ، لذلك دي روهان أحق بالذنب مني .

وبعد هذا الكلام ، خيَّم صمت مرعب على الكونتس ، قطعه الكاهن بقوله :

– إن الملك يا سيدتي ، لا يضمر حقداً ولا ضغينة . فالغضب الأول الذي شفى غُلَّته ، لن يعود الى التفكير به .

فقالت جانّ بسخرية :

– ماذا تقصد بالغضب الذي شفى غُلَّته؟ فكما كان يغضب نيرون ، كان يغضب تيتوس[1].

فأسرع الكاهن إلى القول :

– إن الحكم على شخص ، أياً كان هذا الشخص ... هو مجلبة للرضى والارتياح !

فصاحت جانٌّ :

– أياً كان هذا الشخص ... يا سيدي ! إنها لكلمة مخيفة ... «أياً كان !» كلمة مبهمة جداً ... هكذا ، أياً كان !

فقال الكاهن ببرودة :

– أوه ! أنا لا أقصد سوى الحكم بالانزواء في دير . هذه هي الفكرة التي سيعتمدها الملك ، كما يشاع ويقال ، وذلك مراعاة لك ...

فأخذت جانّ تتفرس هذا الرجل وهي ترتجف من شدة رعبها ، ثم قالت :

---

(١) تلميح الى طبع لويس السادس عشر الهادئ. فتيتوس، الأكثر بشاشة بين الأباطرة الرومان، كان كنيرون الأكثر قساوة، يغضب بعض الأحيان.

– الانزواء في الدير!.. اي الموت البطيء الشائن!.. الموت في سجن الدير جوعاً وبرداً!.. لا، كفى عذاباً! وكفى خجلاً، وكفى شقاء لبريئة، فيما المذنبة الحقيقية حرة مكرمة، لا لسبب إلا لكونها قادرة وصاحبة سلطان! إني أريد الموت فوراً لنفسي، لكنني أريد الموت الذي أختاره أنا، الموت الذي يكون عقاباً لي لأني ولدت في هذا العالم المقيت السافل!

لقد نجح هؤلاء الثلاثة في إثارتها وإخراجها عن طورها، فانتفضت كالنمرة التي أزعجها الصيادون ولم يخيفوها، وأطلقت صيحة غاضبة هي أشبه بالعواء، ثمَّ وثبت الى غرفة مجاورة لتلك التي كانت فيها، وهناك أمسكت إناءً خزفياً ضخماً نبتت فيه وردة ذابلة، وضربت به رأسها عدة ضربات...

فتحطَّم الإناء وما بقي منه في يد تلك المرأة الشريرة سوى قطعة صغيرة! وسال الدم على جبهتها من جلدها الذي مزَّقته الجروحات، فأسرعت زوجة الحارس وارتمت بين ذراعيها باكية. وبعد أن أجلسوها على مقعد مريح وغسلوا جروحاتها بالماء العطر الممزوج بالخل، انتابتها اختلاجات وتشنجات مريعة، فقدت على أثرها وعيها!

وعندما استفاقت، تراءت للكاهن كأنها تختنق، فقال:

- إن هذه الشعرية بقضبانها الحديدية تحجب النور وتمنع تسرب الهواء، أليس بالإمكان السماح لهذه المرأة المسكينة بأن تتنفس الصعداء؟

عندئذ، نسيت السيدة إيبار كل شيء، فأسرعت الى خزانة تقع قرب المدخنة وسحبت من درجها مفتاحاً فتحت به الشعرية المذكورة، فتدفقت موجات الهواء والحياة الى الشقة، وقال الكاهن:

- آه! لم أكن أعلم بأن هذه الشعرية يمكن فتحها بمفتاح. وإني لأتساءل: لماذا كل هذا الحذر؟

فأجابت زوجة الحارس:

- إنه الأمر يا سيدي!

فأضاف الكاهن يقول بقصد محدد:

- ولكن هذه النافذة لا تبعد عن الطريق العام سوى سبع خطوات تقريباً، وهي تفضي الى الرصيف. فاذا حدث أن هرب بعض السجناء من داخل الكونسيارجيري عبر هذه النافذة، فإنهم سيجدون أنفسهم أحراراً دون أن يلتقوا حامل مفاتيح السجن ولا أي حارس!

فقالت زوجة الحارس:

- هذا صحيح!

ولاحظ الكاهن بطرف عينه أن السيدة دي لاموت قد

سمعت كلامه ووعته، وارتعشت... وأنها بعد هذا اللام، رفعت عينيها باتجاه الخزانة التي أودعت فيها زوجة الحارس مفتاح الشعرية، والتي كانت مغلقة فقط بأكرة نحاسية!

فكان ذلك كافياً بالنسبة إليه فاستأذن، إذ رأى أن حضوره لم يعد بذي جدوى.

غير أنه قال وهو يعود من حيث أتى كأشخاص المسرحية وقد ضلوا المخرج.

«كم من الناس في الساحة! فها هي الجموع تترك مسرعة هذه الجهة من القصر، ولم يعد هناك أحد على الرصيف!»

فأطل الحارس برأسه وقال:

- صحيح، لم يعد من أحد على الرصيف:

وتابع الكاهن يقول، ودائماً كأن السيدة دي لاموت لا يمكنها سماعه، بينما هي تسمعه جيداً:

- أتعتقدون بأن الحكم سيصدر هذه الليلة؟

فردَّ الحارس قائلاً:

- لا أعتقد بأنه سيصدر قبل صباح غد.

فقال الكاهن:

- حسناً! حاول أن توفر قليلاً من الراحة لهذه المسكينة السيدة دي لاموت. فهي بعد الصدمات التي تلقتها، بحاجة ماسة إلى الراحة.

فقال الحارس إلى زوجته :

- علينا أن ننسحب إلى غرفتنا ، وان نترك السيدة هنا على هذا المقعد المريح ، على الأقل إذا لم تشأ الانتقال إلى السرير .

فرفعت جان رأسها ، ولاحظت أن عين الكاهن تترقب جوابها ، فتظاهرت بأنها تود أن تنام .

عندئذ ، توارى الكاهن ، وذهب الحارس وزوجته أيضاً ، بعد أن أغلقوا الشعرية برفق ووضعوا المفتاح مكانه .

فما أن أصبحت جانّ وحدها ، حتى فتحت عينيها وأخذت تفكر قائلة في نفسها :

«إن الكاهن نصحني بالهرب ، إذ دلني على الوسيلة بطريقة ولا أسهل . وتخويفي من الحكم قبل أن يصدر قرار المحكمة ، لا بدَّ أنه صادر عن صديق يدفعني نحو الحرية ، لا عن عدوّ يبغي تحقيري وإهانتي .

«وكي أهرب ، ما عليّ إلا أن أخطو الخطوة الأولى . أن أفتح هذه الخزانة ، ثم هذه الشعرية ، فأغدو على الرصيف المقفر .

«نعم ، إنه رصيف مقفر خالٍ من أي إنسان ، وحتى القمر ذاته تحجبه غيوم السماء .

«الهرب !.. أوه ! يعني الحرية ! يعني عودتي للتمتع بثروتي ، يعني سعادتي بأن أردَّ الى أعدائي كل الشر الذي يضمرونه لي !»

واندفعت نحو الخزانة وأمسكت بالمفتاح ، ثم اقتربت من قفل الشعرية ... وفجأة ، اعتقدت بأنها رأت على الخط الأسود من درابزين الجسر ، شكلاً أسود متناسق الهيئة ، فقالت في نفسها :

«إنه رجل في ذلك الظلام !.. قد يكون الكاهن متربصاً هربي ليقدم لي مساعدته ... ولكن ، ماذا لو كان فخاً ... حتى إذا ما أصبحت على الرصيف ، أطبق علي ، وتلبستني جريمة جديدة هي جريمة الهرب ، عدا ان الهرب بحد ذاته اعتراف مني بالجريمة التي أحاكم من أجلها ؟.. من أين جاء هذا الرجل ؟.. يبدو أنه مرتبط بالكونت دي بروفنس ... ومن يدري ، فربما كان رسول الملكة أو آل روهان ؟!

«إن حملي على الهرب قبل ساعات من صدور الحكم ، ألم يكن بالامكان تقديمه ، لو كانوا حقاً يريدون خدمتي ؟ يا إلهي ! من يدري إذا لم يكن خبر براءتي من قبل مجلس القضاء قد وصل الآن الى أعدائي ، فشاؤوا من وراء هذا الضرب المرعب إعطاء الدليل للملكة على إني مجرمة ، والا لما هربت ؟ لا ، لن أهرب ، بل سأبقى هنا ، لأن هربي هو اعتراف مني بما اقترفته يداي !»

وبعد ان اتخذت جانّ قرارها هذا وأيقنت أنها أفلتت من الفخ ،ابتسمت وشمخت برأسها الماكر الجسور ، وبخطوات

واثقة مشت وأعادت مفتاح الشعرية الى الخزانة الصغيرة قرب المدخنة .

ثم ، وفيما هي جالسة على المقعد المريح بين الضوء والنافذة ، ومتظاهرة بالنوم ، رأت ظل ذلك الرجل الذي كان يتربص قد نهض ، بعد أن تعب من الانتظار ولا شك ، وتوارى مع خيوط الفجر الاولى ، اي عند الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، وبعد أن أصبح باستطاعة العين أن تميز الماء من ضفافه .

الحكم

★

في الصباح ، وبعد ان استيقظت الضجة في كل مكان وٱستأنفت باريس حياتها العادية ، راود الأمل الكونتس بأَنها ستفاجأ بنبأ تبرئتها يدخل سجنها مع الفرح وتهاني الأصدقاء .

ولكن ، هل لديها أصدقاء؟ واحسرتاه ! فمع أن المال مجلبة للأصدقاء ، فإن جانّ التي أصبحت ثرية وقادرة ، لم

تستطع بما وهبته من مال أن تخلق لنفسها صديقاً واحداً تراه إلى جانبها في محنتها، صديقاً ولو تافهاً كذلك الذي جاملها في العشية!

إلا أن جانّ، بعد الانتصار الذي تترقبه، سيكون لها أنصار ومعجبون، وسيكون لها حسَّاد أيضاً!

لكنها عبثاً انتظرت تدفق الناس على قاعة الحارس إيبار، بوجوههم الضاحكة وأيديهم المبسوطة للتهنئة، فأخذ الأمل يتبخر ليحل مكانه القلق واليأس.

ومع أن حالة القلق في هكذا وضع، لا يستطيع المرء إخفاءها بسهولة، فلم تجد هي أية صعوبة في إخفاء مشاعرها عن حراسها.

ولما لم يكن مسموحاً لها بالخروج كي تستعلم، فقد مدت رأسها عبر كوة صغيرة، وأصغت بقلق إلى الضوضاء في الساحة المجاورة، فاذا بها ضوضاء هامسة يسودها الغموض. وما هي لحظات، حتى اخترقت أنباءُ قصر سان لويس جدرانه العتيقة، فتحولت هذه الهمسات إلى ما يشبه الانفجار، إذ دوّى التصفيق وعلا الصياح والهتاف الذي لم تفهم منه جانّ سوى كلمة «برافو»، فانتابها الخوف ورُوِّعت لأنها لم تكن تعلم عما إذا كانت هذه التظاهرة معها أو ضدها.

وللفور تكاثر عدد المارة على الرصيف، كأن جموع الساحة قد بارحتها وتفرقت جماعات جماعات، ثم ارتفع صوت رجل دين يقول بعد أن قفز الى البلاط قرب الدرابزين:

«إنه يوم الكردينال هذا اليوم!»

فقالت جانّ في نفسها: «يوم الكردينال!.. إذن هناك نبأ بأن الكردينال قد بُرِّى!»

وللحال سقطت من جبهتها قطرة عرق، بل قطرة حقد وضغينة!.. وعادت لتوها الى الغرفة الفسيحة لتقول للسيدة إيبار:

- سيدتي، سيدتي، لقد سمعتهم يقولون: «إنه يوم الكردينال هذا اليوم» فما معنى ذلك، إذا شئت؟

فأجابتها زوجة الحارس:

- لا أدري:

فصبت جانّ نظراتها في وجه السيدة إيبار، وأضافت قائلة:

- أرجوك أن تسألي زوجك.

فأطاعت المرأة مراعاة لخاطرها، وجاء جواب السيد إيبار من الخارج كجواب زوجته:

- لا أدري!

فنفد صبر جانّ، ووقفت لحظة وسط الغرفة مرتعشة، ثم قالت:

- لا شك أن هؤلاء المارة يتكلمون على المحاكمة، فهل ما يقولونه إيحاءات صادقة؟

فقال إيبار الرؤوف:

- ربما هم يريدون القول، بأنه إذا بُرِّئت ساحة الكردينال، فسيكون هذا اليوم يومه.

فصاحت جانّ وقد تشنجت أصابع يديها:

- أوَتعتقد بأنه سيبرأ؟

- ذلك محتمل.

- وأنا، ماذا سيحل بي؟..

- أوه! أنت يا سيدتي... أنت ستبرئين مثله. لماذا لا؟

فهمهمت جانّ:

- يا للفرضية الغريبة!

وعادت تلصق وجهها بالكوة الصغيرة. فقال لها الحارس:

- أعتقد يا سيدتي، بأنك تأخرت في استجلاء الحقيقة من مشاعر غير واضحة تأتيك من الخارج. فهدئي من روعك بانتظار أن يأتي محاميك، أو السيد فرامين، فيقرأ عليك...

- ماذا؟.. الحكم... لا، لا!

وصمتت منصتة... لقد كانت هناك امرأة تمرّ مع صديقاتها وعلى رؤوسهن قبعات العيد، وفي أيديهن باقات الورود، فتصاعدت الرائحة العطرة نحو حاسة الشمّ لدى جانّ، فتنشقتها مع التحسر وإطلاق الزفرات.

ثم سمعت هذه المرأة تقول:

- حبذا لو أستطيع أن أقبّل هذا الرجل المعبود، بعد أن أقدم له ورودي!

وقالت أخرى: وأنا أيضاً، أتمنى ما تتمنينه!

وقالت ثالثة: أما أنا، فأريده أن يقبلني!

فقالت جانّ في نفسها:

«عمن يتكلمون يا ترى؟ ومن يكون هذا الرجل المعبود؟ آه! إنه الكردينال... لقد بُرِّئَ! لقد بُرِّئَ!»

تلفظت بهذه الكلمات وانهارت... فأسرع إليها الحارس وزوجته محاولين تجنب ما حدث لها العشية. وبعد أن طيَّبا خاطرها بلطف الكلام، سألاها قائلين:

- عجباً منك يا سيدتي! لماذا لا تريدين التبرئة والحرية لهذا السجين المسكين؟

فشعرت جانّ كأن طعنة سُددت الى صدرها. وشعرت بنوع خاص أن مضيفيها قد تغيرا بالنسبة إليها، فقالت محاولة الاحتفاظ بعطفهما:

– أوه! إنكما لم تفهماني. أتظنان بأنني شديدة الحسد وشريرة إلى درجة أني أتمنى الشر لرفاقي في التعاسة؟ يا إلهي! أتوسل اليك بأن تمنَّ بالتبرئة على الكردينال! نعم، بالتبرئة! ولكن أنا، أنا آخر من يعلم!.. صدِّقاني أيها الصديقان، بأن نفاد الصبر هو الذي جعلني على ما أنا عليه.

فتناظر إيبار وزوجته كأنهما يقدران ما بإمكانهما أن يفعلاه. لكن بريقاً وحشياً التمع في عيني جانّ، رغماً عنها، أوقفهما عن اتخاذ أي قرار. فصاحت بهما جانّ وقد شعرت بخطإها:

– ألا تقولان لي شيئاً؟

فأجاباها معاً وبصوت منخفض:

– ليس لدينا ما نقوله.

وفي هذه اللحظة، تلقى إيبار أمراً بالخروج من شقته، ففعل وبقيت زوجته وحدها مع جانّ تحاول عبثاً تسليتها. لأنها كانت منجذبة الى الخارج بفعل الضجيج والصفير اللذين خدشا أذنيها، فجعلاها تتأثر وتنفعل إلى أقصى حدود التأثر والانفعال.

ولما لم يعد بإمكان زوجة الحارس أن تمنعها من التطلع والإصغاء، استسلمت لمشيئتها وخضعت لرغباتها.

وفجأة، تعاظمت الضجة وتكاثرت الحركة في الساحة،

وأخذت الجموع تخلي الجسر باتجاه الرصيف وهي تطلق صيحات متناسقة ومتكررة، مما جعل جانّ ترتعش في مرقبها.

هذه الصيحات لم تنقطع إطلاقاً، ومطلقوها اتجهوا نحو عربة مكشوفة كان حوذيُّها يمسك بأعنة جيادها والجموع تحيط بها من كل جانب، مما جعل الجياد بالكاد تنقل خطواتها.

فتقدمت الحشود اللجوجة المتراكمة ووضعت اكتافها وأذرعها، وحملت الجياد والعربة والشخصين اللذين كانت تحتويهما!!

ومع بزوغ أشعة الشمس، وتحت غيث من الزهور، وقبة من أغصان الأشجار كانت الف يد تلوح بها فوق رأسيهما، عرفت الكونتس هذين الرجلين اللذين أسكر منظرهما الشعب فألهبه حماسة!

لقد كان الاول شاحب اللون، مهيباً ووقوراً، ومذهولاً من شعبيته!.. وكانت النسوة تجازفن في الصعود الى إطارات العربة لتخطفن يديه وتلتهمنهما بالقبل! كما كن يتبادلن اللطمات العنيفة في المنافسة على تزيين دنتيلاً كميه بالزهور الندية النادرة!

وغيرهن، أكثر منهن حماسة، كن قد صعدن إلى مؤخرة العربة، وبدافع لاشعوري، أزلنا العوائق التي تحول بينهن وبين

التعبير عن محبتهن، وأخذن يتوالين على الامساك برأس الشخصية الهامة وطبع قبلات الاجلال والتقديس عليه... ولم تكن هذه الشخصية المعبودة سوى الكردينال دي روهان!

أما رفيقه، الذي كان متألقاً ومسروراً، فإن يكن لم يحظ بمثل ما حظي به الكردينال، إلا أنه استقبل أيضاً بحماس وحفاوة، وتوزع هتاف الجمع بحياة الشخصين بين النساء والرجال. فالنساء كن يهتفن: عاش الكردينال! والرجال كانوا يهتفون: عاش كاغليوسترو!

هذه النشوة من الفرح العارم دامت، الى ان اجتازت الجماهير جسر القصابين، نصف ساعة. وقد شاهدت جانّ المنتصرين ولم تفتها أية تفاصيل من هذا الاستقبال المنقطع النظير.

وهذه التظاهرة الشعبية ضدٌ جرائم الملكة - لأنها هكذا اعتبرت - قد أفرحت جانّ لبعض الوقت، لكنها تساءلت بعدها قائلة:

«وبعد؟! لقد أصبحا هما حرين، واكتملت كل الاجراءات المتعلقة بهما. أما أنا... أنا التي أجهل كل شيء، لماذا لا يقولون لي شيئاً عما يخصني؟!»

قالت هذا القول في نفسها وارتعشت... ثم انتبهت الى أن السيدة إيبار تقف الى جنبها صامتة ومصغية الى كل ما يجري، فهي إذن عالمة بمضمون الحكم ولا تريد ان تفصح عن شيء. فانبرت جانّ لتحثها على الايضاح، وإذا بضجة جديدة تلفت انتباهها... لقد كانت هناك عربة يحيط بها أناس، ترتقي بدورها منحدر جسر القصابين.

فعرفت جانّ في هذه العربة أوليفا... أوليفا التي كانت تنطلق حرة وتبتسم لطفلها، وقد جُنَّت فرحاً بالمزاح الصريح تقريباً، وبالقبلات التي كانت تبعث اليها في الهواء...

وفي وسط الجسر، كانت تنتظرها محفة اختبأ فيها بوزير وراء أحد أصدقائه، ووحده تجرأ وانكشف للجمهور المعجب وأشار إلى أوليفا، فهبطت هذه من عربتها وسط الصراخ الذي لم يكن يخلو من السخرية، وانتقلت الى المحفة حيث احتضنها بوزير وأخذ يشدها الى صدره ويقبلها، فيما الدموع تتساقط من عينيه، ولم يتركها ويلتقط أنفاسه إلا بعد أن وصلت المحفة بهم الى سان دينيس، حيث استبدلوها بعربة جياد دون أن يستوقفها احد من رجال الشرطة.

في هذه الاثناء، كانت جانّ تتساءل، وقد رأت كل هؤلاء الناس أحراراً وفرحين كأنهم في عيد:

«لماذا أنا وحدي لم أتلقَّ أي خبر!»

ثم رفعت صوتها وقالت بغضب :

– لماذا أنا ، أنا وحدي ، خصصوني بهذا التفنن في القسوة ، ولم يصارحوني بواقع الحكم الذي يعنيني ؟!

وكان إيبار قد دخل ، فقال لها :

– هدئي من روعك يا سيدتي ، هدئي من روعك !

فصاحت به قائلة :

– من غير المعقول أن لا تكون على علم بشيء . أنت تعرف ! أنت تعرف ! أخبرني ! أخبرني !

– سيدتي ...

– أخبرني إذا لم تكن بربرياً ، فأنت ترى كم أتألم !

– إنه لممنوع علينا ، نحن مآمير السجن ، أن نعلن الأحكام يا سيدتي . فهذا الأمر يتعلق بكتّاب المحكمة .

فصاحت جان في فورة من الغضب العارم :

– إذن ، هناك ما هو خطير ومرعب ، فلا تتجرأ على البوح به !

فأرعب منظرها حارس السجن ، فقال لها وقد تصور مشهدها في العشية :

– لا ... تمالكي أعصابك يا سيدتي ، تمالكي أعصابك !

– إذن ، تكلم !

– أتعدينني بالصبر ، وعدم النقمة علي ؟

– أعدك وأقسم لك، فقط تكلم!

– حسناً!.. إن الكردينال قد بُرِّئ!

– أعرف ذلك!

– والسيد دي كاغليوسترو وضع خارج البلاط.

– أعرف! أعرف!

– والآنسة أوليفا لم تثبت عليها التهمة.

– أكمل... أكمل!

– اما السيد ريتو دي فيئّات، فقد حكم عليه بالسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة!

فارتعشت جانّ وصاحت غاضبة:

– وأنا؟.. أنا؟..

– صبراً يا سيدتي، صبراً! ألم تعديني بذلك؟

– إني صابرة، هيَّا، تكلم!... وأنا؟

فحوَّل الحارس عينيه عنها، وقال بصوت منخفض:

– أنت... حكم عليك بالنفي!

فالتمع وميض السرور في عيني الكونتس، لكنه انطفأ بأسرع مما التمع!

ثم أطلقت صرخة مدوية، وارتمت بين أذرع مضيفيها متظاهرة بأنه قد أُغمي عليها!

فهمس إيبار في أذن زوجته:

– ماذا كانت النتيجة، لو أني قلت لها الحقيقة؟

أما جان التي تظاهرت بأنها أُصيبت بنوبة عصبية، فقد كانت تقول في نفسها:

«النفي، يعني الحرية، يعني الثروة، يعني الانتقام، وهذا ما حلمت به... لقد انتصرت!»

التنفيذ

★

أخذت جانّ تترقب بأن يطل عليها كاتب المحكمة، الذي وعدها به حارس السجن، كي يبلغها نتيجة الحكم بحقها.

ولم يكن يخامرها الشك إطلاقاً بأن الحكم بالنفي هو كل عقوبتها. أما لماذا بُرِّئَ الكردينال ولم تبرأ هي، فقد تساءلت عنه بكبرياء:

«لماذا اعتبروا الكردينال أقل ذنباً مني؟ هل كان عقابي نتيجة لذنب ارتكبته؟ لا، فلو كنت في نظر الكل وبموجب القانون والشرع واحدة من آل فالوا، ولو أُتيح لي أن أظهر عند مرور القضاة محاطة بالأمراء وأصحاب المراتب والمقامات الرفيعة كما أُتيح للكردينال، لما كان بالتأكيد لحق بي وبآل فالوا عار الجلوس على المقعد الخشبي المخصص لكبار المجرمين.

«ولكن لماذا التفكير بكل هذه الامور وقد أصبحت في عالم الأموات، بعد ان انتهت تلك المشكلة الخطيرة التي اعترضت سبيل حياتي؟ عليَّ الآن أن أتكيف مع الواقع. فبقائي غامضة المقام في نظر الشعب وفي نظر أهل البلاط، قد يعيدني الى ما كنت عليه من شقاء أساساً، أي إلى ذلك الشقاء الذي كان التدرج المؤلم لحياتي. إن الحاضر عكس الماضي تماماً. فالحكم بالنفي، يعني بأن لي حق التصرّف بالمليون من الليرات الموجودة في صندوقي، وبالعيش تحت أشجار البرتقال في مدينة سيفيل الاسبانية خلال فصل الشتاء، وفي المانيا أو انكلترا خلال فصل الصيف. أي لا شيء يمنعني، وانا الصبية الجميلة الذائعة الصيت، من أن أعيش كما أشتهي وأتمنى، سواء مع زوجي الذي هو طليق، كما اعتقد، أو مع أصدقاء يعرفون كيف يوفرون لي السعادة التي يتطلبها شبابي!

وأضافت تقول وهي مضعضعة الأفكار:

«ليأتوا فوراً ويبلغوني الحكم! أريد أن أعلم كيف سيطلعونني على قرار المحكمة، وكيف سيقودونني إلى خارج المملكة. فهل سينتقمون من امرأة بفرض عقوبات صارمة عليها؟ هل سيعهدون بي الى النبالين كي يوصلوني إلى

الحدود؟ هل سيقولون لي بتفخيم: «أيتها الساقطة، إن الملك ينفيك من مملكته؟»

ثم ابتسمت وأكملت:

«لا، فأسيادي هم طيبو القلب، ولا يتمنون لي اكثر من النفي. فالأكثر يتمنونه لهذا الشعب الباريسي الطيب الذي يصيح تحت شرفاتهم: «عاش الكردينال! عاش كاغليوسترو! عاش البرلمان!»

«أوه! نعم، الشعب، فهو عدوهم المباشر! لأني أنا، اعتمدت على الدعم المعنوي للرأي العام، وقد نجحت!»

وأخذت جانّ، وهي في وضعها هذا، تجري حساباتها، وترسم الخطط لمستقبل حياتها. وفيما كانت تفكر بالطريقة التي ستعتمدها لنقل مأساتها من محل إقامتها الى لندن – وقد كان الوقت صيفاً يومذاك – إذا بها تتذكر ذلك المسكين ريتو دي فييَّات، فابتسمت وقالت بخبث ومن دون أية شفقة:

«يا للولد المسكين البائس هذا الريتو! فهو يدفع اليوم ثمن مقالاته الهجائية ضدَّ الملكة، ومؤامرات قلمه. فالله الذي قسم الحصص على البشر، شاء أن يخصه بضربات من العصا، وببعض الليرات الذهبية أحياناً، ثم بكمائن ومخابئ، وأخيراً بالسجن مع الاشغال الشاقة... وهذه هي حال من

يعتمد الحذق عوضاً عن الذكاء، والسخرية عوضاً عن الخبث، ومبدأ الهجوم من دون المثابرة والقوة.»

ثم تناولت جانّ وجبة طعامها مع حارس السجن وعائلته، وكان السرور بادياً عليها، فيما كان الحارس وعائلته عكسها، وقد ظهر الانزعاج جلياً على وجوههم، فنسبت جان ذلك الى الحكم الذي كانت هدفاً له. ولما أبدت لهم ملاحظتها، أجابوها: لا شيء يؤلمنا اكثر من منظر الموقوفين بعد صدور الاحكام عليهم.

كان فرح جانّ صادراً من أعماق قلبها، ولم يكن بوسعها إخفاءه إلا إذا انفردت وحدها مع أفكارها، فوعدت نفسها بأن تطلب بعد الغداء إعادتها إلى غرفتها.

وفوجئت بإيبار يقول لها وقت التحلية، وبجدية ما اعتاد أن يعتمدها في علاقته معها:

«سيدتي، لدينا أمر بأن لا نحتفظ في السجن بالاشخاص الذين بتَّ البرلمان في مصيرهم.»

فقالت جانّ في نفسها: «حسناً، هذا جلُّ ما أتمناه!»

ثم نهضت وأجابت:

- أنا لا أريد أن أعرِّضك للمخالفة، فأكون غير مقدرة لحسن معاملتك لي... إذن، عليَّ أن أعود إلى غرفتي.

وتطلعت كي ترى ما لكلامها من تأثير، فاذا بإيبار يدير

مفتاحاً بإصبعه ، واذا بزوجته تدير وجهها كأنها تريد إخفاء ما ارتسم عليه من تأثيرات جديدة .

فأضافت الكونتس قائلة :

– لكن ، أين سيتلون عليّ الحكم ، ومتى سيتمّ ذلك ؟

فأسرع إيبار إلى القول :

– ربما هم ينتظرون عودة سيدتي الى غرفتها .

فقالت جانّ في نفسها : «إنه حتماً يريد إبعادي !»

وارتعشت ، إذ ساورها شعور بالقلق لم يدم سوى لحظة ، ثم صعدت الدرجات الثلاث التي تفضي الى ممشى قلم المحكمة .

فما أن رأتها السيدة إيبار ذاهبة ، حتى أسرعت إليها وأمسكت بيدها ، ليس باحترام ، ولا بمحبة حقيقية ، ولا بذلك التأثر الذي يشرّف صاحبه كما يشرف مسببّه ، بل بدافع الشفقة التي لم تخف على الكونتس الذكية .

فتأثرت جانّ هذه المرة بصدق ، حتى أنها شعرت برعب !.. لكن تلك المخلوقة المغمورة نفسها بالفرح والأمل ، طرحت عنها الرعب الذي شعرت به ، بنفس السرعة التي طرحت بها القلق !

ومع ذلك ، شاءت جانّ أن تستوضح السيدة إيبار سبب شفقتها ، فانفرجت شفتاها لتطرحا السؤال ... لكن الوقت لم

يسمح لها ، لأن إيبار أمسك يدها بشيء من التهذيب ، وفتح الباب ...

فرأت الكونتس نفسها في الممشى ، حيث كان بانتظارها ثمانية نبالين من الشرطة العسكرية . فما أن لمحتهم جانّ حتى تساءلت : من ينتظرون يا ترى ؟

وكان في مقدمة النبالة حامل مفاتيح السجن ، ذاك الذي كان كل مساء ، يقود الكونتس إلى غرفتها .

فتقدم هذا الرجل جانّ ، وكأنه يدلها على الطريق . فقالت الكونتس بلهجة المرأة التي تريد إظهار نفسها بأنها واثقة مما تقوله ، ولكن بشك :

- هل أنا ذاهبة إلى غرفتي ؟

فأجابها حامل المفاتيح :

- نعم يا سيدتي .

فأمسكت جان بحديد الدرابزين وصعدت وراء الرجل ، وقد سمعت النبالة على بعد خطوات منها يتهامسون ، دون أن يتحركوا من مكانهم .

وعندما بلغت غرفتها ، شكرت حامل المفاتيح ، ثم انسحب هذا الأخير . وإذ ذاك ، وما أن شعرت جانّ بأنها غدت حرة وبعيدة عن أعين الرقباء ، حتى انفجر سرورها

المكبوت بشكل غريب ، ذلك السرور الذي أخفته طويلاً عن الحارس ، بعد أن قنّعت وجهها بقناع المكر والنفاق !

وعندما أرخى الليل سدوله وانتفت كل حركة ، مما جعل السجينة تطمئن إلى أن حراسها نيام . وعندما سكن كل ما حولها ، تيقظت في تلك المرأة طبيعتها الوحشية ، فأخذت تَثِب وتصرخ نشوانة ، وتقوم بحركات متنوعة بهدف تليين كل عضو وكل مفصل في جسدها ، استعداداً للانطلاق نحو الحرية التي تنتظرها ...

وفجأة ، سمعت وقع خطوات في الممشى ، تلتها خشخشة مفاتيح . ثم سمعت صرير القفل الضخم ... فانتصبت مصغية وصامتة ، وقالت في نفسها : «ماذا يريدون مني ؟»

ودخل حامل المفاتيح ... فسألته الكونتس بصوتها العذب غير المبالي :

- ما وراءك يا جان ؟

فأجابها :

- هل تريد سيدتي أن تتبعني ؟

- إلى أين ؟

- إلى أسفل يا سيدتي .

- لماذا إلى أسفل ؟!

- إلى قلم المحكمة .

- من أجل ماذا؟ أرجوك!

- سيدتي ...

فتقدمت جانّ نحو هذا الرجل المتردد، فلمحت في نهاية الممشى نبالة الشرطة العسكرية الذين التقتهم في الطبقة السفلى، فصاحت بانفعال:

- قل لي بربك، ماذا يريدون مني في قلم المحكمة؟

- سيدتي، إن محاميك السيد دوالو، يريد ان يتحدث إليك .

- في قلم المحكمة؟! لماذا ليس هنا، طالما أنه عدة مرات نال الإذن بالمجيء إلى هنا؟!

- القضية يا سيدتي، أن السيد دوالو قد تلقى رسائل من فرساي، وهو يريد أن يطلعك عليها .

فلم تلاحظ جانّ إطلاقاً كم كان غير منطقي هذا الجواب . لأن ما استرعى انتباهها فقط، هو عبارة «رسائل من فرساي ...»، وهي بدون شك، رسائل من البلاط جلبها المحامي نفسه، فأخذت تتساءل:

«هل الملكة قد التمست الرحمة بعد صدور الحكم؟ هل ...»

وهنا بدرت من حامل المفاتيح حركة إلحاح، إذ أخذ يهزهز المفاتيح في يديه كأنه أستاذ، وقد استاء من عدم مثول تلميذته لأوامره، فقالت له جانّ:

- قليلاً من الصبر، فأنت ترى بأني قد نزعت ثيابي لأستريح قليلاً، بعد أن أنهكتني الأيام الأخيرة.

- إني صابر يا سيدتي، ولكني أرجوك، فالسيد دوالو مستعجل!

فأغلقت جانّ الباب، وفي برهة لم تتعدَّ الدقائق الخمس، لبست ثيابها ورتبت شعرها، لأن قلبها كان ينبئها بأن السيد دوالو يحمل إليها أمر الإخلاء الفوري، والوسيلة التي ستجتاز بموجبها الأراضي الفرنسية، بطريقة سرية ومريحة في آنٍ واحد.

نعم، لا بدّ أن تكون الملكة قد فكرت بوجوب إبعاد عدوتها في أسرع وقت ممكن. فهي بعد صدور الحكم، ستعمل جهدها كي تخفف قدر المستطاع نقمة هذه العدوة. لأنه، إن كانت النمرة خطرة وهي مقيدة بالسلاسل، فكم ستكون خطرة إذا ما أصبحت حرة؟

هذه الأفكار السعيدة التي هدهدت جانّ، جعلتها تطير فرحاً وهي تسرع وراء حامل مفاتيح السجن، الذي أنزلها من الدرج الصغير الذي منه كانوا يأخذونها الى قاعة

المواجهات . لكنه عوضاً عن أن يسير بها باتجاه هذه القاعة ، وعوضاً عن أن يستدير الى الشمال كي يدخل قلم المحكمة ، استدار هذا السجان نحو الباب الواقع الى اليمين ، فسألته عندئذ جانّ :

- إلى أين تذهب بي ؟ فقلم المحكمة هنا !

فقال السجان بلهجة معسولة :

- تعالي ، تعالي يا سيدتي ، فهنا السيد دوالو ينتظرك .

ودخل هو اولاً ، ثم جذب السجينة ، التي ما أن أصبحت داخل الباب ، حتى سمعت قرقعة المزاليج التي أوصدوا بواسطتها ذلك الباب الضخم من الخارج ...

فانذهلت جانّ ، إذ إنها لم تر أحداً في تلك الظلمة ، ولا تجرأت أن تطرح مزيداً من الأسئلة على حارسها ! وبعد أن تقدمت خطوتين أو ثلاثاً ، توقفت ... فالضوء المائل إلى الزرقة في تلك الغرفة التي وجدت نفسها فيها ، جعل منظرها أشبه بمنظر القبر من الداخل ! فهو ضوء ضئيل كانت أشعته تنسلّ من شعرية قديمة ، وعبر بيوت العنكبوت والغبار المتكاثف على قضبانها الحديدية .

وفجأة ، شعرت جان بالبرد والرطوبة في تلك الزنزانة ، واستشفت شيئاً مخيفاً في عيني السجان المتوقدتين ، الذي وجدت نفسها معه وحده داخل تلك الجدران الاربعة التي

كستها المياه المتسرّبة من السقائف بلون زنجاري عفن، لأن أشعة الشمس لم تلامسها بدفئها. فقالت له مرتعشة من الخوف الذي سيطر عليها:

- سيدي، ماذا نعمل هنا نحن الاثنان؟ أين السيد دوالو الذي وعدتني بأن أراه؟

فلم يجاوب حامل المفاتيح، بل استدار ليتأكد عما إذا كان الباب الذي دخلا منه مغلقاً بإحكام. فلاحقت جانّ حركته تلك برعب وهلع، لأنها في تلك الساعة تذكرت الروايات التي تدور أحداثها في عصور الظلم والبربرية، وتصورت نفسها بأنها ستواجه واحداً من أولئك السجانين المتوحشين والهائمين بسجيناتهم، الذين كانوا يوم يرون أن إحدى السجينات الجميلات سيطلق سراحها، يتحولون الى مغتصبين، فيقترحون عليها ممارسة الحب مقابل حريتها!

ولكن جانّ القوية لم تكن تخشى المفاجآت، ولا كانت نفسها على شيء من الحشمة. لذا اتجهت رأساً إلى السجان وقالت له بابتسامة فيها عطف وحنان:

- ماذا تطلب مني يا صديقي؟ هل لديك شيء تقوله لي؟ إن وقت السجينة، وهي على قاب قوسين من الحرية، لهو وقت ثمين. ويبدو لي أنك اخترت وقتاً مشؤوماً للتحدث إلي!

فلم يجاوبها حامل المفاتيح بشيء، لأنه لم يدرك معنى كلامها. بل جلس على زاوية المدخنة، وأخذ ينتظر. فقالت له جانّ بخشية، وقد ظنته مجنوناً:

- أكرر عليك قولي، ماذا نعمل هنا؟

فأجابها الحارس:

- ننتظر المحامي دوالو!

فقالت له:

- ليس من المعقول أن يأتي المحامي دوالو إلى هنا، كي يطلعني على رسائل وردته من فرساي. فهناك شيء آخر!

وما كادت تنهي كلماتها هذه، حتى فُتح أمامها باب لم تلحظه من قبل. وكان هذا الباب قلاباً مستديراً، كأنه أثر تاريخي مصنوع من الخشب والحديد، لم يلجه إلا السحرة والجن!

وكان وراء هذا الباب درجات تفضي الى رواق سيء الإضاءة، لمحت جانّ وراءه في لحظة خاطفة كالبرق، وبعد أن وقفت على رؤوس أصابع رجليها، فسحة شبيهة بالساحة، ولمحت في هذه الفسحة جمهرة من الرجال والنساء يتطاير الشرر من عيونهم!

فلم يتح الوقت لها كي تعلل هذا المشهد الذي كان بالنسبة إليها كرؤيا، أكثر مما هو نظرة واقعية. ثم ظهر أمامها

وعلى مسافة أقرب من تلك الساحة، ثلاثة اشخاص يصعدون الدرجة الاخيرة، وقد التمعت وراءهم، وعلى الدرجات الداخلية حتماً، أربع حراب بيضاء صقيلة، كأنها أربع شمعات شؤم تنير المكان!

لكن الباب المستدير انغلق، والرجال الثلاثة وحدهم دخلوا الزنزانة التي كانت فيها، فحولت هذه المفاجآت المتلاحقة قلقها إلى رعب! وقد دفعها هذا الرعب الى السجان الذي كانت منذ لحظة تخافه، كي تطلب حمايته من هؤلاء المجهولين.

لكن السجان التصق بحائط الزنزانة، تعبيراً عن مشيئته بأنه سيبقى مشاهداً سلبياً لما سيجري.

وقبل أن يتاح لجانّ التفكير بما يجب قوله، بدأ أصغر الرجال الثلاثة استجوابها. وكان هذا الرجل المجهول يلبس ثياباً سوداء، ويعتمر قبعة، ويمسك بيده أوراقاً ملفوفة. فسألها بعد أن وقف رفيقاه موقف السجان، فتواريا عن الانظار في الجزء الأكثر ظلمة من تلك الزنزانة الواسعة:

- هل أنت يا سيدتي، جانّ دي سان ريمي دي ڤالوا، زوجة انطوان نيكولا، كونت دي لاموت؟

فأجابته جانّ:

- نعم يا سيدي.

- أنت المولودة في فونتات، في الثاني والعشرين من تموز عام ١٧٥٦؟

- نعم يا سيدي.

- وتقطنين في باريس، شارع سان جيل؟

- نعم يا سيدي... ولكن لماذا توجه إليَّ كل هذه الأسئلة؟!

- أنا آسف يا سيدتي، لأني لم أعرِّفك بنفسي. لي الشرف بأن أكون كاتب المحكمة.

- إني أعرفك!

- إذن، هل باستطاعتي يا سيدتي أن أكمل مهمتي، بالصفة التي عرفتني بها؟

- أرجوك يا سيدي، أية مهمة أنت مكلف بها؟

- إني مكلف يا سيدتي؛ بأن أقرأ عليك نصَّ الحكم الذي أصدرته المحكمة بحقك، في جلستها المنعقدة بتاريخ الواحد والثلاثين من أيار عام ١٧٨٦.

فارتعشت جانّ... ثم سرَّحت نظرها فيما حولها بيأس وارتياب، وقالت:

- أنت كاتب المحكمة بريتون. ولكن من هما هذان السيدان، رفيقاك؟

وقبل أن يجاوب كاتب المحكمة، أسرع إليه السجان وهمس في أذنه هذه الكلمات: «لا تعرّفها بهما!»

فسمعت جانّ ما قاله السجان، وتطلعت إلى الرجلين بانتباه أكثر مما فعلت قبلاً، ثم ارتجفت عندما لاحظت أن أحدهما يلبس درعاً حديدية وذات أزرار حديدية، والآخر سترة وقلبقاً. ولفت نظرها بنوع خاص الصِدار الجلدي الغريب الذي كسا صدر هذا الأخير، إذ بدا محروقاً في أكثر من موضع، وملطخاً بالدم والزيت في مواضع أخرى!..

فتراجعت إلى الوراء وكأنها حية رقطاء قد انطوت على نفسها استعداداً لوثبة قوية...

فتقدم منها كاتب المحكمة، وقال لها:

- اركعي يا سيدتي، إذا شئت!

فصاحت جانّ:

- أركع! أركع! أنا!.. أنا جانّ دي فالوا، أركع!

- إنه الأمر يا سيدتي.

فاعترضت جانّ مع ابتسامة مشؤومة:

- ولكنك لا تفكر فيما تقول يا سيدي، وعليّ أن أعلّمك القانون! فلا يجوز إركاع إلا من يقرُّ بذنبه، ويتوجب عليه أن يعتذر جهاراً.

- حسناً يا سيدتي!

- حسناً !.. إن الاعتذار جهاراً لا يكون إلا نتيجة حكم بالقصاص الشائن . والنفي كما أعلم ، ليس قصاصاً شائناً في عرف القانون الفرنسي .

فقال كاتب المحكمة برزانة حزينة :

- أنا لم أقل لك بأن المحكمة حكمت عليك بالنفي يا سيدتي !

فصاحت جانّ وقد تفجرت غضباً :

- إذن ، بماذا حكمت عليَّ ؟

- ستعرفين يا سيدتي إذا ما أصغيت للحكم . وكي تصغي إليه ، عليك اولاً ، إذا شئت ، أن تركعي ...

- أبداً !.. أبداً !

- ان الحكم يا سيدتي ، يتضمن عبارة تقول : إن رفضت المحكومة أن تركع ...

- ماذا ؟

- ماذا ؟ يجب إجبارها بالقوة !

- بالقوة !.. ضدَّ امرأة !

- إن المرأة تتساوى بالرجل ، إذا ما أخلت بالاحترام الواجب للملك والعدالة .

فصاحت جانّ بغضب شديد :

- والملكة ! أليس كذلك؟ لأني أعرف جيداً، بأن وراء هذه المشيئة امرأة عدوة !

- لقد تجنيت كثيراً على الملكة يا سيدتي ! فجلالتها لا علاقة لها إطلاقاً بنصِّ الأحكام التي أصدرتها المحكمة . هيا يا سيدتي واركعي، ولا تجبرينا على استعمال القوة !

- أبداً ! أبداً ! أبداً !

فلفّ كاتب المحكمة الاوراق التي كان يمسك بها، وسحب من جيبه الواسع قضيباً من الشريط الفولاذي المبروم كان يحتفظ به احتياطاً لما قد يحدث، وقرأ الأمر الصريح الصادر عن النائب العام والموجه الى الشرطة، والقاضي بإرغام المتهمة المتمردة على أن تركع استجابة لرغبة العدالة .

فثبّتت جانّ قدميها في إحدى زوايا الزنزانة، خوفاً من الشرطة التي تمثلت لها في الحراب التي رأتها، والتي تصورتها منتصبة على الدرج وراء الباب .

لكن كاتب المحكمة لم يفتح هذا الباب . بل أشار إلى الرجلين اللذين تكلمنا عليهما، فتقدما بهدوء ووضعا ذراعيهما القويتين تحت كتفي جانّ، وجرّاها إلى وسط الزنزانة رغم صراخها وعويلها !

وجلس كاتب المحكمة ينتظر وهو هادئ الأعصاب .

فلم تدر جانّ بأنها كي تجرَّ بهذه الطريقة، ستجبر على أن

تركع غصباً عنها. لكنها تنبهت إلى ذلك عندما قال كاتب المحكمة: «حسن هكذا!»

ثم حرك القضيب الفولاذي بيده، فقفزت جانّ برجليها الاثنتين وتعلقت بالرجلين وأخذت تصرخ... فقال لها كاتب المحكمة:

- لا فائدة من الصراخ، لأنه لن يسمعك أحد في الخارج، وبالتالي لا يعود بإمكانك أن تسمعي نصَّ الحكم المتوجب عليَّ أن أقرأه عليك.

فقالت جانّ لاهثة ومتوسلة:

- إسمح لي أن أسمعه وأنا واقفة، سوف أسمعه صامتة!

فأجابها كاتب المحكمة:

- إن المذنب الذي يعاقب بالجلد... يتوجب عليه أن يركع كي يستمع الى قصاصه الشائن!

فصرخت جانّ عاوية:

- الجلد!.. الجلد! آه! يا لي من شقية! تقول الجلد؟!

وتضاعف صراخها وزعيقها إلى درجة أذهلت السجان، وكاتب المحكمة، والمساعدين، فأضاعوا رشدهم وأقبلوا كالسكارى يقومون بعملية الترويض.

لقد ارتموا على جانّ وطرحوها أرضاً، لكنها قاومت

بضراوة ! فشاؤوا أن يلووا ركبتيها ، فصلّبت عضلاتها حتى غدت كأنها شفار من الفولاذ !

وأخذت ، وهي معلقة في الهواء بين أيدي هؤلاء الرجال ، تقاوم بشراسة برجليها ويديها ، مما سبّب لهم جروحات مؤلمة ! عندئذ تقاسموا المهمة ، فأمسك أحدهم برجليها كما الملزمة ، ورفعها الآخران بزنديهما ، وصاحوا بكاتب المحكمة :

«إقرأ ! إقرأ الحكم بلا انقطاع يا حضرة الكاتب ، فبغير هذه الطريقة لن ننتهي من هذه الكلبة !»

فصاحت جانّ وهي تتخبط بقوة غير طبيعية :

– لن أدعكم تقرأون حكماً يصفني بالعار !

وقد طغى صراخها وزمجرتها على صوت كاتب المحكمة ، فلم تسمع أية كلمة مما قرأه !

ولما أكمل القراءة ، طوى الاوراق ووضعها في جيبه . فاعتقدت جانّ بأنه انتهى فصمتت ، وحاولت أن تستعيد أنفاسها كي تتصدى مجدداً لهؤلاء الرجال . ثم أطلقت قهقهات أكثر وحشية من صراخها وزمجرتها ...

واستأنف كاتب المحكمة يقول بهدوء وسكينة ، كأن ما يقوله هو إجراء عادي :

«إن الحكم سينفذ في ساحة قصر العدل !»

فصرخت التعسة عاوية :

- أوه !.. على مرأى من الجميع !

واستدار كاتب المحكمة نحو الرجل ذي الصدار الجلدي، وقال له :

- «مسيو دي باري[1]»، إني أسلمك هذه المرأة !

فصاحت جانّ وهي في ذروة الخوف والغضب :

- من يكون هذا الرجل ؟!

فانحنى كاتب المحكمة وأجابها :

- إنه الجلاد !..

وما كاد يلفظ كلمة «جلاد»، حتى أطبق الجلادان على جانّ وحملاها ليذهبا بها من جهة الرواق الذي لمحته، كي يمنعاها من متابعة مقاومتها بالشكل الذي وصفناه . فهذه المرأة التي كان يغمى عليها إذا ما مُسَّت كرامتها في الحياة العادية، قد تحملت خلال ما يقرب الساعة اللطمات والمعاملة السيئة من هذين الجلادين، وجُرَّت حتى الباب الخارجي دون أن تتوقف لحظة عن الصراخ المرعب المخيف !

بعد ذلك الباب، بدت الساحة التي شُميت بساحة قصر العدل، حيث كان الجنود يحيطون بأكثر من ثلاثة آلاف

---

(١) مسيو دي باري: اسم كانوا يطلقونه على الجلاد (سيد باريس).

مشاهد، أقبلوا بدافع الفضول إلى هذه الساحة، بعد أن رأوا الاستعدادات قائمة لنصب المقصلة.

وعلى منصة بلغ ارتفاعها ثمانية أقدام تقريباً، انتصب عمود أسود مجهَّز بحلقات حديدية، وتعلوه لافتة حاول كاتب المحكمة، بناء لأمر دون شك، أن يجعلها غير مقروءة.

هذه المنصة لم يكن لها أي درابزين، وكانوا يصعدون إليها بواسطة سلم يخلو من الدرابزين ايضاً. فالدرابزين الوحيد الذي لوحظ عليها، هو حراب النبّالة التي بدت كأنها سور منيع من القضبان الحديدية ذات الرؤوس اللامعة والمسنونة.

وما أن رأى الجمهور أبواب القصر تفتح، ومفوضي الشرطة يقبلون مع هراواتهم، وكاتب المحكمة يسير حاملاً بيده أوراقه، حتى بدأ يموج كالبحر وقد هزته الرياح!

ومن كل الجهات انطلقت الصيحات: «ها هي! ها هي!» فترددت أصداؤها بشكل لا يخلو من الاحترام للمحكوم عليها، ومن الملاحظات القاسية ضدّ القضاة. لأن حجة جانّ القوية، قد جعلت منها فريقاً عند صدور الحكم عليها. فالذين كانوا منذ شهرين يحتقرونها، قد بدَّلوا نظرتهم منها وردوا إليها اعتبارها بعد ان اتخذ موقفها موقف الخصام مع الملكة.

لكن السيد دي غروسن ، كان قد احتاط للأمر ، فأحلّ في الصفوف الامامية من تلك الساحة ، وبالقرب من رجال الشرطة ذوي الاكتاف العريضة ، أكثر النساء حماسة للكردينال دي روهان . وبهذه الطريقة ، حولوا لمصلحة الملكة الغضب المتفجر ضدها . فالذين صفقوا تصفيقاً حاداً للكردينال دي روهان كرهاً بماري انطوانيت ، جاؤوا ليصفروا أو يصيحوا ساخرين من السيدة دي لاموت كي يفصلوا بين قضيتها ، كامرأة طائشة مستهترة ، وبين قضية الكردينال .

فالذي حصل ، هو أنه ما أن ظهرت على الفسحة الصغيرة ، حتى استقبلت بالهتاف الغاضب المنطلق من أقوى الصدور والحناجر : «لتسقط لاموت ! الموت للمزورة !» فطغا هذا الهتاف على كل ما عداه !

وحدث أيضاً ، ان الذين حاولوا التعبير عن عطفهم على جانّ ، أو عن سخطهم على الحكم الذي تناولها ، اعتبروا كأعداء للكردينال من قبل السيدات المتحمسات له ، كما اعتبروا أعداءً للملكة من قبل رجال الشرطة . وبهاتين الصفتين عوملوا معاملة سيئة من قبل الجنسين اللذين كان يهمهما تحقير المدانة وإذلالها .

وكانت قوى جانّ قد تلاشت ، فكفت عن الصراخ . لكن

غضبها المتأجج في صدرها بقي على ما كان عليه، فأطلقت بصوتها الجليّ، المرتج، الرنان، عدة كلمات كان لها وقع السحر على كل المهمهمين، إذ قالت:

«هل تعلمون من أنا؟ هل تعلمون أن دمي من دم ملوككم؟ هل تعلمون أن ما أنزلوه بي، لم ينزلوه بي كمذنبة، بل كمنافسة، وأكثر من منافسة، كشريكة متواطئة؟»

فقوطعت هنا بصخب وضجيج من قبل العناصر الأكثر نباهة في رجال السيد دي غروسن. لكنها إن لم تكن قد أثارت الاهتمام، فهي قد أثارت الفضول على الأقل، وفضول الشعب هو عطش بحاجة إلى ارتواء. فالصمت الذي لاحظته جانّ، أثبت لها أن الشعب يريد الإصغاء كي يروي هذا العطش، فكررت قولها:

«نعم، إني شريكة متواطئة! وقد عاقبوا فيَّ تلك التي تعرف أسرار...»

فقاطعها كاتب المحكمة بأن همس في أذنها: خذي حذرك!

فاستدارت، واذا بالجلاد يمسك السوط بيده...

أمام هذا المشهد، نسيت جانّ ما تودُّ أن تقوله، كما نسيت حقدها ورغبتها في استمالة الجمهور، ولم تعد ترى إلا

الخزي والعار، والألم الذي كانت تخافه، فصاحت بصوت ممزّق:

«العفو!.. العفو!»

فطغا الهزء والسخرية على رجائها... وتشبثت جانّ مترنحة بركبتي الجلاد، وتمكنت من الامساك بيده.

لكن الجلاد رفع اليد الثانية، وسقط بالسوط على كتفي الكونتس...

وبشكل لا يصدق! هذه المرأة التي طرحها الألم الجسدي أرضاً، مروضة ومقهورة، استجمعت قواها وانتصبت، وأسرعت إلى مساعد الجلاد محاولة قذفه الى الساحة خارج المقصلة...

لكنها فجأة تراجعت... فهذا الرجل كان يمسك بيده قضيباً حديدياً محمراً، كان قد سحبه لتوّه من الجمر المتوقد. فوخز بحرارته الملتهبة جسدها الندي، ففاحت رائحة اللحم منه... وقفزت كالمجنونة إلى الوراء مطلقة صرخة وحشية:

«وسموني!.. وسموني!»

فأجاب كل الحاضرين على صرختها، بصرخة انطلقت مزمجرة من ثلاثة آلاف فم:

«نعم، نعم، لقد وسموك!»

فصاحت جانّ التي ضعضعها الألم والعار اللذين وسمت

بهما ، وهي تحاول أن تقطع المرسة التي جاؤوا بها لتقييد يديها :

«النجدة !.. النجدة !»

وفي ذات الوقت ، انبرى الجلاد يمزق ثوبها الذي لم يستطع نزعه . وفيما هو يبعد بيده المرتعشة القماش الممزق ، حاول أن يأخذ القضيب المحميّ الذي قدمه له مساعده . لكن جانّ وثبت على هذا الرجل وأجبرته على التقهقر ، لأنه لم يجرؤ على لمسها ، بحيث أن الجلاد ، وقد يئس من أخذ الأداة المشؤومة ، شرع يصغي بدافع من قلقه الداخلي ، عما إذا كانت ستنطلق من صفوف الجمع بعض اللعنات عليه .

والواقع أن الجمع المعجب بالدفاع القوي الذي أبدته تلك المرأة ، كان يرتعش صامتاً نافد الصبر . وكان كاتب المحكمة قد أنزل السلم ، والجنود قد اصطفوا ينظرون الى المشهد مسخرين لا مخيرين .

وفيما البلبلة قائمة والفوضى سائدة بسبب هذا المشهد المخيف ، انطلق صوت من الصف الاول يقول :

«خلصونا منها !»

وكان صوتاً حاسماً لا شك أن الجلاد عرفه ، لأنه وثب على جانّ بقوة وطواها فوق بعضها ولوى رأسها بيده اليسرى .

ومع هذا، انتصبت واقفة وأكثر التهاباً من الحديد الذي كانوا يهددونها به، وصاحت بصوت سيطر على كل الجلبة المتصاعدة من الساحة، وعلى كل اللعنات المنصبة عليها من الجلادين.

«جبناء أنتم أيها الفرنسيون! جبناء لأنكم لا تدافعون عني، بل تتركونني أتعذب!»

فصاح بها كاتب المحكمة:

- اصمتي!

وصاح بها مفوض الشرطة:

- اصمتي!

فقالت جان:

- أصمت!.. آه! أجل، يجب أن أتحمل هذا العار، فالغلطة غلطتي! ماذا ستفعلون بي؟

فصاح الشعب مسيئاً فهم هذا الاعتراف: آه! آه! آه!

واكملت جانّ تقول وهي دائماً تتلوى:

- نعم، إنها غلطتي، لأني لو شئت أن أقول...

فصاح الكتاب والمفوضون والجلادون بصوت هادر:

- اصمتي!

لكن جانّ لم تصمت! بل أكملت تقول:

- لو شئت أن أقول كل ما أعرفه عن الملكة، إذن... لكنت قضيت دون أن أتسربل بالعار!

وما استطاعت أن تقول أكثر من ذلك، لأن المفوض وثب إلى المقصلة متبوعاً بعناصر من رجاله، فكمموا الشقية وهي راجفة، مرضضة، متورمة الوجه، دكناء اللون، مدماة!..

ثم لوى أحد الجلادين رأس ضحيته من جديد، وفي ذات الوقت، أمسك بالقضيب الحديدي المحمي الذي نجح مساعده بأن يعطيه إياه...

لكن جانّ استفادت من عجز تلك اليد التي كانت تضغط على قذالها، فقفزت كالحِفْث[1] مرة أخيرة، واستدارت بفرح هذياني، وشرّعت صدرها للجلاد وهي تنظر إليه بتحد... بحيث أن الأداة المشؤومة الساقطة على كتفها، قد أصابت ثديها الأيمن عوضاً عنه، فشقت باللحم الحي ثلماً مدخناً... وانتزعت من الضحية، رغم الكمامة، صرخة ذات نبرة فريدة لم ينطلق بمثلها أي صوت بشري!!

وبعد هذه الصرخة، انهارت جانّ تحت وطأة الألم والخجل. لقد غلبت على أمرها... فما عادت تفلتت من

---

(١) حية عظيمة لا تؤذي.

شفتيها أية أنة ، ولا اختلجت أعضاؤها بأية خلجة ، بل أُغمي عليها تماماً هذه المرة !..

فحملها الجلاد وطواها على كتفه ، وهبط بها بخطوات متعثرة سلَّم الخزي والعار !

أما الشعب الذي كان صامتاً ، سواء أكان مستحسناً أم منذهلاً، فلم ينسحب من مخارج الساحة الأربعة ، إلا بعد أن رأى أبواب الكونسيارجيري قد انغلقت على جانّ ، وبعد أن رأى المقصلة تفكك قطعة قطعة ببطء ، وبعد أن ثبت له بأن ليس هناك خاتمة للمأساة المرعبة التي ءرضها البرلمان على أنظاره !

وبقي رجال الشرطة يراقبون انطباعات الحضور حتى اللحظة الأخيرة . وكانت الأوامر الصادرة إليهم واضحة تماماً ، وهي تقضي باستعمال هراواتهم إذا ما بدر أي اعتراض من الشعب .

وقد يكون بدر مثل هذا الاعتراض ، إلا أنه بقي اعتراضاً هادئاً ، وفي داخلية المعترضين . ورويداً رويداً ، استعادت ساحة قصر العدل هدوءها العادي . إلا أنه عند نهاية الجسر ، وبعد أن تفرق الجموع ، دار الحوار التالي بين شابين نزقين ، كانا من جملة الذين انسحبوا من الساحة :

- هل تعتقد يا مكسيميليان، بأن التي وسمها الجلاد بالعار، هي السيدة دي لاموت؟

- فأجابه الثاني، وكان أكبر منه سناً:

- هكذا يقولون، لكني أنا، لا أعتقد...

أضاف الأول، وكان رجلاً قصيراً وضيع المظهر، له عينان مستديرتان كعيني العصفور:

- إذن، بحسب رأيك، ليست هي، أليس كذلك؟ لا، ليست السيدة دي لاموت التي وسموها، أليس كذلك؟ إن عملاء هؤلاء الطغاة قد أجادوا التمثيل... فكي تُبرأ ماري انطوانيت من التهم الموجهة إليها، وجدوا الآنسة أوليفا، وأغروها كي تعترف بأنها زانية... واستطاعوا أن يجدوا دي لاموت مزوَّرة، لتعترف بأنها مزوَّرة... والقصة كلها، قصة مسرحية هزلية كلفت غالياً، ووزعت تكاليفها على الجلاد، وعلى الضحية!..

وكان رفيق هذا الرجل يستمع إليه ويهزّ رأسه، ويبتسم ولا يجاوب! فقال له الرجل القصير الوضيع:

- لماذا لا تجاوب؟ ألا توافقني الرأي؟

فأجابه الآخر:

- من الصعب أن تقبل امرأة بأن توسم في ثديها! فالمسرحية الهزلية التي كلمتني عليها، تبدو لي غير واقعية.

على كل، أنت أعلم مني بالطب، ويجب أن تكون قد اشتميت رائحة اللحم المحروق، إنها لذكرى كريهة!

- قلت لك بأن القضية قضية مال. فهم يدفعون لمدانة كي يدمغوها بوصمة العار افتداءً لغيرها، ويدفعون لها كي تقول ثلاث أو أربع عبارات طنانة، ثم يكممونها عندما يلاحظون بأنها على وشك العدول...

فقال الشخص الذي يدعى مكسيميليان ببرودة:

- رويدك! رويدك! فأنا لن أسلك معك هذه الطريق الوعرة!

فقال الآخر:

- إحِم! إذن، أنت ستعمل كالمتسكعين الآخرين! ستنتهي إلى القول بأنك شاهدت السيدة دي لاموت وقد دمغوها بوصمة العار؟ عجباً منك كم أنت متقلب! فمنذ قليل كنت إيجابياً وعبرت عن رأي مخالف، عندما قلت: «لا أعتقد بأنها هي السيدة دي لاموت من وسموها!»

فأجابه الرجل الشاب مبتسماً:

- وما زلت أعتقد ذلك. لكن البديلة، ليست واحدة من المحكوم عليهن كما تقول أنت.

- إذن، هيا بنا وقل، من هي المرأة التي سربلوها بالعار في ساحة قصر العدل، عوضاً عن السيدة دي لاموت؟

فأجابه الرجل الشاب بصوت مرتفع، وقد أكَّد على كل كلمة قالها بابتسامة عريضة:

- إنها الملكة!..

فتراجع الآخر مقهقهاً ومصفقاً لهذا المزاح، ثم نظر إلى ما حوله وقال:

- إلى اللقاء يا روبسبيار...

فأجابه الآخر:

- إلى اللقاء يا مارات...

وافترقا...[١]

الزواج

★

ظهر ذلك اليوم الذي تمّ فيه تنفيذ حكم المحكمة، خرج الملك من غرفته في قصر فرساي، وقال لأخيه الكونت دي بروفنس بجفاء:

---

(١) مكسيمليان روبسبيار وجان بول مارات، من أبرز قادة الثورة الفرنسية الكبرى التي قضت على ماري انطوانيت بقطع رأسها تحت شفرة المقصلة!

«سأحضر اليوم يا سيدي صلاة عرس، فأرجوك أن لا تكلمني إطلاقاً على الأمور العائلية، سواء أكانت حسنة أم سيئة، لأن ذلك نذير شؤم للعروسين الجديدين اللذين أحبهما وأشملهما برعايتي.»

فقطب الكونت دي بروفنس حاجبيه مبتسماً، ثم انحنى محيياً أخاه، وعاد إلى جناحه.

وأكمل الملك طريقه وسط الممالقين المنتشرين في الأروقة، مبتسماً إلى البعض منهم ومتطلعاً إلى البعض الآخر بجفاء، وفقاً لما رآه من مواقفهم، المؤيدة أو المعارضة، للقضية التي أعطى البرلمان حكمه فيها.

وهكذا وصل الى القاعة المربعة حيث كانت الملكة بانتظاره في أكمل زينتها، يحيط بها النبلاء وسيدات الشرف.

وكانت الملكة، البادي الشحوب عليها تحت الطلاء الأحمر الذي خضبت به وجنتيها، تصغي بانتباه كئيب إلى الأسئلة اللطيفة التي كانت توجَّه إليها من قبل السيدة دي لامبال والسيد دي كالون حول صحتها.

لكنها كانت دائماً تختلس النظرات نحو الباب، كأنها تبحث عن شيء تتحرق لرؤيته، ثم تستدير كمثل من يرتعش عند رؤيته شيئاً ما...

وفجأة صاح أحد حجاب غرفة الملك:

- الملك !..

وفي موجة من المطرزات والدنتيلا والأضواء، رأت ماري انطوانيت لويس السادس عشر، الذي ألقى أول نظرة عليها عندما وطأت قدمه عتبة الباب.

فنهضت ماري انطوانيت وتقدمت ثلاث خطوات نحو الملك، الذي قبّل يدها بأناقة وقال لها:

«إنك تبدين جميلة اليوم يا سيدتي، جميلة جداً!»

فابتسمت الملكة بحزن، ومرة أخرى فتشت عيناها التائهتان عن ذلك المجهول الذي قلنا بأنها كانت تبحث عنه، فسألها الملك:

- إن عروسينا الشابين ليسا هنا؟! ويبدو لي أن الظهر قد أوشك!

فأجهدت الملكة نفسها لدرجة جعلت الطلاء الأحمر يتشقق على خديها وتتساقط ذريراته على الأرض، وأجابت:

- لقد وصل السيد دي شارني وحده يا مولاي، وهو ينتظر في الرواق أوامر جلالتك كي يدخل.

فأجاب الملك دون أن يلاحظ الصمت المطبق الذي أعقب كلام الملكة:

- شارني هنا؟! ليأت! ليأت!

فانفصل عدة نبلاء وساروا باتجاه شارني . وضغطت الملكة بأصابع يدها على قلبها بحركة عصبية ، وجلست مديرة ظهرها إلى الباب . فقال الملك مردداً كلامها :

– فعلاً قد أصبح الوقت ظهراً ، ويتوجب على العروس أن تحضر .

وفيما كان الملك يتلفظ بهذه الكلمات ، بدا شارني في مدخل القاعة ، وقد سمع كلمات الملك الأخيرة ، فأجابه معقباً عليها :

«لتتفضل جلالتك وتقدر تأخر الآنسة تافرني غير المقصود ، فهي منذ وفاة والدها لم تفارق السرير ، واليوم فقط نهضت للمرة الاولى ، وهي ستكون رهن أوامر جلالتك .»

فقال الملك بصوت مرتفع :

– لقد كانت هذه الابنة العزيزة تحب والدها كثيراً ! ولكن بما أنها حظيت بزوج طيب ، فكلنا أمل بأنها ستجد فيه سلوتها وتعزيتها .

فأصغت الملكة ، أو بالأحرى سمعت ولم تقم بأية حركة . والذي لاحقها بعينيه فيما كان شارني يتكلم ، رأى كيف انحسر الدم من جبهتها إلى قلبها ...

والملك الذي لاحظ أن القاعة قد اكتظت بالنبلاء ورجال الدين ، رفع رأسه فجأة وقال :

– هل أنجزت يا سيد دي بريتاي، قرار النفي بحق كاغليوسترو؟

فأجاب الوزير دي بريتاي باحترام:

– نعم يا مولاي.

وأكمل الملك يقول بصوت قوي، وبعد أن عكرت الصمت المطبق في القاعة تنهدة مكبوتة:

– وهذه اللاموت، التي تدعي الانتساب لآل فالوا، ألن توسم اليوم؟

فأجاب وزير العدل:

– يجب أن يكون وسمها قد تمَّ في هذه الآونة يا مولاي.

فقدح الشرر من عيني الملكة، وجرت في القاعة همهمة قد تكون همهمة استحسان، وتابع لويس السادس عشر يقول بصلابة لم تُعهد فيه من قبل:

– إن الكردينال سيغتاظ عندما يعلم بأننا وسمنا شريكته!

وهذه الكلمة «شريكة» تُوجَّه الى متهم برَّأه البرلمان، وإلى شخص يجله الباريسيون، هذه الكلمة التي تحكم على أمير من أمراء الكنيسة ومن خيرة الأمراء الفرنسيين بأنه لص ومزور، قد أطلقها الملك كتحذير رسمي الى رجال الدين، وإلى النبلاء، وإلى أعضاء البرلمان، والى الشعب، كي يدعم بها شرف زوجته. ثم أجال طرفه فيما حوله، بعينيه المتوقدتين

بالغضب والمهابة اللتين لم يشعر بمثلهما أحد في فرنسا منذ أن أطبق لويس الرابع عشر عينيه إطباقتهما الأخيرة.

وهذا الكلام الذي هدف الملك من ورائه إلى الانتقام من كل الذين تآمروا لإلحاق الخزي والعار بالعائلة المالكة، لم يقابل بأية نأمة أو أية كلمة تدل على الموافقة والاستحسان. عندئذ، تقدم الملك من الملكة التي مدت له يديها الاثنتين تعبيراً عن امتنانها العميق.

وفي تلك اللحظة، ظهرت في نهاية الرواق الآنسة دي تافرني بثوبها الابيض كخطيبة، وبوجهها الناصع كزنبق الحقول. وكان شقيقها، فيليب دي تافرني، يمسك بيدها.

فابتسم الممالقون عند مرور الخطيبة، وكل السيدات اتخذن أماكن لهنَّ وراء الملكة، واصطف الرجال كلهم وراء الملك.

فتقدم القاضي الملكي سيفران، ممسكاً بيد أوليفيا دي شارني، إلى أمام اندريه وشقيقها وحيّاهما، واختلطا بجمهور الأقارب والاصدقاء الأخصاء.

وأكمل فيليب طريقه دون أن تلتقي عيناه عيني أوليفيا، ودون أن ينبه أندريه بالضغط على أصابع يديها، بأنه يتوجب عليها أن ترفع رأسها. فقط عندما وصل الى امام الملك، ضغط على يد شقيقته التي كانت كميتة مكهربة، ففتحت

عينيها الواسعتين ورأت لويس السادس عشر الذي ابتسم لها بطيبة .

ثم حيَّت وسط همهمة الحضور الذين صفقوا لجمالها ، وقال الملك بعد أن أخذ بيدها :

«لقد اضطررت يا آنستي أن تنتظري نهاية الحداد كي تتزوجي من السيد دي شارني . ولو أني لم أطلب منك الإسراع بهذا الزواج ، لربما منحك خطيبك ، رغم نفاد صبره ، شهراً آخر قبل تحقيق أمنيته . لأنك ما زلت تتألمين كما بلغني ، وأنا محزون لحزنك . لكني مضطر لتأمين السعادة إلى النبلاء الطيبين الذين خدموني باخلاص كالسيد دي شارني ، واذا لم تتزوجيه اليوم ، لن يتاح لي أن أحضر زواجكما ، لأني ذاهب في رحلة طويلة مع الملكة . لذلك ، يسرني أن أوقع عقد زواجكما اليوم ، وأن يتم هذا الزواج في كنيستي الخاصة . هيا وقدمي احترامك للملكة يا آنستي واشكريها ، لأن جلالتها كانت جدُّ عطوف عليك .»

وفي ذات الوقت ، أمسك الملك بيد أندريه ، وقادها بنفسه الى ماري انطوانيت .

كانت الملكة منتصبة راجفة الركبتين ، جامدة اليدين ، فلم تجرؤ أن ترفع عينيها ! لكنها رأت شيئاً أبيض يقترب وينحني

أمامها ، وكان هذا الشيء الابيض فستان العرس الذي ارتدته أندريه .

وبعد أن أعاد الملك يد الخطيبة إلى شقيقها فيليب ، وأعطى هو يده الى ماري انطوانيت ، قال بصوت عال :

«هيا إلى الكنيسة أيها السادة !»

فسار الجمع كله بصمت وراء صاحبي الجلالة ، ليَحتل كل واحد مكانه على مقاعد الكنيسة الملكية .

وعندما بدأ القداس، كانت الملكة تصغي حانية على مركع الصلاة ، ورأسها مدفون بين يديها ... لقد صلَّت من كل قلبها ، وصعَّدت الى السماء ابتهالات أشدَّ حرارة من نفثات شفتيها التي التهمت دموع عينيها ...

أما شارني ، الذي بدا شاحب اللون بهياً ، فقد شعر بثقل النظرات المنصبة عليه ، ومع هذا بقي محافظاً على هدوئه وشجاعته اللتين عُرف بهما عندما كان على متن سفينته ، يجابه الأعاصير وقذائف السفن الحربية الانكليزية . لكن الألم كان يحزُّ في أعماق قلبه !

وكانت عين فيليب لا تفارق أخته ، التي رآها ترتعش وتترنح ، فتهيأ لينجدها عند الحاجة بكلمة ، أو بحركة عطف وتعزية .

لكن أندريه لم تكذب نفسها . فبقي رأسها مرفوعاً ،

وبقيت واقفة بقوة إرادتها، رغم أنها كانت كالشمعة التي يتذبذب نورها وتذوب من أجل غيرها.

ولم تصعّد أندريه أية صلاة نحو السماء، ولا تمنت شيئاً لمستقبلها، لأنها لم تكن تأمل شيئاً أو تخاف على شيء. فهي لا تمت بصلة الى البشر، ولا إلى الله!

وعندما قرع جرس الكنيسة وابتدأ الكاهن صلاته، وشعرت بالسر الإلهي يحيق بها، قالت في نفسها متسائلة:

«ولكن هل أنا مسيحية؟ هل أنا كائن كبقية الكوائن، ومخلوقة كبقية المخلوقات؟ هل خلقتني من أجل الرأفة والشفقة، أنت الذي يدعونك الله القادر على كل شيء، والسيد المطلق على كل شيء؟ أنت الذي يسبحون بعدلك، والذي عاقبتني من دون أن ارتكب أية خطيئة؟ أنت الذي يدعونك إله السلام والمحبة، الذي من أجله علي أن أعيش في جو الاضطراب، والغضب، والثأر الدامي! أنت الذي من أجله، علي أن أتزوج عدوي اللدود، لأنك جعلتني لا أقوى إلا على حب هذا الرجل من دون سواه!»

وتابعت تقول:

«لا، لا، إن أمور الدنيا وشرائع الله لا تعنيني! فأنا بدون شك ملعونة قبل أن أولد، وولادتي جاءت خارج الشريعة والانسانية!»

ثم عادت إلى ماضيها المؤلم، فدمدمت قائلة:

«غريب! غريب! هناك، بالقرب مني، رجل يكفي أن يُلفظ اسمه أمامي كي يمتلئ قلبي سعادة! ولو جاء هذا الرجل وطلب يدي بنفسه، لأُجبرت على الارتماء على قدميه وطلب المغفرة منه على غلطتي السابقة، على غلطتك يا إلهي! وهذا الرجل الذي أعبده، وربما هو يرفضني، قد جاء اليوم يتزوجني، وهو الذي سيطلب مني العفو جاثياً على ركبتيه! غريب! نعم، نعم، بل في منتهى الغرابة!»

وفي هذه اللحظة، طرق صوت الكاهن أذنها بقوله:

«جاك أوليفيا دي شارني، هل تودُّ أن تتخذ ماري أندريه دي تافرني، زوجة شرعية لك امام الله والناس؟»

فأجاب أوليفيا بصوت حازم:

- نعم!..

وأكمل الكاهن يقول:

«وأنت يا ماري-أندريه دي تافرني، هل تودين أن تتخذي جاك أوليفيا دي شارني، زوجاً شرعياً لك أمام الله والناس؟»

فأجابت أندريه بنعم... ولكن بلهجة فظة تقريباً، جعلت الملكة ترتعش وتختلج أكثر من أية امرأة في الحفل!

وعندئذ، أدخل شارني المحبس الذهبي في إصبع زوجته، فانزلق من دون أن تشعر اندريه باليد التي قدمته لها!

وبعد برهة قصيرة، انتهت مراسم الزفاف ونهض الملك، فأقبل كل الممالقين الى الرواق يهنئون العروسين ويتمنون لهما زواجاً سعيداً.

وأثناء عودته، أمسك القاضي الملكي دي سيفران بيد أندريه، وتمنّى لها باسم أوليفيا السعادة التي تستحقها.

فشكرت أندريه القاضي الملكي من دون أن تنبسط أساريرها. لكنها رجت خال زوجها بأن يقودها الى الملك بسرعة كي تشكره، لأنها تشعر بضعف ووهن!

وفي ذات الوقت، غزا وجهها شحوب مخيف!.. فرآها شارني من بعيد ولم يجرؤ أن يتقدم نحوها.

واجتاز القاضي الملكي القاعة الكبرى قائداً أندريه إلى الملك، الذي قبلها في جبهتها وقال لها:

«اذهبي إلى الملكة يا سيدتي الكونتس، فجلالتها تود أن تشاركك فرحة العرس.»

وبعد هذه الكلمات التي اعتقدها الملك مفعمة بالملاطفة والرقة، انسحب متبوعاً بكل أهل البلاط، تاركاً الزوجة الجديدة بين ذراعي فيليب، مضطربة، مشتتة الافكار! ثم دمدمت قائلة:

– آه! هذا كثير! هذا كثير يا فيليب! ويبدو لي أني تحملت فوق طاقتي!..

فقال لها شقيقها بصوت منخفض :

– تشجعي يا أختي ، فلم يعد أمامك سوى هذه التجربة .

فأجابت أندريه :

– لا ، لا ، لا أستطيع أن أتحمل ، فقوة المرأة محدودة ، قد أعمل ما يطلبونه مني ، ولكن ثق يا فيليب بأني سوف أموت إن هي كلمتني أو جاملتني !!

فقال لها فيليب :

– تموتين إذا اقتضى الأمر بأن تموتي يا شقيقتي العزيزة ، وعندئذ ستكونين أكثر سعادة مني . لأني أنا ، أودّ لو كنت مائتاً !

تلفظ فيليب دي تافرني بهذه الكلمات بلهجة حزينة وكئيبة ، مما جعل أندريه الممزقة القلب ، تندفع إلى الأمام وتدخل غرفة الملكة .

وعندما رآها أوليفيا تمرّ ، سوّى طول السجادات كي لا تلامس فستانها ، وبقي وحده في القاعة مع فيليب ، خافضاً رأسه كصهره ، ومنتظراً نتيجة هذه المقابلة بين الملكة وأندريه .

★

كانت الملكة في غرفتها الواسعة عندما أقبلت عليها أندريه . ورغم أن الشهر كان شهر حزيران ، فالملكة كانت

تصطلي النار وهي جالسة على مقعدها الوثير، ورأسها مقلوب الى الوراء، وعيناها مغمضتان، ويداها مضمومتان كأنها ميتة!

والسيدة دي ميزاري التي أدخلت أندريه، أرخت الستائر، وأغلقت الأبواب، وخرجت من جناح الملكة.

فوقفت أندريه مرتعشة من التأثر والغضب، ومرتعشة أيضاً من ضعفها، وأخذت تنتظر خافضة العينين أن تسمع كلاماً يتناول قلبها... كانت تنتظر صوت الملكة كما ينتظر المحكوم عليه بالاعدام الفأس التي ستفصل رأسه عن جسده!

وبالتأكيد، لو أن ماري انطوانيت حركت شفتيها في تلك اللحظة، لكانت أندريه المنهوكة القوى قد سقطت أرضاً قبل أن تفهم أو تسمع.

ومرت دقيقة، كانت بمثابة قرن من العذاب الرهيب، لم تبدر من الملكة خلالها أية حركة.

وأخيراً، نهضت ماري انطوانيت مستندة بيديها الاثنتين إلى ذراعي مقعدها، وتناولت عن الطاولة ورقة تفلتت عدة مرات من بين أصابع يديها المرتعشتين...

وكان الكلام بين هذين القلبين غير ضروري. فالملكة ليست بحاجة لأن تثير ذكاء أندريه، وأندريه لا يمكنها أن تشك لحظة بكبر نفس الملكة.

واية امرأة سوى أندريه، كانت افترضت بأن ماري انطوانيت ستقدم لها مهراً عظيماً، او توقيعاً على صك ملكية، أو عقداً رسمياً لاحتلال مركز مرموق في البلاط.

أما أندريه، فقد حزرت بأن الورقة تحتوي على شيء آخر. فتناولتها، ومن دون ان تتحرك من مكانها، أخذت تقرأها، بعد أن هبطت يد ماري انطوانيت، ورفعت عينيها ببطء نحو أندريه.

وهذا ما جاء في تلك الورقة:

«أندريه، أنت من أنقذني. فشرفي هو هبة منك، وحياتي هي لك. فباسم هذا الشرف الذي كلفك غالياً، أقسم لك أن باستطاعتك مناداتي باسم شقيقتك. جرّبي، ولن تريني احمريت أبداً...

«وإني إذ أضع هذه الرسالة بين يديك، أضعها كعربون تقدير لجميلك، وهي المهر الذي أهبك إياه.

«إن قلبك هو أنبل القلوب كلها، وكم يسعدني أن أقدم لك الآن هذا العرض!»

«الامضاء: ماري انطوانيت دي لورين دوتريش»

فتطلعت اندريه بدورها إلى الملكة، فرأتها تنتظر الجواب مثقلة الرأس، والدموع تترقرق في عينيها...

فاجتازت الغرفة بتمهل نحو النار التي أوشكت على

الانطفاء، وحرقت على لهيبها المتبقي رسالة الملكة ... ثم عادت فحيتها باحترام عميق دون أن تتلفظ بكلمة، وخرجت من الغرفة الملكية ...

فتقدمت ماري أنطوانيت خطوة كي توقفها، كي تلحق بها، لكن الكونتس العنيدة، تركت الباب مفتوحاً، وذهبت لتنضم الى شقيقها في القاعة المجاورة.

واستدعى فيليب شارني اليه وأخذ بيده ووضعها بيد أندريه، فيما كانت الملكة على عتبة غرفتها، تشق بيدها سجف الباب لتراقب هذا المشهد المؤلم.

لقد ذهب شارني كأنه خطيب الموت الذي جاءته به خطيبته الدكناء. ذهب وهو يتلفت الى الوراء ليرنو الى وجه ماري انطوانيت الشاحب، وجه الملكة التي أحبته وأحبها. وخطوة بعد خطوة، توارى نهائياً عن أنظارها ...

وكانت هناك عربتان تنتظران على باب القصر، فصعدت أندريه إلى الاولى. وفيما كان شارني يهم لأن يلحق بها، قالت له الكونتس الجديدة:

- أعتقد يا سيدي، بأنك ستسافر إلى بيكاردي!

فأجابها شارني:

- نعم يا سيدتي.

فقالت له:

– وأنا يا سيدي الكونت، سأسافر إلى البلد الذي ضمّ رفات والدتي... نوداعاً!

فانحنى شارني دون أن يجاوب، وانطلقت خيول العربة بأندريه وحدها!..

عندئذ، قال أوليفيا إلى فيليب:

– هل ستبقى معي لتدلل لي بأنك عدوي؟

فأجابه فيليب:

– لا يا سيدي الكونت، أنت لست عدوي، أنت صهري!

فمدّ له أوليفيا يده مصافحاً، ثم صعد بدوره الى العربة الثانية وانطلق.

وبقي فيليب وحده صامتاً ساهماً... ثم قال بصوت مخنوق:

«هل احتفظت يا إلهي، بقليل من الفرح في السماء، من أجل الذين أدوا واجبهم على الارض؟»

ثم ألقى وهو مكفهرُ الوجه، نظرة أخيرة على القصر الملكي، وتابع يقول:

«أتكلم على الفرح!.. وما جدوى ذلك!.. وحدهم يحق لهم أن يأملوا بحياة جديدة، أولئك الذين سيجدون في الأعالي القلوب التي كانت تحبهم. أما أنا، فما أحبني

شخص على هذه البسيطة! أنا، ليس لي ما لهم، حتى حلاوة الاشتياق إلى الموت!»

ثم نظر الى السماء نظرة لا حقد فيها ولا ضغينة، نظرة تبكيت من مسيحي مزعزع الايمان، وتوارى كما أندريه وشارني، في الزوبعة الأخيرة لذلك الإعصار الذي هبّ ليقتلع عرشاً، بسحقه الكثير من الامجاد والكثير من الحب!!

عقد الملكة

تُعدُّ رواية «عقد الملكة» من أشهر الروايات التاريخية والغرامية. فأحداث هذه الرواية الشيّقة جداً، تدور حول عصر وحياة الملكة الفاتنة ماري انطوانيت التي قطعت الثورة الفرنسية رأسها الجميل بواسطة المقصلة. أما قصة العقد فيها، فهي قصة غرام جنوني بالملكة ماري انطوانيت من قبل أمير كردينال... وكانت وراء هذا العقد والغرام كونتس مخادعة من العائلة المالكة. أما الملكة التي وقعت في خديعة الكونتس المذكورة، فقد أُغرمت هي الأخرى بأحد فرسان الملك الذي بادلها الغرام بأشد منه، لكن الملكة بقيت محافظة على مكانتها كملكة فرنسا، والفارس بقي متهيباً الموقف كأحد رعايا زوجها لويس السادس عشر.

لذلك كانت العلاقة الغرامية بين الملكة والفارس علاقة مأساوية مثيرة، نترك للقارئ ان يكتشف تفاصيلها، كما نترك له ان يكتشف سرّ «عقد الملكة» وما رافقه من محاكمات أقامت فرنسا وأقعدتها في ذلك العصر...